التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة الأعراف

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السادس

الدرر السنية
www.dorar.net

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

٦

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر – سورة الأعراف – المجلد السادس/ مؤسسة الدرر السنية

– القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٧هـ

٨٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٦-٣٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة الأعراف – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧٫٦ ١٤٣٧/٦٧٦٤

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٦٧٦٤

ردمك: ٦-٣٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت:٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس:٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الأعراف

(١)

سُورةُ الأعرافِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بِسُورةِ الأعرافِ(١):

- فعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قَرَأ في صلاةِ الـمَغرِبِ بسورةِ الأعرافِ؛ فَرَّقَها في رَكعتَينِ))(٢).

- وعَن زَيدِ بنِ ثابتٍ: أنَّه قال لِمَروانَ بنِ الحَكَمِ: ((ما لي أَراكَ تَقرَأُ في المَغرِبِ بِقِصارِ السُّوَرِ، وقد رأيتُ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم يقرأُ فيها بأطوَلِ الطُّولَيَينِ؟ قال مروانُ: قُلتُ: يا أبا عبدِ اللهِ، ما أطوَلُ الطُّولَيَينِ؟ قال: الأعرافُ))(٣).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الأعرافِ مَكِّيَّةٌ(٤)؛ ونقَلَ غَيرُ واحِدٍ الإجماعَ على ذلك(٥).

(١) وجْهُ تَسمِيَتِها بهذا الاسمِ: هو ذِكْرُ لَفظِ الأعرافِ، وشأنِ أهلِ الأعرافِ فيها دُونَ غَيرِها مِنَ السُّورِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥).

(٢) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٩١)، والطبراني في ((مسند الشاميين)) (٣٣٦٢)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٤٠٣٧).
حسَّن إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٣/ ٣٨٣)، وابنُ الملقن في ((البدر المنير)) (٣/ ١٨٣)، وقال ابنُ القيِّم في ((تهذيب السنن)) (٣/ ١٠٩): إسنادُه صحيحٌ، وأصلُه في الصحيح. وصحَّحه الشوكاني في ((نيل الوطار)) (٢/ ٢٥٨)، والألباني في ((صحيح النسائي)) (٩٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٦٤) وليس فيه التصريح بقراءة الأعراف، والنسائي (٩٩٠) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨).

(٥) ممن نقلَ الإجماعَ على ذلك الفيروزآبادي، ومحمد رشيد رضا. يُنظَر ((بصائر ذوي التميز)) للفيروزآبادي (١/ ٢٠٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٦٠).
وقيل: إنَّها مكيَّةٌ غيرَ ثماني آياتٍ، مِن قولِه تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾. وقيل: إنَّها مكيَّةٌ إلَّا خَمسَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى =

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ المقاصِدِ التي تضَمَّنَتْها سورةُ الأعرافِ:

١- تَسليةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم في تَكذيبِ الكفَّارِ إيَّاه[١].

٢- بَيانُ أُصُولِ العقائِدِ، وكُلِّياتِ الدِّينِ[٢].

٣- بيانُ رِحلةِ البشَرِيَّةِ مِن لَدُنْ خَلْقِ آدَمَ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم إلى قيامِ السَّاعةِ[٣].

٤- إنذارُ مَن أعرَضَ عمَّا دعا إليه الكِتابُ في السُّوَرِ الماضِيَةِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

من أبرَزِ مَوضوعاتِ سُورةِ الأعرافِ:

١- التَّنويهُ بِعَظَمةِ الكِتابِ الكَريمِ.

٢- النَّهيُ عن اتِّخاذِ الشُّركاءِ مِن دُونِ اللهِ، وإنذارُ المُشركينَ مِن سُوءِ عاقِبةِ الشِّركِ في الدُّنيا والآخرةِ، ووَصْفُ ما حَلَّ بالمُشركينَ والَّذينَ كَذَّبوا الرُّسُلَ؛ مِن سُوءِ العَذابِ في الدُّنيا، وما سيحُلُّ بهم في الآخِرةِ، وإقامةُ الأدلَّةِ على وحدانيةِ اللهِ.

٣- ذِكْرُ وَزنِ الأعمالِ يَومَ القيامةِ، وتذكيرُ النَّاسِ بِنعمةِ خَلقِ الأرضِ،

= آخِرِ الخَمسِ. وقيل: إنَّها مكيَّةٌ غيرَ ثلاثِ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى آخِرِ الثَّلاثِ الآياتِ. وقيل: إنَّها مكيَّةٌ إلَّا آيةً واحدةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ...﴾ إلى آخِرِها.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ١٠٣).

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٤٧).

وتمكينِ النَّوعِ الإنسانيِّ مِن خَيراتِ الأرضِ، وبنعمةِ اللهِ على هذا النَّوعِ بخَلْقِ أصْلِه وتفضيلِه.

٤- ذِكرُ خَلقِ آدَمَ، وإباء إبليسَ مِنَ السَّجدةِ لآدَمَ، ووسوسَته لهما للأكْلِ مِنَ الشَّجَرةِ، وما نشَأَ مِن عَداوةِ جِنسِ الشَّيطانِ لِنَوعِ الإنسانِ، وتحذيرُ النَّاسِ مِنَ التَّلَبُّسِ ببقايا مَكرِ الشَّيطانِ؛ مِن تَسويلِه لهم حِرمانَ أنفُسِهم الطَّيِّباتِ، ومِنَ الوُقوعِ فيما يَزُجُّ بهم في العذابِ في الآخرةِ.

٥- وصفُ أهوالِ يَومِ الجَزاءِ للمُجرمينَ، وكراماتِه للمُتَّقينَ.

٦- ذِكرُ قِصَّةِ أصحاب الأعرافِ، والتذكيرُ بالبَعثِ، وتقريبُ دَليلِه.

٧- النَّهيُ عن الفسادِ في الأرضِ التي أصلَحَها اللهُ لفائدةِ الإنسانِ، والتَّذكيرُ ببَديعِ ما أوجَدَه اللهُ لإصلاحِها وإحيائِها.

٨- ذِكرُ أحوالِ الرُّسُلِ مع أقوامِهم المُشركينَ، وما لاقَوْه مِن عنادِهم وأذاهم، بدأً بِقِصَّةِ نوحٍ والطُّوفانِ، ثم ذِكْرِ هُودٍ وهلاكِ عادٍ، ثمَّ حديثِ صالحٍ وقَهرِ ثَمودَ، ثمَّ خبَرِ لُوطٍ وقَومِه، ثمَّ خبَرِ شُعَيْبٍ وأهلِ مَدْيَنَ.

٩- تَخويفُ الآمنينَ مِن مَكرِ اللهِ، وإنذارُهم بعَدَمِ الاغترارِ بإمهالِ اللهِ النَّاسَ، قبل أن يُنزِلَ بهم العذابَ؛ إعذارًا لهم أن يُقلِعُوا عن كُفْرِهم وعِنادِهم؛ فإنَّ العَذابَ يأتِيهم بغتةً بعد ذلك الإمهالِ.

١٠- تَفصيلُ أَحوالِ موسى وفِرعونَ والسَّحَرةِ، واستغاثةُ بني إسرائيلَ، وذِكرُ الآياتِ المُفَصَّلاتِ، وحديثُ خِلافةِ هارونَ، وميقاتُ موسى، وقصَّةُ عِجْلِ السَّامِريِّ في غَيبَةِ موسى، ورجوعُ موسى إلى قَومِه، ومُخاطَبَتُه لأَخيه هارونَ.

١١- ذِكرُ بِشارةِ اللهِ بِبَعثةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، وصِفَة أُمَّتِه، وفَضْلِ دِينِه.

١٢- الإشارةُ إلى ذِكرِ الأَسباطِ، وقصَّةِ أَصحابِ السَّبْتِ.

١٣- مَوعظةُ المشركينَ كيف بدَّلُوا الحنيفيَّةَ، وتقَلَّدوا الشِّركَ، وضَرَبَ لهم مَثلًا بمَن آتاه اللهُ الآياتِ، فوَسْوَس له الشَّيطانُ، فانسلَخَ عن الهُدى.

١٤- وَصْفُ حالِ أهلِ الضَّلالةِ، ووَصْفُ تكذيبِهم بما جاء به الرَّسولُ، ووَصْفُ آلِهَتِهم بما يُنافي الإلهيَّةَ، وأنَّ لله الصِّفاتِ الحُسنى، صفاتِ الكَمالِ.

١٥- أمْرُ اللهِ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم والمُسلمينَ؛ بِسَعةِ الصَّدرِ، والمُداومةِ على الدَّعوةِ، وتَحذيرُهم مِن مَداخِلِ الشَّيطانِ؛ بِمُراقبةِ اللهِ بِذِكْرِه سِرًّا وجَهرًا، والإقبالِ على عبادَتِه.

١٦- الحديثُ عن العهدِ الذي أخَذه الله على البشرِ؛ بأنْ يعبدُوه، ولا يُشْركوا به شيئًا، والحضُّ على التفكُّرِ والتدبُّر في ملكوتِ السمواتِ والأرضِ.

الآيات (١-٣)

﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَرَجٌ﴾: الحَرَج: الضِّيقُ، وأصلُ (حرج): تجمُّعُ الشَّيءِ وضِيقُه، ومنه الحَرَجُ: جمْعُ حَرَجةٍ: وهي الشَّجَرةُ المُلتَفُّ بها الأشجارُ، لا يدخُلُ بينها وبينها شَيءٌ؛ لشِدَّةِ التفافِها بها[1].

﴿لِتُنْذِرَ﴾: أي: لتُخَوِّفَ، أو لتُعْلِمَ بما تُحذِّرُ منه، وأصلُ الإنْذارِ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، أو الإبْلاغُ[2].

﴿وَذِكْرَى﴾: أي: تذكِرَةً ومَوعِظَةً، وأصلُ الذِّكر: خِلافُ النِّسيانِ[3].

المَعْنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ العظيمةُ بالحُروفِ المُقطَّعةِ؛ للإشارة إلى إعجازِ القُرآنِ؛ إذ تشير إلى عجزَ الخَلْقِ عن معارَضَتِه بالإتيانِ بشيءٍ مِن مِثلِه، مع أنَّه مُركَّبٌ من هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها!

ثم خاطبَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بأنَّ هذا القرآنَ كتابٌ أنزَلَه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٤، ٥٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

إليه، وأمره ألا يَضيقَ صدرُه من إبلاغِه، والإنذارِ به، وألا يكونَ لديه شَكٌّ أنَّه مُنزَّلٌ مِن عندِ الله تباركَ وتعالى؛ أنزَلَه إليه ليُخَوِّفَ به الكافرينَ، وموعظةً للمؤمنينَ.

ثم أمرَ اللهُ تعالى النَّاسَ أن يتَّبعوا القرآنَ المُنَزَّلَ مِن عندِه، ونهاهم أن يتَّبعوا مِن دُونِه أولياءَ، وأخبَرَ تعالى أنَّ النَّاسَ قليلًا ما يتَّعِظونَ ويعتَبِرون، فيُراجِعونَ الحَقَّ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾.

تقدَّم الكلامُ على هذه الحروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ[١].

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾.

أي: هذا القرآنُ- يا محمَّدُ- كِتابٌ أنزَلَه اللهُ تعالى إليك[٢].

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾.

أي: فلا يَضِقْ صدرُك- يا محمَّدُ- مِن إبلاغِ القُرآنِ، والإنذارِ به، ولا يكُنْ لديكَ شكٌّ واشتباهٌ في أنَّه مُنزَّلٌ مِن عندِ الله تبارك وتعالى، فلْيَنشرِحْ له صَدرُك ويتَّسِعْ، ولْتطمَئِنَّ به نفسُك، واصبِرْ على ما كُلِّفْتَ به مِن أثقالِ النُّبوَّةِ، وتَحمَّلِ الأذى، ولا تخشَ لائمًا، ولا مُعارِضًا[٣].

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

(١) يُنظر ما تقدَّم في (١/ ٦٤) من هذا الكتاب.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٨-١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤-٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٣-١٦).

أي: هذا كتابٌ أنزلناه إليك- يا محمَّدُ- لِتخوِّفَ به الكافرينَ، وموعظةً للمُؤمنينَ(١).

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه أنزَلَ هذا الكتابَ العظيمَ على هذا النبيِّ الكريمِ؛ ليُنذِرَ به ويُذَكِّرَ- أَمَرَ من ذُكِّروا وأُنذِروا بما ينبغي أن يفعلوا تجاه ذلك الإنذارِ والتَّذكيرِ، الذي بعَث به رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال(٢):

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

أي: اتَّبِعوا- أيُّها النَّاسُ- القُرآنَ الذي جاءكم مِن عندِ اللهِ الذي خلَقَكم، وهو مالِكُكم ومُدبِّرُكم(٣).

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾.

أي: ولا تتَّبعوا شيئًا غيرَ ما أَنزَلَ إليكم ربُّكم؛ فتَخرُجوا عن الحَقِّ الذي جاءكم به الرَّسولُ إلى غيرِه، فتكونوا قد عدَلتُم بذلك عن حُكمِ اللهِ إلى حُكمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٦-١٨).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠-٣٤).

آخَرينَ تتولَّونَهم، وتتَّبِعون أهواءَهم(١).

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: تَذكُّرُكم تذكُّرٌ قليلٌ لا يُجدي شيئًا، فقليلًا ما تتَّعظون وتَعْتَبرون، فتُراجعونَ الحقَّ(٢).

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ وأمثالِها مِن الآياتِ زَواجِرُ عَظيمةٌ، ينبغي لنا أن نعتبِرَها؛ لأنَّ خالِقَنا جلَّ وعلا بَيَّن لنا أنَّه أنزلَ على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم هذا الكتابَ؛ لِيُخوِّفَ به الخَلقَ مِن عقوباتِ خالقِ السَّموات والأرضِ وسَخَطِه؛ فإنَّه الجبَّارُ الأعظَمُ، الذي إذا سَخِطَ عاقَبَ العقوبةَ المُهلِكةَ المُستأصِلةَ، فبهذا يجِبُ علينا أن نتأمَّلَ في معاني القرآنِ، ونعرِفَ أوامِرَ ربِّنا التي أمَرَنا بها فيه، ونواهِيَه التي نهانا عنها، ونخافَ مِن هذا الإنذارِ والتَّهديدِ، الذي أُنزِلَ هذا القرآنُ على الرَّسولِ ليفعَلَه بمن لم يعمَلْ بهذا القرآنِ العَظيمِ؛ فالإنسانُ يجِبُ عليه أن يتدبَّرَ هذا القرآنَ العظيمَ، وينظُرَ أوامِرَه، وينظُرَ نواهِيَه، فيُحِلَّ حلالَه، ويُحرِّمَ حَرامَه، ويعتقِدَ عقائِدَه، ويعمَلَ بمُحكَمِه، ويؤمِنَ بمُتشابِهِه، ويعتبِرَ بما فيه مِن الأمثالِ، ويَلينَ قَلبُه لِما فيه من المواعِظِ، وضُروبِ الأمثالِ، فهذا الإنذارُ لا ينبغي للمُسلمِ أن يُهمِلَه، ويُعرِضَ عنه صَفحًا(٣).

٢- قَولُه تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ المتبادِرُ هنا مِنَ النَّهيِ عَنِ اتِّباعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤-٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧).

الأولياءِ مِن دُونِه تعالى؛ هو النَّهيُ عن طاعةِ كُلِّ أحدٍ مِنَ الخَلْقِ في أمْرِ الدِّينِ؛ غَير ما أنزَلَ اللهُ مِن وَحْيِه، كما فعلَ أهلُ الكِتابِ في طاعةِ أحبارِهم ورُهبانِهم؛ فيما أحَلُّوا لهم، وزادوا على الوَحْيِ مِنَ العباداتِ، وما حَرَّمُوا عليهم مِنَ المباحاتِ، وكلُّ مَن أطاع أحدًا طاعةً دِينيَّةً في حُكمٍ شَرعيٍّ لم يُنْزِلْه رَبُّه إليه؛ فقد اتَّخذه رَبًّا، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[1][التوبة: ٣١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ فبَناه لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه، ولم يَقُل: (أنزَلَ اللهُ)، أو: (أنزلناه)؛ إيجازًا مُؤذِنًا بأنَّ الـمُنزِلَ مُستغنٍ عَنِ التَّعريفِ، وعن إسنادِه إلى الضَّميرِ أو الاسمِ الصَّريحِ؛ فإنَّ هذا الكتابَ البديعَ، لا يمكِنُ أن يكون إلَّا مِن فوقِ ذلك العَرشِ الرَّفيعِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ دلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى رَفَعَ الحرجَ عن الصدور بكتابِه، وكانت قبلَ إنزالِ الكتابِ في أعظمِ الحرجِ والضِّيقِ؛ فلما أنزل كتابَه ارتفعَ به عنها ذلك الحرجُ، وبقي الحرجُ والضيقُ على مَن لم يُؤْمِن به، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[3][الأنعام: ١٢٥].

٣- قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ استَدلَّ به بعضُهم على أنَّ المباحَ مأمورٌ به؛ لأنَّه من جملةِ ما أنزَلَ اللهُ، وقد أَمَرَنا باتِّباعِه[4].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، قال: ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٥١٨).
(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص:١٢٦).

وإنَّما أُنزِلَ على الرَّسولِ؛ ليُفيدَ أنَّه مُنَزَّلٌ على الكُلِّ، بمعنى أنَّه خِطابٌ للكُلِّ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أمرٌ باتباع ما أنزلَ اللهُ على رسوله، ونهيٌ عن اتِّباعِ غيره، فما هو إلَّا اتِّباعُ المُنزَّلِ؛ أو اتِّباعُ أولياء مِن دونه، فإنَّه لم يجعلْ بينهما واسطةً، فكلُّ مَن لا يَتَّبعُ الوحيَ؛ فإنما يَتَّبعُ الباطلَ، واتَّبَعَ أولياءَ مِن دون اللهِ[٢].

بلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ فيه النَّهيُ في اللَّفظِ- في قوله: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾- للحَرَجِ، والمرادُ المخاطَبُ؛ مبالغةً في النهيِ عن ذلك، كأنَّه قيل: لا تتسبَّبْ في شيءٍ ينشأُ منه حَرَجٌ، وهو من بابِ «لَا أَرَيَنَّك هاهنا»؛ فالنَّهيُ في اللَّفظِ للمُتكلِّم، والمرادُ المخاطَبُ، أي: لا تكُنْ بحَضرتي فأراكَ، ومثلُه: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾[٣].

- والتنكيرُ في قولِه: ﴿كِتَابٌ﴾ نَوعيٌّ؛ لدَفعِ الاستِبْعادِ، أي: استبعادِ المُشركينَ، وإنكارِهم أنْ يكونَ القُرآنُ مِن عندِ اللهِ، فذَكَّرَهم اللهُ بأنَّه كتابٌ مِن نَوعِ الكُتُبِ المُنَزَّلةِ على الأنبياءِ، فكَما نزَلَت صُحُفُ إبراهيمَ، وكتابُ موسى، كذلك نَزَل هذا القُرآنُ. أو أُريدَ بالتَّنكيرِ التَّعظيمُ، أي: هو كِتابٌ عظيمٌ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٧).

وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّ الإسنادَ في كِلتا الحالتَينِ - ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، و﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾- للاختصاصِ والتَّكريمِ، والتَّحضيضِ والاستجاشةِ؛ فالذي يُنزِلُ له ربُّه كتابًا، ويختارُه لهذا الأمرِ، ويتفضَّلُ عليه بهذا الخَيرِ؛ جديرٌ بأن يتذكَّرَ، وأن يشكُرَ، وأن يأخُذَ الأمرَ بقوَّةٍ، ولا يَستحسِرَ. يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥).

تَنويهًا بشَأنِه، فصار التَّنكيرُ في معنى التَّوصيفِ. أو أُريد بالتَّنكيرِ التَّعجيبُ مِن شأنِ هذا الكِتابِ في جميعِ ما حفَّ به مِنَ البلاغةِ والفَصاحة والإعجازِ والإرشادِ[١].

٢- **قوله: ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** فيه إيجازٌ بحَذفِ مُتعَلِّقِ ﴿لِتُنْذِرَ﴾؛ لظُهورِ تقديرِ المَحذوفِ مِن ذِكرِ مُقابِلِه المذكورِ في قَولِه: ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، والتَّقديرُ: لِتُنذِرَ به الكافرينَ[٢].

- وصرَّحَ بمتعَلِّقِ الذِّكْرى دون مُتعَلِّقِ ﴿لِتُنْذِرَ﴾؛ تنويهًا بشأنِ المؤمنينَ، وتَعريضًا بتحقيرِ الكافرينَ تِجاهَ ذِكرِ المُؤمنينَ، ولأنَّ المُؤمِنِينَ هم الذين ينتفعونَ بالمواعِظِ، وللإيذانِ باختِصاصِ الإنذارِ بالكَفرةِ، أي: لتُنذِرَ به المشرِكين، وتُذكِّر المؤمنينَ[٣].

- وجُعِلَ الإنذارُ بالكِتابِ مُقَدَّمًا في التَّعليلِ على الذِّكرى؛ لأنَّه أهمُّ بحسَبِ المقامِ؛ لأنَّه الغَرَضُ الأهمُّ لإبطالِ ما عليه المشركونَ مِن الباطِلِ، وما يُخلِّفُونَه في النَّاسِ مِنَ العَوائِدِ الباطِلةِ، التي تُعانَى إزالَتُها مِنَ النَّاسِ بعدَ إسلامِهم[٤].

٣- **قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾** كلامٌ مُستأنَفٌ خُوطِبَ به كافَّةُ المُكَلَّفِينَ بِطَريقِ التَّلوينِ، وكُلٌّ مأمورٌ باتِّباعِ ما أُنزِلَ إليه، والمقصودُ الأجدَرُ هُم المُشركونَ؛ تعريضًا بأنَّهم كَفَروا بنِعمةِ رَبِّهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥).

- قولُه: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في التَّعَرُّضِ لوَصفِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافَةِ إلى ضميرِ المُخاطَبينَ: مزيدُ لُطفٍ بهم، وتَرغيبٌ لهم في الامتثالِ بما أُمِرُوا به، وتأكيدٌ لوُجُوبِه[1].

- قولُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أولِيَاءَ﴾ المقصودُ مِن هذا النَّهيِ بعدَ الأمرِ بالاتِّباعِ؛ تأكيدُ مُقتضَى الأمرِ باتِّباعِ ما أُنزِلَ إليهم؛ اهتمامًا بهذا الجانِبِ مِمَّا أُنزِلَ إليهم، وتسجيلًا على المشركينَ، وقطعًا لمعاذيرِهم أنْ يَقُولوا: إنَّنا اتَّبَعْنا ما أُنزِلَ إلينا، وما نرى أولياءَنا إلَّا شُفَعاءَ لنا عندَ اللهِ، فما نعبُدُهم إلَّا لِيُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلفَى، فإنَّهم كانوا يُمَوِّهونَ بِمثلِ ذلك [2].

- وقد أفاد مجموعُ قولِه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أولِيَاءَ﴾ مَفادَ صِيغةِ قَصرٍ؛ كأنَّه قال: لا تَتَّبِعوا إلَّا ما أَمَرَ به ربُّكم، أي: دُونَ ما يأمُرُكم به أولياؤُكم، فعَدَل عن طَريقِ القَصرِ؛ لتكون جملةُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِه أَوْلِيَاءَ﴾ مُستقِلَّةً صريحةَ الدَّلالةِ؛ اهتمامًا بمضمونِها[3].

- وقولُه: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مَسوقٌ لتَقبيحِ حالِ المُخاطَبينَ[4].

- و﴿مَا﴾ مزيدةٌ لتَوكيدِ القِلَّةِ، أي: تذكُّرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا[5].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤-١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨).

الآيات (٤-٩)

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ
دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ
أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿بَأْسُنَا﴾: أي: عذابُنا، وأصلُ (بأس) الشِّدَّة وما ضاهاها[١].

﴿بَيَاتًا﴾: أي: ليلًا، أو وَقتَ بَياتٍ، واشتغالٍ بالنَّومِ، وأصلُ البيت: مَأوَى الإنسانِ باللَّيلِ؛ لأنَّه يقال: بَاتَ، أي: أقامَ باللَّيلِ[٢].

﴿قَائِلُونَ﴾: أي: نائِمون نِصفَ النَّهَارِ في وَقْتِ القائِلَةِ[٣].

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾: أي: فلنُخبِرَنَّ، والقَصَصُ: الأخبارُ المتتبَّعةُ، والأثَرُ، وأصْل القصِّ: تتبُّعُ الأثَرِ أو الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه كثيرًا ما أهلكَ أهلَ القُرى مِنَ الأُمَمِ السَّابقةِ؛ الذين عَبَدوا غيرَه، وكذَّبوا رُسُلَه، فأتَتْهم عُقوبَتُه التي أستأصَلَتْهم على غِرَّةٍ منهم، وهم غافلونَ؛ فبعضُهم جاءَتهم العُقوبةُ في بيوتِهم ليلًا قبل أن يُصبِحُوا، وبعضُهم نهارًا في وقتِ القَيلولةِ، فما كان قولُهم حين جاءَهم العذابُ إلَّا أنِ اعترَفوا أنَّهم كانوا ظالِمينَ.

ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّه سيَسألُ الأُمَمَ التي أرسَل إليهم رُسُلَه سؤالَ توبيخٍ عمَّا عَمِلَت فيما جاءَتها به الرُّسُل، هل أطاعوا الله، وأجابوا الرُّسُلَ، أم عَصَوه وكذَّبُوهم، وسيَسألُ الـمُرسَلينَ عن تبليغِهم للرِّسالة، وعمَّا أُجِيبُوا، وأخبَرَ تعالى أنَّه سيقُصُّ على العبادِ يومَ القيامةِ عنْ علمٍ بما قالوا، وبما عَمِلوا في الدُّنيا، وما كان سبحانَه غائبًا في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ عنهم، وعن أفعالِهم؛ فهو على كلِّ شيءٍ شَهيدٌ.

وأخبرَ اللهُ تعالى أنَّ الوَزنَ يومَ القيامةِ لأعمالِ الخلائقِ يكونُ بالعَدلِ؛ فمَن ثَقُلَت موازينُ عَمَلِه الصَّالِحِ فأولئك هم الفائزونَ، ومَن خفَّتْ موازينُ أعمالِه الصَّالحة، فرَجَحَت سيِّئاتُه، فأولئك الذين خَسِروا أنفسَهم؛ نتيجةَ تكذيبِهم وجَحدِهم بآياتِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالإنذارِ والتَّبليغِ، وأمرَ القَومَ بالقَبولِ والمُتابعة؛ ذَكرَ في هذه الآيةِ ما في تَركِ المُتابعَةِ والإعراضِ عنها مِنَ الوَعيدِ(١)، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٨).

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾

أي: كثيرًا ما أهلَكْنا أهلَ القُرى مِنَ الأُمَم السَّابقةِ، الذين عَصَوني، وكذَّبوا رُسُلي، وعَبَدوا غيري(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨ - ٩].

﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾

أي: فجاءَتهم عُقوبَتُنا المُستأصِلةُ لهم، فدمَّرنا بعضَهم في بُيوتِهم ليلًا قبل أن يُصبِحوا، وجاء العذابُ بعضَهم نهارًا في وقتِ القَيلولةِ، فاحذروا تكذيبَ رَسُولي محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لئلَّا أُنزِلَ بكم مِثلَ ما أنزَلتُ بتلك الأُمَمِ السَّالفةِ مِنَ العذابِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢).

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨].

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٥) ﴾.

أي: فما كان قَولُ أهلِ القُرى التي أهلكْناها حين مَجيءِ العَذابِ إلَّا اعترافَهم بظُلمِ أنفُسِهم، وإقرارَهم بالإساءةِ إليها، ولم يَقدِرُوا على رَدِّ العذابِ عنهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ (٦) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

في مُناسَبةِ هذه الآيةِ لِما قَبلَها وجهانِ:

الوجهُ الأوَّلُ: لَمَّا أمَرَ اللهُ الرُّسُلَ في الآيةِ الـمُتقَدِّمة بالتَّبليغِ، وأمَرَ الأُمَّةَ بالقَبولِ والمُتابَعة، وذَكَر التَّهديدَ على تَركِ القَبولِ والمُتابعة بذِكرِ نُزُولِ العَذابِ في الدُّنيا؛ أتبَعَه بنوعٍ آخَرَ مِنَ التَّهديدِ، وهو أنَّه تعالى يَسألُ الكُلَّ عن كيفيَّةِ أعمالِهم، يومَ القيامةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١-٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٨).

الوجهُ الثَّاني: لَمَّا قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ أتبَعَه بأنَّه لا يقَعُ يومَ القيامةِ الاقتصارُ على ما يكونُ مِنهم مِن الاعترافِ، بل ينضافُ إليه أنَّه تعالى يَسألُ الكُلَّ عن كيفيَّة أعمالِهم، وبيَّنَ أنَّ هذا السُّؤالَ لا يختَصُّ بأهلِ العِقابِ، بل هو عامٌّ في أهلِ العِقابِ، وأهلِ الثَّوابِ [1]، والمرسلين كذلك، كلٌّ بحسبِه، فقال تعالى:

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾.

أي: فلَنَسألَنَّ الأمَمَ الذين أرسَلْتُ إليهم رُسُلي سُؤالَ تَوبيخٍ، لا سُؤالَ استعلامٍ: ماذا عَمِلوا فيما جاءَتَهم به الرُّسُلُ مِن أمرِي ونَهْيِي، هل أطاعوني وأجابوا رُسُلي، أم أنَّهم عَصَوني وكَذَّبوا رُسُلي؟[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((ألَا كُلُّكم راعٍ، وكلُّكم مَسؤولٌ عَن رَعِيَّتِه، فالأميرُ الذي على النَّاسِ راعٍ، وهو مَسؤولٌ عَن رَعِيَّتِه، والرَّجُلُ راعٍ على أهلِ بَيتِه، وهو مسؤولٌ عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بَعلِها ووَلَدِه، وهي مسؤولةٌ عنهم، والعبدُ راعٍ على مالِ سَيِّدِه، وهو مَسؤولٌ عنه، ألَا فكُلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رَعِيَّتِه))[3].

وعن أبي بَرْزةَ الأسلميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠-٦١).

(٣) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

وسلَّم: ((لا تَزولُ قَدَمَا عبدٍ يومَ القِيامةِ حتى يُسأَلَ عَن عُمُرِه فيمَ أفناه، وعن عِلْمِه فيمَ فَعَل، وعن مالِه مِن أينَ اكتسَبَه وفيمَ أنفَقَه، وعن جِسمِه فيمَ أبلاه))(١).

﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: ولنَسألَنَّ الرُّسُلَ الذين أرسلتُهم إلى الأُمَم عن تبليغِهم لرِسالاتِ رَبِّهم، وعمَّا أجابَتْهم به أمَمُهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان السُّؤالُ في الآيةِ السَّابقةِ يُوهم خَفاءَ المَسؤولِ عنه على السَّائل؛ سَبَّبَ عن ذلك ما يُزيلُ هذا الوَهمَ بِقَولِه، مُؤذِنًا بأنَّه أعلمُ مِنَ المسؤولينَ عَمَّا سألَهم عنه(٣):

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾.

أي: فلَنُخبِرَنَّ العبادَ يومَ القيامةِ عَن علمٍ بما قالوا، وبما عَمِلوا في الدُّنيا(٤).

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، والدارمي (٥٣٧).

صحَّحه الترمذي، وابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٣٠/ ٣٠١)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٩).

أي: وما كنَّا غائبينَ في أيِّ وقتٍ مِنَ الأوقاتِ عنهم، وعن أفعالِهم التي كانوا يفعَلونها؛ فاللهُ تعالى شهيدٌ على كلِّ شيءٍ، لا يغيبُ عنه شيءٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولى أنَّ مِن جُملةِ أحوالِ القِيامةِ السُّؤالَ والحِسابَ؛ بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ مِن جُملةِ أحوالِ القِيامةِ أيضًا وزنَ الأعمالِ[(٢)]، فقال تعالى:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: والوزنُ يومَ القيامةِ لأعمالِ الخَلقِ: الحَسناتِ مِنها والسَّيِّئاتِ؛ يكونُ بالعَدلِ، ولا يَظلِمُ اللهُ تعالى أحدًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٢).

وقال ابنُ عاشور: (عطف جملة: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ على جملةِ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ لِما تضمَّنَته المعطوفُ عليها مِنَ العِلمِ بحَسَناتِ النَّاسِ وسَيِّئاتِهم، فلا جرَمَ أشعَرَت بأنَّ مَظهَرَ ذلك العِلمِ وأثَرَه، هو الثَّوابُ والعِقابُ، وتفاوتُ دَرَجاتِ العاملينَ ودَرَكاتِهم تفاوتًا لا يُظلَمُ العامِلُ فيه مثقالَ ذَرَّةٍ، ولا يفوتُ ما يستحِقُّه إلَّا أن يتفَضَّل اللهُ على أحدٍ؛ برَفعِ دَرَجةٍ أو مغفرةِ زَلَّةٍ؛ لأجلِ سلامةِ قَلبٍ، أو شفاعةٍ، أو نحوِ ذلك، مِمَّا اللهُ أعلَمُ به مِن عبادِه؛ فلذلك عُقِّبَت جملةُ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ بجملةِ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾، فكأنَّه قيل: فلنقُصَّنَّ عليهم بعِلمٍ، ولَنُجازِيَنَّهم على أعمالِهم جزاءً لا غَبْنَ فيه على أحدٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-١١].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣].

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

مُناسَبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ العِبرةَ بالمِيزانِ على وجهٍ يُظهِرُ أنَّه لا حَيفَ فيه بوَجهٍ؛ جاء قولُه [1]:

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

أي: فمَن ثَقُلَت موازينُ عَمَلِه الصَّالِحِ، بأنْ رَجَحَتْ كِفَّةُ حَسَناتِه على سَيِّئاتِه؛

= وقال الواحديُّ: (عامَّةُ المُفَسِّرين على أنَّ المُرادَ بهذا الوَزنِ أعمالُ العبادِ). ((التفسير البسيط)) (٩/ ٢٣).

وقال ابن عطيَّةَ: (قال جمهورُ الأمَّةِ: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ أراد أن يَعرِضَ لعبادِه يومَ القيامةِ تحريرَ النَّظَرِ، وغايةَ العَدلِ بأمرٍ قد عَرَفوه في الدُّنيا، وعَهِدَتْه أفهامُهم؛ فميزانُ القيامةِ له عمودٌ وكِفَّتانِ على هيئةِ موازينِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٦)، ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٦٠).

فأولئك هم النَّاجُونَ الفائِزونَ[1].

عن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ الله عنه، قال: سمِعْتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((ما مِن شَيءٍ يُوضَعُ في الميزانِ أثقَلُ مِن حُسْنِ الخُلُقِ، وإنَّ صاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبلُغُ به درجةَ صاحِبِ الصَّومِ والصَّلاةِ))[2].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كَلِمَتانِ خَفيفتانِ على اللِّسانِ، ثَقيلتانِ في المِيزانِ، حَبيبتانِ إلى الرَّحمنِ: سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِه، سُبحانَ اللهِ العظيمِ))[3].

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤). قال ابنُ كثيرٍ: (﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذينَ فازُوا فنَجَوْا منَ النَّارِ، وأُدخِلُوا الجنَّة. وقال ابنُ عبَّاسٍ: أولئك الذينَ فازُوا بما طَلَبوا، ونَجَوْا مِن شَرٍّ ما منه هَرَبوا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٦).

قال الشِّنقيطيُّ: (الفلاحُ في جميعِ القُرآنِ مُحتَمِلٌ للمَعنيينِ المذكُورينِ:

الأوَّل: الفوزُ بالمطلوبِ الأكبَرِ.

الثاني: الدَّوامُ والبقاءُ السَّرمديُّ في النَّعيمِ، فكلُّ مَن كان له دوامٌ وبقاءٌ في النَّعيمِ، تقول العَرَبُ: نال الفلاحَ، وهذا المعنى معروفٌ في كلامهم). ((العذب النمير)) (٣/ ٨٣)، ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٨٤).

قال أبو عُبيدٍ: (الفلاحُ أصلُه البقاءُ، وإنَّما قيل لأهلِ الجنَّة: مُفلِحونَ؛ لِفَوزِهم ببقاءِ الأبَدِ في الجنَّةِ). ((غريب الحديث)) (٤/ ٣٨) باختصار وتصرُّف.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣) واللفظ له، وأحمد (٢٧٥٥٧).

قال الترمذي: غريبٌ مِن هذا الوجهِ، وحسَّنَ إسنادَه البزَّارُ في ((البحر الزخَّار)) (١٠/ ٣٦)، وقال الخطيبُ في ((أوهام الجمع والتفريق)) (١/ ٣٦١): طريقُه مَرضيٌّ، وقال ابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٤/ ٣٥٧): معنًى صحيحٌ جدًّا، تُعَضِّدُه الأحاديثُ والأُصولُ، وصَحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٢٧)، وصحَّحَه الألبانيُّ في ((صَحيحِ سُنَنِ الترمذي)) (٢٠٠٣).

(٣) رواه البخاري (٦٦٨٢) ومسلم (٢٦٩٤).

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾.

أي: ومَنْ خفَّتْ مَوازينُ أعمالِه الصَّالحةِ، بأنْ رَجَحَت سيِّئاتُه، وصار الحُكمُ لها، ولم تَثْقُلْ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ فأولئك الذين أضاعوا حَظَّ أنفُسِهم مِن ثَوابِ اللهِ وكَرامتِه[1].

﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾.

أي: خَسِرُوا أنفُسَهم؛ لأنَّهم كذَّبوا وجَحَدوا بآياتِ اللهِ سُبحانه وتعالى[2].

الفوائدُ التربويَّةُ:

لا يَنبغي للعاقِلِ أنْ يأمَنَ صَفوَ اللَّيالي، ولا مُواتاةَ الأيَّامِ، ولا يَغترَّ بالرَّخاءِ؛ فيَعُدَّه آيةً على الاستحقاقِ له، الذي هو مَظِنَّةُ الدَّوامِ، بل يلزَم التَّذكُّرَ والحَذرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٨٩).

قال ابن جرير: (بما كانوا بحُجَجِ اللهِ وأدِلَّتِه يَجحَدون، فلا يُقِرُّونَ بِصِحَّتِها، ولا يُوقِنونَ بحَقيقَتِها). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣).

وقال الواحدي: (﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ بجُحودِهم بما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٥٠).

وقال ابن عطية: («الآيات» هنا البَراهينُ والأوامِرُ والنَّواهي، و﴿يَظْلِمُونَ﴾ أي يَضَعونَها في غيرِ مَواضِعِها بالكُفرِ والتَّكذيبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٧).

وقال الشنقيطيُّ: (فإذا عَلِمْتُم أنَّ الآيةَ في اللُّغةِ تُطلَقُ على العلامةِ، وعلى الجَماعةِ؛ فهي في القرآنِ العظيم باستقراءِ القُرآنِ العَظيمِ تُطلَقُ إطلاقَينِ:

أحدُهما: الآيةُ الكونيَّةُ القدَريَّة، وهي ما نَصَبَه اللهُ جَلَّ وعلا؛ ليدُلَّ به خَلقَه على أنَّه الواحِدُ الأحَدُ الأعظَمُ الصَّمَدُ، المستحِقُّ لِأن يُعبَدَ وَحدَه... وتُطلَقُ الآيةُ في القُرآنِ إطلاقًا آخَرَ: ومعناها: الآيةُ الشَّرعيَّةُ الدينيَّةُ، كآياتِ هذا القُرآنِ العظيم، ومنه قولُه هنا: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ لأنَّه قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٣] وذلك الذي أُنزِلَ إليهم مِن رَبِّهم، أعظَمُه الآياتُ السَّماويَّةُ القُرآنيَّةُ التي تُتلَى، وآياتُ الكُتُبِ، فلمَّا ظَلَمُوا بها وجَحَدوا بها كانوا ظالِمينَ ودَخَلوا النَّارَ). ((العذب النمير)) (٣/ ٩١-٩٢).

والتَّوقِّيَ والاحتياطَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾[1].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- لقائِلٍ أن يقولَ: قولُه: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ يقتضي أن يكونَ الإهلاكُ مُتقَدِّمًا على مجيءِ البأسِ، وليس الأمرُ كذلك؛ فإنَّ مجيءَ البأسِ مُقَدَّمٌ على الإهلاكِ. والإجابةُ عن هذا السؤالِ من وجوهٍ:

الأول: المرادُ بقولِه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: حَكَمْنا بهلاكِها فجاءَها بأسُنا.

وثانيها: كم مِن قريةٍ أرَدْنا إهلاكَها فجاءَها بأسُنا، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

وثالثها: أنْ يكونَ التَّرتيبُ تَرتيبَ تَفصيلٍ على جملةٍ؛ ذَكَرَ الإهلاكَ ثمَّ فَصَّلَه بنوعينِ؛ أحدُهما: مجيءُ البأسِ بياتًا، أي: ليلًا. والثَّاني: مجيئُه وقتَ القائِلةِ[2].

٢- قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ فيه الإتيانُ بِقَولِه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ في مَوضِعِ (أَرَدْنَا إِهْلاكَها) بقرينةِ ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾- على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ- والإتيانُ بحرفِ التَّعقيبِ بعدَ ذلك؛ للدَّلالَةِ على عدمِ التَّريُّثِ، فدلَّ الكلامُ كلُّه: على أنَّه تعالى يُريدُ فيخلُقُ أسبابَ الفعلِ المرادِ، فيحصلُ الفعلُ، كُلُّ ذلك يَحْصُلُ كالأشْياءِ الـمُتَقارِنَةِ، والغرضُ مِنْ ذلك تَهْديدُ السَّامِعينَ المعانِدينَ، وتَحْذيرُهم مِنْ أنْ يَحُلَّ غَضَبُ الله عليهم، فيُريد إهلاكَهم، فضَيَّقَ عليهم المهلةَ؛ لِئلَّا يتباطَؤُوا في تدارُكِ أمْرِهم، والتَّعجيلِ بالتَّوبةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٨، ١٩٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠-٢١)

٣- قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فيه لطيفةٌ، حيث أُجْرِيَ الضَّميرانِ في قولِه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ على الإفرادِ والتأنيثِ؛ مُراعاةً للفظِ (قَرية)؛ ليَحصُلَ التماثُلُ بين لفظِ الـمُعادِ ولفظِ ضَميرِه في كلامٍ مُتَّصلِ القُربِ، ثم أُجريتْ ضمائرُ القرية على صِيغة الجمعِ في الجملةِ الـمُفرَّعةِ عن الأُولى في قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ﴾؛ لحُصولِ الفَصلِ بينَ الضَّميرِ ولفظِ مُعادِه بجُملةٍ فيها ضميرُ مُعادِه غير لَفظِ القريةِ، وهو ﴿بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾؛ لأنَّ (بياتًا) مُتحمِّلٌ لضميرِ البأسِ، أي: مُبيِّتًا لهم، وانتقَل منه إلى ضميرِ القرية باعتبارِ أَهلِها، فقال: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ﴾[1].

٤- قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ يسألُ جَميعَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٣]، وقولُه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[الصفات: ٢٤]، وقولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وقد جاءَتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خلافِ ذلك؛ كقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وكقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، والجوابُ عن هذا من ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّل- وهو أوجَهُها؛ لدَلالةِ القُرآنِ عليه- هو: أنَّ السُّؤالَ قِسمانِ: سؤالُ تَوبيخٍ وتقريعٍ، وأداتُه غالبًا: (لِمَ)، وسؤالُ استخبارٍ واستعلامٍ، وأداتُه غالبًا: (هَل)، فالـمُثبَتُ هو سؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سُؤالُ الاستخبارِ والاستعلامِ، وجهُ دلالةِ القرآنِ على هذا: أنَّ سؤالَه لهم المنصوصَ في كُلِّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩).

توبيخٌ وتقريعٌ، كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾، وكقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الوجه الثاني: أنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسألونَ، وفي بعضها لا يُسألونَ.

الوجه الثالث: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عَنِ التَّوحيدِ، وتَصديقِ الرُّسلِ، وعدمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يستلزِمُه الإقرارُ بالنُّبوَّاتِ مِن شرائِعِ الدِّينِ وفُروعِه[1]، وقيل غير ذلك[2].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ الفائدةُ في سُؤالِ الرُّسُلِ مع العِلمِ بأنَّه لم يصدُرْ عنهم تقصيرٌ ألبتَّةَ: أنَّهم إذا أثبَتُوا أنَّه لم يَصدُرْ عنهم تقصيرٌ ألبتَّةَ، التحَقَ التَّقصيرُ بكُلِّيَّتِه بالأمَّةِ، فيتضاعَفُ إكرامُ اللهِ في حَقِّ الرُّسُلِ؛ لظُهورِ بَراءَتِهم عن جميعِ مُوجِباتِ التَّقصيرِ، وتتضاعَفُ أسبابُ الخِزيِ والإهانةِ في حقِّ الكُفَّارِ؛ لِمَا ثبت أنَّ كُلَّ التقصيرِ كان منهم[3].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى عالِمٌ بالعِلمِ، وهو صِفَةٌ له، قائِمٌ بذاتِه، وأنَّ قولَ مَن يقولُ: (إنَّه لا عِلمَ لله) قولٌ باطِلٌ[4].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إنْ قيل: الميزانُ واحِدٌ، فما وجهُ الجَمعِ؟ فالجوابُ: أنَّ العَربَ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠-١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٣)، ويُنظر أيضًا: ((شرح العقيدة الواسطية)) للهراس (ص: ١٢٠).

قد تُوقِعُ لفظَ الجَمعِ على الواحِدِ تفخيمًا له. وقيل: إنَّه يُنصَبُ لكُلِّ عبدٍ مِيزانٌ. وقيل: جُمِعَ لاختلافِ الموزوناتِ، وتعَدُّدِ الجَمعِ، فهو جمعُ مَوزونٍ أو ميزانٍ فالميزانُ واحدٌ، وأُطلق عليه اسمُ الجمعِ؛ لكثرةِ ما يُوزن فيه مِن أنواعِ الأعمالِ، وكثرةِ الأشخاصِ العاملين، الموزونةِ أعمالُهم(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الحَسَناتِ هي مِن أسبابِ مَحْوِ الذُّنُوبِ، وزوالِ العُقُوبةِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ هذا الخبرُ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ للمُشركينَ، الذين وُجِّهَ إليهم التعريضُ في الآيةِ الأولى(٣)، وقد خَصَّ بالذِّكرِ إهلاكَ القُرى، دون ذِكرِ الأُمَمِ؛ لأنَّ المُواجَهينَ بالتَّعريضِ هم أهلُ مَكَّةَ، وهي أمُّ القرى؛ فناسَبَ أن يكونَ تهديدُ أهلِها بما أصابَ القُرى وأهلَها، وأيضًا لأنَّ تعليقَ فِعلِ ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالقريةِ دون أهلِها؛ لِقَصدِ الإحاطةِ والشُّمولِ، فهو مُغنٍ عن أدواتِ الشُّمولِ، فالسَّامِعُ يعلَمُ أنَّ المُرادَ مِنَ القريةِ أهلُها؛ لأنَّ العِبرةَ والموعِظةَ إنَّما هي بما حَصَل لأهلِ القَريةِ(٤).

- والتَّعبيرُ عن إرادةِ الفِعلِ بذِكرِ الصِّيغةِ التي تدُلُّ على وقوعِ الفِعلِ في قولِه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ لإفادةِ عَزمِ الفاعِلِ على الفِعلِ عزمًا لا يتأخَّرُ عنه العَمَلُ، بحيث يُستعارُ اللَّفظُ الدَّالُّ على حُصولِ المرادِ للإرادةِ؛ لتَشابُهِهما(٥). وهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٦)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٠).

على أحدِ الأوجهِ في التفسيرِ.

- وقولُه: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ فيه مبالغةٌ في تصويرِ غَفْلتِهم، وأمْنِهم مِن العذابِ، وخُصَّ مَجيءُ البَأسِ بهَذينِ الوَقتينِ؛ لأنَّهما وقتانِ للسُّكونِ والدَّعَةِ والاستراحةِ، على عادتِه سُبحانَه في أخْذِ الظَّالِمِ في وَقتِ بُلوغِ آمالِه وفَرَحِه ورُكونِه إلى ما هو فيه؛ فمَجيءُ العذابِ فيهما أقطَعُ وأشَقُّ، ولأنَّه يكونُ المجيءُ فيه على غَفلةٍ مِنَ المُهلَكينَ، فهو كالمجيءِ بَغتةً، كما أنَّ التَّذكيرَ بالعذابِ فيهما يُنَغِّصُ على المُكَذِّبين تَخَيُّلَ نَعيمِ الوَقتينِ، وفي هذا التَّقسيمِ تهديدٌ؛ حتَّى يكونوا على وَجَلٍ في كلِّ وقتٍ، لا يَدْرُون متَى يَحُلُّ بِهم العذابُ، بحيثُ لا يَأْمَنون في وقتٍ ما[1].

٢- قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فيه حَصْرٌ، ومعناه: أنَّهم لم يَستغيثوا اللهَ ولا توَجَّهوا إليه بالدُّعاءِ، ولكنَّهم وَضَعوا الاعترافَ بالظُّلمِ مَوضِعَ الاستغاثةِ؛ فلذلك استثناه اللهُ مِنَ الدَّعوى[2]. هذا على القولِ بأنَّ الاستثناءَ متَّصلٌ.

- والتَّوكيدُ بـ(إنَّ) في قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ لتحقيقِ الخَبرِ للنَّفسِ أو للمُخاطَبينَ[3].

٣- قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ المرادُ من هذا السؤالِ توبيخُ الكفَرَةِ وتقريعُهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١١-١٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢- ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٢).

- والذينَ أُرسِلَ إليهم هُم أُمَمُ الرُّسُل، وعبَّر عنهم بالموصولِ ﴿الَّذِينَ﴾؛ لِمَا تَدُلُّ عليه الصِّلةُ ﴿أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ مِنَ التَّعليلِ، فإنَّ فائدةَ الإرسالِ هي إجابةُ الرُّسُلِ[1].

- وفي قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ وقوله: ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ﴾ التأكيدُ بلامِ القَسمِ ونُونِ التَّوكيدِ؛ لإزالةِ الشَّكِّ في ذلك، ولأنَّ الـمُخاطَبينَ مِنَ العَرَبِ في أوَّلِ الدَّعوةِ كانوا يُنكِرونَ البَعثَ والجَزاءَ، ولتأكيدِ الخَبرِ تأثيرٌ في الأنفُسِ، ولا سيَّما خَبرُ الـمَشهورِ بالأمانةِ والصِّدقِ، كالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقد كانوا يُلَقِّبونَه قبل البَعثةِ بالأمينِ[2].

- وقدَّمَ ذِكرَ سُؤالِ الأمَمِ على ذِكرِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ المقصودَ الأهَمَّ مِنَ السُّؤالِ هو الأمَمُ؛ لإقامَةِ الحُجَّةِ عليهم في استحقاقِ العِقابِ[3].

٤- **قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾** هذا مِن أعظَمِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ حيث يُقِرُّونَ بالظُّلمِ، وتَشهَدُ عليهم أنبياؤُهم، ويَقُصُّ اللهُ عليهم أعمالَهم[4].

- وتَنكيرُ قَولِه: ﴿بِعِلْمٍ﴾ يدلُّ على إرادةِ التَّفصيلِ، أي: عالِمينَ بأحوالِهم الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وأقوالِهم وأفعالِهم، وتَنوينُه للتَّعظيمِ، أي: بعلمٍ عَظيمٍ[5].

- وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ تذييلٌ مُقَرِّرٌ لِما قبلَه[6]، والغائِبُ ضِدُّ الحاضِرِ، وهو هنا كنايةٌ عن الجاهِلِ؛ لأنَّ الغَيبةَ تستلزِمُ الجهالةَ عُرفًا، أي: الجَهالة بأحوالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧)

المَغيبِ عنه؛ فإنَّها ولو بلَغَتْه بالإخبارِ، لا تكونُ تامَّةً عنده مثلَ الـمُشاهِد(١).

٥- قولُه: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: فيه اسمُ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ طَبَقَتِهم، وبُعدِ منزلَتِهم في الفَضلِ والشَّرَفِ(٢).

- وضَميرُ الفَصلِ (هُمْ) في قوله: ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ لقَصدِ الانحصارِ، أي: هُم الذين انحصَرَ فيهم تحقُّقُ المُفلِحينَ، أي: إن عَلِمْتَ جماعةً تُعرَفُ بالمُفلحينَ فَهُمْ هُمْ(٣).

- وتعريفُ ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم النَّاسُ الذين بلغَك أنَّهم مُفلِحون في الآخِرَةِ، أو إشارةٌ إلى ما يَعرِفُه كلُّ أحدٍ مِن حقيقةِ المُفلحينَ، وخصائِصِهم(٤).

٦- قوله: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ صِيغةُ المضارعِ في قوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لحكايةِ حالِهم في تجدُّدِ الظُّلمِ فيما مضَى(٥).

- وتقديمُ المجرورِ في قوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ على عامِلِه، وهو ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ للاهتمامِ بالآياتِ(٦).

- الجَمعُ بين صِيغَتَي الماضي والمُستقبَل (كَانوا... يَظلمون)؛ للدَّلالةِ على استمرارِ الظُّلمِ في الدُّنيا(٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٤).

الآيات (١٠-١٨)

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ
إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ
خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ
إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾
قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا
مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾: أي: وطَّأْنا لكم الأرضَ، أو جَعَلْناها قرارًا لكم، وأصلُ (مكن): الموضِعُ الحاوي للشَّيءِ[1].

﴿مَعَايِشَ﴾: أي: أسبابًا تعيشونَ بهَا مِن مَطاعِمَ ومَشارِبَ، مُفرَدُها مَعِيشةٌ، وَهِي مَا يُعاشُ بِهِ مِنَ النَّباتِ والحيوانِ وغيرِ ذلك، والعَيْشُ: أخصُّ مِنَ الحَياةِ[2].

﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾: أي: صَوَّرْنا أباكُم آدمَ بَشَرًا سَوِيًّا، وقيل: صَوَّرْنا الذُّرِّيَّةَ، وصُورةُ كُلِّ مَخلوقٍ: هَيئةُ خِلْقَتِه، وما يَتميَّزُ به عن غيرِه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٧-٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) (٣/ ٣٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٧).

﴿إِبْلِيسَ﴾: هو أبو الشَّياطينِ، وأصلُ الإبلاسِ: اليَأسُ، والحُزنُ المعترِضُ مِن شِدَّةِ اليأسِ، ومنه اشتُقَّ إبليسُ، وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ؛ ولذلك لم يَنصرِفْ(١).

﴿الصَّاغِرِينَ﴾: أي: المُهانِينَ، أو المُبعَدينَ، جمْعُ صاغرٍ، والصَّغَارُ: الذِّلَّةُ، وأصلُ (صغر): يدُلُّ على قِلَّةٍ وَحَقَارَةٍ(٢).

﴿أَنْظِرْنِي﴾: أي: أخِّرْني وأجِّلْني، وأصلُ (نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومعاينتُه، ومنه: نَظَرْتُه، أي: انتَظَرْتُه، كأنَّه ينظُرُ إلى الوَقتِ الذي يأتي فيه(٣).

﴿أَغْوَيْتَنِي﴾: أي: أضْلَلْتَني، والغَيُّ: جَهلٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظْلامِ الْأَمْرِ، ويدلُّ على فَسادٍ في شَيْءٍ(٤).

﴿مَذْؤُومًا﴾: أي: مَذمومًا بأبلَغِ الذَّمِّ، أو مَلُومًا، وأَصْل (ذأم): يدلُّ على كَرَاهَةٍ وَعَيْبٍ(٥).

﴿مَدْحُورًا﴾: أي: مُقْصًى مطرودًا مُبْعَدًا؛ يُقَال: ادْحَرْ عنكَ الشَّيطانَ، أي: أَبعِدْه، وأصل الدَّحْرِ: الطَّردُ والإبعادُ(٦).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦، ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٨).

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ﴾

﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: في هذه الباءِ وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ تكونَ للقَسَمِ، أي: فأُقسِمُ بإغوائِكَ لأقعُدَنَّ. والثاني: أن تكون سَببيَّةً، تعلَّقَتْ بفعلِ القَسَمِ المحذوفِ، تقديرُه: فبما أغوَيتَني أُقسِمُ باللهِ لأَقعُدَنَّ، أي: فبسَبَبِ إغوائِك أُقسِمُ.

﴿صِراطَكَ﴾: (صِراطَ) مَنصوبٌ على نزْعِ الخافِضِ (على)، والتقديرُ: لأقعُدَنَّ لهم على صراطِك، أو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ به للفِعل ﴿أَقْعُدَنَّ﴾ على تَضمينِ الفِعلِ (قعَدَ) معنَى فِعلٍ مُتعدٍّ، والتقديرُ: لألزَمَنَّ صراطَك المستقيمَ بقُعودِي عليه، وقيلَ غيرُ ذلك[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

يمتَنُّ اللهُ على عبادِه بأنْ هيَّأ لهم الأرضَ، وأقدَرَهم على الانتفاعِ بما فيها، ويَسَّرَ لهم فيها ما يعيشونَ به في حياتِهم، ومع ذلك فإنَّ قليلًا منهم مَن يَشكُرُه تعالى على نِعَمِه.

ثم خاطَبَ اللهُ بني آدَمَ قائلًا لهم إنَّه خلَقَ أباهم آدَمَ، ثمَّ صَوَّرَه بَشَرًا سَوِيًّا في أحسَنِ تَقويمٍ، ثمَّ قال للملائكةِ: اسجُدُوا لآدَمَ، فكُلُّهم امتَثَلَ الأمرَ وسجَدَ؛ إلَّا إبليسَ؛ استكبَرَ ورفَضَ السُّجودَ.

فسأله اللهُ تعالى عمَّا منعَه مِنَ السُّجودِ حين أمَرَه، فأجاب أنَّ ما منَعَه مِن ذلك هو أنَّه أفضَلُ مِن آدَمَ؛ إذ خلَقَه اللهُ تعالى مِن نارٍ، بينما خلَقَ آدَمَ مِن طينٍ.

فأمَرَه اللهُ تعالى حينَها أن يَهبِطَ مِنَ الجنَّةِ؛ فليس له أن يتكبَّرَ فيها، وأمره أن

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٨٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٥٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٦٦-٢٦٨).

يخرُجَ مِنَ الجنَّةِ، فهو من الذين قد نالهم مِن الله الصَّغارُ والذلُّ والمَهانةُ.

فطلب إبليسُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أن يُمهِلَه إلى يوم بَعثِ الخَلائِقِ، فأخبَرَه أنَّه مِنَ الـمُمهَلينَ. فأقسَمَ إبليسُ لِرَبِّه إنَّه بسبَبِ إغوائِه له، ليَلْزَمَنَّ لبني آدَمَ الطَّريقَ القَويمَ، ويَصُدُّهم عنه، مُزَيِّنًا لهم طريقَ الباطِلِ، وإنَّه سيَأتِيهم مِن جَميعِ الوُجوهِ، ومِن مُختَلِف الطُّرُق؛ لِيَصُدَّهم عن الحَقِّ، ولن يجِدَ تعالى أكثَرَهم شاكرينَ له.

فأمَرَه اللهُ أن يَخرُجَ مِنَ الجنَّةِ مَذمومًا مَمقوتًا مَطرودًا مِن رحمتِه، وأقسَم أنَّ مَن اتَّبعه مِن بني آدمَ، أنْ يملأَ جهنَّمَ مِن جميعِهم: مِن الكفرةِ أتباعِ إبليسَ، ومِنه وذرِّيتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ الخَلقَ بمتابَعةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وبقَبولِ دَعوَتِهم، ثمَّ خَوَّفَهم بعذابِ الدُّنيا، ثمَّ خَوَّفَهم بعذابِ الآخِرَةِ- رغَّبَهم في قَبولِ دَعوةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ في هذه الآيةِ بطَريقٍ آخَرَ، وهو أنَّه كَثُرَت نِعَمُ اللهِ عليهم، وكَثرةُ النِّعَمِ تُوجِبُ الطَّاعةَ[1].

وأيضًا لَمَّا كان الدِّينُ الذي أمَرَ تعالى باتِّباعِ التَّنزيلِ فيه، هو دينَ الفِطرةِ، الـمُبَيِّنَ لكُلِّ ما يُوصِلُها إلى كمالِها، والنَّاهيَ لها عن كُلِّ ما يَحُولُ بينها وبين هذا الكَمالِ، وكان افتتانُ النَّاسِ بأمْرِ المَعيشةِ مِن أسبابِ إفسادِ الفِطرةِ، بالإسرافِ في الشَّهَواتِ، مِن حيثُ إنَّه يجِبُ أن تكونَ نِعَمُ اللهِ عليهم بما يحتاجونَ إليه مِن أمرِ المَعيشةِ، سببًا لإصلاحِها بشُكرِ اللهِ عليه، الموجِبِ للمَزيدِ منه - لَمَّا كان الأمرُ كذلك، ذكَّرَ سبحانه النَّاسَ في هذه الآيةِ بنِعَمِه عليهم في التَّمكينِ في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).

الأرضِ، وخَلْقِ أنواعِ المعايشِ فيها[١]، فقال:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

أي: ولقد هيَّأْنا لكم الأرضَ - أيُّها النَّاسُ - وأقدَرْناكم عليها، وجَعَلْناها لكم قرارًا تستَقِرُّونَ فيها، وفِراشًا تفتَرِشونَها، وأبَحْنا لكم منافِعَها[٢].

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾

أي: ويسَّرْنا لكم في الأرضِ ما تعيشونَ به أيامِ حياتِكم؛ مما يخرُجُ مِنَ الأشجارِ والنَّباتاتِ، ومِنَ المعادِنِ والحيواناتِ، والصَّنائِعِ والتِّجاراتِ، وغيرِ ذلك مِن أسبابِ المعيشةِ[٣].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

أي: وأنتم مع ذلك قليلٌ شكرُكم على هذه النِّعَمِ التي أنعَمْتُها عليكم[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((تفسير البغوي)) (١/ ٣٣٠).

قال السمعاني: (أمَّا الكُفَّارُ فلا يشكُرونَ، وأمَّا المؤمنونَ فلم يبلُغُوا غايةَ الشُّكرِ). ((تفسير السمعاني)) (١/ ٢٤٦).

وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ للمُشركينَ خاصَّةً؛ لأنَّهم الذين قَلَّ شُكرُهم لله تعالى؛ إذ اتَّخذوا معه آلهةً، ووَصفُ قليلٍ يستعمَلُ في معنى المَعدوم، ويجوز أن يكون على حقيقَتِه، أي: إنَّ شُكرَكم اللهَ قليلٌ؛ لأنَّهم لَمَّا عرفوا أنَّه رَبُّهم، فقد شَكَروه، ولكنَّ أكثَرَ أحوالِهم هو الإعراضُ عن شُكرِه، والإقبالُ على عبادةِ الأصنامِ وما يَتبَعُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٥).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سبحانَه ما منَحَ العبادَ مِنَ التَّمكينِ؛ ذكَّرَهم بنعمةِ الإيجادِ، وهي نعمةُ عنايةٍ، بعد ما كانوا عليه مِنَ العَدَمِ، وذكَرَ تفضيلَه لهم؛ حيث خلَقَ أباهم آدَمَ، وأمَرَ الملائكةَ بالسُّجودِ له؛ فإنَّ الإنعامَ على الأبِ يَجري مَجرى الإنعامِ على الابنِ، ثمَّ ذكَرَ لهم أنَّ أباهم لَمَّا خالفَ الأمرَ أهبَطَه مِنَ الجنَّةِ؛ وفي ذلك تحذيرٌ لذُرِّيته[1].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا أباكم آدَمَ عليه السَّلامُ، ثمَّ صَوَّرْناه بشرًا سَوِيًّا في أحسَنِ تَقويمٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٥-٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

واختار كونَ المرادِ بقَولِه: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ و﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ آدَمَ عليه السَّلامُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسَّعديُّ، وابنُ عاشور، والشِّنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٦-٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٠٢-١٠٩).

قال ابنُ كثير: (وإنَّما قيل ذلك بالجَمعِ؛ لأنَّه أبو البَشَر، كما يقول اللهُ تعالى لبني إسرائيلَ الذينَ كانوا في زَمَنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ والمراد: آباؤُهم الذين كانوا في زَمَنِ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١). =

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

أي: لَمَّا خَلَقْنا آدَمَ وصَوَّرناه، قُلْنا للملائكةِ ابتلاءً منَّا واختبارًا لهم: اسجُدُوا لآدَمَ؛ إكرامًا له، وإظهارًا لفَضْلِه عليه السَّلامُ(١).

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

أي: فسجَدَ الملائكةُ كُلُّهم إلَّا إبليسَ، لم يكُنْ مِنَ السَّاجدينَ لآدَمَ عليه السَّلامُ؛ تكبُّرًا عليه، وإعجابًا بنَفْسِه(٢).

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لإبليسَ: ما منَعك مِن السُّجودِ، فأحوجَك ألَّا تسجدَ لآدَمَ

= وقال ابنُ عاشور: (ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي: حَمَلْنا أصولكم، وهُمُ الذينَ كانوا مع نوحٍ، وتناسَلَ منهم النَّاسُ بعد الطُّوفانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٦-٣٧).

وقد ذهَبَ بعضُ السَّلَفِ إلى أنَّ المعنى: ولقد خَلَقْناكم في ظَهرِ آدَمَ- أيُّها النَّاسُ- ثمَّ صَوَّرْناكم في أرحامِ النِّساءِ.

وقال بعضُهم: معنى ذلك: ولقد خَلَقْناكم في أصلابِ آبائِكم، ثمَّ صَوَّرْناكم في بُطُونِ أُمَّهاتِكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٥، ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

وقد اختلف أهلُ العِلمِ في إبليسَ: هل كان مِنَ الملائكةِ أو لم يكُنْ منهم، على قولين:

القول الأول: أنَّه كان مِنَ الملائكةِ، وهو قولُ الجُمهورِ، واختارَه ابنُ جريرٍ، والبَغَويُّ، وابن عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤٢)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٢٤).

القول الثاني: أنَّه لم يكُنْ مِنَ الملائكةِ، وهو قولُ الحَسَنِ البصريِّ، واختاره ابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٠) و(٥/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٠).

حين أمَرْتُك بالسُّجُودِ له[١]؟

﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

أي: قال إبليسُ لله سبحانه: منعني من السُّجودِ له أنَّني أفضَلُ منه؛ لأنَّك خَلَقْتَني مِنَ النَّارِ، وخَلَقْتَه مِن الطِّينِ، والنَّارُ أفضَلُ مِنَ الطِّينِ، فكيف أسجُدُ له[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٢).

قال الشنقيطي: (في (لا) هنا وجهان: أحدُهما: أنَّ ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ مضمَّنةٌ معنى فِعلٍ [آخر، هو ألجأ] و (لا) في بابها ليسَتْ زائدة، أي: ما ألجأكَ وأحوَجَك إلى أنْ لا تسجُدَ؟ [أي:] ما المانعُ الذي ألجأَك وأحوَجَك إلى أن لا تسجُدَ؟! وتضمينُ الفِعلِ معنى فعلٍ، معروفٌ، قال به عامَّةُ عُلماءِ النَّحو من البَصريين. وأظهَرُ القولين في هذا: أنَّ (لا) هنا جيءَ بها لتأكيدِ النَّفيِ؛ لأنَّ (منعك) في معنى الجُحودِ والنَّفي، وإتيانُ (لا) زائدةً في الكلامِ الذي فيه معنى الجَحدِ، مطَّرِدٌ،... ومن أساليبِ اللُّغة العربية زيادةُ لَفظِ (لا) لتوكيدِ الكلام). ((العذب النمير)) (٣/ ١١٢، ١١٤).

ويُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤١-٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١١٩-١٢١).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ذُكِرَ في هذه الآيةِ الكَريمةِ: أنَّ إبليسَ لعَنَه اللهُ خُلِقَ مِن نارٍ، وعلى القولِ بأنَّ إبليسَ هو الجانُّ الذي هو أبو الجِنِّ، فقد زاد في مواضِعَ أُخَرَ أوصافًا للنَّارِ التي خلَقَه منها؛ من ذلك أنَّها نارُ السَّمُومِ، كما في قوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧]، ومِن ذلك أنَّها خُصوصُ المارِجِ، كما في قوله: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن:١٥]، والمارِجُ أخَصُّ مِن مُطلَقِ النَّارِ؛ لأنَّه اللَّهَب الذي لا دُخَان فيه. وسُمِّيَت نارَ السَّمومِ؛ لأنَّها تَنفُذُ في مسامِّ البَدَنِ؛ لشِدَّةِ حَرِّها). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٠).

وقال الشنقيطي أيضًا: (قولُه جلَّ وعلا حكايةً عن إبليسَ: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ كأنَّ اللهَ لَمَّا سألَ إبليسَ- وهو عالِمٌ؛ لأنَّه جلَّ وعلا أعلَمُ بالموجِبِ الذي بسبَبِه امتنَعَ إبليسُ من السجود- قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ وهو أعلَمُ، فأجاب إبليسُ- عليه لعائن الله- بما كان يُضمِرُه مِنَ الكِبرِ، وكأنَّه اعترَض على ربِّه، وواجه ربَّه جلَّ وعلا بأنَّ تكليفَه إيَّاه أمرٌ لا ينبغي ولا يصلُحُ!! فخَطَّأَ ربَّه جلَّ وعلا، سبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا! وجعل ذلك ذريعةً له ومُبَرِّرًا في زَعمِه الباطِلِ لعَدَمِ السُّجود). ((العذب النمير)) (٣/ ١١٩).

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٥-٧٦].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُلِقَتِ الملائكةُ من نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكم))(١).

﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لإبليسَ: فاهبِطْ مِنَ الجنَّةِ؛ بسبَبِ عصيانِك لأمري، وخُروجِك عن طاعَتي؛ فليس لك أن تستكبِرَ في الجَنَّةِ عن طاعتي وأمري(٢).

﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾.

أي: فاخرُجْ مِنَ الجنَّةِ؛ إنَّك مِنَ الذَّليلينَ الحَقيرينَ(٣).

﴿ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٣).

وقد اختلف المُفَسِّرون: هل المرادُ الهبوطُ مِنَ الجنَّة أو الهبوطُ مِنَ السَّماء أو مِنَ المنزِلَة والمكانةِ؟ على أقوال:

الأوَّل: أنَّ المعنى: فاهبِطْ مِنَ الجنَّة؛ فليس لك أن تستكبِرَ في الجنَّة. اختاره ابنُ جرير وابن عطية والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤). وينظر أيضًا: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨).

الثاني: أنَّ المعنى: فاهبِطْ من السَّماءِ؛ فليس لك أن تستكبِرَ في السَّماءِ. اختاره الواحدي والقرطبي. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٣).

الثالث: أنَّ المرادَ المنزلةُ التي كان فيها في المَلَكوتِ الأعلى. ذكره ابنُ كثير احتمالًا. ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٣).

أي: قال إبليسُ: أخِّرْني وأمهِلْني إلى أن يُبعَثَ الخَلقُ يومَ القِيامةِ(١).

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: إنَّك مِنَ المؤخَّرينَ الذين لا يُميتُهم اللهُ إلَّا وَقتَ النَّفخةِ الأولى، حين يموتُ الخَلقُ كُلُّهم(٢).

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: قال إبليسُ مُخاطبًا رَبَّه: فبسَبَبِ إضلالِك لي، أُقسِمُ بك لألزَمَنَّ الجلوسَ لذُرِّيَّةِ آدَمَ على طريقِكَ الحَقِّ القَويمِ، المُوصِلِ إلى الجنَّة- وهو الإسلامُ وشرائِعُه- فأَصُدُّهم عن عبادَتِك وطاعَتِك، وأُزَيِّنُ لهم الباطِلَ؛ لئلَّا يُوَحِّدوك ويَعبُدوك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٠٦).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ لم يُبَيِّنْ هنا في سُورةِ الأعرافِ الغايةَ التي أنظَرَه إليها، وقد ذَكَرَها في «الحِجْر» و«ص»، مُبَيِّنًا أنَّ غايةَ ذلك الإنظارِ هو يومُ الوَقتِ المَعلومِ؛ لِقَولِه: في سورة «الحِجر» و «ص»: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ فقد طلَبَ الشَّيطانُ الإنظارَ إلى يومِ البَعثِ، وقد أعطاه اللهُ الإنظارَ إلى يَومِ الوَقتِ المَعلومِ. وأكثَرُ العُلَماءِ يقولون: المُرادُ به وَقتُ النَّفخةِ الأولى، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٢/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠-٩١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٢-١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٣-١٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩١، ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٣-٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٦-٤٧).

قال ابن القيم: (أفضَلُ ما يُقَدِّرُ اللهُ لعَبدِه وأجَلُّ ما يَقسِمُه له: الهُدى، وأعظَمُ ما يبتليه به ويُقَدِّرُه عليه: الضَّلالُ، وكلُّ نعمةٍ، دونَ نِعمةِ الهدى، وكلُّ مُصيبةٍ، دُونَ مُصيبةِ الضَّلالِ، وقد اتَّفَقت رُسُلُ اللهِ مِن أوَّلِهم إلى آخِرِهم، وكُتُبُه المُنَزَّلةُ عليهم، على أنَّه سبحانه يُضِلُّ مَن يشاءُ، ويَهدي مَن يشاء، وأنَّه مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هادِيَ له، وأنَّ الهُدى والإضلالَ بيَدِه لا بيَدِ العَبدِ، وأنَّ العَبدَ هو الضَّالُّ أو المُهتدي؛ فالهدايةُ والإضلالُ فِعلُه سبحانه وقَدَرُه، والاهتداءُ والضَّلالُ فِعلُ العَبدِ وكَسْبُه). ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وعن سَبْرَةَ بنِ أبي فاكِهٍ رَضِيَ الله عنه، قال: سمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((إنَّ الشَّيطانَ قعَدَ لابنِ آدَمَ بأطرُقِه، فقعد له بِطَريقِ الإسلامِ، فقال له: أتُسلِمُ وتَذَرُ دِينَك، ودينَ آبائِك، وآباءِ أبيك؟! قال: فعصاه، فأسلَمَ، ثمَّ قعَدَ له بطريقِ الهِجرةِ، فقال: أتُهاجِرُ وتَذَرُ أرضَك، وسماءَك؟! وإنَّما مَثَلُ المُهاجِرِ كمَثَلِ الفَرَسِ في الطِّوَلِ[1]، قال: فعَصَاه فهاجَرَ، قال: ثمَّ قعَدَ له بِطَريقِ الجِهادِ، فقال: هو جَهْدُ النَّفسِ والمالِ، فتُقَاتِلُ فتُقتَلُ، فتُنكَحُ المرأةُ، ويُقسَمُ المالُ، قال: فعصاه فجاهَدَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فمَن فعَلَ ذلك منهم فمات، كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ، أو قُتِلَ كان حَقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ، وإن غَرِقَ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ، أو وَقَصَتْه[2] دابَّةٌ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ))[3].

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾.

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾.

---

(١) الطِّوَل: هو الحَبلُ الذي يُشَدُّ أحَدُ طَرَفيهِ في وَتِدٍ، والطَّرَفُ الآخَرُ في يَدِ الفَرَسِ، وهذا من كلامِ الشَّيطانِ، ومقصودُه: أنَّ المُهاجِرَ يصيرُ كالمُقَيَّدِ في بلادِ الغُربةِ؛ لا يدورُ إلَّا في بَيتِه، ولا يُخالِطُه إلَّا بعضُ مَعارِفِه، فهو كالفَرَسِ في طِوَلٍ، لا يدورُ ولا يرعى إلَّا بقَدْرِه، بخِلافِ أهلِ البِلادِ في بلادِهم؛ فإنَّهم مَبسوطونَ لا ضِيقَ عليهم، فأحَدُهم كالفَرَسِ المُرسَلِ. يُنظر: ((حاشية السِّندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢٢).

(٢) الوَقْصُ: كَسْرُ العُنُقِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢١٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٠٦).

(٣) أخرجه النسائي (٣١٣٤) واللفظ له، وأحمد (١٦٠٠٠)، وابن حبان (٤٥٩٣).

قال المِزِّي في ((تهذيب الكمال)) (٧/ ٤٩): في إسنادِه اختلافٌ، وذكر أنَّ له متابعةً، وصحَّحَ إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٣٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣١٣٤).

أي: ثُمَّ لآتِينَّ بني آدَمَ مِن جَميعِ الوُجوهِ، ومُختَلِفِ الطُّرُق، فأصُدُّهم عن الحَقِّ، وأُحَسِّنُ لهم الباطِلَ(١).

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا عَلِمَ الخبيثُ إبليسُ أنَّهم ضُعفاءُ، قد تغلِبُ الغفلةُ على كثيرٍ منهم، وكان جازِمًا ببَذلِ مجهودِه على إغوائِهم- ظَنَّ وصَدَّق ظَنَّه، فقال(٢):

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

أي: ولا تجِدُ أكثَرَ بني آدَمَ شاكرينَ لك، بل يُشرِكونَ بك، ولا يُوَحِّدونَك، ويعصُونَك، ولا يُطيعونَك(٣).

وقولُ إبليسَ هذا إنَّما هو ظنٌّ منه وتوَهُّم، وقد وافَقَ في هذا الواقِعَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾(٤) [سبأ: ٢٠-٢١].

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾.

أي: قال اللهُ عزَّ وجلَّ لإبليسَ: اخرُجْ مِنَ الجنَّةِ مَذمومًا ممقوتًا، مطرودًا مِن رحمةِ اللهِ سبحانه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠١-١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥)، ((أضواء =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٧-٧٨].

﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: أُقسِمُ على أنَّ مَنِ اتَّبَعك مِن بَني آدمَ أنْ أملأَ نارَ جهنَّمَ يومَ القيامةِ منهم ومِنك ومِن ذُرِّيتِك(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- في التَّعقيبِ بهذه الآيةِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ على آيةِ: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ إهمالَ شُكْرِ

= البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١).

وتقدَّمَ قريبًا في تفسيرِ قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣] خلافُ المفَسِّرين في عَودِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿منها﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

قال النحَّاس: (قال أبو إسحاقَ: من قرأ ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ؛ فهي عِندَه لامُ قَسمٍ، وهي توطِئةٌ لِقَولِه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، وقال غيرُه: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ﴾ هي لامُ توكيدٍ، ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لامُ قسمٍ، الدليلُ على هذا أنَّه يجوزُ في غيرِ القُرآنِ حَذفُ اللامِ الأولى، ولا يجوزُ حَذفُ الثَّانيةِ). ((إعراب القرآن)) (٢/ ٤٧).

النِّعمةِ يُعَرِّضُ صاحِبَها لِزَوالِها، وهو ما دلَّ عليه قَولُه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ فيه التَّذكيرُ بنِعمةِ الإيجادِ؛ ليشكُروا مُوجِدَهم(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ فيه تنبيهٌ وإيقاظٌ إلى عَداوةِ الشَّيطانِ لِنَوعِ الإنسانِ مِنَ القِدَمِ؛ ليكون ذلك تحذيرًا مِن وَسوَسَتِه وتَضليلِه، وإغراءً بالإقلاعِ عمَّا أوقَعَ فيه النَّاسَ مِن الشِّركِ والضَّلالةِ(٣).

٤- جعْلُ امتثالِ أمْرِ الرَّبِ تعالى مشروطًا باستحسانِ العَبدِ له، ومُوافَقَتِه لرَأيِه وهواه؛ هو رفضٌ لطاعةِ الرَّبِّ، وترَفُّعٌ عن مرتبةِ العبد(٤)، فعندما يُوجَدُ النَّصُّ القاطِعُ، والأمرُ الجازِمُ مِنَ اللهِ تعالى؛ ينقَطِعُ النَّظَرُ، ويَبطُلُ التفكُّرُ، وتتعَيَّنُ الطَّاعةُ، ويتحَتَّمُ التَّنفيذُ؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾(٥).

٥- في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العُجْبَ هو الذي أَهلَكَه(٦).

٦- الاحتجاجُ على فضلِ الإنسانِ على غيرِه بفضلِ أصْلِه على أصلِه حَجَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٥)

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٦٦).

(٦) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٥٧).

فاسِدَةٌ، احتجَّ بها إبليسُ حيثُ قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، وهي حجَّةُ الَّذين يفخرونَ بأنسابِهم، وقد قال النَّبي صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: ((مَن بطَّأ به عملُه لم يُسرِعْ به نَسَبُه))(١).

٧- التكبُّرُ على اللهِ تعالى يوجِبُ العِقابَ الشَّديدَ، والإخراجَ مِن زُمرةِ الأولياءِ، والإدخالَ في زُمرةِ المَلْعونينَ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّه ليس لِمَن في الجنَّةِ أنْ يتكبَّرَ، وأنَّ التكبُّرَ لا يليقُ بأهلِ الجنَّةِ والسَّماءِ، وأنَّه تعالى إنَّما طرَدَ إبليسَ لتكبُّرِه، لا لمجرَّدِ المعصيةِ، وكما في الحديثِ: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلْبِه مثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبْرٍ))(٣).

٩- قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ حكمةُ إنظارِ اللهِ تعالى لإبليسَ- وإن كان ذلك سَببًا للغَوايةِ والفِتنةِ- أنَّ في ذلك ابتلاءَ العبادِ بمُخالَفَتِه وطَواعِيَتِه، وما يترتَّبُ على ذلك مِن إعظامِ الثَّوابِ بالمُخالفةِ، وإدامةِ العِقابِ بالطَّواعِيَةِ(٤).

١٠- قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٦).
والحديث أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة.
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣١٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٥).
والحديثُ أخرجه مسلم في ((صحيحه)) (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩).

أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ إنَّما نَبَّهَنا اللهُ تعالى على ما قال إبليسُ وعَزَم على فِعْلِه؛ لِنأخُذَ منه حِذْرَنا، ونستَعِدَّ لعَدُوِّنا، ونحترزَ منه بعِلْمِنا بالطَّريقِ التي يأتي منها، ومَداخِلِه التي ينفُذُ منها[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ إشارةٌ إلى منزلةِ الشُّكرِ؛ حيث إنَّ ابليسَ لَمَّا عَرَفَ قدْرَ مقامِ الشُّكرِ، وأنَّه مِن أجَلِّ المقاماتِ وأعلاها، جَعَلَ غايَتَه أنْ يسعَى في قَطْعِ النَّاسِ عنه[2].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ﴾ فيه بيانُ السَّبَبِ في قِلَّةِ الشُّكرِ المَذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ﴾ وكشْفُ الدَّافِعِ الحقيقيِّ الخفِيِّ؛ مِن حَيلولةِ إبليسَ دُونَه، وقُعودِه على الطَّريقِ إليه! ليستيقظَ البَشَرُ للعَدُوِّ الكامِنِ الذي يدفَعُهم عن الهُدى، ولِيأخُذُوا حِذْرَهم حين يَعرِفونَ مِن أينَ هذه الآفةُ التي لا تجعَلُ أكثَرَهم شاكرينَ[3]!

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ إثباتُ الصِّفاتِ الاختياريَّةِ للهِ تعالى- كصِفةِ الكَلامِ هنا- فهذا بَيِّنٌ في أنَّه إنَّما أَمَرَ الملائكةَ بالسُّجودِ بعد خَلْقِ آدمَ، ولم يَأمُرْهُم في الأزَلِ[4].

٢- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ صِيغةَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١١٧).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٦٧).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٢).

(افْعَلْ) تأتي -في أصلِ وضعِها- للوُجوبِ، وكذلك قولُه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ مُطلَقَ الأمرِ يدلُّ على الوُجوبِ؛ لذمِّ إبليسَ على امتناعِه مِنَ السُّجُودِ، ولو لم يَدُلَّ على الوُجوبِ لم يَستوجِبِ الذَّمَّ والتوبيخَ[١].

٣- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ على تفضيلِ النبيِّ على المَلَك؛ لأنَّ اللهَ أَمَرَ الملائكةَ بالسُّجودِ لآدَمَ على سبيلِ التَّكريمِ له؛ حتى قال إبليسُ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾[٢] [الإسراء: ٦٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ مُطلَقَ الأمرِ يدلُّ على الفَورِ؛ لِذَمِّ إبليسَ على امتناعِه مِنَ السُّجودِ في الحالِ، ولو لم يدُلَّ على الفَورِ لم يستوجِبِ الذَّمَّ في الحالِ[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال الله هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ وفي سورةِ الحِجر ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ وقال في سورةِ ص: ﴿أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ واختلافُ العباراتِ عندَ الحكايةِ يدلُّ على أنَّ اللعينَ قد أَدْرج في معصيةٍ واحدةٍ ثلاثَ معاصٍ: مخالفةُ الأمرِ، ومفارقةُ الجماعةِ، والاستكبارُ معَ تحقيرِ آدمَ، وقد وُبِّخ على كلِّ واحدةٍ منها، لكن اقتصر عندَ الحكايةِ في كلِّ موطنٍ على ما ذكر فيه؛ اكتفاءً بما ذكر في موطنٍ آخرَ[٤].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ القِياسَ في مَورِدِ النَّصِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٧-٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨).

(٤) ((فتح البيان في مقاصد القرآن)) لمحمد صديق خان (٤/ ٣١٠).

فاسِدٌ[١]، فقد كانت حُجَّةُ إبليسَ باطلة؛ لأنَّه عارَضَ النصَّ بالقِياسِ[٢].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ﴾ أصلٌ في ثُبُوتِ الحَقِّ لأهلِ المحَلَّةِ أن يُخرِجُوا مِن مَحَلَّتِهم مَن يُخشَى مِن سِيرَتِه فُشُوُّ الفَسادِ بينهم[٣].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أفاد التَّأكيدُ بـ (إنَّ) والإخبارُ بصيغةِ (مِنَ المُنْظَرِينَ) أنَّ إنظارَه أمرٌ قد قضاه اللهُ وقَدَّرَه مِن قَبلِ سُؤالِه؛ أي: تحقَّقَ كَونُك مِن الفَريقِ الذين أُنظِرُوا إلى يومِ البَعثِ، وأنَّ اللهَ ليس بمُغَيِّرٍ ما قدَّرَه له، فجوابُ اللهِ تعالى لإبليسَ إخبارٌ عن أمرٍ تحَقَّقَ، وليس إجابةً لطَلِبَةِ إبليسَ[٤]؛ لأنَّه أهونُ على اللهِ مِن أن يُجيبَ له طلبًا، وهذه هي النُّكتةُ في العدولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥).

وقال ابن تيمية: (ويظهرُ فسادُها بالعقلِ مِن وُجوهٍ خمسةٍ: أحدُها: أنَّه ادَّعَى أنَّ النارَ خَيرٌ مِن الطينِ، وهذا قد يُمنعُ؛ فإنَّ الطِّينَ فيه السَّكينَةُ والوَقارُ والاستقرارُ والثَّباتُ والإمساكُ ونحوُ ذلك، وفي النارِ الخِفَّةُ والحِدَّةُ والطَّيْشُ، والطينُ فيه الماءُ والتُّرابُ. الثاني: أنَّه وإن كانت النارُ خَيرًا مِن الطينِ، فلا يَجِبُ أن يَكونَ المخلوقُ مِن الأفضلِ أفضلَ؛ فإنَّ الفرعَ قد يختصُّ بما لا يكونُ في أصْلِه، وهذا التُّرابُ يُخلَقُ منه مِن الحيوانِ والمعادنِ والنَّباتِ ما هو خيرٌ منه. الثالثُ: أنَّه وإن كان مخلوقًا من طينٍ، فقد حَصَل له بنفخِ الروحِ المقدَّسةِ فيه ما شُرِّف به، فلهذا قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فعُلِّق السُّجودُ بأن ينفُخَ فيه مِن روحِه، فالموجِبُ للتَّفضيلِ هذا المعنَى الشَّريفُ، الَّذي ليس لإبليسَ مِثلُه. الرابعُ: أنَّه مخلوقٌ بيدَي اللَّهِ تعالَى، كما قال تعالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. الخامسُ: أنَّه لو فُرِضَ أنَّه أفضلَ فقد يُقالُ: إكْرامُ الأفضلِ للمفضولِ ليس بمُستنكَرٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٥) بتصرف.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٤).

(٤) قال ابنُ جريرٍ: (فإنْ قال قائلٌ: فإنَّ اللَّه قد قال له إذْ سأله الإنظارَ إلى يومِ يُبْعَثونَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ في هذا الموضعِ، فقد أجابَه إلى ما سَأل؟ قيل له: ليس الأمرُ كذلك، وإنَّما كان مُجيبًا له إلى ما سأل لو كان قال له: إنَّك مِنَ المُنظَرينَ إلى الوقتِ الَّذي سألتَ، أو إلى يومِ البعثِ، أو إلى يومِ يُبعثون، أو ما أشْبَه ذلك ممَّا يدلُّ على إجابَتَه إلى ما سألَ مِنَ النَّظِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠).

عَن أن يكونَ الجوابُ: أنظَرْتُك، أو أجبْتُ لك؛ ممَّا يدُلُّ على تكرُمةٍ باستجابةِ طَلَبِه، ولكنَّه أعلَمَه أنَّ ما سألَه أمرٌ حاصِلٌ، فسؤالُه تحصيلُ حاصلٍ[1].

٩- إن قال قائل: فهل أحَدٌ مُنْظَرٌ إلى ذلك اليومِ سِوى إبليسَ، فيُقال له: (إنك منهم)؟

قيل: نعم، مَنْ لم يقبضِ الله رُوحَه مِن خلقِه إلى ذلك اليومِ، ممَّن تقومُ عليه الساعةُ، فهم مِن المنظرين بآجالِهم إليه، ولذلك قِيل لإبليسَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، بمعنى: إنَّك ممَّن لا يميتُه الله إلا ذلك اليومَ[2].

١٠- قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ..﴾ استخدَمَ لفظَ القُعودِ؛ لأنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ أنَّه يُواظِبُ على الإفسادِ مُواظبةً لا يفتُرُ عنها، فإنَّ مَن أراد أن يبالِغَ في تكميلِ أمرٍ مِنَ الأمورِ، قعدَ حتى يصيرَ فارغَ البالِ، فيُمكِنه إتمامُ المقصودِ[3].

١١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ إبليسَ عَلِمَ أنَّ اللهَ خلَقَ البَشَر للصَّلاحِ والنَّفعِ، وأنَّه أودَعَ فيهم معرفةَ الكَمالِ، وأعانهم على بلوغِه بالإرشادِ، وبهذا الاعتبارِ كان إبليسُ عَدُوًّا لبني آدمَ؛ لأنَّه يطلُبُ منهم ما لم يُخلَقوا لأجلِه، وما هو مُنافٍ للفِطرةِ التي فطرَ اللهُ عليها البشَرَ[4].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٨).

هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ إبليسَ كان عالِمًا بالدِّينِ الحقِّ، والمنهجِ الصَّحيحِ؛ لأنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وصراطُ اللهِ المستقيمُ هو دِينُه الحقُّ، ودلَّ أيضًا على أنَّ إبليسَ كان عالِمًا بأنَّ الذي هو عليه مِنَ المذهَبِ والاعتقادِ هو مَحضُ الغَوايةِ والضَّلالِ؛ لأنَّه لو لم يكن كذلك لَمَا قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾[(١)].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في هذا بيانٌ واضِحٌ على فسادِ ما يقولُ القَدَريَّةُ مِن أنَّ كُلَّ مَن كفَرَ أو آمَنَ فبِتَفويضِ اللهِ أسبابَ ذلك إليه، وأنَّ السَّبَبَ الذي به يَصِلُ المؤمِنُ إلى الإيمانِ، هو السبَبُ الذي به يصِلُ الكافِرُ إلى الكُفرِ، وذلك أنَّ ذلك لو كان كما قالوا لكان الخَبيثُ قد قال بقَولِه: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ فبما أصلَحْتَني، إذ كان سببُ الإغواءِ هو سببَ الإصلاحِ، وكان في إخبارِه عن الإغواءِ إخبارٌ عَنِ الإصلاحِ، ولكِنْ لَمَّا كان سَبَباهما مختلفينِ، وكان السَّبَبُ الذي به غوى وهلك، مِن عندِ اللهِ؛ أضاف ذلك إليه فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾[(٢)]، فخالف القَدَريَّة وغيرُهم شيخَهم إبليسَ الذي طاوَعُوه في كلِّ ما زَيَّنَه لهم، ولم يطاوِعوه في هذه المسألةِ، ويقولون: أخطأ إبليسُ، وهو أهلٌ للخَطَأ؛ حيث نسَبَ الغَوايةَ إلى ربِّه، تعالى اللهُ عَن ذلك. فيُقال لهم: وإبليسُ وإن كان أهلًا للخطإِ، فما تصنعونَ في نَبيٍّ مُكَرَّمٍ مَعصومٍ، وهو نوحٌ عليه السَّلامُ؛ حيث قال لِقَومِه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٣)] [هود: ٣٤].

١٤- وَجهُ جَمعِ اليَمينِ والشِّمالِ في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أنَّه جاءَ في مُقابلةِ كَثرةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٢، ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٥).

مَن يريدُ إغواءَهم، فكأنَّه أقسمَ أنْ يأتيَ كلَّ واحدٍ مِن بَينِ يَدَيه ومِن خَلْفِه، وعن يمينِه وعَن شِمالِه، ولا يحسُنُ هنا عن يَمينِهم وعن شِمالِهم، بل الجمعُ هنا مِن مُقابلةِ الجُملةِ بالجملةِ، المقتضي توزيعَ الأفرادِ، ونظيرُه: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾(١).

١٥- ذكَرَ اللهُ تعالى عن آدمَ عليه السَّلامُ أنَّه لَمَّا فعَلَ ما فَعَل، قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وعن إبليسَ أنه قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فمَن تاب أشبَهَ أباه آدَمَ، ومن أصَرَّ واحتَجَّ بالقَدَرِ، أشبَهَ إبليسَ(٢).

١٦- كان إبليسُ أوَّلَ مَن قَدَّمَ القَدَرَ على الأمرِ، وعارَضَه به، وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فرَدَّ أمرَ اللهِ بقَدَرِه، واحتَجَّ على ربِّه بالقَدَر(٣).

١٧- قَولُه تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ دلَّ على أنَّ ذلك الوَصْفَ لا يُغتفَرُ منه؛ لأنَّ النَّفيَ بصيغةِ (ما يكونُ لك كذا) أشَدُّ مِنَ النَّفيِ بـ (ليس لك كذا)، وهو يستلزِمُ هنا نهيًا؛ لأنَّه نفاه عنه مع وقوعِه(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٣٤)، ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٤).

- قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ باللَّامِ و (قد) المفيدِ للتَّحقيقِ؛ تنزيلًا للمقصودِينَ مِنَ الخطابِ مَنزلةَ مَن يُنكِرُ مَضمونَ الخَبَرِ؛ لأنَّهم لَمَّا عَبَدوا غيرَ اللهِ كان حالُهم كحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ الله هو الذي مكَّنَهم مِنَ الأرضِ، أو كحالِ مَن يُنكِرُ وُقوعَ التَّمكينِ مِن أصلِه(١).

- قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ فيه تقديمُ ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ على المفعولِ به ﴿مَعَايِشَ﴾ مع أنَّ الأصلَ أنْ يُقَدَّمَ المفعولُ به على غَيرِه مِن مُتعَلِّقاتِ الفِعلِ؛ لأنَّ القاعدةَ في تَقديمِ بعضِ الكَلامِ على بعضٍ، هي أن يُقَدَّمَ المقصودُ بالذَّاتِ، والأهَمُّ فالأهَمُّ منه؛ فهَاهُنا ثلاثةُ أشياءَ: المعايِشُ، وكونُها في الوَطَنِ الذي يعيش فيه المَرءُ، وكَونُ المرءِ مالكًا لها، ومُتَصرِّفًا فيها، ولا مُشاحَّةَ في أنَّ الأهمَّ عند كلِّ إنسانٍ: أن يكون مالكًا لِمَا يَعيشُ به، ويتلوه أن يكونَ ذلك في وَطَنِه، ويتلوه أنواعُه وأن تكونَ كثيرةً، وهو ما أفاده تركيبُ الكَلِماتِ في الآيةِ، ولا تَجِدُ هذه الدِّقَّةَ في تقديمِ ما ينبغي وتأخيرِ ما ينبغي، مُطَّرِدةً إلَّا في كتابِ الله تعالى(٢).

- قولُه: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ تذييلٌ مَسوقٌ لِبيانِ سوءِ حالِ المُخاطَبينَ، وتَحذيرِهم(٣)، ويجوز أنْ تكون القِلَّةُ كنايةً عَنِ العَدَمِ على طريقَةِ الكَلامِ المُقتَصَدِ؛ استنزالًا لتذَكُّرِهم(٤).

٢- قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ تصديرُ جُملةِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).

بالقَسَمِ وحرفِ التَّحقيقِ؛ لإظهار كَمالِ العِنايةِ بِمَضمونِهما[١].

– وفيه نُسِبَ الخلقُ والتَّصويرُ إلى المُخاطَبينَ مع أنَّ المُرادَ بهما خَلْقُ آدَمَ عليه السَّلامُ وتَصويرُه؛ توفيةً لِمَقامِ الامتنانِ حَقَّه، وتأكيدًا لِوُجوبِ الشُّكرِ عَليهم[٢].

– وعُطِفَتْ جُملةُ ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ على ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ بحَرفِ (ثُمَّ) الدالِّ على تراخي رُتبةِ التَّصويرِ عن رُتبةِ الخَلقِ؛ لأنَّ التَّصويرَ حالةُ كَمالٍ في الخَلقِ[٣].

– قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ في اختيارِ الإخبارِ عن نَفيِ سُجُودِه بجَعْلِه مِن غَيرِ السَّاجدينَ: إشارةٌ إلى أنَّه انتَفَى عنه السُّجودُ انتفاءً شديدًا؛ لأنَّ قَولَك: (لم يكُنْ فُلانٌ مِن المُهتدينَ) يفيدُ مِنَ النَّفيِ أشَدَّ مِمَّا يُفيدُه قولُك: (لم يكُنْ مُهتَديًا)[٤]، وأيضًا فنفيُ كَونِ إبليسَ مِنَ السَّاجدينَ أخصُّ مِن نَفيِ السُّجودِ عنه؛ لأنَّ نَفيَ الكونِ يقتَضي نفيَ الأهليَّةِ والاستعدادِ، فهو أبلغُ في الذَّمِّ مِن أنْ يُقالَ: لم يسجُدْ[٥].

٣- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

– قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للجَوابِ عَن سؤالٍ نَشأَ مِن حكايةِ عَدَمِ سُجُودِه؛ كأنَّه قيل: فماذا قال اللهُ تعالى حينئذٍ؟ وكان مقتضى الظَّاهِرِ أن يُقال: (قُلْنا)، فكان العدولُ إلى ضميرِ الغائبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٧).

الْتِفاتًا نُكتَتُه تحويلُ مَقامِ الكَلامِ؛ إذ كان المقامُ مَقامَ أمرٍ للمَلائكةِ ومَن في زُمرَتِهم، فصار مقامَ تَوبيخٍ لإبليسَ خاصَّةً[1].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ للتَّوبيخِ، ولإظهارِ معانَدَتِه وكُفْرِه، وكِبْرِه، وافتخارِه بأصلِه، وازدرائِه بأصلِ آدَمَ، وأنَّه خالَفَ أمرَ رَبِّه معتقدًا أنَّه غيرُ واجبٍ عليه، لَمَّا رأى أنَّ سُجودَ الفاضِلِ للمَفْضولِ خارجٌ مِنَ الصَّوابِ[2].

- و(لا) في قوله: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ مَزيدةٌ للتَّأكيدِ والتَّحقيقِ، ولا تُفيدُ نَفيًا؛ لأنَّ الحرفَ المَزيدَ للتَّأكيدِ لا يُفيدُ معنًى غيرَ التَّأكيدِ؛ كأنَّه قيل: ما منَعَك أن تُحقِّقَ السُّجودَ وتُلزِمُه نَفسَك إذْ أَمَرْتُكَ؟ لأنَّ أمري لك بالسُّجودِ أُوجِبُه عليك إيجابًا، وأُحَتِّمُه عليك حَتمًا لا بدَّ لك منه[3]، وذلك على أحدِ القولينِ في (ألاَّ).

- قولُه تعالى حاكيًا عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ﴾ قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ مَسوقٌ مَساقَ التَّعليلِ للامتناعِ، وجُملةُ: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ بيانٌ لِجُملةِ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾؛ فلذلك فُصِلَتْ-أي: لم تُعطَفْ بالواوِ[4].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ الأعراف: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ من غيرِ نِدائِه باسِمه، وقال تعالى في سورةِ الحِجر: ﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ [الحجر: ٣٢]، وقال في سُورة ص: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ [ص: ٧٥] بزيادةِ ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾ فيهما؛ وذلك لأنَّ خِطابَه ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ قَرُبَ مِن ذِكرِه في هذه السُّورةِ، وهو قولُه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾؛ فحَسُنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤١).

حذْفُ حرْفِ النِّداء والمُنادَى، ولم يقرُبْ في سورةِ ص قُربَه منه في هذِه السُّورةِ؛ لأنَّه قال في ص: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٤] بزِيادةِ ﴿اسْتَكْبَرَ﴾؛ فزادَ حرْف النِّداءِ والمنادَى فقال: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾، وكذلك في الحِجر؛ فإنَّ فيها: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[1] [الحجر: ٣١].

وقيل: إنَّه لَمَّا تَقدَّم في الأعرافِ ذِكرُ خَلْق الإنسانِ وتصويرِه مِن غيرِ ذِكرِ المادَّة التي خُلِق منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، والخِطاب لبَنِي آدم، ولم يُذْكَر خَلْقُ غيرِهم مِن مَلَك أو جِن، ثم إنَّ الأمرَ بالسُّجود ورَد للملائكةِ، ولم يرِدْ إشعارٌ بأنَّ إبليسَ مِن غيرهم، فسَبَق من ظاهِرِ الكلامِ أنَّه منهم ومأمورٌ معهم؛ فناسَبَ هذا قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾؛ لأنَّه مأمورٌ بظاهرِ ما تقدَّم، وناسَب ذلك أيضًا وعضَّدَه قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، أمَّا آيةُ الحِجرِ فقدْ تقدَّم قَبْلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال في سُورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، فلمَّا لم يكُن في أصلِ الخِلقةِ والمادَّة منهم، وكان الأمرُ بظاهِرِ العِبارةِ لهم، وإنْ كان مُرادًا أنَّه معهم، فبحسَبِ ذلك استُؤنِفَ نِداؤُه، فقِيل: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾؛ فنُودي باسمِه المشعِرِ بطَرْدِه ومغايرتِه لهم[2]. وقيل: ذلك الاختلافُ تَفنُّنٌ؛ جريًا على عادةِ العربِ في تَفنُّنهم في الكلامِ[3].

- وأيضًا قال تعالى هنا في سُورةِ الأعرافِ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٧).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٧-١٧٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٧).

إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وقال تعالى في سُورةِ الحجر: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢]، فلم يَذكُرِ المعيَّةَ في سورة الأعراف وذَكَرَها في الحِجرِ؛ وذلك لمُناسَبةٍ حسَنةٍ؛ فإنَّه لَمَّا تقدَّم في الأعرافِ ذِكرُ خَلقِ الإنسانِ وتَصويرِه من غيرِ ذِكرِ المادَّة التي خُلِق منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ولم يَذكُر خَلْق غيرِهم مِن مَلَك أو جِنٍّ، ثم إنَّ الأمرَ بالسُّجودِ ورَدَ للملائكةِ، ولم يَرِدْ إشعارٌ بأنَّ إبليس مِن غيرهم؛ فسَبَق من ظاهرِ الكلامِ أنَّه منهم، ومأمورٌ معهم، فناسَب هذا قولُه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾؛ لأنَّه مأمورٌ بظاهرِ ما تَقدَّم. أمَّا آيةُ الحجرِ فقدْ تقدَّم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٦- ٢٩]؛ فأشارتِ الآياتُ بظاهرِها إلى أنَّ إبليسَ لم يَكُن في أصلِ الخِلقةِ والمادَّةِ من الملائكةِ، وكان الأمرُ بظاهرِ العبارةِ لهم، وإنْ كان مرادًا أنَّه معهم؛ فبحَسَبِ هذا وردتِ المعيةُ في قولِه: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[1] [الحجر: ٣٢].

- وأيضًا قال تعالى هنا في سُورة الأعرافِ، وكذا في سورة ص: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، ص: ٢٨]، فاستُوفِيَ ذِكرُ المادَّتين: الطِّين والنار، وقال في سُورةِ الحجر: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]، فلم يَذكُرِ النَّارَ؛ وذلك لمُناسَبةٍ حَسنةٍ؛ إذ إنَّه لم يقَعْ ذِكرٌ لخَلقِ غيرِ الآدميِّين في سورة الأعراف؛ فناسَبَ ذلك ما ذَكَره سبحانه عن إبليس من قولِه: ﴿أَنَا خَيْرٌ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٧-١٧٨).

مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فاسْتُوفي ذِكرُ المادَّتَينِ، وبَنَى على ذلِك إبليسُ ما توهَّم مِن فَضلِ النَّارِ على الطِّينِ(١).

٤- قوله: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الفاءُ في ﴿فَما يَكُونُ...﴾ للسَّببيَّةِ والتَّفريعِ؛ تعليلًا للأمرِ بالهُبوط، وهو عُقوبةٌ خاصَّةٌ: عُقوبةُ إبعادٍ عَنِ المَكانِ المُقَدَّسِ؛ لأنَّه قد صار خُلُقُه غيرَ ملائمٍ لِمَا جَعَلَ اللهُ ذلك المكانَ له(٢).

- قَولُه: ﴿فَاخْرُجْ﴾ فيه تأكيدٌ لجُملةِ ﴿فَاهْبِطْ﴾ بِمُرادِفِها، وأُعيدَتِ الفاءُ مع ﴿فَاخْرُجْ﴾؛ لزيادةِ تأكيدِ تَسَبُّبِ الكِبرِ في إخراجِه مِنَ الجنَّةِ(٣).

- وجملةُ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ واقعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ للإخراجِ، على طَريقةِ استعمالِ (إنَّ) في مِثلِ هذا المَقامِ استعمالَ فاءِ التَّعليلِ، وقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أشَدُّ في إثباتِ الصَّغارِ له مِن نحو: (إنَّك صاغِرٌ)، أو (قد صَغُرْتَ)(٤).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾، وقال في سورةِ الحجر: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الحجر: ٣٤]؛ وذلك لأنَّ ما ورَدَ في سورة الحجر مِن تَبيينِ خَلْقِ إبليسَ مِن النارِ، وفَصْله عن الملائكةِ أَعْقَبَ به قولَه تعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤]، أمَّا في آية الأعراف- ﴿فاهْبِطْ مِنْهَا﴾- فلمْ يَتقدَّم فيها أنَّ إبليس ليس من الملائكةِ، كالذي تَقدَّم في سورة الحجر، بل ظاهرُ ما في الأعرافِ أنَّه منهم، فجرَى الأمرُ مناسبًا لهذا

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٤٤-٤٥).

الظاهِرِ فعَبَّر بالهُبوط، ولَمَّا تَقدَّم في الحِجرِ أنَّه ليس مِن الملائكةِ لخَلْقِه من نارِ السَّموم، وأشعرَ ذلك بشَرِّ المادَّة؛ ناسَبه قولُه: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾، وإتْباعُ ذلك بما يُلائِمُه من الوصفِ ويُناسِبه من قوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، ثم بما كُتِب عليه مِن الطَّردِ واللَّعنةِ، ولم يَرِدْ في الأعرافِ هكذا، بل رُوعي فيه مُناسَبةُ ما تَقدَّم؛ ولئلَّا يَتنافَرَ الكلامُ ويَتنافرَ المعنى؛ فقيل: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[1] [الأعراف: ١٣].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾

- قولُه تعالى حاكيًا عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي...﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشأ مِمَّا قَبلَه؛ كأنَّه قيل: فماذا قال اللَّعينُ بعدَما سَمِعَ هذا الطَّردَ المُؤكَّد؟، فقيل: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي...﴾[2].

- وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿أَنْظِرْنِي﴾، وقال في سورةِ الحجر وسورة ص: ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ [الحجر: ٣٦، ص: ٧٩]؛ ووجه هذه المناسبةِ: أنَّ قوله: ﴿أَنْظِرْنِي﴾ في سورةِ الأعراف ورَد مُستأنفًا، غيرَ مقصودٍ به عطفٌ على ما يَقعُ به هذا السؤالُ عقيبَه؛ فلم يُحْتَجْ إلى الفاءِ، وأمَّا في الآيتين في سورتي الحجر وص فإنَّ قولَه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ [الحجر: ٣٦، ص: ٧٩] جاءَ بعدَ إخبارِ اللهِ تعالى بلَعْنِه إبليسَ، فكأنَّه قال: يا ربِّ إنْ لعَنْتَني وآيَسْتَني من الجنَّةِ فأَخِّرْ أَجلي إلى يومِ يُبعثون؛ فاقتَضى إضمارَ (إنْ لعَنْتَني يا ربِّ) أن يأتي بالفاءِ[3]. وقيل: حَذَف الفاء في

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٧٦-٥٧٧).

الأعرافِ؛ موافقةً لحَذفِ ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾، وقال في الحجر و ص بذِكرِها؛ موافقةً لذِكرِه قبلُ[١]. وقيل: قال في الحجر وص بذِكر الفاءِ؛ لِمَا تَضمَّنه النداءُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ مِن أَدعوك وأُناديك، كما في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾[٢] [آل عمران: ١٩٣].

– وأيضًا قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي﴾ مِن غير ذِكر كلمة (رَبِّ)، وقال في سورةِ الحجر وسورة ص: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ [الحجر: ٣٦، ص: ٧٩] بذِكرِها؛ وذلك لمُناسبةٍ حَسنةٍ؛ فإنَّه سبحانه لَمَّا اقتصرَ في السؤالِ على الخِطابِ دون صريحِ الاسم في هذه السُّورة في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ اقتصَر في الجوابِ أيضًا على الخِطابِ دون ذِكرِ المُنادَى[٣].

– وأيضًا قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ مِن غير فاءٍ في ﴿إِنَّكَ﴾، وفي السُّورتينِ الحجر وص: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٣٧، ص: ٨٠] بفاء؛ وذلك لأنَّ الجوابَ يُبنَى على السُّؤال، ولَمَّا خلَا سؤالُه ﴿أَنْظِرْنِي﴾ في هذه السُّورةِ عن الفاءِ، خلا الجوابُ عنه، ولَمَّا ثَبتتِ الفاءُ في السُّؤالِ ﴿فأَنْظِرْنِي﴾ في السُّورتَينِ ثَبتَتْ في الجوابِ[٤].

– وقيل في كلِّ ما مَضَى مِن زِياداتٍ في آيَتَي الحِجر وص لم تَرِدْ في الأعراف: إنَّه قُصِدَ في سورة الأعرافِ إيجازُ الأخبارِ في القِصَّة، وقُصِدَ في السُّورتَينِ الإطنابُ؛ ليحصُلَ مِن ذلك الاطِّلاعُ على البَلاغةِ وجلالةِ النَّظمِ وعلى فَصاحتِه

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٨).
(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٨).
(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:١١٨).

في طرَفَي الإيجازِ والإطنابِ، ويُشيرُ إلى هذا الغرضِ: أنَّ مجموعَ الكلمِ الواقع مِن لدن قولِه في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]- وهو ابتداءُ القِصَّة- إلى قولِه: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤] بِضعٌ وأربعونَ كلمةً، والواردَ في الحِجرِ مِن لَدُن قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ [الحجر: ٢٦] إلى قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ [الحجر: ٣٦] بِضعٌ وسَبعون كلمةً، وفي سورةِ ص من لَدُن قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [ص: ٧١] إلى آخِرِ الآياتِ بِضعٌ وسِتُّون كلمةً؛ فقدْ وضَحَ ما قُصِد في الأعراف مِن إيجازِ الأخبارِ في القِصَّة، وما في السُّورتَينِ بَعدُ مِن الإطنابِ[١].

٦- **قوله تعالى حاكيًا عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾** اللام في قَولِه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ لامُ القَسَمِ؛ قَصَدَ اللَّعينُ تأكيدَ حُصُولِ ذلك، وتحقيقَ العَزمِ عليه[٢].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، وقال في سورةِ الحجر: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]؛ فزادَ هنا في هذه السُّورةِ الفاءَ في قوله: ﴿فَبِمَا﴾ وحَذَفها في الحِجر؛ وذلِك لأنَّ الفاءَ في الأعرافِ مُتسبِّبةٌ عمَّا قَبْلها؛ فهي للعطفِ ليكونَ الثاني مربوطًا بالأوَّلِ، ومُوافقًا له في الاقتصارِ على الخِطابِ دونَ النِّداءِ، ولم تَدخُل الفاءُ في سورة الحِجرِ؛ لوقوعِ النِّداءِ، والنداءُ يُوجِبُ القطعَ، واستئنافَ الكلامِ، لا سيَّما في قِصَّةٍ لا يَقتضيها ما قَبْلَها؛ فلمْ يَحسُنْ مجيءُ الفاءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٨٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٩).

- وأيضًا قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وقال في سورةِ الحِجرِ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر: ٣٩]، فاختَلَف التعبيرُ في المَوضِعين؛ وذلك لمناسبةٍ حَسنةٍ بحسَب ما تَقدَّم في كلِّ واحدةٍ مِن السُّورتَين؛ فإنَّه لـمَّا تَقدَّم في الأعرافِ قولُه تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، والإشارةُ إلى القرآنِ بأنَّه يُوضِّح الصِّراطَ المستقيمَ، والإشارةُ بهذا إلى المنزلِ قُرآنًا أنَّه مُبيِّنٌ للصِّراطِ المستقيمِ الذي طَمِع اللَّعينُ في الاستيلاءِ عليه، فقِيل عِبارة عن غَرَضِه مِن ذلك: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. ولَمَّا كان قد ورَدَ في سُورةِ الحِجر مَنْعُه، ومَنْعُ جُنودِه عن تَعرُّف خبَرِ السَّماءِ، واستراقِ السَّمعِ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦- ١٨]، وصُدَّ مِن هذه الجِهةِ، عدَل إلى الأُخرى فقال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، أي: رجعتُ إلى إغوائِهم مِن جِهةٍ لم تَمنعْني عنها؛ فلأَجْلِ اختلافِ المتقدِّمِ في كلٍّ مِن السُّورَتين، اختَلَفَ المبنيُّ عليه مِن المحكيِّ عن إبليسَ مِن طَمَعِه، ووَرَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُ(١).

٧- **قولُه تعالى حاكيًا عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾** في هذه الآيةِ فَنُّ المُخالَفةِ بينَ حَرفَي الجَرِّ؛ فقد ذَكَرَ الجِهاتِ الأربَعَ؛ لأنَّها هي التي يأتي منها العَدُوُّ عَدُوَّه؛ ولهذا ترَكَ جِهةَ الفَوقِ والتَّحتِ، وعَدَّى الفِعلَ إلى الجِهتَينِ الأُولَيَينِ بـ (مِن)، وإلى الأُخرَيَينِ بـ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٩-١٨٠).

(عن)؛ لأنَّ الغالِبَ فيمَن يأتي مِن قُدَّام وخَلْف أنْ يكون مُتوجِّهًا بكُلِّيته، والغالِبَ فيمَن يأتي مِن جِهَةِ اليَمينِ والشِّمال أن يكونَ مُنحرِفًا، فناسب في الأوَّلَينِ التَّعديَةَ بحرْفِ الابتداء (مِن)، وفي الآخَرَينِ التَّعديَةَ بحَرْفِ المُجاوَزة (عَن)[1].

٨- قوله: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فيه التأكيدُ بقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ للتَّنصيصِ على العُمومِ؛ لئلَّا يُحمَلَ على التَّغليبِ؛ وذلك أنَّ الكَلامَ جَرى على أمَّةٍ بعُنوانِ كَونِهم أتباعًا لواحدٍ[2].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥٢).

الآيات (١٩-٢٥)

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا
مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا
وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾
وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ
لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن
تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن
لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا
تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿فَوَسْوَسَ﴾: فألقى وحَدَّث، والوَسْوَسَةُ: الخَطْرةُ الرَّديئةُ، وحَديثُ النَّفسِ والشَّيطانِ بِمَا لَا نفْعَ فيه؛ مِنَ الوَسْواسِ، وهو صَوتُ الحُلِيِّ، والهَمْسُ الخَفيُّ، أو القَوْلُ الْخَفيُّ لِقَصدِ الإضلالِ، وأصل (وسوس): يدُلُّ عَلَى صَوْتٍ غَيْرِ رَفِيعٍ(١).

﴿وُورِيَ﴾: أي: سُتِرَ أو غُطِّي، وأصلُ (وري): سَتر(٢).

﴿سَوْآتِهِمَا﴾: أي: عَوْراتِهما، أو كنايةٌ عَنِ الفَرْجِ، وسُمِّيَت العورةُ سوأةً؛ لأنَّه يَسوءُ صاحِبَها انكشافُها مِن جَسَدِه، وأصلُ (سوء): كلُّ ما يَقبُحُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص:٨٦٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٩، ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص:٤٤١، ٤٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾: أي: حَلَف لهما، وأصلُه مِنَ القَسامَةِ، وهي أيمانٌ تُقْسَمُ على أولياءِ المَقتولِ، ثم صار اسمًا لكلِّ حَلِفٍ[1].

﴿فَدَلَّاهُمَا﴾: أي: فخَدَعَهما، أو أوْقَعَهما في الهلاكِ، أو جَرَّأهما على المعصيةِ، ويُقال لكُلِّ مَن ألقى إنسانًا في بليَّةٍ: قد دلَّاه في كذا، مأخوذٌ من تَدْليةِ الرجلِ العطشانِ في البئرِ؛ لِيَرْوَى مِن مائِها، فلا يجِدُ فيها ماءً؛ فيكونُ مُدَلًّى فيها بغُرورٍ؛ فوُضِعَتِ التَّدليةُ مَوضِعَ الإطماعِ فيما لا يُجْدي نفعًا، وأصلُ (دلي): يدُلُّ على مُقارَبةِ الشَّيءِ، ومُداناتِه بسُهولَةٍ ورِفقٍ[2].

﴿بِغُرُورٍ﴾: الغُرور- بضمِّ الغينِ- مصدر غَرَّه يغرُّه غُرورًا، أي: أصاب غِرَّتَه، أي: غفلتَه في اليَقَظةِ، ونال منه ما يُريد، حتَّى يُدخِلَه مِن معصيةِ اللهِ فيما يستوجِبُ به عُقوبتَه، وأصلُ (غرر) يدلُّ على النُّقْصانِ[3].

﴿وَطَفِقَا﴾: أي: أقبَلا وجعَلا، وظلَّا وأخذَا، وفِعلُ (طفق) يُستعمَلُ في الإيجابِ دون النَّفيِ، فلا يُقال: ما طَفِقَ[4].

﴿يَخْصِفَانِ﴾: أي: يَرْقَعان، ويُلزِقان، أو يَجعلان وَرَقةً على وَرَقةٍ، أو يَصِلانِ الوَرَقَ بَعضَه ببعضٍ، ويُلصقانِ بعضَه على بعضٍ، ومنه يقال: خَصَفْتُ نَعلِي: إذا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٨/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص:٦٠٣-٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٧)، ((الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية)) للجوهري (٤/ ١٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢١).

طبَّقْتَ عليها رُقعةً، وأصل (خصف): اجْتِمَاعُ شَيْءٍ إلى شَيْءٍ(١).

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: أي: موضِعُ استقرارٍ؛ قرارٌ تستقرُّونَه، وفراشٌ تَمتهِدونه، وأصل (قرر): يدلُّ على تَمَكُّنٍ(٢).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ﴾: (إنْ) حرْفُ شَرطٍ، وقَبْلَه لامُ التَّوطئةِ للقَسَمِ مُقدَّرة، والتقديرُ: (لَئِنْ)، وقوله: ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ جوابُ القَسمِ المُقدَّرِ الذي وطَّأَتْ له اللامُ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ؛ لدلالةِ جَوابِ القَسمِ عليه؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾(٣) [المائدة: ٧٣].

المَعْنَى الإجماليُّ:

أمرَ اللهُ تعالى آدَمَ وزوجَه حوَّاءَ أن يسكُنا الجنَّةَ، ويأكُلا مِن حيثُ أرادا منها، وألَّا يَقْرَبا شجرةً مُعَيَّنةً حَدَّدَها لهما تعالى، فيكونا مِنَ الظَّالِمينَ.

فوَسْوَس الشَّيطانُ لآدَمَ وحوَّاءَ؛ ليخدَعَهما، فيُظهِرَ لهما ما سُتِرَ مِن عَوْراتِهما، زاعمًا لهما كذِبًا أنَّ الله تعالى لم يَنْهَهما عن أكلِ ثَمَرِ هذه الشَّجَرةِ، إلَّا كراهةَ أن يكُونا مِن جِنسِ الملائكةِ، أو يكونَا مِنَ الخالِدينَ، وأقسَمَ لهما باللهِ إنَّه ناصِحٌ لهما في ذلك.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٧)، مقاييس اللغة (٥/ ٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٨٥).

فخَدَعَهما وغَرَّهما وجَرَّأَهما على الأكلِ مِن تلك الشَّجَرةِ، فلمَّا أكَلَا منها انكشَفَت عَوْرَاتُهما، فجَعلا يَشُدَّانِ على جَسَدَيهما مِن وَرَقِ الجنَّةِ؛ ليستُرا ما ظَهَرَ مِن عَوْرَاتِهما، وناداهما ربُّهما معاتبًا لهما: ألَمْ أنهَكُما عن تلك الشَّجرةِ، وأخُبِرْكما أنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ لكما ظاهِرُ العَداوةِ.

فاعترَفا بالعِصْيانِ، وقالا: رَبَّنا ظَلَمْنا أنفُسَنا، وإنْ لم تَغفِرْ لنا وتَرْحَمْنا لنكونَنَّ مِنَ الهالكينَ.

فأمر اللهُ تعالى آدَمَ وحوَّاءَ وإبليسَ بالهُبوطِ إلى الأرضِ، بعضُهم لبعضٍ عَدُوٌّ، هم وذُرِّيَّتُهم، ولهم في الأرضِ مكانٌ يَستقِرُّونَ فيه على ظَهْرِها في حياتِهم، وفي بَطنِها بَعد مَوتِهم، ولهم فيها مَتاعٌ يَستَمتِعونَ به إلى أن يأتِيَهم الموتُ، وأخبَرَهم تعالى أنَّهم في الأرضِ يَعيشونَ، وفيها يَموتونَ، ومنها يُخرَجونَ مِن قُبورِهم لِيومِ الجَزاءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٩﴾.

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لآدَمَ عليه السَّلامُ بعد أن أخرَجَ إبليسَ مِنَ الجنَّةِ: اتَّخِذْ أنت وزَوجُك حوَّاءُ الجنَّة مَنزِلًا، وكُلَا مِن أيِّ مكانٍ فيها، مِن جَميعِ ثِمارِها[1].

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

أي: ولا تَأكُلَا من هذه الشَّجَرةِ؛ فتَصِيرا مِمَّنْ ظَلَم نفسَه بمُخالَفةِ أمرِ ربِّه[١].

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ (٢٠) ﴾.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾.

أي: فألقى إبليسُ لآدَمَ وحوَّاءَ قَولًا[٢] ليخدَعَهما به، فيُظهِرَ[٣] لهما ما ستَرَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٣).
قال ابنُ عطية: (وهذه الشَّجرةُ، الظَّاهِرُ أنَّه أشار إلى شخصِ شَجَرةٍ واحدةٍ مِن نوعٍ وأرادَها، ويَحتَمِل أن يشيرَ إلى شجرةٍ مُعَيَّنةٍ، وهو يريدُ النَّوعَ بجُملَتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨٢).
وقال السعدي: (عيَّن لهما شجرةً، ونهاهما عن أكْلِها، واللهُ أعلمُ ما هي، وليس في تعيينِها فائدةٌ لنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٢) قال ابنُ جرير: (يعني جلَّ ثناؤه بقولِه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]: فوَسوسَ إليهما، وتلك الوسوسةُ كانت قولَه لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، وإقسامَه لهما على ذلك. وقيل: (وَسوسَ لهما)، والمعنى ما ذكَرْتُ، كما قيل: غَرِضْتُ له، بمعنى: اشتقْتُ إليه، وإنَّما يعني: غَرِضْتُ من هؤلاء إليه، فكذلك معنى ذلك: فوَسْوَس مِن نَفسِه إليهما الشَّيطانُ بالكَذِبِ مِنَ القِيلِ ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾، ومعنى الكلام: فجَذَبَ إبليسُ إلى آدَمَ حوَّاءَ، وألقى إليهما: ما نهاكما ربُّكما عن أكلِ ثَمَرِ هذه الشَّجَرةِ إلَّا أن تكونا مَلَكينِ، أو تكونَا مِنَ الخالِدِينَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٦-١٠٧).
وقال الشنقيطيُّ في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾: (أي: كَلَّمَه كلامًا خَفِيًّا فسَمِعَه منه آدَمُ وفَهِمَه. والدليلُ على أنَّ الوسوسةَ المذكورةَ في هذه الآيةِ الكريمةِ كلامٌ مِن إبليسَ سَمِعَه آدمُ وفَهِمَه أنَّه فَسَّرَ الوسوسةَ في هذه الآيةِ بأنَّها قولٌ، وذلك في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾، فالقولُ المذكورُ هو الوسوسةُ المذكورة. وقد أُوضح هذا في سورة «الأعراف» وبيَّنَ أنَّه وَسْوَسَ إلى حوَّاءَ أيضًا مع آدَمَ، وذلك في قولِه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ إلى قولِه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾؛ لأنَّ تصريحه تعالى في آية «الأعراف» هذه بأنَّ إبليسَ قاسَمَهما أي: حلَفَ لهما على أنَّه ناصِحٌ لهما فيما ادَّعاه مِنَ الكَذِبِ؛ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ الوَسْوسةَ المذكورةَ كلامٌ مَسموعٌ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١١٠).

(٣) اللامُ في قولِه: ﴿لِيُبْدِيَ﴾ لامُ الصَّيرورةِ والعاقِبةِ؛ وذلك لأنَّ الشيطانَ لم يقصِدْ بالوسوسةِ =

اللهُ عنهما مِن عَوْراتِهما(١).

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

أي: وقال لهما كَذِبًا وافتراءً: ما نهاكُما ربُّكما عن أكلِ ثَمَرِ هذه الشَّجَرةِ، إلَّا كراهةَ أن تكونَا ملَكينِ مِن جِنسِ الملائكةِ، أو تكونَا مِنَ الخالِدينَ في الجنَّةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾.

أي: وحَلَفَ لهما باللهِ إنِّي ناصِحٌ لكما في الأكلِ مِن ثَمَرِ هذه الشَّجَرةِ التي نهاكما اللهُ عنها(٣).

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٢﴾.

= ظهورَ عوراتِهما، ولم يعلمْ أنَّهما إنْ أكلَا مِن الشَّجرةِ بدَتْ عوراتُهما، وإنَّما كان قصدُه أن يحملَهما على المعصيةِ، فكانت عاقبةُ تلك الوسوسةِ أن بدَتْ لهما سوآتُهما.

ويجوزُ أن تكونَ لامَ التعليلِ، بحَسَبِ قَصدِ إبليسَ إلى حَطِّ مَرتَبتِهما، وإلقائِهما في العقوبةِ، وربَّما يكونُ علِم بعقوبةِ ذلك فقصَد إليه.

يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٦-١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

قال القرطبي: (سُمِّيَ الفَرجُ عَورةً؛ لأنَّ إظهارَه يَسوءُ صاحِبَه. ودلَّ هذا على قُبحِ كَشْفِها، فقيل: إنَّما بَدَت سوءاتُهما لهما لا لغيرِهما). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٧).

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

أي: فخَدَعَهما وأطمَعَهما بالقَولِ الباطِلِ، وجرَّأهما على الأكلِ مِن تلك الشَّجَرةِ، فنزَّلَهما عن رُتبَتِهما العاليةِ، التي هي البُعدُ عن المعاصي إلى التَّلوُّثِ بها(١).

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

أي: فلمَّا طَعِمَ آدمُ وحوَّاءُ ثَمَرَ الشَّجرةِ، انكشَفَتْ عورةُ كُلٍّ منهما، بعد ما كانت مَستورةً(٢).

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

أي: خَجِلا، وجَعَلا يشُدَّانِ على جَسَدِهما مِن وَرَقِ الجنَّةِ؛ ليستُرا به عَوْراتِهما(٣).

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾.

أي: وقال اللهُ لآدَمَ وحوَّاءَ، مُوبِّخًا ومُعاتِبًا لهما: ألم أنْهَكما عن أكلِ ثَمَرِ تلك الشَّجَرةِ(٤)؟

﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي: وأُعْلِمْكما أنَّ إبليسَ عدوٌّ بيِّنُ العَداوةِ لكما؛ فلِمَ اقترَفْتُما ما نهيتُكما عنه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٤/ ١٢١-١٢٢)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠، ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٤)، تفسير القرطبي (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

وأطَعْتُما عدوَّكُما(١)؟!

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

أي: قال آدمُ وحوَّاءُ اعترافًا بالعِصيانِ(٢): يا رَبَّنا أسأْنا إلى أنفُسِنا، وأضْرَرْنا بها بمَعصِيَتِك، وبِطاعَتِنا عَدُوَّنا وعَدُوَّك(٣).

﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي قالَا في تَوبَتِهما: وإنْ لم تستُرْ علينا ذَنْبَنا، وتتجاوَزْ عن عُقوبَتِنا، وتَرحَمْنا بقَبولِ تَوبَتِنا، والمُعافاةِ مِن هذه الخَطايا، لنكونَنَّ مِنَ الهالكينَ(٤).

وقد قَبِلَ اللهُ تعالى هذه التَّوبةَ، كما قال: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:١٢١-١٢٢].

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

أي: قال اللهُ لآدَمَ وحوَّاءَ وإبليسَ(٥): اهبِطوا مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، بعضُكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

قال ابن عباس: (بيِّنُ العداوةِ؛ حيث أبى السُّجودَ، وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦]). ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٧٢).

(٢) قال ابنُ جرير: (عن الضَّحَّاك، في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية، قال: «هي الكَلِماتُ التي تلقَّاها آدَمُ مِن رَبِّه»). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٥-١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٥) قال ابنُ كثير: (قيل: المرادُ بالخِطابِ في ﴿اهْبِطُوا﴾ آدَمُ، وحَوَّاءُ، وإبليسُ، والحيَّة. ومنهم =

لبعضٍ عَدُوٌّ أنتم وذُرِّيَّتُكم[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

أي: ولَكم أنتم وذُرِّيَّتِكم في الأرضِ قرارٌ، تَستقِرُّونَه في حياتِكم على ظَهْرِها، وبعد وَفاتِكم في بَطنِها، ولكم فيها مَتاعٌ تَستَمتِعونَ به حتى يأتِيَكم الموتُ[2].

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي قال اللهُ: في الأرضِ تَعيشونَ أيَّامَ حَياتِكم، وتكونُ فيها وفاتُكم، ثم

= من لم يذكُرِ الحيَّةَ، والله أعلمُ. والعُمدةُ في العداوةِ آدَمُ وإبليسُ؛ ولهذا قال تعالى في سورة «طه» قال: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [الآية: ١٢٣] وحوَّاءُ تَبَعٌ لآدَمَ. والحيَّةُ- إن كان ذِكْرُها صحيحًا- فهي تَبَعٌ لإبليسَ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩).

وضعَّف ابنُ القيِّم القولَ بأنَّ الخطابَ لهم وللحيةِ؛ لأنَّه يحْتاجُ الى نقلٍ ثابتٍ؛ إذ لا ذكرَ للحيَّةِ في شيءٍ مِن قصةِ آدمَ عليه السلام، ولا في السِّياقِ ما يدلُّ عليها. يُنظر: ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٨)، ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٦)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذا خبَرٌ عمَّا سيكونُ مِن عداوةِ بعضِهم بعضًا). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٤٩٣).

وقال ابن عاشور: (يحتمِلُ أن يرادَ بالبعضِ بعضَ الأنواعِ، وهو عداوةُ الإنسِ والجِنِّ، ويحتمل أن يُرادَ عداوةُ بعضِ أفرادِ نوعِ البَشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

يُخرِجُكم منها رَبُّكم مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القيامةِ؛ ليُجازِيَ كلًّا بعَمَلِه(١).

كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:٤٣-٤٤].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا...﴾ ممَّا يُستفادُ مِن قِصَّةِ آدَمَ وحوَّاءَ وإبليسَ: أنَّه ينبغي لنا أن نَعرِفَ أنفُسَنا بغرائِزِها واستعدادِها للكَمالِ، وما يَعرِضُ لها دُونَه مِن الموانِعِ، فيصرِفُها عنه إلى النَّقائِصِ، وأنَّ أنفَعَ ما يُعِينُنا على تَربيتِها عَهدُ اللهِ إلينا بأنْ نَعبُدَه وَحدَه، وألَّا نعبُدَ معه الشَّيطانَ ولا غَيرَه، وأنْ نَذكُرَه ولا ننساه؛ فننسى أنفُسَنا، ونَغفُلَ عَن تزكيتِها، وصَقْلِها بصِقالِ التَّوبةِ، كلَّما عَرَضَ لها مِن وِسواسِ الشَّيطانِ ما يُلَوِّثُها؛ فإنَّه إن يُترَكْ صار صَدَأً وطَبْعًا مُفسِدًا لها، وما أفسَدَ أنفُسَ البَشَرِ ودسَّاها إلَّا غفلةُ عُقُولِهم وبصائِرِهم عنها، وترْكُها كالرِّيشةِ في مهابِّ أهواءِ الشَّهواتِ، ووساوسِ شَياطينِ الضَّلالاتِ، فعلى العاقِلِ أن يعرِفَ قِيمَتَها، ويحرِصَ عليها أشَدَّ مِن حِرصِه على ما عساه يملِكُ مِن نفائِسِ الجواهِرِ، وأعلاقِ الذَّخائِرِ(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ النَّهيُ عن قُربِ الشَّيءِ أبلَغُ مِنَ النَّهيِ عنه؛ فهو يَقتضي البُعدَ عن مواردِ الشُّبُهاتِ التي تُغرِي به، وتُفضِي إليه، وَرَعًا واحتياطًا؛ فإنَّ مَن حام حَولَ الحِمَى أوشَكَ أن يُواقِعَه؛ فقولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أشَدُّ في التَّحذيرِ مِن أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣١٥).

يَنهى عن الأكلِ مِنَ الشَّجَرةِ، لأنَّ النَّهيَ عن قِربانِها سَدٌّ لذريعةِ الأكلِ منها[١].

٣- قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ المعصيةُ تَهتِكُ سِترَ ما بين اللهِ والعَبدِ، فلمَّا عصَيَا انهتَكَ ذلك السِّترُ، فبَدَت لهما سوآتُهما، فالمعصيةُ تُبدِي السَّوأةَ الباطِنةَ والظَّاهِرةَ، فإنَّ الله سبحانه أنزَلَ لِباسَينِ: لباسًا ظَاهِرًا يوارِي العورةَ ويَستُرُها، ولباسًا باطِنًا مِنَ التقوى، يُجَمِّلُ العبدَ ويَستُرُه، فإذا زالَ عنه هذا اللِّباسُ انكشَفَتْ عَورَتُه الباطنةُ، كما تنكشِفُ عَورَتُه الظَّاهِرةُ بنَزْعِ ما يستُرُها[٢].

٤- الحَذَرُ مِن خداعِ إبليسَ، بإظهارِه النُّصحَ، وإبطانِه الغِشَّ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[٣].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ..﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ..﴾ يُرشِدُنا إلى أنَّ مَن خالَفَ أمرَه تعالى، ثُلَّ عَرشُه، وهُدِمَ عِزُّه، وإن كان في غايةِ المَكِنَةِ، ونهايةِ القُوَّةِ، كما أخرَجَ مَن أعظَمَ له المَكِنَةَ بإسجادِ مَلائِكَتِه، وإسكانِ جَنَّتِه، وإباحَةِ كلِّ ما فيها غيرَ شَجَرةٍ واحدةٍ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ إشارةٌ إلى الأدبِ في دُعاءِ اللهِ تعالى؛ حيث نسبَ آدمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المعصيةَ إلى نَفسِه؛ ولم يقُلْ: ربِّ قَدَّرْتَ عليَّ، وقَضَيتَ عليَّ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١١-١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧١).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٠).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ دلالةٌ على أنَّ تَعرُّضَ الشَّيطانِ للأنبياءِ، لا يَقدَحُ في نبوَّتِهم عليهم السَّلامُ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّه ليس مِن شَرطِ المُوَسوِسِ أنْ يكون مُستَتِرًا عن البَصَرِ- بل قد يُشاهَدُ- فالكلامُ هنا هو كلامُ مَن يُعْرَفُ قائلُه، ليس شيئًا يُلقى في القَلبِ، لا يُدرى ممَّن هو(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ حكايةٌ لابتداءِ عَمَلِ الإنسانِ لِسَترِ نقائِصِه، وتحَيُّلِه على تجنُّبِ ما يكرَهُه، وعلى تَحسينِ حالِه بحَسَبِ ما يُخَيِّلُ إليه خيالُه، وهذا أوَّلُ مَظهرٍ مِن مظاهِرِ الحضارةِ(٣).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ تأخَّرَ نداءُ الرَّبِّ إيَّاهما إلى أن بدَتْ لهما سَوآتُهما، وتحيَّلَا لِسَترِ عَوْراتِهما؛ ليَكونَ للتَّوبيخِ وَقعٌ مَكينٌ مِن نُفوسِهما، حين يقَعُ بعد أن تظهَرَ لهما مفاسِدُ عِصْيانِهما، فيعلَمَا أنَّ الخَيرَ في طاعةِ اللهِ، وأنَّ في عِصيانِه ضُرًّا(٤).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٦٥).

عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ دلَّ على أنَّ كَشْفَ العَورةِ مِنَ المُنكَراتِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ دلالةٌ على أنَّ العُريانَ يلزَمُه سَترُ عَورتِه، فإنْ لم يجِدْ إلَّا حَشيشًا أو وَرَقًا يربِطُه عليه؛ فإنَّه يلزَمُه السَّترُ به؛ لأنَّه مُغَطٍّ للبَشَرةِ مِن غَيرِ ضَررٍ، فأشبَهَ الجُلودَ والثِّيابَ(٢).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فيه نُكتةٌ لَطيفةٌ، وهي أنَّه لَمَّا كان وَقتُ الهَناءِ شُرِّفَ بالتَّصريحِ باسْمِه في النِّداءِ، فقيلَ: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ﴾، وحين كان وَقْتُ العِتابِ أخبَرَ أنَّه ناداه، ولم يُصَرِّحْ باسْمِه(٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ دلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إذا شاءَ، وهو يتكَلَّمُ بمَشيئَتِه وقُدرَتِه، فيتكَلَّمُ بشيءٍ بعدَ شيءٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه سُبحانه ناداهما حين أكَلَا منها، ولم ينادِهما قبلَ ذلك(٤).

٩- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى عن آدَمَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقَولِه عن إبليسَ: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أنَّ مَن تاب أشبهَ أباه آدمَ، ومَن أَصَرَّ واحتجَّ بالقَدَر على المعاصِي أشبهَ إبليسَ(٥).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((شرح العمدة – كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٥٨٨).
(٥) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٣٤).

مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الاعترافَ بالذَّنبِ يتضَمَّنُ طلبَ المغفرةِ؛ فإنَّ الطَّالبَ السَّائلَ تارةً يَسألُ بصيغةِ الطَّلَبِ؛ وتارةً يَسألُ بصيغةِ الخَبَرِ - إمَّا بوصْفِ حالِه، وإمَّا بِوَصفِ حالِ المَسؤولِ، وإمَّا بوَصفِ الحالَينِ-، وأيضًا الإخبارُ عَنِ اللهِ تعالى أنَّه إنْ لم يغفرْ لهما ويَرحَمْهما خَسِرَا؛ يتضَمَّنُ سُؤالَ المَغفرةِ كذلك[1]، فقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ السُّؤالَ والطَّلَبَ قد يكون بصيغةِ الشَّرطِ[2].

١١- إنَّما كَمُلَتْ فضائِلُ آدَمَ باعترافِه على نَفسِه، فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ فكُلَّما أوقَدَ إبليسُ نارَ الحَسَدِ لآدَمَ، فاح بها رِيحُ طِيبِ آدَمَ، واحترَقَ إبليسُ بحَسَدِه[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دلالةٌ على جوازِ وُقوعِ الصَّغائِرِ مِنَ الأنبياءِ، وإنَّما ابتلى اللهُ الأنبياءَ بالذُّنوبِ؛ رفعًا لدَرَجاتِهم بالتَّوبةِ، وتبليغًا لهم إلى مَحَبَّتِه وفَرَحِه بهم؛ فإنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابِينَ، ويُحِبُّ المُتَطَهِّرينَ، ويَفرَحُ بتَوبةِ التَّائبِ أشَدَّ فَرَحٍ، فالمقصودُ كَمالُ الغايةِ، لا نَقصُ البِدايةِ؛ فإنَّ العَبدَ يكونُ له الدَّرجةُ لا يَنالُها إلَّا بما قَدَّرَه اللهُ له مِنَ العَمَلِ أو البَلاءِ[4].

١٣- قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ طوى القرآنُ هنا ذِكرَ التَّوبةِ على آدَمَ؛ لأنَّ المقصودَ مِن القِصَّةِ في هذه السُّورةِ: التَّذكيرُ بِعَداوةِ الشَّيطانِ، وتحذيرُ النَّاسِ مِن اتِّباعِ وَسْوَسَتِه، وإظهارُ ما يُعقِبُه اتِّباعُه مِنَ الخُسرانِ والفَسادِ، ومقامُ هذه الموعظةِ يقتضي

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٥٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٨٩).

الإعراضَ عن ذِكرِ التَّوبةِ؛ للاقتصارِ على أسبابِ الخَسَارةِ(١).

١٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ذكَر فيه الإهباطَ بلفظِ الجمعِ ﴿اهْبِطُوا﴾، وتارةً يذكرُه بلفظِ التثنيةِ ﴿اهْبِطَا﴾ [طه: ١٢٣]، وتارةً بلفظِ الإفرادِ (اهْبِطْ)، فحيث ورَد بصيغة الجمعِ فهو لآدمَ وزوجِه وإبليسَ؛ إذ مدارُ القصةِ عليهم، وحيثُ ورَد بلفظ التثنيةِ فإمَّا أن يكونَ لآدمَ وزوجِه؛ إذ هما اللذان باشَرا الأكلَ مِن الشَّجرةِ، وأقْدَما على المعصيةِ، وإمَّا أن يكونَ لآدمَ وإبليسَ؛ إذ هما أبَوَا الثَّقلينِ، وأصْلَا الذُّريةِ، فذكَر حالَهما ومآلَ أمرِهما؛ ليكونَ عظةً وعبرةً لأولادهما، ولم يذكُرِ الزوجةَ؛ لأنَّها تبعٌ لآدمَ، وجاء الإهباطُ بالإفرادِ في قولِه تعالى لإبليسَ: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾(٢) [الأعراف: ١٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قولُه:** ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ فيه: تصديرُ الكلامِ بالنِّداءِ؛ للتَّنبيهِ على الاهتمامِ بتلَقِّي المأمورِ به. وتَخصيصُ الخِطابِ به عليه السَّلامُ؛ للإيذانِ بأصالَتِه في تلَقِّي الوَحْيِ، وتعاطِي المأمورِ به(٣).

- وقوله: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ﴾ فيه الإتيانُ بالضَّميرِ المنفصِلِ بعدَ الأمرِ؛ لقَصدِ زِيادةِ التَّنكيلِ بإبليسَ؛ لأنَّ ذِكْرَ ضَميرِه في مقامِ العَطفِ يُذَكِّرُ غيرَه بأنَّه ليس مِثلَه؛ إذ الضَّميرُ، وإن كان مِن قَبيلِ اللَّقَبِ، وليس له مفهومُ مخالفةٍ؛ فإنَّه قد يُفيدُ الاحترازَ عَن غيرِ صاحبِ الضَّميرِ بالقَرينةِ على طريقةِ التَّعريضِ(٤).

٢- **قوله:** ﴿فَوَسْوَسَ﴾ تجسيدٌ حَيٌّ، وتصويرٌ بليغٌ لدَأَبِ إبليسَ على الإغواءِ،

(١) يُنظر: تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٨).
(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥٣).

وإجهادِهِ نَفْسَه لِحَمْلِها على أن تَزِلَّ بهما القَدَمُ، ويرتَطِما في مزالِقِ الشَّرِّ؛ فهو يُوسوِسُ إليهما المرَّةَ بعد المرَّةِ؛ فإنَّه كُلَّما تكَرَّرَتِ الحروفُ في اللَّفظِ الواحِدِ، كان ذلك إيذانًا بتكريرِ العَمَلِ[1].

٣- قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ جاءتْ ﴿قَاسَمَهُمَا﴾ على زِنَةِ المُفاعلة للمُبالغةِ؛ ليدُلَّ على أنَّه حَصَلت بينهما في ذلك مُراوغاتٌ ومُحاولاتٌ بُذِلَ فيها الجُهدُ، وفيه تأكيدُ إخبارِ إبليسَ عَن نَفسِه بالنُّصحِ لآدَمَ وزَوجِه بثلاثِ مُؤَكِّداتٍ- إنَّ واللَّامُ في ﴿لَمِنَ﴾ والجُملة الاسميَّة- مِمَّا يَدُلُّ على مَبلَغِ شَكِّهما في نُصحِه لَهما، وما رأى عَلَيهما مِن مَخايِلِ التَّرَدُّدِ في صِدْقِه[2].

٤- قولُه: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ فيه تمثيلُ حالِ مَن يطلُبُ شَيئًا مِن مَظِنَّتِه فلا يجِدُه، بِحالِ مَن يُدَلِّي دَلْوَه أو رِجْلَيه في البِئرِ؛ لِيَسْتَقيَ مِن مائِها فلا يَجِدُ فيها ماءً، فيُقال: دلَّى فلانٌ، كما يُقالُ: أَدْلَى[3].

٥- قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ عَطَفَ جُملةَ: ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا﴾ على جملةِ: ﴿أَنْهَكُمَا﴾؛ للمبالغةِ في التَّوبيخِ؛ لأنَّ النَّهيَ كان مشفوعًا بالتَّحذيرِ مِنَ الشَّيطانِ الذي هو المُغْرِي لهما بالأكلِ مِنَ الشَّجَرةِ، فهُما قد أضاعَا وَصِيَّتَينِ[4].

- والاستفهامُ في قَولِه: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ للتَّقريرِ والتَّوبيخِ، وأُولِيَ هذا الاستِفهامُ حرْفَ النَّفيِ زيادةً في التَّقريرِ؛ لأنَّ نَهيَ اللهِ إيَّاهما واقِعٌ، فانتفاؤُه مُنتَفٍ، فإذا

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٦٧).

أُدخِلَتْ أداةُ التَّقريرِ، وأَقَرَّ المُقَرِّرُ بضِدِّ النَّفيِ، كان إقرارُه أقوى في المؤاخَذةِ بِمُوجِبِه؛ لأنَّه قد هُيِّئَ له سَبيلُ الإنكارِ، لو كان يستطيعُ إنكارًا؛ ففِي هذا الاستفهامِ عِتابٌ مِنَ اللهِ تعالى وتوبيخٌ، وتنبيهٌ على الخَطأِ؛ حيثُ لم يَتحَذَّرا ما حَذَّرَهما اللهُ مِن عداوةِ إبليسَ[1].

٦- قوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ فيه تَقديمُ المَجْروراتِ الثَّلاثةِ (فيها - فيها - منها) على مُتَعَلِّقاتِها (تَحْيَون - تَمُوتون - تُخرَجون)؛ للاهتمامِ بالأَرضِ التي جُعِلَ فيها قَرارُهم ومتاعُهم؛ إذ كانتْ هي مَقَرَّ جَميعِ أحوالِهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧١).

الآيات (٢٦-٣٠)

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ
ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ
يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾
وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ
بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ
وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾
فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَرِيشًا﴾: الرِّيشُ المَتاعُ والأموالُ[1]، ويُطلَقُ على ما ظهَر مِنَ اللِّباسِ، ولِباسِ الزِّينةِ، وكلِّ ما سترَ الإنسانَ في جِسمِه ومَعيشَتِه، ورُبَّمَا اسْتُعْمِلَ فِي الثِّيَابِ والكِسْوَةِ دونَ سائِرِ المَالِ، وأَصْلُ (ريش): يَدُلُّ على حُسْنِ الحالِ، وما يَكتَسِبُ الإنسانُ مِن خيرٍ[2].

﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾: أي: لا يَخدَعَنَّكم، أو لا يَصْرِفَنَّكم، والفِتنةُ تُطلَق على: الشِّرْك

(١) قال ابنُ تيميَّةَ: (الصَّحيحُ أنَّ «الرِّيشَ» هو الأثاثُ والمتاعُ ... وبعضُ المفسِّرينَ أطلَقَ عليه لفظَ المال، والمرادُ به مالٌ مخصوصٌ، قال ابن زيد: جَمالًا؛ وهذا لأنَّه مأخوذٌ مِن رِيشِ الطَّائِرِ، وهو ما يَرُوشُ به، ويدفَعُ عنه الحَرَّ والبردَ، وجَمالُ الطَّائِرِ رِيشُه، وكذلك ما يبيتُ فيه الإنسانُ مِنَ الفَرشِ، وما يَبسُطُه تحته، ونحو ذلك). ((مجموع الفتاوى)) (١٢/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٠٩).

والكُفر، والشَّرِّ والعَذابِ، وهي في الأصلُ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِنَ الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهَبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودَتُه مِن رَداءتِه[(١)].

﴿يَنْزِعُ﴾: نزْعُ الشَّيءِ: جذْبُه مِن مَقرِّه، وفَصلُه عنه أو اقتِلاعُه، وأصلُ (نزع): يَدُلُّ على قلْعِ شيءٍ[(٢)].

﴿وَقَبِيلُهُ﴾: أي: أصحابُه وجُندُه، وجِيلُه وأمَّتُه، وصِنْفُه وجِنسُه الَّذي هو منه، وهم الجِنُّ، وقَبيلُ القَومِ: عَريفُهم؛ وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يُقبِل عليهم يَتعرَّفُ أُمورَهم، وأصل (قبل): يدلُّ على مُواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[(٣)].

﴿فَاحِشَةً﴾: أي: فِعلةً مُتناهِيةً في القُبحِ، وأصلُ (فحش) يدلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[(٤)].

﴿الضَّلَالَةُ﴾: أي: الضَّلالُ، وهو العُدولُ عن الطَّريقِ المُستقيمِ، وأصل (ضلل): ضَياعُ الشَّيءِ، وذَهابُه في غيرِ حقِّه[(٥)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ٧٦، ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢ – ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٢٩، ١٣٩ – ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٢/ ٤٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١، ٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٧٦).

التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: قُرِئ بالرَّفْعِ ﴿ولِبَاسُ التَّقْوَى﴾ وقُرِئ بالنَّصبِ ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾، فعلى قراءةِ الرَّفْعِ فقولُه: ﴿لِبَاسُ﴾ مُبتدأٌ مرفوعٌ، و﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبتدأٌ ثانٍ، و﴿خَيْرٌ﴾ خبرُ المبتدأِ الثاني، والمبتدأُ الثَّاني وخبرُه ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خبرٌ للمُبتدأِ الأوَّل ﴿لِبَاسُ﴾، والرابطُ هنا اسمُ الإشارةِ. أَوْ يكونُ ﴿لِبَاسُ﴾ مبتدأً، و﴿ذَٰلِكَ﴾ بدَلًا منه، أو عَطْفَ بيانٍ له، ويكونُ ﴿خَيْرٌ﴾ خبرًا لـ﴿لِبَاسُ﴾، وقِيلَ غيرُ ذلك. وأمَّا على قِراءةِ النَّصبِ ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾، فهو حِينئذٍ معطوفٌ على ﴿لِبَاسًا﴾، أي: أَنْزَلْنا لِباسًا يُوارِي سَوآتِكم، وأَنْزَلْنا أَيضًا لِبَاسَ التَّقْوى، وعلى هذا الوَجهِ فجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ استئنافيَّةٌ لا مَحَلَّ لها من الإعرابِ، أو حالٌ مِن ﴿لِبَاسًا﴾ وما عُطِفَ عليه(١).

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى بني آدَمَ أنَّه خلقَ لهم لباسًا يستُرُ عَوراتِهم، ورَزَقَهم الأثاثَ واللِّباسَ الفاخِرَ الذي يتزيَّنونَ به، وأعلَمَهم أنَّ لِباسَ التَّقوى خيرٌ مِن ذلك، وأخبَرَ أنَّ ما مَنَّ به مِن ذلك عليهم هو مِن آياته التي خَلَقَها لهم؛ لعَلَّهم يتذكَّرونَ.

ثم حذَّرَ اللهُ بني آدَمَ مِن أن يخدَعَهم الشَّيطانُ بتَزيينِه المعاصِيَ لهم، كما خدَعَ أبَوَيهم آدَمَ وحوَّاءَ، فكان سببًا في خروجِهما مِنَ الجنَّةِ؛ ينزِعُ عنهما لِباسَهما؛ لِيُرِيَهما عَوْراتِهما التي كانت مستترةً، وأعلَمَهم تعالى أنَّ الشَّيطانَ يَراهم هو وذُرِّيتُه مِن حيثُ لا يرونَهم هم، وأنَّه جعلَ الشَّياطينَ أولياءَ للَّذين لا يؤمنون.

وإذا فعل الكُفَّارُ ما يُستفحَشُ ويُستقبَحُ- كَطَوافِهم عُراةً- اعتذروا أنَّهم

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٨٧-٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٥).

وَجَدوا آباءَهم كذلك يفعلونَ، واللهُ أمَرَهم به، فأمَرَ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُبَيِّنَ لهم أنَّ الله لا يأمُرُ بالفَحشاءِ، أيقولونَ على اللهِ ما لا يعلمونَ، وأمَرَه أن يقولَ لهم إنَّ رَبَّه جَلَّ وعلا أمَرَ بالعَدلِ، وليتوجَّهوا في صلاتِهم إلى اللهِ وحده، في أيِّ مسجدٍ كانوا، ولْيَدعوه مُخلصينَ له الدِّينَ، ثمَّ ذكَّر الله تعالى بالمبدأ والنهايةِ، وأنَّه كما خَلَقَكم أوَّلَ مَرَّةٍ بعد أن كُنتم عَدمًا، فكذلك ستَعودونَ إليه يومَ القيامةِ.

فريقًا منهم هداهم الله، وفريقًا وجَبَتْ عليهم الضَّلالة، هؤلاء الذين وَجَبَت عليهم الضَّلالةُ اتَّخذوا الشَّياطينَ أولياءَ مِن دُونِ الله، ويظنُّون أنَّهم مُهتدونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّه أمر آدَمَ وحوَّاءَ بالهُبوطِ إلى الأرضِ، وجعَلَ الأرضَ لهما مُستقَرًّا؛ بَيَّنَ بَعده أنَّه تعالى أنزَلَ كلَّ ما يحتاجونَ إليه في الدِّينِ والدُّنيا، ومن جُملَتِها اللِّباسُ الذي يُحتاجُ إليه في الدِّينِ والدُّنيا(١).

وأيضًا لَمَّا ذكر تعالى واقعةَ آدَمَ في انكشافِ العَورةِ أنَّه كان يخصِفُ الوَرَقَ عليها؛ أتبَعَه بأن بَيَّنَ أنَّه خَلقَ اللِّباسَ للخَلقِ؛ ليستُرُوا به عَورَتَهم، ونَبَّه به على المِنَّةِ العظيمةِ على الخَلقِ؛ بِسَبَب أنَّه أقدَرَهم على التستُّرِ(٢)، فقال تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٨).

أي: يا بني آدَمَ، قد خَلَقْنا لكم ورَزَقْناكم ما تَلْبَسون مِنَ الثِّيابِ(١).

﴿ يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾.

أي: لباسًا يَستُرُ عَوْراتِكم(٢).

﴿ وَرِيشًا ﴾.

أي: وخَلَقْنا لكم ورَزَقْناكم الأثاثَ واللِّباسَ الفاخِرَ الذي تتزَيَّنونَ وتتجَمَّلونَ به(٣).

﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٩، ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

وتفسيرُ ﴿أَنزَلْنَا﴾ بمعنى خلَقْنا، هو اختيارُ ابنِ جريرٍ والشوكانيِّ، وهو مذكورٌ عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، وذلك كقولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي: خلَق. يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٢٤).

قال الرازي: (فإنْ قيل: ما معنى إنزالِ اللِّباسِ؟ قلنا: إنَّه تعالى أنزَلَ المطرَ، وبالمَطرِ تتكوَّنُ الأشياءُ التي منها يحصُلُ اللِّباسُ، فصار كأنَّه تعالى أنزَلَ اللِّباسَ، وتحقيقُ القَولِ أنَّ الأشياءَ التي تحدُثُ في الأرض لَمَّا كانت مُعَلَّقةً بالأمورِ النَّازلةِ من السَّماءِ؛ صار كأنَّه تعالى أنزَلَها مِنَ السَّماءِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢١).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (امتَنَّ سبحانه عليهم بما ينتفِعونَ به من الأنعامِ في اللِّباسِ والأثاثِ، وهذا- والله أعلم- معنى إنزالِه؛ فإنَّه يُنزِلُه مِن ظُهورِ الأنعامِ، وهو كسوةُ الأنعامِ مِنَ الأصوافِ والأوبارِ والأشعارِ، وينتفِعُ به بنو آدَمَ مِنَ اللِّباسِ والرِّياشِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٢/ ٢٥٥-٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٠، ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩-٤٠٠).

قال ابنُ جريرٍ: (إنَّما ابتدأ اللهُ الخبَرَ عن إنزالِه اللِّباسَ الذي يواري سَوآتِنا والرِّياشَ؛ توبيخًا للمشركين الذين كانوا يتجرَّدون في حالِ طَوافِهم بالبيتِ، ويأمُرُهم بأخذِ ثِيابِهم والاستتارِ بها في كلِّ حالٍ، مع الإيمانِ به واتِّباعِ طاعَتِه، ويُعلِمُهم أنَّ كُلَّ ذلك خيرٌ مِن كلِّ ما هم عليه مُقيمونَ؛ مِن كُفرِهم باللهِ وتعرِّيهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٢٣)، ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٠٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٥).

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ قراءتان:

١- قراءةُ ﴿وَلِبَاسَ﴾ عطفًا على ﴿رِيشًا﴾، والمعنى: قد أنزَلْنا عليكم لباسًا يُوارِي سوآتِكم وريشًا، وأنزَلْنا لباسَ التَّقوى[1].

٢- قراءة ﴿وَلِبَاسُ﴾ مبتدأٌ و(ذلك) بدلٌ منه، أو عَطفُ بيانٍ له، و(خَيْرٌ) خبرُه، والمعنى: لباسُ التقوى ذلك الذي قد عَلِمْتُموه خيرٌ لكم يا بني آدَمَ مِن لِباسِ الثِّيابِ التي تُوارِي سَوْآتِكم، ومِنَ الرِّياشِ التي أنزَلْناها إليكم؛ فالبَسُوه[2].

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

أي: واستشعارُ النُّفوسِ تقوى اللهِ: بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، والحياءِ وخَشيةِ اللهِ، والسَّمتِ الحَسَنِ؛ خيرٌ لصاحِبِه من اللِّباسِ والرِّياشِ الذي يُتجَمَّلُ به[3].

---

(١) قرأ بها المدنيان وابن عامر والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٦).
ويُنظَر لِمَعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٨٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٨٢-٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٠-٤٠١).
قال ابنُ جريرٍ: (مَنِ اتَّقى اللهَ كان به مؤمنًا، وبما أمَرَه به عاملًا، ومنه خائفًا، وله مُراقِبًا، ومِن أن يُرى عند ما يَكرَهُه مِن عبادِه مُستَحيًا، ومَن كان كذلك ظَهَرَت آثارُ الخَيرِ فيه، فحَسُنَ سَمتُه وهَدْيُه، ورُئِيَتْ عليه بهجةُ الإيمانِ ونُورُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٠).
وقال السَّعدي: (﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ مِنَ اللِّباسِ الحِسِّيِّ؛ فإنَّ لِباسَ التَّقوى يستمِرُّ مع العبدِ، ولا يبلى ولا يَبِيدُ، وهو جمالُ القَلبِ والرُّوحِ، وأمَّا اللِّباسُ الظَّاهريُّ، فغايَتُه أن يستُرَ العورةَ الظَّاهرةَ، في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ، أو يكونَ جمالًا للإنسانِ، وليس وراءَ ذلك منه نفعٌ، وأيضًا، فبتقديرِ عَدَم هذا اللِّباسِ، تنكَشِفُ عَورَتُه الظَّاهرةُ، التي لا يضرُّه كَشفُها، مع الضَّرورةِ، وأمَّا بتقديرِ عَدَمِ لِباسِ التَّقوى، فإنَّها تنكشِفُ عَورَتُه الباطِنةُ، وينالُ الخِزيَ والفضيحةَ). =

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

أي: ذلك اللِّباسُ والرِّياشُ مِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على رَحمَتِه بعبادِه؛ خَلَقَه لهم لكي يعرِفوا عَظيمَ النِّعمة فيه، ولِيَتَّعِظوا ويعتَبِروا في صُنعِه، فيُوحِّدوه سبحانه، ويُنيبوا إلى الحَقِّ، ويترُكوا الباطِلَ(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٦].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾.

أي: يا بني آدَمَ؛ لا تُمكِّنوا الشَّيطانَ مِن خِداعِكم بتزيينِه المعاصِيَ لكم، كما خدَعَ

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٥).

أباكم آدَمَ وأُمَّكُم حوَّاءَ، فأطاعاه وعَصَيا ربَّهما، فأخرَجَهما بمَكْرِه مِنَ الجنَّةِ(١).

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾.

أي: نزع الشَّيطانُ عن آدمَ وحَوَّاءَ ما رزَقَهما اللهُ مِنَ اللِّباسِ؛ ليكشف عَورةَ كُلٍّ واحدٍ منهما بعد أن كانَتْ مُستترةً، ويُظهِرَها لأعيُنِهما(٢).

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ يراكم هو وذُرِّيتُه، وأنتم لا تَرونَهم(٣).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّا سلَّطْنا الشَّياطينَ على الكفَّارِ، فيزيدونَهم ضلالًا(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٢)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٧).
وقال ابن عاشور: (الأبوانِ تثنيةُ الأبِ، والمرادُ بهما الأبُ والأمُّ على التَّغليبِ، وهو تغليبٌ شائعٌ في الكلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦).
قال الشنقيطي: (أسنَدَ جلَّ وعلا إبداءَ ما وُورِيَ عنهما مِن سوءاتِهما إلى الشَّيطانِ في قوله: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾، كما أسنَدَ له نزْعَ اللِّباسِ عنهما في قَولِه تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾؛ لأنَّه هو المتسبِّبُ في ذلك بوَسوَسَتِه وتَزيينِه). ((أضواء البيان)) (٤/ ١١٤)، ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٨٤).
وقال ابنُ تيمية: (لَمَّا نَزَعَ عن الأبوين لباسهما، فكذلك قد ينزِعُ عن الذريَّةِ لباسَ التَّقوى ولِباسَ البَدَنِ). ((الاستقامة)) (٢/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٠).

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:١٢١].

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾.

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً ﴾.

أي: وإذا فعَلَ الكُفَّارُ ما يُستفحَشُ ويُستقبَحُ مِنَ الأفعالِ؛ مثل طوافِهم بالبَيتِ عُراةً(١).

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾.

أي: قالوا وَجَدْنا آباءَنا يفعلونَ هذا، فنحنُ نقتدي بهم، واللهُ أمَرَنا به، فنحن نتَّبِعُ أمْرَه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٢٧٦)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

قال ابن عاشور: (غلبَتِ الفاحِشةُ في الأفعالِ الشَّديدةِ القُبح، وهي التي تنفِرُ منها الفِطرةُ السَّليمةُ، أو ينشأُ عنها ضُرٌّ وفسادٌ، بحيث يأباها أهلُ العُقولِ الرَّاجحةِ، ويُنكِرُها أولو الأحلام، ويستحيي فاعِلُها مِنَ النَّاسِ، ويتستَّرُ مِن فِعلِها، مثل البِغاءِ والزِّنا والوَأْدِ والسَّرقة، ثم تَنهى عنها الشَّرائِعُ الحقَّةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٦).
=

﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لِمَن ادَّعى ذلك: إنَّ اللهَ لا يأمُرُ عبادَه بقبائِحِ الأفعالِ، ولا يليقُ ذلك بكَمالِه وحِكمَتِه، كهذا التَّعرِّي الذي تصنَعونَه، وتزعمونَ أنَّ اللهَ سبحانه أمَرَكم به(١).

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

أي: أتَزعمونَ أنَّ اللهَ أمَرَكم بالفاحشةِ- مثلَ زَعمِكم أنَّه أمَرَكم بالتَّعرِّي في الطَّوافِ- وأنتم لا تَعلمونَ أنَّه أمَرَكم بذلك(٢).

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الذين يَزعمونَ أنَّ اللهَ أمَرَهم بالفَحشاءِ: ما أمَرَ رَبِّي بما تَزعُمونَ، بل أمَرَ بالعَدلِ في العِباداتِ بتَوحيدِه، وفي المُعاملاتِ بأداءِ حُقوقِ عِبادِه(٣).

﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾.

= قال ابنُ تيميَّةَ: (كان أولياءُ الشَّيطانِ إذا فعلوا هذه الفاحِشةَ- وهي إبداءُ السَّوءاتِ في الطَّوافِ- يحتجُّونَ بشَيئينِ: يقولون: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾، وهذا هو الرُّجوعُ إلى العادةِ، والتَّقليدُ للأسلافِ، ويقولون: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وهذا قولٌ بغيرِ عِلمٍ). ((الاستقامة)) (٢/ ١٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٨)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٤-٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٨٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

أي: تَوَجَّهوا في صلاتِكم إلى اللهِ وَحدَه، في أيِّ مَسجِدٍ كُنتم، واجتَهِدوا في إقامَةِ الصَّلاةِ ظاهِرًا وباطِنًا وَفقَ ما شَرَعه اللهُ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وعن عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا قام إلى الصَّلاةِ، قال: ((وجَّهْتُ وَجهِيَ لِلَّذي فطَرَ السَّمواتِ والأرضَ حنيفًا، وما أنا مِنَ المُشركينَ، إنَّ صَلاتي ونُسُكي، ومَحْياي ومماتي، لله رَبِّ العالَمينَ، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ، وأنا مِنَ المُسلمينَ))(٢).

وعن البَراء بنِ عازبٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوصى رجلًا، فقال: ((إذا أرَدْتَ مَضجَعَك فقل: اللهُمَّ أسلَمْتُ نَفْسي إليك، وفوَّضْتُ أمري إليك، ووجَّهْتُ وَجْهي إليك، وألجَأْتُ ظَهري إليك؛ رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجَأَ ولا منجا منك إلَّا إليك، آمنْتُ بكتابِك الذي أنزَلْتَ، وبنبِيِّكَ الذي أرسَلْتَ؛ فإنْ مُتَّ مُتَّ على الفِطرةِ))(٣).

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾

أي: وادْعُوا اللهَ، واعبُدُوه وَحدَه لا شريكَ له(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٨)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

(٢) رواه مسلم (٧٧١).

(٣) رواه البخاري (٦٣١٣) ومسلم (٢٧١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

أي: كما خَلَقَكم اللهُ أوَّلَ مَرَّةٍ، فجَعَلكم أحياءً بعد أنْ كُنتم عَدَمًا؛ فكذلك تَعودونَ إليه يومَ القِيامةِ، فيبعَثُكم مِن قُبُوركم أحياءً بعد مَوتِكم[1].

كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّكم مَحشُورونَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا، ثمَّ قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]))[2].

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠)﴾.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/١٤٦، ١٤٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/١٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٩) ومسلم (٢٨٦٠).

أي: طائفةً منكم وفَّقَها اللهُ تعالى، ويسَّرَ لها أسبابَ الهِدايةِ، وطائفةً وَجَبتْ عليها الضَّلالةُ، ولَزِمَتْها بعد أن بَيَّنَ لها الهُدى، فلم تَقبَلْ به، وعَمِلَتْ بأسبابِ الغَوايةِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الفَريقَ الذي ثبتَتْ عليهم الضَّلالةُ إنَّما ضَلُّوا بسبَبِ اتِّخاذِهم الشَّياطينَ أنصارًا وأعوانًا يتولونهم مِن دُونِ اللهِ، فأطاعوهم فيما يخالفُ ما شرعَه، فطابَتْ نُفوسُهم بوَسْوَسَتِهم، وأْتَمَروا بأمرِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٨-١٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٥)، ((فتح البيان)) للقنوجي (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٣).

سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥-٢٦].

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

أي: ويظنُّ أولئك الضَّالُّونَ أنَّهم على الهُدى(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فيه إيماءٌ إلى عُلُوِّ رُتبةِ لِباسِ التَّقوى، وحُسنِ عاقِبَتِه؛ لكونِه أهمَّ اللِّباسَينِ؛ لأنَّ نَزعَه يكون بكَشفِ العَورةِ الحِسِّيَّةِ والمعنويَّة، فلو تجمَّلَ الإنسانُ بأحسَنِ المَلابِسِ، وهو غيرُ مُتَّقٍ؛ كان كلُّه سَوْءاتٍ، ولو كان مُتَّقِيًا وليس عليه إلَّا خُرِيقةٌ تُواري عَوْرَتَه، كان في غايةِ الجَمالِ والسِّترِ والكَمالِ(٢).

٢- أنعَمَ على عبادِه بزينتَينِ ولِباسَينِ: زينةٌ تُجَمِّلُ ظواهِرَهم، وزينةٌ مِنَ التَّقوى تُجَمِّلُ بواطِنَهم؛ قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٩).

سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[1]، فكلاهما لباسٌ؛ هذا يسترُ عَوْراتِ القَلْبِ ويُزَيِّنُه، وذاك يسترُ عَوْراتِ الجِسمِ ويُزَيِّنُه، وهما مُتلازمانِ، فعَن شُعورِ التَّقوى للهِ والحياءِ منه ينبثِقُ الشُّعورُ باستقباحِ عُرْيِ الجَسَدِ، والحياءِ منه، ومَن لا يَستَحِي مِنَ اللهِ ولا يتَّقِيه لا يُهِمُّه أن يتعرَّى، وأن يدعُوَ إلى العُرْيِ[2].

٣- في قولِه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ شَبَّه الفُتُونَ الصَّادِرَ مِنَ الشَّيطانِ للنَّاسِ، بفَتْنِه آدَمَ وزَوجَه؛ إذ أقدَمَهما على الأكلِ مِنَ الشَّجرةِ المنهيِّ عنها، فأخرَجَهما مِن نعيمٍ كانا فيه- تذكيرًا للبَشَرِ بأعظَمِ فِتنةٍ فَتَنَ الشَّيطانُ بها نوعَهم؛ إذ حَرَمَهم مِنَ النَّعيمِ الذي كان يتحَقَّقُ لهم لو بَقِيَ أبَواهم في الجنَّةِ وتناسَلا فيها، وفيه أيضًا تذكيرٌ بأنَّ عَداوةَ البَشَرِ للشَّيطانِ مَوروثةٌ، فيكونُ أبعَثَ لهم على الحَذَرِ مِن كَيدِه[3].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ فيه أنَّ الشَّيطانَ أقدَرُ على فِتنةِ بني آدَمَ بوسائِلِه الخفيَّةِ؛ فهم مُحتاجونَ إلى شِدَّةِ الاحتياطِ، وإلى مُضاعَفةِ اليَقَظة، وإلى دَوامِ الحَذَر، كي لا يأخُذَهم على غِرَّةٍ[4]، قال مالكُ بنُ دينار: (إنَّ عَدُوًّا يراك ولا تَراه؛ لَشديدُ المَئُونةِ، إلَّا مَن عَصَم اللهُ)[5].

٥- عدمُ الإيمانِ هو الموجِبُ لعَقدِ الوِلايةِ بين الإنسانِ والشَّيطانِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[6].

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ فيه الأمرُ بالعَدلِ والاعتدالِ في الأمورِ كُلِّها؛ في العباداتِ والمعاملاتِ، وتركِ الظلمِ والجَورِ، والبُعدِ عَنِ الفُحشِ والتَّجاوُزِ(١).

٧- قولُه: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فيه الأمرُ بالتوجهِ لله، والاجتهادِ في تكميلِ العباداتِ، خصوصًا الصلاة، وإقامتِها ظاهرًا وباطنًا، وتنقيتِها مِن كلِّ نقصٍ ومفسدٍ(٢).

٨- يُرشِدُنا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إلى تجريدِ التَّوحيدِ مِن كلِّ شائبةٍ، والإخلاصِ للهِ في العبادةِ(٣).

٩- في قولِه تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ تذكيرٌ بالبعثِ والجَزاءِ على الأعمالِ، ودعوةٌ إلى الإيمانِ به، في إثْرِ بيانِ أصْلِ الدِّينِ، ومَناطِ الأمْرِ فيه، والنَّهيِ الوارِدِ في سياقِ أصلِ تَكوينِ البَشَرِ، واستعدادِهم للإيمانِ والكُفرِ والخَيرِ والشَّرِّ، وما للشَّيطانِ في ذلك مِن إغواءِ الكَافرينَ الذينَ يتَوَلَّونَه، وعدم سُلطانِه على المؤمنينَ الذين يتولَّونَ اللهَ ورسولَه(٤).

١٠- في قولِه تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ هذا كُلُّه إنذارٌ مِنَ الوُقوعِ في الضَّلالةِ، وتحذيرٌ مِنِ اتِّباعِ الشَّيطانِ، وتَحريضٌ على تَوَخِّي الاهتداءِ الذي هو مِنَ الله تعالى؛ فالفريقُ المُفلِحُ هو الفريقُ الذين هداهم اللهُ تعالى، والفريقُ الخاسِرُ هم الذين حَقَّتْ عليهم الضَّلالةُ، واتَّخذوا الشَّياطينَ أولياءَ مِن دُونِ اللهِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٣٤)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٣٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٠).

١١- الهِدايةُ تكونُ بِفَضلِ اللهِ تعالى، ومَنِّه على العَبدِ، والضَّلالةُ تكون بخِذْلانِه للعبدِ، إذا تولَّى- بجَهلِه وظُلمِه- الشَّيطانَ، وتسبَّبَ لنَفسِه بالضَّلالِ، وأنَّ مَن حَسِبَ أنَّه مهتدٍ وهو ضالٌّ، فإنَّه لا عُذرَ له؛ لأنَّه متمَكِّنٌ مِنَ الهدى، وإنَّما أتاه حُسبانُه مِن ظُلمِه بتَركِ الطَّريقِ المُوصِلِ إلى الهُدى، يُرشِدُنا إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(١).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ خاطَبَ اللهُ تعالى بني آدَمَ في هذه الآيةِ وأمثالِها بالنِّداءِ الذي يُخاطَبُ به البعيدُ؛ لِمَا كان عليه عَرَبُهم وعَجَمُهم عند نُزُولِ هذه السُّورةِ في مَكَّةَ مِنَ البُعدِ عَنِ الفِطرةِ السَّليمةِ، والشِّرعةِ القَويمةِ؛ تنبيهًا للأذهانِ بما يقرَعُ الآذانَ، فامتَنَّ عليهم- بعد أنْ أنبَأهم بما كان مِن عُرْيِ سَلَفِهم الأوَّلِ- بما أنعَمَ به عليهم مِنَ اللِّباسِ على اختلافِ دَرَجاتِه وأنواعِه، مِنَ الأدنى الذي يستُرُ السَّوءةَ عن أعيُنِ النَّاسِ، إلى أنواعِ الحُلَلِ التي تُشبِهُ رِيشَ الطَّيرِ في وِقايةِ البَدَنِ مِنَ الحَرِّ والبَردِ بِسَترِ جَميعِ البَدَنِ(٢).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ امتنانُ اللهِ تعالى على بَني آدَمَ بِلِباسِ الزِّينةِ يدُلُّ على استحبابِها(٣)، وأنَّ الزِّينةَ غَرَضٌ صَحيحٌ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣١٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٣٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢٢).

٣- قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ فيه امتنانُ الله على عبادِه بما يسَّرَ لهم مِنَ اللِّباسِ الضروريِّ، واللباسِ الذي المقصودُ منه الجمالُ، وبيانُ أنَّ هذا ليس مقصودًا بالذات، وإنَّما أنزله الله ليكونَ معونةً لهم على عبادتِه وطاعتِه، ولهذا قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من اللباسِ الحسيِّ، فإنَّ لباسَ التقوَى يستمرُّ مع العبدِ، ولا يبلَى ولا يبيدُ، وهو جمالُ القلبِ والرُّوحِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ دلالةٌ على جَوازِ إطلاقِ الثِّيابِ على العَمَلِ، ومِنه قولُه تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤] على أحدِ الأقوالِ فيها[2].

٥- اللِّباسُ مِن أصلِ الفِطرةِ الإنسانيَّةِ، وهو ممَّا كَرَّمَ اللهُ به الإنسانَ منذُ ظُهُورِه في الأرضِ، والعُرْيُ والتكشُّفُ عَمَلٌ مِن أعمالِ الفِتنةِ الشَّيطانيَّةِ؛ قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾[3].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ استُدِلَّ به على وُجوبِ سَترِ العَورةِ[4].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الشَّيطانَ كما نَزَعَ عن الأبَوَينِ لباسَهما بمعصيةِ اللهِ وطاعةِ الشَّيطانِ؛ فكذلك قد يَنزِعُ عن الذُّرِّيَّةِ لِباسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٤)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٦٧).

التَّقوى، ولباسَ البَدَنِ؛ لِيُرِيَها سَوْآتِها(١).

٨- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ﴾ على أنَّ الجدَّ يُسمَّى أبًا(٢).

٩- لَمَّا سُلِّطَ إبليسُ وجُنودُه على بني آدَمَ هذا التَّسليطَ العظيمَ الذي لا يكادُ يَسلَمُ معه أحدٌ؛ قال الله تعالى- مُخَفِّفًا لأمرِهم، مُوهِيًا في الحقيقةِ لكَيدِهم- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: وأمَّا أولياؤُنا الذين مَنَعناهم بقُوَّتِنا منه، أو فتنَّاهم يسيرًا بهم، ثمَّ خَلَّصْناهم بلُطْفِنا منهم؛ فليسوا لهم بأولياءَ(٣).

١٠- في قولِ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ دليلٌ على أنَّ الأوامِرَ والنَّواهيَ الإلهيَّةَ تابعةٌ للحِكمةِ والمصلحةِ؛ حيث ذكر تعالى أنَّه لا يُتصَوَّر أن يأمُرَ بما تستفحِشُه وتُنكِرُه العُقولُ، وأنَّه لا يأمُرُ إلَّا بالعدلِ والإخلاصِ(٤).

١١- حُصِرَت جميعُ الواجباتِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، فالواجِبُ كُلُّه محصورٌ في حقِّ الله وحَقِّ عِبادِه؛ وحَقُّ اللهِ على عِبادِه أن يعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، وحقوقُ عبادِه العَدلُ(٥).

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الكافِرَ- الذي يظُنُّ أنَّه في دينِه على الحقِّ- والجاحِدَ المعانِدَ؛ سواءٌ(٦).

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ١٩٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٦).
(٥) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٤١٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٨٧).

١٣- قال تعالى: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ هذا مِن أبيَنِ الدَّلالةِ على خطأِ قَولِ مَن زَعَمَ أنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ أحدًا على معصيةٍ رَكِبَها، أو ضلالةٍ اعتقَدها؛ إلَّا أن يأتِيَها بعد عِلمٍ منه بصوابِ وَجهِها فيَركَبها عنادًا منه لرَبِّه فيها؛ لأنَّ ذلك لو كان كذلك، لم يكُنْ بَينَ فَريقِ الضَّلالةِ- الذي ضَلَّ وهو يحسَبُ أنَّه [مهتدٍ]- وفريقِ الهُدى؛ فَرْقٌ، وقد فَرَّقَ اللهُ بين أسمائِهما وأحكامِهما في هذه الآيةِ(١).

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ضمَّن (تقولونَ) معنَى (تكذِبون) أو معنى (تتقوَّلونَ)، فلذلك عُدِّي بـ(على)، وكان حقُّه أن يعدَّى بـ(عن) لو كان قولًا صحيحَ النِّسبةِ(٢).

١٥- في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إذا كان التوبيخُ وارِدًا على أن يَقولوا على اللهِ ما لا يَعلمونَ؛ كان القولُ على اللهِ بما يتحقَّقُ عدَمُ ورُودِه مِنَ اللهِ أحرَى(٣).

١٦- قال الله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، عَطْفُ جُملةِ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ على جملة: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، واعتبارُهما سواءً في الإخبارِ عَنِ الفَريقِ الذين حَقَّتْ عليهم الضَّلالةُ؛ لِقَصدِ الدَّلالةِ على أنَّ ضَلالَهم حاصِلٌ في كُلِّ واحدٍ مِنَ الخَبَرينِ؛ فوِلايةُ الشَّياطينِ ضَلالةٌ، وحِسْبانُهم ضَلالَهم هُدًى، ضلالةٌ أيضًا، سواءٌ كان ذلك كُلُّه عن خطأٍ أو عَن عِنادٍ؛ إذ لا عُذرَ للضَّالِّ في ضَلالِه بالخَطَأِ؛ لأنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نَصَبَ الأدلَّةَ على الحَقِّ، وعلى التَّمييزِ بَينَ الحَقِّ والباطِلِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ فيه تكريرُ النِّداءِ؛ للإيذانِ بكَمالِ الاعتناءِ بمَضمونِ ما صُدِّرَ به، وقد ابتُدِئَ الخِطابُ بالنِّداءِ؛ ليقعَ إقبالُهم على ما بَعدَه بهِمَمِ قُلوبِهم[2].

- وكان لاختيارِ استحضارِهم عند الخِطابِ بعنوانِ (بني آدم) مرَّتينِ وَقْعٌ عَجيبٌ بعدَ الفَراغِ مِن ذِكرِ قِصَّةِ خَلقِ آدَمَ، وما لَقِيَه مِن وَسوَسةِ الشَّيطان؛ وذلك أنَّ شأنَ الذريَّةِ أن تَثْأَرَ لآبائِها، وتُعادِيَ عَدُوَّهم، وتحترِسَ مِنَ الوُقوعِ في شَرَكِه[3].

- وفيه: تعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ جَعلوا مِن قُرُباتِهم نَزعَ لِباسِهم بأن يحُجُّوا عُراةً[4].

٢- قوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أُطلِقَ على تقْوى الله وخَشيَتِه اسمُ اللِّباسِ؛ تَشبيهًا لمُلازَمةِ تقوى اللهِ بملازَمةِ اللَّابِسِ لِباسَه[5].

- واسمُ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾- على القَولِ بأنَّه مُبتدأٌ ثانٍ- استُعمِلَ مكانَ الضَّميرِ في الرَّبطِ، وجُعِلَتْ جملةُ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ خبرًا لِقَولِه: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾؛ فدلَّ على تأكيدِ مَضمُونِها بتكرارِ الإسنادِ[6]، وأيضًا في الفَصْلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٢١).

باسمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ المُقتَرِن بأداةِ البُعدِ؛ إيماءٌ إلى عُلُوِّ رُتبةِ لِباسِ التَّقوى، وحُسنِ عاقِبَتِه[1].

٣- قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيه التفاتٌ مِنَ الخطابِ إلى الغَيبةِ؛ إذ كان مُقتضى الظَّاهِرِ أن يُقال: (لعلَّكم تَذكَّرون)، وفي هذا الالتفاتِ تَعريضٌ بمَن لم يتذكَّرْ مِن بني آدم، فكأنَّه غائِبٌ عن حَضرةِ الخِطابِ[2].

٤- قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ نُهُوا عن أن يفتِنَهم الشَّيطانُ، أي: لا تُمكِّنوا الشَّيطانَ من أنْ يَفتِنكم، والمعنى النَّهيُ عن طاعتِه، وهذا مِن مبالغةِ النَّهيِ؛ فالمعنى: لا تُطيعوا الشَّيطانَ في فَتْنِه فيفتِنكم، ومثلُ هذا كنايةٌ عن النَّهيِ عن فِعلٍ، والنَّهيِ عن التعرُّضِ لأسبابِه[3].

- وقوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ استئنافٌ لتَعليلِ النَّهيِ، وتأكيدِ التَّحذيرِ منه[4]، والتَّعبيرُ عمَّا مضَى بالفِعلِ المُضارعِ في قوله: ﴿يَنْزِعُ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ العَجيبةِ مِن تمكُّنِه مِن أنْ يترُكَهما عُرْيانَينِ، ونزْعُ اللِّباسِ تَمثيلٌ لحالِ التَّسَبُّب في ظُهورِ السَّوءةِ[5].

٥- قولُه: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هو وَقَبِيلُهُ﴾ فيه تأكيدُ الخَبَرِ بحَرَفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ لتنزيلِ المُخاطَبينَ في إعراضِهم عن الحذَرِ مِنَ الشَّيطانِ وفِتنَتِه منزلةَ مَن يتردَّدونَ في أنَّ الشَّيطانَ يراهم، وفي أنَّهم لا يَرونَه[6].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٩).

- وجملة: ﴿إِنَّه يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ واقعةٌ موقِعَ التَّعليلِ للنَّهيِ عن الافتتانِ بفتنةِ الشَّيطانِ، والتحذيرِ من كيدِه؛ لأنَّ شأنَ الحَذِرِ أن يَرصُدَ الشَّيءَ المَخُوفَ بنَظَرِه؛ ليحترِسَ منه إذا رأى بوادِرَه، فأخبرَ اللهُ النَّاسَ بأنَّ الشَّياطينَ ترى البَشَرَ، وأنَّ البَشَرَ لا يرونَها، إظهارًا للتَّفاوُتِ بين جانِبِ كَيدِهم، وجانِبِ حَذَرِ النَّاسِ؛ فإنَّ جانِبَ كيدِهم قَويٌّ متمَكِّنٌ، وجانِبَ حَذَرِ النَّاسِ منهم ضعيفٌ؛ لأنَّهم يأتون المَكيدَ مِن حيثُ لا يدري(١).

٦- **قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أولِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ قُصِدَ منه الانتقالُ إلى أحوالِ المُشركينَ في ائتِمارِهم بأمرِ الشَّيطانِ؛ تَحذيرًا للمؤمنينَ مِن الانتظامِ في سِلكِهم، وتنفيرًا مِن أحوالِهم(٢)، وهي تعليلٌ آخَرُ للنَّهيِ، وتأكيدٌ للتَّحذيرِ إثْرَ تَحذيرٍ(٣).

- وفيه: تأكيدُ الخَبَرِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بالخَبَرِ بالنِّسبة لِمَن يَسمَعُه مِنَ المؤمنينَ(٤).

٧- **قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾** فيه إيجازٌ؛ إذ المفهومُ أنَّهم إذا فَعَلوا فاحشةً فأنكَرْتَ عليهم أو نُهُوا عنها؛ قالوا: وَجَدْنا عليها آباءَنا...(٥).

- وجاء الشَّرطُ بحَرْفِ ﴿إِذَا﴾ الذي مِن شَأنِه إفادةُ اليَقينِ بوُقوعِ الشَّرطِ؛ ليُشِيرَ إلى أنَّ هذا حاصِلٌ منهم لا محالةَ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٢).

٨- قولُه: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ إنكاريٌّ، وفيه تَوبيخٌ لهم على كَذِبِهم، وتَوقيفٌ على ما لا عِلْمَ لهم به، ولا رِوايةَ لهم فيه، بل هي دَعْوَى واختلاقٌ[١].

٩- قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾

- فُصِلَتْ جُملةُ ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ عن التي قبلَها، ولم يُعطَفِ القَولُ على القَولِ، ولا المَقولُ على المَقولِ؛ لأنَّ في إعادةِ فِعلِ القَولِ، وفي تَركِ عَطفِه على نظيرِه؛ لَفْتًا للأذهانِ إليه[٢].

- وقولُه: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ إقامةُ الوُجوهِ تمثيلٌ لِكَمالِ الإقبالِ على عِبادةِ اللهِ تعالى في مواضِعِ عِبادَتِه، بحالِ المُتَهيِّئِ لمُشاهَدةِ أمرٍ مُهِمٍّ حين يوجِّه وَجهَه إلى صَوْبِه، لا يلتفِتُ يَمنةً ولا يَسرةً[٣].

- وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ﴿كَمَا﴾ مُركَّبةٌ من الكاف و(ما)؛ فالكافُ لِتَشبيهِ عَودِ خَلْقِهم ببَدئِه، و(ما) مصدريةٌ، والتقديرُ: تَعودونَ عَودًا جديدًا كبَدْئِه إيَّاكم، وقَدَّمَ المُتعَلِّقَ الدَّالَّ على التَّشبيهِ، على فِعلِه ﴿تَعُودُونَ﴾؛ للاهتمامِ به[٤].

١٠- قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٩).

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾

– فيه تَقديمُ ﴿فَرِيقًا﴾ الأوَّلِ والثَّاني على عامِلَيهما؛ للاهتمامِ بالتَّفصيلِ(١).

– قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، فيه مناسبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، بينما قال في سُورةِ النَّحل: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]؛ وذلك لوجهينِ: لفظي ومعنوي؛ أمَّا اللَّفظيُّ: فهو أنَّ الحروفَ الحواجزَ بينَ الفِعلِ والفاعِلِ في قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أكثرُ منها في قولِه: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ﴾ والحذفُ مع كثرةِ الحواجزِ أحسنُ. وأمَّا المعنويُّ: فإنَّ (مَن) في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ واقعةٌ على الأمَّةِ والجماعةِ، وهي مؤنَّثةٌ لفظًا؛ فإنَّه قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ ثمَّ قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾، أي: مِن تِلك الأُممِ أممٌ حقَّتْ عليهم الضلالةُ، ولو قال بدَلَ ذلك: (ضلَّت) لتعيَّنتِ التاءُ، ومعنى الكلامين واحد، وإذا كان معنى الكلامينِ واحدًا كان إثباتُ التاءِ أحسنَ مِن ترْكِها؛ لأنَّها ثابتةٌ فيما هو في معنى الكلامِ الآخَرِ. وأمَّا: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ فالفريقُ مُذكَّر، ولو قال: (فريقًا ضلُّوا) لكان بغيرِ تاءٍ، وقوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ في معناه؛ فجاءَ بغيرِ تاءٍ، وهذا أسلوبٌ لطيفٌ من أساليبِ العربيَّةِ؛ فإنَّ العرَبَ تدَعُ حُكمَ اللَّفظِ الواجبِ له في قِياسِ لُغتها إذا كان في مَعنَى كلمةٍ لا يجبُ لها ذلك الحُكمُ؛ كقولهم: (هو أحسنُ الفتيانِ وأجملُه)؛ لأنَّه في معنى هو أحسنُ فتًى وأجملُه، وأحسنُ مِن هذا أنْ يُقال: إنَّهم أرادوا (أحسن شيءٍ وأجمله)، فجَعَلوا مكانَ (شيء)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٠).

قولهم: (الفتيان)؛ تنبيهًا على أنَّه أحسنُ شيءٍ من هذا الجِنس، فلو اقتَصروا على ذِكرِ شيءٍ، لم يَدُلَّ على الجِنس المفضَّلِ عليه؛ فإذا حَسُنَ الحملُ على المعنَى فيما كان القياسُ لا يُجوِّزه؛ فكيفَ الظنُّ فيما يُجوِّزُه القياسُ والاستِعمالُ[1]؟!

– وقوله: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أولِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ استئنافٌ مُرادٌ به التَّعليلُ لجُملة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾[2].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (١/ ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩١).

الآيتان (٣١-٣٢)

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُفَصِّلُ﴾: أي: نُبيِّنُ ونميِّزُ، والتفصيلُ التبيينُ، وقيل: نَأْتِي بِهَا شَيْئًا بعد شَيءٍ، وَلَا نُنَزِّلُها جُمْلَةً مُتَّصِلَةً، وأصلُ (فصل): يدلُّ على تَمييزِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، وإبانَتِه عنه[1].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى بني آدَمَ أن يأخُذُوا زينَتَهم مِنَ اللِّباسِ الحَسَنِ، منظرًا ومخبرًا، ساترًا للعورة عند جَميعِ المساجِدِ، وفي جميعِ الصَّلَواتِ، وأن يأكُلُوا ويَشْرَبوا مِمَّا أحَلَّه لهم، ولا يُسرِفوا بالإفراطِ في الأكلِ والشُّربِ فوق ما يَكفِيهم، أو بتجاوُزِ حُدودِ اللهِ بتحريمِ ما أحَلَّه، أو بتناوُلِ ما حَرَّمَه مِنَ المأكولاتِ والمَشروباتِ؛ فاللهُ تعالى لا يُحِبُّ المُسرفينَ.

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه أن يقولَ لجَهَلةِ العَرَب الذين يتعَرَّونَ عند طَوافِهم بالبَيتِ، ويُحَرِّمونَ على أنفُسِهم ما أحلَّه اللهُ لهم؛ أمَرَه أن يقولَ لهم، مُنكِرًا عليهم: مَنِ الذي حَرَّمَ زينةَ اللهِ التي أخرَجَها لعبادِه، كاللِّباسِ الذي خَلَقَه لهم، ومَنِ الذي حَرَّمَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ، وأَمَرَه أن يقولَ لهم: إنَّ الزِّينةَ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ هي للَّذينَ آمنوا في الدُّنيا، ويُشارِكُهم فيها الكُفَّارُ، لكنَّها خالصةٌ لهم يومَ القيامةِ، لا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ١٩٤).

يشارِكُهم فيها أحدٌ مِنَ الكَفَرة، كذلك يُفَصِّلُ اللهُ الآياتِ لقومٍ يَعلمونَ.

تفسيرُ الآيتين:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالقِسطِ في الآيةِ الأُولى، وكان مِن جُملةِ القِسْطِ أمرُ اللِّباسِ، وأمرُ المأكولِ والمَشروبِ؛ لا جَرَمَ أتبَعَه بذِكْرِهما، وأيضًا لَمَّا أمَرَ بإقامةِ الصَّلاةِ في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وكان سَترُ العَورةِ شَرطًا لصِحَّةِ الصَّلاةِ؛ لا جَرَمَ أتبَعَه بذِكرِ اللِّباسِ[1]، فقال تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

سببُ النُّزولِ:

عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كانَتِ المرأةُ تَطوفُ بالبَيتِ وهي عُريانةٌ، فتقولُ: مَنْ يُعيرُني تِطوافًا[2]؟ تجعلُه على فَرجِها، وتقول:

اليومَ يَبدُو بعضُه أو كُلُّهْ   فما بَدا مِنْه فلا أُحِلُّهْ

فنزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢٨).

(٢) التِّطْوافُ: ثَوبٌ تَلبَسُه المرأةُ تَطوفُ به. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٦٢)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/ ١٠٧).

(٣) رواه مسلم (٣٠٢٨).

قال ابنُ رجب الحنبلي: (نزَلَتْ بسبَبِ طَوافِ المُشركينَ بالبَيتِ عُراةً، وقد صحَّ هذا عنِ ابنِ عَبَّاسٍ، وأجمع عليه المُفَسِّرونَ من السَّلَفِ بعده). ((فتح الباري)) (٢/ ٣٣٤).

وروى البخاري (١٦٦٥) ومسلم (١٢١٩) عن عُروةَ بنِ الزُّبير قال: (كان النَّاسُ يطوفون =

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

أي: يا بني آدَمَ خُذوا زينَتَكم مِنَ اللِّباسِ الحَسَن، واستُروا عَوْراتِكم به عند جميعِ المساجِدِ، في الصَّلواتِ كُلِّها؛ فَرضِها ونَفْلِها، وفي الطَّوافِ والاعتكافِ، وغيرِ ذلك[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ أبا بكرٍ الصِّديقَ رَضِيَ الله عنه، بَعَثَه في الحَجَّةِ التي أمَّرَه عليها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قبل حَجَّةِ الوَداعِ يومَ النَّحرِ، في رَهْطٍ يُؤَذِّنُ في النَّاسِ: ((ألَا لا يحُجُّ بعد العامِ مُشرِكٌ، ولا يطوفُ بالبَيتِ عُريانٌ))[٢].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يُصَلِّي أحدُكم في الثَّوبِ الواحِدِ، ليس على عاتِقَيهِ مِنه شَيءٌ))[٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ. قال رجل: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ

= في الجاهليَّة عُراةً إلَّا الحُمْسَ، والحُمْسُ: قُرَيشٌ وما وَلَدَت، وكانت الحُمْسُ يحتسبونَ على النَّاسِ؛ يعطي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثِّيابَ يطوفُ فيها، وتُعطي المرأةُ المرأةَ الثِّيابَ تَطوفُ فيها، فمَن لم يُعطِه الحُمْسُ طاف بالبَيتِ عُريانًا). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٦/ ٢٢٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (كانت العربُ- ما عدا قُرَيْشًا- لا يَطُوفون بالبيتِ في ثِيابِهم الَّتي لَبِسوها، يَتَأَوَّلون في ذلك أنَّهم لا يَطُوفون في ثيابٍ عَصَوُا اللَّه فيها، وكانت قُرَيْشٌ- وهم الحُمْس- يَطُوفون في ثيابِهم، ومَن أعارَه أَحْمَسِيٌّ ثوبًا طَاف فيه، ومن معه ثوبٌ جَديدٌ طاف فيه، ثُمَّ يُلقيه فلا يتملَّكُه أحدٌ، فمن لم يَجِدْ ثوبًا جديدًا، ولا أعارَه أَحْمَسِيٌّ ثَوبًا، طافَ عريانًا). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ويُنظر: ((أخبار مكة)) للأزرقي (١/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٩)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٤).

(٢) رواه البخاري (١٦٢٢) ومسلم (١٣٤٧).

(٣) رواه البخاري (٣٥٩) ومسلم (٥١٦).

أن يكونَ ثَوبُه حَسَنًا، ونَعْلُه حَسَنةً، قال: إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ؛ الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ[١]، وغَمْطُ النَّاسِ[٢]))[٣].

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

أي: وكُلُوا واشرَبُوا مِمَّا أحلَلْتُه لكم مِنَ الطَّيِّباتِ، ولا تُفرِطُوا في الأكلِ والشُّربِ بالزِّيادةِ على القَدرِ الكافي، ولا تتجاوَزوا حُدودَ اللهِ؛ فتُحَرِّموا ما أحَلَّ اللهُ مِنَ الأطعمةِ والأشرِبَةِ، أو تتناوَلوا ما حَرَّمَه منها[٤].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤١-١٤٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

---

(١) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٢) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتقارُهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) رواه مسلم (٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٦٥-١٦٧).

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المجاوِزينَ أمْرَه، الغالينَ فيما أحلَّ أو حرَّم، المُستكثِرينَ ممَّا لا ينبغي الاستكثارُ منه؛ مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ وغيرِ ذلك[١].

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِنَ المعلومِ أنَّ ما كانوا ألِفُوه واتَّخذوه دِينًا يستعظمونَ تَرْكَه؛ لأنَّ الشَّيطانَ يُوَسْوِسُ لهم بأنَّه توسُّعٌ في الدُّنيا، والتَّوَسُّعُ فيها ممَّا ينبغي الزُّهدُ فيه، كما دعا إليه كثيرٌ مِنَ الآياتِ- أكَّدَ سُبحانَه الإذنَ في ذلك بالإنكارِ على مَن حَرَّمَه، مُعْلِمًا أنَّ الزُّهدَ الممدوحَ ما كان مع صِحَّةِ الاعتقادِ في الحلالِ والحرامِ، وأمَّا ما كان مع تبديلِ شَيءٍ مِنَ الدِّينِ، بتحليلِ حرامٍ، أو عَكْسِه؛ فهو مذمومٌ[٢].

وأيضًا لَمَّا حَرَّمَتِ العَرَبُ في جاهِلِيَّتِها زينةَ اللِّباسِ في الطَّوافِ تعبُّدًا وقُربةً، وحَرَّمَ بعضُهم أكْلَ بعضِ الطَّيِّباتِ مِنَ الأدْهانِ وغَيرِها في حال الإحرامِ بالحَجِّ كذلك، وحَرَّموا مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ ما بيَّنه تعالى في سورة الأنعام. وحَرَّمَ غَيرُهم مِنَ الوَثنِيِّينَ وأهلِ الكِتابِ كثيرًا مِنَ الطَّيِّباتِ والزِّينةِ كذلك- جاء دينُ الفِطرةِ الجامِعُ بين مصالِحِ البَشَرِ في معاشِهِم ومَعَادِهم، المُطَهِّرُ المُرَبِّي لأرواحِهم وأجسادِهم، يُنكِرُ هذا التحكُّمَ والظُّلمَ للنَّفْسِ[٣]، فقال تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٤٥).

أي: قُلْ- يا نبيَّ اللهِ- لجَهَلةِ العَرَبِ الذين يتعَرَّونَ عند طَوافِهم بالبَيتِ، ويُحرِّمونَ على أنفُسِهم- بآرائِهم الفاسِدةِ- ما أحلَلْتُ لهم: مَنِ الَّذي حرَّمَ عليكم زينةَ اللهِ التي أبرَزَها مِنَ العَدَمِ إلى الوُجودِ، ويسَّرَ أسبابَ تَناوُلِها، كالِّلباسِ الذي خَلَقَه اللهُ لعِبادِه؟ ومَنْ حرَّمَ الطَّيِّباتِ مِن كُلِّ ما يُستلَذُّ ويُشتَهى مِن أنواعِ المأكولاتِ والمَشروباتِ وغيرِ ذلك، مِمَّا أحَلَّه اللهُ تعالى لعباده(١)؟!

عن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ نَفَرًا مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، سألوا أزواجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن عَمَلِه في السِّرِّ؟ فقال بعضُهم: لا أتزوَّجُ النِّساءَ، وقال بعضُهم: لا آكُلُ اللَّحمَ، وقال بعضُهم: لا أنامُ على فِراشٍ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، فقال: ما بالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا؟ لكِنِّي أُصَلِّي وأنامُ، وأصومُ وأُفطِرُ، وأتَزَوَّجُ النِّساءَ؛ فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مِنِّي))(٢).

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

أي: قُل- يا نَبِيَّ اللهِ- لهؤلاءِ المُشركينَ الذين يُحَرِّمونَ ما أحَلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ: إنَّ الزِّينةَ والطَّيباتِ مِنَ الرِّزقِ، قد خَلَقَها اللهُ في الدُّنيا للَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، ويُشارِكُهم فيها مَن كَفَرَ باللهِ ورَسولِه، ولكنَّها خالصةٌ للمُؤمنينَ في الآخِرَةِ، لا يشارِكُهم فيها أحَدٌ مِنَ الكُفَّارِ يومَئِذٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٥٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٦٨، ١٦٩).

وقال الرازي: (يدخُلُ تحت الزِّينةِ جميعُ أنواعِ التَّزيينِ، ويدخُلُ تحتَها تنظيفُ البَدَنِ مِن جميعِ الوُجوه، ويدخُلُ تحتَها المركوبُ، ويدخُلُ تحتها أيضًا أنواعُ الحُليِّ؛ لأنَّ كُلَّ ذلك زينةٌ، ولولا النصُّ الواردُ في تحريمِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والإبريسَمِ على الرِّجالِ؛ لكان ذلك داخلًا تحت هذا العمومِ، ويدخُلُ تحت الطَّيباتِ مِنَ الرِّزقِ كلُّ ما يُستلَذُّ ويُشتَهى من أنواعِ المأكولاتِ والمَشْروبات، ويدخل أيضًا تحتَه التمتُّعُ بالنِّساءِ وبالطِّيبِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠).

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن =

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

أي: كهذا التَّفصيلِ الواضِحِ الذي فصَّلْنا لكم به الحلالَ والحَرامَ، وبَيَّنَّا لكم به حُرمةَ كَشْفِ العَوْراتِ، ولُزُومَ سَتْرِها، وإباحةَ الزِّينةِ والطَّيِّبات مِنَ الرِّزقِ؛ نُوَضِّحُ دائمًا في هذا القرآنِ جَميعَ ما يَحتاجُ إلى بيانٍ، وذلك للَّذين يفهمونَ عَنِ اللهِ آياتِه، وينتفعونَ بها (١).

كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١ - أمَرَ اللهُ بقَدرٍ زائدٍ على سَترِ العَورةِ في الصَّلاةِ، وهو أخذُ الزِّينةِ؛ فقال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فعَلَّقَ الأمرَ بأخذِ الزِّينةِ، لا بِسَترِ العَورةِ؛ إيذانًا بأنَّ العَبدَ ينبغي له أن يلبَسَ أزيَنَ ثيابِه، وأجمَلَها في الصَّلاةِ، وكان لبَعضِ السَّلَفِ حُلَّةٌ بمبلغٍ عظيمٍ مِنَ المالِ، وكان يلبَسُها وقتَ الصَّلاةِ، ويقولُ: (ربِّي أحَقُّ مَن تجمَّلْتُ له في صلاتِي). ومعلومٌ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يُحِبُّ أن يرى أثَرَ نِعمَتِه على عَبدِه، لا سيَّما إذا وقَفَ بين يَدَيه، فأحسَنُ ما وَقَف بين يديه

= عاشور)) (٨-ب/ ٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٦٩ - ١٧١).

وقال ابن عاشور: (المعنى: ما هي بحرام، ولكنَّها مباحةٌ للَّذين آمنوا، وإنَّما حَرَمَ المشركون أنفُسَهم من أصنافٍ منها في الحياةِ الدُّنيا كُلِّها، مثل البَحِيرة والسَّائِبة والوَصِيلة والحامِي، وما في بُطونها، وحَرَم بعضُ المشركين أنفُسَهم من أشياءَ في أوقاتٍ مِنَ الحياة الدُّنيا، ممَّا حَرَّموه على أنفُسِهم مِنَ اللِّباسِ في الطَّوافِ، وفي مِنًى، ومِن أكْلِ اللُّحومِ والوَدَكِ والسَّمْن واللَّبَن، فكان الفَوزُ للمؤمنينَ؛ إذ اتَّبَعوا أمرَ اللهِ بتحليلِ ذلك كُلِّه في جميعِ أوقاتِ الحياةِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٢).

بملابِسِه ونِعمَتِه التي ألبَسَه إيَّاها ظاهرًا وباطنًا[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فيه النهيُ عن الإسرافِ؛ فإنَّ السَّرَفَ يُبغِضُه الله، ويَضُرُّ بَدنَ الإنسانِ ومَعيشَتَه[٢].

٣- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ إرشادٌ عالٍ، فيه صَلاحٌ للبَشَرِ في دِينِهم ومَعاشِهم ومَعادِهم، لا يَستغنُونَ عنه في وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ، ولا عَصْرٍ مِنَ الأعصارِ، وكلُّ ما بَلَغُوه مِن سَعَةِ العِلمِ في الطِّبِّ وغَيرِه، لم يُغْنِهم عنه، بل هو يُغني المُهتديَ به في أمْرِه ونَهْيِه عَن مُعظَمِ وصايا الطِّبِّ لِحِفظِ الصِّحَّةِ[٣]، قال عليُّ بنُ الحُسَينِ بنِ واقدٍ: (جَمَعَ اللهُ الطِّبَّ في نِصفِ آيةٍ، فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾)[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ استنكارُ تَحريمِ الزِّينةِ التي أخرَجَها اللهُ لعبادِه، وتحريمِ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ؛ فمِنَ المُستنكَرِ أن يُحَرِّمَ أحَدٌ- برَأيِه- ما أخرَجَه اللهُ للنَّاسِ مِنَ الزِّينةِ أو مِنَ الطَّيباتِ؛ فتحريمُ شَيءٍ أو تحليلُه لا يكونُ إلا بِشَرعٍ مِنَ اللهِ[٥].

٥- التَّوسيعُ مِنَ الله لعبادِه بالطَّيِّباتِ؛ جَعَلَه لهم لِيَسْتعينوا به على عِبادَتِه، فلم يُبِحْه إلَّا لعبادِه المؤمنينَ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: لا تَبِعَةَ عليهم فيها، ومفهومُ الآيةِ أنَّ مَن لم يؤمِنْ بالله، بل استعانَ بها على مَعاصِيه، فإنَّها غيرُ خالصةٍ له، ولا مُباحةٍ، بل

---

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٣٢٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٤).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٨٢).

يُعاقَبُ عليها وعلى التنعُّمِ بها، ويُسألُ عنِ النَّعيمِ يومَ القيامةِ(١).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ جمعَتْ هذه الآيةُ أصُولَ أحكامِ الشَّريعةِ كُلِّها، فجَمَعتِ الأمرَ والنَّهيَ، والإباحةَ والخَبَرَ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لهذه الآيةِ وما ورَدَ في معناها مِنَ السُّنَّة، يُستحَبُّ التجمُّلُ عند الصَّلاةِ- ولا سيَّما يومُ الجُمُعة، ويومُ العِيدِ- والطِّيبُ؛ لأنَّه مِنَ الزِّينةِ، والسِّواكُ؛ لأنَّه مِن تمامِ ذلك(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأمرُ بسَترِ العَوراتِ عندَ المساجِدِ، فدخلَ في ذلك الطَّوافُ، والصَّلاةُ، والاعتكافُ، وغيرُ ذلك(٤).

٤- دلَّ قولُه تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ على أنَّ الصَّلاةَ في الثَّوبِ الحَسَنِ غَيرُ مَكروهةٍ، إلَّا أنْ يُخشَى منه الالْتِهاءُ عن الصَّلاةِ، أو حُدوثُ الكِبْرِ(٥).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مُطلَقٌ يتناوَلُ الأوقاتَ والأحوالَ، ويتناوَلُ جميعَ المطعوماتِ والمَشروباتِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ الأصلَ في الملابِسِ وأنواعِ التَّجَمُّلات والمطاعِمِ؛ الإباحةُ، إلَّا ما ورَدَ النَّصُّ بخِلافِه(٦).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن رجب الحنبلي)) (١/ ٤٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٧٢).

الرِّزْقِ﴾ فيه ردٌّ على مَن يتوَرَّعُ عن أكلِ المُستَلَذَّاتِ، ولُبسِ المَلابِسِ الرَّفيعةِ؛ فإنَّ الاستفهامَ المرادُ منه تقريرُ الإنكارِ، والمبالغةُ فيه(١).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: الزِّينةُ والطَّيِّباتُ هي لهم بالأصالةِ، والكَفَرةُ وإن شارَكُوهم فيها فتَبَعٌ؛ ولذا لم يَقُلْ تعالى: (لِلَّذِينَ آمنوا وغَيرِهم)(٢).

بلاغة الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ هذه الجُملةُ تتنَزَّلُ مِنَ التي بَعدَها، وهي قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ﴾ منزلةَ النَّتيجةِ مِنَ الجَدَلِ، فقُدِّمَتْ على الجَدَلِ، فصارَتْ غَرَضًا بمنزلةِ دَعوى، وجُعِلَ الجدلُ حجَّةً على الدَّعوى(٣).

٢- قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

- قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ استئنافٌ مُعتَرِضٌ بين الخِطاباتِ المحكِيَّةِ والمُوجَّهة، وهو موضِعُ إبطالِ مَزاعِمِ أهلِ الجاهِليَّةِ فيما حرَّموه من اللِّباسِ والطَّعامِ، وهي زيادةُ تأكيدٍ لإباحةِ التسَتُّرِ في المساجِدِ، فابتُدِئَ الكلامُ السَّابِقُ بأنَّ اللِّباسَ نِعمةٌ مِنَ اللهِ(٤).

- والاستفهامُ في قَولِه: ﴿مَنْ حَرَّمَ﴾ إنكاريٌّ، قُصِدَ به التهكُّم؛ إذ جَعَلَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٨٩)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٩٥).

بمنزلةِ أهلِ عِلمٍ يُطلَبُ منهم البيانُ والإفادةُ، وقرينةُ التهَكُّمِ إضافةُ الزِّينةِ إلى اسمِ اللهِ في قوله: ﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾، وتعريفُها بأنَّها أخرَجَها اللهُ لعِبادِه، ووصْفُ الرِّزقِ بالطَّيِّباتِ، وذلك يقتَضي عَدَمَ التَّحريمِ؛ فالاستفهامُ يَؤُولُ أيضًا إلى إنكارِ تَحريمِها، وتوبيخِ مُحَرِّمِيها[1].

- قوله: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه تعريضٌ بجَهلِ وضَلالِ عُقولِ المُشركينَ الذين استَمَرُّوا على عنادِهم وضَلالِهم، رغمَ ما فُصِّلَ لهم مِنَ الآياتِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٩).

الآيتان (٣٣-٣٤)

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿سُلْطَانًا﴾: أي: حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقَهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّيَ السُّلطانُ سُلطانًا(١).

﴿أُمَّةٍ﴾: أي: جماعةٍ، أو قَرْنٍ وجِيلٍ، وتُطلَقُ الأمَّةُ على المِلَّةِ والسُّنَّةِ والدِّينِ والحِينِ(٢).

﴿أَجَلٌ﴾: أي: وَقْتٌ لِحُلولِ الهَلاكِ، والأجَلُ غايةُ الوَقتِ في مَحِلِّ الدَّينِ وغَيرِه، والمدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ، كالمُدَّة المضروبةِ لحياةِ الإنسانِ؛ فيُقال: دنا أجَلُه، وهو عبارةٌ عن دُنوِّ المَوتِ، واستيفاءُ الأجَلِ، أي: مدَّةُ الحياةِ(٣).

﴿سَاعَةً﴾: أي: وقتًا قليلًا مِنَ الزَّمانِ، وأصل (سوع): يدلُّ على استمرارِ الشَّيءِ ومُضيِّه(٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢،٨١، ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠ / ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٤).

المَعْنى الإجماليُّ:

أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يخبِرَ المُشركينَ أنَّه عزَّ وجلَّ إنَّما حرَّمَ الذُّنوبَ التي تناهَتْ في القُبحِ، ما ظهرَ منها وما خَفِيَ، وحرَّمَ المعاصِيَ التي تتعلَّقُ بمن عصى نفسَه، وحرَّمَ التعدِّيَ على الغيرِ بغيرِ حقٍّ، وحرَّمَ أن يُتَّخَذ معه شريكٌ في عبادَتِه، لم يجعَلِ اللهُ معه حُجَّةً تدلُّ على إشراكِه، وحرَّمَ عزَّ وجلَّ القَولَ عليه بلا علمٍ.

وأخبرَ تعالى أنَّ لكلِّ أمَّةٍ مُكَذِّبةٍ وقتًا محددًا لحُلولِ العُقوبةِ عليهم، فإذا جاءَ الوقتُ الذي وقَّتَه اللهُ لإهلاكِهم هَلَكوا، ولا يتأخَّرونَ عنه ساعةً، ولا يتقدَّمونَ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ في الآيةِ الأولى أنَّ الذي حرَّمَه المشركونَ مِن الزِّينةِ وغَيرِها مِنَ الطَّيِّباتِ، ليس بحرامٍ، وانتهى من تَفنيدِ هذا الباطِلِ الذي يدَّعُونه ويَفتَرونَه- بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنواعَ المُحَرَّمات، فحَرَّمَ أوَّلًا الفواحِشَ، وثانيًا الإثمَ[1]، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾.

أي: قُلْ- يا نبيَّ اللهِ- لهؤلاءِ المُشركينَ: إنَّ ربِّي لم يُحَرِّمْ ما تُحَرِّمونَه، وإنَّما حرَّمَ الذُّنُوبَ التي تناهَتْ في القُبحِ، ما كان منها علانِيَةً، وما كان منها في خفاءٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٠)، ((العذب =

كما قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وقال عزَّ جلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا أحَدَ أغيَرُ مِنَ الله؛ ولذلك حَرَّمَ الفواحِشَ ما ظهَرَ منها وما بَطَنَ))[١].

﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

أي: وحرَّمَ ربِّي الإثمَ، وهو المعاصِي المتعلِّقةُ بالفاعِلِ نَفسِه، وحرَّمَ البَغيَ، وهو التَّعدِّي على النَّاسِ في دمائِهم وأموالِهم وأعراضِهم[٢].

﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

أي: وحرَّمَ ربي اتِّخاذَ شَريكٍ له في عبادَتِه، لم يجعَلِ اللهُ معه حجَّةً تَدلُّكم على إشراكِه[٣].

= النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٣- ١٧٥).

وقيل: إنَّ ظاهرَ الإثمِ ما يفعلُه بالجوارحِ، وباطنَه ما يعتقدُه بالقلبِ، واختاره الماورديُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧).

(١) رواه البخاري (٤٦٣٧) ومسلم (٢٧٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧).

قال الشِّنقيطيُّ: (قوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لا يكونُ بغيٌ بحَقٍّ أبدًا؛ فكلُّ بغيٍ بغيرِ حَقٍّ لا شَكَّ، كما قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ومعلومٌ أنَّ النَّبيِّينَ لا يُقتلونَ بحَقٍّ أبدًا، فهو كالتوكيدِ، كقوله: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]. وقال بعضُ العُلَماءِ: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ كقولِه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] لأنَّ مَن بُغِيَ عليه ثم انتقَم، قد يسمَّى هذا بغيًا، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وكما سمَّى الانتقامَ اعتداءً، في قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] سمَّى جزاءَ الاعتداءِ: اعتداءً، وجزاءَ السَّيئةِ: سيئةً، وإن كان الانتقامُ ليس سيِّئةً، وليس اعتداءً). ((العذب النمير)) (٣/ ١٧٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: وحرَّمَ ربي عليكم القَولَ عليه بلا علمٍ؛ في أسمائِه وصفاتِه، وأفعالِه وشَرعِه[1].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نعى اللهُ على المشركينَ ضلالَهم وتمرُّدَهم- بعد أنْ دعاهم إلى الإيمانِ- وإعراضَهم عنه، بالمجادلةِ والتَّوبيخِ، وإظهارِ نقائِصِهم بالحُجَّة البيِّنةِ، وكان حالُهم حالَ مَن لا يُقلِعُ عمَّا هم فيه- أعقَبَ ذلك بإنذارِهم ووعيدِهم؛ إقامةً للحُجَّةِ عليهم، وإعذارًا لهم قبل حُلولِ العَذابِ بهم[2].

وأيضا لَمَّا بَيَّنَ الله تعالى الحلالَ والحَرامَ، وأحوالَ التَّكليفِ، بَيَّنَ أنَّ لكُلِّ أحدٍ أجلًا مُعَيَّنًا لا يتقَدَّمُ ولا يتأخَّرُ، والغَرَضُ منه التَّخويفُ؛ ليَجِدَّ المرءُ في القيامِ بالتَّكاليفِ كما ينبغي[3]، فقال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

= (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٥).
قال الشِّنقيطيُّ: (الإشراكُ باللهِ لا يُنَزِّلُ به سُلطانٌ ألبتَّةَ، كقوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: آية ١١٧] فمعلومٌ أنَّ الإلهَ الثَّانيَ لا يكونُ به برهانٌ ألبتَّةَ، وقد تقرَّرَ في علمِ الأصولِ أنَّ النَّصَّ مِنَ الكِتابِ والسنَّةِ إذا جاء مُبَيِّنًا للحقيقةِ الواقعةِ لا يكون له مفهومُ مُخالفةٍ، والواقِعُ أنَّهم يُشركونَ باللهِ ما لم يُنَزِّلْ به سلطانًا، فجاءت الآيةُ مُبَيِّنةً للحقيقةِ الواقعةِ؛ ليكون النَّهيُ واقعًا على بيانِ الحقيقةِ الواقِعةِ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٦)، وينظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٤).

أي: ولكُلِّ أمَّةٍ مُكَذِّبةٍ وقتٌ محدَّدٌ لحلولِ العذابِ[١].

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

أي: فإذا جاء الوَقتُ الذي وقَّتَه اللهُ تعالى لهلاكِهم، هَلَكوا، ولا يتأخَّرونَ بالبَقاءِ في الدُّنيا عن ذلك الوَقتِ ساعةً، ولا يتقدَّمونَ عنه ساعةً[٢].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فذكَر المُحَرَّماتِ التي اتَّفَقَتْ على تحريمِها الشَّرائِعُ والأديانُ، ولا تُباحُ بحالٍ، بل لا تكونُ إلا مُحَرَّمةً، وليسَتْ كالمَيتةِ والدَّمِ ولحْمِ الخِنزيرِ، الذي يباحُ في حالٍ دُونَ حالٍ. فإنَّ المُحَرَّماتِ نوعانِ: مُحَرَّمٌ لِذاتِه لا يُباحُ بحالٍ، ومُحَرَّمٌ تحريمًا عارِضًا في وقتٍ دونَ وقتٍ؛ قال الله تعالى في المُحَرَّمِ لِذاتِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ثم انتقَلَ منه إلى ما هو أعظَمُ منه، فقال: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، ثُمَّ انتقلَ منه إلى ما هو أعظَمُ منه، فقال: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، ثمَّ انتقَلَ منه إلى ما هو أعظَمُ منه، فقال: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فهذا أعظَمُ المُحَرَّماتِ عند اللهِ، وأشَدُّها إثمًا، ولهذا ذُكِرَ في المرتَبةِ الرَّابعةِ مِنَ المُحَرَّمات المذكورةِ في هذه الآيةِ؛ فإنَّه يتضَمَّنُ الكَذِبَ على اللهِ، ونِسبتَه إلى ما لا يليقُ به، وتغييرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٨٥).

وقيل: المرادُ: لكلِّ قَرْنٍ وجيلٍ مِيقاتُه المُقَدَّر لانتهائِه. واختاره ابنُ كثيرٍ والسعديِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٨٨- ١٨٩).

دِينِه وتَبديلَه، ونَفيَ ما أثبَتَه، وإثباتَ ما نفاه، وتحقيقَ ما أبطَلَه، وإبطالَ ما حَقَّقَه، وعداوةَ مَن والاه، ومُوالاةَ مَن عاداه، وحُبَّ ما أبغَضَه، وبُغضَ ما أحَبَّه، ووصْفَه بما لا يليقُ به في ذاتِه وصِفاتِه وأقوالِه وأفعالِه؛ فليس في أجناسِ المُحَرَّماتِ أعظَمُ عند اللهِ منه، ولا أشَدُّ إثمًا، وهو أصلُ الشِّركِ والكُفرِ، وعليه أُسِّسَتِ البِدَعُ والضَّلالاتُ، فكُلُّ بِدعةٍ مُضِلَّةٍ في الدِّينِ أساسُها القَولُ على الله بلا عِلمٍ[1].

٢- قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذه الأنواعُ الأربعةُ هي التي حَرَّمَها تحريمًا مُطلقًا؛ فالفواحِشُ متعلِّقةٌ بالشَّهوةِ، والبَغيُ بغَيرِ الحَقِّ يتعلَّقُ بالغَضَبِ، والشِّركُ باللهِ فَسادُ أصلِ العَدلِ؛ فإنَّ الشِّركَ ظُلمٌ عَظيمٌ، والقَولُ على الله بلا علمٍ فَسادٌ في العِلمِ، فقد حَرَّمَ سبحانه هذه الأربعةَ؛ وهي: فَسادُ الشَّهوةِ، والغَضَبِ، وفسادُ العَدْلِ، والعِلمِ[2].

٣- دخَلَ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تحريمُ كُلِّ فاحِشةٍ ظَاهِرةٍ وباطِنةٍ، وكُلِّ ظُلمٍ وعُدوانٍ في مالٍ أو نَفْسٍ أو عِرْضٍ، وكُلِّ شِركٍ باللهِ، وإنْ دَقَّ؛ في قولٍ أو عَمَلٍ أو إرادةٍ، بأن يَجعلَ للهِ عَدْلًا بِغَيرِه في اللَّفظِ أو القَصدِ أو الاعتقادِ، وكلِّ قولٍ على الله، لم يأتِ به نَصٌّ عنه ولا عن رسولِه؛ في تحريمٍ أو تحليلٍ، أو إيجابٍ أو إسقاطٍ، أو خبرٍ عنه باسْمٍ أو صِفةٍ، نفيًا أو إثباتًا، أو خبرًا عن فِعلِه؛ فالقَولُ عليه بلا عِلمٍ حرامٌ في أفعالِه وصِفاتِه ودِينِه[3].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٥٢).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- النَّظَرُ إلى العَوْراتِ حَرامٌ داخِلٌ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ فإنَّ الفواحِشَ وإن كانَتْ ظاهرةً في المُباشَرةِ بالفَرجِ أو الدُّبُرِ وما يتبَعُ ذلك مِنَ المُلامَسةِ والنَّظَرِ وغيرِ ذلك، وكما في قِصَّةِ لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾[الإسراء: ٣٢]، فالفاحشةُ أيضًا تتناوَلُ كشْفَ العَورةِ وإن لم يكُنْ في ذلك مُباشرةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، وهذه الفاحِشَةُ هي طَوافُهم بالبيتِ عُراةً[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ دليلٌ على أنَّها فواحِشُ في نَفسِها، لا تَستَحسِنُها العُقولُ؛ فتعلَّقَ التحريمُ بها لفُحْشِها، فإنَّ ترتيبَ الحُكْمِ على الوَصفِ المُناسِبِ المُشتَقِّ؛ يدلُّ على أنَّه هو العلَّةُ المُقتَضِيةُ له، والعلَّةُ يجبُ أنْ تُغايرَ المَعلولَ، فلو كان كونُه فاحِشةً هو معنى كَونِه مَنهيًّا عنه؛ كانت العلَّةُ عينَ المعلولِ! وهذا مُحالٌ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى:﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه بيانُ أُصولِ المُحَرَّماتِ العامَّةِ التي حَرَّمَها لضررٍ ثابتٍ لازمٍ لها، لا لعلَّةٍ عارضةٍ، وكلُّها مِن أعمالِهم الكَسبيَّةِ، لا مِن مواهِبِه ونِعَمِه الخِلقيةِ؛ ليُعلَمَ أنَّه- له الحمدُ والشُّكرُ- لم يُحَرِّمْ على النَّاسِ إلَّا ما هو ضارٌّ بهم، دون ما هو نافِعٌ لهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٥١).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، إنَّما ذُكِرَت (السَّاعة) وإن كان دُونَها كذلك؛ لأنَّها كانت أقلَّ اسمٍ للأوقاتِ في العُرفِ(١).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، ذِكرُ عُمومِ الأُمَمِ في هذا الوعيدِ- مع أنَّ المقصودَ هم المُشركونَ مِنَ العَرَبِ الذين لم يُؤمنوا- إنَّما هو مبالغةٌ في الإنذارِ والوعيدِ، بتقريبِ حُصُولِه كما حصَلَ لِغَيرِهم مِنَ الأُمَمِ؛ على طريقةِ الاستشهادِ بشواهِدِ التَّاريخِ في قياسِ الحاضِرِ على الماضي، فيكونُ الوَعيدُ خَبَرًا معضودًا بالدَّليلِ والحُجَّةِ(٢).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ذَكَرَ (الأجل) هنا، دون أن يقولَ (لكُلِّ أمَّةٍ عذابٌ أو استئصالٌ)؛ إيقاظًا لعُقُولِهم من أن يَغُرَّهم الإمهالُ، فيحسَبُوا أنَّ اللهَ غيرُ مُؤاخِذِهم على تكذيبِهم(٣).

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فيه قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنَّه لَمَّا كانَتِ المُحَرَّماتُ المذكورةُ في الآيةِ غيرَ محصورةٍ في هذه الأشياءِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ القَصرَ المفاد مِن ﴿إِنَّمَا﴾ قَصرٌ إضافيٌّ، مَفادُه أنَّ اللهَ حَرَّمَ الفَواحِشَ وما ذُكِرَ معها، لا ما حَرَّمْتُموه مِنَ الزِّينةِ والطَّيِّباتِ، فأفاد إبطالَ اعتقادِهم، ثم هو يُفيدُ بطَريقِ التَّعريضِ أنَّ ما عَدَّه اللهُ مِنَ المُحَرَّماتِ الثَّابتِ تحريمُها قد تلبَّسوا بها؛ لأنَّه لَمَّا عدَّ أشياءَ، وقد عَلِمَ النَّاسُ أنَّ المُحَرَّماتِ ليستْ محصورةً فيها؛ عَلِمَ السَّامِعُ أنَّ ما عيَّنَه مقصودٌ به تعيينُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما تلبَّسوا به، فحَصَل بصيغةِ القصرِ ردٌّ عليهم مِن جانبَيْ ما في صِيغة (إِنَّمَا) من إثباتٍ ونفيٍ[(١)].

- وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ﴾ هو كُلُّ ذَنبٍ، فهو أعَمُّ مِنَ الفَواحِشِ؛ فيكون ذِكرُ الفَواحِشِ قَبلَه للاهتمامِ بالتَّحذيرِ منها قبلَ التَّحذيرِ مِن عُمومِ الذُّنوبِ؛ فهو مِن ذِكرِ الخاصِّ قبلَ العامِّ للاهتمام، كذِكرِ الخاصِّ بعد العامِّ، إلَّا أنَّ الاهتمامَ الحاصِلَ بالتَّخصيصِ مع التَّقديمِ أقوى؛ لأنَّ فيه اهتمامًا مِن جِهَتينِ[(٢)].

- وعطفُ البَغيِ على الإثمِ في قولِه: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمامِ به؛ لأنَّ البغيَ كان دأْبَهم في الجاهليَّةِ[(٣)].

- قوله: ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أي الظُّلمُ أو الكِبرُ؛ أُفرِدَ بالذِّكرِ؛ للمُبالغةِ في الزَّجرِ عنه[(٤)].

- وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بالبَغيِ مُؤَكِّدٌ له معنًى[(٥)].

٢- قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

- قُدِّم الظَّرفُ في قوله: ﴿وَلِكُلِّ﴾ على عامِلِه ﴿أَجَلٌ﴾؛ للاهتمامِ به؛ ليتأكَّدَ بذلك التقديمِ معنى التَّعليقِ[(٦)].

- وفي قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أظهرَ لفْظ (أَجَل) في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾، ولم يَكتفِ بضَميرِه؛ لزيادةِ تقريرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٥).

الحُكمِ عليه، ولتكونَ هذه الجملةُ مُستقلَّةً بنفسِها، غيرَ مُتوقِّفةٍ عن سماعِ غيرِها؛ لأنَّها بحيثُ تَجرِي مَجرَى المَثَل، وإرسالُ الكلامِ الصَّالِحِ لأنْ يَكونَ مَثَلًا طريقٌ من طُرُقِ البلاغة[1]، والإضافةُ إلى الضَّميرِ؛ لإفادةِ أكملِ التَّمييز، أي: إذا جاءَها أجلُها الخاصُّ بها[2].

- والسين والتاء في قوله: ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾، و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ للتأكيدِ؛ إذ هما بمعنى: يَتأخَّرون ويَتقدَّمون؛ مِثل اسْتَجاب[3].

- وفي هذِه الآيةِ مُناسَبةٌ حسنة؛ حيثُ قال تَعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وكذلك في سُورة النَّحل: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ...﴾ [النحل: ٦١]، فعَطَفَ بالفاءِ، وأمَّا في سورة يونس فقال: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]؛ وذلك لأنَّ ما هنا في سورةِ الأعرافِ وكذلك ما في سُورةِ النَّحلِ: جُملةٌ عُطِفتْ على جملةٍ أُخرى مصدَّرةٌ بالواوِ بينهما اتِّصالٌ وتَعقيب؛ فكان الموضعُ موضِعَ الفاء، فحسُنَ الإتيانُ بالفاءِ الدَّالَّةِ على التعقيبِ، بخِلافِ ما في يُونَس[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٥).
(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩١-١٩٢).

الآيات (٣٥-٣٩)

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿افْتَرَى﴾: أي: كذَبَ واختَلَق؛ والافتراءُ: الاختِلاقُ، وهو ما عظُم مِن الكَذِبِ، ومنه قيل: افترَى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، ويُستعمَل في القُرآنِ في الكَذِبِ والشِّركِ والظُّلمِ، وأصلُ (فري) قَطْعُ الشَّيءِ، ومِن ذلك: فَرَيت الشيءَ أفْريه فَرْيًا، وهو قطعُه لإصلاحِه، وأفريتَه: إذا أنت قطعتَه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[1].

﴿يَنَالُهُمْ﴾: أي: يَصِلُ إليهم، والنَّوالُ: ما يَنالُه الإنسانُ مِنَ الصِّلة، وأصلُ (نيل): يدُلُّ على إعطاءٍ[2].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤ - ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).
(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٠).

﴿نَصِيبُهُمْ﴾: أي: حظُّهم المنصوبُ، أي: المعيَّنُ، وأصل (نصب): إقامةُ شيءٍ، وإهدافٌ في استواء[١].

﴿ادَّارَكُوا﴾: أي: تَتابعوا فيها واجتَمعوا، أو لَحِق كلٌّ بالآخَر، وأصل (درك): لحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، ووصولُه إليه[٢].

﴿ضِعْفًا﴾: أي: مُضاعَفًا، وضِعفُ الشَّيءِ: مِثلُه مرةً، وأصل (ضعف): يدلُّ على أنْ يُزادَ الشيءُ مِثلَه[٣].

﴿تَكْسِبُونَ﴾: أي: تَعمَلون وتَجترِحونَ مِنَ المعاصي، والكَسبُ: ما يَتحرَّاه الإنسانُ ممَّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، وأيضًا: الجمعُ والتَّحصيلُ، وأصلُ (كسب): ابتغاءٌ وطَلَبٌ وإصابةٌ[٤].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ بني آدمَ أنَّه إن جاءَهم رُسُلٌ مِن جِنسِهم البَشَريِّ، يتلونَ عليهم آياتِ كِتابِه، فمَنِ اتَّقى فترَكَ المُحَرَّماتِ، وعَمِلَ الطَّاعاتِ؛ فلا خوفٌ عليهم ممَّا يَستقبِلونَ، ولا هم يحزَنونَ على ما مضى، والَّذين كذَّبوا بآياتِه، واستكبَرُوا عن التَّصديقِ بها، والعَمَلِ بما فيها؛ أولئك هم أصحابُ النَّارِ، ماكِثونَ فيها، لا يخرجونَ منها أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٩). ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٦٩).

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه لا أحَدَ أشنَعُ ظُلمًا مِمَّنِ اختَلَق على اللهِ الكَذِبَ، أو كذَّبَ بآياتِه التي أنزَلَها، أولئك ينالُهم نصيبُهم المكتوبُ في اللَّوحِ المحفوظِ؛ مِنَ الأرزاقِ والأعمالِ والآجالِ، والخيرِ والشَّرِّ، إلى أن تأتِيَهم الملائكةُ؛ لتقبِضَ أرواحَهم، فتقولُ لهم الملائكةُ: أين ما كنتم تَدعونَ مِن دونِ اللهِ؟ فيقولون: ضَلُّوا عَنَّا، ويُقِرُّون على أنفُسِهم أنَّهم كانوا كافرينَ.

فيأمُرُهم اللهُ تعالى أن يَدخُلوا في جملةِ أمَمٍ أمثالِهم في الكُفرِ، قد سَلَفَت مِن قَبلِهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ، فيدخلونَ جميعًا في النَّارِ، كلَّما دخَلَت أمَّةٌ مِن تلك الأُمَمِ في النَّارِ لَعَنَت أُختَها، حتى إذا اجتمَعَ الأوَّلونَ والآخِرونَ جميعًا في النَّارِ، قالت أُخْراهم لأُولاهم: ربَّنا هؤلاءِ الَّذينَ اتَّبَعْناهم في الدُّنيا، هم من أضَلَّنَا عن سبيلِك؛ فأَعْطِهم ضِعفًا مِن عَذابِ النَّارِ، فيُجيبُهم اللهُ تعالى، أنَّه لكُلٍّ ضِعفٌ، ولكِنْ لا تعلمونَ.

وقالَتْ أُولاهم لأُخراهم: لم تكُنْ لكم مَزِيَّةٌ علينا، فيقولُ الله لهم جميعًا: فذُوقوا العذابَ بما كَسَبتُم مِنَ الكُفرِ والمعاصي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ أحوالَ التَّكليفِ، وبيَّنَ أنَّ لكُلِّ أحدٍ أجلًا مُعَيَّنًا لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ- بيَّنَ أنهم بعد الموتِ إن كانوا مُطيعينَ، فلا خوفٌ عليهم ولا حُزنٌ، وإن كانوا متمَرِّدينَ، وقعوا في أشَدِّ العَذابِ[1]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٥).

﴿ يَبَنِيَ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي ﴾.

أي: يا أولادَ آدَمَ- الذي أخرَجَه الشَّيطانُ بوَساوِسِه مِنَ الجنَّةِ، إلى دارِ البَلاءِ والمِحَنِ- إنْ أتاكُم رُسُلي الَّذين أُرسِلُهم إليكم مِن جِنسِكُم البشريِّ، يتلونَ عليكم آياتِ كُتُبي، ويُبيِّنونَ لكم ما فيها من عقائِدَ وأحكامٍ وأخبارٍ(١).

﴿ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

أي: فمَنِ اتَّقى اللهَ منكم، فترَكَ المُحَرَّماتِ، وأصلَحَ أعمالَه فعَمِلَ الطَّاعاتِ؛ فلا خوفٌ عليهم ممَّا يستقبِلونَ، ولا هم على ما مضى يَحزَنونَ(٢).

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾.

أي: والَّذين كذَّبوا منكم بآياتي التي جاءَت بها رُسُلي، واستكبَرُوا فأعرَضُوا عن التَّصديقِ بأخبارِها، والعَمَلِ بأحكامِها(٣).

﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٩٥).
والقولُ بأنَّ المرادَ بـ ﴿منكم﴾ أي: مِن بني آدَمَ، هو اختيارُ ابنِ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٩٣-١٩٤).
وقال ابن جرير: (﴿منكم﴾ يعني: من أنفُسِكم، ومِن عشائِرِكم وقبائِلِكم). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي (ص: ٢٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٩٥-٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١١).

أي: أولئك المُكَذِّبونَ بآياتي، المُستكبِرونَ عَن طاعَتي؛ هم أهلُ النَّارِ المُلازِمونَ لها، ماكثونَ فيها، لا يخرجونَ منها أبدًا[1].

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾.

أي: لا أحدَ أشنعُ ظُلمًا ممَّنِ افترَى الكَذِبَ على اللهِ، كمن يدَّعي أنَّ لله ولدًا وشريكًا، ويزعُمُ أنَّ اللهَ يأمُرُ بالفواحِشِ، أو كذَّبَ بآياتِ اللهِ التي أنزَلَها على رُسُلِه[2].

كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

أي: أولئك الكاذِبونَ على اللهِ، المُكَذِّبون بآياتِه، ينالُهم نَصيبُهم المكتوبُ في اللَّوحِ المَحفوظِ؛ مِنَ الأرزاقِ والأعمالِ والآجالِ، والخَيرِ والشَّرِّ[3].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٢) و (١٠/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٢).

(٣) وهذا القولُ اختاره في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، والسعدي، والشنقيطي، وقوَّاه ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٧) و (١٠/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢١١).

فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ينالُهُم ما كُتِبَ لهم في الدُّنْيا إلى أنْ تأتِيَهم الملائكةُ لِقَبضِ أرواحِهم، فإذا جاؤوهم قالوا لهم: أين الَّذين كُنتم تعبدونَهم مع اللهِ؛ فإنَّهم لم يحضُرُوا لِيُنقذِوكم ممَّا أنتم فيه؟ فهلَّا أغاثوكم مِن هذا الكَربِ الذي حلَّ بكم(١)!

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾.

أي: قال الكُفَّارُ لملائكةِ المَوتِ: ذهَبَ عنَّا أولياؤُنا الذين كنَّا ندعُو مِن دُونِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢١٤).

قال الشنقيطي: (هذه الرُّسلُ هي: مَلَكُ المَوتِ وأعوانُه، يقبضونَ أرواحَهم، واعلموا أنَّ اللهَ أسنَدَ قَبضَ الرُّوحِ في آيةٍ إلى نفسِه جلَّ وعلا؛ حيث قال عن نفسِه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وأسنَدَه في آيةٍ لمَلَكٍ واحدٍ، وهي قولُه في السَّجدةِ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] وأسنَدَه في آياتٍ كثيرةٍ لملائكةٍ كثيرةٍ مُرسلينَ لذلك، كقولِه هنا: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧]... ولا إشكالَ في الآياتِ؛ لأنَّ إسنادَ التَّوفِّي إلى اللهِ؛ لأنَّ كُلَّ شَيءٍ بمَشيئتِه وقضائِه وقَدَرِه، فلا تقعُ وفاةُ أحدٍ إلَّا بمَشيئتِه جَلَّ وعلا، كمَّا صرَّحَ به في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وإسنادُه لمَلَك الموتِ؛ لأنَّه هو الرَّئيسُ المُوظَّفُ بقَبضِ الأرواحِ، وإسنادُه لملائكةٍ كثيرينَ؛ لأنَّ لمَلَكِ الموتِ أعوانًا كثيرينَ يَقبِضونَ معه أرواحَ النَّاسِ بأمْرِه. قال بعضُ أهلِ العلمِ: يَقبِضُ أعوانُه الرُّوحَ حتى تبلُغَ الحُلقومَ، فيأخُذُها مَلَكُ الموتِ. والآياتُ دلَّتْ على أنَّ له أعوانًا كثيرةً مِنَ الملائكةِ يقبضونَ معه الأرواحَ). ((العذب النمير)) (٣/ ٢١٢- ٢١٣).

اللهِ، وغابوا وتركُونَا، فلم ينفعُونا(١).

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: وأقرَّ الكُفَّارُ واعترَفوا على أنفُسِهم عند مُعايَنةِ المَوتِ: أنَّهم كفَرُوا من قبلُ باللهِ(٢).

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ (٣٨)﴾.

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾.

أي: يقولُ اللهُ يومَ القيامةِ للكافِرينَ: ادخُلوا في زُمرةِ جَماعاتٍ على شاكِلَتِكم وصِفَاتِكم مِنْ أهلِ المِلَلِ الكافِرةِ مِنَ الجنِّ والإنسِ، الذين مَضَوا في أزمانٍ سَبقَتْكم، فادخُلوا أنتم وهم في النَّارِ(٣).

﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾.

أي: كُلَّما دخلَتِ النَّارَ جماعةٌ مِن أهلِ تلك الأديانِ الكافِرةِ، شَتَمَتْ جماعةً أخرى مِن أهلِ دينِها، قد سبقَتْها في دُخولِ النَّارِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٦ - ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢١).

قال السُّدِّيُّ فيما يرويه ابن جرير بسندِه عنه: (كلَّما دخلَتْ أهلُ ملَّةٍ لعنوا أصحابَهم على =

كما قال اللهُ تعالى حاكيًا عن الخليلِ عليه السَّلامُ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾.

أي: حتى إذا اجتمَعَ في النَّارِ الأوَّلونَ مِن أهلِ الأديانِ الكافِرةِ، والآخِرونَ مِنهم[1].

﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾.

أي: قالت أُخراهم دُخولًا النَّارِ- وهم الأتباعُ- لأُولاهم- وهُمُ القادَةُ المَتبُوعونَ؛ لأنَّهم أشَدُّ جُرمًا مِن أتباعِهم، فدَخَلوا النَّارَ قَبلَهم[2].

= ذلك الدِّينِ؛ يلعَنُ المشركونَ المُشركينَ، واليهودُ اليهودَ، والنَّصارى النَّصارى، والصابئونَ الصَّابئينَ، والمجوسُ المجوسَ؛ تلعَنُ الآخِرَةُ الأولى). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٧).

قال ابن عاشور: (وسبَبُ اللَّعنِ أنَّ كُلَّ أمَّةٍ إنَّما تدخُلُ النَّارَ بعد أن يتبَيَّنَ لهم أنَّ ما كانوا عليه مِنَ الدِّينِ هو ضَلالٌ وباطِلٌ، وبذلك تقَعُ في نفوسِهم كراهِيَةُ ما كانوا عليه، فإذا دخَلُوا النَّارَ فرَأَوُا الأمَمَ التي أُدخِلَتِ النَّارَ قبلَهم؛ عَلِمُوا أنَّهم أُدخِلُوا النَّارَ بذلك السَّبَبِ، فلَعَنُوهم؛ لكراهِيَةِ دِينِهم ومَنِ اتَّبَعوه). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٠ - ١٢١).

وقال الشنقيطي: (وإنَّما لَعَنَتْها؛ لأنَّ بَعضَ الأممِ تبقى سُنَنُهم في الضَّلالِ والكُفرِ، فيَقتَدِي بها مَن جاء بَعدَهم مِنَ الأُمَمِ، فيلعَنونَهم لذلك). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢١).

(٢) وهذا قولُ مُقاتِلٍ، واختاره القرطبيُّ وابنُ كَثيرٍ والشوكاني والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٣٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤٠).

قال ابنُ عاشور: (المراد: بـ﴿أُخْرَاهُمْ﴾: الآخِرةُ في الرُّتبة، وهم الأتباعُ والرعِيَّة مِن كلِّ أمَّةٍ مِن تلك الأُمَمِ، لأنَّ كُلَّ أمَّةٍ في عصرٍ لا تخلو مِن قادةٍ ورَعاعٍ، والمراد بـ(الأولى): الأولى في المرتبةِ والاعتبارِ، وهم القادةُ والمتبوعونَ مِن كُلِّ أمَّةٍ أيضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٢).

وقيل: المعنى: قال آخِرُ أهلِ كُلِّ ملَّةٍ كافرةٍ لأُولاهم، الذينَ سَبَقُوهم في الدُّنيا، وشَرَعُوا =

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

أي قالوا: يا ربَّنا، هؤلاءِ الَّذين اتَّبَعْناهم في الدُّنيا، هم الَّذين أضَلُّونا عن سبيلِكَ، فضاعِفْ لهم العذابَ؛ عذابًا على الضَّلالِ، وعذابًا على الإضلالِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧- ٦٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: قال اللهُ للأتباعِ، الذين يَدعُونَه أن يُضاعِفَ العَذابَ على قادَتِهم الذين

= لهم ذلك الدِّينَ، وهذا قَولُ السُّدِّي، واختاره ابنُ جريرٍ وابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١١٨).

وأفاد كلا القَولينِ في تفسيرِ هذه الجملةِ مِن الآيةِ: أنَّ الأتباعَ قالوا ذلك لِمَتبوعِيهم ورؤسائِهم. قال الواحدي: (يعني بالأُخرى: آخِرَ الأُمَم، وبالأولى: أوَّلَ الأمَمِ، وبيانه ما قاله السُّدي: ﴿أُخْرَاهُمْ﴾ يعني: الذين كانوا في آخِرِ الزَّمان، ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ يعني: الذين شَرَعوا لهم ذلك الدِّينَ. وقال مقاتل: ﴿أُخْرَاهُمْ﴾ يعني: آخِرَهم دخولًا النَّارَ، وهم الأتباعُ، ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ دخولًا وهم القادةُ. وتأويلُ هذا راجعٌ إلى معنى القَولِ الأوَّلِ؛ لأنَّ آخِرَهم دخولًا النَّارَ هم الأتباع، والأولى هم القادةُ، فالمعنى على القولينِ جميعًا: قالت الأتباعُ للقادةِ: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾). ((البسيط)) (٩/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧).

أضَلُّوهم: لكلٍّ منكم ومنهم زيادةُ عذابٍ(١)، ولكِنَّكم لا تعلمونَ مِقدارَ ما أعَدَّ اللهُ مِنَ العَذابِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ

---

(١) قال ابنُ عاشور: (فأمَّا مُضاعفةُ العَذابِ للقادَةِ؛ فلأنَّهم سَنُّوا الضَّلالَ أو أيَّدُوه ونَصَروه وذبُّوا عنه بالتَّمويه والمُغالطاتِ فأضَلُّوا، وأمَّا مُضاعَفَتُه للأتباعِ؛ فلأنَّهم ضَلُّوا بإضلالِ قادَتِهم، ولأنَّهم بطاعَتِهم العمياءِ لقادَتِهم، وشُكرِهم إيَّاهم على ما يَرسُمون لهم، وإعطائِهم إيَّاهم الأموالَ والرِّشَى؛ يزيدونَهم طُغيانًا وجَراءةً على الإضلالِ، ويُغْرُونَهم بالازديادِ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٣).

وقال الشنقيطي: (مُضاعفةُ العَذابِ للضُّعَفاءِ الأتباعِ؛ ففيها إشكالٌ، وكثيرٌ مِنَ المُفَسِّرين لا يتعرَّضونَ لهذا الإشكالِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وهم لم يُضِلُّوا. وهذا إشكالٌ معروفٌ في هذه الآيةِ، وهو مُضاعفةُ العَذابِ للأتباعِ. فقال بعضُهم: إنَّهم، وإن كانوا أتباعًا، فلا بدَّ لهؤلاءِ الأتباعِ مِن ضُعَفاءَ أُخَرَ، فالواحِدُ يكون تَبَعًا لرئيسِه في الضَّلالة، ولكنَّه يُضِلُّ امرأتَه وأولادَه وبعضَ أقارِبِه، فمعهم هم أيضًا رئاسةٌ في الضَّلالِ قليلةٌ ؛كلٌّ بحَسَبِه، ويضاعَفُ العَذابُ لكلٍّ بحَسَبِه. وقال بعضُ العلماء: مضاعفةُ العَذابِ للرُّؤساءِ بإضلالهم وضَلالِهم، ومضاعَفَتُه للأتباعِ بتقليدِهم الأعمى، وتعصُّبِهم للكُفرِ، وعدمِ نظَرِهم في المُعجِزات البَيِّناتِ، والأدلَّة الواضِحات التي جاءت بها الرُّسُل، مع الكُفرِ؛ فقد جمعوا بين التقليدِ الأعمى، والإعراضِ عن سماعِ الحَقِّ، مع الكُفرِ الذي ارتكَبوه. هكذا قاله بعضُ العلماء). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٨، ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٨).

قال ابنُ جرير: (يقول: ولكِنَّكم- يا معشَرَ أهلِ النَّارِ- لا تعلمونَ ما قَدْرُ ما أعَدَّ اللهُ لكم مِنَ العذابِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠).

وقال ابنُ عاشور: (والمعنى: أنَّكم لا تعلمونَ الحَقائِقَ، ولا تشعرونَ بخفايا المعاني؛ فلذلك ظَنَنْتم أنَّ مُوجِبَ مُضاعَفةِ العذابِ لهم دُونكم، هو أنَّهم عَلَّمُوكم الضَّلالَ، ولو عَلِمْتُم حَقَّ العِلمِ، لاطَّلَعْتم على ما كان لِطَاعَتِكم إيَّاهم مِنَ الأثَرِ في إغرائِهم بالازديادِ مِنَ الإضلالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٣).

وقال الشنقيطي: (ولكنَّكم لا تعلمونَ قَدرَ ما ينالونَه مِنَ العَذابِ المُهينِ، وشِدَّتِه وهَولِه وألَمِه). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٢٩).

الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

وقال اللهُ تبارك وتعالى عن جميعِ أهلِ النَّارِ: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

وقال الله سبحانه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧].

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)﴾.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾.

أي: قال المَتبوعونَ للأتباعِ: لم تكُنْ لكم مَزِيَّةٌ علينا مِن إيمانٍ وتَقوى، تُوجِبُ أن يكونَ عذابُنا أشَدَّ مِن عذابِكم؛ فنحن وأنتم مُتشارِكونَ في الكُفرِ، وفي استحقاقِ العذابِ، فأيُّ فضلٍ لكم علينا[1]؟

كما قال سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢].

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أي: فذُوقوا عذابَ جَهنَّمَ؛ بسبَبِ ما كسَبْتُم في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤١).

ذكر عددٌ مِنَ المُفسِّرينَ أنَّ هذا الكلامَ يحتمِلُ أن يكونَ مِن كلامِ القادةِ، ويحتمِلُ أن يكونَ مِن قولِ اللهِ تعالى لهم جميعًا. ومنهم: الرَّازي، وابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٩). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣١٧). واختار ابنُ جريرٍ الاحتمالَ الثاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠).

الفوائدُ التربويَّةُ:

التَّقوى تنأى ببني آدَمَ عن الآثامِ والفواحِشِ، وتقودُهم إلى الطيِّباتِ والطَّاعاتِ، وتنتهي بهم إلى الأمنِ مِنَ الخَوفِ، والرِّضا عن المصيرِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ إنَّما قال: ﴿مِنْكُمْ﴾؛ لأنَّ كَونَ الرَّسولِ منهم، أقطَعُ لعُذرِهم، وأبيَنُ للحُجَّةِ عليهم مِن جهاتٍ: أحدُها: أنَّ مَعرِفتَهم بأحوالِه وبِطَهارَتِه تكونُ مُتقَدِّمةً. وثانيها: أنَّ مَعرِفتَهم بما يليقُ بقُدرَتِه تكونُ مُتقَدِّمةً، فلا جَرَمَ لا يقَعُ في المُعجزاتِ التي تظهَرُ عليه شَكٌّ وشُبهةٌ في أنَّها حَصَلت بقدرةِ الله تعالى لا بقُدرَتِه؛ فلهذا السَّبَبِ قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]. وثالثها: ما يحصُلُ مِنَ الأُلفةِ وسُكونِ القَلبِ إلى أبناءِ الجِنسِ، بخلافِ ما لا يكونُ مِنَ الجِنسِ، فإنَّه لا يحصُلُ معه الأُلفةُ(٢).

٢- وقولُه: ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ يدلُّ على أنَّه قد يُوجَدُ رُسُلٌ آخرونَ ليسُوا مِنَّا، وهو كذلك؛ لأنَّ مِنَ الملائكةِ رُسلًا، والملائكةُ لَيسُوا مِن جِنسِنا؛ كما قال الله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] وقال: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ الآية(٣) [فاطر: ١].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٩٥).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ جملةُ: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ جوابُ الشَّرط، وعدَلَ عن جعلِ الجوابِ اتِّباعَ الرُّسُلِ إلى جَعْلِه التَّقوى والصَّلاحِ، إيماءً إلى حِكمةِ إرسالِ الرُّسُلِ، وتحريضًا على اتِّباعِهم بأنَّ فائِدَتَه للأُمَمِ لا للرُّسُلِ(١).

٤- في قَولِه تعالى عَمَّنِ اتَّقى وأصلَحَ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لم يقُلْ سُبحانَه: (لا يخافُونَ)؛ فهم لا خوفٌ عليهم، وإن كانوا يخافونَ اللهَ، ونفى عنهم أن يَحزَنُوا؛ لأنَّ الحُزنَ إنَّما يكون على ماضٍ، فهم لا يحزنونَ بحالٍ؛ لا في القَبرِ، ولا في عَرَصاتِ القِيامةِ، بخلافِ الخَوفِ، فإنَّه قد يحصُلُ لهم قبل دُخولِ الجَنَّةِ(٢).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الفاسِقَ مِن أهلِ الصَّلاةِ، لا يبقى مُخلَّدًا في النَّارِ؛ لأنَّه تعالى بيَّنَ أنَّ المُكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ، والمُستكبِرينَ عَن قَبُولِها؛ هم الذين يبقَونَ مُخَلَّدينَ في النَّارِ، فكلمةُ ﴿هُمْ﴾ تفيدُ الحصرَ، وذلك يقتضي أنَّ مَن لا يكونُ موصوفًا بذلك التَّكذيبِ والاستكبارِ، لا يبقى مُخلَّدًا في النَّارِ(٣).

٦- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أنَّ جَميعَ الرُّسُلِ قد بلَّغُوا أمَمَهم أنَّ اتِّباعَهم في اتِّقاءِ ما يُفسِدُ فِطرَتَهم مِنَ الشِّركِ وخُرافاتِه، والرَّذائلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٥).

والمعاصي، وفي إصلاحِ أعمالِهم بالطَّاعاتِ- يترتَّبُ عليه الأمنُ مِنَ الخَوفِ مِن كُلِّ ما يُتَوَقَّعُ، والحزنِ على كلِّ ما يقَعُ، وأنَّ تكذيبَ ما جاؤوا به من آياتِ اللهِ، والاستكبارَ عَن اتِّباعِها- يتَرَتَّبُ عليه الخلودُ في النَّارِ، فوق ما بَيَّنَ في آياتٍ أخرى مِن سُوءِ الحالِ في الدُّنيا، وقد سكَتَ عن الجزاءِ الدُّنيويِّ هنا؛ لأنَّ الآيَةَ تدلُّ عليه، ولأنَّه لا يظهَرُ للنَّاسِ في كُلِّ وَقتٍ[1].

٧- تضمَّنَ قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ذِكْرَ الصِّنفَينِ المُبطِلَينِ؛ أحدُهما: مُنْشِئُ الباطِلِ والفِرْيَةِ، وواضعُها، وداعي النَّاسِ إليها، والثاني: مُكَذِّبٌ بالحَقِّ، فالأوَّلُ: كُفْرُه بالافتراءِ، وإنشاءِ الباطِلِ. والثَّاني: كُفْرُه بجُحودِ الحَقِّ، وهذان النَّوعانِ يَعرِضانِ لكُلِّ مُبطِلٍ[2].

٨- دلَّ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ على أنَّ الجنَّ كانوا مُكلَّفينَ في الشَّرائِعِ الماضيةِ قبل بَعثةِ نَبِيِّنا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأمَّا شَريعَتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فأجمَعَ المُسلمونَ على أنَّه بُعِثَ إلى الجِنِّ والإنسِ، وأنَّه يجِبُ على الجِنِّ طاعَتُه؛ لأنَّ الإخبارَ عن دُخولِ كُفَّارِ الجنِّ في النَّارِ، إنَّما يكونُ بعد إقامةِ الحُجَّةِ عليهم بالرِّسالةِ[3].

٩- دلَّ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ على أنَّ كفَّارَ الجنِّ يدخُلونَ النَّارَ، وقد اتَّفَقَ العُلَماءُ على ذلك[4].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ سائِرَ أنواعِ المُكَذِّبينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٦٦).
(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤٧).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٧).
(٤) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٠٩).

بآياتِ الله؛ مُخَلَّدونَ في العذابِ، مُشتَرِكونَ فيه وفي أصلِه- وإن كانوا مُتفاوِتينَ في مقدارِه بحَسَبِ أعمالِهم، وعنادِهم، وظُلْمِهم وافترائِهم- وأنَّ مَوَدَّتَهم التي كانت بينهم في الدُّنيا تنقَلِبُ يومَ القيامةِ عداوةً ومُلاعَنةً[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

- قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ فيه إعادةُ النِّداء في صَدْرِ هذِه الجُملةِ؛ للاهتمامِ[٢].

- وقوله: ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ فيه تنبيهٌ لبَنِي آدَمَ بأنَّهم لا يَترقَّبون أنْ تَجيئَهم رُسلُ اللهِ مِن الملائكةِ؛ لأنَّ المُرسَلَ يكونُ مِن جِنسِ مَن أُرْسِلَ إليهم، وفي هذا تعريضٌ بالجَهلةِ مِن الأُممِ الذين أنكروا رسالةَ الرُّسلِ؛ لأنَّهم مِن جِنسِهم[٣].

- وفيه: تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى كافَّةِ النَّاسِ؛ اهتمامًا بشأنِ ما في حيِّزه[٤].

- و(ما) في قوله: ﴿إِمَّا﴾ زائدة مُؤكِّدة، وهي تُفيدُ مع التأكيدِ عُمومَ الشَّرطِ[٥].

- قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بناءُ الخبرِ الفِعليِّ ﴿يَحْزَنُونَ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿هُمْ﴾ المتقدِّمِ عليه؛ يُفيدُ تَخصيصَ المسنَدِ إليه بذلِك الخَبرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))(٨-ب/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٠).

٢- قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أفادت هذه الآيةُ تحقيقَ أنَّهم صائِرون إلى النَّارِ بطريقِ قَصرِ مُلازمةِ النَّارِ عليهم في قوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ لأنَّ لفظ ﴿أَصْحَابُ﴾ مُؤذِنٌ بالملازمةِ، وبما تدلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ مِن الدَّوامِ والثَّباتِ في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ الاستكبارُ مُبالغةٌ في التكبُّر؛ فالسِّينُ والتاءُ في قوله: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ للمُبالغةِ[٢].

٣- قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾

- قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ مُستعمَلٌ في تهويلِ ظُلم هذا الفريقِ، المعبَّر عنه بمَن افترَى على اللهِ كذبًا، أي: لا أحَدَ أظلمُ ممَّن هذا وصْفُه[٣].

- وقولُه: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن الاستفهامِ في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لأنَّ التهويلَ المستفادَ مِن الاستفهامِ يَسترعي السَّامعَ أن يسألَ عمَّا سيُلاقونَه مِن اللهِ تعالى الذي افترَوا عليه، وكذَّبوا بآياتِه[٤].

- قولُه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٤).

اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ الكلامُ الواقعُ هنا بعدَ ﴿حتَّى﴾ فيه تهويلُ ما يُصيبهم عندَ قَبْضِ أرواحِهم، وهو أدخلُ في تهديدِهم وتَرويعِهم وموعظتِهم، مِن الوعيدِ المتعارَفِ(١).

– وقولُه: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الاستفهامُ في قوله: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾؛ للتَّوبيخِ والتَّقريرِ، ومُستعمَلٌ في التهكُّمِ والتَّأْييسِ(٢).

– قوله: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ استئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ سؤالِ الرُّسُلِ؛ كأنه قيل: فماذا قالوا عندَ ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾(٣).

٤- قوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا...﴾

– قوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ استئنافُ كلامٍ نَشأَ بمناسبةِ حِكايةِ حالِ المشركينَ حين أوَّلِ قُدومِهم على الحياةِ الآخِرةِ، وهي حالةُ وفاةِ الواحدِ منهم، وفيه تذكيرٌ لهم بما حاقَ بأُولئك الأُممِ من عذابِ الدُّنيا، وتعريضٌ بالوعيدِ بأنْ يَحُلَّ بهم مِثلُ ذلك، وتصريحٌ بأنَّهم في عذابِ النَّارِ سواءٌ(٤).

– قولُه: ﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ الإتيانُ بفِعلِ القولِ بصِيغةِ الماضي في قولِه: ﴿قَالَ﴾؛ للتنبيهِ على تَحقيقِ وقوعِه، والأمرُ في قولِه: ﴿ادْخُلُوا﴾ مُستعمَلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٨).

للوعيدِ، فيتأخَّر تنجيزُه إلى يومِ القِيامةِ(١).

- قولُه: ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ قَدَّمَ الجِنَّ؛ لأنَّهم الأصلُ في الإغواءِ والإضلالِ(٢).

- قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لوصفِ أحوالِهم في النَّار، وتَفظيعِها للسَّامعِ؛ ليتَّعِظَ أمثالُهم، ويستبشرَ المؤمنون بالسَّلامةِ ممَّا أصابَهم؛ فتكونُ جملةُ ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا﴾ داخلةً في حيِّز الاستئنافِ(٣).

- وقوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ نكرةٌ وقعَتْ في حيِّزِ عُمومِ الأَزمنةِ، فتُفيدُ العمومَ، أي: كلُّ أُمَّةٍ دخَلَتْ(٤).

٥- قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

- صِيغةُ الأمْرِ ﴿فَذُوقُوا﴾ مُستعمَلَةٌ في الإهانةِ والتَّشفِّي، والتشفي منهم فيما نالَهم مِن عذابِ الضِّعفِ تَرتَّب على تحقُّقِ انتفاءِ الفَضلِ بَينهم في تَضعيفِ العذابِ، الذي أوضَحه بقولِه: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٥).

- وفي هذِه الآيةِ مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وورد في سُورةِ الأنفالِ أنَّ عَذابَهم بكُفرِهم، حيث قال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥]؛ وذلك لأنَّ آيةَ الأعرافِ وردَتْ في أخلاطٍ مِن الأُممِ وأصنافٍ مِن المُكذِّبينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٢٤).

تَنوَّعَ كُفرُهم وتكذيبُهم ضُروبًا مِن المخالفاتِ، وافْتَرَوْا على اللهِ سبحانه، فلِشَتَّى مُجترحاتِ هؤلاءِ، واتِّساعِ مُرْتكَباتِهم، وأَنَّهم ضلُّوا وأَضلُّوا؛ ناسَب ما وقَعَ جزاؤُهم عليه ذِكْرَ الاكتسابِ، أمَّا آيةُ الأنفال ففي قومٍ بأعيانِهم، وهم كُفَّارُ قريش مِن أهل مَكَّة، وحالهم معلومةٌ أَنَّهم كانوا عَبَدَةَ أوثانٍ، ولم تَتكرَّرْ فيهم الرُّسُلُ، ولا كَفروا بغيرِ التَّكذيبِ به صلَّى الله عليه وسلَّم، وبتَصميمِهم على عِبادةِ آلهتِهم[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨١).

الآيتان (٤٠-٤١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَلِجَ﴾: أيْ: يَدخُلَ، والوُلُوجُ: الدُّخولُ في مَضِيقٍ، وأَصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيْءٍ[1].

﴿سَمِّ الْخِيَاطِ﴾: أيْ: ثَقْبِ الإِبْرَةِ، والسَّمُّ والسُّمُّ: كلُّ ثَقْبٍ ضيِّقٍ كخَرْقِ الإبرَةِ، وأصلُه يدلُّ على مَدْخَلٍ في الشَّيءِ، والخِياطُ: الإبرةُ التي يُخاطُ بها[2].

﴿مِهَادٌ﴾: أيْ: فِراشٌ وقَرارٌ، والمَهْدُ: ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ، وأصلُ المِهَادِ: المكانُ المُمهَّدُ المُوطَّأُ[3].

﴿غَوَاشٍ﴾: أي: ما يَغشاهُم مِنَ النَّارِ، وهي لُحُفٌ تَغْشاهم وتُحيطُ بِهِم مِنْ فوقِهِم، أوْ ما يُغطِّيهم مِن أنواعِ العَذابِ، وغَواشٍ جمعُ غاشِيَةٍ، وهي الغِطاءُ، وأصلُ (غشي): يَدُلُّ على تَغطيةِ شيءٍ بشَيءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧).

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تَعالى أنَّ المُكذِّبينَ بآياتِه، والَّذِينَ استَكْبَروا عَنْها لا يَصْعَدُ عمَلُهُم إلى اللهِ، ولا يُجابُ لهم دُعاءٌ، ولا تُنزَّلُ عَلَيهِم بَرَكاتٌ ولا رَحَماتٌ، وإذا مَاتُوا لا تُفَتَّحُ لأَرْواحِهِم أبوابُ السَّماءِ، ولا يَدْخلونَ الجَنَّةَ أبَدًا، كَما أنَّ الجمَلَ لا يَدْخُلُ في ثَقْبِ الإبْرةِ، وبمِثْلِ هذا العِقابِ يُعاقِبُ اللهُ مَن أجْرَمَ؛ لَهُم مِنَ النَّارِ فِراشٌ تَحتَهُم، ومِن فَوقِهِم غِطاءٌ مِنَ النَّارِ يَغْشاهُم، وكَذَلِك يَجْزي اللهُ الظَّالِمينَ.

تَفسيرُ الآيتَيْنِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾.

أي: إنَّ الَّذينَ كَذَّبوا بآياتِيَ الَّتي جاءَتْ بها رُسُلي، وأَعْرَضوا عَنِ التَّصْديقِ بأَخْبارِها، والعَمَلِ بأَحْكامِها لا يَصْعَدُ لَهم في حَيَاتِهِم إلى اللهِ قولٌ ولا عَملٌ، ولا يُجابُ لهم دُعاءٌ، ولا تُنَزَّلُ إليهم برَكاتٌ ورَحَماتٌ، ولا تُفتَّحُ لأَرْواحِهم إذا مَاتوا أَبْوابُ السَّماءِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١١).

قال الشَّنقيطي: (في عَدَمِ فَتحِ أبوابِ السَّماءِ لهم أقوالٌ متقارِبةٌ مَعروفةٌ، لا يُكَذِّب بعضُها بعضًا، وهي كلُّها حَقٌّ، قال بعضُ العُلَماءِ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ فيُرفَعَ لهم منها عمَلٌ صالِحٌ؛ لأنَّ أعمالَهم مردودةٌ إلى الله، كما قال الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: آية ١٠] والكُفَّارُ ليس عندهم عملٌ صالِحٌ يَرفَعُ كَلِمَهم، وليس عندهم كَلِمٌ طَيِّبٌ، وقال بعضُ العُلَماءِ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لاستجابةِ دَعَواتِهم؛ لأنَّ دَعَواتِهم مردودةٌ ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: آية ١٤]، وقال بعضُ العُلَماءِ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: لا تَنزِلُ إليهم البَرَكاتُ والرَّحَماتُ مِنَ اللهِ؛ لكُفرِهم. وكلُّ هذه الأقوالِ حَقٌّ، وذهَبَ جماهيرُ مِنَ المُفَسِّرينَ أنَّ معنى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾ لأرواحِهم عند الموتِ، والآية =

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((خَرَجْنا معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم، في جِنَازةِ رَجُلٍ مِن الأنْصارِ، فانتَهَيْنا إلى القَبْرِ ولَمَّا يُلْحَدْ[1]، فجَلَسَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم، وجَلَسْنا حَوْلَه، كأنَّ عَلى رُؤوسِنا الطَّيْرَ، وفي يَدِه عُودٌ يَنْكُتُ في الأرضِ[2]، فرَفَع رَأْسَه، فقال: اسْتَعِيذُوا باللهِ مِنْ عَذابِ القَبْرِ. مَرَّتَينِ أو ثَلاثًا.

ثمَّ قالَ: إنَّ العبْدَ المؤمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهُمُ الشَّمْسُ، معَهُم كَفَنٌ مِن أكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ[3] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجْلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ[4]، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوْتِ عليه السَّلامُ، حتَّى يَجْلِسَ عندَ رَأْسِه، فيَقُولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجي إلى مَغْفرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ. فتَخْرُجُ تَسِيلُ كَما تَسِيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقَاءِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عينٍ حتَّى يَأْخُذوها، فيَجْعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ، وفي ذَلِك الحَنُوطِ، ويَخْرُجُ مِنها كأطْيَبِ نَفْحةِ[5] مِسْكٍ وُجِدَت على وَجْهِ الأرْضِ. فيَصْعَدونَ بِها، فَلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ المَلائِكَةِ، إلَّا قَالُوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقُولُونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحْسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماء الدُّنيا، فيَسْتَفتِحون له، فيُفتَحُ لهم، فيُشيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَليها،

= تشمَلُ هذا كُلَّه). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٤٢).

(١) يُلحَدْ: أي: يُدفَنْ في اللَّحدِ. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٤).

(٢) يَنكُتُ في الأرضِ: أي يضرِبُ الأرضَ بطَرَف العودِ؛ فِعلَ المتفكِّرِ المهموم. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

(٣) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. ينظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

(٤) مَدَّ البَصَرِ: أي: مَداه، وهي الغايةُ التي ينتهي إليها البَصَرُ. ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢١٣).

(٥) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحتِه. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

حتَّى يُنْتَهى به إلى السَّماء السَّابِعَةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ[١]، وأَعيدُوه إلى الأَرْضِ؛ فإنِّي مِنها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومِنْها أُخرِجُهم تارَةً أُخْرى.

فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، فيَأْتيه مَلَكانِ، فيُجْلِسانِه، فيَقُولانِ له: مَن رَبُّك؟ فيَقولُ: رَبِّيَ اللهُ، فيَقولانِ له: ما دِينُك؟ فيَقولُ: دِينيَ الإسلامُ، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِث فيكُم؟ فيَقُولُ: هو رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم، فيَقولانِ له: وما عِلْمُك؟ فيَقولُ: قَرَأْتُ كِتابَ اللهِ، فآمَنْتُ به وصَدَّقتُ، فيُنادي مُنادٍ في السَّماءِ: أنْ صَدَق عَبْدي، فأَفْرِشوه مِنَ الجنَّةِ، وألبِسُوه مِن الجَنَّةِ، وافْتَحوا له بابًا إلى الجنَّةِ. فيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِها[٢] وطِيبِها، ويُفْسَحُ[٣] له في قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه. ويَأْتيه رجُلٌ حَسَنُ الوَجهِ، حَسنُ الثِّيابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أَبْشِرْ بالَّذي يَسُرُّك؛ هذا يَومُك الَّذي كنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ له: مَن أنتَ؛ فوَجهُك الوَجهُ يَجيءُ بالخَيرِ؟ فيَقولُ: أَنا عمَلُكَ الصَّالحُ، فيَقولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعةَ حتَّى أرجِعَ إلى أَهْلي ومالي.

وإنَّ العبدَ الكافِرَ إذا كان في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَل إليه مِن السَّماءِ مَلائكةٌ سُودُ الوُجوهِ، مَعَهمُ المُسُوحُ[٤]، فيَجْلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ حتَّى يَجْلِسَ عِندَ رَأسِه، فيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخْرُجي إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ! فتَفَرَّقُ في جسَدِه، فيَنتَزِعُها كَما يُنتزع السَّفُّودُ[٥] مِنَ الصُّوفِ المَبْلولِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لَم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عينٍ حتَّى يَجْعَلوها في تِلك المُسوحِ، ويَخْرُج مِنها كأَنْتَنِ رِيحِ جِيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ

(١) عِلِّيِّينَ: هو دِيوانُ المُقَرَّبينَ. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٦).
(٢) مِن رَوْحِها (بفتح الراء): أي: مِن نَسيمِها. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).
(٣) يُفسَحُ: أي: يُوسَّعُ له. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).
(٤) المُسوحُ: جمعُ المِسحِ: وهو اللِّباسُ الخَشِن. ينظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٩).
(٥) السَّفُّودُ: الحديدةُ التي يُشوى عليها اللَّحمُ. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٨).

الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فَلا يَمُرُّون بها على مَلأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فلانٍ؛ بأقبَحِ أسمائِه الَّتي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتَّى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له، فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرَأ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾. فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأَرضِ السُّفْلى، فتُطْرَحُ روحُه طَرحًا. ثمَّ قرَأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، ويَأْتيه مَلَكانِ، فيُجْلِسانِه، فيَقُولانِ له: مَن ربُّك؟ فيَقولُ: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيَقولانِ له: ما دينُك؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيُنادي مُنادٍ مِن السَّماءِ: أنْ كَذَب، فافْرُشوا له مِنَ النَّارِ، وافْتَحوا له بابًا إلى النَّارِ، فيأتيهِ مِنْ حَرِّها، وسَمُومِها، ويُضيَّقُ عليه قَبرُه حتَّى تَختَلِفَ فيه أَضلاعُه، ويَأتيه رجلٌ قَبيحُ الوَجْهِ، قبيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أَبْشِرْ بالَّذي يَسوؤُك! هذا يَومُك الَّذي كُنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ: مَن أنتَ؛ فوَجْهُك الوَجهُ يَجيءُ بالشَّرِّ، فيَقولُ: أنا عمَلُك الخَبيثُ، فيَقولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعةَ))[1].

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾

أيْ: ولا يَدْخُلُ هَؤلاءِ الَّذين كَذَّبوا بآياتِنا واستكْبَروا عَنْها الجَنَّةَ أبَدًا، كَما لا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقاربةٍ.
صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/٣٠٠)، وقال ابن تيمية في ((تلبيس الجهمية)) (٦/١٨٢): مشهورٌ، وصحَّحَ الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/٢٨٠).

يَدخُلُ البَعيرُ في ثَقْبِ الإبْرةِ(١).

كَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال سُبْحانَه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أيْ: ومِثْلَ هذا العِقابِ الَّذي وَصَفْنا- مِن عدَمِ تَفَتُّحِ أَبْوابِ السَّماءِ للأَرْواحِ والأَعْمالِ وغَيرِ ذَلك، والحِرْمانِ مِن دُخولِ الجَنَّةِ- نُعاقِبُ الَّذين كَفَروا، فكَذَّبوا بآياتِنا، واستكْبَروا عَنِ الإيمانِ بِها(٢).

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾.

أيْ: لِهؤلاءِ الَّذين كَذَّبوا بآياتِنا، واستكْبَروا عنها فِراشٌ مِنَ النَّارِ مِن تَحْتِهم، ومِن فَوقِهم غِطاءٌ مِن النَّارِ يَغْشاهُم، وتُحيطُ بِهِمُ النَّارُ مِن كلِّ جَوانِبِهِم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٢٠)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٧/ ٣٥١ - ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٨).

قال الزجاج: (المجرمونَ- والله أعلم - هاهنا: الكافرونَ؛ لأنَّ الذي ذُكِرَ مِن قِصَّتِهم التكذيبُ بآياتِ اللهِ، والاستكبارُ عنها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أيْ: ومِثْلَ هذا الَّذي وصَفْنا مِنَ العَذابِ نُعاقِبُ مَن ظَلَمَ نفْسَه، فجَلَب سخَطَ اللهِ عَلَيها بالكُفْر به، ووضَعَ العِبادَةَ في غيرِ مَوضِعِها باتِّخاذِ شَريكٍ مَعَ اللهِ فيها[1].

الفوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال تَعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، الاستِكْبارُ هو طلَبُ التَّرفُّعِ بالباطِلِ، وهذا اللَّفْظُ في حَقِّ البشَرِ يَدُلُّ عَلى الذَّمِّ؛ قال تَعالى في صِفَةِ فِرْعونَ: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[2] [القصص: ٣٩].

٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فكما أنَّهم كذَّبوا بآياتِ اللهِ، فلَم يُؤمِنوا بها- مع أنَّها آياتٌ بيِّناتٌ- واستكبَروا عنها فلم يَنقادُوا لأحكامِها، بل كذَّبوا وتَوَلَّوا- فهم حينئذٍ آيِسونَ مِن كُلِّ خَيرٍ، فلا تُفَتَّحُ أبوابُ السَّماءِ لأرواحِهم إذا ماتوا وصَعِدَت تُريدُ العُروجَ إلى الله، كما لم تصعَدْ في الدُّنيا إلى الإيمانِ باللهِ ومَعرِفَتِه ومَحبَّتِه؛ فكذلك لا تصعَدُ بعدَ الموتِ[3].

= السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٧/ ٣٥١ - ٣٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ يَدُلُّ على أنَّ الأَرْواحَ إنَّما تكونُ سَعيدةً إمَّا بأن يُنَزَّلَ عَليها مِن السَّماءِ أنواعُ الخَيْراتِ، وإمَّا بأَنْ تَصعد أعمالُ تِلك الأَرْواحِ إلى السَّمَواتِ؛ وذَلك يَدُلُّ على أنَّ السَّمواتِ مَوْضعُ بَهجةِ الأَرْواحِ، وأماكِنُ سَعاداتِها، ومنها تُنَزَّلُ الخَيراتُ والبَرَكاتُ، وإليها تَصْعَدُ الأَرْواحُ حالَ فَوزِها بكَمالِ السَّعاداتِ؛ ولَمَّا كان الأَمْرُ كذَلِك كان قولُه: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ مِن أعظَمِ أنواعِ الوَعيدِ والتَّهْديدِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ دلالةٌ على أنَّ المؤمنينَ تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ؛ يعني: لأرواحِهم عند المَوتِ(٢)، فمفهومُ الآيةِ أنَّ أرواحَ المؤمنينَ المُنقادينَ لأمرِ اللهِ، المُصَدِّقينَ بآياته، تُفَتَّحُ لها أبوابُ السَّماءِ حتى تعرُجَ إلى اللهِ، وتَصِلَ إلى حيثُ أراد اللهُ مِنَ العالَمِ العُلويِّ، وتبتِهِجَ بالقُربِ مِن رَبِّها والحُظوةِ برِضوانِه(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ مناسبةٌ في أنَّ أبوابَ السَّماءِ لَمَّا لم تُفتَحْ لأعمالِهم بل أُغلِقَت عنها؛ كذلك لم تُفتَحْ لأرواحِهم عند المُفارَقةِ وأُغلِقَت عنها، وكذلك أهلُ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ لَمَّا كانت أبوابُ السَّماءِ مفتوحةً لأعمالِهم، حتى وَصَلَت إلى اللهِ سُبحانه؛ فإنَّها فُتِحَت لأرواحِهم، حتى وصَلَتْ إليه تعالى، وقامَتْ بين يَدَيه؛ فرَحِمَها وأمرَ بكتابةِ اسْمِها في عِلِّيِّينَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٠).
(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩).
(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٤).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، وذَكَر (سَمَّ الخِيَاطِ)؛ لأنَّه يُضرَبُ به المثَلُ في ضِيقِ المَسْلَكِ[1].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ فيه جَوازُ فَرْضِ المُحالِ، والتَّعْليقُ عَليه؛ كَما يقَعُ كَثيرًا للفُقَهاءِ[2].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، المرادُ مِن هذه الآيَةِ الإخْبارُ عَن إحاطَةِ النَّارِ بهِم مِن كُلِّ جانِبٍ: فلَهُم مِنْها غِطاءٌ ووِطَاءٌ، وفِرَاشٌ ولِحافٌ[3].

٧- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؛ أفادَتِ الآيَتانِ أنَّ المُجْرِمينَ والظَّالِمينَ- الرَّاسِخِينَ في صِفَتَيِ الإجْرامِ والظُّلمِ- هُمُ الكافِرونَ، وأنَّ المُؤْمِنينَ لا يَكُونُونَ كَذَلِك؛ كَما قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وهذا تَحْقيقُ القُرْآنِ والنَّاسُ في غَفْلَةٍ عَنه؛ ولِذلِكَ خَالَفُوه في عُرْفِه[4].

بَلاغةُ الآيتَين:

١- قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٩).
(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٧٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ مَسوقٌ لتَحْقيقِ خُلودِ الفَريقَينِ في النَّارِ(١).

- وقَد أكَّدَ الخبَرَ بقَولِه: ﴿إِنَّ﴾ لِتَأييسِهم مِن دُخولِ الجنَّةِ؛ لدَفْعِ تَوهُّمِ أن يَكونَ المُرادُ مِن الخُلودِ المُتقدِّمِ ذِكرُه الكِنايَةَ عَن طُولِ مُدَّةِ البَقاءِ في النَّارِ؛ فإنَّه ورَدَ في مَواضِعَ كَثيرةٍ مُرادًا به هذا المعنى(٢).

- وفي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ...﴾ وقَعَ الإظهارُ في مَقامِ الإضْمارِ، حيثُ لم يقُل: (إنَّهم لا تُفتَّح لهم..)؛ تَعميمًا، وتَعْليقًا للحُكمِ بالوَصْفِ؛ لِدَفعِ احْتِمالِ أن يَكونَ الضَّميرُ عائِدًا إلى إحْدى الطَّائفتَينِ المُتَحاوِرَتَينِ في النَّارِ، واختِيرَ مِن طرُقِ الإظْهارِ طَريقُ التَّعريفِ بالمَوصولِ؛ إيذانًا بِما تُومِئُ إلَيْه الصِّلةُ مِن وَجْهِ بِناءِ الخبَرِ، أي: إنَّ ذلك لأجْلِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ واسْتِكبارِهم عنها(٣).

- وقولُه: ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾ بضَمِّ التَّاءِ الأُولى، وفَتحِ الفاءِ والتَّاءِ الثَّانيةِ مُشدَّدةً، وهو مُبالَغةٌ في (فَتَحَ)؛ فيُفيدُ تَحقيقَ نَفْيِ الفَتحِ لَهم، أو أُشيرَ بتِلك المُبالَغةِ إلى أنَّ المنفيَّ فتحٌ مَخصوصٌ وهو الفَتحُ الَّذي يُفتَحُ للمُؤمِنينَ، وهو فتحٌ قويٌّ، فتكونُ تلك الإشارةُ زيادةً في نِكايَتِهم(٤).

- قولُه: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، بعدَ أنْ حقَّقَ خُلودَهم في النَّارِ بتأكيدِ الخَبرِ كُلِّه بحَرْفِ التَّوكيدِ؛ زِيدَ تأكيدًا بطَريقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٧).

تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه، المشتَهِرِ عِندَ أهْلِ البَيانِ بتَأكيدِ المَدْحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ؛ إذْ هو نفيٌ مُغَيًّا بمُسْتَحيلٍ؛ وهو أن يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ؛ أي: لو كان لانتِفاءِ دُخولِهِمُ الجنَّةَ غايةٌ لكَانَت غايَتُه وُلوجَ الجَملِ في سَمِّ الخِياطِ، وهو أمرٌ لا يَكونُ أبَدًا[(١)].

- وخَصَّ (الجمَلَ) بالذِّكْر مِنْ بينِ سائرِ الحيَواناتِ؛ لأنَّه أكبَرُ الحيَواناتِ جِسْمًا عِندَ العرَبِ، وثَقْبُ الإبرةِ أضيقُ المنافِذِ، فكان وُلوجُ الجَملِ في تلك الثُّقبة الضَّيقةِ مُحالًا[(٢)].

- قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ تَذْييلٌ يُؤْذِنُ بأنَّ الإجرامَ هو الَّذي أوقَعَهم في ذلك الجزاء[(٣)].

٢- قولُه: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ فيه: كِنايةٌ عَنِ انتِفاءِ الرَّاحةِ لهم في جَهنَّمَ؛ فإنَّ المرءَ يحتاجُ إلى المِهادِ والغاشِيةِ عندَ اضْطِجاعِه للرَّاحةِ، فإذا كان مِهادُهم وغاشِيتُهم النَّارَ فقَدِ انْتَفَتْ راحَتُهم، وهَذا ذِكْرٌ لعذابِهِم السُّوءِ بعْدَ أنْ ذَكَرَ حِرْمانَهم مِنَ الخَيرِ[(٤)].

- وقولُه: ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ صرَّحَ في هذا بالفَوقيَّةِ، بَينَما لم يُصرِّح بالتَّحتيةِ في المهادِ؛ لأنَّ المِهادَ كالصَّريحِ فيه، ولأنَّ (الغاشِيةَ) ربَّما كانَتْ عن يَمينٍ أو شِمالٍ، أو كانَت بمعنَى مُجرَّدِ الوُصولِ والإدْراكِ، ولَعلَّه حذَفَ الأوَّلَ؛ لأنَّ الآيةَ مِن الاحْتِباكِ: فذَكَر جَهنَّمَ أوَّلًا دَليلًا على إرادَتِها ثانيًا،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٢٩).

وذكَرَ الفَوْقَ ثانيًا دَليلًا على إرادَةِ (التَّحْتِ) أوَّلًا[١].

- قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ وقولُه: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ عَبَّر عنهم بالمُجرِمينَ تارَةً وبالظَّالِمينَ أُخْرى؛ إشْعارًا بأنَّهم بتكذيبِهم الآياتِ اتَّصَفوا بكلِّ واحدٍ مِن ذَينِكَ الوَصْفَينِ القَبيحَينِ، وذكَر الجُرْمَ مَعَ الحِرْمانِ مِن دُخولِ الجنَّةِ، والظُّلْمَ مَع التَّعذيبِ بالنَّارِ؛ لِلتَّنبيهِ عَلى أنَّه أَعظَمُ الجَرائمِ والجَرائرِ[٢].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٨).

الآيتان (٤٢-٤٣)

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿غِلٍّ﴾: أيْ: عَداوةٍ وشَحْناءَ، والغِلُّ: الضِّغْنُ يَنْغَلُّ في الصَّدرِ، والْحَسَدُ أيضًا، وأصلُ (غلل): يَدُلُّ على تخلُّلِ شيءٍ، وثَباتِ شيءٍ(١).

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تَعالى أنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ- ولا يُكلِّفُ سُبحانَه نَفسًا إلَّا ما تَستَطيعُه- هم أهلُ الجنَّةِ، ماكِثونَ فيها أبدًا.

كما يُخبِرُ تَعالى أنَّه نزَعَ مِن صُدورِ أهلِ الجَنَّةِ الأحقادَ والبَغْضاءَ والكَراهيةَ والحسَدَ، تَجْري مِن تَحتِهِمُ الأنهارُ، وقالوا: الحَمْدُ للهِ الَّذي وفَّقَنا للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ الَّذي أوصَلَنا لِهذا النَّعيمِ المُقيمِ، وما كُنَّا لِنُوفَّقَ لَولا توفيقُه تَعالى لَنا، ولَقَد جاءَت رسُلُ ربِّنا بالحَقِّ، ويُنادَى أهلُ الجنَّةِ: أنَّ هذه الجَنَّةَ أُورِثتُموها بسَببِ إيمانِكُم وعمَلِكُمُ الصَّالِحِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا استَوْفى اللهُ تعالى الكَلامَ في الإنْذارِ والوَعيدِ للمُكذِّبينَ؛ أعقَبَه بالبِشارَةِ والوَعدِ لِلمُؤمِنينَ المُصدِّقينَ؛ وذَلك عَلى عادَةِ القُرْآنِ في تَعقيبِ أحَدِ الغرَضَينِ بالآخَرِ[1]، فقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: والَّذين صدَّقوا وأقرُّوا وانقادوا لِمَا وجَب عليهِمُ الإيمانُ به، وعَمِلوا ما أمَرَهمُ اللهُ تعالى به، وترَكوا ما نَهاهُم عنه- ونَحنُ لَا نُكلِّفُ أحَدًا شَيئًا مِنَ الاِعْتِقاداتِ والأَعْمالِ إلَّا مَا يَقْدِرُ عَليهِ ولا يَعْجِزُ عَنه- هُم أَهلُ الجنَّةِ دُونَ غَيرِهم، وهُم فيها يُنعَّمونَ، ماكِثونَ أبَدًا لا يَخرُجونَ[2].

كَما قال اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تَبارك وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال سُبحانه: ﴿يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٨).

قال الواحديُّ: (وُسعُ الإنسانِ: ما يقدِرُ عليه، وليس معنى الوُسعِ بذلُ المجهودِ وأقصى الطَّاقة، واللهُ تعالى لم يكَلِّفِ العبادَ ما يشُقُّ ويتعَذَّرُ عليهم، ولكِنَّه كلَّفَهم ما يُطيقونَ، ولا يعجِزونَ عنه). ((الوسيط)) (٢/ ٣٦٨).

وقال الرازي: (معنى الوُسعِ ما يَقدِرُ الإنسانُ عليه في حالِ السَّعةِ والسُّهولة، لا في حالِ الضِّيقِ والشِّدَّة.. وأما أقصى الطَّاقة يُسمَّى جُهدًا لا وُسعًا). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٢).

وقالَ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾.

أيْ: قَلَعْنا وأزَلْنا مِن صُدورِ أَهْلِ الجنَّةِ الأَحْقادَ والبَغْضاءَ والكَراهِيةَ والحسَدَ الَّذي كان بَينَهم في الدُّنيا؛ حتَّى يَكونوا في الجنَّةِ إخْوانًا مُتَحابِّينَ، ومَع أنَّ مَنازِلَهم فيها مُتفاوِتةٌ، إلَّا أنَّه لا يَحْسُدُ أحَدٌ مِنهم أحَدًا على ارتِفاعِ مَنزِلتِه عليه[1].

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِي الله عنه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ((يَخْلُصُ المؤمنونَ مِنَ النَّارِ، فيُحْبَسونَ على قَنطَرةٍ[2] بينَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقَصُّ[3] لبَعضِهم مِن بَعضٍ مَظالِمُ كانت بينَهم في الدُّنيا، حتَّى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخولِ الجنَّةِ، فوَالَّذي نَفسُ محمَّدٍ بيَدِه، لأحَدُهم أهدى بمَنزِلِه في الجنَّةِ مِنه بمَنزِلِه كان في الدُّنيا))[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٢ - ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٦١).

(٢) القَنطرةُ: الصِّراطُ المَمدودُ. ينظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٥٦٢).

(٣) فيُقَصُّ: يُقَالُ: أقَصَّه الحاكمُ يُقِصُّه إذا مَكَّنه مِن أخذِ القِصاص، وهو أنْ يفعلَ به مِثْلَ فِعْله. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٧٢).

(٤) رواه البخاري (٦٥٣٥).

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾.

أيْ: تَجْري أَنهارُ الجنَّةِ بينَ أَيْديهِم، وهُم يرَوْنها مِنْ عُلْوٍ، تَجري مِن تَحتِ بَساتينِهم وقُصورِهم[1].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

أيْ: وقالَ أهلُ الجنَّةِ حينَ أُدخِلوا الجنَّةَ، ورَأَوُا النَّعيمَ، وما صُرِفَ عَنهُم مِنَ العَذابِ المُهينِ: الحَمْدُ للهِ الَّذي وفَّقَنا للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ الَّذي أكسَبَنا هذا النَّعيمَ، وما كُنَّا لِنُوفَّقَ لذَلِك لَولا أنْ وفَّقَنا اللهُ تَعالى إليه بفَضلِه ورَحمتِه[2].

كَما قال تَعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عَنْه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٦).

قال ابنُ عاشور: (وهذا القَولُ يَحتمِلُ أن يكونوا يقولونَه في خاصَّتِهم ونُفوسِهم، على معنى التقَرُّبِ إلى الله بِحَمدِه، ويحتمِلُ أن يكونوا يقولونَه بينهم في مجامِعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٢).

((كلُّ أهلِ الجنَّةِ يَرى مَقْعدَه مِنَ النَّارِ فيَقولُ: لَولا أنَّ اللهَ هَدَاني! فيَكُونُ له شُكرًا، وكُلُّ أَهلِ النَّارِ يَرى مَقعَدَه مِنَ الجنَّةِ فيَقولُ: لو أنَّ اللهَ هَداني! فيَكونُ له حَسْرةً))[1].

وعَن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عَنْه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ((لَن يُنجِّيَ أحَدًا مِنكُم عمَلُه. قالوا: ولا أنتَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: وَلا أنا، إلَّا أن يتَغمَّدَني اللهُ برَحمةٍ))[2].

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

أيْ: يَقولُ أهلُ الجنَّةِ حِينَ يرَوْنَ عِيانًا ما وعَدَهم به الرُّسلُ: لقَد جاءَتْنا في الدُّنيا رُسلُ ربِّنا بالحَقِّ الثَّابتِ الَّذي لا شَكَّ فيه ولا مِرْيةَ[3].

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أيْ: ويُقالُ لأَهلِ الجنَّةِ[4]: هذه الجنَّةُ أُوتيتُموها مِيراثًا مِنَ الكُفَّارِ؛ بسَببِ إيمانِكُم وكُفرِهم، وطاعَتِكم وعِصْيانِهم، فنِلْتُم بذلك رَحمةَ اللهِ فأدخَلَكم جنَّتَه، وبوَّأكم فيها مَنازِلَ الكُفَّارِ الَّتي كانَت مِن نَصيبِهم، لو أنَّهم آمَنوا وعَمِلوا

---

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣٩٠)، وأحمد (١٠٦٥٢)، وابن أبي الدنيا في ((صفة النار)) (٢٥٨)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٦٢٩).

قال الحاكم في ((المستدرك)) (٣٦٢٩): صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٤٠٢)، رجاله رجال الصحيح، وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٥١٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٧).

(٤) قال الرازي: (ذلك النداءُ إمَّا أن يكونَ مِنَ اللهِ تعالى، أو أن يكونَ مِنَ الملائكةِ، والأولى أن يكونَ المُناديَ هو الله سبحانه). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤).

الصَّالِحاتِ(١)، أَعْطاكُمُوها اللهُ عَطِيَّةً هَنيئةً، لا تَعَبَ فيها ولا مُنازعَةَ(٢)، ويُبْقيكم فيها في أكمَلِ نَعيمٍ وسُرورٍ خالدين، كما يبقَى على الوارِثِ مالُ المَوروثِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقال سُبحانه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ - ١١].

وعَن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ((ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومنزلٌ في النَّارِ، فإذا ماتَ فدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذَلِك قولُه تَعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]))(٤).

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- الجامِعونَ بينَ الإيمانِ والأعمالِ الَّتي تَصلُح بها نَفسُ الإنسانِ، وتَزْكو

---

(١) وهذا القَولُ اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩).
قال الرازي: (أُورِثْتُموها فيه قولانِ: القَولُ الأوَّلُ: وهو قولُ أهلِ المعاني: أنَّ معناه: صارَتْ إليكم كما يصيرُ الميراثُ إلى أهلِه، والإرثُ قد يُستعمَلُ في اللُّغةِ، ولا يُرادُ به زَوالُ المُلكِ عن الميِّتِ إلى الحيِّ، كما يُقالُ: هذا العمَلُ يُورِثُك الشَّرَفَ، ويُورِثُك العارَ؛ أي: يُصَيِّرُك إليه، ومنهم مَن يقولُ: إنَّهم أُعْطُوا تلك المنازِلَ مِن غَيرِ تَعَبٍ في الحالِ، فصار شبيهًا بالميراثِ.
والقولُ الثاني: أنَّ أهلَ الجنَّةِ يُوَرَّثونَ منازِلَ أهلِ النَّارِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤).
(٢) وهذا اختيارُ ابنِ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٤).
(٣) وهذا اختيارُ الشِّنقيطيِّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٧١-٤٧٢).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٣٤١)، والبيهقي في ((البعث والنشور)) (٢٤١).
صحح إسناده القرطبي في ((التذكرة)) (٤٣٥)، وابن حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٤٥١)، وقال البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٢٦٦): إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصحح الحديث الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٧٩٩).

فتكونُ أهْلًا لِلنَّعيمِ والرِّضْوانِ، هم أصحابُ الجنَّةِ الَّذين يُخلَّدونَ فيها أبَدًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

٢- يُنبِّه تعالى على أنَّ الإيمانَ والعملَ به سَهلٌ؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2]، وأنَّ الجنَّةَ- معَ عِظَمِ مَحلِّها- يُوصَلُ إليها بالعمَلِ السَّهلِ مِن غَيرِ تحمُّلِ الصَّعبِ[3]، فقولُه تعالى: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾؛ أيْ: بمِقْدارِ ما تسَعُه طاقَتُها، ولا يَعْسُرُ على قُدرتِها، فَعليها في هذه الحالِ أن تتَّقيَ اللهَ بحسَبِ استِطاعَتِها، وإذا عَجَزَت عن بعضِ الواجباتِ الَّتي يَقدِرُ عليها غيرُها سقَطَت عَنها[4].

٣- لا سبَبَ في الوُصولِ إلى نَعيمِ اللهِ تَعالى غيرُ فَضلِه وكرَمِه في الأُولى والأُخْرى، فالمُهْتدِي مَن هَداه اللهُ تَعالى، وإنْ لَم يَهْدِه اللهُ تَعالى لَم يَهْتَدِ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[5].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: لَمَّا كان لفْظُ (الصَّالِحاتِ) عامًّا يَشمَلُ جميعَ الصَّالحاتِ الواجِبةِ والمستَحبَّةِ، وقد يَكونُ بعضُها غيرَ مَقدورٍ للعَبدِ؛ قال تعالى: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ففي هذه الجملةِ المعترضةِ رَفْعُ تَوَهُّمِ السَّامعِ أنَّ المكلَّفينَ عَمِلوا جميعَ الصَّالحاتِ؛ المَقدورِ عليها والمَعجوزِ عنها- كما يُجوِّزُهُ أصحابُ تكليفِ ما لا

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٢).

يُطاقُ- فرُفِعَ هذا التوهُّمُ بجملةِ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ واعتُرِضَ بها بينَ المبتدأِ وخَبَرِه بما يُزيلُ الإشكالَ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام١٥٢] ومن ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [النساء٨٤].

٢- نَستفيدُ مِن قولِ اللهِ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أنَّه لا واجِبَ معَ العَجْزِ، ولا مُحرَّمَ معَ الضَّرورةِ[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ قال: ﴿تِلْكُمْ﴾؛ لأنَّهم وُعِدوا بِها في الدُّنيا، فكأنَّه قِيل لهم: هذه تِلْكُمُ الَّتي وُعِدتُّم بها[3].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾، التَّعبيرُ بالإيراثِ يَدُلُّ على أنَّها عَطيَّةٌ بدونِ قَصدِ تَعاوُضٍ ولا تَعاقُدٍ، وأنَّها فَضلٌ محضٌ مِن اللهِ تعالى[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قيل: أُضيفَ العَمَلُ إليهم وشُكِرُوا عليه؛ لَمَّا اعترَفوا لله بنِعمَتِه عليهم بالجنَّةِ وبأسبابِها مِن الهِدايةِ، وحَمِدُوا اللهَ على ذلك كُلِّه[5].

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٩).
قال الرازي: (أكثرُ أصحابِ المعاني على أنَّ قَولَه تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ اعتراضٌ وقَعَ بين المبتدأِ والخبَرِ، والتقديرُ: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أولئك أصحابُ الجنَّة هم فيها خالِدونَ)، وإنَّما حَسُنَ وقوعُ هذا الكلامِ بين المبتدأِ والخبَرِ؛ لأنَّه مِن جِنسِ هذا الكلامِ؛ لأنه لَمَّا ذكَرَ عَمَلَهم الصَّالحَ، ذكر أنَّ ذلك العمَلَ في وُسعِهم غيرُ خارجٍ عن قُدرَتِهم). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٢). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٤).
(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٩٨).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجنَّةَ والعَمَلَ؛ كِلاهما مِن فضْلِ اللهِ ورَحْمَتِه على عبادِه المؤمنينَ[1].

بَلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه: ﴿**أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ**﴾ خَبرٌ عَن ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقولُه: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ على طَريقةِ الإدْماجِ، وفائدَةُ هذا الإدْماجِ الارتِفاقُ بالمؤمنِينَ؛ لِأنَّه لَمَّا بَشَّرَهم بالجَنَّةِ على فِعلِ الصَّالحاتِ طَمْأنَ قُلوبَهم بأنْ لَا يُطْلَبوا مِنَ الأَعْمالِ الصَّالحةِ بما يَخرُجُ عَنِ الطَّاقةِ، وأيضًا لِلتَّرغيبِ في اكْتِسابِ النَّعيمِ المُقيمِ بِما يَكونُ في وُسْعِهم، ويَسهُلُ عَليهم، وهو الإمكانُ الواسِعُ غيرُ الضَّيِّقِ مِنَ الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ[2].

٢- قولُه: ﴿**أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ دلَّ على قَصْرِ مُلازَمةِ الجنَّةِ عَليهِم دونَ غَيرِهم؛ ففيه تأييسٌ آخَرُ للمُشرِكينَ بحَيثُ قَوِيَت نصِّيَّةُ حِرمانِهم مِن الجنَّةِ ونَعيمِها[3].

٣- قولُه: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ**﴾ فيه التَّعبيرُ عَنِ المستَقْبَلِ بلَفظِ الماضي ﴿وَنَزَعْنَا﴾؛ للتَّنبيهِ على تَحقُّقِ وُقوعِه؛ أيْ: ونَنزِعُ ما في صُدورِهم مِن غِلٍّ[4].

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٣١).

- واتِّساقُ النَّظْمِ يقتَضي أن تكونَ جُملةُ: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ مُعترِضةً بينَ جُملةِ: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]، وجُملَةِ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ اعتِراضًا بُيِّنَ به حالُ نُفوسِهم في المُعامَلةِ في الجنَّةِ؛ لِيُقابِلَ الاعتِراضَ الَّذي أُدمِجَ في أثْناءِ وَصْفِ عذابِ أهلِ النَّارِ، والمبيَّن به حالُ نُفوسِهم في المعامَلةِ بقَولِه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ اعتراضًا بينَ قولِه: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ وقولِه: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا﴾[١].

٤- قولُه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾: فيه حذف المَفعولِ الثَّاني لكلٍّ من الفِعلينِ ﴿نَهْتَدِي﴾ و﴿هَدَانَا﴾؛ لِظُهورِ المُرادِ، أو لإرادَةِ التَّعْميمِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ تَوكيدُ النَّفيِ باللَّامِ[٣].

٥- قولُه: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا ابتدائيًّا؛ لصُدورِها عنِ ابتِهاجِ نُفوسِهم واغتِباطِهم بما جاءَتْهم به الرُّسلُ، فجَعَلوا يتَذكَّرون أسبابَ هِدايتِهم، ويَعتَبِرون بذَلك ويَغْتَبِطون[٤].

- وتأكيدُ الفِعلِ بلَامِ القسَمِ وبـ(قَدْ) في قولِه: ﴿لَقَدْ﴾ معَ أنَّهم غيرُ مُنكِرينَ لِمَجيءِ الرُّسلِ: إمَّا لأنَّه كِنايةٌ عَنِ الإعجابِ بمُطابَقةِ ما وعَدَهم به الرُّسلُ مِنَ النَّعيمِ لِمَا وجَدوه، وإمَّا لأنَّهم أرادوا بقَولِهم هذا الثَّناءَ على الرُّسلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٣).

والشَّهادةَ بِصِدْقِهم جَمْعًا مع الثَّناءِ على اللهِ، فأَتَوْا بالخبَرِ في صورةِ الشَّهادةِ المؤكَّدةِ الَّتي لا تَردُّدَ فيها[1].

٦- قولُه: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه تَشْبيهُ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ بالوارِثِ والمَوْروثِ عنه؛ لأنَّ اللهَ خلَقَ في الجنَّةِ مَنازلَ لِلكُفَّارِ، بتَقْديرِ إيمانِهم، فمَنْ لم يُؤمِنْ مِنهم جُعِلَ مَنزلُه لأهلِ الجنَّةِ، أو لأنَّ دُخولَ الجنَّةِ لا يَكونُ إلَّا برَحْمةِ اللهِ تَعالى لا بعَملٍ، فأشبَهَ الميراثَ[2].

- وباءُ السَّبَبيَّةِ في قولِه: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اقتَضَتِ الَّذي أَعْطاهُم مَنازِلَ الجنَّةِ؛ أَرادَ به شُكرَ أَعْمالِهم وثَوابَها مِن غَيرِ قَصدِ تَعاوُضٍ ولا تَقابُلٍ، فجَعَلها كالشَّيءِ الَّذي استَحقَّه العامِلُ عِوضًا عن عمَلِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٥).

الآيات (٤٤-٤٩)

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥) وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ (٤٦) ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ (٤٨) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ (٤٩)﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿يَصُدُّونَ﴾: أي: يُعرِضون وينصرِفون، ويصرفون غيرَهم، والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غير مُتعدٍّ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا بمعنى يصَدُّون غيرَهم. وأصل (صدد): إعراضٌ وعدولٌ [١].

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾: أي: يُحاولونَ أن يُغيِّروا سَبيلَ الله، ويُبدِّلُوها عنِ الاستقامَةِ الَّتي جعلَها اللهُ لها، وأصلُ (بغي) طَلَبُ الشَّيءِ، ومنه: بَغَيْتُ الشَّيءَ أبغيه: إذا طلبتَه، و﴿عِوَجٗا﴾: أيْ: زَيغًا وتَحْريفًا، واعْوِجاجًا في الدِّينِ، وأصلُ (عوج): الميلُ في الشَّيءِ [٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١) و(٤/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٢٦).

﴿حِجَابٌ﴾: أي: سُورٌ، والحِجابُ: كلُّ ما يَستُرُ المَطلوبَ، ويمنعُ مِنَ الوُصولِ إليه، وأصلُ (حجب): المنعُ[١].

﴿الْأَعْرَافِ﴾: جمْعُ عُرْفٍ، وهو سورٌ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ؛ سُمِّي بذَلِك لارتِفاعِه، وكلُّ مرتفِعٍ عندَ العرَبِ: عُرْفٌ[٢].

﴿بِسِيمَاهُمْ﴾: أي: بعَلاماتِهم، والسِّيما: العلامةُ التي يُميَّزُ بها الشيءُ عن غيرِه؛ وأصلُ الوَسْمِ: الأثرُ والمَعْلَمُ[٣].

﴿صُرِفَتْ﴾: أيْ: وُجِّهَت، والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغَيرِه، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رجْعِ الشَّيءِ[٤].

﴿تِلْقَاءَ﴾: أيْ حِيالَ، أو تُجاهَ، أو نَحْوَ، واللِّقاءُ: مُقابلَةُ الشَّيءِ ومُصادَفتُه مَعًا، وأصلُ (لقي): تَوافِي شيئَيْنِ[٥].

المَعْنى الإجماليُّ:

ونادى أهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ بعدَ استِقْرارِ كلٍّ مِنهم في مَنازِلِهم، قائِلينَ لهم: إنَّهم قد وجَدوا ما وعَدَهم ربُّهم مِن إثابةِ أهلِ طاعتِه حقًّا، وسَألوهم: هل وجَدوا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٨) ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١١).

هم ما وعَدَ ربُّهم حقًّا، قالوا: نعَم، فنادى مُنادٍ بصوتٍ عالٍ بينَ أصحابِ الجنَّةِ وأَصْحابِ النَّارِ: أنْ لعنةُ اللهِ عَلى الظَّالِمينَ، الَّذين كانوا في الدُّنيا يُعْرِضونَ عَنِ الإسلامِ، ويَمنَعون غيْرَهم مِنِ اتِّباعِه، ويَسْعَونَ لإظْهارِ دينِ الإسلامِ أعوَجَ غيرَ مُستقيمٍ، وهُم بالآخِرةِ لا يُؤمِنونَ.

وأخبَرَ تعالى أنَّ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ حاجزًا يَمنَعُ مِن وُصولِ أهلِ النَّارِ إلى الجنَّةِ، وعَلى هذا السُّورِ المرتفِعِ الَّذي يَحْجِزُ بينَهما رِجالٌ استوَتْ حسَناتُهُم معَ سيِّئاتِهم، يَعرِفون كُلًّا مِن أهلِ الجنَّةِ وأَهلِ النَّارِ بعَلاماتِهم، ونادَوْا أصحابَ الجنَّةِ أنْ سَلامٌ علَيكم، ولَم يَدخُلوا الجنَّةَ بَعدُ، لَكنَّهم يَطمَعون في دُخولِها، وإذا صَرَفَ اللهُ عُيونَهم تُجاهَ أهلِ النَّارِ، فأبصَروا ما هم فيه، قالوا: ربَّنا لا تَجْعَلْنا مَع القومِ الظَّالِمينَ في النَّارِ.

ونادَوْا رِجالًا مِمَّن هُم في النَّارِ مِن رُؤَساءِ الكُفَّارِ والمُشرِكينَ، عرفوهم في الدُّنيا بأعيانِهم، ويَعرِفونَهم في النَّارِ بعَلاماتِ أهلِها، قالوا لهم: ماذا نَفَعَكم ما كُنتُم تَجْمَعونَه في الدُّنيا، وماذا أفادَكم استِكْبارُكم فيها، أهَؤلاءِ الضُّعفاءُ الَّذينَ أدخَلَهمُ اللهُ الجنَّةَ هُمُ الَّذينَ أقسَمتُم أنَّ اللهَ لَن يَنالَهم برَحمةٍ؟! ويُقالُ لِهؤلاءِ الواقِفينَ عَلى السُّورِ الحاجزِ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ: ادخُلوا الجنَّةَ، لا خَوْفٌ علَيكُم مِمَّا هو آتٍ، ولا أنتُم تَحزَنونَ على ما فاتَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شرَح اللهُ تعالى وَعيدَ الكُفَّارِ، وثَوابَ أهلِ الإيمانِ والطَّاعاتِ، أتبعَه بذِكْرِ

المناظَراتِ الَّتي تَدور بينَ الفَريقينِ(١)، فقال تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾.

أي: ونادى أهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ بعدَ استِقْرارِ كُلٍّ مِنهم في مَنازِلِهم(٢).

﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾.

أي: فقال أهلُ الجنَّةِ لهم: يا أهلَ النَّارِ، قد وَجَدْنا ما وعَدَنا ربُّنا على ألسِنَةِ رُسلِه مِنَ الثَّوابِ على الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ حقًّا، فهَل وجَدتُّم ما وعَدَكم ربُّكم مِنَ العَذابِ على الكُفرِ والمَعاصي حقًّا؟ فقالوا: نعَم، قد وجَدْناه حقًّا(٣).

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أيْ: فنادى مُنادٍ(٤)، وأعْلَمَ بصوتٍ عالٍ بينَ أهلِ النَّارِ وأهلِ الجنَّةِ قائلاً: لَعنةُ اللهِ مُستقِرَّةٌ على الكفَرةِ الَّذين كانوا يضَعونَ العِبادَةَ في غَيرِ مَوضعِها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٥)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧١- ٢٧٢).

قال الشنقيطي: (وهذا النِّداءُ للعُلماءِ فيه سؤالاتٌ: هل نادى جميعُ أهلِ الجنَّةِ جميعَ أهلِ النَّارِ؟ أو نادى بعضُهم بعضًا؟ وظاهِرُ القرآنِ أنَّه نداءٌ عامٌّ. وقال بعضُ العلماء: كلُّ ناسٍ من المؤمنينَ يُنادون مَن كانوا يَعرفونَهم في الدُّنيا مِنَ الكُفَّار). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٧١-٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٢).

(٤) قال القرطبي: (﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: نادى وصوَّتَ، يعني من الملائكةِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٥ - ٢٧٦).

قال ابنُ عاشور: (وهذا التأذينُ إخبارٌ باللَّعنِ، وهو الإبعادُ عن الخيرِ، أي إعلامٌ بأنَّ أهلَ النَّارِ مُبعَدون عن رحمةِ الله؛ زيادةً في التأييسِ لهم، أو دعاءٌ عليهم بزيادةِ البُعدِ عن الرَّحمة، بتضعيفِ العَذابِ أو تحقيقِ الخُلود). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٧ - ١٣٨).

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: الَّذين كانوا في الدُّنيا يُعرِضون عَنِ الإسلامِ، ويَمنَعون النَّاسَ مِن اتِّباعِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾.

أيْ: ويَطلُبون ويُحاوِلون إظهارَ دينِ الإسلامِ أعوَجَ غيرَ مُستقيمٍ؛ حتَّى لا يَتَّبعَه أحَدٌ؛ كأنْ يَختَلِقوا له نَقائصَ يُموِّهون بها على النَّاسِ تَنفيرًا عنه، أو بإلقاءِ الشُّكوكِ والشُّبهاتِ حَولَه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٨).
قال ابنُ عاشور: (المرادُ بالصَّدِّ عن سبيلِ الله: إمَّا تَعَرُّض المُشركينَ للرَّاغبينَ في الإسلامِ بالأذى والصَّرفِ عن الدُّخولِ في الدِّينِ بوجوهٍ مختلفةٍ- وسبيلُ اللهِ ما به الوصولُ إلى مَرضاتِه، وهو الإسلامُ- وإمَّا إعراضُهم عن سَماعِ دعوةِ الإسلامِ وسَماعِ القُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٩- ١٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٧ - ٢٧٨).

لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥].

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

أيْ: وهُم بيَومِ القيامةِ جاحِدونَ مُكَذِّبون[١].

كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠].

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾.

أيْ: وبينَ الجنَّةِ والنَّارِ حاجزٌ يمنَع مِن وُصولِ أهلِ النَّارِ إلى الجنَّةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٣ - ٢٨٤).

أيْ: وعَلى هذا السُّورِ المرتَفعِ رِجالٌ قد استوَتْ حسَناتُهم معَ سيِّئاتِهم[١].

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ﴾.

أي: الرِّجالُ الَّذينَ على الأعرافِ يَعرِفون أهلَ الجنَّةِ بعَلامتِهم الَّتي يتَميَّزون بها، وهي بَياضُ وحُسنُ وُجوهِهم، ويَعرِفون أهْلَ النَّارِ بسَوادِ وقُبحِ وُجوهِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال سُبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦-٢٧].

﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٩، ٢١٦)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٨).
قال ابنُ كثير: (اختلفت عباراتُ المُفَسِّرين في أصحابِ الأعرافِ مَن هم، وكلُّها قريبةٌ ترجِعُ إلى معنًى واحدٍ، وهو أنهم قومٌ استوَت حسناتُهم وسَيِّئاتهم؛ نصَّ عليه حذيفةُ، وابنُ عباس، وابن مسعود، وغيرُ واحدٍ مِنَ السَّلَف والخلف، رحمهم الله). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٨).
وقال ابن عاشور: (والذي ينبغي تفسيرُ الآية به: أنَّ هذه الأعرافَ جَعَلَها اللهُ مكانًا يُوقَفُ به مَن جَعَله اللهُ مِن أهلِ الجنَّةِ قبل دُخُوله إيَّاها، وذلك ضربٌ مِنَ العِقابِ خَفيفٌ، فجعل الداخلينَ إلى الجنَّة متفاوتينَ في السَّبقِ تفاوتًا يعلمُ اللهُ أسبابَه ومقاديرَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩).
قال ابنُ الجوزي: (السِّيما: العلامةُ، وإنَّما عَرَفوا النَّاسَ؛ لأنهم على مكانٍ عالٍ يُشرفونَ فيه على أهلِ الجنَّةِ والنَّار). ((زاد المسير)) (٢/ ١٢٤).

أيْ: ونادَى الرِّجالُ الَّذينَ عَلى الأعرافِ أهلَ الجنَّةِ بالتَّحيَّةِ قائلينَ لهم: سَلامٌ عَليكُم؛ أيْ: سَلِمتُم مِن كلِّ الآفاتِ، وصِرْتُم في مأمَنٍ مِن جَميعِ المؤذِياتِ[١].

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

أيْ: إنَّ أهلَ الأعرافِ لَم يَدْخُلوا الجنَّةَ بَعدُ، لكنَّهم يَطمَعونَ في دُخولِها برَحمةِ اللهِ تعالى[٢].

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)﴾.

أيْ: وإذا صَرَفَ اللهُ عُيونَ أصحابِ الأعرافِ إلى جِهةِ أصحابِ النَّارِ، فأبصَروا ما هم فيه مِن العَذابِ، دعَوُا اللهَ قائلينَ: يا ربَّنا لا تَجعَلْنا معَ الكُفَّارِ في النَّارِ[٣].

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨)﴾.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾.

أيْ: ونادى أُولئك الرِّجالُ الَّذين على الأعرافِ رِجالًا مِن رُؤَساءِ الكُفَّارِ والمُشرِكينَ مِن أهلِ النَّارِ عرَفوهم في الدُّنيا بأعيانِهم، ويَعرِفونَهم في النَّارِ بعَلاماتِ أهلِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩).
قال ابن عاشور: (ونداؤُهم أهلَ الجنَّةِ بالسَّلامِ يُؤذِنُ بأنَّهم في اتصالٍ بعيدٍ مِن أهلِ الجنَّة، فجعل اللهُ ذلك أمارةً لهم بحُسنِ عاقِبَتِهم ترتاحُ لها نفوسُهم، ويعلمونَ أنَّهم صائرونَ إلى الجنَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٢٩ - ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٣ - ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٩ - ٢٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير =

﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: قال أصحابُ الأعرافِ لعُظماءِ المُشرِكينَ: ماذا نفعَكم ما كُنتُم تَجمَعونَه في الدُّنيا مِنَ الأَمْوالِ والأولادِ والجُنودِ والأَتْباعِ، واستِكْبارُكم في الدُّنيا عَلى الخَلْقِ، وتَكبُّرُكم عَنِ اتِّباعِ الحَقِّ؟![1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

وقال سُبحانه حاكِيًا قولَ مَن يَدخُلُ النَّارَ مِنَ الأغنياءِ المُستكبِرين: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩].

﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)﴾.

= ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠١).
قال مقاتل بن سليمان: (﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ يعني: بسَوادِ الوُجوهِ، مِنَ القادةِ والكُبَراء). ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٧).
وقال ابنُ عاشور: (السِّيما هنا يتعيَّنُ أن يكونَ المرادُ بها المشَخِّصات الذاتيَّة التي تتميَّزُ بها الأشخاص، وليسَتِ السِّيما التي يتميَّزُ بها أهلُ النَّار كلُّهم، كما هو في الآية السَّابقة). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٥ - ١٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٧ - ٢٩٩).

﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾.

أيْ: يَقولُ أهلُ الأَعْرافِ لأُولئكَ الكُفَّارِ: أهَؤلاءِ الضُّعَفاءُ الَّذين أدخَلَهمُ اللهُ الجنَّةَ همُ الَّذين أقسَمْتُم في الدُّنيا على أنَّ اللهَ لَن يَعْبأَ بهِم فيُدخِلَهُم جَنَّته (١)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ [ص: ٦٢-٦٣].

﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾.

أيْ: يُقالُ لأهلِ الأعرافِ: ادخُلوا الجنَّةَ، لا خَوفٌ عَليكُم مِن آتٍ، ولا أنتُم تَحْزَنون على ما فاتَ(٢).

---

(١) وهو قول الواحديِّ والرَّازي وابنِ القيِّم والشوكانيِّ والسعدي وابنِ عاشورِ والشنقيطيِّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٣، ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠١ - ٣٠٢).
وقيل: إنَّ أصحابَ الأعرافِ إذا عيَّروا الكفَّارَ، وأخبَرُوهم أنَّهم لم يُغْنِ عنهم جمعُهم واستكبارُهم، عَيَّرَهم الكفَّارُ بتخَلُّفِهم عن الجنَّةِ، وأقسموا أنَّ اللهَ لا ينالُهم برحمةٍ؛ لِمَا رأَوْا مِن تَخَلُّفِهم عن الجنَّةِ، وأنَّهم يصيرونَ إلى النَّارِ، فتقول لهم الملائكةُ حينئذٍ: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]. وهو قول مقاتل بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٣٩). واختاره الواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٩٦)، وجعَلَه ابنُ القيِّم قولًا قَويًّا تحتمِلُه الآيةِ. يُنظر: ((طريق الهجرتين)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠).
قيل: القائِلُ هو الله تعالى، وقيل: هم الملائكة: يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٦).
وذهب الشنقيطيُّ إلى أنَّ هذا القولَ صادِرٌ مِنَ اللهِ تعالى لأهلِ الجنَّةِ الذين أقسَمَ الكُفَّارُ أنْ لَا ينالَهم اللهُ تعالى برحمةٍ. فقال: (اختُلِفَ في قائلِ هذا القولِ، فظاهِرُ القرآنِ أنَّه مِن بقيَّةِ كلامِ أصحابِ الأعرافِ؛ يُوَبِّخونَ رُؤساءَ أهلِ النَّارِ، ويقولون لهم: أهؤلاءِ الضُّعفاءُ المساكينُ الذين كنتم تسخَرونَ مِنهم في الدُّنيا، وتَستهزِئونَ بهم، وتضحكونَ منهم، وتقولونَ: اللهُ أعظَمُ =

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تَعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، إنَّما أُضيفَت كلمةُ (السبيلِ) إلى اللهِ؛ لأنَّه هو الذي شَرَّعَهَا، وَبَيَّنَ مَعَالَمَهَا، ولأنَّها السَّبيلُ الَّتي أمَرَ بسُلوكِها، ووعَد بالثَّوابِ مَن سَلَكها، ونَهى عن عدَمِ سُلوكِها، ووعَد بالعِقابِ مَن لَم يَسلُكْها(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، عبَّر بالطَّمَعِ؛ لأنَّه لا سبَبَ للعِبادِ إلى اللهِ مِن أنفُسِهم، وإن كانَت لهم أَعْمالٌ، فَضلًا عَن هؤلاءِ المَذْكورينَ الَّذين لا أعمالَ لهم تُبلِّغُهم(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، ظاهرُ القُرآنِ أنَّهم كُلَّهم ذُكورٌ؛ لأنَّه قال: ﴿رِجَالٌ﴾، ولَم يَقُلْ: (نِسَاءٌ). والمقرَّرُ في الأُصولِ: أنَّ لَفْظَةَ (الرِّجالِ) لا يَدْخُلُ فيها النِّساءُ. وقال بعضُ العُلماءِ: إذا ذُكِرَ الرِّجالُ فلا مانِعَ مِن دُخولِ النِّساءِ بحُكْمِ التَّبَعِ. واستَأنَسوا لِهَذا بأنَّ العرَبَ تُسمِّي المرأةَ (رَجُلةً)، وتَسمِيةُ المرأةِ (رَجُلةً) لُغةٌ صحيحةٌ مَعروفةٌ في كلامِ العرَبِ(٣).

= مِن أن يعبأَ بهؤلاءِ، واللهُ لا يُدخِلُهم جَنَّةً، ولا يُدخِلُهم نعيمًا أبدًا، ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ الضُّعفاءُ المَساكينُ الذين كُنتم تستهزِئونَ بهم في الدُّنيا وتسخَرونَ مِنهم، وتُقسمونَ- تحلفونَ باللهِ- ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ﴾ ماذا قال لهم الله؟ قال لهم: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. ((العذب النمير)) (٣/ ٣٠١).

وقال ابنُ جَريرٍ: (وأمَّا قولُه: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فخبَرٌ مِنَ اللهِ عَن أمْرِه أهلَ الجَنَّة بدُخُولِها). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٤).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٩٩)، (٣/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤١).

٤- قال تَعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، بيَّنَ اللهُ أنَّ أصحابَ الأعرافِ ربَّما نظَروا تارةً إلى الجنَّةِ، ورُبَّما أُجبِروا على النَّظرِ إلى أهلِ النَّارِ؛ لأنَّ منظَرَ النَّارِ فظيعٌ جدًّا، لا يَنظُرُ إليه أحَدٌ باختِيارِه[1]؛ لذا قال ﴿صُرِفَتْ﴾ فبَناه للمَفْعولِ، إشارةً إلى أنَّهم لا يَنظُرون إلى أهلِ النَّارِ إلَّا نَظرًا شَبيهًا بِفِعْلِ مَن يَحمِلُه على الفِعْلِ حامِلٌ، وليسَ عَن إرادةٍ مِنهم[2].

٥- دلَّ صريحُ قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ على أنَّ أهلَ الأعرافِ مِن بني آدَمَ؛ ولَيسُوا مِنَ الملائكةِ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ دلالةٌ على أنَّ أصحابَ الأعرافِ بمكانٍ مرتَفِعٍ بين الجنَّةِ والنَّارِ[4].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، لَفظةُ (رَبَّنا) مُشعِرةٌ بوَصفِه تَعالى بأنَّه مُصلِحُهم وسيِّدُهم، وهُم عَبيدُه، فبالدُّعاءِ به طلَبُ رحمتِه، واستِعْطافُ كرَمِه[5].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ نَذارةٌ ومَوعظةٌ لِجَبابرةِ المُشركينَ مِنَ العَرَبِ، الذين كانوا يَحقِرُونَ المُستَضعفينَ مِنَ المُؤمنينَ، وفيهم عَبيدٌ وفُقراءُ، فإذا سَمِعوا بِشاراتِ القُرآنِ للمُؤمنينَ بالجنَّةِ، سكتوا عمَّن كان مِن أحرارِ المُسلمينَ وسادَتِهم، وأنكروا أن يكون أولئك الضِّعافُ والعَبيدُ مِن أهْلِ الجَنَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٩).

وذلك على سبيلِ الفَرضِ، أي: لو فَرَضُوا صِدقَ وُجودِ جَنَّةٍ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ في التَّعْبيرِ عَنْهم بأصْحابِ الجنَّةِ دونَ ضميرِهم: تَوطِئةٌ لِذِكْرِ نِداءِ أصحابِ الأعرافِ، ونِداءِ أصحابِ النَّارِ؛ لِيُعبِّرَ عَنْ كلِّ فَريقٍ بعُنوانِه، ولِيكونَ مِنْه مُحسِّنُ الطِّباقِ في مُقابَلَتِه بِقولِه: ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾، وهذا النِّداءُ خِطابٌ مِنْ أصْحابِ الجنَّةِ، عبَّرَ عنه بالنِّداءِ كِنايَةً عَن بُلُوغِه إلَى أَسْماعِ أَصْحابِ النَّارِ مِن مَسافَةٍ سَحيقَةِ البُعْدِ؛ فإنَّ سَعَةَ الجنَّةِ وسَعةَ النَّارِ تقتَضِيانِ ذلك لا سيَّما قولُه: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَنَادَى﴾ عَبَّرَ بالماضِي عَنِ المُسْتقبَلِ؛ لجَعْلِ المُستقبَلِ في تَحقُّقِ وُقوعِه كالَّذي وقَع بالفِعْلِ، وفي هذا النِّداءِ تَقريعٌ وتَوْبيخٌ، وتَوْقيفٌ على مآلِ الفريقَيْنِ، وزيادَةٌ في كَرْبِ أهلِ النَّارِ بأن شُرِّفوا علَيهم[٣].

٢- قولُه: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾

- في قوله: ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ خاطَبَهم الله بهذا الوَعْدِ، وكَوْنُهم مُخاطَبينَ مِن قِبَلِ اللهِ تَعالى بهذا الوَعدِ يُوجِبُ مَزيدَ التَّشريفِ، ومَزيدُ التَّشريفِ لائقٌ بحالِ المؤمنينَ[٤].

- وقوله: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ فِيه إِيجَازٌ بِحَذفِ المَفْعولِ مِنَ الفِعل الثَّاني ﴿مَا وَعَدَ﴾ حيث لم يقُل: (وعَدَكم)؛ إسْقاطًا لَهمْ عَنْ رُتْبَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٣٥- ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٤).

التَّشرِيفِ بِالخِطَابِ عِنْدَ الوَعْدِ، وقيل: لأنَّ ما ساءَهم مِن الموعودِ لم يَكُن بأَسْرِه مخصوصًا بهم وعدًا، كالبَعْثِ والحِسابِ ونَعيمِ أهلِ الجَنَّةِ؛ فإنَّهم قد وَجَدوا جَميعَ ذلك حقًّا، وإنْ لم يَكُنْ وعْدُه مخصوصًا بهم(١).

- قولُه: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ هذا الاستِفْهامُ مُستَعْمَلٌ في تَوقِيفِ المخاطَبِينَ على غَلَطِهِم، وإثارَةِ نَدامَتِهم وغَمِّهم على مَا فَرَطَ مِنْهُم، والشَّماتَةِ بِهِم في عَوَاقِبِ عِنادِهم؛ لأَنَّ أَصْحابَ الجَنَّةِ يَعلَمونَ أنَّ أَصْحابَ النَّارِ وَجَدوا وَعْدَه حَقًّا(٢)، فهو سؤالُ توبيخٍ وتقريعٍ وشَماتةٍ(٣).

- وفي التَّعبيرِ بالوَعْدِ دونَ الوَعيدِ معَ أهلِ النَّارِ تَهكُّمٌ بِهِم(٤).

٣- قولُه: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ عبَّرَ في الفِعلينِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ و﴿يَبْغونَهَا﴾ بالمُضارِعِ الَّذي مِن شأنِه الدَّلالةُ عَلى حدَثٍ حاصلٍ في زمَنِ الحالِ، مع أنَّهُم في زمَنِ التَّأذينِ لم يَكونوا مُتَّصِفينَ بالصَّدِّ عَن سَبيلِ اللهِ، ولا بِبَغْيِ عِوَجِ السَّبيلِ؛ ذَلك لِقَصدِ ما يُفيدُه المُضارِعُ مِن تَكرُّرِ حُصولِ الفِعْلِ تَبعًا لِمَعنى التَّجدُّدِ، والمعنى وَصفُهم بتكرُّرِ ذلك مِنهُم في الزَّمنِ الماضي(٥).

- والإِخْبارُ بالمَصْدَرِ في قَولِه: ﴿عِوَجًا﴾ لِلمُبالَغَةِ(٦).

- وقولُه: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِالْآخِرَةِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٦).
(٣) ينظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٣٩).

على مُتعلَّقِه ﴿كَافِرُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ به؛ فإنَّ أصْلَ كُفرِهم قد عُلِم مِمَّا قَبلَه، وهذا النَّوعُ مِن الكُفرِ له تأثيرٌ خاصٌّ في إصْرارِهم على ما أُسنِدَ إليهم[١].

- ووصَفَهم باسْمِ الفاعِلِ ﴿كَافِرُونَ﴾؛ لِلدَّلالةِ على ثَباتِ الكُفرِ فيهم، وتَمكُّنِه مِنهم[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيث قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾، وقالَ في سُورة هودٍ: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: ١٩]؛ فزِيدَ في هذه الآيةِ ضميرُ الفَصلِ، ولم يُزَدْ في سورة الأعرافِ؛ وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ، وهي أنَّ ابتداءَ الإخبارِ في سورةِ الأعرافِ بحالِ هؤلاء الملعونينَ في الآيتينِ هو قولُه تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وابتداءَ الإخبارِ عنهم في سُورةِ هود قولُه تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]؛ ففي هذا إطنابٌ، ووِرودُ الظاهرِ في موضِع المضمَرِ من قولِه: ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقُل: (عليهم)، ناسَب ذلك زِيادةُ ضَميرِ الفَصلِ (هم)، وفي آية الأعراف إيجازٌ ناسَبَه سقوطُه[٣].

وقيل: لم يذكرْ ضمير الفصلِ في الأعرافِ، وذكره في هود؛ لأنَّ ما في الأعرافِ جاءَ على أصْلِه غيرَ مزيدٍ فيه ما يَجري مجرَى التوكيدِ، والذي في سُورة هودٍ جاء بعدَ قوله: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]؛ فأشير إليهم، ثمَّ قال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؛ فأَظْهَر ذِكرَ الظَّالِمين في موضعِ الإضمارِ، فلمَّا عبَّر عنهم بالظالمين، الْتَبس أنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨٢-١٨٢).

هم الذين كَذَبوا على ربِّهم أم غيرهم، فقال: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّهم هم المذكورون لا غيرُهم، فلمَّا لم يَصرِفِ الخبرَ الثاني في سورة الأعراف مَصرفَ ما ليس هو بالأوَّل، لم يُحتَجْ إلى توكيدِه، ولَمَّا عدَل في سُورة هود عن إعادةِ الضَّميرِ إلى الأوَّل، ووضَع مكانه ظاهرًا يحتملُ أنْ يكونَ غيرَ الأوَّل، وعَنَى (هم) أنَّهم هم، كان الموضعُ موضِعَ توكيدٍ؛ لتحقيقِ الخبرِ عنهم بالكُفر[1].

٤- قَولُه: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ فِيه: تَقْدِيمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾، وهو خَبَرٌ على المُبْتَدَأِ؛ للاهْتِمامِ بالمَكانِ المُتوسِّطِ بَينَ الجنَّةِ وَالنَّارِ وما ذُكِرَ مِن شَأْنِه، وبهذا التَّقْديمِ صَحَّ تَصْحيحُ الابْتِداءِ بالنَّكِرةِ، والتَّنْكيرُ في قَوْله: ﴿حِجَابٌ﴾؛ للتَّعظِيمِ[2].

٥- قولُه: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ جُملَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ للبَيانِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ يُثيرُ سُؤالًا يَبحَثُ عن كَوْنِهم صَائرينَ إلى الجَنَّةِ أو إلى غَيرِها[3].

٦- قولُه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ فِيه: تَكْريرُ ذِكرِهم مَع كِفايَةِ الإِضْمارِ؛ لزِيادَة التَّقريرِ؛ فالتَّعبيرُ عَنهم هُنا بأَصْحابِ الأعْرافِ إظْهارٌ في مَقامِ الإِضْمارِ؛ إذْ كان مُقْتَضَى الظَّاهرِ أن يُقالَ: (ونادَوْا رِجَالًا)، إلَّا أنَّه لَمَّا

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٨٥-٥٨٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٤٣).

تَعدَّدَ في الآيَةِ السَّابِقَةِ ما يَصلُحُ لعَودِ الضَّمائرِ إليه وَقَعَ الإظْهارُ في مَقامِ الإضْمارِ؛ دَفعًا للالْتِباسِ[١].

– قولُه: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿مَا﴾ الأُولى في قولِه: ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ إمَّا استِفهاميَّةٌ؛ للتَّوبيخِ والتَّقريعِ، أو نَافِيةٌ، والخَبرُ مُستَعمَلٌ في الشَّماتَةِ والتَّوقِيفِ على الخَطأ[٢].

– و﴿مَا﴾ الثَّانيةُ في قولِه: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ؛ أي: واسْتِكبارُكم الَّذي مَضَى في الدُّنيا، ووَجْهُ صَوغِه بصِيغَةِ الفِعْلِ دونَ المَصْدرِ- إذْ لَم يَقُل: اسْتِكْبارُكم-؛ لِيتَوسَّلَ بالفِعلِ إلى كَونِه مُضارِعًا؛ فيُفيدُ أنَّ الاستِكْبارَ كان دَأْبَهم، لا يَفْتُرونَ عَنْه[٣].

٧- قوله: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

– قولُه: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ الاسْتِفْهامُ فِيه مُسْتَعمَلٌ في التَّقريرِ[٤].

– قولُه: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ فيه تَلْوينٌ لِلخِطابِ، وتَوْجِيهٌ له إلى أُولئكَ المَذكُورِينَ؛ أي: ادخُلوا الجَنَّةَ على رَغْمِ أُنُوفِهم[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٠).

الآيات (٥٠-٥٣)

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أَفِيضُوا﴾: يُقال: فاضَ الماءُ: إذا سالَ مُنصَبًّا، وأفاضَ إناءَه: إذا مَلأه حتَّى أسالَه، والإفاضَةُ التَّوسِعةُ، وأصْلُ (فيض): يَدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بِسُهُولَةٍ[1].

﴿يَجْحَدُونَ﴾: أي: يُنكِرونَها بألْسِنَتِهم وهم لها مُسْتَيْقِنونَ، والجُحودُ: نَفْيُ ما في القَلْبِ إثْباتُه، وإثْباتُ ما في القلبِ نَفْيُه، وأصلُ (جحد): يَدُلُّ على قِلَّةِ الخَيرِ[2].

﴿تَأْوِيلَهُ﴾: أي: تصديقَ مَا وُعِدوا به، والتَّأْويلُ: هو المصيرُ والمرجعُ والعاقبةُ، مِنَ الأَوْلِ؛ أي: الرُّجوعِ إلى الأصلِ[3].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧، ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٣٧)، ((مقاييس اللغة)) للراغب (١/ ١٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١١)، ((التبيان)) لابن الجوزي (١/ ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٣٢٠).

﴿شُفَعَاءَ﴾: جَمْعُ شَفيعٍ، وهو: النَّاصِرُ والمعينُ، والشَّفاعَةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ إذا جاءَ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعينًا له؛ فأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه(١).

المَعْنَى الإجماليُّ:

ونَادى أَهلُ النَّارِ أَهلَ الجَنَّةِ طالِبينَ مِنهم أن يَسْقوهم مَاءً، أو يُعطوهُم مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنَ الطَّعامِ، فأجابوهُم أَنَّ اللهَ حَرَّمَ ماءَ الجَنَّةِ وطَعَامَهَا على الكافِرِينَ، الَّذينَ اتَّخذُوا دِينَهَمُ الَّذي دُعُوا لاتِّبَاعِهِ سُخرِيَةً ولَعِبًا، وخَدَعَتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا، فأعْرَضوا عَنِ الآخِرَةِ، ويَقولُ اللَّهُ يومَ القِيامَةِ: إنَّه في هذا اليَومِ يَنْسَاهُم كَما نَسُوا لِقَاءِ يَومِهم هذا، ولأَنَّهم كانوا يَجْحَدونَ بآياتِه.

ويُخبِرُ تَعالَى مُقْسِمًا أَنَّه أَتَى هَؤلاءِ الكُفَّارَ بالقُرآنِ الَّذي بَيَّنَ فِيه جَميعَ ما يَحتاجُ النَّاسُ إلى بَيانِه، وهو سُبحانَه عالِمٌ بِما بيَّنَ فيه مِنَ الحَقِّ، فقد بَيَّنَهُ تَعالَى لأجْلِ أَنْ يَهتَدِيَ بِه المُؤمِنونَ ويَرْحَمَهم بسَبَبِ إيمانِهِم به في الدُّنيا والآخِرَةِ.

ثُمَّ بيَّن الله تعالى عاقبةَ هؤلاءِ المكذِّبينَ بالقرآنِ قائلًا: هَلْ يَنْظُرُ الكُفَّارُ إلَّا حُصولَ ما أَخْبَرَ بِه القرآنُ مِن وُقوعِ البَعْثِ وقِيامِ الحِسَابِ، وحُلولِ العَذابِ بهم، ودُخولِ أهلِ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وأَهْلِ النَّارِ النَّارَ، يَومَ يَقَعُ ذَلِك يَقولُ الَّذينَ تَرَكُوا العَمَلَ بالقُرْآنِ مُتَنَدِّمِينَ: قَد ظَهَرَ لنا الآنَ أَنَّ رُسُلَ رَبِّنَا قَدْ جَاءَتْ بالحَقِّ، ونَحنُ كذَّبْنَاهُم، فهل لنا مِنْ شُفَعَاء فيَشْفَعوا لنا عِنْدَ رَبِّنا، أو نَرجِعُ للدُّنيَا فنَعْمَلَ صَالِحًا غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُه مِنَ الكُفْرِ والمَعَاصِي؟! قَد خَسِرَ هؤلاءِ الكُفَّارُ أَنفُسَهُم، وغَابَ عنهم ما كانوا يَزْعُمونه كَذِبًا في الدُّنيا أَنَّهم شُرَكاءُ لِلَّهِ، أو لَهم آلِهَةٌ مِن دُونِ اللَّهِ تعالَى، فلم يَنْفعوهم بشيءٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

مناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللَّهُ تَعالَى ما يَقولُه أصْحابُ الأعْرافِ لأهلِ النَّارِ؛ أتْبَعَه بذِكْرِ ما يَقولُه أَهلُ النَّارِ لِأَهْلِ الجَنَّةِ[1]، فقال تعالى:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

أي: ونادَى أَهلُ النَّارِ أَهْلَ الجَنَّةِ، مُستَغيثين بِهم مِمَّا أَصابَهم مِن شِدَّةِ الجُوعِ وَالْعَطَشِ، فَقالوا: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ صُبُّوا علَينا مِنَ الْمَاءِ[2] أو[3] مِمَّا رَزَقكمُ اللَّهُ مِن مَآكِلِ الجَنَّةِ[4].

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥٢).

(٢) قال ابنُ عاشور: (الفَيضُ في الآيةِ إذا حُمِلَ على حقيقَتِه كان أصحابُ النَّارِ طالبينَ مِن أصحابِ الجَنَّةِ أن يَصُبُّوا عليهم ماءً ليشرَبُوا منه، وعلى هذا المعنى حمَلَه المفسرون... وعلى هذا الوَجهِ تكون (مِن) بمعنى بعض، أو صفةً لموصوفٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: شيئًا مِن الماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٨).

(٣) قال الشنقيطي: (أو هنا مانعةُ خُلُوٍّ، مُجَوِّزةُ جَمعٍ، يجوز أن يكونَ الماءُ وَحْدَه، أو ما رزَقَهم اللهُ، أو الجميع). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٨ - ١٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥).

أي: قال أَهلُ الجنَّةِ لِأَهْلِ النَّارِ: إنَّ اللَّهَ حَكَمَ بِمَنْعِ مَاءِ الجَنَّةِ وطَعَامِها من الكَافِرِينَ[١].

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾.

أي: يَقُولُ أَهْلُ الجنَّةِ لِأَهْلِ النَّارِ: إنَّ اللهَ مَنَعَ ماءَ الجَنَّةِ وطَعامَها من الكافِرِينَ الَّذينَ اتَّخذُوا دِينَهمُ الَّذي دُعُوا إِلَيهِ، وأُمِروا بِه سُخْرِيَةً ولَعِبًا فاسْتَهْزَؤوا به وبكَلامِ اللهِ وبنَبِيِّه وبالمُؤمنينَ[٢].

كما قال تَعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٧-٥٨].

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وخَدَعَتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا بزِينَتِها، فَرَضوا واطْمَأَنُّوا بِها، وأعْرَضوا عَنِ الآخِرَةِ[٣].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥-٣٠٦).
قال الشنقيطيُّ: (التحريمُ هنا تحريمٌ كونيٌّ قَدَريٌّ). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٦ - ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٨).

بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨].

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾.

أي: يَقولُ اللَّهُ تعالى يَومَ القِيامَةِ: في هذا اليَومِ نَترُكُ الكُفَّارَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ عِطَاشًا جِيَاعًا، كَما تَرَكُوا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ في الدُّنيا استِعدَادًا لِلِقَاءِ اللَّهِ يَومَ القِيامَةِ(١).

كَمَا قَالَ تعالَى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

وعَن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قال: ((يَلقى اللهُ العَبدَ فيقولُ: أي فُلُ(٢)، ألَمْ أُكرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ والإبِلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ(٣)؟ فيقولُ: بَلَى، فيقولُ: أَفَظَنَنْتَ أنَّك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٧ - ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣١٣).
قال ابن كثير: (أي: نعامِلُهم مُعاملةَ مَن نَسِيَهم؛ لأنَّه تعالى لا يشِذُّ عن عِلمِه شيءٌ ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه:٥٢]، وإنَّما قال تعالى هذا مِن بابِ المُقابلة، كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، وقال: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه:١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٤).
وقال الشنقيطي: (أي: نترُكُهم عن إرادةٍ وقَصدٍ يتقلَّبونَ في دَرَكاتِ النَّارِ، وأنواعِ العَذابِ. ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: نِسيانًا كنِسيانِهم لقاءَ يَومِهم هذا؛ لأنَّ هذا اليومَ لم يَنسَوه، وإنَّما تَركوا العمَلَ له عمدًا وقَصدًا وعنادًا للرُّسلِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٣١٣).
(٢) أي فُلُ، معناه: يا فُلانُ، وقيل: إنَّها ترخيمُها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٩٢٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٣).
(٣) ترأَسُ أي: تكونُ رئيسًا على قَومِك. وتَربَعُ أي: تأخُذُ المِرباعَ، وهو ربُعُ الغَنيمةِ، وقيل: معناه تَركْتُك مُستريحًا، لا تحتاجُ إلى مَشقَّةٍ وتَعَبٍ؛ من قَولِهم: اربَعْ على نَفْسِك؛ أي: ارْفُقْ بها. =

مُلَاقِيَّ؟ فيقولُ: لَا، فيقولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كمَا نَسِيتَنِي، ثمَّ يَلْقَى الثَّانيَ فيقولُ: أَي فُلُ، أَلَمْ أُكرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ والإبِلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيَقولُ: بَلَى أَي ربِّ، فيقولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّك مُلَاقِيَّ؟ فيقولُ: لَا، فيَقولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كمَا نَسِيتَنِي))[1].

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

أي: وَنَتْرُكُهم فِي النَّارِ لِكَونِهِم أيضًا جَحَدُوا بِآيَاتِنَا فلَمْ يُصدِّقُوها[2].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللَّهَ تَعالَى لَمَّا شَرَحَ أَحوالَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وأَهْلِ النَّارِ، وأَهْلِ الأَعْرَافِ، ثمَّ شَرَحَ الكَلِمَاتِ الدَّائرَةَ بَين هَؤلاءِ الفِرَقِ الثَّلاثِ على وَجْهٍ يَصِيرُ سَماعُ تِلكَ المَناظَراتِ حَامِلًا للمُكَلَّفِ على الحَذَرِ والاحْتِرازِ، وداعِيًا له إلى النَّظَرِ والاسْتِدْلالِ- بَيَّنَ شَرَفَ هذا الكِتابِ الكرِيمِ، ونِهايَةِ مَنفَعَتِه فقال[3]:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

أي: وأُقسِمُ لَقَدْ أَتَيْنا هَؤلاءِ الكفَّارَ بالقُرآنِ الَّذي بَيَّنَّا فِيه جَمِيعَ ما يَحتاجُ النَّاسُ إلَى بَيانِه، ونَحنُ عالِمِينَ بِما بَيَّنَّا فِيه مِنَ الحَقِّ الَّذِي يُصلِحُ الخَلْقَ في كلِّ زَمَانٍ ومَكانٍ، وفِي أُمورِ دُنياهم وأُخْراهُم[4].

= والمعنى: أَلَمْ أجعَلْك رئيسًا مُطاعًا؛ لأنَّ المَلِكَ كان يأخُذُ الرُّبُعَ مِنَ الغَنيمةِ في الجاهِليَّةِ دونَ أصحابِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٤). ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٦)، ((زاد المسير)) =

كمَا قَالَ تعالَى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقَالَ سُبحانَه: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقَالَ تَبارَك وتَعالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: فَصَّلنَا القُرآنَ لِأَجْلِ أَن يَهتَدِيَ بِه المؤمِنونَ، ويَرْحَمَهُم اللَّهُ تَعالَى في الدُّنيا والآخِرَةِ بِسَببِ إيمانِهم بِه، واتِّباعِهِم لَه(١).

كما قال تَعالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقالَ سُبحَانَه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقَالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

= لابن الجوزي (٢/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣١٥ - ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٣).

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللَّهُ تعالَى أنَّ هذا القُرآنَ الْعَظِيمَ هُو الَّذي أَنْزَلَه، وهو الَّذي فَصَّلَه، وبَيَّن حَلالَه وحَرامَه وعَقائدَه ومواعِظَه وأمثالَه وآدابَه ومَكارِمَه، وأنَّه بَيَّنَ هذا بِعِلْمِه المحيطِ بكلِّ شَيءٍ- هَدَّدَ الكُفَّارَ الَّذينَ لَمْ يَعمَلوا به، فقال[1]:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾.

أي: هَل يَنْتَظِرُ الكُفَّارُ إلَّا وُقوعَ مَا أَخبَرَ به القُرآنُ؛ مِن وُقوعِ البَعْثِ، وقِيامِ الحِسابِ، وحُلولِ العَذابِ بهم، ودُخولِ أَهْلِ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، ودُخولِ أهلِ النَّارِ النَّارَ[2]؟

كما قال تعالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩].

وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: حينَ يَجِيءُ يَومُ القِيامَةِ، الَّذي تَتَحَقَّقُ فِيه مَواعيدُ القُرْآنِ؛ مِنَ الحسابِ والثَّوابِ والعِقابِ، يَقولُ الَّذين تَركوا العَمَلَ بِالقُرْآنِ في الدُّنْيا مُتَنَدِّمينَ: قَد تبيَّن

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٠). قال الشنقيطي: (أي: ما تؤولُ إليه حقيقةُ ما كان يَعِدُ به، وينطِقُ به في دارِ الدُّنيا). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٣٧).

لَنا الآنَ أَنَّ رُسُلَ رَبِّنا صادِقونَ في دَعْواهم، وقَد جاؤونا بالحَقِّ فكَذَّبْناهم[1].

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

أي: يَقُولُ الكُفَّارُ يومَ القِيامةِ: فهَل لَنا مِن شُفَعاءَ فيَشْفَعوا لَنا عِندَ رَبِّنا، فيُنقِذونا مِمَّا نَحن فِيهِ؟ أو هل لَنا أَن نَرجِعَ إلَى الدُّنيا فنَعْمَلَ فيها صَالِحًا غَيرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُه مِنَ الكُفْرِ والمعاصي[2]؟

كمَا قَالَ تَعالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

أي: قَد أَضاعَ الكُفَّارُ حَظَّ أَنفُسِهم مِنَ الثَّوابِ، وَأَهلَكُوها بِالعَذَابِ[3].

كما قال تَعالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٢ - ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٤- ١٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٤ - ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٧).
قال القرطبي: (أي: فلم ينتَفِعوا بها، وكلُّ مَن لم ينتَفِعْ بنَفْسِه فقد خَسِرَها، وقيل: خَسِرُوا النِّعَمَ وحَظَّ أنفُسِهم منها). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٤).

أي: وغابَ عَنهم الَّذين كانوا يَزْعُمونَ في الدُّنيا كَذِبًا أنَّهم شُرَكاءُ لِلَّهِ أَو آلِهَةٌ لهم مِن دُونِ اللَّهِ، ظنُّوا أنَّهم سَيَشْفَعونَ لَهم يَومَ القِيامَةِ، فلَم يَنْفَعُوهم بِشَيءٍ[١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أَعْلَمَ اللهُ تعالى أنَّ ابنَ آدمَ غَيرُ مُستغْنٍ عَنِ الطَّعامِ والشَّرابِ وإن كانَ مُعَذَّبًا[٢].

٢- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ إنَّما طَلَبوا الماءَ خَاصَّةً؛ لِشِدَّةِ ما في بَوَاطِنِهم مِنَ الاحْتِرَاقِ واللَّهِيبِ بسَبَبِ شِدَّةِ حَرِّ جَهَنَّمَ[٣]، فقَدَّموا طلَبَ الماءِ؛ لأنَّ مَن كانَ في سَمُومٍ وحَمِيمٍ يكونُ شُعورُه بالحاجَةِ إلَى الماءِ البَارِدِ أَشَدَّ مِن شُعورِه بالحَاجِةِ إلَى الطَّعامِ الطَّيِّبِ[٤].

٣- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ لَفظُ (أَفِيضُوا) أَمْكَنُ مِن (اسقُونا)؛ لأنَّها تَقتَضِي التَّوسِعَةَ، كمَا يُقالُ: أَفَاضَ اللهُ علَيهِ نِعَمَهُ؛ أي: وَسَّعَها[٥].

٤- استُدِلَّ بِقولِ اللهِ تعالَى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ أنَّ سَقيَ الماءِ مِن أَفضَلِ الأعمالِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٤ - ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٦١).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٥).

قال ابنُ القيِّم: (وأفضلُ الصَّدقةِ ما صادفتْ حاجةً مِن المتصدَّق عليه، وكانت دائمةً مستمرةً، ومنه قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «أفضلُ الصَّدقةِ سقيُ الماءِ». وهذا في موضعٍ يقِلُّ فيه =

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾، تَعليقُ الظَّرفِ بفِعلِ (نَنْساهُم) لإظهَارِ أنَّ حِرْمانَهم مِنَ الرَّحْمَةِ كان في أَشَدِّ أوقاتِ احتِياجِهم إليها، فكانَ لِذِكْرِ (اليومِ) أثرٌ في إثارةِ تَحَسُّرِهم ونَدَامَتِهم[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ استِئنافٌ مَبنِيٌّ على السُّؤالِ؛ كأنَّه قِيل: فماذا قَالُوا؟ فقِيلَ: قَالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٢].

٢- قولُه: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾:

- دَلَّ مَعنى كافِ التَّشبيهِ في قولِه: ﴿كَمَا نَسُوا﴾ على أنَّ حِرْمانَهم مِن رَحْمَةِ اللهِ كانَ مُماثِلًا لإهْمالِهِمُ التَّصديقَ باللِّقاءِ، وهي مُماثَلَةُ جَزاءِ العَمَلِ للعَمَلِ، وهي مُماثَلَةٌ اعتِبارِيَّةٌ، وإنَّما التَّعليلُ مَعنًى يَتَوَلَّدُ مِنِ استِعمالِ الكافِ في التَّشبيهِ الاعتِبارِيِّ، ولَيس هذا التَّشبيهُ بِمَجازٍ، ولكِنَّه حَقِيقةٌ خَفِيَّةٌ لِخَفاءِ وَجْهِ الشَّبَهِ[٣].

٣- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ فيه تَأكِيدُ هذا الفِعلِ بـ(لَامِ القَسَمِ) و(قَد)؛ إمَّا باعتِبارِ صِفَةِ (كِتابٍ)، وهي جُملَةُ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾، فيكونُ التَّأكيدُ جارِيًا على مُقتَضى الظَّاهِرِ؛ لأنَّ

= الماءُ، ويكثرُ فيه العطشُ، وإلَّا فسقيُ الماءِ على الأنهارِ والقنَى لا يكونُ أفضلَ مِن إطعامِ الطعامِ عندَ الحاجةِ. ((الروح)) (١/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥١).

المُشرِكينَ يُنكِرونَ أن يَكون القُرآنُ مَوْصوفًا بتِلك الأوصافِ، وإمَّا تَأكيدٌ لِفِعْلِ ﴿جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾، وهو بُلوغُ الكِتابِ إلَيهم، فيكونُ التَّأكيدُ خارجًا على خِلافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ(١).

- وتَنكيرُ ﴿كِتَابٍ﴾ قُصِدَ بِه تَعظِيمُ الكِتابِ، أو قُصِدَ بِه النَّوعِيَّةُ؛ أي: ما هو إلَّا كِتابٌ كالكُتُبِ الَّتي أُنزِلَتْ مِن قَبْلُ(٢).

- قولُه: ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ تَنكِيرُ ﴿عِلْمٍ﴾ للتَّعظِيمِ؛ أي: عالِمِينَ أَعْظَمَ العِلْمِ، والعَظَمَةُ هُنا رَاجِعةٌ إلَى كمَالِ الجِنْسِ في حقيقَتِه، وأَعْظَمُ العِلْمِ هو العِلْمُ الَّذي لَا يَحتمِلُ الخَطَأَ(٣).

٤- **قولُه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾** الجُملةُ مُستَأْنَفةٌ اسْتِئْنافًا بَيانِيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يُثيرُ سؤالَ مَن يَسألُ: فماذا يُؤخِّرُهم عَنِ التَّصديقِ بِهذا الكِتابِ المَوصُوفِ بتلك الصِّفاتِ؟ وهَلْ أَعظَمُ مِنه آيَةً على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم؟ فكانَ قولُه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ كالجَوابِ عَن هذا السُّؤالِ(٤).

- والاسْتِفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ إنْكارِيٌّ، أي: ما يَنظُرون إلَّا تأويلَه؛ ولِذلك جاءَ بعدَه الاسْتِثْناءُ، والاسْتِثْناءُ على حَقيقَتِه، وليس مِن تَأكيدِ الشَّيءِ بِما يُشبِهُ ضِدَّه، والقَصْرُ في (ما يَنظُرون إلَّا تأويلَه) إضافِيٌّ؛ أي: بالنِّسْبَةِ إلَى غَيرِ ذَلك مِن أَغراضِ نِسْيانِهم وجُحودِهم بالآياتِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٥٤).

٥- قولُه: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ خَبَرٌ مُسْتَعمَلٌ في الإقْرارِ بخَطَئِهِم في تَكذيبِ الرُّسُلِ، وإنْشاءٌ للحَسْرَةِ على ذلك[١].

٦- قولُه: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ الاسْتِفهامُ في قوله: ﴿فَهَلْ﴾ يَجوزُ أن يَكونَ حَقيقيًّا يَقولُه بعضُهم لِبَعضٍ، ويَجوزُ أن يكونَ الاستفهامُ مُستعمَلًا في التَّمَنِّي، ويَجوزُ أن يكونَ مُسْتَعمَلًا في النَّفْيِ؛ على مَعنى التَّحَسُّرِ والتَّنَدُّمِ[٢].

- و﴿مِنْ﴾ في قولِه: ﴿مِنْ شُفَعَاءَ﴾ صِلةٌ للتَّوكيدِ على جَميعِ التَّقاديرِ؛ فتُفيدُ تَوكيدَ العُمومِ في المُسْتَفهَمِ عَنه؛ لِيُفيدَ أنَّهم لا يَسألونَ عَمَّن تَوَهَّموهم شُفَعاءَ مِن أصنامِهم؛ إذ قَد يَئِسوا مِنهم؛ فإنَّهم يَتساءلُونَ عَن أيِّ شَفيعٍ يَشْفَعُ لَهم، ولو يَكون الرَّسولُ علَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الَّذي نَاصَبُوه العَداءَ في الحَياةِ الدُّنيا[٣].

٧- قولُه: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئنافًا ابتِدائيًّا، تَذييلًا وخلاصَةً لِقصَّتِهم؛ أي: فكانَ حاصِلُ أَمرِهم أَنَّهم خَسِرُوا أَنْفُسَهم مِنَ الآن، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٥٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٥٧).

الآيات (٥٤-٥٦)

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿اسْتَوَى﴾: أي: علَا واستقرَّ وارتَفَع، وأَصلُ (سوي): يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بينَ شيئينِ[١].

﴿الْعَرْشِ﴾: هو أعظَمُ المَخلوقاتِ، وسَقفُها، والعَرْشُ في الأصلِ: شَيءٌ مُسقَّفٌ، ومنه سَقْفُ البَيتِ، ويُطلَقُ العرشُ أيضًا على سَريرِ المَلِك، وعلى غير ذلك، وأصل (عرش): يدلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مبنيٍّ[٢].

﴿يُغْشِي﴾: أي: يُغَطِّي، والغِشاوةُ: الغِطاءُ، وأصلُ (غشي): يدلُّ على تَغطِيةِ شيءٍ بشيءٍ[٣].

﴿حَثِيثًا﴾: سَريعًا، والحثُّ: السُّرعةُ، وأصل (حثث): الحَضُّ على الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٥٦- ٤٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٢٠- ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩)، =

﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾: أي: مُذلَّلاتٍ تَجري في فَلَكِها؛ لتَهْتدوا بها، والتَّسْخِيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصل (سخر): يدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ(١).

﴿تَبَارَكَ﴾: أي: تعاظَم وتعالى، وكثُرَ خيرُه، وعمَّ إحسانُه، أو ارتفَعَ وتقدَّسَ، مِنَ البرَكَة: وهي الزِّيَادَةُ والنَّماءُ، والكَثرةُ والاتِّساعُ(٢).

﴿الْعَالَمِينَ﴾: هم أَصنافُ الخلائِقِ أجمعينَ، جمْعُ (عالَم)، و(العالَم) جمعٌ لا واحدَ له مِن لَفْظِه، وهو اسْمٌ لأَصنافِ الأُمَمِ وسائرُ أجناسِ الخَلْق، وكلُّ صِنفٍ منها عالَم، وأهلُ كلِّ قَرنٍ مِن كلِّ صِنفٍ وجِنسٍ منها عالَمُ ذلك القَرْنِ وذلك الزَّمانِ(٣).

﴿تَضَرُّعًا﴾: أي: تذلُّلًا، واستكانةً لِطاعَتِه، يقال: ضَرَع الرجلُ ضَراعَةً: ضَعُفَ وذَلَّ، وتَضَرَّع: أظهَر الضَّراعَةَ، وأصلُ (ضرع): يَدُلُّ عَلَى لِينٍ فِي الشَّيْءِ(٤).

﴿وَخُفْيَةً﴾: أي: سِرًّا، وليس جِهارًا، يقال: خَفِيَ الشيءُ خُفْيَةً: استَتر، وأصلُ (خفي): السَّتْر(٥).

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٤).

مُشكِلُ الإعراب:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾

﴿حَثِيثًا﴾: نَعتٌ لِمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: طلَبًا حثيثًا، ويجوزُ أن يكونَ حالًا مِن فاعِلِ ﴿يَطْلُبُهُ﴾، وهو الضَّميرُ المستَتِرُ فيه، أي: حاثًّا، أو مِن مَفعولِه (الهاء)، أي: مَحْثوثًا. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ عَطْفٌ على ﴿السَّمَوَاتِ﴾.

﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ حالٌ مَنصوبةٌ مِنَ الألفاظِ الثَّلاثةِ ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾، وعلامةُ النَّصبِ الكَسرةُ؛ لأنَّها جمعُ مُؤَنَّثٍ سالمٌ.

وقُرِئَ (والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ) برَفْعِ (الشَّمسُ) على الابتداءِ، ورفْعِ (مُسخَّراتٌ) على أنَّها الخَبرُ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿قَرِيبٌ﴾: إنَّما لم يُؤَنِّثْها وإن كانَتْ خبرًا عن المؤنَّثِ ﴿رَحْمَتَ﴾؛ لوجوهٍ؛ منها: أنَّها في مَعنى الغُفرانِ، فحُمِلَت عليه. ومنها: أنَّه أتى ﴿قَرِيبٌ﴾ بغيرِ هاءٍ؛ ليُفرَّقَ بين قُرْبِ النَّسَبِ وقُربِ المَكانِ؛ يُقال: فلانةٌ قريبةٌ منِّي، أي: في النَّسَبِ، وبعيدةٌ مني، أي: في النَّسَبِ، أمَّا إذا أُريدَ القُربُ في المكانِ، فإنَّه يجوزُ الوَجهانِ؛ فيُقالُ: فلانةٌ قريبةٌ وقريبٌ، وبعيدةٌ وبعيدٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وَقَالَ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقيل غيرُ ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٩٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٢-٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٩٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

المَعْنى الإجماليُّ:

إنَّ ربَّكم- أيُّها النَّاسُ- هو اللهُ الذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ علا على العَرشِ، يُغَطِّي سبحانَه بظُلمةِ اللَّيلِ ضَوءَ النَّهارِ، ويغطِّي بضَوءِ النَّهارِ ظُلمةَ اللَّيلِ، وكلٌّ منهما يطلُبُ الآخَرَ طلبًا سريعًا، لا يتأخَّرُ عنه، وخلَقَ الشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومَ مُذَلَّلاتٍ بأمرِه وتدبيرِه لمنافِعِ الخَلقِ، ألَا له وَحدَه- عَزَّ وجَلَّ- الخَلقُ والأمرُ، عظُمَ سبحانَه وتقَدَّسَ، هو ربُّ العالَمينَ.

ثمَّ أمَرَ اللهُ النَّاسَ أن يدعوه أذِلَّةً خاشعينَ له، مُخْفِينَ دُعاءَهم فيما بينهم وبينَه؛ إنَّه سُبحانه لا يُحِبُّ المعتَدينَ.

ثم نهى سبحانَه النَّاسَ عن الإفسادِ في الأرضِ بعد إصلاحِها، وأمرهم أنْ يَدعُوه خائفينَ مِن غَضَبِه وعِقابِه، وطامعينَ في رِضاه وثَوابِه؛ إنَّ رَحمةَ اللهِ قَريبٌ مِنَ المُحسنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: إنَّ سيِّدَكم وخالِقَكم، ومالِكَكم ومُدَبِّرَ شُؤونِكم- أيُّها النَّاسُ- هو اللهُ المُستحِقُّ للعبادةِ، الذي خلق السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينهما، في سِتَّةِ أيَّامٍ[1].

= (١/ ٥٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٤-٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٨٨١-٨٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٣). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤-٥].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ على العَرشِ[١] علوًّا يليقُ بجلالِه، بلا تكييفٍ، ولا تشبيهٍ، ولا تعطيلٍ[٢].

= قال ابنُ كثير: (الستَّةُ الأيَّام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦).

وقال الشنقيطي: (العلماء يقولون: إنَّ هذه الأيَّامَ، المرادُ بها أوقاتُها؛ لأنَّه في ذلك الوقتِ لم يكُنْ هنالك يومٌ؛ لأنَّ اليومَ مِن طُلوعِ الشَّمسِ إلى غُروبِها، وإن لم يكن هنالك شَمسٌ لا يُعرَفُ اليومُ إلَّا أنَّ اللهَ قبل أن يخلُقَ الشَّمسَ والقَمَرَ، يعلم زمَنَ الأيَّامِ قبل وجودِ الشَّمسِ.. وهذه الأيامُ قال بعضُ العلماء: إنَّها كأيَّام الدُّنيا. وقال بعضُهم: اليومُ منها هو المذكورُ في قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. ((العذب النمير)) (٣/ ٣٤٤- ٣٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (وظاهِرُ الآياتِ أنَّ الأيَّامَ هي المعروفةُ للنَّاسِ.. وقد قيل: إنَّ الأيَّامَ هنا جمعُ اليومِ مِن أيَّامِ الله تعالى، الذي هو مُدَّةُ ألفِ سَنةٍ، فستَّةُ أيَّامٍ عبارةٌ عن ستَّةِ آلافٍ مِنَ السِّنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٥ - ٣٨١).

(٢) قال ابن كثير: (يُسلَك في هذا المقامِ مَذهَبُ السَّلَفِ الصَّالحِ: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمَّة المسلمينَ قديمًا وحديثًا، وهو إمرارُها كما جاءَتْ مِن غَيرِ تكييفٍ ولا تشبيهٍ ولا تعطيلٍ، والظاهِرُ =

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

أي: يُغطِّي اللهُ تعالى بظُلمةِ اللَّيلِ ضَوءَ النَّهارِ، ويُغَطِّي بضَوءِ النَّهارِ ظُلمةَ اللَّيلِ، وكلٌّ منهما يطلُبُ الآخَرَ طَلَبًا سريعًا، لا يتأخَّرُ عنه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٧- ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

= المتبادِرُ إلى أذهانِ المُشَبِّهين، منفيٌّ عن الله؛ فإنَّ الله لا يُشبِهُه شيءٌ مِن خَلقِه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] بل الأمرُ كما قال الأئمَّة- منهم نُعَيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري-: «مَن شَبَّه اللهَ بخَلقِه، فقد كَفَر، ومن جَحَدَ ما وصَفَ اللهُ به نفسَه، فقد كَفَر». وليس فيما وصَفَ اللهُ به نفسَه ولا رسولُه، تَشبيهٌ، فمَن أثبَتَ لله تعالى ما ورَدَتْ به الآياتُ الصَّريحةُ والأخبارُ الصَّحيحةُ، على الوَجهِ الذي يليقُ بجلالِ اللهِ تعالى، ونفى عن الله تعالى النَّقائِصَ، فقد سلك سبيلَ الهدى). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦ - ٤٢٧).

وقال الشوكاني: (مذهَبُ السَّلَفِ الصَّالح أنَّه استوى- سُبحانه- عليه، بلا كَيفٍ، على الوَجهِ الذي يليقُ به مع تنزُّهِه عمَّا لا يجوزُ عليه، والاستواءُ في لغة العرَبِ: هو العلوُّ والاستقرارُ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٨١).

أي: وخلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الشَّمسَ والقَمرَ والنُّجومَ مُذَلَّلاتٍ بأمرِ اللهِ، وتدبيرِه لمنافِعِ الخَلقِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

أي: ألَا لله تعالى وحْدَه صِفَةُ الخَلقِ؛ فهو الذي أوجَدَ جَميعَ المخلوقاتِ، وهو الذي يملِكُها ويتصَرَّفُ فيها، وله وَحدَه الأمرُ كلُّه، فيأمُرُ خَلقَه بما يشاءُ مِن أوامِرَ كونيَّةٍ وشرعيَّةٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٢).

أي: عظُمَ المعبودُ سبحانه وتعالى، وتقدَّسَ وتنزَّه عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، وكَثُرَت بَرَكاتُه وخَيراتُه، هو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ ومالِكُه، ومُدَبِّرُ شؤونِ جَميعِ خَلقِه(١).

كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

أي: ادْعُوا- أيُّها النَّاسُ(٢)- خالِقَكم وسَيِّدَكم، ومُدَبِّرَ شُؤُونِكم، ادْعُوه وَحْدَه، أذلَّاءَ خاشِعينَ له وخاضعينَ، مُخفِينَ دُعاءَكم فيما بينكم وبينه، سواءٌ كان دُعاءَ مسألةٍ وطَلَبٍ، أو دُعاءَ عبادةٍ؛ كالصَّلاةِ وغَيرِها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١-ب/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٧)، ((تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩).

(٢) قال ابن عاشور: (الخطابُ بـ ﴿ادْعُوا﴾ خاصٌّ بالمُسلمينَ؛ لأنَّه تعليمٌ لأدَبِ دُعاءِ اللهِ تعالى وعبادَتِه، وليس المشركونَ بمُتهَيِّئينَ لِمِثلِ هذا الخطابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١-ب/ ١٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٧ - ٣٩٨).

لإخفاءِ الدُّعاءِ فَوائِدُ عَديدةٌ منها:

- أنَّه أعظَمُ إيمانًا؛ لأنَّ صاحِبَه يعلَمُ أنَّ اللهَ يسمَعُ دُعاءَه الخفيَّ.

- أنَّه أعظَمُ في الأدبِ والتعظيمِ؛ ولهذا لا تُخاطَبُ المُلوكُ ولا تُسـألُ برَفعِ الأصواتِ، وإنَّما تُخفَضُ عِندَهم الأصواتُ، ولِلَّه المثَلُ الأعلَى، فإذا كان ربُّنا يسمَعُ الدُّعاءَ الخفيَّ، فلا يليقُ بالأدَبِ بين يدَيه إلَّا خَفضُ الصَّوتِ به.

- أنَّه أبلَغُ في التضرُّعِ والخُشوعِ، الذي هو رُوحُ الدُّعاءِ ولُبُّه ومقصودُه.

- أنَّه أبلَغُ في الإخلاصِ.

- أنَّه أبلَغُ في جمعيَّةِ القَلبِ على اللهِ في الدُّعاءِ؛ فإنَّ رَفعَ الصَّوتِ يُفَرِّقُه ويُشتِّتُه. =

كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال سُبحانَه عن نَبِيِّه زكريَّا عليه السَّلامُ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: كُنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ، فجعل النَّاسُ يجهَرونَ بالتَّكبيرِ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا على أنفُسِكم[1]؛ إنَّكم ليس تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائبًا، إنَّكم تَدْعونَ سَميعًا قريبًا، وهو معكم))[2].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان دُعاءُ التَّضَرُّعِ والخُفيَةِ يقابِلُ الاعتداءَ بعَدَمِ التضَرُّعِ والخُفيةِ؛ عقَّبَ ذلك بقَولِه تعالى[3]:

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

أي: إنَّ ربَّكم لا يُحِبُّ المُتجاوِزينَ للحُدودِ التي حدَّها لعبادِه، في الدُّعاءِ وغَيرِه مِنَ الأمورِ[4].

= – أنَّه دالٌّ على قُربِ صاحبِه مِن اللهِ، وأنَّه لِاقترابِه منه، وشِدَّةِ حُضورِه يسألُه مسألةَ أقرَبِ شَيءٍ إليه.
– أنَّه أدعى إلى دوامِ الطَّلبِ والسُّؤالِ؛ فإنَّ اللِّسانَ لا يمَلُّ، والجوارِحَ لا تتعَبُ، بخلافِ ما إذا رفَعَ صَوتَه؛ فإنَّه قد يَكِلُّ لسانُه وتَضعُفُ بعضُ قُواه. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦-٨).

(١) ارْبَعُوا أي: ارفُقُوا بأنفُسِكم، واخفِضُوا أصواتَكم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٢٦).

(٢) رواه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٠٢-٤٠٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وعن أبي نعامة، ((أنَّ عبدَ اللهِ بنَ مُغَفَّلٍ سَمِعَ ابنًا له يقولُ: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ القَصرَ الأبيضَ مِنَ الجنَّةِ إذا دخَلْتُها عن يميني، فقال له: يا بُنَيَّ، سلِ اللهَ الجنَّةَ، وتعوَّذْه مِنَ النَّارِ؛ فإنِّي سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: سيكونُ بَعدِي قومٌ مِن هذه الأمَّةِ يَعتَدونَ في الدُّعاءِ والطُّهورِ))[1].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أنبأَ الكلامُ السَّابِقُ في قَولِه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ عَن عِنايةِ اللهِ بالمُسلمينَ وتَقريبِه إيَّاهم؛ إذ أمَرَهم بأن يَدْعُوه،

= قال ابنُ تيميَّةَ: (اللهُ لا يُحِبُّ المعتدينَ في كلِّ شَيءٍ: دعاءً كان أو غيرَه .. فيكونُ أمَرَ بدُعائِه وعبادَتِه، وأخبرَ أنَّه لا يُحِبُّ أهلَ العُدوانِ وهم يَدْعونَ معه غيرَه، فهؤلاء أعظَمُ المُعتدينَ عُدوانًا؛ فإنَّ أعظَمَ العُدوانِ الشِّركُ، وهو وَضعُ العبادةِ في غيرِ مَوضِعها، فهذا العُدوانُ لا بدَّ أن يكونَ داخلًا في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، ومِنَ العُدوانِ أن يَدْعُوَه غيرَ مُتضَرِّعٍ؛ بل دعاءُ هذا كالمُستغني المُدلِي على رَبِّه، وهذا مِن أعظَمِ الاعتداءِ؛ لِمُنافاتِه لدُعاءِ الذَّليلِ، فمَنْ لم يسألْ مسألةَ مِسكينٍ مُتضَرِّعٍ خائفٍ؛ فهو مُعْتدٍ، ومِنَ الاعتداءِ أن يَعبُدَه بما لم يُشَرِّعْ، ويُثنِيَ عليه بما لم يُثْنِ به على نَفسِه، ولا أذِنَ فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٣).

وقال الشوكاني: (مَن جاوَزَ ما أمَرَه اللهُ به في شيءٍ مِنَ الأشياءِ، فقد اعتدى، واللهُ لا يحِبُّ المُعتدينَ، وتدخُلُ المجاوَزةُ في الدُّعاءِ في هذا العُمومِ دُخولًا أوَّليًا، ومِنَ الاعتداءِ في الدُّعاءِ: أن يسألَ الدَّاعي ما ليس له- كالخُلودِ في الدُّنيا، أو إدراكِ ما هو مُحالٌ في نَفسِه- أو يطلُبَ الوصولَ إلى منازِلِ الأنبياءِ في الآخِرةِ، أو يرفَعَ صَوتَه بالدُّعاءِ صارخًا به). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٣).

(١) أخرجه أبو داود (٩٦)، وابن ماجة (٣٨٦٤)، وأحمد (٢٠٥٥٤).

قال ابن كثير في ((التفسير)) (٣/ ٤٢٥): إسناده حسن لا بأس به، وصحح إسناده مغلطاي في ((شرح سنن ابن ماجه)) (١/ ٣٢٥)، وصحح الحديث ابن الملقن في ((البدر المنير)) (٢/ ٥٩٩)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٩٦).

وشَرَّفَهم بذلك العُنوانِ العَظيمِ في قَولِه: ﴿رَبَّكُمْ﴾، وعَرَّضَ لهم بمَحَبَّتِه إيَّاهم دُونَ أعدائِهم المُعتَدينَ- أعقَبَه بما يحولُ بَينَهم وبينَ الإدلالِ على اللهِ؛ بالاسترسالِ فيما تُمليه عليهم شَهَواتُهم مِن ثَورانِ القُوَّتَينِ الشَّهْوِيَّةِ والغَضَبيَّة؛ فإنَّهما تَجنيانِ فَسادًا في الغالِبِ، فذَكَّرَهم بتَرْكِ الإفسادِ؛ ليكونَ صَلاحُهم مُنَزَّهًا عن أن يُخالِطَه فَسادٌ(١)، فقال:

﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾.

أي: ولا تُفسِدوا- أيُّها النَّاسُ- في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي، وغيرِ ذلك مِن أنواعِ الفَسادِ، بعد أن أصلَحَ اللهُ تعالى الأرضَ؛ بإرسالِ الرُّسُلِ، وتقريرِ التَّوحيدِ، وبيانِ الشَّريعةِ، وعَمَلِ الطَّاعاتِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾.

أي: وادعُوا اللهَ عزَّ وجلَّ واعبُدُوه، مخلصينَ له في دُعائِكم وعِبادَتِكم، وأنتم في حالِ خَوفٍ مِن غَضَبِ اللهِ وعِقابِه، وطَمَعٍ في رضا اللهِ وثَوابِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٩ - ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٠٤- ٤٠٦). وعزا ابنُ تيميَّة هذا المعنى لأكثرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦)، ((بدائع الفوائد)) =

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان قولُه: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مُشتمِلًا على جميعِ مَقاماتِ الإيمانِ والإحسانِ، وهي الحُبُّ والخَوفُ والرَّجاءُ- عَقَّبَها ببيانِ أنَّ مَن دعاه خوفًا وطمَعًا، فهو المُحسِنُ، والرَّحمةُ قَريبٌ منه؛ لأنَّ مَدارَ الإحسانِ على هذه الأصولِ الثَّلاثةِ، فقال سبحانه[1]:

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ رحمةَ اللهِ في الدُّنيا والآخِرةِ مرجُوَّةُ الحُصُولِ للمُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، المُحسِنينَ إلى عِبادِ اللهِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

= لابن القيم (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٦).
قال السعدي: (الدُّعاء يَشملُ دعاءَ العبادة، فيَدخُل فيه كلُّ عِبادة أَمَرَ الله بها ورسولُه، ودعاءُ المسألة، وهو: سؤالُ الله جلْبَ المنافع، ودفْعَ المضارِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٧).
قال ابنُ تيمية: (واللهُ سُبحانه يُحِبُّ المُحسنينَ ويُبغِضُ مَن ليس مِنَ المُحسِنينَ، ومَن أحَبَّه اللهُ فرَحمَتُه أقرَبُ شيءٍ منه، ومَن أبغَضَه اللهُ فرَحمتُه أبعَدُ شَيءٍ منه). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٧).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يقولُ اللهُ عَزَّ وجلَّ: أنا عندَ ظَنِّ عَبدِي، وأنا معه حين يَذكُرُني، فإنْ ذَكَرَني في نفسِه ذَكَرْتُه في نفسِي، وإنْ ذَكَرَني في ملأٍ ذَكَرْتُه في ملأٍ خَيرٍ منه، وإنِ اقتَرَب إليَّ شِبرًا، تقرَّبْتُ إليه ذِراعًا، وإن اقتَرَب إليَّ ذِراعًا، اقتربتُ إليه باعًا، وإنْ أتاني يمشي أتيتُه هَرولةً))[1].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ لَمَّا نسَبَ تعالى نفسَه إلينا، سَمَّى نَفسَه في هذه الحالةِ بالرَّبِّ، وهو مُشعِرٌ بالتَّربيةِ وكثرةِ الفَضلِ والإحسانِ، فكأنَّه يقولُ: مَن كان له مُرَبٌّ مع كَثرةِ هذه الرَّحمةِ والفَضلِ، فكيف يليقُ به أن يشتغِلَ بعبادةِ غَيرِه[2]؟!

٢- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إنْ قِيل: وما الحكمةُ في خلقِها في ستةِ أيَّامٍ، وكان قادرًا على خلقِها في طرفةِ عينٍ؟ قِيل: لأنَّ خلقَها على التأنِّي أدلُّ على حكمتِه، ولُطفِ تدبيرِه، وفيه أيضًا تعليمُ النَّاس، وتنبيهُ العبادِ على التأنِّي في الأُمورِ، وأنَّ لكلِّ شيءٍ عندَه أجلًا[3].

٣- في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ تنبيهٌ على ما في هذا العالَمِ مِنَ الخَيراتِ والنِّعَمِ، التي تُوجِبُ لله تعالى الشُّكرَ والعبادةَ على عبادِه، دون ما

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٥).
(٣) ينظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٨٨).

عَبَدُوه معه، وليس لهم مِنَ الخَلقِ ولا مِنَ الأمْرِ شَيءٌ[١].

٤- في قَولِ الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الحثُّ على الدُّعاءِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فيه أن الدُّعاءَ الخفِيَّ أفضَلُ وأعظَمُ مِنَ الدُّعاءِ الذي هو جَهرٌ وعلانِيَةٌ؛ وذلك لأنَّ إخفاءَ الدُّعاءِ أبعَدُ مِنَ الرِّياءِ، ولأنَّه يدلُّ على ثِقَةِ العَبدِ بأنَّ رَبَّه عالِمٌ بما خَفِيَ وما ظَهَرَ، لا يخفى عليه شيءٌ[٣].

٦- قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المقصودُ مِنَ الدُّعاءِ أن يصيرَ العَبدُ مُشاهِدًا لحاجةِ نَفسِه، ولِعجزِ نَفسِه، ومُشاهِدًا لِكَونِ مَولاه مَوصوفًا بكمالِ العِلمِ والقُدرةِ والرَّحمةِ، فكلُّ هذه المعاني دخَلَتْ تحت قولِه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ ثم إذا حَصَلَت هذه الأحوالُ على سبيل الخُلوصِ، فلا بُدَّ مِن صَونِها عنِ الرِّياءِ المبطِلِ لحقيقةِ الإخلاصِ، وهو المرادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ والمقصودُ مِن ذِكرِ التَّضَرُّعِ تحقيقُ الحالةِ الأصليَّةِ المطلوبةِ مِنَ الدُّعاءِ، والمقصودُ مِن ذِكرِ الإخفاءِ صَونُ ذلك الإخلاصِ عن شَوائِبِ الرِّياءِ، وإذا عرَفْتَ هذا المعنى ظهَرَ لك أنَّ قولَه سبحانه: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ مُشتمِلٌ على كلِّ ما يُرادُ تَحقيقُه وتحصيلُه في شرائِطِ الدُّعاءِ، وأنَّه لا يزيدُ عليه ألبتَّةَ بوجهٍ مِنَ الوُجوهِ[٤].

٧- قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ مِنَ الاعتداءِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٠).

في الدُّعاءِ ما هو خاصٌّ باللَّفظِ، كالتكَلُّفِ والسَّجعِ، والمبالغةِ في رَفعِ الصَّوتِ؛ فقد صَحَّ النَّهيُ عن ذلك، ومنها ما هو خاصٌّ بالمعنى، وهو طلَبُ غيرِ المَشروعِ مِن وَسائِلِ المعاصي ومَقاصِدِها- كضرَرِ العِبادِ، وأسبابِ الفَسادِ- وطلَبُ المُحالِ الشَّرعيِّ أو العَقليِّ، كطلَبِ إبطالِ سُنَنِ اللهِ في الخَلقِ، وتبديلِها أو تَحويلِها، ومنه طلَبُ النَّصرِ على الأعداءِ مَع تَركِ وسائِله- كأنواعِ السِّلاحِ والنِّظام- والغِنى بدونِ كَسْبٍ، والمغفرةِ مع الإصرارِ على الذَّنبِ. واللهُ تعالى يقولُ: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1] [فاطر: ٤٣].

٨- دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ عَقيبَ قَولِه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ على أنَّ مَن لم يَدْعُه تضرُّعًا وخُفيةً فهو مِنَ المُعتدينَ الذين لا يُحِبُّهم سبحانه، فقَسَّمَتِ الآيةُ النَّاسَ إلى قِسمينِ: داعٍ للهِ تَضَرُّعًا وخُفيةً؛ ومُعتدٍ بتَرْكِ ذلك[2].

٩- يُستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّ النَّفسَ التي تتضَرَّعُ وتخشَعُ خُفيةً للقَريبِ المُجيبِ؛ لا تعتدي كذلك، ولا تُفسِدُ في الأرضِ بعد إصلاحِها؛ فبَينَ الانفعالينِ اتِّصالٌ داخليٌّ وثيقٌ في تكوينِ النَّفسِ والمشاعِرِ[3].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ هذا نهيٌ عن إيقاعِ الفَسادِ في الأرضِ، وإدخالِ ماهِيَّتِه في الوجودِ، فيتعَلَّقُ بجميعِ أنواعِه؛ مِن إفسادِ النُّفوسِ والأنسابِ، والأموالِ والعُقولِ والأديانِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٠٨، ٤٠٩).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٤).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٠).

١١- قال الله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ لَمَّا كان الدُّعاءُ مِنَ اللهِ بمكانٍ؛ كرَّرَه، فقال أوَّلًا: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وهاتان الحالتانِ مِنَ الأوصافِ الظَّاهرةِ؛ لأنَّ الخُشوعَ والاستكانةَ وإخفاءَ الصَّوتِ، ليسَتْ مِنَ الأفعالِ القَلبيَّةِ، ثمَّ قال ثانيًا: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: وَجِلينَ مُشفِقينَ، وراجِينَ مُؤَمِّلينَ؛ فبدأ أوَّلًا بأفعالِ الجَوارِحِ، ثمَّ ثانيًا بأفعالِ القُلوبِ، وعطْفُ ﴿خَوْفًا﴾ على ﴿طَمَعًا﴾ يقتضي أن يكونَ الخَوفُ والرَّجاءُ مُتساوِيَينِ؛ ليكونا للإنسانِ كالجَناحينِ للطَّائِرِ، يحمِلانِه في طريقِ استقامةٍ، فإنِ انفَرَدَ أحدُهما هلَكَ الإنسانُ(١).

١٢- اشتمَلَ قولُه تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ على جميعِ مقاماتِ الإيمانِ والإحسانِ، وهي: الحبُّ والخَوفُ والرَّجاءُ؛ ولذلك أعقبَها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنما تَنالُ مَن دعاه خوفًا وطَمَعًا، الذي هو المحسنُ، والرَّحمةُ قريبٌ منه؛ لأنَّ مدارَ الإحسانِ على هذه الأصولِ الثَّلاثةِ(٢).

١٣- اشتمَلَ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ على آدابِ نَوعَيِ الدُّعاءِ- دُعاءِ العبادةِ، ودُعاءِ المسألةِ؛ فإنَّ الدُّعاءَ في القُرآنِ يُرادُ به هذا تارةً، وهذا تارةً، ويُرادُ به مجموعُهما، وهما مُتلازِمانِ، فدعاءُ المسألةِ هو طلَبُ ما ينفَعُ الداعيَ، وطلبُ كَشْفِ ما يضرُّه أو دَفْعِه، وكلُّ مَن يملكُ الضُّرَّ والنَّفعَ، فهو المعبودُ حقًّا، فهو يُدعَى للنَّفعِ والضُّرِّ دُعاءَ المسألةِ، ويُدعى خوفًا ورجاءً دُعاءَ العِبادةِ، فعُلِمَ أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦).

النَّوعينِ مُتلازمانِ؛ فكلُّ دعاءِ عبادةٍ، مُستلزِمٌ لِدُعاءِ المسألةِ، وكُلُّ دعاءِ مَسألةٍ مُتضَمِّنٌ لدُعاءِ العبادةِ[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تحريضٌ على الإحسانِ وترغيبٌ فيه، ووجهُ ذلك: أنَّ قُربَه تبارك وتعالى مِنَ المحسنينَ وقُرْبَ رَحمَتِه منهم؛ مُتلازمانِ، وقُرْبُ اللهِ تعالى من عبده هو غايةُ الأماني ونهايةُ الآمالِ؛ فإذا كانت رحمتُه قريبةً منهم، فهو أيضًا قريبٌ منهم- سبحانَه؛ بسبَبِ إحسانِهم، وكُلَّما كان العبدُ أكثَرَ إحسانًا، كان أقرَبَ إلى رحمةِ رَبِّه تعالى، وكان ربُّه قريبًا منه برَحمَتِه[2].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيهٌ ظاهرٌ على أنَّ فِعْلَ هذا المأمورِ به هو الإحسانُ المطلوبُ منكم؛ وأنَّ مَطلوبَكم أنتم مِن اللهِ هو رحمَتُه؛ وأنَّ رحمتَه قريبٌ مِنَ المُحسنينَ، الذين فَعَلوا ما أُمِرُوا به مِن دعائِه خَوفًا وطمعًا؛ فقُرْبُ مطلوبِكم منكم- وهو الرَّحمةُ- يكون بحَسَبِ أدائِكم لِمَطلوبِه منكم- وهو الإحسانُ- الذي هو في الحقيقةِ إحسانٌ إلى أنفسِكم؛ فإنَّ اللهَ تعالى هو الغنيُّ الحميدُ، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾[3] [الإسراء: ٧].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما أحسَنُوا بأعمالِهم، أحسنَ اللهُ إليهم برَحْمَتِه[4].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ دلالةٌ على بُطلانِ تأويلِ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الاستواءِ بمعنى المُلْكِ؛ لأنَّه سبحانه أخبرَ أنَّه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ، ثم استوى على العَرشِ؛ وقد أخبرَ أنَّ العَرشَ كان موجودًا قبل خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ- كما دلَّ على ذلك الكِتابُ والسنَّةُ - وحينئذٍ فهو مِن حِينِ خلَقَ العرشَ مالكٌ له مُسْتَولٍ عليه؛ فكيف يكونُ الاستواءُ عليه مؤخَّرًا عن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؟! وأيضا فاللهُ مالكٌ لكُلِّ شَيءٍ، مُستَولٍ عليه؛ فكيف يُخصُّ العرشُ بالاستواءِ[(١)]؟!

٢- قولُه سبحانَه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فيه التمييزُ بين إرادةِ الله لما يخلقُه في عبادِه، وإرادتِه لما يأمرُ به عبادَه، وكثيرٌ مِن الناسِ تشتبهُ عليهم الحقائِقُ الأمريَّةُ الدِّينيَّةُ الإيمانيَّةُ بالحقائقِ الخلقيَّةِ القدريَّةِ الكونيَّةِ، فالله سبحانه خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومَليكُه، لا خالِقَ غيْرُه، ولا رَبَّ سواه، فكلُّ ما في الوجودِ مِن حركةٍ وسُكونٍ فبقضائِه وقَدَرِه، ومَشيئتِه وقُدْرَتِه وخَلْقِه، وكلُّ ما خلقَه فبإرادتِه خلَقَه، فما شاء الله كان، وما لم يشأْ لم يكُنْ، فما لم يكُنْ لم يُرِدْ أن يخلقَه، وما كان فقد أراد أن يخلقَه، وهو لا يريدُ أن يخلقَ إلا ما سبَق علمُه بأنَّه سيخلقُه، فإنَّ العلمَ يطابقُ المعلومَ، وهو سبحانَه أمَر بطاعتِه وطاعةِ رسلِه، ونَهَى عن معصِيَتِه ومعصيةِ رُسُلِه، فأمَر العبادَ بالحسناتِ التي تنفعُهم، ونهاهم عن السيئاتِ التي تضرُّهم، والحسناتُ محبوبةٌ لله مرضيةٌ، والسيئاتُ مكروهةٌ له يسخطُها، ويسخطُ على أهلِها، وإن كان الجميعُ مخلوقًا له[(٢)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فيه ردٌّ على القائلينَ بخَلقِ القُرآنِ؛ لأنَّه فرَّقَ بين المَخلوقاتِ وبَيْنَ الأمرِ؛ لأنَّ أمْرَه- عزَّ وجَلَّ- بكلامِه،

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥ / ٢٢١)، ((الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)) لابن تيمية (١ / ٢٤٥).

فكَلامُه غيرُ داخلٍ في خَلقِه(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ افتُتِحَتِ الجُملةُ بحَرفِ التَّنبيهِ (ألَا)؛ لتَعِيَ نفوسُ السَّامعينَ هذا الكلامَ الجامِعَ(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فيه أنَّ الإخفاءَ مُعتبَرٌ في الدُّعاءِ؛ فاللهُ تعالى أمَرَ بالدُّعاءِ مقرونًا بالإخفاءِ، وظاهِرُ الأمرِ للوُجوبِ، فإن لم يحصُلِ الوُجوبُ، فلا أقَلَّ مِن كَونِه نَدبًا(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دلالةٌ على جوازِ أنْ يشتكيَ المسلمُ إلى اللهِ ما نَزَلَ به مِن الضُّرِّ، وقد أجمَعَ المُسلمونَ على جوازِه(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقَولِه: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ دلالةٌ على أنَّه سبحانه يُحبُّ أنْ يُسألَ، ويُرغَبَ إليه، ويُطلَبَ منه(٥).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فاللهُ أصلَحَ الأرضَ برَسولِه صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، ودِينِه، وبالأمرِ بالتَّوحيدِ، ونهى عن فسادِها بالشِّركِ به، ومُخالَفةِ رَسُولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومَن تدَبَّرَ أحوالَ العالَمِ وَجَدَ كلَّ صَلاحٍ في الأرضِ، فسَبَبُه توحيدُ اللهِ، وعبادَتُه، وطاعةُ رَسُولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكُلَّ شَرٍّ في العالَمِ، وفِتنةٍ وبَلاءٍ، وقَحطٍ وتَسليطِ عَدُوٍّ، وغير ذلك؛ فسَبَبُه مُخالفةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والدَّعوةُ إلى غَيرِ اللهِ(٦).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ هذه الآيةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٠٢).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٤-٢٥).

تدُلُّ على أنَّ الأصلَ في المَضَارِّ الحُرمةُ، والمَنعُ على الإطلاقِ(١).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ التَّصريحُ بالبَعْدِيَّةِ هنا، تسجيلٌ لِفَظاعةِ الإفسادِ بأنَّه إفسادٌ لِمَا هو حَسَنٌ ونافِعٌ، فلا مَعذِرةَ لِفاعِلِه، ولا مَساغَ لِفِعلِه عند أهلِ الأرْضِ(٢).

١١- قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أعاد الأمرَ بالدُّعاءِ بعد أنْ وَسَّطَ بينهما النَّهيَ عن الإفسادِ؛ للإيذانِ بأنَّ مَن لا يعرِفُ نفسَه بالحاجةِ والافتقارِ إلى رَحمةِ رَبِّه الغنيِّ القَديرِ، وفَضلِه وإحسانِه، ولا يدعوه تضَرُّعًا وخُفيةً، ولا خَوفًا مِن عِقابِه، وطَمَعًا في غُفرانِه، أنَّه يكونُ أقرَبُ إلى الإفسادِ منه إلى الإصلاحِ(٣).

١٢- المناسبةُ في ذِكرِ الطَّمعِ- الذي هو الرَّجاءُ- في آيةِ الدُّعاءِ: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أنَّ الدُّعاءَ مبنيٌّ عليه، فإنَّ الدَّاعيَ ما لم يَطْمَعْ في سُؤالِه ومَطلوبِه، لم تتحَرَّكْ نفسُه لطَلَبِه؛ إذ طَلَبُ ما لا طَمَعَ فيه، مُمتنِعٌ(٤).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالةٌ بِمَنطوقِه، ودَلالةٌ بإيمائِه وتعليلِه، ودَلالةٌ بمَفهومِه؛ فَدَلالَتُه بِمَنطوقِه: على قُربِ الرَّحمةِ مِن أهلِ الإحسانِ. ودَلالَتُه بإيمائِه وتَعليلِه: على أنَّ هذا القُربَ مُستَحَقٌّ بالإحسانِ، وهو السَّبَبُ في قُربِ الرَّحمةِ مِنهم. ودَلالَتُه بمَفهومِه: على بُعدِه مِن غيرِ المُحسنينَ؛ فهذه ثلاثُ دَلالاتٍ لِهذه الجُملةِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤١٠).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّه إذا كانت الرَّحمةُ الإلهيَّةُ قَريبةً مِنَ المحسنينِ، فالموصوفُ تبارك وتعالى أَوْلى بالقُربِ منهم، بل قُربُ رَحمَتِه تبَعٌ لِقُربِه هو- تبارك وتعالى- مِنَ المُحسنينَ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ عادَ به التَّذكيرُ إلى صَدْرِ السُّورةِ في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾[2]، وفيه التأكيدُ بحرْف ﴿إِنَّ﴾[3].

- قوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ فيه مِن بديعِ الإيجازِ، ورَشاقةِ التركيبِ: جَعْلُ اللَّيلِ والنَّهار مفعولَينِ لِفعلِ فاعلِ الإغشاءِ؛ فهما مفعولانِ، كِلاهما صالحٌ لأنْ يكونَ فاعلَ الغَشيِ؛ ولهذا استغنى بقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ عن ذِكر عَكسِه، ولم يقُل: (والنَّهارَ اللَّيلَ)، وقد شَبَّه ظهورَ ظلامِ اللَّيل في الأُفق ممتدًّا مِن المشرِق إلى المغربِ عندَ الغُروبِ، واختفاءَ نُورِ النَّهار في الأفقِ ساقطًا من المشرِقِ إلى المغربِ؛ حتَّى يعمَّ الظلامُ الأفقَ بطَلَبِ اللَّيلِ النَّهار، على طريقةِ التَّمثيل، وكذلك يُفهَمُ تشبيهُ امتدادِ ضَوءِ الفجرِ في الأُفقِ من المشرِقِ إلى المغربِ، واختفاءِ ظلامِ اللَّيل في الأُفقِ ساقطًا في المغربِ؛ حتَّى يَعُمَّ الضياءُ الأُفقَ: بطلبِ النَّهارِ اللَّيلَ على وجْهِ التَّمثيل[4].

- قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ مُستأنفةٌ استئنافَ التَّذييلِ للكلامِ السَّابق

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٦٧).

من قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ لإفادةِ تَعميمِ الخَلْقِ[(١)].

- التَّعريفُ في ﴿الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ﴾ تعريفُ الجِنسِ؛ فتُفيدُ الجملةُ قَصْرَ جِنسِ الخَلْقِ وجِنسِ الأمْرِ على الكونِ في مِلكِ اللهِ تعالى؛ فليس لغيرِه شيءٌ مِن هذا الجِنسِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ معناه: ليس لآلهتِهم شيءٌ مِن الخَلْقِ ولا مِن الأَمْرِ[(٢)].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُ﴾ هنا؛ لتخصيصِه تَعالَى بالخَلْقِ والأَمْرِ[(٣)].

٢- قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ استئنافٌ جاءَ مُعترِضًا بين ذِكرِ دَلائلِ وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى بِذِكرِ عظيمِ قُدرتِه على تكوينِ أشياءَ لا يُشارِكُه غيرُه في تَكوينِها؛ فالجملةُ مُعترِضةٌ بينَ جُملة ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ وجُملةِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾، جرَى هذا الاعتراضُ على عادةِ القُرآنِ في انتهازِ فُرَصِ تهيُّؤِ القُلوبِ للذِّكْرَى[(٤)].

- وقَولُه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ فيه تعريفُ الربِّ بطريقِ الإضافةِ دون ضميرِ الغائبِ، مع وجودِ مُعادٍ قريبٍ في قوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾، ودون ضَميرِ المُتكلِّمِ؛ لأنَّ في لَفْظِ الربِّ إشعارًا بتقريبِ المؤمِنين بصِلةِ المربوبيَّة، وليُتوسَّلَ بإضافةِ الربِّ إلى ضميرِ المخاطَبِينَ إلى تَشريفِ المؤمِنينَ، وعنايةِ الرَّبِّ بهم[(٥)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ واقعةٌ موقِعَ التَّعليلِ للأمْرِ بالدُّعاءِ؛ إشارةً إلى أنَّه أمْرُ تكريمٍ للمُسلِمينَ يَتضمَّنُ رِضا اللهِ عنهم، ولكن سَلَكَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧١).

التَّعليلِ طَريقَ إثباتِ الشَّيءِ بإبطالِ ضِدِّه؛ تَنبيهًا على قَصْدِ الأَمْرَينِ، وإيجازًا في الكلامِ[1].

- وبين قَولِه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وقولِه: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] مُناسَبةٌ حَسنةٌ: حيثُ ذُكِرَ التضرُّعُ فيهما معًا، وهو التذلُّلُ والتَّمَسكُنُ والانكسارُ، وهو رُوحُ الذِّكرِ والدُّعاءِ، وخُصَّ الدُّعاءُ بالخُفيةِ؛ لِما لإخفاءِ الدُّعاءِ مِن حِكَمٍ وفوائدَ كثيرةٍ.

وخُصَّ الذِّكرُ بالخِيفةِ؛ لحاجةِ الذَّاكرِ إلى الخوفِ، فإنَّ الذِّكرَ يستلزِمُ المحبَّةَ ويُثمِّرُها ولا بدَّ، والمحبَّةُ ما لم تُقرَن بالخوفِ، فإنَّها لا تنفَعُ صاحِبَها، بل قد تضُرُّه، فتأمَّلْ أسرارَ القُرآنِ وحِكمتَه في اقترانِ الخِيفةِ بالذِّكرِ، والخُفيةِ بالدُّعاءِ، مع دلالَتِه على اقترانِ الخيفةِ بالدُّعاءِ، والخُفيةِ بالذِّكرِ أيضًا؛ فإنه قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ فلم يحتَجْ بعدها أن يقولَ: (خُفيَة)، وقال في الدُّعاءِ: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فلم يحتَجْ أن يقولَ في الأولى (ادعوا ربَّكم تضرُّعًا وخيفةً) فانتظمت كلُّ واحدةٍ مِن الآيتَينِ، للخُفيةِ والخِيفةِ والتَّضرُّعِ، أحسَنَ انتظامٍ، ودلَّت على ذلك أكملَ دَلالةٍ.

وذُكِرَ الطَّمعُ الذي هو الرَّجاءُ في آيةِ الدُّعاءِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ مَبنيٌّ عليه، فإنَّ الداعيَ ما لم يطمَعْ في سؤالِه ومَطلوبِه لم تتحَرَّكْ نفسُه لِطَلَبِه؛ إذ طلَبُ ما لا طمَعَ فيه ممتنِعٌ، وذُكِرَ الخَوفُ في آيةِ الذِّكرِ؛ لشدَّةِ حاجةِ الخائِفِ إليه، فذُكِرَ في كلِّ آيةٍ ما هو اللَّائقُ بها والأَولى بها، مِن الخوفِ والطَّمعِ، فتبارَكَ مَن أنزَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٢).

كلامَه؛ شِفاءً لِمَا في الصُّدور، وهُدًى ورَحمةً للمُؤمنينَ(١).

٣- ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾:

- قولُه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في إيقاعِ هذا النَّهيِ عقِبَ قولِه: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ تعريضٌ بأنَّ المُعتدِين مُفسِدون في الأرضِ، وإرْباءٌ للمُسلِمينَ عن مُشابهتِهم، أي: لا يَليقُ بكم- وأنتم المقرَّبون مِن ربِّكم، المأذونُ لكم بدُعائِه- أنْ تكونوا مِثلَ المُبعَدِين منه المُبْغَضين(٢).

- وقولُه: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ، والتَّقديرُ: وادْعُوه خوفًا وطمعًا وأحْسِنوا؛ بقرينةِ تَعقيبِه بقولِه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه التَّأكيدُ بقولِه: ﴿إِنَّ﴾، وهي لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبرِ، وقد سكَتَ عن ضدِّ المحسنين رِفقًا بالمؤمنين، وتعريضًا بأنَّهم لا يُظَنُّ بهم أنْ يُسيئوا فتَبْعُد الرَّحمةُ عنهم(٤).

- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى قُرْبِ اللهِ تعالى مِن المُحسنينَ، وأيضًا قُرْبِ رَحمتِه منهم، ووجهُ ذلك: هو الإخبارُ عن الرَّحمةِ- وهي مؤنَّثةٌ بالتاءِ- بِقَولِه (قريبٌ) وهو مذكرٌ، وهذا مِن بابِ الاستغناءِ بأحَدِ المذكُورَينِ عن الآخَرِ؛ لكونه تبَعًا له ومعنًى مِن معانيه،

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧٧).

فاستغنى بخَبَرِ المحذوفِ عن خبَرِ الموجودِ، وَسَوَّغَ ذلك ظهورُ المعنى؛ ففي حذف التاء هاهنا تنبيهٌ على هذه الفائدةِ العَظيمةِ الجليلةِ، ولو قال: إنَّ رحمةَ اللهِ قريبةٌ مِنَ المحسنينَ؛ لم يدُلَّ على قُربِه تعالى منهم؛ لأنَّ قُربَه تعالى أخَصُّ مِن قُربِ رَحمَتِه، والأعَمُّ لا يستلزِمُ الأخَصَّ، بخلافِ قُربِه؛ فإنَّه لَمَّا كان أخَصَّ استلزَمَ الأعَمَّ، وهو قُربُ رَحمَتِه[1].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨، ٣١).

الآيتان (٥٧-٥٨)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بُشْرًا﴾: أي: مُبَشِّراتٍ بالغَيثِ، والبُشرى تُطلَقُ على الإخْبارِ بِمَا يَسُرُّ، وما يُعطَى للمُبشِّرِ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجَمالٍ[1].

﴿أَقَلَّتْ﴾: أي: حمَلَتْ؛ يُقال: أقلَّ فلانٌ الشَّيْءَ واستقلَّ به: إذا أطاقَه وحمَلَه، وأقْلَلْت كذا: وجدتَه قليلَ المحمَلِ أي: خفيفًا، وأصلُ (قلل): يدلُّ على نَزارةِ الشَّيءِ، وعلى الانزعاجِ الذي هو خِلافُ الاستقرارِ[2].

﴿خَبُثَ﴾: أي: رَدُؤَت تُرْبَتُه، ومَلُحَتْ مَشَارِبُه، والخُبْثُ والخَبِيثُ: ما يُكرَهُ رداءةً وخَساسةً، مَحسوسًا كان أو معقولًا، وأصْل (خبث): يَدُلُّ على خِلافِ الطَّيِّبِ، وعلى الرَّدِيءِ[3].

﴿نَكِدًا﴾: قَلِيلًا عَسِرًا، أو عديمَ النَّفْعِ، والنَكِدُ: كُلُّ شيءٍ خَرَجَ إلى طالبِه بتعسُّرٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص:٩١، ٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩، ٤٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، =

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه هو الذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ بنُزُولِ المَطَرِ، الذي يرحَمُ به خَلقَه، حتَّى إذا حمَلَت تلك الرِّياحُ سحابًا مُثقَلًا بالماءِ، ساقَه اللهُ لبَلَدٍ مَيِّتٍ، فأخرجَ به مِن جَميعِ الثَّمراتِ، فكَما يُحيِي هذا البَلَدَ المَيِّتَ بما يُنْزِلُ فيها مِنَ الماءِ، فيُخرِجُ به مِنَ الثَّمراتِ، بعد مَوتِه وجُدُوبَتِه وقُحُوطِ أهلِه، كذلك يُخرِجُ المَوتى مِن قُبورِهم أحياءً بعد فَنائِهم؛ لعَلَّكم- أيُّها النَّاسُ- تَعتَبِرونَ.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ الأرضَ الطَّيِّبةَ يخرُجُ نباتُها- بإذنِ اللهِ- سريعًا حَسَنًا طَيِّبًا، والأرضُ الرَّديئةُ لا يخرُجُ نَباتُها إلَّا خُروجًا عَسِرًا بطيئًا، مسلوبَ النَّفعِ والخَيرِ والبَرَكةِ، كذلك يُبيِّنُ اللهُ الآياتِ لِقَومٍ يَشكرونَ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لِتعَلُّقِ الآيةِ بما قَبلَها عِدَّةُ أوجُهٍ:

الأول: لما ذكَر اللهُ تعالى دلائلَ الإلهيَّة، وكمالَ العلمِ والقُدرة مِن العالمِ العُلوي، وهو السمواتُ والشَّمس والقمرُ والنُّجوم- أتبَعه بذكرِ الدَّلائلِ مِن بعضِ أحوالِ العالمِ السُّفلي(١).

الثاني: لَمَّا أقامَ اللهُ تعالى الدَّلالةَ في الآيةِ الأولى- والتي هي قَولُه تعالى:

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٦).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾- على وُجودِ الإلهِ القادِرِ العالِمِ، الحكيمِ الرَّحيمِ؛ أقام الدَّلالةَ في هذه الآيةِ على صِحَّةِ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ والبَعثِ والقِيامةِ؛ ليحصُلَ بِمَعرفةِ هاتينِ الآيتينِ كُلُّ ما يُحتاجُ إليه في مَعرفةِ المَبدأِ والمَعادِ[١].

الثالث: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى رَحمَتَه، وأنَّها قَريبٌ مِنَ المُحسنينَ، ذَكَّرَنا بما نغفلُ عنه كثيرًا مِنَ التفكُّرِ والتأمُّلِ في أظهَرِ أنواعِ رَحْمَتِه: وهو إرسالُ الرِّياحِ، وما فيها مِن مَنافِعِ الخَلقِ، وإنزالِ المَطَرِ، الذي هو مَصدَرُ الرِّزقِ، وسَبَبُ حياةِ كُلِّ حَيٍّ في هذه الأرضِ، وما فيه مِنَ الدَّلالةِ على قُدرَتِه تعالى على البَعثِ، وما يستحِقُّه عليه مِنَ الحَمدِ والشُّكرِ، فقال[٢]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿بُشْرًا﴾ قراءاتٌ؛ منها:

١- ﴿بُشْرًا﴾ جمعُ بَشيرٍ، مِنَ البِشارةِ، فالرِّيحُ تُبَشِّرُ بالمطَرِ[٣].

٢- ﴿نُشُرًا﴾ جمع: ناشِرٍ، من النَّشْرِ، ضِد الطَّيِّ، وقيل: مِنَ النُّشُورِ بمعنى الإحياءِ، فجَعَلَ الرِّيحَ ناشِرةً للأرضِ، أي مُحْيِيةً لها؛ إذ تأتي بالمَطَرِ الذي يكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤١٣).

(٣) قرأ بها عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٦).

النَّباتُ به. وقيل (نُشُرًا) جمعُ: نشُورٍ، بمعنى: مَنشورٍ، أي: إنَّ الله تعالى أحيا الرِّيحَ؛ إذ بعثَها لتأتِيَ بين يَدَيْ رَحْمَتِه، فهي ريحٌ منشورةٌ، أي مُحْياةٌ[1].

٣- ﴿نَشْرًا﴾ قيل: النَّشْرُ صِنْفٌ مِنَ الرِّيَاحِ الطِّيبَةِ اللَّينةِ الَّتِي تُنشئُ السَّحَابَ، وقيل: مصدَرُ: نَشَرَت الرِّيحُ السَّحَابَ: نَشْرًا، فالمعنى: هو الذي يُرسِلُ الرِّياحَ ناشِرةً للسَّحابِ[2].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾.

أي: واللهُ الذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ بنُزُولِ المَطَرِ، الذي يرحَمُ اللهُ به خَلْقَه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾.

أي: حتَّى إذا حمَلَتْ هذه الرِّياحُ سَحابًا ثقيلةً، مِن كَثرةِ ما فيها مِنَ الماءِ؛ سُقْنا السَّحابَ إلى بَلَدٍ ذِي أرضٍ مَيِّتةٍ مُجدِبةٍ، لا نباتَ فيها، فأنزَلْنا فيها الماءَ يتقاطَرُ

(١) قرأ بها الحَرَميَّانِ وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٩).
ويُنظَرُ لِمَعنى هذه القراءة: ((الدر المصون)) (٥/ ٣٤٧) للسمين الحلبي، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٦٥).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) ابن زنجلة (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٢ - ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٠).

مِن ثُقُوبِ ذلك السَّحابِ، فأخرَجْنا بسبَبِه مِن كُلِّ أنواعِ الثَّمَراتِ(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: كما أحيَيْنا البلَدَ المَيِّتَ بالماءِ، فأخرَجْنا به مِن كُلِّ الثَّمَراتِ؛ كذلك نُخرِجُ المَوتى مِن قُبورِهم أحياءً؛ لعلَّكم بما بَيَّنَّاه لكم تعتبرونَ، فتَستَدِلُّونَ به على قدرةِ اللهِ على البَعثِ، فإحياءُ الأمواتِ كإحياءِ الأرضِ بالنَّباتِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤١٦ - ٤٢٤).
قال القرطبي: (يُقالُ: سُقْتُه لبلدِ كذا، وإلى بلدِ كذا. وقيلَ: لأجلِ بلدٍ مَيِّتٍ، فاللَّامُ لامُ أجلٍ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٣٠).
قال ابن عاشور: (البلدُ الواحدُ يخرجُ ثمراتُه المعتادةُ فيه، فإذا نظرتَ إلى ذلك البلدِ خاصةً فاجعلِ استغراقَ كلِّ الثمراتِ استغراقًا عرفيًّا، أي مِن كلِّ الثمراتِ المعروفةِ في ذلك البلدِ، وحرفُ (مِن) للتبعيضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٤٦)، ((الوسيط)) =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذه الآيةَ تضَمَّنَت تفصيلًا لمضمونِ جُملةِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾؛ إذ قد بيَّنَ فيها اختلافَ حالِ البَلَدِ الذي يُصيبُه ماءُ السَّحابِ، ودعا إلى هذا التَّفصيلِ أنَّه لَمَّا مَثَّلَ إخراجَ ثَمَراتِ الأرضِ بإخراجِ الموتى منها يومَ البَعثِ؛ تذكيرًا بذلك للمُؤمنينَ، وإبطالًا لإحالةِ البَعثِ عند المُشركينَ- مَثَّلَ هنا باختلافِ حالِ إخراجِ النَّباتِ مِنَ الأرضِ، اختلافَ حالِ النَّاسِ الأحياءِ في الانتفاعِ برحمةِ هُدى اللهِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾.

أي: والأرضُ الطَّيِّبةُ تُربَتُها، يَخرُجُ نَباتُها- إذا أنزَلَ اللهُ المطَرَ- سريعًا حَسنًا

= للواحدي (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٤).

طَيِّبًا، بإرادةِ اللهِ ومَشيئَتِه[1].

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾.

أي: والأرضُ الرَّديئةُ تُربَتُها، لا يخرُجُ نَباتُها- إذا أنزَلَ اللهُ المَطَرَ- إلَّا خُروجًا عَسِرًا بَطيئًا، مسلوبًا منه النَّفعُ والخَيرُ، لا بَرَكةَ فيه[2].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((إنَّ مَثَلَ ما بعثَني اللهُ به عزَّ وجلَّ مِنَ الهُدى والعِلمِ؛ كَمَثَلِ غَيثٍ أصاب أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنبَتَتِ الكَلَأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكان منها أجادِبُ[3] أمسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا منها وسَقَوْا ورَعَوْا، وأصابَ طائفةً منها أخرى، إنَّما هي قِيعانٌ[4]؛ لا تُمسِكُ ماءً، ولا تُنبِتُ كَلأً،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٦- ٢٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٢).

قال ابن عاشور: (﴿والذي خَبُثَ﴾: حَمَلَه جميعُ المُفَسِّرينَ على أنَّه وَصفٌ للبَلَدِ، أي: البَلَدُ الذي خَبُثَ، وهو مقابِلُ البلدِ الطَّيِّبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٥).

وروى ابنُ جريرٍ عن ابن عباس قال: (هذا مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ للمُؤمِنِ؛ يقول: هو طَيِّبٌ، وعَمَلُه طَيِّبٌ، كما البلدِ الطَّيِّبِ ثَمَرُه طيِّبٌ، ثم ضربَ مَثَلَ الكافِرِ، كالبَلدةِ السَّبخةِ المالحةِ التي لا تَخرُجُ منها البركةُ، فالكافِرُ هو الخبيثُ، وعَمَلُه خبيثٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٨).

وممَّن اختار ما ذهب إليه ابنُ عباس رضي الله عنهما: ابنُ جرير، وابنُ القيم، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٨)، ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٠٨-١٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣١-٤٣٢).

(٣) الأجادِبُ: الأرضُ الصُّلبةُ التي تُمسِكُ الماءَ؛ مِنَ الجَدْبِ، وهو القَحْطُ، سَمَّاها أجادِبَ؛ لأنَّها لِصَلابَتِها لا تُنبِتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣٤).

(٤) القِيعانُ: جمعُ قاعٍ، وهي الأرضُ المُستَوِيَةُ التي لا نَباتَ فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣٥).

فذلك مَثَلُ مَن فَقُه في دِينِ اللهِ، ونَفَعَه بما بعَثَني اللهُ به، فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ مَن لم يَرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يقبَلْ هُدى اللهِ الذي أُرسِلْتُ به))[1].

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾.

أي: ومِثلَما نوَّعْنا الآياتِ الدَّالَّةَ على إبطالِ الشِّركِ، وإثباتِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى وألوهِيَّتِه، وعظيمِ قُدرَتِه على البَعثِ والنُّشورِ، وغير ذلك، ننوِّعُ أيضًا الآياتِ في كُلِّ ما يَحتاجُ إليه النَّاسُ، فنأتي بآيةٍ بعد آيةٍ، في أساليبَ مُختلفةٍ، لقومٍ يَشكرونَ اللهَ تعالى على نِعَمِه، معترفينَ بها ومُقِرِّينَ، ولله تعالى طائعينَ، فهم الذين ينتفعونَ بتلك الآياتِ، ويتَّعظونَ بالحُجَجِ والدَّلالاتِ[2].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- الحِرصُ على التذكُّرِ والتفكُّرِ في آلاءِ اللهِ، والنَّظَرُ إليها بِعَينِ الاعتبارِ والاستدلالِ، لا بِعَينِ الغَفلةِ والإهمالِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

٢- قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ هذا مِثالٌ لِلقُلوبِ حينَ يَنزِلُ عليها الوَحيُ الذي هو مادَّةُ الحياةِ، كما أنَّ الغَيثَ مادَّةُ الحياةِ؛ فإنَّ القُلوبَ الطَّيبةَ حين يَجيئُها الوَحيُ، تَقبَلُه وتَعلَمُه، وتُنبِتُ بحَسَبِ طِيبِ أَصلِها، وحُسنِ

---

(١) رواه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٧- ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٩٢).

عُنصُرِها، وأمَّا القُلوبُ الخَبيثةُ التي لا خَيرَ فيها، فإذا جاءَها الوحيُ لم يجِدْ مَحَلًّا قابلًا، بل يجِدُها غافلةً مُعرِضةً، أو مُعارِضةً، فيكون كالمَطَرِ الذي يمُرُّ على السِّباخِ والرِّمالِ والصُّخورِ، فلا يؤثِّرُ فيها شيئًا، وهذا كَقَولِه تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا... ﴾ الآيات(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ ليس المقصودُ مُجَرَّدَ تفصيلِ أحوالِ الأرضِ بعد نُزولِ المَطَرِ؛ لأنَّ الغَرَضَ المسوقَ له الكلامُ يجمَعُ أمرينِ: العبرةَ بصُنعِ الله، والموعظةَ بما يماثِلُ أحوالَه، فكذلك يُخرِجُ اللهُ الموتى، وكذلك يَنتفِعُ برحمةِ الهُدى مَن خُلِقَت فِطرَتُه طيِّبةً قابلةً للهُدى، كالبلَدِ الطَّيِّبِ ينتَفِعُ بالمَطَرِ، ويُحرَمُ مِنَ الانتفاعِ بالهُدى مَن خُلِقَت فِطرَتُه خبيثةً، كالأرضِ الخبيثةِ لا تنتفِعُ بالمطرِ، فلا تُنبِتُ نباتًا نافعًا(٢).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ إجراءُ الرِّيحِ وانتشارُها من هاهنا وهاهنا أمامَ المَطَرِ مُبَشِّرةً به؛ مِن غرائِبِ صُنعِه عَزَّ وجَلَّ وعجائِبِه، ومن عظائِمِ نِعَمِه على خَلقِه، والمرادُ بالرَّحمةِ هنا: المطَرُ؛ لأنَّ المطَرَ رحمةُ اللهِ يرحَمُ بها عبادَه في الدُّنيا، فيكونونَ في جَدْبٍ وفي فَقرٍ، ومواشيهم على وشْكِ الهَلاكِ، فيُغيثُهم اللهُ بالمَطَرِ، فتَنْبُتُ زُرُوعُهم وثِمارُهم، وتَنعَمُ مواشِيهم؛ فتكثُرُ عندهم اللُّحومُ والأسمانُ والأزبادُ، وتتوفَّرُ عندهم الأشعارُ والأصوافُ والأوبارُ، يَنسِجونَ منها اللِّباسَ وغيرَه مِنَ الفُرُشِ والخِيامِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤١٥).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ ريحُ المَطَرِ تكون لَيِّنَةً؛ تجيءُ مرَّةً مِنَ الجَنوبِ، ومرَّةً مِنَ الشَّمالِ، وتتَفَرَّقُ في الجِهاتِ؛ حتى ينشَأَ بها السَّحابُ، ويتعَدَّدُ سحاباتٍ مبثوثةً؛ ومِن أجلِ ذلك عَبَّرَ عنها بصيغةِ الجَمعِ لتعَدُّدِ مَهابِّها[1].

٣- الإرسالُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ هو إرسالٌ كونيٌّ، ويقابلُه: الإرسالُ الدِّينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[2] [الفتح: ٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ جاءت تَسمِيَةُ المَطَرِ بالرَّحمةِ، على اعتبارِ أنَّ الرحمةَ أُضِيفَتْ إلى اللهِ تعالى هاهنا إضافةَ المفعولِ إلى فاعِلِه، لا إضافةَ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، فهذه رحمةٌ مخلوقةٌ مضافةٌ إليه إضافةَ المخلوقِ بالرَّحمةِ إلى الخالِقِ تعالى، وعليه فلا يمتنعُ الدعاءُ المشهورُ بين النَّاسِ قديمًا وحديثًا، وهو قولُ الدَّاعي: «اللَّهُمَّ اجمَعْنا في مُستَقَرِّ رَحْمَتِكَ» والمقصودُ به الجنَّةُ[3].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ لَمَّا دَلَّ على العَظَمةِ بالجَمعِ في كلمةِ ﴿سَحَابًا﴾ وحَقَّقَ الأمرَ بالوَصفِ في قوله ﴿ثِقَالًا﴾- أفرَدَ اللَّفظَ، فقال ﴿سُقْنَاهُ﴾-ولم يقل: سُقْناها- وذلك دَلالةٌ على غايةِ العَظَمةِ بسَوقِه مُجتَمِعًا؛ كأنَّه قِطعةٌ واحدةٌ، لا يفتَرِقُ جُزءٌ منه عن سائِرِه؛ إذ لو تفرَّقَ لاختَلَّ أمرُه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٨٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ دلالةٌ على إثباتِ الأسبابِ والطَّبائعِ؛ حيث أخبرَ سُبحانَه أنَّ الرِّياحَ تَحمِلُ السَّحابَ؛ فجعل هذا الجمادَ فاعلًا بطَبعِه[(١)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ نِسبةُ السَّوقِ إليه تعالى بنُونِ العَظَمةِ؛ التفاتًا لِمَا في المطَرِ مِن عَظيمِ المِنَّةِ؛ إذ هو مِن أجَلِّ النِّعَمِ وأحسَنِها أثَرًا[(٢)].

٨- اللَّامُ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ لامُ العِلَّةِ؛ أي: لأجلِ بَلَدٍ مَيِّتٍ، وفي هذه اللَّامِ دَلالةٌ على العِنايةِ الرَّبانيَّةِ بذلك البَلَدِ؛ فلذلك عُدِلَ عَن تعدِيَةِ ﴿سُقْنَاهُ﴾ بِحَرفِ (إلى)[(٣)]، وهذا على أحدِ القولينِ في (اللامِ).

٩- لَمَّا كانَ ذلك موضِعَ قُربِ رَحمةِ اللهِ، وإظهارِ إحسانِه، ذكَرَ أخَصَّ الأرض وهو البَلَدُ؛ حيث مُجتَمَعُ النَّاسِ، ومكانُ استِقرارِهم، فقال: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ﴾[(٤)].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ الاستغراقُ في قَولِه ﴿كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ استغراقٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ البَلَدَ المَيِّتَ ليس مُعَيَّنًا، بل يشمَلُ كُلَّ بلدٍ مَيِّتٍ يَنزِلُ عليه المَطَرُ، فيحصُلُ مِن جميعِ أفرادِ البلَدِ المَيِّتِ جميعُ الثَّمَراتِ، قد أخرَجَها اللهُ بواسطةِ الماءِ[(٥)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٣).

إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بيانُ أنَّ إخراجَ النَّباتِ بالماءِ هو ممَّا يُتذكَّرُ به إخراجُ الموتى من قُبُورِهم(١).

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بِمَشِيئَتِه وتَيسيرِه، وخُصَّ خروجُ نَباتِ الطَّيِّبِ بذلك، وإن كان كِلَا النَّباتَينِ يَخرُجُ بإذنِه تعالى؛ مدحًا وتشريفًا لنَباتِ الطَّيِّبِ، وتنبيهًا على كَثرَتِه وحُسْنِه وغزارةِ نَفعِه، وكذلك لِنِسبَةِ الإسنادِ الشَّريفةِ الطَّيِّبةِ إليه تعالى(٢).

١٣- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَنِ استقَرَّ فيه وصْفُ الخَبيثِ يَبعُدُ عنه النُّزوعُ إلى الخَيرِ(٣).

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ خَصَّ كَونَها آياتٍ بالقَومِ الشَّاكرينَ؛ لأنَّهم هم المُنتَفِعونَ بسَماعِ القُرآنِ(٤).

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ثمَّ قال في الآيةِ التي تليها: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾، فعَبَّر بالشُّكرِ في الآيةِ التي مَوضوعُها الاهتداءُ بالعِلمِ والعَمَلِ والإرشادِ، وعَبَّر بالتَّذكيرِ في الآيةِ التي موضوعُها الاعتبارُ والاستدلالُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٣).
وقال ابنُ عاشورٍ: (أشار إلى طِيبِ نباتِه بأنَّ خُروجَه بإذنِ رَبِّه، فأُريدَ بهذا الإذنِ إذنٌ خاصٌّ، هو إذنُ عنايةٍ وتَكريمٍ، وليس المرادُ إذنَ التَّقديرِ والتَّكوينِ؛ فإنَّ ذلك إذنٌ مَعروفٌ، لا يتعلَّقُ الغَرَضُ ببيانِه في مثلِ هذا المقام). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٢٨).

بَلاغةُ الآيتَين:

١- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ جملةٌ عُطِفتْ على جملةِ ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، وقد حصَلتِ المناسبةُ بينَ آخِرِ الجُمَلِ المعترَضةِ ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وبينَ الجملةِ المُعترَضِ بينها وبين ما عُطِفتْ عليه، بأنَّه لَمَّا ذَكَر قُرْبَ رحمتِه من المحسنِين ذَكَر بعضًا من رحمتِه العامَّة، وهو المطرُ[1].

- وفيه: تعريضٌ ببشارةِ المؤمنينَ بإغداقِ الغَيثِ عليهم، ونذارةِ المشركينَ بالقَحطِ والجُوعِ[2].

- وقولُه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ قُصِدَ منه تَقريعُ المشركينَ، وتفنيدُ إشراكِهم، ويَتْبعُه تذكيرُ المؤمنين، وإثارةُ اعتبارِهم؛ لأنَّ الموصولَ ﴿الَّذِي﴾ دلَّ على أنَّ الصِّلةَ ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ معلومةُ الانتسابِ للموصولِ؛ لأنَّ المشركين يَعلمون أنَّ للرِّياحِ مُصرِّفًا، وأنَّ للمطرِ مُنزِلًا، غير أنَّهم يَذْهَلون أو يَتَذاهلون عن تَعيينِ ذلك الفاعِلِ؛ ولذلك يَجيئون في الكلامِ بأفعالِ نُزولِ المطرِ مَبنيَّةً إلى المجهولِ غالبًا، فيقولون: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، فأخبر الله تعالى بأنَّ فاعِلَ تلك الأفعالِ هو اللهُ، وذلك بإسنادِ هذا الموصولِ إلى ضَميرِ الجلالةِ في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾؛ فالخبرُ مسوقٌ لتعيينِ صاحبِ هذه الصِّلة، فهو بمنزلةِ الجوابِ عن استفهامٍ مقصودٍ منه طلبُ التَّعيينِ[3].

- وفي قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٨١).

مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هُنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ﴾ على لفظِ المُستقْبَلِ (المضارِع)، وكذلك في سُورة الروم قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: ٤٨]، بَينما قال في سُورةِ الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨]، على لَفْظِ الماضِي، وكذلِك في سُورةِ فاطرٍ، حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩]؛ وذلك لأنَّ الآية التي هنا في سورةِ الأعرافِ جاءَ فيها ﴿يُرۡسِلُ﴾ بلفظِ المُستقْبَلِ (المضارِع)؛ لأنَّ قَبْلَها: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ * وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ [الأعراف: ٥٥- ٥٦]؛ فكان في ذلك بَعْثٌ على الدُّعاءِ والتضرُّع، وتعليقُ الخوفِ والطمعِ بما يكونُ منه مِن الرحمةِ وصنوفِ ما رَزَقَ اللهُ الخَلْقَ مِن النِّعم؛ فكان لفظُ المستقبَل أشْبهَ بموضِعِ الخوفِ والطَّمْعِ للدَّاعين، وأدْعى لهم إلى الدُّعاءِ(١).

وقيل: المناسبةُ أنَّ آيةَ الأعرافِ لَمَّا تَقدَّمها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فذَكَر سُبحانَه ما تَقرَّر وتَحصَّل مِن خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ممَّا لا تَكرُّرَ فيه، فلمَّا ذَكَر تعالى مِن هذه الأفعالِ العَظيمةِ ما ذَكَر مِمَّا لا يَتكرَّر، أعْقَبَ سبحانه بما يَتكرَّرُ ويَتوالَى مِن إنعامِه على الخليقةِ، ممَّا به قِوامُ أحوالِهم ومصالِحِ عَيشِهم؛ فقال سُبحانَه: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾، وأَمَرَ عِبادَه بالدُّعاءِ والتضرُّعِ إليه، وحذَّرَهم وذَكَّرهم باستصحابِ الخوفِ، ثم رجَّاهم بقُربِ رحمتِه ممَّن أحْسَن، ثم عادَ الكلامُ إلى التذكيرِ بجليلِ المتوالي مِن إنعامِه وعظيمِ ألْطافِه،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٨٩-٥٩٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٠).

فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ فانتظَمَ آخِرُ الكلامِ بأوَّلِه، وارتبَطَ عَودُه ببَدْئِه، وتناسَب أوضحَ تَناسُبٍ بما يُفْهِمُه الفِعلُ المضارِعُ مِن التَّكرُّرِ مِن حيثُ لا يمنع ذلك. وعلى هذا النحوِ جرَى الواردُ في سُورةِ الرُّوم في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [الروم: ٤٨]؛ فإنّه جاءَ قَبْلَه قولُه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٤٦]، ثمَّ اعترَض بقولِه تأنيسًا لرسولِه ووعدًا بنَصْرِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ثمَّ عادَ الكلامُ إلى إتمامِ ما تقدَّم ممَّا يُرسِلُ سبحانه به ولأجْلِه الرِّياحَ، فقال بصورةِ الاستئنافِ لأجْلِ آيةِ الاعتراضِ: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [الروم: ٤٨]، وأَوْردَ مِن النِّعمِ بها ما ذُكِر قبلُ، وجاءَ بلفظِ الاستقبالِ؛ لأنَّه مِن تَتْميم ما تَقدَّم ولِيناسبَه، ولو جاءَ بلفظ الماضِي لَمَا ناسَبَ[١].

أمَّا في سورةِ الفُرقانِ، فمجيءُ هذا اللَّفظِ فيها بلفظِ الماضي؛ فلأنَّ قبلَ الآيةِ قَوْلَه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٥ - ٤٧] ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨]؛ فلمَّا عدَّدَ أنواعَ ما أَنْعَم به، كان إرسالُ الرِّياحِ مِن جُملةِ عَدِّه مع ما تَقدَّمه، وأخبر منه عمَّا فَعَلَه وأَوْجَدَه؛ فكان الماضِي أليَقَ به[٢]. وأمَّا في سُورة فاطر، واختيارُ لفظِ الماضي فيها على المستقبَلِ؛ فلأنَّ أوَّلَها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨٢-١٨٤).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٠).

رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، بمعنى: فَطَر وجَعَل، وهُما بمعنى الماضِي لا غيرُ، ولم يقعْ بعدَ هذا ذِكرٌ مقصودٌ به الاعتبارُ مِن مخلوقاتِه سبحانَه، ممَّا نَصَبَه دالًّا عليه إلَّا قوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ [فاطر: ٩]؛ فأَتْبَعَه ما كان مِن جِنسِه ممَّا فعل، فكان اختيارُ لفظ الماضي هاهنا لموافقةِ اسمِ الفاعلِ معنًى ومُناسبتِه، ولا يُناسِبُه المستقبلُ(١).

- ومِن المُناسَبةِ الحَسَنةِ كذلِك أنَّه قال تعالى هنا في سورةِ الأعراف: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ فوصَف الرِّياحَ وأتْبَعَها بقولِه: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، وكذلك وقَعَ في سورةِ الفُرقان: قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨]، ولم يَرِدْ ذلك في سُورتَيِ الروم وفاطر؛ وذلك لمناسبةٍ حَسَنةٍ؛ فآيةُ الأعراف قد تقدَّمها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾، ثمَّ قال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وفي هذا كلِّه استلطافٌ، ونحوُه قولُه سبحانَه في سورة الفرقان: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، ثمَّ قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]؛ فهذا أعظمُ استلطافٍ؛ فناسَب الواردَ في السُّورتَينِ مِن هذا قولُه تعالى عقِبَ إرسالِ الرِّياح: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، ولَمَّا لم يَرِدْ في سورةِ الرُّوم ولا في سُورةِ فاطِر مثلُ هذا الاستلطافِ ولا بَعضُه، لم يُتْبَعْ ذِكرُ إرسالِ الرِّياحِ بما أُتْبِع في آيتَي الأعراف والفرقان؛ إذ لم يكُنْ ذلك ليُناسِب، فجاءَ كلٌّ على ما يُناسِب(٢).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩١-٥٩٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨٤-١٨٥).

٢- قولُه: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مُعترِضةٌ؛ استطرادًا للمَوعظةِ والاستدلالِ على تَقريبِ البَعثِ الذي يَستبْعِدونَه(١).

٣- قولُه: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾

- قولُه: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ المقصودُ مِن هذه الآيةِ التَّمثيلُ، وليس المقصودُ مُجرَّدَ تَفصيلِ أحوالِ الأرضِ بعدَ نُزولِ المطرِ، أي: كذلِكَ نُخرِجُ الموتَى، وكذلك يَنتفِعُ برَحمةِ الهُدَى مَن خُلقت فِطرتُه طيِّبةً قابلةً للهُدَى، كالبلدِ الطيِّبِ يَنتفِعُ بالمطرِ، ويُحرَم مِن الانتفاعِ بالهُدَى مَن خُلِقت فِطرتُه خَبيثةً، كالأرضِ الخبيثةِ لا تَنتفِعُ بالمطرِ؛ فلا تُنبِتُ نَباتًا نافعًا(٢).

- وفي هذِه الآيةِ احتِباكٌ؛ إذ لم يُذْكَرْ وصْفُ الطيِّبِ بعدَ نباتِ البَلدِ الطيِّبِ، ولم تُذكَرِ الأرضُ الخَبيثةُ قبلَ ذِكرِ النَّباتِ الخبيثِ؛ لدَلالةِ كِلَا الضِّدَّينِ على الآخَرِ، والتقديرُ: والبلدُ الطيِّبُ يخرُج نباتُه طيِّبًا بإذنِ ربِّه، والنباتُ الذي خَبُثَ يَخرُج نَكِدًا مِن البَلدِ الخَبيثِ، وهذا صُنعٌ دَقيقٌ في الكلامِ البَليغِ(٣).

- قولُه: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ (الطيِّبُ) وصفٌ على وزن (فَيْعِل)، وهي صيغةٌ تَدلُّ على قُوَّةِ الوصفِ في الموصوفِ(٤).

- قولُه: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ فيه حَصْرُ خُروجِ نَباتِ الذي خَبُثَ على حالةِ النكدِ؛ وهو مبالغةٌ شديدةٌ في كونِه لا يكونُ إلَّا هكذا، ولا يُمكِنُ أنْ يُوجَدَ إلَّا نَكِدًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٨٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٠).

الآيات (٥٩-٦٤)

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿الْمَلَأُ﴾: أي: أشرافُ النَّاسِ ووجُوهُهم؛ أو الجماعةُ يَجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤون العيونَ منظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجلالًا، ويقالُ: فلانٌ ملءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه، وأصلُ (ملأ) يدلُّ على المساواةِ، والكمالِ في الشَّيءِ[1].

﴿عَمِينَ﴾: أي: عَمِيَتْ قلوبُهم عَن مَعرفةِ اللهِ تعالى، والعَمُون جمعُ العَمِيِّ، وهو مَن قَلْبُه أعمَى، لا يعرِفُ الحقَّ، والعَمَى يُقالُ في افتِقادِ البَصَرِ والبَصيرةِ، وأصلُ (عمي): يدلُّ على السَّترِ والتَّغطِيةِ[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ نُوحًا إلى قَومِه؛ ليدعُوَهم إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه، فقال لهم: اعبُدُوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم مَعبودٌ يستحِقُّ العبادة

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٠).

غَيرُه، إنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومِ القِيامةِ، فقالَ الرُّؤَساءُ المُتكَبِّرونَ مِن قَومِه: إنَّا لَنَراكَ- يا نوحُ- في ضلالٍ واضِحٍ بَيِّنٍ.

قال: يا قومِ لسْتُ ضالًّا حين دَعَوتُكم إلى التَّوحيدِ، ونَهَيتُكم عن الشِّركِ، ولكنِّي مُرسَلٌ إليكم مِن رَبِّ العالَمينَ، أبَلِّغُكم ما أرسَلَني ربِّي به، وأنصَحُ لكم، وأعلَمُ بما أوحى إليَّ رَبِّي ما لا تعلمونَه أنتم، وهل عَجِبْتُم مُستبعِدِينَ أنْ يأتِيَكم تذكيرٌ مِن رَبِّكم على رَجُلٍ مِنكم؛ لأجْلِ أنْ يُخَوِّفَكم مِن عُقوبةِ رَبِّكم على كُفْرِكم، ولكي تَتَّقُوا، ولعلَّكم تُرحَمونَ إن أطَعْتُم اللهَ ورسولَه.

ثم أخبَرَ الله تعالى أنَّهم كَذَّبوا نُوحًا، فأنجاه، وأنجى كلَّ الذين حمَلَهم معه على السَّفينةِ، وأغرَقَ الَّذينَ كَذَّبوا بآياتِه؛ إنَّهم كانوا قومًا قد عَمُوا عن رؤيةِ الحَقِّ، ولم يُبصِرُوه بقُلوبِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى في تقريرِ المَبدَأِ والمَعادِ دلائِلَ ظاهرةً، وبيِّناتٍ قاهرةً، وبراهينَ باهرةً- أتبَعَها بذِكرِ قَصَصِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وفيه فوائِدُ:

أحَدُها: التَّنبيهُ على أنَّ إعراضَ النَّاسِ عَن قَبُولِ هذه الدَّلائِلِ والبَيِّناتِ، ليس مِن خَواصِّ قَومِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل هذه العادةُ المَذمومةُ كانت حاصِلةً في جميعِ الأُمَمِ السَّالفةِ، والمُصيبةُ إذا عَمَّتْ خَفَّتْ، فكان ذِكْرُ قَصَصِهم، وحِكايةُ إصرارِهم على الجَهلِ والعِنادِ؛ يفيدُ تَسليةَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتخفيفَ ذلك على قَلْبِه.

ثانيها: أنَّه تعالى يَحكِي في هذا القَصَصِ أنَّ عاقِبَةَ أمرِ أولئك المُنكِرينَ كان إلى الكُفْرِ واللَّعنِ في الدُّنيا، والخَسارةِ في الآخِرَةِ؛ وعاقِبَةَ أمْرِ المُحِقِّينَ إلى الدَّولةِ في الدُّنيا، والسَّعادةِ في الآخِرَةِ، وذلك يُقَوِّي قُلوبَ المُحِقِّينَ، ويَكسِرُ قُلوبَ المُبطِلينَ.

ثالثها: التَّنبيهُ على أنَّه تعالى وإن كان يُمهِلُ هؤلاءِ المُبطِلينَ، ولكِنَّه لا يُهمِلُهم، بل ينتَقِمُ منهم على أكمَلِ الوُجوهِ.

رابعها: بيانُ أنَّ هذه القصَصَ دالَّةٌ على نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان أمِّيًّا، وما طالَعَ كِتابًا ولا تتلمذَ على أستاذٍ، فإذا ذَكَرَ هذه القصصَ على هذا الوَجهِ مِن غير تحريفٍ ولا خَطَأٍ؛ دلَّ ذلك على أنَّه إنَّما عَرَفَها بالوَحيِ مِنَ اللهِ، وذلك يدُلُّ على صِحَّةِ نُبُوَّتِه[1].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: أُقسِمُ على أنَّنا بَعَثْنا نوحًا عليه السَّلامُ إلى قَومِه المُشركينَ؛ ليدعُوَهم إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وينهاهم عن عبادةِ غَيرِه، فقال لهم: يا قومِ اعبُدُوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يَستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، فلا تُشرِكوا به شيئًا[2].

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: إنِّي أخافُ عليكم- إنْ لم تُوَحِّدُوا اللهَ وأشرَكْتُم في عِبادَتِه غَيرَه، ومُتُّمْ على ذلك- عذابَ يومِ القِيامةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٣-٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥-٢٦].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤساءُ المُتكبِّرونَ عَنِ الحَقِّ مِنْ قَومِ نُوحٍ، حين دَعاهم إلى إفرادِ اللهِ بالعِبادةِ: إنَّا لَنَعتقِدُ أنَّك- يا نوحُ- في خطأٍ، وذَهابٍ عَنِ الحَقِّ بيِّنٍ وواضحٍ؛ حيث تدعُونا إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ ما كان يعبُدُ آباؤُنا[1].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: يا قومِ لستُ في حَيدةٍ عَن طَريقِ الحَقِّ حين دَعَوتُكم إلى توحيدِ اللهِ، ونَهَيتُكم عَنِ الشِّركِ به، ولكنِّي مُرسَلٌ إليكم مِنَ الذي خلَقَ كُلَّ شَيءٍ، وهو مالِكُه ومُدَبِّرُ شُؤونِه[2].

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نَفى نُوحٌ عليه السَّلامُ عَن نَفسِه العَيبَ الذي وَصَفوه به، ووصَفَ نَفسَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٣).

قال السَّمينُ الحلبي: (والملأُ: الأشرافُ، سُمُّوا بذلك لأنَّهم يَملَؤُون العُيونَ هَيبةً، أو المجالِسَ إذا حَضَروا، أو لأنَّهم مَليئونَ بما يُحتاجُ إليهم فيه. وقال الفرَّاء: الملأُ: الرِّجالُ، في كلِّ القُرآنِ، وكذلك القَومُ والرَّهطُ والنَّفَرُ). ((الدر المصون)) (٢/ ٥١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٤٣).

وقال ابنُ عاشور: (الرُّؤيةُ قلبيةٌ بمعنى العِلمِ، أي: إنَّا لَنُوقِنُ أنَّك في ضلالٍ مُبينٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٠).

بأشرَفِ الصِّفاتِ وأجَلِّها، وهو كَونُه رسولًا إلى الخَلقِ مِن ربِّ العالَمينَ- ذَكَرَ ما هو المقصودُ مِنَ الرِّسالةِ، وهو أمرانِ: الأول: تبليغُ الرِّسالةِ، والثاني: تقريرُ النَّصيحةِ[1]، فقال:

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾.

أي: وَظيفَتي أن أُوصِلَ إليكم الرِّسالةَ التي أرسَلَني اللهُ بها، وهي أمْرُكم بتوحيدِه، ونَهيُكم عن الشِّركِ به، ودَعْوَتُكم لِطاعَتِه، وأنا أبغي لكم بذلك الخَيرَ في الدُّنيا والآخِرةِ[2].

كما قال تعالى عن نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [نوح: ٢ - ٤].

وقال سبحانه حاكيًا قَولَ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

أي: وأعلَمُ- بما أَوْحى اللهُ إليَّ؛ مِن أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، كمَغفِرَتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٥، ٤٨٢).
قال أبو السعود: (وجَمَعَ ﴿رِسَالَاتِ﴾ لاختلافِ أوقاتِها، أو لتنَوُّعِ مَعانيها). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦).
وقال محمد رشيد رضا: (جَمعُ الرِّسالةِ باعتبارِ مُتعَلِّقِها وموضوعِها، وهو متعَدِّد: منه العقائِدُ، وأهمُّها التوحيدُ المُطلَق الذي بدأ به، ويتلُوه الإيمانُ باليَومِ الآخِرِ، وبالوحيِ والرِّسالةِ، وبالملائكةِ والجنَّةِ والنَّارِ، وغيرِ ذلك، ومنه الآدابُ والحِكَمُ، والمواعِظُ والأحكامُ العَمَليَّةُ من عباداتٍ ومُعاملاتٍ). ((تفسير المنار)) (٨/ ٤٣٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٧).

للتَّائبينَ، وشِدَّةِ بأسِه على المُشركينَ، وعَدَمِ تأخيرِ عذابِه عنهم إذا جاءَ، وغيرِ ذلك- ما لا تعلَمُونَه[1].

كما قال تعالى عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٢-٤].

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣)﴾.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾.

أي: هل تعَجَّبتُم مُستبعِدينَ أن يَجيئَكم تذكيرٌ مِنَ اللهِ، أنزَلَه على رَجُلٍ مِنَ البَشَرِ، تعرفونَ نَسَبَه وصِدقَه؟ أي: فكيفَ تَعجَبونَ مِمَّا لا ينبغي العَجَبُ منه؟! فليس بعَجَبٍ أن يُوحِيَ اللهُ إلى رجُلٍ منكم؛ رحمةً بكم، وإحسانًا إليكم[2].

كما قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤- ٢٥].

﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: لأجْلِ أن يُخَوِّفكم عِقابَ اللهِ على كُفرِكم به، ولكي تَجعَلوا بينكم وبينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٨).

عِقابِه وقايةً؛ بتوحيدِه، وامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهِيه، ولكي يرحَمَكم ربُّكم إن أطَعتُم اللهَ ورَسُولَه[1].

كما قال تعالى عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [نوح: ٢ - ٤].

وقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾.

أي: فتمادى قومُ نُوحٍ في تكذيبِ رَسُولِهم نوحٍ عليه السَّلامُ، فأنجيناه والَّذينَ حَمَلَهم معه في السَّفينةِ مِنَ المُؤمنينَ، ومِن كُلِّ ذَكَرٍ وأنثى مِن أصنافِ الحَيَواناتِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ* فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥].

وقال سبحانه: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٢ - ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٨ - ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٧-١٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٠-٧٦٧).

الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١١٩-١٢٢].

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

أي: وأغرَقْنا بالطُّوفانِ جَميعَ الكُفَّارِ، الذين كذَّبوا بآياتِنا(١).

كما قال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾.

أي: إنَّ الكُفَّارَ الذين كذَّبُوا نُوحًا، قد عَمُوا عَنِ الحَقِّ، فلم يُبصِرُوه بقُلوبِهم، ولم يَهْتدوا له(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١ - التَّوحيدُ أوَّلُ دَعوةِ الرُّسُلِ، وأوَّلُ مَنازِلِ الطَّريقِ، وأوَّلُ مَقامٍ يقومُ فيه السَّالِكُ إلى اللهِ تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وقال هودٌ لِقَومِه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٠).

غَيْرُهُ﴾، وقال صالحٌ لِقَومِه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وقال شُعَيبٌ لِقَومِه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1] [النحل: ٣٦].

٢- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ أنَّه ليس لهم إلهٌ ما يستحِقُّ أن يُوَجَّهَ إليه نَوعٌ ما مِن أنواعِ العبادةِ، لا لِرجاءِ النَّفعِ، أو دَفعِ الضَّررِ منه لِذاتِه، ولا لأجلِ تَوَسُّطِه وشفاعَتِه عند اللهِ تعالى، بل الإلهُ الحَقُّ الذي يستحِقُّ أن تتوجَّهَ القلوبُ إليه بالدُّعاءِ وغَيرِه، هو اللهُ وَحدَه- سُبحانَه وبِحَمدِه[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فائدةُ حَرفِ التَّرَجِّي التَّنبيهُ على أنَّ الرَّحمةَ مِنَ اللهِ تعالى مَحضُ تَفضلٍ، وأنَّ المُتَّقي ينبغي ألَّا يَعتمِدَ على تقواه، ولا يأمَنَ مِن عذابِ اللهِ[3].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يُفيدُ أنَّ أوَّلَ الواجِباتِ التَّوحيدُ، وما عدا هذا مِن الأقوالِ، فخَطَأٌ، كقَولِ مَن يَقولُ: أوَّلُ الفُروضِ النَّظَرُ، أو القَصْدُ إلى النَّظَرِ، أو المعرفةُ، أو الشَّكُّ الذي يُوجِبُ النَّظَرَ. فكُلُّ هذه الأقوالِ خَطأٌ[4].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ذكَرَ أوَّلًا قولَه:

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤١١)، وينظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٥٤).

﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾، وثانيًا قَولَه: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وذلك لمناسَبةٍ حَسنةٍ؛ فالثَّاني كالعِلَّةِ للأوَّلِ؛ لأنَّه إذا لم يكُنْ لهم إلهٌ غيرُه، كان كلُّ ما حصَلَ عندهم مِن وُجوهِ النَّفعِ والإحسانِ، والبِرِّ واللُّطفِ؛ حاصلًا مِنَ اللهِ، ونهايةُ الإنعامِ تُوجِبُ نهايةَ التَّعظيمِ(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وكذلك قولُه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، ناداهم بـ ﴿يَا قَوْمِ﴾ مُضافةً إليه؛ لتذكيرِهم بآصِرَةِ القَرابةِ، ليتحقَّقوا أنَّه ناصِحٌ، ومُريدٌ خَيرَهم، ومُشفِقٌ عليهم، وأنَّه لا يُريدُ بهم ولا لهم إلَّا الخَيرَ(٢). وقيل: عبَّرَ بذلك؛ لأنَّه لم يكنْ لهم اسْمٌ خاصٌّ مِن أسماءِ الأُمَمِ يُعرفونَ به، فالتَّعريفُ بالإضافةِ هنا؛ لأنَّها أخصَرُ طريقٍ في الدَّلالةِ على هذا المقصِدِ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إنذارٌ مُستأنَفٌ عُلِّلَ به الأمرُ بعبادةِ اللهِ تعالى وَحدَه، المُستلزِمُ لِترْكِ أدنى شوائِبِ الشِّرك بها، وبيانٌ لعقيدةِ البَعثِ والجزاءِ، وهي الرُّكنُ الثَّاني مِن أركانِ الإيمانِ بعد التَّسليمِ بالرِّسالةِ(٤).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ حَكَموا بضَلالِ نُوحٍ- حاشاه ذلك عليه السَّلامُ- وأكَّدوه بالتَّعبيرِ بالرُّؤيةِ؛ كأنَّ كُلَّ واحدٍ منهم يعتقِدُ ذلك اعتقادًا، هو في الثِّقةِ به كالرُّؤيةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٧).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٦).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فيه التَّنبيهُ بِقَولِه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على أنَّه تعالى هو المالِكُ لأمُورِهم، النَّاظِرُ لهم بالمَصلحةِ؛ فلأجْلِ ذلك وَجَّهَ إليهم رَسولًا يَدعُوهم إلى إفرادِه بالعِبادةِ(١).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، قال أوَّلًا: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ وهذا مبدأُ أمرِه معهم، وهو التَّبليغُ، ثمَّ قال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ أي أُخلِصُ لكم في تَبيينِ الرُّشدِ، والسَّلامةِ في العاقِبةِ، إذا عَبَدتُم اللهَ وَحدَه، ثمَّ قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن بَطشِه بكم، وهو مآلُ أمرِكم إذا لم تُفرِدُوه بالعِبادة؛ ففي هذا التَّرتيبِ أحسَنُ سياقٍ؛ إذ نبَّه على مبدإِ أمرِه ومُنتَهاه معهم(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ قولُه: ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: تَعرِفونَ نَسَبَه، فهو منكم نَسَبًا، وذلك لأنَّ كَونَه منهم يُزيلُ التَّعجُّبَ؛ لأنَّ المَرءَ بمَن هو مِن جِنسِه أعرَفُ، وبطهارةِ أحوالِه أعلَمُ، وبما يقتضي السُّكونَ إليه أبصَرُ(٣).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بَيَّنَ تعالى ما لأجلِه يُبعَثُ الرَّسولُ، فقال: ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾، وما لأجلِه يُنذِرُ، فقال: ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾، وما لأجلِه يتَّقونَ، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا الترتيبُ في غايةِ الحُسنِ؛ فإنَّ المَقصودَ مِنَ البَعثةِ الإنذارُ، والمقصودَ مِنَ الإنذارِ التَّقوى عن كلِّ ما لا ينبغي، والمقصودَ مِنَ التَّقوى الفوزُ بالرَّحمةِ في دارِ الآخِرةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- فيه ابتداءُ هذه القِصَّةَ بالقَسَمِ؛ لتأكيدِ خبَرِها لأوَّلِ مَن وُجِّهَ إليهم الخطابُ بها، وهم أهلُ مَكَّةَ ومَن وراءَهم مِنَ العَرَبِ؛ إذ كانوا يُنكِرونَ الرِّسالةَ والوَحيَ، على كونِهم أُمِّيِّينَ ليس عندهم مِن علومِ الأُمَم وقَصَصِ الرُّسُلِ شيءٌ، والقَسَمُ مَحذوفٌ دَلَّ عليه لامُه في بَدءِ الجُملةِ[1].

- وعطَفَ جُملةَ ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ على جُملةِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بالفاءِ؛ إشعارًا بأنَّ ذلك القولَ صدَر منه بفورِ إرسالِه[2]، ولم يَعطِفِ الجُملةَ المنفيَّةَ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ بفاءٍ ولا غيرها؛ لأنَّها مَبنيَّةٌ ومُثبتةٌ على اختصاصِ اللهِ تعالى بالعبادةِ، ورَفْضِ ما سِواه؛ فكانتْ في غايةِ الاتِّصالِ بقولِه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[3].

- قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتعليلِ العبادةِ المذكورةِ[4]، وقولُه: ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ يُفيدُ تأكيدَ النَّفيِ وعُمومَه[5].

- قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مستأنفةٌ ثانيةٌ بعدَ جُملة ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ لقَصدِ التخويفِ والإنذارِ[6].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ١٧٦).
(٤) يُنظر:يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٠).

- وفي هذه الآيةِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قال هنا في الأعرافِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ بغير واو، بَينما قال في سُورة هود والمؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [هود: ٢٥، المؤمنون: ٢٣] بواوٍ؛ وذلِك لأنَّ ما هنا مستأنفٌ لم يَتقدَّمه ذكرُ نبيٍّ، فلم يَكُن فيها ذِكرُ بَعثةِ نَبيٍّ، ومخالفةِ مَن كان له مِن عَدُوٍّ؛ فصارَ الكلامُ هنا كالأجنبيِّ مِن الأوَّل، فلم يُعطَفْ عليه، واستُؤنِفَ ابتداءُ الكلامِ؛ ليدلَّ على أنَّه في حُكمِ المنقطِعِ مِن الأوَّلِ. وأمَّا في سُورة هُود فقد تَقدَّمه ذِكرُ الأنبياء مرَّةً بعدَ أخرى؛ لأنَّ أوَّلها افتُتِح إلى أنْ انتَهى إلى قِصَّةِ نُوح بما هو احتجاجٌ على الكُفَّارِ بآياتِ اللهِ، التي أَظْهَرَها على أَيدي أنبيائِه وألْسِنتِهم، صلواتُ اللهِ عليهم، وتَوعُّدٌ لهم على كُفرِهم، وذِكْرُ قِصَّة مِن قَصَصِ مَن تَقدَّمهم مِنَ الأنبياءِ الذين جَحَد بآياتِهم أُممُهم؛ فعُطِفتْ هذه الآيةُ على ما قَبْلَها إذْ كانت مِثلَها. وما في سورة المؤمنون تَقدَّمه قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، ثم قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، ثمَّ انقطعتِ الآيُ إلى قولِه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، وكلُّها بالواو؛ فناسَبَ ذِكرها فيهما؛ فدَخلتْ واوُ العطفِ في قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلام في سورةِ المؤمنون للفْظَينِ المُتقدِّمَينِ، وهُما: ﴿وَلَقَدْ﴾ في رُؤوسِ الآيتَينِ، وللمَعْنى المقتضى مِن ذِكر الفُلْك الذي نَجَّى اللهُ عليه مَن جَعَله أصلَ الخَلْقِ، وبَذْرَ هذا النَّسلِ(١).

- وأيضًا مِن المُناسَبةِ الحَسنةِ أنَّه قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، بَينما قالَ في سُورة هود: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩٣-٥٩٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٠-١٢١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٥).

وفي سورة المؤمنون: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]؛ فاختلفتِ المَحكيَّاتُ والقِصَّةُ قِصَّةٌ واحدةٌ، وهذا الاختلافُ لا إشكالَ فيه؛ لأنَّه وقَعَ بحَسَبِ اختلافِ الأوقاتِ، وما يُناسِبُ كلَّ وقتٍ، وما يَجْري فيه ويُشاهَدُ مِن أقوالِ المَدْعوِّينَ وأحوالِهم؛ فإنَّ للأنبياءِ- صلواتُ اللهِ عليهم- مقاماتٍ مع أُممِهم، يُكرَّر فيها الإعذارُ والإنذارُ، ولا يكونُ دُعاؤُهم إلى الإيمانِ باللهِ في موقفٍ واحدٍ بلفظٍ واحدٍ لا يَتغيَّرُ عن حالِه، كذلك الجوابُ يَرِدُ مِن أقوامٍ يَكثُرُ عددُهم، ويَختلفُ كلامُهم ومقصدهم[1]، ومع هذا فإنَّ لهذا الاختلافِ مُناسبةً حسنةً؛ فإنَّه لَمَّا تَقدَّمَ ذِكرُ اليومِ الآخِرِ في غيرِ ما آيةٍ مِن أوَّل سورةِ الأعرافِ إلى ابتداءِ قِصَّة نوحٍ عليه السلام، وقد تَضمَّن ما ذُكِر مِن ذلك مِن أهوالِ ذلك اليومِ ما يَعظُم أَمْرُه كقولِه: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ...﴾ [الأعراف: ٨] الآية، وقوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ...﴾ [الأعراف: ٣٨] إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، ومَا جرَى مجرَى ذلك إلى قولِه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ...﴾ [الأعراف: ٥٠] الآية؛ فلمَّا تَقدَّم مِن أهوالِ هذا اليومِ ما لم يَتقدَّمْ في السُّورتَينِ الأُخريين؛ ناسَبه مِن مقالاتِ نُوحٍ لقومِه هنا في

---

(١) والقاعدةُ أنَّ (ما ورَد في القرآنِ حكايةً عن غيرِ أهلِ اللسانِ مِن القرونِ الخاليةِ، إنَّما هو مِن معروفِ معانيهم، وليس بحقيقةِ ألفاظِهم)، فالألفاظُ لها دلالاتٌ أصليَّة تحملُ أصلَ المعْنَى، وتنتهي إليها مقاصدُ المكلَّفين، وهذا النَّوعُ يشتركُ فيه جميعُ الألسنةِ، والنَّوعُ الثَّاني مِن الدَّلالات: الدلالاتُ التابعةُ، وهي التي يختصُّ بها لسانُ العربِ، وذلك بحسبِ المخبِر والمخبَر عنه والمخبَر به ونفسِ الإخبارِ، بالإضافةِ إلى نوعِ الأسلوبِ مِن الإيجازِ والإطنابِ وغيرِ ذلك، فمثلُ هذه التصرفاتِ التي يختلفُ معنَى الكلامِ الواحدِ بحسبِها ليست هي المقصودَ الأصليَّ، لكنَّها مِن مكمِّلاتِه ومتمِّماتِه، وبهذا النوعِ اختلَفَتِ العباراتُ وكثيرٌ مِن أقاصيصِ القرآنِ؛ لأنَّه يأتي مساقُ القصَّة في بعضِ السُّورِ على وجهٍ، وفي بعضِها على وجهٍ آخَرَ، وفي ثالثةٍ على وجهٍ ثالثٍ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٦٢).

سورة الأعراف: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وأمَّا في سورة هود؛ فقولُه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦] مُناسبٌ لقولِه تعالى على لِسان نبيِّنا عليه السلام لقومِه ممَّن خاطبَه وشافَهَه: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]، وقولِه: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨]، وقولِه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]؛ فتكرارُ ذِكرِ العذابِ يُناسِبُه ما خُتِمتْ به آيةُ دُعاءِ نُوحٍ عليه السلامِ مِن قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾(١).

٢- قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

- قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حكايةِ قولِه عليه السَّلامُ، كأنَّه قِيل: فماذا قالوا له عليه السَّلامُ في مُقابلةِ نُصْحه؟ فقيل: قال الرُّؤساءُ مِن قومِه والأشرافُ: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٢).

- وقدِ اقترَن جوابُهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ﴾ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ واللَّام)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم حقَّقوا وأكَّدوا اعتقادَهم أنَّ نُوحًا مُنغمِسٌ في الضَّلالةِ -حاشَاه ذلِك عليه السَّلامُ(٣).

- وظَرفيَّةُ ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ فيها تعبيرٌ عن تَمكُّنِ وصْفِ الضَّلالِ مِن نُوحٍ- حاشاهَ ذلك عليه السَّلامُ- حتى كأنَّه مُحيطٌ به مِن جوانبِه إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩٨-٦٠٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩١).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال هنا في سُورةِ الأعرافِ في قِصَّة نوح وهود: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ بلا فاءٍ، بَينما قاله في سورة هود والمؤمنون: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ [هود: ٢٧، المؤمنون: ٢٤] بالفاءِ؛ وذلِك لأنَّه في سُورةِ الأعرافِ خرَجَ مَخْرَجَ الابتداءِ، وإنْ تَضمَّن الجوابَ؛ لأنَّهم في جوابِهم صاروا كالمُبتدِئين له بالخِطابِ، غير سالِكينَ طَريقَ الجواب؛ لأنَّهم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، فكان كلامُهم له كالكلامِ الذي يَبتدِئُ به الإنسانُ صاحبَه؛ فلذلك جاءَ بغيرِ فاءٍ مُخالِفًا طريقةَ ما الكلامُ بَعْدَه مبنيٌّ بِناءَ الجوابِ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ بعدَ قوله: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وأمَّا في سُورة هود والمؤمنون فوقَعَ جوابًا لِمَا قبله؛ فناسبتْه الفاءُ؛ فالموضعانِ اللَّذانِ دَخلتْهما الفاءُ ما بَعدَهما ممَّا اقتضاه كلامُ النبيِّ ممَّا رآه الكفَّارُ جوابًا له؛ فكان بناءُ الجوابِ على الابتداءِ يُوجِبُ دُخولَ الفاءِ[1].

- وأيضًا في قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ مناسبةٌ حسنَةٌ، حيث عدَلَ عن وصْفِ الملأِ بالكُفرِ هنا في سورة الأعراف، بَينما في سُورتي هود والمؤمنونَ قال: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [هود: ٢٧، المؤمنون: ٢٤]، فوَصَفَ الملأَ بالكُفرِ في السُّورتين؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ رُسلَه عليهم السلام بالرِّفقِ في دُعاءِ الخلقِ، وحَضَّهم على التلطُّفِ بهم، والصَّبرِ على أذاهم، وعلى هذا جَرَى دُعاءُ الرُّسلِ أُممَهم في إخبارِ اللهِ تعالى عنهم، ثمَّ اختلفَ جوابُ الأممِ؛ فمِن مُسرعٍ في الإجابةِ بهدايةِ الله تعالى، ومِن مُبطِئٍ، ومِن مُصمِّم على ضلالِه، ثم لكلِّ نبيٍّ مقاماتٌ ومقالاتٌ بحسَبِ اختلافِ الموطنِ والمجتمعاتِ، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ يُناسُبه؛ فجرَى اختلافُ ما ورَدَ جوابًا

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٠١-٦٠٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٥).

بِنِسبةِ ما وقَعَ الجوابُ عليه؛ فقومُ نوحٍ ذُكِر في سُورتي هود والمؤمنون إساءةٌ في جوابِهم لنبيِّهم، وإطالةٌ في المرتكَبِ حِين قالوا في سُورة هود: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، فجَمَعوا في هذِه الإطالةِ تَوهُّمَهم مُساواتَه عليه السَّلام فيما رآه البادِي مِن البَشريةِ والصُّورةِ الإنسانيةِ إلى استرذالِ أتْباعِه، ومثلُ هذا قولُهم في آيةِ المؤمنون: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ إلى قولِهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤- ٢٥]؛ فلإساءتِهم فيما ذُكِر مِن الواردِ عنهم في الموضعينِ وُصِفوا بالكفرِ، فقال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [هود: ٢٧، المؤمنون: ٢٤]، وأمَّا آيةُ الأعراف فقولهم فيها: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ليس كجوابِهم في السُّورتَينِ الأُخريين لا مِن جِهةِ الطولِ، ولا مِن جِهةِ المعنى؛ فلمَّا لم يَكُنْ في الواردِ في سورةِ الأعرافِ مِن الإطالةِ في العِبارةِ والإبلاغِ فيما قَصَدوه مِن المعنى مِثلُ ما في السُّورتَينِ، ناسبَه الإيجازُ[1].

٣- قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

- قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ النِّداءُ في جوابِه إيَّاهم؛ للاهتمامِ بالخبرِ[2].

- ولم يَرِدِ النَّفيُ مِن نوحٍ عليه السَّلامُ على لَفْظِ ما قالَه قومُه قبل ذلك: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، فلم يأتِ التركيبُ: (لستُ في ضَلالٍ مبين)،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٩٤-١٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩١).

بل جاءَ في غايةِ الحُسنِ مِن نفيِ أن يَلتبسَ به ويختلطَ ضلالةٌ ما واحدةٌ، وإذا انتفَى عنه فرْدٌ واحدٌ مِن أفرادِ الضَّلالةِ فانتفاءُ غيرِه أنْفَى وأنْفَى، أي: ليس بي نوعٌ مِن أنواعِ الضَّلالةِ البتَّةَ؛ فكان هذا أبلغَ في عُمومِ السَّلبِ، فـ(الضَّلالة) في قوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أخصُّ من الضَّلالِ؛ فكانتْ أبلغَ في نفْيِ الضَّلالِ عن نفْسِه؛ كأنَّه قال: ليس بي شيءٌ مِن الضلالِ. وقيل: الضلالة أَدْنَى مِن الضَّلالِ وأقلُّ؛ لأنَّها لا تُطلَقُ إلَّا على الفَعلةِ الواحدةِ منه، وأمَّا الضلالُ فيُطلَقُ على القليلِ والكثيرِ مِن جِنسِه، ونَفْيُ الأدْنَى أبلغُ مِن نفْيِ الأعْلَى، لا مِن حيثُ كونُه أخصَّ، وهو مِن بابِ التنبيهِ بالأدْنَى على الأعْلَى[(١)]. وقيل: (الضَّلالة) مصدرٌ مِثلُ (الضلال)، وتأنيثُه لفظيٌّ محضٌ، والتَّخالُفُ بَينهما تفنُّنٌ في العِبارة؛ فلمَّا تَقدَّم لفظ (ضَلال) اسْتُحسِنَ أنْ يُعادَ بلفْظٍ يُغايرُه في السورةِ؛ دفعًا لثِقل الإعادةِ[(٢)].

- وأفادَ تَنكيرُ ﴿ضَلَالَةٌ﴾ في سِياقِ النَّفيِ: المبالغةَ في النَّفيِ[(٣)].

- والباءُ في قَولِه: ﴿بِي﴾ للمُصاحَبةِ أو المُلابسةِ، وهي تُناقِضُ معنى الظَّرفيَّةِ مِن قَولِهم في نُوحٍ عليه السَّلامُ: إنَّه ﴿فِي ضَلَالٍ﴾، فنَفَى أن يكونَ للضَّلالِ مُتَلبَّسٌ به[(٤)]، وفي تَقديمِ هذا الظرفِ ﴿بِي﴾ تعريضٌ بضلالِهم[(٥)].

- قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقَع استدراكًا للانتفاءِ عن الضَّلالةِ؛ فكونُه رسولًا مِن الله، مُبلِّغًا رِسالاتِه، ناصحًا، في معنى كونِه على

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٢-٨٣)، ((العذب النمير)) (٣/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٨-٤٢٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٨).

الصِّراطِ المستقيم؛ فصحَّ لذلك أنْ يكونَ استدراكًا للانتفاءِ عن الضلالةِ(١)، وهو استدراكٌ ممَّا قَبْلَه باعتِبارِ ما يَستلزِمه مِن كونِه في أقْصَى مَراتبِ الهداية؛ فإنَّ رَسالةَ ربِّ العالَمِين مستلزِمةٌ لهذا لا مَحالةَ، كأنَّه قيل: ليس بي شَيءٌ مِن الضَّلالِ، ولكنِّي في الغايةِ القُصْوى من الهِدايةِ(٢)، وهذا لرفْعِ مَا تَوهَّموه مِن أنَّه في ضلالٍ حيثُ خالَفَ دِينَهم، أي: هو في حالِ رِسالةٍ عن اللهِ تعالى، مع ما تَقْتضِي الرِّسالةُ من التبليغِ والنُّصحِ والإخبارِ بما لا يَعلمونه، وذلك ما حَسِبوه ضلالًا(٣).

- واختيارُ طريقِ الإضافةِ في تعريفِ المُرسَل بقوله: ﴿رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به مِن تَفخيمِ المضافِ، ومِن وجوبِ طاعتِه على جميعِ النَّاسِ؛ تعريضًا بقومِه إذ عَصَوْه(٤)، و﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لابتداءِ الغايةِ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقَع صِفةً لـ ﴿رسولٌ﴾، وهي مُؤكِّدةٌ لِمَا يُفيدُه التنوينُ مِن الفخامةِ الذَّاتيةِ بالفخامةِ الإضافيةِ، أيْ: رسولٌ وأيُّ رَسولٍ كائنٌ مِن ربِّ العالَمِين(٥).

٤- قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ استئنافٌ على سَبيلِ البَيانِ لكونِه رسولًا، وهو مَسوقٌ لتَقريرِ رِسالتِه، وتفصيلِ أَحكامِها وأحوالِها، ويجوزُ أن تكونَ هذه الجملةُ في موضِع الصِّفة لـ﴿رَسُول﴾(٦)، والمقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٥- ٢٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٢- ١٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦، ٢٣٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦).
=

منها إفادةُ التجدُّد، وأنَّه غيرُ تاركٍ التبليغَ مِن أجْلِ تكذيبِهم؛ تأييسًا لهم مِن متابعتِه إيَّاهم، ولولا هذا المقصدُ لكان معنى هذِه الجملةِ حاصلًا مِن معنى قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾[1].

- وقَولُه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ مِنَ التَّبليغ، وهي بالتَّشديدِ؛ لإفادةِ مَعنى التَّدريجِ والتَّكرارِ، وذلك يناسِبُ قَولَه: ﴿رِسَالَاتِ﴾ بالجَمعِ؛ باعتبارِ مُتعَلقِها وموضوعِها[2].

- قوله: ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾: جَمَع ﴿رِسَالَات﴾؛ لاختِلافِ أوقاتِها، أو لتنوُّعِ مَعانِيها مِن الأوامرِ والنَّواهِي، والمواعظِ والزَّواجِر، والبَشائِر والنَّذائر، أو لأنَّ كلَّ تَبليغٍ يَتضمَّنُ رسالةً بما بلَّغَه[3].

- قولُه: ﴿رَبِّي﴾ فيه تَخصيصُ رُبوبيَّته تعالى بِه عليه الصَّلاةِ والسَّلام بعدَ بَيانِ عمومِها للعَالَمين بقوله: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ للإشعارِ لعِلَّة الحُكم الذي هو تَبليغُ رِسالتِه تعالى إليهم؛ فإنَّ رُبوبيَّته تعالى له عليه الصَّلاة والسلامُ مِن موجباتِ امتثالِه بأمْره تعالى بتبليغِ رسالتِه تعالى إليهم[4].

- ووَجهُ العُدولِ عَنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ- حيثُ قال: ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾، ولم يَقُل: (رِسَالاتِه)- هو ما تُؤذِنُ به إضافةُ الرَّبِّ إلى ضَميرِ المُتكَلِّمِ مِن لُزومِ طاعَتِه، وأنَّه لا يَسَعُه إلَّا تبليغُ ما أمَرَه بتبليغِه، وإن كَرِهَ قَومَه[5].

= وقال ابنُ عاشور: (ثمَّ إنِ اعتُبِرت جملة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ صِفةً، يَكُنِ العُدولُ عن ضميرِ الغَيبةِ إلى ضميرِ التكلُّم في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ وقولِه: ﴿رَبِّي﴾ الْتِفاتًا، باعتبارِ كونِ الموصوفِ خبرًا عن ضَميرِ المتكلِّم، وإنِ اعتُبِرت استئنافًا؛ فلا الْتِفاتَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤).

- قولُه: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ في الإتيانِ بالمضارعِ دَلالةٌ على تَجديدِ النُّصحِ لهم، وأنَّه غيرُ تاركِه مِن أجْلِ كراهيتِهم أو بَذاءتِهم[1].

- الأصلُ في معنى (يَنصَحُ) أنْ يَتعَدَّى إلى المفعولِ بنَفْسِه، وفي زِيادة اللَّامِ هنا- حيثُ قال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ ولم يقُلْ: (وأَنْصَحُكم)- مبالغةٌ ودلالةٌ على إمحاضِ النَّصيحةِ، وأنَّها وقعَتْ خالصةً للمنصوحِ له، مقصودًا بها جانبُه لا غيرُ[2].

- قَولُه تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ جاءَ بعدَ قولِه تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾؛ جمعًا لِمَعانٍ كثيرةٍ ممَّا تتضَمَّنُه الرِّسالةُ، وتأييدًا لِثَباتِه على دَوامِ التَّبليغِ والنُّصحِ لهم، والاستخفافِ بكراهِيَتِهم وأذاهم؛ لأنَّه يعلَمُ ما لا يَعلمونَه مِمَّا يَحمِلُه على الاسترسالِ في عَمَلِه ذلك؛ فجاءَ بهذا الكلامِ الجامِعِ، ويَتضمَّنُ هذا الإجمالُ البديعُ أيضًا تهديدًا للمُخالِفين من قومِه بحلولِ عَذابٍ بهم في العاجِلِ والآجِلِ، وتَنبيهًا للتأمُّلِ فيما أتاهم به، وفتحًا لبصائرِهم أن تتطلَّبَ العلمَ بما لم يكونوا يَعلمونه، وكلُّ ذلك شأنُه أنْ يَبعثَهم على تصديقِه، وقَبولِ ما جاءَهم به[3].

٥- **قَولُه تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** عبَّر بالاستفهامِ دُونَ أن يقولَ: (لا عَجَبَ)؛ إشارةً إلى أنَّ احتمالَ وُقوعِ ذلك منهم ممَّا يتردَّدُ فيه ظَنُّ العاقِلِ بالعُقلاءِ، فقَولُه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ بمنزلةِ المَنعِ لقضيَّةِ قَولِهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ لأنَّ قَولَهم ذلك بمنزلةِ مُقَدِّمةِ دليلٍ على بُطلانِ ما يدعوهم إليه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤- ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٩٥).

٦- قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

- قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيه تَقديمُ الإخبارِ بالإنجاءِ على الإخبارِ بالإغراقِ، مع أنَّ مُقتضى مقامِ العِبرةِ تَقديمُ الإخبارِ بإغراقِ المُنكرينَ؛ وذلك للمسارعةِ إلى الإخبارِ به، والإيذانِ بسَبْقِ الرحمةِ، وللاهتمامِ بإنجاءِ المُؤمنينَ، وتعجيلًا لِمَسرَّةِ السَّامعينَ مِنَ المُؤمنينَ، بأنَّ عادةَ اللهِ إذا أهلَكَ المشركينَ أن يُنَجِّيَ الرسولَ والمُؤمنينَ؛ فذلك التقديمُ يفيدُ التَّعريضَ بالنِّذارة، وإلَّا فإنَّ الإغراقَ وقَعَ قبل الإنجاءِ؛ إذ لا يظهَرُ تحقُّقُ إنجاءِ نُوحٍ ومَن معه إلَّا بعد حُصولِ العَذابِ لِمَن لم يؤمِنوا به[1].

- وقوله: ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ مُتعلق بمعنى قولِه: ﴿مَعَهُ﴾؛ لأنَّ تَقديرَه: استقرُّوا معه في الفُلك، بهذا التعليقِ عُلِم أنَّ اللهَ تعالى أمَرَه أنْ يَحمِلَ في الفُلكِ مَعشرًا، وأنَّهم كانوا مُصدِّقين له؛ فكان هذا التعليقُ إيجازًا بديعًا[2].

- والإتيانُ بالموصولِ (الَّذين) في قَولِه: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ دونَ أن يقولَ: (وأغْرَقْنا سائرَهم)، أو (بقِيَّتَهم)؛ لِمَا تُؤذِن به الصِّلةُ من وجهِ تَعليلِ الخبرِ في قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾، أي: أغرقْناهم لأجْلِ تكذيبِهم[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، وفي سُورة يونس قال: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ [يونس: ٧٣]؛ فاختلف نقْلُ الفِعل بالهمزةِ في الأُولى، وفي الثانية بالتَّضعيف، وفي الأولى قال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، وفي الثانية: ﴿وَمَنْ مَعَهُ﴾، فاختَلَف الموصولُ أيضًا؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٧-١٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٨).

لأنَّ قولَه: ﴿أَنْجَيْنا﴾ أَصلٌ في هذا البابِ؛ لأنْ (أفعلت) في باب النَّقل أصلٌ لـ(فعلت) وهو أكثرُ؛ فآية الأعراف جاءتْ على الأصلِ الأكثرِ، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ هو الأصلُ، و(مَنْ) تجيء بمعناها، وتكونانِ مشتركتَينِ في مَعانٍ، و(الذين) خالصةٌ للخبر، مخصوصةٌ بالصِّلة؛ فاستُعمِلَ الأصلُ في اللَّفظين، وهما: (أَنجينا) و(الذين)، ولَمَّا كُرِّرَ هذا الذِّكرُ كان العدولُ إلى اللَّفظين الآخَرين اللَّذين هما معناهما، وهما: (نَجَّينا) و(مَن) أشبهَ بطريقةِ الفصحاءِ وعادةِ البلغاءِ[1]. وقيل: لأنَّ (أَنْجينا) و(نجَّينا) للتعدِّي، لكنَّ التَّشديدَ يدلُّ على الكثرةِ والمبالَغة؛ فكان في يُونُس ﴿وَمَنْ مَعَهُ﴾ ولَفْظُ (مَن) يقعُ على كثرةٍ ما يَقعُ عليه (الذين)؛ لأنَّ (مَن) يَصلُح للواحِدِ والتثنيةِ والجمعِ، والمُذكَّر والمؤنَّث، بخِلاف (الذين) فإنَّه لجمْع المذكَّر فحسبُ؛ فكان التَّشديدُ مع (مَن) أَليقَ[2].

– قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ حرفُ (إنَّ) هنا لا يُقصَدُ به ردُّ الشكِّ والتردُّد؛ إذ لا شكَّ فيه، وإنَّما المقصودُ مِن الحرفِ الدَّلالةُ على الاهتمامِ بالخبرِ، ومِن شأن (إنَّ) إذا جاءت للاهتمامِ أنْ تَقومَ مقامَ فاء التَّفريعِ[3].

– وعبَّر عنهم بالصِّفةِ المُشَبَّهةِ ﴿عَمِينَ﴾؛ لِدَلالَتِها على ثُبوتِ الصِّفةِ، وتمكُّنِها بأن تكون سَجِيَّةً[4].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٠٧-٦١٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٨).

الآيات (٦٥-٧٢)

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿خُلَفَاءَ﴾: جَمعُ خَليفةٍ، والخِلافةُ هي النِّيابةُ عَنِ الغَيرِ؛ يُقال: خَلَف فلانٌ فلانًا: قام بالأمرِ عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأصل (خلف): مجيءُ شَيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مَقامَه[1].

﴿بَسْطَةً﴾: أي: سَعَةً، مِن بسطْتُ الشَّيءَ: إذا كان مجموعًا، ففَتَحْتَه ووسَّعْتَه، والبَسطةُ في كلِّ شيءٍ السَّعةُ؛ يقال: هو بسيطُ الجِسمِ والباعِ والعِلمِ، وأصل (بسط): امتدادُ الشَّيءِ[2].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٢٤٧).

﴿آلَاءَ﴾: أي: نِعَم، واحِدُها أَلًى وإِلًى[١].

﴿وَنَذَرَ﴾: أي: نترُكَ ونَدَعَ، مِن وَذِرَ يَذَرُ؛ يُقال: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه لقلَّةِ اعتدادِه به[٢].

﴿وَقَعَ﴾: أي: وجَبَ، من الوُقوعِ وهو ثبوتُ الشَّيءِ وسُقوطُه، وأكثرُ ما جاءَ في القُرآن مِن لفظ (وقع) جاء في العذابِ الشَّديدِ[٣].

﴿رِجْسٌ﴾: أي: عَذَابٌ وسَخَطٌ، ويُطلَقُ الرِّجسُ على كلِّ ما استُقذِرَ مِنَ العمَلِ، وعلى العمَلِ الْمُؤَدِّي إلى العَذابِ والعِقابِ والغضَبِ، وأصل (رجس): النَّتن، ويَدُلُّ أيضًا على اختلاطٍ، ومنه القَذَرُ؛ لأنه لَطْخٌ وخَلْطٌ[٤].

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ﴾: أي: أهلَكْناهم عَن آخِرِهم، وقطْعُ دابرِ الإنسانِ: هو إفناءُ نَوعِه، ، ودابرُ القومِ آخرُهم، وأصل (قطع): الفَصلُ، وَأصل (دبر): آخِرُ الشَّيْءِ وَخَلْفُهُ، خِلَافُ قُبُلِه[٥].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى قبيلةِ عادٍ أخاهم في النَّسَبِ هُودًا؛ لِيدعُوَهم إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٨٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧، ٦٧٨).

عِبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سواه، فقال لهم: اعبُدُوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، أفلَا تتَّقونَ رَبَّكم، وتَخافونَ عَذابَه وسَخَطَه عليكم؟ فقال الرُّؤساءُ المُتكبِّرونَ مِن قَومِه: إنَّا لَنَراك في حُمقٍ وخِفَّةِ عَقلٍ، وإنَّا لنَظُنُّك مِنَ الكاذبينَ.

فقال لهم هودٌ: يا قومِ، ليس بي حُمقٌ ولا خِفَّةُ عَقلٍ، ولكِنِّي مُرسَلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ، أُبَلِّغُكم ما أرسَلَني ربِّي به، وأنا لكم ناصِحٌ أمينٌ، وهل عَجِبْتُم مُستبعِدينَ أن يأتِيَكم تذكيرٌ مِن رَبِّكم على رَجُلٍ منكم؛ لأجْلِ أن يُخَوِّفَكم مِن عُقوبةِ رَبِّكم على كُفرِكم؟ واذكروا نِعمةَ اللهِ عليكم؛ إذ جَعَلَكم تخلُفونَ قومَ نُوحٍ بعد أن أهلَكَهم، وزادَكم في الطُّولِ وقُوَّةِ الأبدانِ، فاذكُروا نِعَمَ اللهِ عليكم؛ لعَلَّكم تَفوزونَ وتَسعَدونَ.

قالوا: أجِئتَنا لنَعبُدَ اللهَ وَحدَه، ونترُكَ ما كان يعبُدُه آباؤُنا؛ فأْتِنا يا هودُ بما تَعِدُنا مِنَ العذابِ إن كُنتَ صادِقًا. فقال لهم هُودٌ: قد وقَعَ عليكم مِن ربِّكم عذابٌ وغَضَبٌ لا محالةَ، أتُخاصِمُونَني في أصنامٍ سَمَّيتُموها أنتم وآباؤُكم، ما جعَلَ اللهُ لكم مِن حُجَّةٍ على عِبادَتِكم لها؟ فانتظِروا ما هو واقِعٌ بكم مِنَ العذابِ، وأنا معكم مُنتَظِرٌ.

ثم أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه أنجاه ومَن مَعه مِنَ المؤمنينَ برحمةٍ منه عَزَّ وجَلَّ، وأهلَكَ بالعذابِ الشَّديدِ الذين كذَّبوا بآياتِه، ولم يكونوا مُؤمنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

أي: ولقَدْ أرسَلْنا إلى قبيلةِ عادٍ أخاهم في النَّسَبِ هُودًا عليه السَّلامُ؛ لِيَدعُوَهم

إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وينهاهُم عن عبادةِ غَيرِه، فقال لهم: يا قومِ، اعبُدُوا اللهَ وَحدَه ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه، فلا تُشرِكوا به شيئًا[١].

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

أي: أفلا تتَّقونَ رَبَّكم، فتحذَرونه وتخافون سَخَطَه وعقابَه، إنْ أقمتم على ما أنتم عليه مِن عبادةِ غَيرِه[٢].

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦)﴾.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤساءُ، الكَفَرةُ المُتكَبِّرونَ عَنِ الحَقِّ مِن قَومِ هُودٍ حين دعاهم إلى إفرادِ اللهِ بالعبادةِ: إنَّا لنعتقِدُ أنَّك- يا هودُ- في ضلالٍ وحُمقٍ وخِفَّةِ عَقلٍ؛ حيث تدعُونا إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وتركِ ما كان يعبُدُ آباؤُنا[٣].

﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

أي: وإنَّا لنظُنُّ[٤] أنَّك- يا هودُ- مِنَ الكاذبينَ في ادِّعائِك النُّبوَّةَ، ودَعوَتِك لنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٣).
قال ابن عاشور: (الأخُ هنا مستعمَلٌ في مُطلَقِ القَريبِ، وقد كان هودٌ مِن بني عادٍ.. فالمرادُ أنَّ هُودًا كان مِن ذوي نَسَبِ قَومِه عادٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٠).

(٤) قال ابن عطية: (وقولهم: ﴿لَنَظُنُّكَ﴾ هو ظَنٌّ على بابِه؛ لأنَّهم لم يكن عندهم إلَّا ظُنونٌ =

إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه[١].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: يا قومِ، ليس بي حُمقٌ ولا خِفَّةُ عَقلٍ، حين دعوتُكم إلى توحيدِ اللهِ، ونَهَيتُكم عن الشِّركِ به، ولكِنِّي مُرسَلٌ إليكم مِنَ الذي خلَقَ كُلَّ شَيءٍ، وهو مالِكُه ومُدَبِّرُ شُؤونِه[٢].

﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾.

أي: وظيفتي أنْ أُوصِلَ إليكم الرِّسالةَ التي أرسَلَني اللهُ بها، وهي أمْرُكم بتوحيدِه، ونَهيُكم عنِ الشِّركِ به، ودَعْوتُكم لطاعَتِه، وأنا أبغِي لكم بذلك الخيرَ في الدُّنيا والآخرةِ، فلا أغُشُّكم ولا أخدَعُكم، أمينٌ على ما ائتَمَنَني اللهُ عليه مِنَ الرِّسالةِ، فأبلِّغُها لكم كما أُمِرْتُ[٣].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ هُودٍ عليه السَّلامُ: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥١-٥٢].

= وتَخَرُّصٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤١٧).

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ المرادَ بالظنِّ هاهنا اليقينُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٤ - ٢٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٢).

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾.

أي: هل تعجَّبتم مستبعدينَ أن يَجِيئكم تذكيرٌ مِنَ اللهِ، أنزَلَه على رجُلٍ مِنَ البَشَرِ، تَعرفونَ نَسَبَه وصِدقَه؛ لأجلِ أن يُخَوِّفكم عقابَ اللهِ على كُفرِكم به؟ أي: فكيفَ تعجَبونَ مِمَّا لا ينبغي العَجَبُ منه؟! فليس بعجَبٍ أن يُوحِيَ اللهُ إلى رجلٍ منكم؛ رحمةً بكم، وإحسانًا إليكم[1].

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾.

أي: واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم، بأنْ جَعَلَكم تخلُفُونَ قَومَ نُوحٍ في الأرضِ مِن بعدِ هَلاكِهم؛ حيث أبدَلَكم بِهِم[2].

﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾.

أي: واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم بما خَصَّكم به على النَّاسِ؛ مِن زيادةٍ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٤).
وقال ابنُ عاشور: (عادٌ أوَّلُ أمَّةٍ اضطلعت بالحضارةِ بعد الطُّوفان.. وليس المرادُ أنهم خَلَفُوا قومَ نُوحٍ في ديارِهم؛ لأنَّ منازِلَ عادٍ غيرُ منازِلِ قَومِ نُوحٍ، عند المؤرِّخين). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٥).

الطُّولِ، وقُوَّةٍ في الأبدانِ[(١)].

كما أخبر الله تعالى أنَّه لم يَخلقْ مثلَ قبيلةِ عادٍ في قوَّتِهم وشدَّتِهم وجبروتِهم[(٢)] بقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨].

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: فاذكُرُوا نِعَمَ اللهِ الكثيرةَ عليكم، واشكُرُوه عليها؛ بِطاعَتِه وعبادَتِه وَحْدَه؛ كي تَفوزُوا وتَسعَدُوا، وتنالوا الخُلودَ في الجَنَّةِ[(٣)].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ هُودٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤].

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

أي: قالتْ عادٌ قَومُ هُودٍ: أَجِئتَنا- يا هودُ- كي نعبُدَ اللهَ وَحدَه، ونترُكَ ما كان يعبُدُ آباؤُنا مِن الأصنامِ، ونتبَرَّأَ منها[(٤)]؟

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٨ - ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١).

أي: لن نُوَحِّدَ اللهَ، ولن نترُكَ عبادةَ الأصنامِ، فهاتِ- يا هودُ- ما تعِدُنا به مِنَ العَذابِ على عبادةِ غَيرِ اللهِ، وتَرْكِنا توحيدَه، إن كنتَ مِن أهلِ الصِّدقِ فيما تقولُ مِن أنَّ العَذابَ واقِعٌ علينا[1].

كما حكى تعالى عنهم بِقَولِه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: قد حلَّ بكم- لا محالةَ- عَذابٌ وغَضَبٌ مِن رَبِّكم[2].

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾.

أي: كيف تُخاصِمُونَني وتُحاجِجونَني في هذه الأصنامِ التي سَمَّيتُموها أنتم وآباؤُكم آلهةً، زاعِمينَ أنَّها تُعبَدُ مع اللهِ، وهي مُجَرَّدُ أسماءٍ باطلةٍ اختَلَقْتُموها، ولا حقيقةَ لها، ولم يجعَلِ اللهُ لكم مُطلقًا حُجَّةً على عِبادَتِها[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٤ - ٤٩٥).

كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٦-٧٠].

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾.

أي: فانتَظِروا مُتَرقِّبينَ وقوعَ عذابِ اللهِ، الذي وعَدْتُكم به، إنِّي أنتظِرُ وأترَقَّبُ معكم نُزُولَه بكم[1].

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾.

أي: فأنجَينا هُودًا والَّذين معه مِنَ المؤمنينَ بِسَبَبِ رَحْمَتِنا العظيمةِ لهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٥).

أي: وأهلَكْنا واستأصَلْنا بالعَذابِ الشَّديدِ جميعَ الكُفَّارِ المُكَذِّبينَ بآياتِنا مِن قَومِ هُودٍ، فلم نُبْقِ منهم أحدًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

وقال سُبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٨-٢٠].

﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وما كان قَومُ هُودٍ مُؤمنينَ باللهِ، ولا بما جاءَهم به رسولُه هودٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٧).

قال أبو حيان: (جملةٌ مُؤَكِّدة لقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ويحتملُ أن يكونَ إخبارًا مِنَ الله تعالى أنَّهم ممَّن عَلِمَ اللهُ تعالى أنَّهم لو بَقُوا لم يؤمنوا، أي: ما كانوا ممَّن يقبلُ إيمانًا ألبَتَّةَ، ولو عَلِمَ الله تعالى أنَّهم يؤمنونَ لأبقاهم، وذلك أنَّ المُكَذِّبَ بالآياتِ قد يؤمِنُ بها بعد ذلك، ويَحسُنُ حالُه، فأمَّا مَن خَتَمَ اللهُ عليه بالكُفرِ، فلا يؤمِنُ أبدًا). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٠).

وقال الشِّنقيطي: (قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تأكيدٌ، وما كانوا في عِلمِ اللهِ مُؤمنينَ أبدًا؛ لأنَّ اللهَ طَبَعَهم على الشَّقاوةِ، والعياذُ باللهِ جَلَّ وعَلا). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٠٧).

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٩-٦٠].

وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى حكايةً عَنِ المَلَأ: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ...﴾ في إجابةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مَن نَسَبَهم إلى الضَّلالةِ والسَّفاهةِ بما أجابُوهم؛ مِنَ الكلامِ الصَّادِرِ عنِ الحِلمِ والإغضاءِ، وتَرْكِ المُقابلةِ بما قالوا لهم، مع عِلْمِهم بأنَّ خُصُومَهم أضَلُّ النَّاسِ، وأسْفَهُهم- أدبٌ حَسَنٌ، وخُلُقٌ عظيمٌ، وحكايةُ اللهِ عَزَّ وجلَّ عنهم ذلك؛ تعليمٌ لِعبادِه كيف يُخاطِبونَ السُّفَهاءَ، وكيف يُغْضُونَ عنهم، ويُسْبِلونَ أذيالَهم على ما يكونُ منهم[١].

٢- في قولِ هُودٍ عليه السَّلامُ لِقَومه: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ تَرْكَ الانتقامِ أَوْلى؛ فإنَّهم لَمَّا قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ لم يُقابِلْ سَفاهَتَهم بالسَّفاهةِ، بل قابَلَها بالحِلمِ والإغضاءِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠١).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إنَّما أمَرَهم بالذِّكرِ؛ لأنَّ النَّفسَ تنسى النِّعَمَ فتكفُرُ المُنعِمَ، فإذا تذكَّرَتِ النِّعمةَ رأَتْ حَقًّا عليها أن تَشكُرَ المُنعِمَ؛ ولذلك كانت مسألةُ شُكرِ المُنعِمِ مِن أهَمِّ مَسائِلِ التَّكليفِ(١).

٤- ذكرُ آلاءِ الله تبارك وتعالى ونِعَمِه على عبدِه سببُ الفلاحِ والسَّعادة؛ لأنَّ ذلك لا يزيدُه الا محبةً لله وحمدًا وشكرًا وطاعةً وشهودَ تقصيرِه، بل تفريطِه في القليلِ مما يجبُ لله عليه، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢).

٥- إنْ قِيلَ: العبدُ في بعضِ الأحيانِ قد لا يكونُ عنده مَحَبَّةٌ تَبعَثُه على طلَبِ مَحبُوبِه، فأيُّ شَيءٍ يُحَرِّكُ القُلوبَ؟ قُلنا: يُحَرِّكُها شيئانِ: أحدُهما كثرةُ الذِّكرِ للمَحبوبِ؛ لأنَّ كَثرةَ ذِكرِه تُعَلِّقُ القلوبَ به؛ ولهذا أَمَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بالذِّكرِ الكَثيرِ، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الآية. والثاني: مُطالعةُ آلائِه ونَعمائِه؛ قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ فإذا ذكَرَ العبدُ ما أنعَمَ اللهُ به عليه: مِن تسخيرِ السَّماءِ والأرضِ، وما فيها مِنَ الأشجارِ والحَيَوانِ، وما أسبَغَ عليه مِنَ النِّعَمِ الباطنةِ من الإيمانِ وغَيرِه؛ فلا بُدَّ أن يُثيرَ ذلك عنده باعثًا، وكذلك الخوفُ تُحَرِّكُه مُطالعةُ آياتِ الوَعيدِ والزَّجرِ، والعَرْضِ والحِسابِ ونحوِه، وكذلك الرَّجاءُ يُحَرِّكه مُطالعةُ الكَرَمِ والحِلمِ والعَفوِ، وما ورد في الرَّجاءِ(٣).

٦- قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٤).
(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٢٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٩٥، ٩٦).

مشهَدٌ بائِسٌ لاستعبادِ الواقِعِ المألوفِ للقُلوبِ والعُقول، هذا الاستعبادُ الذي يسلُبُ الإنسانَ خصائِصَ الإنسانِ الأصيلةَ: حُرِّيَّةَ التدَبُّرِ والنَّظَرِ، وحريَّةَ التَّفكيرِ والاعتقادِ، ويَدَعُه عَبدًا للعادةِ والتَّقليدِ، وعَبدًا للعُرفِ والمألوفِ، وعبدًا لِمَا تفرِضُه عليه أهواؤُه وأهواءُ العبيدِ مِن أمثالِه، ويُغلِقُ عليه كلَّ بابٍ للمعرفةِ، وكلَّ نافذةٍ للنُّورِ، وهكذا استعجَلَ القَومُ العذابَ؛ فرارًا مِن مواجهةِ الحَقِّ، بل فرارًا مِن تدَبُّرِ تفاهةِ الباطِلِ الذي هم له عبيدٌ، وقالوا لنَبِيِّهم النَّاصِحِ الأمينِ: ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أنَّ كُلَّ ما يتعَلَّقُ بعِبادَتِه لا يجوزُ أنْ يُؤخَذَ إلَّا مِمَّا أنزَلَه على رُسُلِه؛ إذ لا يَعلَمُ ما يُرضِيه ويصِحُّ عنده مِن عِبادَتِه إلَّا المُبَلِّغونَ عنه[2].

٨- قال تعالى: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ هذه الثِّقةُ في موعودِ اللهِ هي مَناطُ القُوَّةِ التي يستشعِرُها صاحِبُ الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ أن يكونَ على يقينٍ مِن هُزالِ الباطِلِ وضَعفِه، وخِفَّةِ وَزنِه مهما انتفَشَ ومهما استطالَ، كما أنَّه على يقينٍ مِن سُلطانِ الحَقِّ الذي معه، وقُوَّتِه بما فيه مِن سُلطانِ اللهِ[3].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: في النَّسَبِ؛ لأنَّهم عنه أفهَمُ، وبحالِه في الثِّقةِ والأمانةِ أعرَفُ[4].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ لَمَّا عَطَفَ ذِكرَ هُودٍ على

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٤).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٣٣).

نوحٍ- عليهما السلام- بَيَّنَه بِقَولِه: ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ولم يُوصَفْ نُوحٌ بأَنَّه أَخٌ لِقَومِه؛ لأنَّ النَّاسَ في زَمَنِ نوحٍ لم يكونوا قد انقَسَموا شُعوبًا وقبائِلَ(١).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ دليلٌ على جوازِ تَسميةِ القَريبِ الكافِرِ (أخًا)(٢).

٤- قال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قد شابَهَت دعوةُ هُودٍ قَومَه، دعوةَ نُوحٍ قَومَه في المُهِمِّ مِن كلامِها؛ لأنَّ الرُّسُلَ مُرسَلونَ مِنَ اللهِ، والحكمةُ مِنَ الإرسالِ واحدةٌ، فلا جَرَمَ أنْ تتشابَهَ دَعَواتهُم، وفي الحديثِ: ((الأنبياءُ أبناءُ عَلَّاتٍ))(٣)، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾(٤).

٥- الغايةُ التي بُعِثَ مِن أجلِها الرُّسُلُ: إفرادُ اللهِ تعالى بالعبادةِ، والنَّهيُ عن جميعِ المُوبِقاتِ، مِن الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(٥).

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ قد تشابَهَتْ أقوالُ قَومِ هُودٍ، وأقوالُ قَومِ نُوحٍ في تكذيبِ الرَّسولِ؛ لأنَّ ضَلالةَ المُكَذِّبينَ مُتَّحدةٌ، وشُبُهاتِهم مُتَّحِدة، كما قال تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] فكأنَّهم لَقَّنَ بَعضُهم بعضًا كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤١).
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة.
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠١، ٢٠٢).
(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٣).

٧- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنَّ الرِّسالةَ لا يُختارُ لها إلَّا أهلُ الحَصافةِ برُجحانِ العَقلِ، وسَعَةِ الحِلمِ، وكَمالِ الصِّدقِ، وإلَّا لفات ما يُقصَدُ بها مِنَ الحكمةِ، ولم تَقُمْ بها لله الحُجَّةُ(١).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه مَدحٌ للنَّفسِ بأعظَمِ صِفاتِ المَدحِ؛ ومَدحُ الذَّاتِ الأصلُ فيه أنَّه غيرُ لائقٍ بالعُقلاءِ، لكن إنَّما فَعَلَ هُودٌ ذلك؛ لأنَّه كان يجِبُ عليه إعلامُ القَومِ بذلك، وذلك يدلُّ على أنَّ مَدْحَ الإنسانِ نَفسَه إذا كان في مَوضِعِ الضَّرورةِ؛ جائزٌ(٢).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ لَمَّا كانوا قد رَمَوْه- عليه السَّلامُ- بالسَّفَهِ الذي هو مِن غَرائِزِ النَّفسِ؛ لأنَّه ضِدُّ الحِلمِ والرَّزانة- عَبَّرَ عن مضمونِ الجُملةِ النَّافيةِ له بما يقتضي الثَّباتَ، فقال: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ أي: لم يزَلِ النُّصحُ من صفتي، ثابتٌ فيَّ ومتمَكِّنٌ منِّي(٣).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أسنَدُوا الفِعلَ إلى ضَميرِه؛ تعريضًا بأنَّ ما تَوَعَّدَهم به هو شيءٌ مِن مُختَلَقاتِه، وليس مِن قِبَلِ اللهِ تعالى(٤).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ عَقَّبوا كلامَهم بالشَّرطِ فقالوا: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ استقصاءً لمقدِرَتِه، قصدًا منهم لإظهارِ عَجْزِه عن الإتيانِ بالعذابِ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه ما قبلَه، تقديره: أتيتَ به، وإلَّا فَلَسْتَ بصادقٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٢- في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ عَطفُ الغَضَبِ على الرِّجسِ لِبَيانِ أنَّ الرِّجسَ قد أُريدَ به الانتقامُ الحَتمُ، فلا يُمكِنُ رَفعُه(١).

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، قوله ﴿نَزَّلَ﴾ هذا التفعيلُ يأتي بمعنى الفِعلِ المُجَدَّد، وبمعنى الفعل بالتَّدريجِ، فقَصَد النفيَ بكلِّ اعتبارٍ: سواءٌ كان تجديدًا أو تدريجًا، وإشارة إلى أنَّه لو نَزَلَ عليهم في الأمرِ بعبادَتِها شيءٌ واحِدٌ، لتوَقَّفوا فيه؛ لعَدَمِ فَهْمِهم لمعناه حتى يُكَرَّرَ عليهم الأمرَ فيه مَرَّةً بعدَ أخرى، فدلَّ ذلك قطعًا على أنَّ الأمرَ لهم بعبادةِ الأصنامِ إنَّما هو ظَلامُ الهوى؛ لأنَّه عَمًى محضٌ، مِن شأنِ الإنسانِ رُكوبُه بلا دليلٍ أصلًا(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ فَرْقٌ بين الانتظارَينِ؛ انتظارِ مَن يخشَى وُقوعَ العِقابِ، ومَن يَرجُو مِنَ اللهِ النَّصرَ والثَّوابَ؛ ولهذا فتَحَ اللهُ بين الفَريقينِ، فقال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أي: هودًا ﴿وَالَّذِينَ﴾ آمَنُوا ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فإنَّه الذي هداهم للإيمانِ، وجعَلَ إيمانَهم سببًا ينالونَ به رَحمَتَه، فأنجاهم برَحمته، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: استَأصَلْناهم بالعَذابِ الشَّديدِ، الذي لم يُبقِ منهم أحدًا(٣).

١٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدَّابِرُ هو آخِرُ واحِدٍ في الرَّكْبِ يتبَعُ أدبارَ القَومِ، ففي الآيةِ إعلامٌ منه تعالى أنَّ أخْذَه لهم كان على غيرِ أخْذِ المُلوكِ الَّذينَ يَعجِزونَ عن الاستقصاءِ في الطَّلَبِ، فتَفُوتُهم أواخِرُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤١-٤٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤).

العَساكرِ، والمتفرقين مِن الجُنودِ والأتباعِ[١].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وَصْفُهم بالتَّكذيبِ بالفِعلِ الماضي لا يُفهِم دوامَهم على تكذيبِهم، بل لنَفْيِ احتمالِ أنَّهم آمَنُوا بعد التَّكذيبِ، وأنَّ أخْذَهم إنَّما كان لمُطلَقِ صُدورِ التَّكذيبِ منهم، وأنَّهم لم يبادِروا إلى الإيمانِ قَبلَ التَّكذيبِ[٢].

١٧- قول الله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فائدة نَفْيِ الإيمانِ عنهم في قولِه: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مع إثباتِ التَّكذيبِ بآياتِ اللهِ، هو الإشارةُ إلى مَن آمَن منهم، ومَن نَجا مع هُودٍ عليه السَّلامُ، والتَّنبيهُ على أنَّ الفارقَ بينَ مَن نَجَا وبَينَ مَن هلَك هو الإيمانُ، كأنَّه قال: وقَطَعْنا دابرَ الذين كذَّبوا منهم ولم يكونوا مِثلَ مَن آمَنَ منهم؛ ليُؤْذِنَ أنَّ الهلاكَ خَصَّ المُكذِّبين، ونَجَّى اللهُ المؤمِنين[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

- قوله: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هودًا﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿وَإِلَى﴾ على المفعولِ الأصليِّ ﴿هُودًا﴾؛ ليتأتَّى الإيجازُ بالإضمارِ؛ حيثُ أُريد وصْفُ هودٍ بأنَّه مِن إخوةِ عادٍ ومِن صميمِهم، مِن غير احتياجٍ إلى إعادةِ لفظ (عاد)، ومع تجنُّبِ عودِ الضَّميرِ على متأخرٍ لفظًا ورُتبةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٠).

- وقولُه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن حِكايةِ إرسالِه عليه السلام إليهم كأنَّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[1].

- وفُصِلتْ جملةُ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ ولم تُعطَفْ بالفاءِ- كما عُطِف نظيرُها المتقدِّمُ في قِصَّة نوح في قوله: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، فعُطِفتْ بالفاءِ-؛ لأنَّ الحالَ اقتضَى هنا أنْ تكونَ مُستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قِصَّةَ هُودٍ لَمَّا ورَدَتْ عقِبَ قِصَّة نوحٍ المذكورِ فيها دَعوتُه قَومَه، صار السامعُ مُترقِّبًا معرفةَ ما خاطَبَ به هودٌ قومَه، حيثُ بعَثَه اللهُ إليهم، فكان ذلك مثارَ سؤالٍ في نفْسِ السَّامعِ أن يقول: فماذا دعا هودٌ قومَه؟ وبماذا أجابوا؟ فيقع الجوابُ بأنَّه قال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ...﴾؛ فقدْ فُصِلتْ الجُملةُ هنا وفيما يأتِي مِن سائرِ القصصِ، والفَرقُ المقتضي لذلك أنَّ العطفَ هُنالك في قِصَّة نوحٍ جاءَ على أصْلِه: وهو كونُ التبليغِ جاءَ عقِبَ الإرسالِ؛ لأنَّ التأخيرَ غيرُ جائزٍ، ولَمَّا صارَ هذا معلومًا كان مِن المناسبِ فيما بَعْدَه مِن القصصِ أنْ يجيءَ بأُسلوبِ الاستئنافِ[2].

- وجملةُ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استفهاميَّةٌ إنكاريةٌ معطوفةٌ بفاءِ التَّفريع على جُملةِ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، والمرادُ بالتَّقوَى الحذرُ مِن عِقابِ اللهِ تعالى على إشراكِهم غيرَه في العِبادةِ، واعتقادِ الإلهيَّةِ، وفيه تعريضٌ بوعيدِهم إنِ استمرُّوا على ذلك[3].

- وإنَّما ابتدأَ بالإنكارِ عليهم؛ إغلاظًا في الدَّعوةِ، وتهويلًا لفظاعةِ الشِّرْك-

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢).

إنْ كان قال ذلك في ابتداءِ دَعوتِه[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ فيه تنكيرُ ﴿سَفَاهَةٍ﴾؛ لبيانِ نَوعِها، أو المبالغة بعِظَمِها، أي: قالوا: إنَّا لنراكَ في سَفاهةٍ غريبةٍ، أو تامَّةٍ راسخةٍ تُحيط بك مِن كلِّ جانبٍ، بأنَّك لم تَثبُتْ على دِينِ آبائِك وأجدادِك، بل قُمتَ تَدْعُو إلى دِينٍ جديدٍ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمْ﴾ على عاملِه؛ للإيذانِ باهتمامِه بما يَنفعُهم[٣].

٤- قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾

- قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ الهَمزةُ في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ، أي: هذا ممَّا لا يُعجَبُ منه؛ إذ له تعالى التصرُّفُ التامُّ بإرسالِ مَن يشاءُ لِمَن يشاءُ[٤].

- قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ في هذا التذكيرِ تَصريحٌ بالنِّعمةِ، وتعريضٌ بالنِّذارةِ والوعيدِ بأنَّ قومَ نوحٍ إنَّما استأصلَهم وأبادَهم عذابٌ مِن اللهِ على شِركِهم؛ فمَن اتَّبعهم في صُنعِهم يُوشِكُ أنْ يَحُلَّ به عذابٌ أيضًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٥).

٥- قوله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أعادوا تكذيبَه بطريقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ على دَعوتِه للتوحيدِ، وقَصَدوا ممَّا دلَّ عليه فِعلُ المجيءِ زيادةَ الإنكارِ عليه، وتَسفيهَه على اهتمامِه بأمْرٍ مِثلِ ما دعاهم إليه، وهذا الجوابُ أقلُّ جفوةً وغِلظةً من جوابِهم الأوَّلِ؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، كأنَّهم قَصَدوا استنزالَ نَفْسِ هودٍ، ومحاولةَ إرجاعِه عمَّا دعاهم إليه؛ فلذلك اقْتَصروا على الإنكارِ، وذكَّروه بأنَّ الأمْرَ الذي أنكرَه هو دِينُ آباءِ الجميعِ؛ تعريضًا بأنَّه سَفَّه آباءَه، وهذا المقصدُ هو الذي اقْتَضى التعبيرَ عن دِينِهم بطريقِ الموصوليَّة في قولهم: ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؛ إيماءً إلى وجْه الإنكارِ عليه، وإلى أنَّه حقيقٌ بمتابعةِ دِين آبائِه(١).

- واجتلابُ (كان) في قولهم: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ لتدلَّ على أنَّ عبادَتَهم أمرٌ قديمٌ مَضَتْ عليه العُصورُ(٢).

- والتعبير بالفِعل وكونه مُضارِعًا في قوله: ﴿يَعْبُدُ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ ذلك مُتكرِّرٌ مِن آبائهم ومُتجدِّدٌ، وأنَّهم لا يَفتُرون عنه(٣).

- وفي قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أَسْنَدوا الفِعلَ إلى ضَميرِه؛ تعريضًا بأنَّ ما تَوعَّدهم به هو شيءٌ مِن مُختَلَقاتِه، وليس مِن قِبَلِ اللهِ تعالى(٤).

٦- قوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٠٩).

- قوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ فيه تقديمُ الظرفِ الأوَّل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على الثاني ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، مع أنَّ مَبْدأَ الشيءِ متقدِّمٌ على مُنتهاه؛ للمُسارعةِ إلى بيانِ إصابةِ المكروهِ لهم، وتقديمهما على الفاعِل ﴿رِجْسٌ﴾؛ للاهتمامِ بتَعجيلِ ذِكرِ المغضوبِ والغاضِب، إيقاظًا لبصائرِهم؛ لعلَّهم يُبادِرونَ بالتوبةِ، ولأنَّ المَجرورَينِ مُتعلِّقانِ بالفِعلِ؛ فناسَب إيلاؤُهما إيَّاه، ولو ذُكِرَا بعدَ الفاعِلِ؛ لتُوهِّم أنَّهما صِفتانِ له، وقُدِّم المجرورُ الذي هو ضميرُهم، على الذي هو وصْفُ ربِّهم؛ لأنَّهم المقصودُ الأوَّلُ بالفِعلِ(١).

- قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ فيه استعمالُ صِيغة المُضيِّ في مَعْنى الاستقبالِ؛ إشعارًا بتَحقيقِ وقوعِه، واقترانُ الفِعل ﴿وَقَعَ﴾ بـ﴿قَدْ﴾؛ للدَّلالةِ على تَقريبِ زَمنِ الماضي مِن الحال، مِثلُ: قد قامَتِ الصَّلاةُ(٢).

- قوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ الاستفهامُ في قوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي﴾ للإنكارِ؛ فهو إنكارٌ مِنه لِمُخاصمتِهم له فيما لا يَنبغي فيه الخِصامُ(٣).

- قوله: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ صِيغةُ الأمْر ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ للتَّهديدِ، والجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ تَهديدَه إيَّاهم يُثيرُ سؤالًا في نُفوسِهم أنْ يقولوا: إذا كُنَّا ننتظرُ العذابَ؛ فماذا يكونُ حالُك؟ فبَيَّن أنَّه يَنتظِرُ معهم، وهذا مقامُ أدبٍ معَ اللهِ تعالى(٤).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ لتَفريعِ هذا الإنذارِ والتَّهديدِ السَّابق؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٠-٢١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٣).

وُقوعَ الغَضبِ والرِّجسِ عليهم، ومُكابرتَهم واحتجاجَهم لِمَا لا حُجَّةَ له؛ ينشأُ عن ذلك التَّهديدُ بانتظارِ العذابِ(١).

٧- قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ كانَ مُقتضَى الظاهِرِ أنْ يَكونَ النَّظمُ هكذا: (فقطَعْنا دابرَ الذين كذَّبوا... وأنْجَينا هودًا...)، ولكن جَرَى النَّظمُ على خِلافِ مُقتضَى الظاهِرِ؛ للاهتمامِ بتَعجيلِ الإخبارِ بنَجاةِ هُودٍ ومَن آمَن مَعه(٢).

- قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ تَنكيرُ الرَّحمةِ للتَّعظيمِ، ووصفُها بأنَّها مِن اللهِ؛ للدَّلالةِ على كمالِها وأنَّها غيرُ مُنقطعةٍ عنهم(٣)، وقولُه: ﴿مِنَّا﴾، أي: مِن جِهتنا، مُتعلِّق بمحذوف هو نعتٌ لـ ﴿رَحْمَةٍ﴾ مُؤكِّدٌ لفخامتِها الذاتيَّةِ المنفهمةِ مِن تنكيرِها بالفَخامةِ الإضافيَّةِ(٤).

- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ عَطفٌ على ﴿كَذَّبُوا﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ فهو مِن الصِّلةِ، وفائدةُ عَطفِه الإشارةُ إلى أنَّ كِلتَا الصِّلتينِ مُوجِبٌ لقَطعِ دابرِهم، وهما: التَّكذيبُ، والإشراكُ؛ تَعريضًا بمُشركِي قُريشٍ، ولموعظتِهم ذُكرتْ هذه القَصصُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٥).

الآيات (٧٣-٧٩)

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بَيِّنَةٌ﴾: أيْ: بصيرةٌ ودَلالةٌ، ويقينٌ، وحُجَّةٌ وبُرهانٌ، وأصلُ (بين): الانْكِشاف[1].

﴿آيَةً﴾: الآيةُ تُطلَقُ على العلامةِ- يُقال: آيةُ كذا؛ أي: علامَتُه- وعلى العَجيبةِ، وتُطلق أيضًا على الجماعةِ، وسُمِّيت الآيةُ مِن القرآنِ بذلك: إمَّا مِن العلامةِ؛ لأنَّها علامةٌ على صدقِ مَن جاء بها، أو مِن الجماعةِ؛ لأنَّها جماعةٌ مِن كلماتِ القرآنِ مشتملةٌ على بعضِ ما اشتَمل عليه القرآنُ مِن الإعجازِ، والحلالِ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤).

والحرامِ، والعقائدِ[(١)].

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾: ولا تُصيبُوها ولا تَقتُلوها ولا تَنالوها بعَقْرٍ، والمسُّ يُقال في كلِّ ما يُصيبُ مِن أذًى، وأصل (مسس): جَسُّ الشَّيءِ باليَدِ[(٢)].

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: أي: وأنزَلكم، وجَعَل لكم مَساكِنَ وأزواجًا، وأصل (بوأ): يَدُلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ، وعلى تساوِي الشَّيئينِ[(٣)].

﴿سُهُولِهَا﴾: السهْلُ هو المكانُ المنخفضُ المستوي، الذي لا وَعْرَ فيه، وأصل (سهل): اللِّينُ، وهو عَكسُ الحُزونةِ والصُّعوبةِ[(٤)].

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: أي: تَنقبُونَ، وأصل (نحت): يدلُّ على نَجْرِ شَيءٍ، وتَسوِيَتِهِ بِحَديدةٍ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٤، ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦١).
قال الشنقيطيُّ: (والآيةُ في القرآنِ تُطلَق إطلاقَينِ: تُطلَقُ الآيةُ على الآيةِ الكونيَّةِ القدريَّةِ، وهي مِن الآيةِ بمعنى: العلامةِ، وهي ما نصَبه اللهُ جلَّ وعلا مِن آياتِه، جاعلًا لها علاماتٍ على كمالِ قُدرتِه، وأنَّه الربُّ وحدَه، المعبودُ وحدَه، كقولِه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] أي: لعلاماتٍ ودلالاتٍ واضحاتٍ على أنَّه الربُّ المستحِقُّ أنْ يُعبدَ وحدَه.
الإطلاقُ الثَّاني: تُطلَق الآيةُ في القرآنِ على الآيةِ الشرعيَّة الدينيَّةِ، كآياتِ هذا القرآنِ العظيمِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٤).

﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾: لَا تَطْغَوْا، وَلَا تَسْعَوْا بالمعاصِي، من عَثِيَ أو عَثَا، وفيه لغةٌ أخرى: أنَّه من عَاثَ يَعيثُ، والعَيْثُ أَشَدُّ الفَسادِ والإفساد. وأصلُ (عيث): الفَسادُ، والعَيثُ والعِثِيُّ مُتقاربانِ، إلَّا أنَّ العَيثَ أكثَرُ ما يُقالُ في الفَسادِ الذي يُدرَكُ حِسًّا، والعِثِيَّ فيما يُدْرَكُ حُكمًا(١).

﴿فَعَقَرُوا﴾: أي: فنَحَروا، أو فقَتَلوا، وأصل (عقر): يدلُّ على جُرحٍ أو ما يُشبِهُ الجُرحَ(٢).

﴿وَعَتَوْا﴾: أي: تكبَّروا وَتجبَّروا، والعُتُوُّ: النبوُّ عن الطَّاعةِ، وأصله: يدلُّ على الاستكبارِ(٣).

﴿الرَّجْفَةُ﴾: أي: الصَّيحةُ التي زَعزَعَتْهم وحرَّكَتْهم للهلاكِ، والرَّجفةُ: حَرَكَةُ الأَرْضِ، أو الزَّلزلةُ الشَّدِيدَةُ، والرَّجْفُ: الاضطرابُ الشَّديدُ، وأصلُ (رجف): يَدُلُّ على اضطرابٍ(٤).

﴿جَاثِمِينَ﴾: أي: جامِدينَ مَيِّتِينَ، واقعينَ بعضُهم على بعضٍ، أو: بارِكينَ على الرُّكَبِ أيضًا؛ مِن قَولِهم: جَثَمَ الطَّائرُ إذا قعَد ولَصِق بالأرضِ، وأصلُ (جثم) يَدُلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٥)، =

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى قَبيلةِ ثَمودَ أخاهم في النَّسَبِ صالحًا؛ لِيَدعُوَهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه، فقال لهم: اعبُدُوا اللهَ وَحْدَه؛ ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، قد أتَتْكم حُجَّةٌ واضحةٌ مِن رَبِّكم على صِدقِ ما جِئْتُ به، وهي هذه النَّاقةُ؛ جَعَلَها اللهُ بُرهانًا مُقنعًا لِتُطيعوني، فاتْرُكوها تأكُلْ في أرضِ اللهِ، ولا تتعَرَّضوا لها بسُوءٍ، فيأخُذَكم عذابٌ مُوجِعٌ، واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم؛ إذ جعَلَكم تخلُفُون عادًا بعد أنْ أهْلَكَهم، وأسكَنَكم الحِجْرَ بين الحجازِ والشَّامِ، فتَبنُونَ قُصورًا في الأماكِنِ المُستَويةِ، وتَنحِتونَ الجبالَ؛ لتكونَ لكم فيها مساكِنُ أخرى، فاذكروا نِعَمَ اللهِ الكثيرةَ عليكم، ولا تَسْعَوا في الأرضِ بالفَسادِ.

قال الرُّؤساءُ المُتكَبِّرونَ مِن قَومِه، للمستضعفين مِمَّن آمَنَ به: أتَعلمونَ مُستيقِنينَ أنَّ صالحًا رسولٌ مِنَ اللهِ، وأنَّه غيرُ كاذبٍ فيما يقولُ؟ قال المؤمنونَ مِنَ المُستضعفينَ: إنَّا بما أُرسِلَ به مُؤمِنونَ، فقال المُستكْبِرونَ: إنَّا بما آمَنْتُم به كافِرونَ، فقَتَلوا النَّاقةَ، واستكبَرُوا عن أمْرِ ربِّهم، وقالوا يا صالِحُ: ائْتِنا بِما تَعِدُنا مِنَ العَذابِ، إنْ كنتَ حقًّا مِنَ المُرسَلينَ، فأتاهم العَذابُ، وأخَذَتْهم الصَّيحةُ التي زلزَلَتِ الأرضَ مِن شِدَّتِها، فصاروا في بَلَدَتِهم صَرعى، مُنكَبِّينَ على وُجوهِهم، لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم، خامدينَ لا حياةَ فيهم.

فانصرَفَ عنهم صالحٌ عليه السَّلامُ، وقال موَبِّخًا لهم ومُعاتِبًا: يا قومِ، لقد أبلَغْتُكم ما أُرسِلْتُ به مِن رَبِّي، ونَصَحْتُ لكم، ولكِنَّكُم لا تُحبُّونَ النَّاصحينَ.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا إلى قبيلةِ ثَمودَ أخاهم في النَّسَبِ صالحًا عليه السَّلامُ؛ لِيدعُوَهم إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وينهاهم عن عبادةِ غَيرِه، فقال لهم: يا قَومِ اعبُدُوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يَستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، فلا تُشرِكوا به شيئًا(١).

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾.

أي: قال صالحٌ عليه السَّلامُ لِقَومِه: قد جاءَتْكم حجَّةٌ واضِحَةٌ مِن خالِقِكم ومالِكِكم، ومُدَبِّرِ شُؤُونِكم، على صِدْقِ ما جِئْتُكم به مِن إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وهذه الحُجَّةُ هي هذه النَّاقةُ الشَّريفةُ، التي جعَلَها اللهُ تعالى آيةً عظيمةً، مُقنِعةً لكم؛ لِتُطيعوني(٢).

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير المراغي)) (١٢/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥١٢).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّ القُرآنَ قد دَلَّ على أنَّ فيها آيةً، فأمَّا ذِكرُ أنَّها كانت آيةً مِن أيِّ الوُجوهِ؛ فهو غيرُ مذكورٍ، والعِلمُ حاصِلٌ بأنَّها كانت مُعجزةً مِن وَجهٍ ما- لا محالةَ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٥).

أي: فاترُكوا النَّاقةَ تَرعَى في أرضِ اللهِ؛ فليس عليكم رِزْقُها، ولا تتعَرَّضوا لها بشَيءٍ مِنَ الأذى؛ فإنَّكم إنْ آذَيْتُموها بشَيءٍ، جاءكم عذابٌ مُؤلِمٌ[(١)].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ صالحٍ لِقَومِه: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٦].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَهم ونهاهم، ذَكَّرَهم بِنِعَمِ اللهِ تعالى ترغيبًا مُشيرًا إلى ترهيبٍ[(٢)]، فقال:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾.

أي: واذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم؛ بأن جَعَلَكم تخلُفونَ عادًا- قومَ هودٍ- في الأرضِ مِن بَعدِ هلاكِهم، حيث أبدَلكم بهم[(٣)].

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٠).

أي: وأنزَلكم وأسكَنكم في الأرضِ- وهي الحِجْرُ بين الحِجازِ والشَّامِ- منازِلَ متنوِّعةً، فتَبنُونَ القُصُورَ العاليةَ في الأماكِنِ المُستَوِيةِ المُنخَفِضةِ وغَيرِ الوَعْرةِ، وتأخُذونَ مِن آجُرِّها وطِينِها، وتُؤَسِّسُونَها بالحِجارةِ، وتَنْقُبونَ صُخورَ الجبالِ، فتكونُ لكم فيها مساكِنُ أخرى[1].

كما حَكَى اللهُ تعالى قولَ صالحٍ لهم، فقال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾.

أي: فاذْكُروا نِعَمَ اللهِ الكثيرةَ عليكم، واشكُروا اللهَ عليها؛ بطاعَتِه وعِبادَتِه وَحدَه[2].

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

أي: ولا تُفسِدُوا في الأرضِ، ساعِينَ فيها بالشِّركِ والمعاصِي[3].

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٣).
وقال الشِّنقيطيُّ: (وكانوا في الصَّيفِ يسكُنونَ القُصورَ المبنيَّةَ مِنَ الآجُرِّ والطِّينِ؛ لأنَّها أشَدُّ بُرودةً... ومعنى نَحتِهم الجبالَ: أنَّهم يأخُذونَ آلاتِ حديدٍ... فيحفرونَ في الجَبَلِ... ثم يقطعونَ لها أبوابَها وطاقاتِها مِن نَفسِ الجَبَلِ، ثم تكونُ تلك الأبوابُ والغُرَفُ والطَّاقاتُ كُلُّها مِنَ الجِبالِ... إذا اشتَدَّ البَردُ زَمَنَ الشِّتاءِ دَخَلوها، فكانت لشِدَّةِ استدفائِها لا يُحِسُّونَ بالبَردِ شَيئًا، وهذا مِن نِعَمِ اللهِ عليهم). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٨ - ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٤/ ٧٨)، ((حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٧).

ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤَساءُ الكَفَرةُ، المُتكَبِّرونَ عَنِ الحَقِّ مِن قَومِ صالحٍ، للمُستَضعَفينَ المُحتقَرينَ المَساكينِ، مِنَ المؤمنينَ به: أتعْلَمونَ يَقينًا أنَّ صالحًا رَسولٌ مِنَ اللهِ إلينا، وأنَّه غيرُ كاذبٍ على اللهِ[1]؟

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: قال الَّذينَ آمَنُوا بصالحٍ مِنَ المُستَضعفينَ: إنَّا بِما أَرسَلَ اللهُ به صالحًا مِنَ الحَقِّ، مُؤمنونَ، ونُوقِنُ أنَّه مِن عِندِ اللهِ، لا نَشُكُّ في ذلك[2].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: قال المُتكَبِّرونَ مِن قَومِ صالحٍ للمُستضعفينَ مِنَ المُؤمنينَ: إنَّا بالذي آمَنْتُم به مِنَ الحَقِّ، وأنَّ صالحًا رَسولٌ مِنَ اللهِ إلينا، جاحِدونَ، لا نُصَدِّقُ بذلك[3].

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٨ - ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٩).

أي: فقَتَلَتْ ثمودُ النَّاقةَ التي جعَلَها اللهُ لهم آيةً، والتي توَعَّدَهم- إنْ مَسُّوها بِسُوءٍ- أن يُصيبَهم عذابٌ أليمٌ(١).

﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: واستكْبَروا وتَمَرَّدوا عن امتثالِ أمرِ ربِّهم، وغَلَوْا في باطِلِهم(٢).

﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ المُتكَبِّرون مِن قَومِ صالحٍ: يا صالِحُ، ها نحنُ قد قتَلْنا ناقةَ اللهِ التي أتَتْنا، فعجِّلْ لنا بما تَعِدُنا مِن عَذابِ اللهِ، إن كُنتَ حقًّا مِن رُسُلِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ ينصُرُ رُسُلَه على أعدائِهم(٣).

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٠).

وقال السَّعدي: (اعلَمْ أنَّ كثيرًا مِنَ المُفَسِّرين يذكرونَ في هذه القِصَّةِ أنَّ النَّاقة قد خَرَجَتْ مِن صَخرةٍ صَمَّاءَ مَلْساءَ اقتَرحوها على صالحٍ، وأنَّها تمخَّضَت تَمخُّضَ الحامِلِ، فخَرَجَت النَّاقةُ وهم ينظُرونَ، وأنَّ لها فصيلًا حين عَقَروها، رغى ثلاثَ رَغَياتٍ، وانفلَقَ له الجَبَلُ ودخل فيه، وأنَّ صالحًا عليه السَّلامُ قال لهم: آيةُ نُزُولِ العَذابِ بكم أن تُصبِحُوا في اليَومِ الأوَّلِ مِنَ الأيَّامِ الثَّلاثةِ ووجوهُكم مُصْفَرَّةٌ، واليوم الثاني: مُحمَرَّة، والثالث: مُسْوَدَّة، فكان كما قال. وكلُّ هذا مِنَ الإسرائيليَّاتِ التي لا ينبغي نَقْلُها في تفسيرِ كتابِ اللهِ، وليس في القُرآنِ ما يدلُّ على شيءٍ منها بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣١).

أي: فأخَذَتْ أولئك الكُفَّارَ الصَّيحةُ، التي تزلزَلَتِ الأرضُ مِن شِدَّتِها(١).

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: فصاروا في بَلَدِتِهم لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم، ومُنكَبِّينَ على وُجُوهِهم، صَرْعَى، خامدينَ لا حياةَ فيهم، قد هَلَكوا مِن شِدَّةِ الصَّيحةِ(٢).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ صالحٍ لِقَومِه: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٤ - ٦٧].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾.

أي: فانصَرَفَ صالحٌ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- عَن قَومِه بعدَ حُلُولِ العَذابِ بهم، وقال مُخاطِبًا لهم؛ توبيخًا وعتابًا: لقد أدَّيْتُ إليكم- يا قَومِي- جميعَ ما أمَرَني اللهُ تعالى بأدائِه إليكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٧ - ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٣).

(٣) اختارَ أنَّ التَّوليَ عنهم هنا ومُخاطَبَتَهم بعد هلاكِهم: الواحديُّ، وابنُ كثير، والسَّعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٤). =

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

أي: وأَرَدْتُ لكم الخيرَ في الدُّنيا والآخِرَةِ، واجتَهَدْتُ في هِدايَتِكم، ولكِنَّكم تكرَهونَ النَّاصحينَ، فلا تُطيعونَهم؛ فلذا لم تنتَفِعوا بنُصحي(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- ينبغي تذكُّرُ نِعمةِ اللهِ، وشُكرُه عليها، والحَذَرُ مِن استبدالِ الكُفرِ بالشُّكرِ؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

= واختار أنَّ التَّولِّيَ عنهم ومخاطَبَتَهم قبل هلاكِهم: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢).

قال القرطبيُّ: (يحتملُ أنَّه قال ذلك قبل مَوتِهم، ويحتملُ أنَّه قال بعد مَوتِهم، كقَولِه عليه السَّلامُ لِقتلى بدر: «هل وَجَدْتُم ما وعَدَ رَبُّكم حَقًّا؟ فقيل: أتُكَلِّمُ هؤلاءِ الجِيَفَ؟ فقال: ما أنتم بأسمَعَ منهم، ولكِنَّهم لا يقدِرونَ على الجوابِ»). والأوَّلُ أظهَرُ؛ يدلُّ عليه ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾، أي: لم تَقبَلوا نُصحي). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢).

وقال الشِّنقيطيُّ: (وهذا التَّولي للعُلَماءِ فيه وجهانِ: أحدُهما: أنَّه تَولَّى عنهم لَمَّا تَحقَّقَ الهلاكَ وأنَّه نازِلٌ بهم، تولَّى راجعًا عنهم .. وبعضُ العُلماءِ يقولون: إنَّ نَبيَّ اللهِ صالحًا لم يقُلْ لهم هذا إلَّا بعد أن نَزَلَ بهم عذابُ اللهِ، وصاروا موتى، وفارَقَت أرواحُهم أجسادَهم، جاء إلى جُثَثِهم ووبَّخَهم هذا التَّوبيخَ بعد أن ماتوا، وهذا الأخيرُ هو ظاهِرُ القُرآنِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ مُرَتَّبٌ بالفاء على قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ والفاء تقتضي التَّعقيبَ، فكونُه قال لهم هذا بعد أنْ ماتوا وأصبَحُوا في دارِهم جاثمينَ هو ظاهِرُ القرآنِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٥).

مُفْسِدِينَ﴾ أي: فتَصَرَّفوا في هذه النِّعَمِ تَصَرُّفَ عَثَيانٍ وكُفرٍ، بمخالفةِ ما يُرضِي اللهَ فيها(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ عَطَفَ نَهيَهم عَنِ الفَسادِ في الأرضِ، على الأمرِ بذِكرِ آلاءِ اللهِ؛ لِيُرشِدَ إلى أنَّ تذَكُّرَ الآلاءِ يَبعَثُ على الشُّكرِ والطَّاعةِ، وتَركِ الفَسادِ(٢).

٣- الإيمانُ باللهِ يسكُبُ القُوَّةَ في القُلوبِ، والثِّقةَ والاطمئنانَ في النُّفوسِ؛ فقد كان خِطابُ الملأِ للَّذينَ استُضعِفُوا يحمِلُ تهديدًا وتخويفًا، واستنكارًا لإيمانِهم به، وسُخريَةً مِن تصديقِهم له في دَعواه الرِّسالةَ مِن رَبِّه؛ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فكان جوابُهم: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، فالضِّعافُ لم يَعُودوا ضِعافًا؛ إنَّهم على يَقينٍ مِن أمْرِهم، فلا تُجدِي السُّخريةُ والاستنكارُ فيهم شيئًا(٣).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ هذه الآيةُ مِن أعظَمِ ما يحتَجُّ به مَن قال: إنَّ الفَقرَ خَيرٌ مِنَ الغِنى؛ وذلك لأنَّ الاستكبارَ إنَّما يتولَّدُ مِن كَثرةِ المالِ والجاهِ، والاستضعافَ إنَّما يحصُلُ مِن قِلَّتِهما، فبَيَّنَ تعالى أنَّ كَثرةَ المالِ والجاهِ؛ حَمَلَهم على التَّمَرُّدِ والإباءِ، والإنكارِ والكُفرِ، وقِلَّةَ المالِ والجاهِ؛ حَمَلَهم على الإيمانِ والتَّصديقِ والانقيادِ، وذلك يدلُّ على أنَّ الفَقرَ خَيرٌ مِنَ الغِنى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ في التَّذكيرِ بالقَرابةِ استعطافٌ لهم[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾، قولُه: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ للإعلامِ بأنَّها لَيسَتْ مِن فِعلِ صالحٍ عليه السَّلامُ، ولا ممَّا ينالُها كَسْبُه، وكذلك سائِرُ ما يؤيِّدُ اللهُ تعالى به الرُّسُلَ مِن خَوارِقِ العاداتِ؛ ففي ذلك تنبيهٌ للجاهِلينَ الذين يظنُّونَ أنَّ الخوارِقَ مِمَّا يدخُلُ في كسْبِ الصَّالحينَ الَّذين هم دُونَ الأنبياءِ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ أُضيفَتْ إلى اللهِ تعالى؛ تعظيمًا لها، وتفخيمًا لِشَأنِها؛ نحو: بيتُ اللهِ، ورُوحُ اللهِ، ولأنَّها جاءَتْ مِن عِندِ الله تعالى بلا وسائِطَ وأسبابٍ مَعهودةٍ، فقد خَلَقَها تعالى بغَيرِ واسطةِ ذَكَرٍ وأنثى، ولأنَّه لا مالِكَ لها غيرُه، ولأنَّها حُجَّةٌ على القَومِ، ولِمَا أُودِعَ فيها مِنَ الآياتِ[٣].

٤- في قوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ لمَّا أضاف الناقةَ إلى اللهِ أضافَ محلَّ رعيِها إلى اللهِ؛ إذ الأرضُ أرضُ اللهِ، والنَّاقَةُ ناقةُ اللهِ، فَذَرُوها تأكُلْ في أرضِ رَبِّها؛ فليسَتِ الأرضُ لكم، ولا ما فيها مِنَ النَّباتِ مِن إنْباتِكم[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٣).

قولُه: ﴿لَكُمْ﴾ خُصُّوا بذلك؛ لأنَّهم هم السَّائِلُوها، أو المنتفعونَ بها مِن بينِ سائِرِ النَّاسِ لو أطاعوا[1].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، تنكيرُ (سُوءٍ) في سِياقِ النَّهيِ يُفيدُ أنَّ الوعيدَ مُرَتَّبٌ على أيِّ أنواعِ الإيذاءِ لها، سَواءٌ في نَفْسِها، أو أكْلِها، أو شُربِها[2].

٧- استُدِلَّ بقَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ على جَوازِ البِناءِ الرَّفيعِ، كالقُصورِ ونَحْوِها[3]؛ إذْ محالٌ أن يذكِّرَهم آلاءَ الله في شيءٍ بنيانُه معصيةٌ، وقد قال: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، ولو كان بناءُ القصورِ منكَرًا لكان داخلًا في الفسادِ، لا في الآلاءِ[4].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ..﴾ الآية، وَصَفَ أولئكَ الكُفَّارَ بكَوْنِهم مُستكبرينَ- وهو فِعلٌ استوجَبُوا به الذَّمَّ، وكونُ المُؤمنينَ مُستَضعفينَ معناه: أنَّ غَيرَهم يَستضعِفُهم ويَستحقِرُهم، وهذا ليس فعلًا صادرًا عنهم، بل عن غيرِهم، فهو لا يكونُ صِفَةَ ذَمٍّ في حَقِّهم، بل الذَّمُّ عائدٌ إلى الَّذين يستحقِرونَهم ويَستضعِفونَهم[5].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ الذي آمَنْتُم به: هو بمعنى بما أُرسِلَ به، لكنَّه مِن حيثُ اللَّفظُ أعَمُّ؛ قَصَدوا بذلك الرَّدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ١٩٦).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٤٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧).

لِمَا جعله المؤمنونَ مَعلومًا، وأخَذُوه مُسَلَّمًا(١).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ لم يَقُولوا: (إنَّا بما أُرسِلَ به كافرونَ) لأنَّه يتضَمَّنُ إثباتَ أصلِ الرِّسالةِ لصالحٍ عليه السَّلامُ، ولو قالوه لكان شهادةً منهم على أنفُسِهم بأنَّهم جاحدونَ للحَقِّ على عِلمٍ؛ لِمَحْضِ الاستكبارِ(٢).

١١- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ فيه أنَّ الكِبْرَ يَحمِلُ صاحِبَه على عَدَمِ الانقيادِ للحَقِّ(٣).

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ الفاءُ للتَّعقيبِ لحكايةِ قَولِ الَّذين استكبَرُوا: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: قالوا ذلك فعَقَروا، والتَّعقيبُ في كلِّ شَيءٍ بِحَسَبِه، وذلك أنَّهم حين قالوا ذلك كانوا قد صَدَعوا بالتَّكذيبِ، وصَمَّموا عليه، وعَجَزوا عن المُحاجَّةِ والاستدلالِ، فعَزَموا على المصيرِ إلى النِّكايةِ، والإغاظةِ لصالحٍ عليه السَّلامُ، ومَن آمَنَ به، ورَسَموا لابتداءِ عَمَلِهم أن يعتَدُوا على النَّاقةِ(٤).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أكثَرُ ما يُستعمَلُ (العَقْرُ) في الفَسادِ، وأمَّا (النَّحْرُ) فيُستعمَلُ غالبًا في الانتفاعِ بالمنحورِ؛ لحمًا وجِلدًا وغَيرَهما، فلعَلَّ التعبيرَ به دون (النَّحرِ) إشارةٌ أيضًا إلى أنَّهم لم يقصِدُوا بنَحْرِها إلَّا إهلاكَها؛ عُتُوًّا على اللهِ، وعِنادًا وفِعلًا للسُّوءِ، ومخالَفةً لنهيِ صالحٍ عليه السَّلامُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٤).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٨).

١٤ - قَولُ الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ نُسِبَ (العَقْرُ) إلى الجميعِ، وإن كان صادرًا عن بعضِهم؛ وذلك لَمَّا كان عَقْرُها عن تمالُؤٍ واتِّفاقٍ منهم جميعًا، وعن رضاهم كلِّهم(١).

١٥ - قَولُ الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أَمْرِ رَبِّهِم: هو ما أمَرَهم به على لسانِ صالحٍ عليه السَّلامُ، مِن قَولِه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾، فعبَّرَ عن النَّهيِ بالأمرِ؛ لأنَّ النَّهيَ عن الشَّيءِ مَقصودٌ منه الأمرُ بفِعلِ ضِدِّه؛ ولذلك يقولُ عُلَماءُ الأصولِ: إنَّ النَّهيَ عن الشَّيءِ يَستلزِمُ الأمرَ بِضِدِّه، الذي يحصُلُ به تحقُّقُ الكَفِّ عن المنهيِّ عنه(٢).

١٦ - قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فَرَضوا كَونَه مِنَ المُرسلينَ بِحَرف (إنْ) الدَّالِّ على الشَّكِّ في حُصولِ الشَّرطِ، أي: إنْ كُنتَ مِنَ الرُّسُلِ عَن اللهِ؛ فالمرادُ بالمُرسلينَ: مَن صَدَقَ عليهم هذا اللَّقَبُ(٣).

١٧ - قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ الرَّجفةُ والجُثُومُ جزاءٌ مقابِلٌ للعُتُوِّ والتبجُّحِ: فالرَّجفةُ يُصاحِبُها الفَزَع، والجُثُوم مَشهدٌ للعَجزِ عَنِ الحِراكِ، وما أجدَرَ العاتيَ أن يرتجِفَ! وما أجدَرَ المُعتدِيَ أن يعجِزَ؛ جزاءً وِفاقًا في المصيرِ(٤)!

١٨ - قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾، جملةُ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ معترضةٌ بين جملةِ ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ وبين

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١٤).

جملةِ ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ -على القولِ بأنَّ خطابَه لهم في حياتِهم قبلَ حلولِ العذابِ- أُريد باعتراضِها التعجيلُ بالخبرِ عن نفاذِ الوعيدِ فيهم بعقبِ عتوِّهم، فالتعقيبُ عرفيٌّ، أي لم يكنْ بين العقرِ وبينَ الرجفةِ زمنٌ طويلٌ، كان بينهما ثلاثةُ أيَّام، كما ورد في آيةِ سورة هودٍ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[1].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ لفظةُ (التَّولِّي) تقتضي اليأسَ مِن خَيرِهم، واليَقينَ في هَلاكِهم[2]، وذلك على القولِ بأنَّ خطابَه لهم كان في حياتِهم قبلَ حلولِ العذابِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾

- قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ البيِّنةِ، وإضافةُ الناقةِ إلى الاسمِ الجليلِ؛ لتَعظيمِها ولمجيئِها مِن جِهتِه تعالى بلا أسبابٍ معهودةٍ، ووسائطَ مُعتادةٍ[3].

- وعَبَّر باسمِ الإشارةِ ﴿هَذِهِ﴾ مُشيرًا إليها بعدَ تَكوينِها؛ تحقيقًا لها، وتعظيمًا لشَأنِها وشَأنِه؛ في عَظيمِ خَلْقِها، وسُرعةِ تكوينِها لأجْلِه[4].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمْ﴾؛ للاهتمامِ بأنَّها كافيةٌ لهم على ما فيهم من عنادٍ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٨).

- وتَنكيرُ (الآية)؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيم، أي: آية عَظيمة القَدْر، ظاهِرة الدَّلالة على ما جِئتُكم به مِن الحقِّ[1].

٢- **قوله:** ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه النَّهي عن المسِّ الذي هو مُقدِّمةُ الإصابةِ بالسُّوءِ الجامعِ لأنواعِ الأذَى؛ مُبالغةً في الأمْرِ، وإزاحةً للعُذر[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تَعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي سُورةِ هُود قالَ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]، وفي سورة الشعراء ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦]؛ فاختَلفَ الوصفُ المختومُ به في الآياتِ الثَّلاثِ؛ وهذا لأنَّه في آيةِ الأعرافِ بالَغَ في الوعظِ فبالَغ في الوعيدِ؛ فكان التحذيرُ للقومِ على طريقِ العمومِ، وأمَّا قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود ٦٤]؛ فإنَّه اختصَّ هذا المكانَ بـ(قَرِيب)؛ لِمَا بَعدَه من قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، فقَدَّرَ المدَّةَ التي بَينَهم وبينَ هلاكِهم، وقُرْبَ ما توعَّدهم به مِن عذابِ الله لهم. وأمَّا الآية الثالثة واختصاصُها بقولِه: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٦٥]؛ فلأنَّ قَبْلَها ذِكرَ اليومينِ المقسومينِ بينَ الناقةِ وبينهم، كأنَّه قال لهم: إنْ مَنعتُموها يومَها بعَقرٍ ولم تَتركوه لها، أَخذَكم عذابُ يومٍ عظيم؛ فيومٌ تُؤلِمُونَها فيه فيكون به يومٌ يُؤلِمُكم اللهُ فيه بعَذابِ الاستئصالِ، وهو يومٌ عظيمٌ عليكم، وكل ذلك بمعنًى واحدٍ- وهو أنَّهم إنْ عَقَروها عُوقِبوا- والألفاظُ المختلفةُ دائرةٌ على هذا المعنى، واختلافُها

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠).

لاختلافِ مواضعِها المقتضيةِ تغييرَ الألفاظِ فيها[١].

٣- قولُه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ﴾ فيه توجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوَقْتِ دون ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ مع أنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ؛ للمبالغةِ في إيجابِ ذِكرِها؛ لأنَّ إيجابَ ذِكرِ الوقتِ إيجابٌ لذِكرِ ما فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ[٢].

- وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكيفيَّةِ التبوئةِ، أي: تَبْنُونَ في سُهولِها قُصورًا رفيعةً، أو تَبْنون من سُهولةِ الأرضِ بَما تَعلَمون منها مِن اللَّبِن والآجُرِّ[٣].

- وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال الله تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، وفي سورة الحِجر والشُّعراء قال: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الحجر: ٨٢، الشعراء: ١٤٩]، بـ(من) قبل (الجبال)؛ وذلك لأنَّ في الأعرافِ تَقدَّمه قولُه: ﴿مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ فاكْتَفَى بذلك[٤].

- قوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فيه تكريرٌ للتَّذكيرِ؛ لزيادةِ التقريرِ، وتَعميمٌ إثْرَ تَخصيصٍ[٥]؛ فتفريعُ الأمرِ بذِكرِ آلاءِ اللهِ على

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦١٥-٦١٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٩).

قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ تفريعُ الأعمِّ على الأخصِّ؛ لأنَّه أَمَرَهم بذِكرِ نِعمتَينِ، ثمَّ أمَرَهم بذِكرِ جَميعِ النِّعَمِ التي لا يُحصونَها؛ فكان هذا بمنزلةِ التَّذييلِ(١).

- وقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مُؤَكِّدةٌ لِمَعنى ﴿تَعْثَوْا﴾، وهو وإنْ كانَ أعَمَّ مِن المؤَكَّد، فإنَّ التَّأكيدَ يحصُلُ ببعضِ مَعنى المؤَكِّد(٢).

٤- **قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾** وصْفُهم بالذين استكْبَروا هنا؛ لتَفْظيعِ كِبْرِهم وتَعاظُمِهم على عامَّة قومِهم، واستذلالهم إيَّاهم، وللتَّنبيهِ على أنَّ الذين آمنوا بما جاءَهم به صالح عليه السلام هم ضعفاء قومه، واختِيارُ طريقِ الموصوليَّةِ في وصْفِ المستكبِرينَ، ووصْفِ الآخَرين بالَّذين استُضعفوا؛ لِمَا تُومِئ إليه الصِّلةُ من وجهِ صُدورِ هذا الكلامِ منهم، أي: إنَّ استكبارَهم هو صارفُهم عن طاعةِ نَبيِّهم، وأنَّ احتقارَهم المؤمنين هو الذي لم يُسِغْ عندهم سَبْقَهم إيَّاهم إلى الخيرِ والهُدَى(٣).

- وبناءُ الفِعلِ ﴿اسْتُضْعِفُوا﴾ للمفعولِ فيه دَليلٌ على أنَّهم في غايةِ الضَّعفِ بحيثُ يَستضعفُهم كلُّ أحدٍ(٤).

- قوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ للتَّشكيكِ والإنكارِ، أي: ما نَظنُّكم آمنتُم بصالحٍ عليه السَّلامُ عن عِلمٍ بصِدقِه، ولكنَّكم اتَّبعتُموه عن عَمًى وضلالٍ غيرَ مُوقنِين، وقدْ بَدَؤُوهم بالإنكارِ صدًّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٦).

لهم عن الإيمانِ، أو الاستفهامُ على جِهةِ الاستهزاءِ والاستخفاف[١].

– قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، جيء هنا في جَوابِ الذين استُضْعِفوا بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإيمانَ مُتمكِّنٌ منهم بمزيدِ الثَّباتِ؛ فلم يَترُكوا للذين استكبروا مَطْمَعًا في تَشكيكِهم، بَلْهَ صَرْفِهم عن الإيمانِ برَسولِهم، وفيها تأكيدُ الخبرِ بحرْف (إنَّ)؛ لإزالةِ ما تَوهَّموه من شكِّ الذين استكْبروا في صِحَّةِ إيمانِهم[٢].

– وكان مُقتضَى مُطابقةِ الجوابِ للسُّؤالِ أنْ يقولوا: (نَعَمْ)، أو: (نَعلَمُ أنَّه مُرسَلٌ من ربِّه)، أو (إنَّا بِرسالته عالمون)، ولكنَّهم أجابوا بما يَستلزِمُ هذا المعنى ويَزيد عليه: فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾؛ فهُم آمنوا به، أي: علِموا بذلك علمًا يقينيًّا إذعانيًّا، له السُّلطان على عُقولِهم وقلوبِهم[٣]، والعدولُ في حِكايةِ جوابِ الذين استُضعِفوا عن أنْ يكونَ بـ(نعم) إلى أنْ يكون بالموصولِ وصِلتِه ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الصِّلةَ تتضمَّنُ إدماجًا بتَصديقِهم بما جاء به صالحٌ مِن نحو التوحيدِ وإثباتِ البَعثِ، والدَّلالةَ على تمكُّنِهم من الإيمانِ بذلك كلِّه بما تُفيدُه الجملةُ الاسميَّةُ مِن الثباتِ والدَّوام[٤].

– وأيضًا عُدولُهم عن قولِهم: (هو مُرْسَلٌ) إلى قولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ في غايةِ الحُسنِ؛ فبِناءُ فِعل ﴿أُرْسِلَ﴾ للمَفعولِ يُشيرُ إلى تعميمِ التَّصديقِ، وإلى أنَّ كونَه مِن عند اللهِ أمرٌ مقطوعٌ به، معلومٌ واضحٌ لا يَدْخُلُه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٣).

رَيبٌ؛ فلا يحتاجُ إلى تَعيينِ رِسالتِه[١].

٥- قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ فيه تَقديمُ المجرورَينِ في قولِه: ﴿بِمَا أُرْسِلَ بِهِ﴾ و﴿بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ﴾ على عاملَيهِما؛ للاهتمامِ بمدلولِ الموصولَينِ[٢].

- ومُراجعةُ الَّذينَ استكبَرُوا بِقَولِهم: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ تدلُّ على تصَلُّبِهم في كُفرِهم، وثَباتِهم فيه؛ إذ صِيغَ كَلامُهم بالجُملةِ الاسميَّةِ المُؤَكَّدةِ[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ المرادُ بقَولِهم: ﴿بِمَا تَعِدُنَا﴾ العذابُ الذي توعَّدَهم به مُجملًا، وجيءَ بالموصولِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم لا يَخشَونَ شَيئًا ممَّا يُريدُه مِنَ الوَعيدِ المُجمَلِ[٤]، وأنزَلُوا الوعيدَ منزلةَ الوَعدِ والبِشارةِ؛ استخفافًا منهم، ومبالغةً في التَّكذيبِ، وتَهَكُّمًا منهم بصالحٍ عليه السَّلامُ، وإشارةً منهم إلى عدمِ قُدْرَتِه على ذلك[٥].

٧- قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال الله تعالى هنا في سُورةِ الأعراف في قِصَّة صالحٍ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، وكذا في قِصَّة شُعيبٍ في السُّورةِ فيما بعدُ، وفي سُورة هود قال في قِصَّة صالحٍ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ...﴾ [هود: ٦٥]، وقال في قِصَّةِ شُعَيبٍ في سورةِ هود أيضًا: ﴿وَأَخَذَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٤-٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٩).

الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]؛ فورَد في هذِه الآيةِ الأخيرةِ تَسميةُ عَذابِهم (بالصَّيحةِ)، وجمْع اسْم الدَّار، وفي الأخرى سَمَّى عَذابَهم (بالرَّجْفة) وأفرد اسمَ الدَّار؛ فأَفْرَدَ الدَّارَ في مَوضعٍ، وجَمَعها في موضعٍ، واختصاصُ مَوضعٍ بالإفرادِ، ومَوضعٍ بالجمعِ لمناسبةٍ حسنةٍ؛ وبيانُ ذلك أنَّ اسمَ (الدَّار) لفْظٌ يقَعُ على المنزلِ الواحدِ والمسكنِ المفردِ، ويَقَعُ على مَساكِنِ القبيلةِ والطائفةِ الكبيرةِ، وإنِ اتَّسعَتْ وافترقَتْ، وتعدَّدتْ مَساكِنُها ودِيارُها، إذا ضَمَّها إقليمٌ واحدٌ، واجتمعتْ في حُكمٍ أو مَذهبٍ؛ فأفْرَد (الدَّار) في كلِّ مكانٍ ذُكِر في ابتدائِه ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣، هود: ٦١]، ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤، العنكبوت: ٣٧] ولم يَذكُر إخراجَ النبيِّ ومَن آمَن معه مِن بينهم، فجَعَلهم بَني أبٍ واحد، وجعَلَهم لذلك أهلَ دارٍ واحدةٍ، ورجاءَ أيضًا أن يَصيروا بالإيمانِ فِرقةً واحدةً. وجَمَع (الدَّار) في كلِّ موضِعٍ أخْبَر عن تفرُّقِه بينهم، وإخراجِ النبيِّ ومَن آمَن منهم معَه، أخْبَر عنهم الإخبارَ الدالَّ على تفرُّقِ شملِهم، وتشتُّتِ أمرهم، وذَهابِ المعنى الذي كان يَجمَعُهم لأبٍ واحدٍ ودارٍ واحدةٍ، وأن يَصيروا مع المؤمنِينَ فِرقةً واحدةً، فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...﴾ الآيةَ إلى قوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٦٦-٦٧]؛ فالجَمْعُ حيثُ ذَكَر إخراجَه منهم مع المؤمنِينَ معه. وقيل: إنَّه حيثُ ذَكَر الرَّجفةَ- وهي الزَّلْزَلة- وحَّد الدَّار، وحيثُ ذَكَر الصَّيحة جَمَع؛ لأنَّ الزَّلْزلَةَ تَختصُّ بجزءٍ من الأرضِ، فناسَبَها الإفرادُ، ولأنَّ الصَّيحةَ كانتْ مِن السَّماءِ، وهي زائدةٌ على الرَّجْفةِ؛ فبُلوغُها أكثرُ وأبلغُ مِن الزلزلةِ؛ فناسَبَها الجَمعُ؛ فوجهُ اختيارِ لَفْظِ الجمعِ في الآيةِ من سُورة هود مناسبةُ ما اقْتَرنَ به مِن لفظ الصَّيحة، وهي عبارةٌ هنا عن العَذابِ مُطلقًا دون تقييدٍ بصفةٍ، وهو مِن

الألفاظِ الكُلِّيَّةِ؛ فإنْ لم يَكُن عامًّا فانتشارُ مواقعِه مِن حيثُ الكُلِّيَّةِ حاصلةٌ، وأمَّا الرَّجفة (الزلزلة) فلهذا اللَّفْظِ خُصوصٌ وهو جُزئيٌّ؛ فاتَّصَل كلٌّ واحدٍ بما هو لائقٌ به. ووجهُ تَخصيصِ سُورة هود بذِكرِ الصَّيحة وجمْع الدِّيار: ما وقَعَ فيها حيثُ ذُكِر قَبْلَها مِن مُرْتَكَباتِ قومِ شُعيبٍ وسُوءِ ردِّهم على نبيِّهم عليه السلام ما لم يَرِدْ مِثلُه في آيةِ سُورة الأعرافِ، كقولِهم له: ﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، ففي ردِّهم هذا استهزاءٌ وإساءةٌ وشنيعُ مُقابلةٍ لجليلِ وعْظِه عليه السَّلامُ لهم، ورأفتِه في دُعائِهم إيَّاهم بقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤] وغيرِ ذلك مِن الآياتِ؛ مِمَّا يُوضِّحُ عظيمَ تلطُّفِ هذا النبي الكريمِ في دُعائِه إيَّاهم، وما أشْنعَ ردَّهم عليه! فلهذا عَبَّر عن عذابِهم وأخْذهم بأعمَّ مِمَّا ورَد في غير هذه الآيةِ، ولَمَّا لم يَرِدْ في غيرِها مثلُ هذا في الدُّعاءِ والجوابِ، ناسَبَه اللَّفظُ الأخصُّ (الرَّجفة - الدَّار). أو يكونُ المرادُ أخْذُ قوم شُعَيبٍ بضُروبٍ مِن العذابِ؛ لقَبيحِ مُرتكبِهم وسُوءِ ردِّهم على نبيِّهم؛ وممَّا يُبيِّن ذلك قولُه تعالى في سورة الشُّعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، والظُّلَّةُ غيرُ الرَّجفةِ؛ لأنَّها زلزلة؛ فعلى هذا يكونونُ قد أُخِذوا بعذابِ الزَّلزلةِ وعذابِ الصَّيحةِ وعذابِ الظُّلَّةِ؛ فورَدَ ذلك على التَّدريجِ والتناسُبِ بحسَبِ ما ذُكِر قَبْلَ كلٍّ مِن هذا مِن مُرْتَكَباتِهم(١).

وقيل: وحَّدَ الدَّارَ في قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾؛ لأنَّه أرادَ بالدَّار البَلدَ، وجمع في آية أخرى فقال: ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [هود: ٩٤]؛ لأنَّه أرادَ بالدَّارِ ما

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦١٧-٦٢٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٠-٢٠١)، ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (١/ ١٩٧- ١٩٨).

لكُلِّ واحدٍ منهم مِن منزِلِه الخاصِّ به[١].

٨- قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ يَحتمِل أنْ يكونَ المرادُ بالتولِّي أنَّه فارَق دِيارَ قَومِه حِينَ عَلِم أنَّ العذابَ نازلٌ بهم، ويَحتمِل أنْ يكونَ يُرادُ به أنَّه أعْرَض عن النَّظرِ إلى القَريةِ بعدَ إصابتِها بالصَّاعقةِ، أو أعْرَض عن الحُزنِ عليهم، واشْتَغَل بالمؤمنِينَ، فعلَى الوجه الأوَّل يكونُ قولُه: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ...﴾ مُستعملًا في التوبيخِ لهم والتَّسجيلِ عليهم، وعلى الوجه الثاني- وهو أنَّ التولِّي كان بعدَ هلاكِهم ومُشاهدَةِ ما جرَى عليهم- يكونُ الخِطابُ والنِّداءُ مُستعملًا في التَّفجُّع عَليهم والتحسُّر، أو في التَّبرِّي منهم؛ فيكونُ النِّداءُ تَحسُّرًا؛ فلا يَقتضي كونَ أصحابِ الاسمِ المنادَى ممَّن يَعقِلُ النِّداءَ حينئذٍ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿رِسَالَةَ﴾ بالإفرادِ، وقاله في قِصَّة شُعيب بالجَمْع ﴿رِسَالَاتِ﴾؛ قيل: لأنَّ ما أمَر به شُعَيبٌ قومَه من التَّوحيدِ، وإيفاءِ الكيلِ، والنَّهيِ عن الصَّدِّ، والأَمْرِ بإقامةِ الوزنِ بالقِسطِ، أكثرُ ممَّا أمرَ به صالحٌ قومَه، والعربُ تُراعي في أجوبتِها ما نيَّتُها عليه مِن سُؤالٍ أو غيرِه، إنْ إطالةً فإطالةٌ، أو إيجازًا فإيجازٌ؛ فأجوبتُهم مُراعًى فيها المعنى، ملحوظٌ فيما وردتْ جوابًا له، ولَمَّا ورد في دُعاء شُعَيبٍ عليه السَّلام تفصيلٌ في الأمرِ والنهيِ والتَّحذيرِ، وورَد أيضًا في الكلامِ تعريفٌ بقَبيحِ ردِّهم، وشنيعِ مُرتَكبِهم في مُجاوبتِهم على أعظمِ اجترامٍ؛ فحَصَل في هذا مِن خِطابِه إيَّاهم وما رَدُّوا به وجاوَبوه عليه السَّلامُ إطنابٌ في العبارةِ وإمعانٌ فيما تَحتَها مِن المعاني في كِلا الضَّربينِ؛ فناسَب ذلك الجَمْع في قولِه: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٨).

رِسَالَاتِ رَبِّي﴾، وأمَّا قِصَّةُ صالح عليه السلامُ فلمْ يقَعْ فيها بعدَ أمْرِهم بالعبادةِ غيرُ تَعريفِهم بأمْرِ النَّاقةِ وأمْرِهم برَعْيِها، وتَذكيرهم بقومِ هُودٍ ولم تُفصَّل مكالمتُه إيَّاهم كتفصيلِ كلام شُعيب لقومه؛ فنَاسبَه الإفرادُ الواردُ في قولِه: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾[1].

- قولُه: ﴿لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ جاءَ على صِيغةِ المُضارعِ؛ فإنْ كان في حالِ سَماعِهم قولَه؛ فهو للدَّلالةِ على التَّجديدِ والتَّكريرِ، أي: لم يَزَلْ هذا دَأبكم، فيكون ذلك آخِرَ علاجٍ لإقلاعِهم إنْ كانتْ فيهم بقيَّةٌ للإقلاعِ عمَّا هم فيه. وإنْ كان بَعدَ انقضاءِ سَماعِهم فالمضارعُ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ، أي: شأنُكم الاستمرارُ على بُغضِ النَّاصِحينَ وعَداوتُهم[2].

- وجاءَ لفظُ الناصحين عامًّا، أي: أيُّ شَخصٍ نَصَح لكم لم تَقْبَلوا في أيِّ شيءٍ نَصَح لكم؛ وذلك مبالغةٌ في ذَمِّهم[3].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٢٣- ٦٢٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٢- ٢٠٤)، ((فتح الرحمن)) لزكريَّا الأنصاري (١/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٨).

الآيات (٨٠-٨٤)

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ
(٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ
(٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ
أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٨٣)
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٨٤) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿الْفَاحِشَةَ﴾: أي: إِتْيانَ الذُّكُورِ دُونَ الإناثِ، والفاحِشَةُ: هي الفِعلَةُ المُتناهِيَةُ في القُبحِ والشَّناعةِ؛ فأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبْحٍ في شيءٍ وشَناعَةٍ[(١)].

﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾: أي: يتنزَّهونَ عن إتيانِ الرِّجالِ في الأدبارِ، والتَّطَهُّرُ هو التنزُّه عَنِ الذَّمِّ وكُلِّ قَبيحٍ، وأصل (طهر): يدلُّ على نقاءٍ وزَوَالِ دَنَسٍ، ومن ذلك الطُّهْرُ، خلافُ الدَّنَسِ[(٢)].

﴿الْغَابِرِينَ﴾: أي: الباقينَ قَبلَ الهَلاكِ، أو الباقينَ في عَذابِ اللهِ، أو الهَالِكينَ، وأصلُ (غبر): يدلُّ على البَقاءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٨- ٣٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣).

المَعْنى الإجماليُّ:

واذكُرْ- يا مُحَمَّدُ- نَبِيَّ اللهِ لوطًا عليه السَّلامُ، حين قال لِقَومِه: أتَفْعلونَ الخَصلةَ التي بلَغَتْ في القُبحِ والشَّناعةِ أقصاها، ما سَبَقَكم بِفِعْلِها أحَدٌ مِنَ البَشَرِ؟! إنَّكم تَأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهم؛ رغبةً منكم في ذلك، وتَتْرُكون النِّساءَ اللَّاتي خَلَقَهُنَّ اللهُ لكم، بل أنتم قَومٌ مُسرِفونَ.

فما كان رَدَّ قَومِه إلَّا أنْ قال بعضُهم لبَعضٍ: أخْرِجُوا لُوطًا وأهْلَه مِن قَريَتِكم؛ لأنَّهم أُناسٌ يتنَزَّهونَ عمَّا تَفعلونَه.

فأنجاهُ اللهُ وأهْلَه إلَّا امرأتَه الكافِرَةَ؛ كانت مِنَ الهالِكينَ الباقِينَ في العَذابِ، وأمطَرَ اللهُ تعالى على الكُفَّارِ مِن قَومِ لُوطٍ مَطَرًا مِن حِجارةٍ، مِن طِينٍ شديدِ الحرارةِ، فانظُرْ- يا مُحمَّدُ- كيف هي نهايةُ المُجرمينَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾.

أي: واذكرْ- يا مُحمَّدُ- لوطًا عليه السَّلامُ، حين قال لِقَومِه: أتَفْعلونَ الفِعلةَ الشَّنيعةَ المُتَناهِيَةَ في القُبحِ، وهي إتيانُ الذُّكورِ في الأدبارِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٩).

قال الواحدي في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾: (يعني: إتيانَ الذُّكرانِ، في قَولِ جَميعِ المُفَسِّرينَ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٨٥).

وقال الشنقيطي: (اختلَفَ العُلَماءُ في وجهِ نَصبِ (لُوطًا) في قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ على وجهينِ مُتَقاربينِ:
=

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: لم يأتِ هذه الفِعلَةَ الشَّنيعةَ أحدٌ مِنَ البَشَرِ قَبلَكُم[1].

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أبهَمَ اللهُ تعالى الفاحِشةَ في الآيةِ السَّابقةِ؛ ليحصُلَ التشوُّفُ إلى مَعرِفَتِها؛ عيَّنَها[2] في قوله تعالى:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ قراءتانِ:

١- قراءة ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الخَبَرِ، تفسيرًا للفاحِشَةِ المذكورةِ[3].

٢- قراءة ﴿أَإِنَّكُمْ﴾ بالاستفهامِ؛ لتأكيدِ التَّوبيخِ لهم والتَّقريرِ[4].

= قال بعضُ العلماء: هو معطوفٌ على ما قَبْلَه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأرْسَلْنا هودًا إلى عادٍ ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي: وأرْسَلْنا صالحًا إلى ثمودَ، وأرسَلْنا لُوطًا أيضًا، فقال لِقَومِه كذا وكذا.

وبعضُ العُلَماءِ يقول: هو منصوبٌ بـ «اذكُرْ» محذوفًا، واذكر لوطًا حين قال لِقَومِه، وعليه يكون: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ بدلَ اشتمالٍ مِن قَوْلِه: (لُوطًا) كما قاله غيرُ واحدٍ. ((العذب النمير)) (٣/ ٥٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٥٥).

(٣) قرأ بها نافعٌ وأبو جعفرٍ وحفص. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٦٨).

(٤) قرأ بها الباقون، غيرَ أنَّ ابنَ كثير يُسَهِّل الثانية بين الهمزة والياء، وأبا عمرو يفعل كذلك ويُدخِلُ بين الهمزتين ألفًا فيَمُدُّ، وهشامًا يُدخِل بين الهمزتين ألفًا مع تخفيفهما. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧١-٣٧٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٦٨). =

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ﴾.

أي: إنَّكم- أيُّها القومُ- تأتُونَ الرِّجالَ في أدبارِهم؛ رغبةً منكم في ذلك، وتَتْركونَ إتيانَ النِّساءِ اللَّاتي خَلَقَهنَّ اللهُ لكم[1].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ لُوطٍ لِقَومِه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾.

أي: بل أنتم أناسٌ تجاوَزْتُم الحلالَ إلى الحرامِ، وتجَرَّأْتُم على مَحارِمِ الله؛ فجَعَلْتُم شَهوَتَكم في غيرِ مَحَلِّها ومَوضِعِها الصَّحيحِ[2].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ لُوطٍ لِقَومِه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

وقال سُبحانه حاكيًا أيضًا قَولَ لُوطٍ لِقَومِه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أُفحِمُوا عن المجادلةِ في شَأنِ فاحِشَتِهم، ابتَدَرُوا بالتآمُرِ على إخراجِ لُوطٍ عليه السَّلامُ وأهْلِه مِنَ القَريةِ، فقال تعالى[3]:

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٤).

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

أي: وما كان رَدَّ قومِ لُوطٍ على لُوطٍ عليه السَّلامُ، حين نهاهم عن هذه الفاحِشَةِ الشَّنيعةِ؛ سِوَى أنْ قال بعضُهم لِبعضٍ: أخرِجُوا لوطًا وأهْلَه مِن قَريَتِكم[1].

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

أي: أَخرِجُوهم؛ لأنَّهم يتنزَّهونَ عَمَّا نفعَلُه مِن إتيانِ الذُّكورِ في أدْبارِهِم[2].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٨٣﴾.

أي: فأنجَينا لُوطًا عليه السَّلامُ وأهْلَه المؤمنينَ به، إلَّا زوجَتَه الكافرةَ؛ كانت مِنَ الهالِكينَ الباقينَ في العذابِ[3].

كما قال سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥).

قال الشنقيطي: (بيَّنَ القُرآنُ أنَّ لُوطًا لم يؤمِنْ معه إلَّا أهْلُ بَيتِه فقط، وهم بناتُه. وزوجَتُه بَيَّنَ القرآنُ أنَّها كافرةٌ، وأنَّها هَلَكَتْ مع الهالكينَ، في آياتٍ كثيرةٍ، والآيةُ التي دلَّتْ على أنَّه لم يؤمِنْ معه إلَّا أهلُ بَيتِه هي قولُه في الذَّاريات: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٨ - ٣٠٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥ - ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٦).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٣٣-١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾.

أي: وأمطَرْنا على الكُفَّارِ مِن قَومِ لُوطٍ مَطرًا مِن حجارةٍ، مِن طينٍ شديدِ الحرارةِ، فعَذَّبْناهم بها[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

وقال سبحانه: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢ - ٣٤].

وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: فانظُرْ- يا مُحمَّدُ- إلى آخِرِ أمْرِ أولئك المُجرمينَ الَّذين كَفَروا باللهِ ورُسُلِه، كانت نهايتُهم أنْ أخزاهم اللهُ تعالى، وأهْلَكَهم بعذابٍ مُستأصِلٍ لهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٤-٧٧].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ في التَّقييدِ بالشَّهوةِ وَصْفُهم بالبهيميَّةِ الصِّرفةِ، وفيها أيضًا تنبيهٌ على أنَّ العاقِلَ ينبغي أن يكونَ الدَّاعِي له إلى المُباشَرةِ طَلَبَ الوَلَدِ وبقاءَ النَّوعِ، لا قضاءَ الوَطَرِ فحَسْبُ[1]، فقَصدُ الشَّهوةِ لِذَاتِها يُفضِي إلى وَضْعِها في غَيرِ مَوضِعها، وإنَّما مَوضِعُها الزَّوجةُ الشَّرعيةُ المُتَّخذةُ للنَّسلِ، وفي الحياةِ الزَّوجيَّةِ الشَّرعيةِ إحصانُ كُلٍّ مِنَ الزَّوجينِ الآخَرَ بقَصْرِ لَذَّةِ الاستمتاعِ عليه، وجَعْلِه وسيلةً للحياةِ الوالِدِيَّة التي تَنمو بها الأمَّةُ، ويُحفَظُ النَّوعُ البَشَريُّ مِنَ الزَّوالِ[2].

٢- إنَّ الإسرافَ والاسْتِرسالَ في الشَّهَواتِ قد يصِلُ بالمرءِ إلى أنْ لا يَشفِيَ شَهْوَتَه شيءٌ، لذلك وصَفَ اللهُ قَوْمَ لُوطٍ بالإسرافِ، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ فالقَومُ لَمَّا تَمَكَّنَ منهم الإسرافُ في الشَّهَواتِ؛ اشتَهَوْا شهوةً غَريبةً، لَمَّا سَئِمُوا الشَّهَواتِ المعتادةَ[3].

٣- مَن رضِي عملَ قومٍ حُشر معهم، كما حُشرت امرأةُ لوطٍ معهم، ولم تكنْ تعملُ فاحشةَ اللواطِ؛ فإنَّ ذلك لا يقعُ مِن المرأةِ، لكنَّها لما رضِيتْ فعلَهم عمَّها

= (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٢).

العذابُ معهم، قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾(١).

٤- الحَثُّ على الاعتبارِ بمآلِ مَن أجرَمَ مِن قَوْمِ نُوحٍ وهُودٍ، وصَالحٍ ولُوطٍ، وغَيرِهم مِنَ الأُمَمِ؛ لِمَا في ذلك مِن إيقاظٍ وازدجارٍ عَن سُلُوكِ مَسْلَكِهم؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(٢).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى في قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ السَّابقةِ: ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، ومِن بَعْدِه قال: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، وعَدَلَ عن هذا الأُسلوبِ في قِصَّةِ لُوطٍ، فقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يَقُلْ: (إِلَى أَهْلِ سَدُوم أخاهُم لوطًا) أو نحوَ ذلك؛ لأنَّ مِن أعظَمِ المقاصِدِ بسياقِ هذه القِصَص تسليةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، في مُخالفةِ قَوْمِه له، وعَدَمِ استِجابَتِهم وشِدَّةِ أذاهم، وإنذارَ قومِه أن يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بهذه الأُمَمِ مِنَ العَذابِ، وقَصَصُ مَن عدا قَوْمَ لوطٍ مُشابِهةٌ لِقِصَّةِ قُرَيشٍ؛ في الشِّركِ باللهِ، والأذى لعبادِه المُؤمنينَ، وأمَّا قِصَّةُ قَومِ لُوطٍ، فزائدةٌ عن ذلك بأمرٍ فظيعٍ عَظيمِ الشَّناعةِ، شَديدِ العارِ والفُحْشِ؛ فعدَلَ عن ذلك النَّسَقِ؛ تنبيهًا عليه، تَهويلًا للأمرِ وتبشيعًا له، ليكونَ في التَّسليةِ أَشَدَّ، وفي استدعاءِ الحَمدِ والشُّكرِ أَتَمَّ(٣)، وقيل: ابتُدِئَتْ بذِكْرِ (لُوطًا) كما ابتُدِئَتْ قِصَّةُ نُوحٍ بِذِكْرِ نُوحٍ؛ لأنَّه لم يكُنْ لِقَومِ لُوطٍ اسْمٌ يُعرَفونَ به، كما لم يكُنْ لِقَومِ نُوحٍ اسْمٌ يُعرَفونَ به(٤)، وقيل: إن قَومَ لُوطٍ كانوا خَليطًا مِنَ الكَنْعانِيِّينَ، ومِمَّنْ نَزَلَ حولهم؛ ولذلك لم يُوصَفْ بأنَّه أخُوهم؛ إذ لم يكُنْ مِن قَبائِلِهم، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٩).

نزَلَ فيهم، واستوطَنَ دِيارَهم، وكان لوطٌ عليه السَّلامُ قد نزَلَ ببلادِ (سَدُوم) ولم يكُنْ بينهم وبينه قَرابةٌ[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ ذَكَرَها اللهُ باسْمِ الفاحشَةِ؛ لِيُبَيِّنَ أنَّها زنا، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾[٢]، وقيل: فيه دليلٌ على أنَّه يجري مَجرَى الزِّنا: يُرجَمُ مَن أُحصِنَ، ويُجلَدُ مَن لم يُحصَنْ وفَعَلَه[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى حكايةً لِقَولِ لُوطٍ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ لَمَّا كان قَوْلُه: ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ ربَّما أوهَمَ إقامةَ عُذْرٍ لهم في عَدَمِ وِجدانِ النِّساءِ، أو عَدَمِ كِفَايَتِهنَّ لهم، أضرَبَ عنه بقَولِه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ تسميةُ هذا الفِعلِ الشَّنيعِ فاحشةً وإسرافًا؛ لأنَّه يشتمِلُ على مفاسِدَ كثيرةٍ: منها استعمالُ الشهوةِ الحيوانيَّةِ المغروزةِ في غيرِ ما غُرِزَت عليه؛ لأنَّ اللهَ خلَقَ في الإنسانِ الشَّهوةَ الحيوانيَّةَ؛ لإرادةِ بَقاءِ النَّوعِ بقانونِ التَّناسُلِ، حتى يكونَ الدَّاعي إليه قهريًّا ينساقُ إليه الإنسانُ بِطَبعِه، فقضاءُ تلك الشَّهوةِ في غير الغَرَضِ الذي وَضَعَها اللهُ لأجله؛ اعتداءٌ على الفطرةِ وعلى النَّوعِ، ولأنَّه يُغَيِّرُ خُصُوصيَّةَ الرُّجْلةِ بالنِّسبة إلى المفعولِ به؛ إذ يصيرُ في غيرِ المنزلةِ التي وَضَعه اللهُ فيها بخِلْقَتِه، ولأنَّ فيه امتهانًا مَحضًا للمفعولِ به؛ إذ يُجعَلُ آلةً لقضاءِ شَهوةِ غَيرِه، على خلافِ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٥٥).

وَضَعَ اللهُ في نظامِ الذُّكورة والأنوثةِ؛ مِن قَضاءِ الشَّهوتينِ معًا، ولأنَّه مُفضٍ إلى قَطعِ النَّسلِ أو تقليلِه، ولأنَّ ذلك الفِعلَ يجلِبُ أضرارًا للفاعِلِ والمفعولِ؛ بسبَبِ استعمالِ مَحَلَّينِ في غيرِ ما خُلِقَا له[1].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ الإسرافُ الذي يَدمَغُهم به لوطٌ في هذه الآيةِ، هو الإسرافُ في تجاوُزِ مَنهَجِ اللهِ، المُمَثَّلِ في الفِطرةِ السَّوِيَّةِ. والإسرافُ في الطَّاقَةِ التي وَهَبَهم اللهُ إيَّاها؛ لأداءِ دَوْرِهم في امتدادِ البَشَريَّة ونُمُوِّ الحياةِ، فإذا هم يُريقُونَها ويُبَعْثِرُونَها في غيرِ مَوضِعِ الإخصابِ؛ فهي مُجَرَّدُ شهوة شاذَّة؛ لأنَّ اللهَ جَعَلَ لذَّةَ الفِطرةِ الصَّادقة في تحقيقِ سُنَّةِ اللهِ الطَّبيعيَّة، فإذا وَجَدَت نفسٌ لَذَّتَها في نقيضِ هذه السُّنَّةِ، فهو الشُّذُوذ إذَن، والانحرافُ والفَسَادُ الفِطريُّ، قبل أن يكونَ فسادَ الأخلاقِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ مع قَولِه تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ في سورةِ الشُّعراء، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ في سورة النمل، مجموعُ الآياتِ يدلُّ على أنَّهم كانوا مُرزَئين بفسادِ العَقلِ والنَّفس، بجَمْعِهم بين الإسرافِ والعُدوان والجَهلِ؛ فلا هم يعقلونَ ضَرَرَ هذه الفاحشةِ في الجنايةِ على النَّسلِ، وعلى الصِّحَّة، وعلى الفَضيلةِ والآدابِ العامَّة، ولا غيرها مِن مُنكَراتِهم؛ فيَجتَنِبوها أو يجتَنِبوا الإسرافَ فيها، ولا هم على شيءٍ مِنَ الحياءِ وحُسنِ الخُلُقِ يصرِفُهم عن ذلك، والعِلمُ بالضَّرَرِ وَحدَه لا يصرِفُ عَن السُّوءِ والفسادِ، إذا حُرِمَ صاحِبُه الفضائِلَ ومكارِمَ الأخلاق، بل الفضائِلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٢).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١٥).

الموهوبةُ بِسلامةِ الفطرةِ؛ عُرضةٌ للفسادِ بِسُوءِ القُدوةِ، إلَّا إذا رَسَخَت بالفضائِلِ المكسوبةِ بتربيةِ الدِّينِ[1].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ ابتَدَرُوا بالتَّآمُرِ على إخراجِ لُوطٍ عليه السَّلامُ وأهْلِه مِنَ القَريةِ؛ لأنَّ لُوطًا عليه السَّلامُ كان غَريبًا بينهم، وقد أرادوا الاستراحةَ مِن إنكارِه عليهم، شأنُ مَن يَشْعُرونَ بفَسادِ حالِهم، المَمْنُوعينَ بِشَهَواتِهم عن الإقلاعِ عَن سَيِّئاتِهم، المُصَمِّمينَ على مُداوَمةِ ذُنُوبِهم؛ فإنَّ صُدُورَهم تَضِيقُ عَن تحمُّلِ المَوعِظةِ، وأسماعَهم تَصَمُّ لِقَبُولِها، ولم يَزَلْ مِن شَأنِ المُنغَمِسينَ في الهَوى تَجَهُّمُ حُلُولِ مَن لا يُشارِكُهم بينهم[2].

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ القَومُ لَمَّا تَمَرَّدوا على الفُسوقِ، كانوا يَعُدُّونَ الكمالَ مُنافِرًا لطِباعِهم، فلا يُطيقونَ مُعاشَرةَ أهلِ الكَمالِ، ويَذُمُّونَ ما لهم مِنَ الكَمالاتِ فيُسَمُّونها ثِقلًا؛ ولذا وَصَفُوا تنزُّهَ لُوطٍ- عليه السَّلامُ- وآلِه تَطَهُّرًا، بصيغةِ التَّكَلُّفِ والتصَنُّعِ، ويجوز أن يكونَ حِكايةً لِمَا في كَلامِهم مِنَ التَّهَكُّم بلوطٍ- عليه السَّلامُ- وآلِه، وهذا مِن قَلْبِ الحقائِقِ؛ لأجْلِ مُشايَعةِ العَوائِدِ الذَّميمةِ، وأهلُ المُجُونِ والانخلاعِ يُسَمُّون المُتَعَفِّفَ عن سِيرَتِهم، بالتَّائِبِ أو نحوِ ذلك، فقَوْلُهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قصَدُوا به ذَمَّهم[3].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ استُدِلَّ به على تَحريمِ أدبارِ النِّساءِ، فعن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قال: أي: عن أدبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٣٥).

الرِّجال وأدبارِ النِّساء[1].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، (فَأَنْجَيناه) مُقَدَّمٌ مِن تأخيرٍ، والتَّقديرُ: (فأمطَرْنا عليهم مَطرًا وأنجيناه وأهْلَه) فقدَّمَ الخبرَ بإنجاءِ لُوطٍ عليه السَّلامُ على الخَبَرِ بإمطارِهم مطرَ العَذابِ؛ لقَصدِ إظهارِ الاهتمامِ بأمرِ إنجاءِ لُوطٍ عليه السَّلامُ، ولتعجيلِ المَسَرَّةِ للسَّامعينَ مِنَ المُؤمنينَ، فتطمَئِنَّ قُلوبُهم لحُسنِ عَواقِبِ أسلافِهم مِن مُؤمِني الأُمَمِ الماضِيةِ، فيعلَمُوا أنَّ تلك سُنَّةُ اللهِ في عبادِه[2].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾، ضمَّن (أمطَرْنا) معنى أرْسَلْنا، فلذلك عَدَّاه بـ (على)[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ العقابُ إمَّا أن يكونَ أثرًا طَبيعيًّا للذَّنبِ؛ كالتَّرَف والسَّرَف في الفِسقِ؛ يُفسِدُ أخلاقَ الأمَّةِ ويَذهَبُ بِبَأسِها، أو يجعَلُه بينها شديدًا بتفَرُّقِ كَلِمَتِها واختلافِ أحزابِها وتعادِيهم، فيترَتَّبُ على ذلك تَسَلُّطُ أمَّةٍ أخرى عليها؛ تستَذِلُّها بسَلْبِ استقلالِها، وتسخيرِها في منافِعِها، حتى تكونَ حَرَضًا، أو تكونَ مِنَ الهالكينَ بِذَهابِ مُقَوِّماتِها ومُشَخصاتِها، أو اندِغامِها في الأمَّة الغالِبَةِ، أو انقراضِها، وإمَّا أن يكونَ بما يحدُثُ بسُنَنِ الله تعالى في الأرضِ مِنَ الجوائِحِ الطبيعيَّةِ؛ كالزَّلازلِ والخَسْفِ، وإمطارِ النَّارِ، والموادِّ المُصطَهرةِ التي تقذِفُها البراكينُ مِنَ الأرضِ، والأوبئَةِ- أو الانقلابات الاجتماعيَّة، كالحُروبِ والثَّورات والفِتَن[4].

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٦٠).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

- قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ والتَّعظيمِ، والتوبيخِ والتَّشنيعِ، والتَّوقيفِ على هذا الفِعل القبيحِ(١).

- وقولُه: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ أي: أتعملونَ الفاحشةَ؟ وقد كُنِّي بالإتيانِ على العَملِ المَخْصوصِ، وهي كنايةٌ مَشهورةٌ(٢).

- والألِف واللَّام في ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ للتعريفِ؛ وذلك لكونِ هذا الفِعل معهودًا قُبحُه ومَركوزًا في العُقولِ فُحشُه؛ فأتى مُعرَّفًا بالألفِ واللَّامِ. أو تكونُ (أل) فيه للجِنسِ على سَبيلِ المبالغةِ؛ كأنَّه لشِدَّة قُبحِه جُعِلَ جَميعَ الفَواحِشِ، وذلك بخِلافِ الزِّنا؛ فإنَّه قال فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، فأتَى به مُنكَّرًا، أي: فاحشةً مِن الفواحِش، وبهذا يتبيَّنَ تفاوُتُ ما بَينهما، وأنَّه سُبحانَه نكَّرَ الفاحشةَ في الزِّنا، أي: هو فاحِشَةٌ مِنَ الفَواحِشِ، وعَرَّفَها في اللُّواطِ، وذلك يُفيدُ أنَّه جامِعٌ لمعاني اسمِ الفاحشةِ، كما تقولُ: زَيدٌ الرَّجلُ، ونِعمَ الرَّجُلُ زَيدٌ، أي: أتأتونَ الخَصلةَ التي استقَرَّ فُحْشُها عند كُلِّ أحدٍ؛ فهي لِظُهورِ فُحشِها وكمالِه غَنِيَّةٌ عن ذِكْرِها، بحيثُ لا ينصَرِفُ الاسمُ إلى غَيرِها(٣).

- قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الجملةُ مستأنفةٌ، مسوقةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٩)، ((الداء والدواء)) لابن القيم (ص: ١٧٠).

لتأكيدِ النَّكيرِ، وتَشديدِ التوبيخِ والتقريعِ؛ فإنَّ مباشرةَ القبيحِ واختراعَه أقبحُ، ولقدْ أنكر الله تعالى عليهم أولًا إتيانَ الفاحشةِ بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، ثُمَّ وبَّخهم بأنَّهم أوَّلُ مَن عمِلها فقال: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ والمرادُ أنَّهم سابِقون لكلِّ مَنْ عداهم مِن العالَمين أي: أنتُم أوَّلُ مَن عمِلها؛ إذ إنَّ الجملةَ المنفيَّةَ تدلُّ على أنَّهم هم أوَّلُ مَن فَعَل هذه الفَعلةَ القَبيحةَ وأنَّهم مُبتكِروها. أو تكونُ الجملةُ مسوقةً جوابًا عن سُؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه قيل مِن جِهتهم: لم لا نأتيها؟ فقيل بَيانًا للعِلَّةِ، وإظهارًا للزاجر: ما سَبَقَكم بها أحدٌ لعِظَمِ قُبْحِها، وسُوءِ سَبيلها؛ فكيف تفعلونها[(١)]؟!

- قولُه: ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فيه مبالغةٌ؛ فـ(مِنْ) صلةٌ لَتوكيدِ نَفْيِ الجِنسِ، وإفادةِ معنى الاستغراقِ لكلِّ البَشرِ، على الظاهرِ المتبادَر، وفيه مبالغةٌ أيضًا في الإتيانِ بعُمومِ العالَمِينَ جمْعًا[(٢)].

- وفيه مناسَبةٌ حَسنةٌ حيث قال هنا في سورة الأعراف: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، وقال في سُورةِ النمل: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]؛ وذلك لأنَّ ذِكْر قِصَّةِ لُوطٍ وقومِه في سُورة الأعراف اشتملَتْ على تَبكيتِهم على الفاحشةِ، بالإخبارِ عن سَبْقِهم إلى هذه الفَعلةِ، وأمَّا في سُورة النَّملِ فالمذكورُ فيها صِفةٌ تَرجِع إلى الفَعلةِ نفْسِها ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ فإنَّهم لم يكونوا يَتكاتمون بها في مجالِسهم، ولَمَّا كان وصفُهم بأنَّهم لم يُسبَقوا إليها حقُّه أن يجيءَ بعدَ توفيةِ الفاحشةِ حقَّ وصْفِها في نفْسِها، أخَّرَ ذِكرَه إلى حِكايةِ القِصَّةِ في سورة

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٤-٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٥٣-٤٥٤).

الأعراف؛ إذ هي بعدَ سُورةِ النَّملِ في التَّرتيبِ نُزولًا[١].

- وأيضًا فإنَّ قولَه هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، وكذلك في سُورةِ النَّملِ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، الهمزةُ للاستفهامِ المقصودِ به الإنكارُ، والتعظيمُ في تَوبيخِهم على الفاحِشةِ الشَّنعاء، وجاءَ في سُورة العنكبوت: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] بالإخبارِ؛ وذلك لمناسَبةٍ حَسنةٍ؛ أنَّه لَمَّا تَقدَّم في الأعرافِ ذِكرُ الأممِ المكذِّبين، ومُرتَكَباتِهم السيِّئةِ، مِن مُعاندِتهم للرُّسُلِ وتَكذيبِهم؛ ممَّا اسْتَوْجَبوا به العذابَ، وأَخْذَ كلِّ طائفةٍ بذَنبِها، ناسَب ذِكرَ الأُممِ المكذِّبين قَبْلَهم تقريعُ هؤلاء بكونِهم أوَّلَ مَن فَعَل تلك الشَّناعة، وأنَّهم لم يَسْبِقْهم بها أحدٌ من الأُمم السابقةِ لهم، فقِيل لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ بالاستفهامِ، أمَّا في سورة العنكبوت فإنَّه لَمَّا تقدَّم في سورتَي الأعرافِ والنَّملِ تقريرُهم تقريعًا وتوبيخًا، وعُرِفوا بذلك مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، وردتْ قِصَّتُهم في العنكبوت مُؤكَّدةً بـ(إنَّ) واللام؛ لثُبوتها، فوردتْ موردَ ما يَجيءُ بعدَ القَسَم؛ إذ قد تَقدَّم تقريرُهم التَّوبيخي مرَّتينِ فجاءَ الإخبارُ بعدُ بِما به يُخبَر عن المتقرِّرِ الثابت، ولم يَكُن ليناسبَ العكس، وهذا على مُقتضَى الترتيبِ في السُّورِ والآي؛ فجاءَ كلٌّ على ما يجِبُ[٢].

٢- قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لِتلك الفاحشةِ، وفي زيادةِ (إنَّ) واللام في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ مَزيدُ توبيخٍ وتقريعٍ؛ كأنَّ ذلك أمرٌ لا يُتحقَّقُ صُدورُه عن أحدٍ، فيُؤكَّد تأكيدًا قويًّا، وفي إيرادِ لفْظ ﴿الرِّجال﴾ دُون الغِلمان والمردان ونحوهما مبالغةٌ في التوبيخ كذلِك[٣].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٣٧-٦٣٨).
(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٦-٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٥).

- وقوله: ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ فيه زيادةٌ في التَّفظيعِ، وقطعٌ للعُذرِ في فِعلِ هذه الفاحشةِ[1].

- وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ إضرابٌ عن الإنكارِ إلى الإخبارِ عن حالِهم التي أدَّتْ بهم إلى ارتكابِ أمثالها، وهي اعتيادُ الإسراف في كلِّ شيء، أو إضرابٌ عن الإنكارِ عليها إلى الذمِّ على جميعِ مَعايبِهم، أو عن مَحذوفٍ، والتقديرُ: لا عُذْرَ لكم فيه، بل أنتم قومٌ عادتُكم الإسرافُ[2].

- و﴿مُسْرِفُونَ﴾ اسمُ فاعلٍ، وهو يدُلُّ على الثُّبوتِ؛ فلا يَزالُ صاحبُ هذا الفِعلِ يُعاوِدُه حتَّى يَكونَ مَلَكةً راسخةً له؛ فتكرارُ العملِ يُكوِّن المَلكةَ، والمَلَكةُ تَدْعو إلى تَكرارِ العَملِ والإصرارِ عليه، وهذا وجهُ إضرابِ الانتقالِ مِن إسنادِ إتيانِ الفاحشةِ إليهم بفِعلِ المضارعِ المفيدِ للتَّكرارِ والاستمرارِ إلى إسنادِ صِفةِ الإسرافِ إليهم بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾، أي: لستُم تأتون هذه الفاحشةَ المرَّةَ بعدَ المرَّةِ بعدَ نَدمٍ وتوبةٍ عقِبَ كلِّ مرَّةٍ، بل أنتُم مُسرِفون فيها وفي سائرِ أعمالِكم، لا تَقِفون عندَ حدِّ الاعتدالِ في عَمَلٍ مِن الأعمالِ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بلفظ السَّرفِ والاسمِ، وفي سورة النَّمل قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، بلفظِ الجهلِ والفِعل؛ ووجه ذلك أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ لوطٌ عليه السَّلامُ لَمَّا كانتْ له مع قومِه مَقاماتٌ قال في بعضِها هذا اللفظ، وفي بعضِها اللفظَ الآخَر؛ تكثيرًا للفائدةِ في التَّعبيرِ عن المرادِ بلفظيْن مُتساوييْن معنًى؛ إذْ كلُّ سَرَفٍ جهلٌ، وبالعكسِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٥٤).

والمسرِفُ مُجهَّل بإسرافِه، والجاهِل مُسرِفٌ بأفعالِه؛ إذ الإسرافُ مجاوزةُ الحدِّ الواجبِ إلى الفسادِ. وأمَّا اختصاصُ ﴿مُسْرِفِينَ﴾ بسُورةِ الأعراف، فلأنَّ الآياتِ التي قَبْلها فواصلُها أسماءٌ جُمِعت هذا الجمع وهي: (مفسدين- مؤمنون- كافرون- العالمين- المرسلين- النَّاصحين... إلى آخَرِها)، وهكذا إلى أنِ انْتَهى إلى هذه الآيةِ، فكانَ الاسمُ أحقَّ بالوضعِ في هذا المكانِ؛ لتَتساوَى الفواصلُ. وأمَّا في سورة النَّملِ فتقدَّم الآيةَ التي فاصلتُها: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥] أفعالٌ، وهي: (يعلمون- يتقون- يبصرون)؛ فلمَّا تناسقتْ هذه الأفعالُ في هذه الفواصِلِ كان بناءُ قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥] على ما قَبْلَها بلفظِ الفِعلِ أَوْلى بها، فجاءَ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ في هذا الموضِع، و﴿مُسْرِفُونَ﴾ في الأوَّلِ لهذا من القَصْدِ[١].

وقيل: بلْ قَصَد بما ذَكَر في سُورةِ الأعراف الإشارةَ إلى التعريفِ بانهِماكهم في الجرائمِ، وقَبيحِ المُرتَكباتِ؛ فنَصَّ على أفحشِها، وحصَل الإيماءُ إلى ما وراءَ ذلك بما ذُكِر مِن إسرافِهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾، ولَمَّا قِيل في سورة النَّمل: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]، كان أهمُّ شيءٍ أنْ تُنفَى عنهم فائدةُ الأبصارِ؛ إذ لم تُغْنِ عنهم شيئًا، فأَعْقَب بقولِه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، أي: إنَّ مُرْتَكَبَكم مع عِلمكم بشنيعِ ما فيه مِن أقبحِ ما يَرتكِبُه الجُهَّالُ، ولم يَذكُرْ هنا إسرافَهم؛ إذ قدْ حصَل فيما ذُكِر في الأعراف[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ أُخرَى حيثُ عَدَل في سُورةِ العنكبوتِ عن قوله: ﴿شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ الذي هنا في الأعرافِ إلى قولِه: ﴿وَتَقْطَعُونَ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٣٢-٦٣٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٤-١٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٨).

السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ لقصدِ تفصيلِ ما أُشير إليه في الأعرافِ مِن شَنيعِ ما ارْتَكبوه مِن إسرافِهم، فقيل: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ فورَد أوَّلًا- بحسَبِ التَّرتيبِ المتقرِّر عليه السورُ والآيات- في الأعرافِ ذِكرُ أفحشِ مُرتَكَباتِهم، ثم أَجْملَ القولَ في سائرِ جرائمِهم، ثم أَتْبع في السُّورةِ الثانيةِ (سورة النمل) بشَنيعِ حالهم في تِلك الفَعلةِ المنصوصِ عليها مِن حيثُ بيانُ فُحشِها للأبصارِ والبصائرِ، ثمَّ أَتْبَع ذلك في السورة الثالثةِ (سورة العنكبوت) بتَفصيلِ بعضِ قبائِحِ أفعالِهم والتنصيصِ عليها، وجاءَ كلُّه على ما يَجِبُ، ولا يُمكن العكسُ فيما ورَدَ[1].

٣- قوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قاله هنا في الأعراف بالواوِ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، وقال فيما أَشْبَهه مِن سُورتَي النمل والعنكبوت: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [النمل: ٥٦، العنكبوت:٢٩] بالفاءِ؛ وذلِك لأنَّ ما هُنا في الأعراف تَقدَّمه اسمٌ هو: ﴿مُسْرِفُونَ﴾، والاسمُ لا يُناسبه التعقيبُ، وما في النَّمل تَقدَّمه فِعلٌ هو: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، وفي العنكبوت تَقدَّمه فِعلٌ أيضًا: ﴿تَقْطَعُونَ﴾ و﴿تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والفعلُ يُناسِبُه التعقيبُ، فناسبَ ذكرُ الفاءِ الدَّالة عليه[2].

- وأيضًا قال الله تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾، وفي سورة النَّمل قال: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ [النمل: ٥٦]، وفي سُورة

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٣٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٠٠).

العنكبوت قال: ﴿قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ وذلك لمناسَبةٍ حَسنةٍ؛ وهي أنَّه لَمَّا زِيد في تَعنيفِهم في النَّمل بقولِه: ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٧]، وتعريفِهم بإتيانِهم الفاحشةَ على عِلمٍ بها أو مع مُشاهَدةِ بعضِهم بعضًا، وعدمِ استخفائِهم بها، وذلك أقبحُ في المُرتكَب؛ زِيدَ في الإخراجِ التنصيصُ على الآلِ؛ لأنَّ قوله: ﴿آلَ لُوطٍ﴾ أنصُّ في إخراجِ جميعِ مَن للوطٍ عليه السلام مِن ذَويه وأهلِه مِن قوله: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾، فكانتْ زيادةُ التنصيصِ الأعمِّ بإزاءِ الأزيدِ في التقريعِ. ولَمَّا عدَّد مِن قبائحِ مُرتكباتهم في سورةِ العنكبوت ما عدَّد بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فكان تَعدادُ مُرتكباتِهم أشدَّ توبيخًا في تقريعِهم وأَنْكأَ، كان مَظِنَّةَ تَهيجٍ، واشتعالٍ لسَيِّئِ أخلاقِهم، وقبيحِ جوابِهم، فجاوبوا جوابَ مَن استحكَم حنْقُه، وطُبِع على قلبِه فقالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ تحكيمًا وتحقيقًا لتكذيبِهم، وشاهدًا بتَصميمِهم على المعاندةِ والكُفرِ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ جِيء بالخبرِ جُملةً فِعليَّةً مُضارعيَّةً ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ لدَلالتِها على أنَّ التَّطهُّرَ مُتكرِّرٌ منهم ومُتجدِّد، وذلك أَدْعَى لمُنافرتِهم طِباعَهم والغضبِ عليهم، وتَجهُّم إنكارِ لوطٍ عليه السَّلام عليهم؛ فهم قدْ عَلِموا هذا التطهُّرَ مِن خُلُقِ لُوطٍ عليه السلام وأهلِه؛ لأنَّهم عاشَرُوهم، ورَأَوْا سِيرتَهم[(٢)].

٤- قوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ قال: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ولم يقُلْ: (مِن الغابرات) مِن باب تَغليبِ الذُّكورِ إذا اجْتَمَعوا مع الإناثِ، ولبيانِ استِحقاقِها

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٥).

لِمَا يَستحقُّه المباشِرون للفاحشةِ. وجملةُ ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ استئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نَشأَ عن استثنائِها مِن حُكمِ الإنجاءِ، كأنَّه قيل: فماذا كان حالُها؟ فقيل: كانتْ مِن الغابرينَ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، وقال في سورة النمل: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]، وفي سُورة الحِجر قال: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠]، ووجْهُ ذلك أنَّ اختصاصَ ﴿كَانَتْ﴾ بآيةِ الأعراف؛ مُناسِبُ إيجازًا لقولِه: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾، وقولَه في النَّمل: ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ مُناسِبٌ لقولِه: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾، وقولَه في الحِجر: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا﴾ يَجري مع ما وُكِد قبلُ بـ(إنَّ) ويُناسِبه، كقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٨-٥٩]، فقيل مُناسبًا لذلك: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا﴾[2] [الحجر: ٦٠].

وقِيل: إنَّ القِصَّةَ التي في سُورة النَّمل نازلةٌ قبلَ القِصَّة التي في سُورةِ الأعراف، بدليلِ الإضمارِ والإظهارِ؛ فلمَّا ذَكَر في الآيةِ المنزلةِ أوَّلًا قولَه: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]، أحال في الثانية على الأُولى في البيانِ، فقال: ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، أي: في تَقديرِ الله الذي قَدَّرَه لها، وأَخْبَر فيما قبلُ عن حُكمِه عليها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٦).

قال ابنُ جرير: (وقيل: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ولم يَقُلْ: (الغَابِرَات)؛ لأنَّه يريدُ أنَّها مِمَّنْ بَقِيَ مع الرِّجالِ، فلما ضَمَّ ذِكرَها إلى ذِكْرِ الرِّجالِ، قيل: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٨). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٣٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٥).

٥- قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾

- تَنكيرُ ﴿مَطَرًا﴾ للتَّعظيمِ والتعجُّب، أي: مَطرًا عجيبًا مِن شأنِه أن يُهلِكَ القُرى[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، وفي سُورةِ النَّملِ قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، فاختَلفَ التعقيبُ في الآيتَينِ؛ لأنَّه لَمَّا تَقدَّم في الأعرافِ قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ حصَل منه أنَّ ارتكابَهم ما لم يَسْبِقْ إليه غَيرُهم قد جَمَعَ إلى قَبيحِ الفُحشِ الاجترامَ، مِن حيثُ لم يَفعلْ تلك الفَعلةَ الشَّنعاءَ مَن تَقدَّمهم؛ فلمَّا أُجْمِع إلى الفُحشِ الاجترام أُعْقِب بقولِه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾. ولَمَّا تقدَّم في سورة النَّمل قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] حصَل منه تَعنيفٌ وإنذارٌ لم يَقَعْ مِثلُه في الأعرافِ؛ إذ ليس موقعُ قولِه: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] في الإنذارِ والتعنيفِ كموقعِ تعريفِهم بعِلمهم بها، وشناعةِ مُعاينةِ بعضِهم بعضًا مِن ارتكابِها؛ فناسَب إنذارَهم بهذا ما أُعْقِب به مِن قولِه: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، ولو أُعْقِبتْ آيةُ الأعراف بهذا أو آيةُ النمل بما أُعقبتْ به آيةُ الأعراف لم يَكُن مُتناسِبًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٠).

الآيات (٨٥-٨٧)

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾: أي: لا تَنْقُصُوا، ولَا تَظلِموا، والبَخْسُ: نَقصُ الشَّيءِ على سَبيلِ الظُّلمِ، وأصلُ (بخس): يدلُّ على النَّقْصِ[1].

﴿تُوعِدُونَ﴾: أي: تَتوعَّدون وتُخوِّفونَ، والوَعدُ يكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، والوعيدُ في الشَّرِّ فقط، وأصلُ (وعد): يدلُّ على تَرجِيَةٍ بقولٍ[2].

﴿عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾: أي: آخرُ أمرِهم، والعاقِبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطلِقَتْ، وقد تُستعمَلُ في العُقوبةِ أو ما يؤدِّي إليه السَّبَبُ المتقدِّمُ إذا أُضيفَتْ، وأصل (عقب): تأخيرُ شيءٍ، وإتيانُه بعدَ غيرِه[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، =

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى قبيلةِ مَدْينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا؛ لِيدعُوَهم إلى عبادَةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه، فقال لهم: اعبُدُوا اللهَ وَحدَه؛ ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، قد أتَتْكُم حُجَّةٌ واضحةٌ مِن رَبِّكم، على صِدقِ ما جِئْتُ به، فأوفُوا الكَيلَ والميزانَ، ولا تنقُصُوا النَّاسَ حُقوقَهم، ولا تُفسِدُوا في الأرضِ بعد إصلاحِها، هذا الذي أُمِرْتُم به مِن إخلاصِ العِبادةِ لله، وإيفاءِ حُقوقِ النَّاسِ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ؛ خَيرٌ لكم إن كنتم مُؤمنينَ، ولا تَجلِسُوا بكلِّ طَرِيقٍ تَتوَعَّدونَ النَّاسَ بالقَتلِ أو العَذابِ، وتَمنعونَ عن طاعةِ اللهِ مَن آمَنَ به، وتَصْرِفونَه عن اتِّباعِ نَبِيِّه، وتطلبونَ لِسَبيلِ اللهِ أنْ تكونَ مائلةً، واذكروا حين كُنتُم قليلًا في العَدَدِ فكَثَّرَكم اللهُ تعالى، وانظُرُوا كيف كان عاقبةُ المُفسدينَ، وإن كانت طائفةٌ منكم آمَنُوا بالذي أرسَلَني اللهُ به، وطائفةٌ لم يُؤمِنُوا؛ فاصبِرُوا حتى يحكُمَ اللهُ بيننا، وهو خَيرُ الحاكمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥)﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

أي: وأَرْسَلْنا إلى قبيلةِ مَدْينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعيبًا عليه السَّلامُ؛ لِيَدعُوَهم

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه، وينهاهم عَن عِبادَةِ غَيْرِه، وينهاهم عَنِ الفَسادِ في الأرضِ، فقال لهم: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ وَحْدَه؛ ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، فلا تُشْرِكوا به شيئًا(١).

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: قال شُعَيبٌ لِقَومِه: قد جاءَتْكم حُجَّةٌ واضِحةٌ مِن خالِقِكم ومالِكِكم ومُدَبِّرِ شُؤونِكم، على صِدْقِ ما جِئْتُكم به مِن إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما مِنَ الأنبياءِ مِن نبيٍّ إلَّا قد أُعطِيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كان الذي أُوتِيتُ وَحيًا أوحَى اللهُ إليَّ، فأرجُو أن أكونَ أكثَرَهم تابعًا يومَ القِيامةِ))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٧٨ - ٥٨٠).

قال ابنُ كثير: (﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي دلالةٌ وحُجَّةٌ واضحة، وبرهانٌ قاطِعٌ على صِدْقِ ما جِئتُكم به، وأنَّه أرسَلَني، وهو ما أجرى اللهُ على يَدَيه مِنَ المعجزاتِ التي لم تُنقَل إلينا تفصيلًا، وإن كان هذا اللَّفظُ قد دلَّ عليها إجمالًا). ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٢٩). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٣).

(٣) رواه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢).

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾.

أي: فأتِمُّوا للنَّاسِ حُقُوقَهم؛ بإتمامِ كَيلِ المِكيالِ، ووَزنِ المِيزانِ[1].

كما قال تعالى حاكيًا قَوْلَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٢].

وقال سُبحانَه حاكيًا أيضًا قَولَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٤-٨٥].

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

أي: ولا تَنقُصُوا النَّاسَ حُقُوقَهم[2].

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٨٦ - ٥٨٧).

قال الرازي: (المرادُ أنَّه لَمَّا منَعَ قَومَه مِنَ البَخسِ في الكيلِ والوَزنِ؛ منَعَهم بعد ذلك من البَخسِ والتنقيصِ بجَميعِ الوجوهِ، ويدخلُ فيه المنعُ مِنَ الغَصبِ والسَّرِقة، وأخذِ الرِّشوة وقطعِ الطَّرِيقِ، وانتزاعِ الأموالِ بطريقِ الحِيَلِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٣ - ٣١٤).

وقال القرطبي: (البخسُ: النَّقصُ، وهو يكونُ في السِّلعة بالتَّعييبِ والتَّزهيد فيها، أو المخادعةِ عَنِ القيمةِ، والاحتيالِ في التزيُّدِ في الكَيلِ والنقصان منه، وكلُّ ذلك مِن أكْلِ المالِ بالباطِلِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٨). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣١٨).

أي: ولا تُفسِدُوا في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي وظُلْمِ النَّاسِ، بعد أنْ أصلَحَ اللهُ تعالى الأرضَ ببَعْثِ الرُّسُلِ، والأمرِ بالعَدْلِ(١).

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقَدَّمَ إليهم بالأمرِ والنَّهيِ؛ أشارَ إلى عَظَمةِ ما تضَمَّنَه ذلك؛ حثًّا لهم على امْتِثالِه، فقال(٢):

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: هذا الذي أمَرْتُكم به؛ مِن إخلاصِ العِبادةِ للهِ، وإيفاءِ حُقُوقِ النَّاسِ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ- أنفَعُ لكم في دُنياكم وآخِرَتِكم، إنْ كُنتُم حقًّا مُؤمنينَ باللهِ وبرَسولِه وباليَومِ الآخِرِ(٣).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود:٨٦].

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٤)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٥).

قال ابنُ عاشور في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: (المرادُ بالتَّقييدِ نَفْيُ الخَيرِ الكامِلِ عن تلكَ الأعمالِ الصَّالحةِ، إن لم يكُنْ فاعِلُوها مؤمنينَ باللهِ حَقَّ الإيمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان للتَّعميمِ بعدَ التَّخصيصِ، والتَّفصيلِ بعد الإجمالِ؛ مِنَ الموقِعِ في النُّفوسِ ما لا يخفَى، وكان النَّهيُ عن الإفسادِ بالصَّدِّ عَن سَبيلِ اللهِ؛ هو المقصودَ بالذَّاتِ؛ لأنَّه يَنهى عن كُلِّ فسادٍ- خَصَّه بالذِّكْرِ؛ إشارةً إلى أنَّه زُبدةُ المرادِ بعد التَّعميمِ، فقال[1]:

﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾.

أي: ولا تَجلِسُوا بكُلِّ طَريقٍ تُهَدِّدونَ النَّاسَ بالقَتلِ أو العذابِ، إن لم يُعطُوكم أموالَهم[2]، أو إن أرادُوا الإيمانَ باللهِ، واتِّباعَ نَبيِّه شُعَيبٍ عليه السَّلامُ[3].

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾.

أي: وتَمنعونَ عن طاعةِ اللهِ مَن آمَنَ باللهِ، وتَصرِفُونَهم عنِ اتِّباعِ نَبيِّ اللهِ[4].

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦١).

(٢) وممَّن اختارَ هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٣) وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٦ - ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٨-٢٤٩).

وجمع الواحدي بين القولين. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤٠٢).

وقال الشوكاني: (أي: لا تقعُدُوا بكلِّ طَريقٍ تُوعِدُونَ النَّاسَ بالعذاب، قيل: كانوا يقعُدونَ في الطُّرُقاتِ المُفضِيَةِ إلى شُعَيبٍ، فيتوعَّدونَ مَن أراد المجيءَ إليه. وقيل: المرادُ بالآية: النهيُ عن قَطعِ الطَّريقِ، وأخذِ السَّلبِ، وكان ذلك من فِعْلِهم، وقيل: إنَّهم كانوا عشَّارينَ يأخُذونَ الجِبايةَ في الطُّرُقِ مِن أموالِ النَّاسِ، فنُهُوا عن ذلك. والقولُ الأوَّلُ أقرَبُها إلى الصَّوابِ، مع أنَّه لا مانِعَ مِن حَملِ النَّهيِ على جميعِ هذه الأقوالِ المذكورة). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٥)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٩٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦).

أي: تودُّونَ أن تكونَ سبيلُ اللهِ معوجَّةً، وتلتمسون لها الزيغَ؛ بإلقاءِ الشُّبَهِ أو بِوَصْفِها للنَّاسِ بالبطلان والضلال، وتُميلُونها اتِّباعًا لأهوائِكم(١).

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾.

أي: واذكُرُوا حينَ كُنتُم قليلًا عَدَدُكم، فكثَّركم اللهُ، فصِرْتُم أعِزَّةً أقوياءَ، فاشكُرُوه وأخْلِصُوا له العبادةَ(٢).

﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا رَغَّبَهم اللهُ تعالى بالتَّذكيرِ بالنِّعمةِ؛ حَذَّرَهم بالتَّذكيرِ بأهْلِ النِّقمةِ، فقال(٣):

﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: وانظُرُوا إلى آخِرِ أمْرِ المُفسدينَ، الذين أفسَدُوا في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي، مِنَ الأُمَمِ قَبلكم؛ فقد حَلَّ بهم العذابُ والخِزيُ والنَّكالُ(٤).

كما قال تعالى حاكيًا قَوْلَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٥)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦).

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾.

أي: وإن كانَتْ جماعةٌ منكم آمَنُوا بما أرسَلَني اللهُ به؛ مِن إفرادِه بالعبادةِ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ، وجماعةٌ أخرى لم يُؤمِنُوا بذلك- فانتَظِروا حُكمَ اللهِ وقَضاءَه بيننا[1].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

أي: واللهُ خَيرُ مَن يَحكُمُ بين عِبادِه المُخْتلِفينَ، فيُنجِّي المؤمنينَ، ويُهلِكُ الكافرينَ[2].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ دالٌّ على النَّصيحةِ والشَّفَقةِ مَع مَن يَدعُوهم، وذلك مِن خِلالِ تَذْكيرِهم بالقَرابةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٥٩).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ بدأ شعيبٌ عليه السَّلامُ بِدَعوَتِهم إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وإفرادِه سُبحانَه بالألوهِيَّة، وإلى الدَّينونةِ له وَحدَه، وإفرادِه- مِن ثَمَّ- بالسُّلطانِ في أُمورِ الحياةِ كُلِّها؛ بدأ بهذه القاعدةِ التي يَعلَمُ أنَّه منها تنبثِقُ كُلُّ مناهِجِ الحياةِ، وكُلُّ أوضاعِها، كما أنَّ منها تنبَثِقُ قواعِدُ السُّلوكِ والخُلُق والتَّعامُل، ولا تستقيمُ كُلُّها إلَّا إذا استقامَتْ هذه القاعدةُ[1]، فبدأ شعيبٌ عليه السَّلامُ بِدَعوَتِهم إلى توحيدِ العبادةِ، وثنَّى بالأوامِرِ والنَّواهِي[2].

٣- عادةُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ أنَّهم إذا رَأَوْا قَوْمَهم مُقْبِلينَ على نوعٍ مِن أنواعِ المفاسِدِ إقبالًا أكثَرَ مِن إقبالِهم على سائِرِ أنواعِ المفاسِدِ؛ بَدَؤُوا بمَنْعِهم عن ذلك النَّوعِ، وكان قَومُ شُعَيبٍ مَشغوفينَ بالبَخْسِ والتَّطفيفِ؛ فلهذا السَّبَبِ بدأ بذِكرِ هذه الواقعةِ، فقال: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾[3]، وعلى الدُّعاةِ أن يهتمُّوا بذلك، فقدوتُهم في ذلك الأنبياءُ، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٤- تَرْكُ المعاصي- امتثالًا لأمرِ اللهِ تعالى، وتقَرُّبًا إليه- خيرٌ وأنفَعُ للعَبدِ مِن ارتكابِها المُوجِبِ لسَخَطِ الجَبَّارِ، وعذابِ النَّارِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[4].

٥- قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الإشارةُ بـ ﴿ذلكم﴾ إلى كُلِّ ما تَقَدَّمَ مِن أمرٍ ونَهيٍ، أي: هو خيرٌ لهم في دِينِهم ودُنياهم، لا تكليفُ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٦٨، ٤٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦).

إعناتٍ، فاللهُ لا يأمُرُ إلَّا بما هو نافِعٌ، ولا ينهى إلَّا عما هو ضارٌّ، وهو على كلِّ حالٍ غَنِيٌّ عن العالَمِينَ، ولو شاء لأعنَتَهم، ولكِنَّه رحيمٌ لا يفعَلُ ذلك(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ التَّوحيدَ واجتنابَ نَزَعاتِ الشِّركِ ترفَعُ قَدْرَ الإنسانِ، وتُطَهِّرُ عَقلَه ونَفْسَه مِنَ الخُرافاتِ والأوهامِ، وتَعتِقُ إرادَتَه من العبوديَّة والذِّلَّةِ لمخلوقٍ مِثلِه مُساوٍ له؛ في كَونِه مَخلوقًا مُسَخَّرًا لإرادةِ الخالِقِ وسُنَنِه، وإن فاقَه في عَظَمةِ الخَلقِ أو عِظَمِ المنفعةِ كالشَّمسِ، أو بعضِ الصِّفاتِ أو الخصائِصِ؛ كالأنبياءِ والملائكةِ، وغَيرِ ذلك مِمَّا عُبِدَ مِن دُونِ الله، أو في المُلكِ والسُّلطان، فالتَّوحيدُ في العبادةِ هو لمصلحةِ النَّاسِ وتَكريمِهم وإعلاءِ شَأنِهم، وكذلك سائِرُ العباداتِ وأحكامُ الحَظرِ والإباحةِ، كما أنَّه قد ثبت بالدَّلائلِ العقليَّةِ والنَّقليَّةِ والتجارِبِ الدَّقيقة أنَّ مَلَكاتِ الفَضائِلِ لا تنطبِعُ في الأنفُسِ إلَّا بالتربيةِ الدِّينيةِ؛ ولذلك تَقِلُّ السَّرقةُ والخيانةُ في البلادِ التي يغلِبُ على أهلِها التَّدَيُّنُ الصَّحيحُ(٢).

٧- المؤمِنُ يُثابُ على فِعلِه؛ لِبنائِه له على أساسِ الإيمانِ، والكافِرُ أعمالُه فاسدةٌ، فلا يكونُ فِعْلُه خيرًا له مِن جِهَةِ إسعادِه في الآخرةِ؛ لأنَّه لا ثوابَ له؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ دلالةٌ على أنَّ الواجِبَ هو الاحترامُ والتعظيمُ للسَّبيلِ التي نصَبَها اللهُ لعبادِه؛ لِيَسلُكُوها إلى مَرضاتِه ودارِ كَرامَتِه، ورَحِمَهم بها

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٧٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٤٧١- ٤٧٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦١).

أعظَمَ رحمةٍ، مع القيامِ بنُصْرَتِها والدَّعوةِ إليها والذَّبِّ عنها[١].

٩- تَذَكُّرُ كَثرةِ إنعامِ اللهِ تعالى، يحمِلُ على الطَّاعةِ، والبُعْدِ عَنِ المَعصيةِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾[٢].

١٠- تذكُّرُ عاقبةِ المُفسدينَ وما لَحِقَهم مِنَ الخِزيِ والنَّكالِ؛ زاجِرٌ عَنِ العِصيانِ والفَسادِ؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ حُسْنُ التلَطُّفِ في المحاوَرةِ مع المُخالِفِ؛ فهذا الكلامُ مِن أحسَنِ ما تُلُطِّفَ به في المحاورةِ؛ إذ برَزَ المتَحَقِّقُ في صورةِ المشكوكِ فيه، وذلك أنَّه قد آمَنَ به طائفةٌ بدليلِ قَوْلِ المُستكبرينَ عن الإيمانِ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾[٤].

١٢- حُكمُ اللهِ بَينَ عِبادِه نوعان: حُكمٌ شَرعيٌّ يُوحِيه إلى رُسُلِه، وحُكمٌ فِعليٌّ يَفصِلُ فيه بين الخَلقِ بمُقتَضى عَدْلِه وسُنَنِه، وهذا الثَّاني كما في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) وإنَّما حَكَم تعالى بين الأُمَمِ بنَصرِ أقْرَبِها إلى العَدلِ والإصلاحِ في الأرضِ، وحُكْمُه هو الحَقُّ، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، فلْيَعتَبِرِ المسلمونَ بهذا قبلَ كُلِّ أحدٍ، ولْيَعرِضوا حالَهم وحالَ دُوَلِهم على القُرآنِ وعلى أحكامِ اللهِ لهم وعليهم؛ لعَلَّهم يَثُوبونَ إلى رُشْدِهم، ويَتُوبونَ إلى ربِّهم، فيُعيدَ إليهم ما سُلِبَ منهم، ويَرفَعَ مَقْتَه وغَضَبَه عنهم[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٧٦-٤٧٧).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قِصَّةِ قَومِ شُعَيبٍ شيءٌ من الإطالةِ، بالقياسِ إلى نظائِرِها في هذا الموضِعِ، ذلك أنَّها تتضَمَّنُ غيرَ قضيَّةِ العَقيدةِ شيئًا عَنِ المُعاملاتِ(1).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ غايةُ ما يُفيدُه القرآنُ: أنَّ اللهَ بعَثَ نَبِيَّه شُعيبًا إلى أهلِ مَدينَ، وذكَرَ اللهُ في سُوَرٍ أُخرَى أنَّ شُعَيبًا أُرسِلَ أيضًا إلى أصحابِ الأيْكةِ، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦] والعُلَماءُ مُختلِفونَ: هل أصحابُ الأيْكةِ هم مَدينُ أنفُسُهم، فيكون شُعَيبٌ أُرسِلَ إلى أمَّةٍ واحدةٍ، أو مَدينُ أمَّةٌ، وأصحابُ الأيكةِ أُمَّةٌ أخرى، فيكونُ شُعَيبٌ قد أُرسِلَ إلى أُمَّتَينِ؟ هذا خلافٌ مَعروفٌ بينَ العُلَماءِ، وأكثَرُ أهلِ العِلمِ على أنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ، كانوا يَعبُدُونَ أيكةً، أي: شَجرًا مُلتفًّا، وأنَّ اللهَ سَمَّاهم مرَّةً بِنَسَبِهم (مَدْيَن) ومَرَّةً أضافَهم إلى الأيكةِ التي يعبُدونَها.

والذين قالوا: إنَّهما أمَّتانِ قالوا: في (مدين) قال إنَّه أخوهم؛ حيث قال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أمَّا أصحابُ الأيكةِ، فلم يقُلْ إنَّه أخوهم، بل قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧] ولم يقُلْ: أخوهم شعيبٌ.

وأُجيبَ عن هذا بأنَّه لَمَّا ذكَرَ مَدينَ ذكَرَ الجَدَّ الذي يشمَلُ القبيلةَ، ومِن جُملَتِها شُعيبٌ- ذَكَرَ أنَّه أخوهم مِنَ النَّسَبِ، أمَّا قَولُه: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ فمعناه: أنَّهم يَعْبُدونَها، ولَمَّا ذكَرَهم في مقامِ الشِّركِ وعبادةِ غَيرِ اللهِ، لم يُدخِلْ معهم شُعَيبًا في ذلك، وهم أمَّةٌ واحدةٌ. والله أعلم(2).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١٧).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٧٢، ٥٧٣).

القولُ بأنَّ أصحابَ الأيكةِ هم أهلُ مدينَ هو قولُ أكثرِ أهلِ العلمِ، واختاره ابنُ جريرٍ وابنُ =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ جاء تجريدُ الفِعلِ في: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ مِنَ الفاء هنا، فقيل: ذلك للدَّلالةِ على أنَّ كَلامَه هذا، ليس هو الذي فاتَحهم به في ابتداءِ رِسالَتِه، بل هو مِمَّا خاطَبَهم به بعد أنْ دعاهم مِرارًا، وبعد أنْ آمَنَ به مَن آمَنَ منهم[1].

٤- ما جاءَ في هذا التَّشريعِ في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ هو أصلٌ مِن أُصولِ رَواجِ المعاملةِ بَينَ الأمَّةِ؛ لأنَّ المُعامَلاتِ تعتَمِدُ الثِّقَةَ المتبادَلَةَ بين الأمَّةِ، وإنَّما تحصُلُ بِشُيوعِ الأمانةِ فيها، فإذا حصَلَ ذلك نَشِطَ النَّاسُ للتَّعامُلِ؛ فالمُنتِج يزدادُ إنتاجًا وعَرْضًا في الأسواقِ، والطَّالِبُ من تاجرٍ أو مُستهلِكٍ يُقبِلُ على الأسواقِ آمنًا، لا يخشى غَبنًا ولا خديعةً ولا خِلابةً، فتتوفَّرُ السِّلَعُ في الأمَّةِ، وتستغني عن اجتلابِ أقواتِها وحاجِيَّاتِها وتَحسينيَّاتِها، فيقومُ نَماءُ المدينةِ والحضارةِ على أساسٍ مَتينٍ، ويعيشُ النَّاسُ في رخاءٍ وتحابُبٍ وتآخٍ، وبضِدِّ ذلك يختَلُّ حالُ الأمَّةِ بمقدارِ تَفَشِّي ضِدِّ ذلك[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ في إضافةِ الأشياءِ إلى النَّاسِ دليلٌ على مِلْكِهم إيَّاها[3].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ

= كثيرٍ، وممن ذهب إليه مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس وابنُ زيدٍ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٤٣٨).

وذهب قتادةُ- كما في ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٧)- ومقاتلُ بنُ سليمانَ- كما في ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٣/ ٣٤٧)- وابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (١٩/ ١٨٣) إلى أن مدينَ غيرُ أصحابِ الأيكةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٥).

اللَّهِ﴾ لَمَّا كان طريقُ الدِّينِ أهَمَّ؛ خَصَّه بالذِّكرِ، فقال: ﴿وَتَصُدُّونَ﴾، أي: تُوقِعونَ الصَّدَّ- على سبيلِ الاستمرارِ- ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أخَّرَ النَّهيَ عن الصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، بعد جُملةِ ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولم يجعَلْه في نَسَقِ الأوامِرِ والنَّواهِي الماضيةِ، ثم يُعقِبْه بِقَولِه: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ لأنَّه رَتَّبَ الكلامَ على الابتداءِ بالدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، ثمَّ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ؛ لِمُناسَبةِ أنَّ الجَميعَ فيه صلاحُ المُخاطبينَ، فأعقَبَها ببيانِ أنَّها خَيرٌ لهم، إن كانوا مُؤمنينَ، فأعاد تَنبيهَهم إلى الإيمانِ، وإلى أنَّه شَرْطٌ في صلاحِ الأعمالِ، وبمُناسبةِ ذِكرِ الإيمانِ عاد إلى النَّهيِ عن صَدِّ الرَّاغبينَ فيه[2].

٨- جاء النَّهيُ الواردُ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ من قِبَل شُعَيبٍ عليه السَّلامُ عَقِبَ النَّهيِ عَن قَطعِهم الطُّرقَ على مَن يَغشى مَجلِسَه عليه السَّلامُ، ويَسمَعُ دَعوَتَه (على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ)، فقيل: ذلك لا لأنَّ اقتِرافَه دون اقترافِ التَّطفيفِ في الكَيلِ والميزانِ، وبَخْسِ الحُقوقِ؛ بل لأنَّه مُتأخِّرٌ عنها في الزَّمَنِ، فالدَّعوةُ قد وُجِّهَتْ أوَّلًا إلى أقرَبِ النَّاسِ إليه في بَلَدِه، ثمَّ إلى الأقرَبِ فالأقرَبِ منهم، وممَّن يزورُ أرضَهم، وقد كان الأقرَبونَ دارًا هم الأبعَدينَ استجابةً له في الأكثَرِ، وتلك سُنَّةُ اللهِ في الخَلقِ، فلمَّا رَأَوْا غَيرَهم يَقبَلُ دَعوَتَه ويَعقِلُها ويَهتَدِي بها؛ شَرَعُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عنه[3].

٩- حاصِلُ ما أمَرَ به شُعَيبٌ عليه السَّلامُ قَومَه، بعد الأمرِ بالتَّوحيدِ؛ ينحَصِرُ في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٧٤).

ثلاثةِ أُصُولٍ: هي حِفظُ حُقوقِ المعاملةِ الماليَّةِ، وحِفظُ نظامِ الأمَّةِ ومَصالِحِها، وحِفظُ حُقوقِ حُرِّيَّةِ الاستهداءِ.

فالأصلُ الأوَّلُ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، فإيفاءُ الكَيلِ والميزانِ يَرجِعُ إلى حِفظِ حُقوقِ المُشتَرِينَ، وأمَّا النَّهيُ عن بَخْسِ النَّاسِ أشياءَهم فيرجِعُ إلى حِفظِ حُقوقِ البائِعِ.

والأصلُ الثَّاني يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

والأصلُ الثَّالثُ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ...﴾[1].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ لَمَّا كانت أفعالُهم نَقْصَ النَّاسِ؛ إمَّا في الأموالِ بالبَخسِ، وإمَّا في الإيمانِ والنُّصرةِ بالصَّدِّ- ذَكَّرَهم أنَّ اللهَ تعالى فعَلَ معهم ضِدَّ ذلك مِنَ التَّكثيرِ بعد القِلَّةِ، فقال: ﴿فكَثَّرَكُم﴾ أي: كثَّرَ عَدَدَكم وأموالَكم، وكُلَّ شَيءٍ يُنسَبُ إليكم، فلا تُقابِلوا النِّعمةَ بِضِدِّها[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ مِن حِكَمِ تَذكيرِهم بهذه النِّعمةِ أنْ يُقابِلُوها باعتبارِ نِقمَتِه تعالى مِنَ الَّذينَ غَضِبَ عليهم؛ إذ استأصَلَهم بعد أن كانوا كثيرًا، فذلك مِن تَمايُزِ الأشياءِ بأضدادِها؛ فلذلك أعقَبَه بِقَولِه: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ بَنَى ﴿أُرْسِلْتُ﴾ للمَفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ الفاعِلَ معروفٌ بما تقَدَّمَ مِنَ السِّياقِ، وأنَّه صار بحيث لا يتطَرَّقُ إليه شَكٌّ؛ لِمَا نَصَبَ مِنَ الدَّلالاتِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٣-٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦٣).

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إنَّما قال: ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنَّه قد يُسمَّى بعضُ الأشخاصِ حاكِمًا، ولكن الحاكِم في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

- قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ استِئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نَشأَ عن حِكايةِ إرسالِه إليهم، كأنَّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[٢].

- قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مُتعلِّق بـ﴿جَاءَتْكُمْ﴾، أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لفاعِله، مُؤكِّدةٌ لفخامتِه الذاتيَّةِ المستفادَةِ مِن تنكيرِه بفخامتِه الإضافيةِ، أي: بيِّنةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ، كائنةٌ من ربِّكم ومالكِ أُمورِكم[٣].

- قولُه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ إنَّما خصَّ هذَينِ التَّحيُّلينِ بالأمْرِ والنَّهي المذكورين؛ لأنَّهما كانا شائعَينِ عند مَدْيَن، ولأنَّ التحيُّلاتِ في المعاملةِ الماليةِ تَنحصِرُ فيهما، وعلى هذا فالنَّهيُ في قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أفادَ معنًى غيرَ الذي أفادَه الأمرُ في قولِه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾، وليس ذلك النهيُ جاريًا مجرَى العِلَّةِ للأمرِ، أو التأكيدِ لمضمونِه- كما فَسَّر به بعضُ المفسِّرين[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٤).

- والتَّنكيرُ في قولِه: ﴿خَيْرٌ﴾ للتعظيمِ والكمالِ؛ لأنَّه جامعٌ خيرَيِ الدُّنيا والآخِرة[1].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

- قوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ فيه حَذفُ المُوعَدِ به؛ لتذهَبَ النَّفْسُ فيه كُلَّ مَذْهَبٍ مِنَ الشَّرِّ[2].

- و(كُل) في قوله: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ للعُمومِ، وهو عمومٌ عُرْفي، أي: كلِّ صِراطٍ مُبلِّغٍ إلى القريةِ، أو إلى منزلِ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ[3].

- وقوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ فيه التعبيرُ عن الإيمانِ بالفِعلِ الماضي في قَولِه: ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ عِوضًا عَنِ المُضارعِ- حيث المرادُ بمَن آمَنَ: قاصِدُ الإيمانِ-؛ لتَحقيقِ عَزمِ القاصِدِ على الإيمانِ، فهو لولا أنَّهم يَصُدُّونَه، لكان قد آمَنَ[4].

- قوله: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيه تهديدٌ لهم، وتذكيرٌ بعاقِبَةِ مَن أَفْسدَ قَبْلَهم، وتمثيلٌ لهم بمَنْ حلَّ به العذابُ مِن قومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ، وكانوا قريبي عهدٍ بما أجاب المُؤتَفِكةَ[5].

٣- قوله: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٩).

- قوله: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ أَمرٌ فيه قوةُ التَّهديدِ والوعيدِ للكافِرين بانتقامِ الله تَعالَى منهم(١).

- وقوله: ﴿وَهُو خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ تذييلٌ بالثَّناءِ على اللهِ تعالى بأنَّ حُكمَه عَدْلٌ محضٌ، لا يَحتمِل الظُّلمَ عمدًا ولا خطأً(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٥١).

الآيات (٨٨-٩٣)

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾.

غَريبُ الكلمات:

﴿مِلَّتِنَا﴾: أي: دِينِنا، وطريقتِنا، والمِلَّةُ مُشتقَّةٌ من (أَمْلَلْتُ)؛ لأنَّها تُبنَى على مَسموعٍ ومَتْلُوٍّ، وإذا أُريدَ الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاء إليه قيل: (مِلَّة)، وإذا أُريدَ باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له قيل: (دِين)[1].

﴿افْتَرَيْنَا﴾: أي: اخْتَلَقْنَا، وكَذَبْنا؛ والافتراءُ الاختلاقُ، ومنه قِيل: افترَى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري) قَطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[2].

﴿تَوَكَّلْنَا﴾: التوكُّل هو تَفويضُ الأمرِ إلى مَن يُتوكَّلُ عليه، والاعتمادُ عليه،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤- ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

والثِّقةُ بِه، وأَصْلُ (وكل): يدُلُّ على اعتمادِ غَيرِكَ في أمْرِكَ(١).

﴿افْتَحْ﴾: أي: اقْضِ، أو احْكُمْ بَيْننا، وأَصْلُ الفَتْحِ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكالِ(٢).

﴿لَمْ يَغْنَوْا﴾: أي: لَمْ يَعيشوا، أو لَمْ يَنزِلوا، وغَنِيَ القومُ في دارِهِمْ: أقاموا، كأنَّهم استغنَوْا بها، وأَصْلُ (غني): يدُلُّ على الكِفايةِ، والاسْتغناءِ عن الغَيرِ(٣).

﴿آسَى﴾: أي: أحْزَنُ، يُقَالُ: أَسِيتُ على الشَّيءِ آسَى أَسًى، أي: حَزِنْتُ عليه، وأصْلُ (أسي): الحزنُ(٤).

المعنى الإجماليُّ:

قال الرُّؤساءُ المُتكبِّرونُ من قوم شُعَيْبٍ: لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ، ومَنْ آمَنَ معك من قريتِنا، أو لَتَرْجِعُنَّ إلى دِينِنا، قال لهم شعيبٌ مُنْكِرًا عليهم: أتُعيدوننا إلى دِينِكم حتَّى لو كُنَّا كارهينَ له؟! قدِ افْتَرَيْنا على اللهِ كَذِبًا إنْ رجَعْنا إلى دِينِكم بعَدْ أنْ نجَّانا اللهُ منه، وما يكون لنا الرُّجوعُ إليه إلَّا أنْ يشاءَ ربُّنا، وَسِعَ ربُّنا كُلَّ شيءٍ عِلْمًا، على الله اعتمَدْنَا في جميعِ أُمورِنا، ثم دعا ربَّه قائلًا: ربَّنا احْكُمْ بَيْننا وبين قومِنَا بحُكْمِكَ، وانصُرْنا عليهم، وأنتَ خَيْرُ الحاكمينَ.

وقال الرُّؤَساءُ الَّذين كَفَروا من قومِ شعيبٍ لِمَنْ هم دونَهم: لَئِنِ اتَّبعتُم شعيبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

إنَّكم إذًا لخاسِرونَ.

فأخَذَتِ الكفَّارَ من قوم شعيبٍ زلزلةٌ شديدةٌ، فصاروا في بَلْدَتِهم صَرْعَى مُنكبِّينَ على وُجوهِهم، لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهِمْ، خامدينَ لا حياةَ فيهم.

الَّذين كذَّبوا شعيبًا قد هَلَكوا، وكأنَّهم لم يُقيموا قَطُّ في بلدِهم، ولم يَتمتَّعوا فيها، الَّذين كذَّبوا شعيبًا كانوا هُمُ الخاسرينَ.

فانصَرَفَ عنهم شعيبٌ، وقال: يا قومِ لقدْ أَبلغْتُكم ما أُرْسِلْتُ به من ربِّي، ونصَحْتُ لكم؛ فكيف يَشتدُّ حُزْني على قومٍ كافرينَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ (٨٨)﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤساءُ الذين تكبَّروا عن الإيمانِ بشعيبٍ عليه السلامُ واتِّباعِه من قومِه: واللهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيبُ ومَنْ آمَنَ معك من مدينتِنا، أو لَترْجِعَنَّ أنتَ وهُمْ إلى دِينِنا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٤، ٥٩٨).
في معنى قوله: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ إشكالٌ أُجيبَ عنه بعِدَّةِ أجوبةٍ واحتمالاتٍ ذكَرها كثيرٌ مِنَ المفسِّرينَ.
قال الشنقيطي: (وفي هذه الآيةِ الكريمةِ سؤالٌ معروفٌ مشهورٌ؛ لأن ظاهرَ القرآنِ هنا أن شعيبًا قد دَخَلَ في ملتهم سابقًا يومًا؛ لأنَّ قولَهم مخاطبونَ له: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وقول شعيبٍ مُجيبًا لهم: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ يدلُّ بظاهرِه على أنه قد كان فيها سابقًا يومًا ما. وأكثرُ العلماءِ يقولونَ: إن الأنبياءَ- صلواتُ اللهِ وسلامُه =

= عليهم- معادنُ وَحْيٍ، ومحلُّ الخيرِ، واللهُ يقول: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فلا يكفرونَ باللهِ؛ لأنَّ فِطْرَتَهم التي وُلدوا عليها لا يُبَدِّلُها اللَّهُ بالكفرِ لمكانتِهم عندَه، فبعضُ العلماءِ يقولُ: لو فَرَضْنا أنهم وقعَ منهم بعضُ الشركِ وأنابوا إلى اللَّهِ، [فإنهم يصيرونَ إلى مثلِ حالِهم] قَبْلَه وصارَ كأنه لم يَكُنْ. وأكثرُ الأصوليين وعلماءِ التفسيرِ أن شعيبًا لم يكنْ كافرًا يومًا ما. ويجابُ عن ظاهرِ الآيةِ بجوابينِ:

أحدُهما: أن العربَ تطلقُ لفظةَ (عَادَ) إطلاقين:

أحدُهما: عَادَ إلى أمرٍ كان فيه سَابِقًا.

والثاني: تقولُ العربُ: عَادَ كذا كذا. بمعنَى: صار إلى كذا من جَدِيدٍ.

الوجهُ الثاني: وبه قال غيرُ واحدٍ: أن نَبِيَّ اللَّهِ شُعَيْبًا كان معه جماعةٌ من قومِه آمنوا به، فالذين آمنوا به من قومِه كانوا كُفَّارًا على ملةِ قومِهم، وهم عددٌ كثيرٌ، وهو رجلٌ واحدٌ [فعُبِّرَ] باسمِ العددِ الكثيرِ، وَغَلَّبُوهُ على ذلك الواحدِ، والتزمَ معهم شعيبٌ في هذا الخطابِ تَغْلِيبًا لقومِه الأكثرين. وظاهرُ كلامِ ابنِ جريرٍ- رحمه الله- في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ من سورةِ الأعرافِ ذَاهِبًا أن شعيبًا كان معهم- سابقًا- على مِلَّتِهم، وكذلك قال صَرِيحًا عن إبراهيمَ في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] . ونحنُ نقولُ: إن قولَه في الخليلِ إبراهيمَ غَلَطٌ مَحْضٌ، لا شَكَّ فيه؛ لأن الآياتِ القرآنيةَ صَرَّحَتْ بأن إبراهيمَ لم يكن من المشركين، فنفيُ هذا عن إبراهيمَ صريحٌ، ونفيُه عن شعيبٍ لم يَقُمْ دليلٌ عليه في الصراحةِ كإبراهيمَ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٩٥) بتصرف.

وقال الثعالبي: (للعربِ فعلٌ لا يقولُه غيرُهم. تقولُ: عاد فلانٌ شيخًا. وهو لم يكنْ قطُّ شيخًا، و: عادَ الماءُ آجنًا. وهو لم يكنْ كذلك. قال الهذليُّ:

أطْعَتُ العِرْسَ في الشَّهواتِ حتَّى ... أعادَتْني أَسِيفًا عَبْدَ عَبْدِ.

وهو لم يكنْ قبلُ أسيفًا حتى يعودَ إلى تلك الحالِ، وفي كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ وهم لم يكونوا في نورٍ مِن قبلُ، ومثله قولُه تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهم لم يبلُغوا أرذلَ العمرِ فيُرَدُّوا إليه). ((فقه اللغة وسر العربية)) (ص: ٢٦٨).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٣١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٨)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٣٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦-٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٦-٥٩٧).

وذهب ابنُ تيميَّةَ إلى أنَّ الآيةَ على ظاهرِها ولا إشكالَ فيها، فقال: (ظاهرُهُ دليلٌ على أنَّ شعيبًا والَّذين آمنوا معه كانوا على مِلَّةِ قومِهم؛ لقولِهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، ولقولِ شعيبٍ: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩]، =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾.

أي: قال شعيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِهِ مُنْكِرًا عليهم: أَتُجبرونَنا على العَوْدةِ إلى مِلَّتِكم قَهْرًا، وإنْ كنَّا كارهينَ لها؛ لعِلْمِنا ببُطْلانِها[1]؟!

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾.

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾.

= فدَلَّ على أنَّهم كانوا فيها، ولقولِهِ: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾، فدَلَّ على أنَّ اللهَ أنجاهم منها بعد التَّلوُّثِ بها، ولقولِهِ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾، ولا يجوز أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا على قومِهِ؛ لأنَّه صرَّحَ فيه بقولِهِ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾، ولأنَّه هو المُحاوِرُ له بقولِهِ: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ إلى آخِرِها، وهذا يجبُ أنْ يدخُلَ فيه المتكلِّمُ، ومِثْلُ هذا في سورةِ إبراهيمَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]. ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٩).

وقال أيضًا: (التَّحقيقُ أنَّ اللهَ سبحانَه إنَّما يصطفي لرسالتِهِ مَنْ كان خِيارَ قومِهِ حتَّى في النَّسبِ كما في حديثِ هِرَقْلَ، ومَنْ نشأ بين قومٍ مشركين جُهَّالٍ لم يكنْ عليه نَقْصٌ إذا كان على مِثْلِ دِينِهم إذا كان معروفًا بالصِّدْقِ والأمانةِ وفِعْلِ ما يَعرِفون وجوبَهُ وتَرْكِ ما يعرفون قُبْحَهُ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فلَمْ يكنْ هؤلاءِ مُستوجِبينَ العذابَ، وليس في هذا ما يُنَفِّرُ عَنِ القَبولِ منهم؛ ولهذا لم يذكُرْهُ أحدٌ مِنَ المشركين قادحًا، وقدِ اتَّفقوا على جوازِ بَعْثةِ رسولٍ لا يَعرِفُ ما جاءَتْ به الرُّسلُ قَبْلَهُ مِنَ النُّبوَّةِ والشَّرائعِ، وأنَّ مَنْ لم يُقِرَّ بذلك بَعْدَ الرِّسالةِ فهو كافرٌ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٠). ويُنظر: ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تيمية (١/ ١٦٠ - ٢٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٨).

أي: قال شعيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِهِ الكافرينَ: قدِ اختلَقْنا على اللهِ كَذِبًا إنْ نحن رجَعْنا إلى دِينِكم، الَّذي هو الكفرُ والشِّركُ، بعْدَ أنْ أنقَذَنا اللهُ منه، فَصِرْنا مؤمنينَ باللهِ، لا نُشرِكُ به شيئًا[1].

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾.

أي: وما يصِحُّ لنا ولا ينبغي أبدًا أنْ نَرجِعَ إلى مِلَّتِكُمُ الباطلةِ، ونترُكَ دِينَ الحقِّ الَّذي هَدانا اللهُ إليه، إلَّا أنْ يكونَ قدْ سبَقَ في عِلْمِ اللهِ تعالى أنَّا نَعودُ إليها، فتمْضِي فِينَا حِينَئِذٍ مشيئةُ اللَّهِ، التابعةُ لعلمِه وحكمتِه؛ إذْ لا مَفَرَّ عمَّا شاءَ وقدَّرَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الإنسان: ٣٠-٣١].

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾.

أي: وَسِعَ عِلْمُ اللهِ كُلَّ شيءٍ، فلا يَخْفى عليه ما كان، ولا ما سيَكونُ[3].

كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٩- ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٠).
وممَّنْ قال بنحوِ التَّفسيرِ المذكورِ مِنَ السَّلَفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٠).

أي: على اللهِ وَحْدَهُ نَعتمِدُ في جميعِ أُمورِنا(١).

كما قال تعالى حاكيًا قَوْلَ شعيبٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: يا ربَّنا، احْكُمْ بَيْننا وبَيْنَ قومِنا الكفَّارِ بحُكْمِكَ الحقِّ، وانصُرْنا عليهم(٢).

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ﴾.

أي: وأنتَ- يا أللهُ- خيرُ الحاكمينَ؛ فحُكْمُكَ بين عبادِكَ عَدْلٌ، لا ظُلْمَ فيه أبدًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٦).

قال الزَّجَّاجُ: (أي: أَظهِرْ أَمْرَنا؛ حتَّى يَنفتِحَ ما بيننا وبين قومِنا ويَنكشِفَ، فجائزٌ أَنْ يكونَ يَسألونَ بهذا أنْ يَنْزِلَ بقومِهم مِنَ العذابِ والهَلَكَةِ ما يَظهَرُ به أنَّ الحقَّ معهم). ((معاني القرآن)) (٢/ ٣٥٨).

وقال السعديُّ: (فسَألوا اللهَ أنْ يَفتَحَ بينهم وبين قومِهم بالحقِّ والعَدْلِ، وأنْ يُرِيَهُمْ من آياتِهِ وعِبَرِهِ ما يكون فاصلًا بين الفريقين). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٦).

قال السَّعديُّ: (وفَتْحُهُ تعالى لِعبادِهِ نوعانِ: فَتْحُ العِلْمِ، بتبيينِ الحقِّ مِنَ الباطلِ، والهُدى مِنَ الضَّلالِ، ومَنْ هو مِنَ المُستقيمينَ على الصِّراطِ ممَّنْ هو مُنحرِفٌ عنه. والنَّوعُ الثَّاني: فَتْحُه بالجَزاءِ وإيقاعِ العقوبةِ على الظَّالمينَ، والنَّجاةِ والإكرامِ للصَّالحينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا يَئِسَ الملأُ مِن قومِ شعيبٍ- عليه السَّلامُ- مِن عَوْدتِهِ في مِلَّتِهم، وعَلِموا أنَّه ثابتٌ على مُقارَعَتِهم، خافوا أنْ يَكْثُرَ المُهتَدونَ به من قومِهم، فحذَّروهم ذلك بما حَكاهُ اللهُ تعالى عنهم في قولِهِ[1]:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤَساءُ الكَفَرَةُ من قومِ شعيبٍ عليه السَّلامُ؛ تحذيرًا لِمَنْ دونَهم مِنَ النَّاسِ مِنِ اتِّباعِهِ[2]: واللهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُم شعيبًا؛ فتركْتُم دِينكم وآمَنْتُم بما يَدعوكُم إليه، لَهَلَكْتُم وَشَقيتُم، وخَسِرْتُم مصالِحَكُمُ الدُّنيويَّةَ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠).

(٢) اختار أنَّ خطابَ المِلأِ الذين كفروا موجَّهٌ إلى آخرينَ منهم مِن أتباعِهم: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٠/ ٣٢١)، وابن عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٤٢٩)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٧/ ٢٥١)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (٣/ ٦٠٧)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٩/ ١٣).
قال ابن عاشور: (والمخاطَبُ في قولِه: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ هم الحاضرونَ حينَ الخطابِ لدَى الملإِ، فحُكِي كلامُ الملإِ كما صَدَر منهم، والسِّياقُ يُفَسِّرُ المعنيِّينَ بالخِطابِ، أعني عامَّةَ قومِ شعيبٍ الباقينَ على الكفرِ).
وظاهرُ قولِ الرازي في ((تفسيره)) (١٤/ ٣١٩) والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٩٦) أنَّ خطاب الكفَّار هنا للمؤمنين بشعيبٍ عليه السَّلام.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٧).
قال الشِّنقيطيُّ: (ومعنى خُسْرانِهم: يَزعُمونَ أنَّهم عِندَ ذلك يَشْتَرونَ الضَّلالةَ بالهُدى، زاعمينَ أنَّ الهُدى هو الكُفْرُ الَّذي كانوا عليه، وأنَّ اتِّباعَ نبيِّ اللهِ ضلالٌ، ومن خُسْرانِهم المزعوم: أنَّهم كانوا يَنتفِعونَ بأموالِ النَّاسِ إذا أضلُّوهم وبَخَسوهُم أشياءَهم، وطفَّفوا لهم المِكيالَ والميزانَ، =

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾.

أي: فأَخَذَتْ(١) أولئكَ الكفَّارَ الزلزلةُ الشَّديدةُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

أي: فصارَ الكفَّارُ في بَلَدِهم لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم، ومُنكبِّينَ على وُجوهِهم صَرْعى، خامِدينَ لا حياةَ فيهم(٣).

= ونبيُّ اللهِ شعيبٌ يُضيِّقُ عليهم هذه المصالحَ الدُّنيويَّةَ، فيَخسَرونَ ما كانوا يأخُذونَه من أموالِ النَّاسِ ظُلمًا). ((العذب النمير)) (٣/ ٦٠٧- ٦٠٨).

(١) جعَلَ ابنُ عاشورٍ الفاءَ في قولِهِ سُبحانَه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ للتَّعقيبِ، فقال: (والفاءُ في: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ للتَّعقيبِ، أي: كان أَخْذُ الرَّجفةِ إيَّاهم عَقِبَ قولِهم لقومِهم ما قالوا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣).

وجعَلَها الشِّنقيطيُّ للسَّببيَّةِ، فقال: (﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وإلحادِهم). ((العذب النمير)) (٣/ ٦٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (أصابَهم عذابُ يومِ الظُّلَّةِ، وهي سحابةٌ أظلَّتْهم، فيها شَرَرٌ من نارٍ ولَهَبٍ، ووَهَجٌ عظيمٌ، ثمَّ جاءَتْهم صيحةٌ مِنَ السَّماءِ، ورَجْفَةٌ مِنَ الأرضِ شديدةٌ من أسفلَ منهم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٧- ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٣).

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَا﴾.

أي: الَّذين كذَّبوا شعيبًا عليه السَّلامُ قد هَلَكوا، وكأنَّهم لم يُقيموا قَطُّ في بَلَدِهم، ولم يَتمتَّعوا فيها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤-٩٥].

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

أي: لم يكُنِ الخاسِرُ مَنِ اتَّبَعَ شعيبًا عليه السَّلامُ، بل الَّذين كذَّبوه كانوا هُمُ الخاسرينَ الهالِكينَ؛ لأنَّهم خَسِروا دِينَهم وأَنفُسَهم وأَهْليهم يومَ القيامةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾.

أي: فانْصَرَفَ شعيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن قومِهِ بعْدَ حُلولِ العذابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦١٢- ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦١٥).

بهم[١]، وقال مُخاطِبًا لهم توبيخًا وعِتابًا[٢]: لقدْ أَدَّيْتُ إليكم- يا قومي- جميعَ ما أَمَرني اللهُ تعالى بأدائِه إليكم[٣].

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾.

أي: وأردْتُ لَكُمُ الْخَيْرَ في الدُّنيا والآخِرةِ، واجتهدْتُ في هِدايتِكم؛ فأَمَرْتُكم بما فيه خيرٌ لكم، ونَهَيْتُكُمْ عمَّا فيه شَرٌّ لكم، فلم تَقبَلوا نُصْحي، ولا انْقَدْتُم لإرشادي، بل طَغَيْتُم وتمَرَّدْتُم حتَّى أهْلَكَكُمُ اللهُ[٤].

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: فكيف يَشتدُّ حُزني على قومٍ كَفَروا باللهِ عزَّ وجلَّ، وكذَّبوا رسولَهُ؟! فَهُمْ لا خيرَ فيهم[٥].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١ - أمْرُ الدِّينِ هو الأعظمُ عِندَ المؤمنِ، والمُؤثِّرُ في أمْرِ الدُّنيا؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ

(١) اختار أنَّ مُخاطَبتَهم كانت بعْدَ هلاكِهم وموتِهم: ابنُ كثيرٍ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥).
واختار أنَّ مُخاطَبتَهم كانت قَبْلَ هلاكِهم وموتِهم: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٦). ويُنظر ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٠-٦٢١).

(٢) اختارَه ابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٤٤٩)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٩٧).
وقيل: خاطَبَهم بذلك حزنًا، وحَسرةً وشفقةً عليهم، وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيَّةَ، وابن عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾؛ فشعيبٌ عليه السَّلامُ لم يُؤْثِرْ هو ومَنْ آمَنَ معه التَّمتُّعَ بالإقامةِ في وطَنِهم، ومُجاراةَ أَهْليهم في كُفرِهم ورَذائِلِهم على مَرْضاةِ اللهِ تعالى[1].

٢- لم تَزَلِ الأنبياءُ والأكابرُ يخافونَ العاقبةَ، وانقلابَ الأمْرِ، فلو بلَغَ العبْدُ مِنَ الطَّاعةِ ما بلَغَ فلا ينبغي له أنْ يُفارِقَه هذا الحَذَرُ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[2].

٣- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾، افْتَرَقَ طريقُ شعيبٍ عليه السَّلامُ- بعْدَ أنْ كان أخاهم- عن طريقِهم، فافترَق مَصيرُه عن مَصيرِهم، حتَّى لم يَعُدْ يَأْسَى على مَصيرِهم الأليمِ، وعلى ضَيْعَتِهم في الغابِرينَ: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؛ إنَّه من مِلَّةٍ وهُمْ من مِلَّةٍ؛ فهو أُمَّةٌ وهم أُمَّةٌ، أمَّا صِلةُ الأنسابِ والأقوامِ فلا اعْتِبارَ لها في هذا الدِّينِ، ولا وزْنَ لها في ميزانِ اللهِ؛ فالوَشيجَةُ الباقيةُ هي وشيجةُ هذا الدِّينِ، والارتباطُ بين النَّاسِ إنَّما يكون في حَبْلِ اللهِ المتينِ[3].

٤- قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ قومَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤-٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٢٢).

الرَّجلِ إذا كانوا أعداءً للهِ، فأهلَكَهم اللهُ بذُنوبِهم، فلا ينبغي له أنْ يحزَنَ عليهم؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا للحُزْنِ عليهم؛ لِعَداوتِهم للهِ ورسلِهِ(١).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ التعبيرُ بصِيغةِ (استفعل) التي تدلُّ على الطَّلبِ ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أوْجَدوا الكِبْرَ إيجادَ مَنْ هو طالبٌ له بغايةِ الرَّغبةِ(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾، خِطابُهم شعيبًا عليه السَّلامُ بالنِّداءِ- من غيرِ استعطافٍ ولا إجلالٍ- جارٍ على طريقةِ خِطابِ الغَضَبِ(٣).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، فيه ما يدُلُّ على صُعوبةِ مُفارَقةِ الوَطَنِ؛ إذْ قَرَنوا ذلك بالعَوْدِ إلى الكُفْرِ(٤).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، عُدِّيَ (عاد) بـ(في) الظَّرفيَّةِ، كأنَّ المِلَّةَ لهم بمنزلةِ الوِعاءِ المُحيطِ بهم(٥).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، فيه ما يُبطِلُ تأويلَ القَدَريَّةِ (المشيئة) في مِثْلِ ذلك بمعنى (الأَمْرِ)، ومعلومٌ أنَّه مِنَ المُمتنِعِ على اللهِ أنْ يأمُرَ بالدُّخولِ في مِلَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ به، ولكنِ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٢١٥).

اسْتَثْنَوْا بمشيئتِهِ الَّتي يُضِلُّ بها مَنْ يشاءُ، ويَهدي مَنْ يَشاءُ، فالله تعالى له في خلقِه علمٌ محيطٌ، ومشيئتُه نافذةٌ وراءَ ما يعلمُه الخلائقُ، فامتناعُهم مِن العودِ فيها هو مبلغُ علومِهم ومشيئتِهم، ولله علمٌ آخرُ، ومشيئةٌ أُخرى وراءَ علومِهم ومشيئتِهم[1].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، قولُه: ﴿وَسِعَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ يدُلُّ على أنَّه تعالى كان عالِمًا في الأَزَلِ بجميعِ الأشياءِ مِنَ الكُلِّيَّاتِ والجزئيَّاتِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ استِئنافٌ مَبْنِيٌّ على سؤالٍ يَنساقُ إليه المَقالُ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا بعدَما سمِعوا هذه المواعظَ من شعيبٍ عليه السَّلامُ؟، فقيل: ﴿قَالَ الْمَلَأُ...﴾[3].

- وفي قولِه: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ تغليبُ الجَمعِ على الواحدِ؛ إذْ منهم شعيبٌ، ولم يكُنْ في مِلَّتِهم حتَّى يعودَ إليها، وكذا قولُ شعيبٍ: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾، وهو يُريدُ عَوْدَ قومِه، إلَّا أنَّه نَظَمَ نفسَهُ في جُملتِهم، وإنْ كان بريئًا من ذلك؛ إجراءً لكلامِهِ على حُكْمِ التَّغليبِ[4]، هذا على أحدِ أوجهِ تأويلِ الآيةِ.

- وقولُه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ فيه تَوْسيطُ النِّداءِ باسمِهِ العَلَميِّ بينَ المعطوفَيْنِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والتَّهديدِ النَّاشِئِ عن غايةِ الوَقاحةِ والطُّغيانِ مِن قومِه[5].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢٩-١٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٨).

٢- قولُه: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ استئنافٌ، وفُصِلَتْ جُمْلَةُ ﴿قَالَ...﴾: أي لم تُعطَفْ بالواوِ على الجُملةِ قبلها؛ لِوُقوعِها فِي سِيَاقِ الـمُحاوَرَةِ[١].

- والهمزةُ في ﴿أَوَلَوْ﴾ للاستفهامِ، وهو مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعَجُّبِ؛ لإنكارِ الوُقوعِ، ونَفْيِه[٢].

٣- قولُه: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾

- قولُه: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ كلامًا مُستأنَفًا، فيه معنى التَّعجُّبِ، كأنَّهم قالوا: ما أَكْذَبَنا على اللهِ إنْ عُدْنَا في الكفرِ بعدَ الإسلامِ! ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قَسَمًا على تَقديرِ حذْفِ اللَّامِ، بمعنى: واللهِ لقدِ افْتَرَيْنا على اللهِ كَذِبًا[٣].

- وانتصابُ ﴿كَذِبًا﴾ على المفعوليَّةِ المُطْلَقَةِ؛ تأكيدًا لـ ﴿افْتَرَيْنَا﴾ بما هو مُساوٍ له، أو أَعَمُّ منه[٤].

- قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ شَرْطٌ، وجوابُه محذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا﴾، وهو بمعنى المستقبَلِ؛ لأنَّه لم يقَعْ، لكنَّهُ جُعِلَ كالواقعِ؛ للمُبالَغةِ، وأُدْخِلَ عليه (قَدْ)؛ لتقريبِهِ مِنَ الحالِ[٥].

- وقولُه: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ فيه إيجازُ حذْفٍ، أو كِنايةٌ؛ إذ المعنى: بعدَ إذْ هَدانا اللهُ للدِّينِ الحقِّ الَّذي اتَّبَعْناهُ بالوحيِ، فنجَّانا مِنَ الكفرِ، وذَكَر

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤).

الإنجاءَ؛ لدَلالتِه على الإهداءِ، والإعلانِ بأنَّ مُفارَقةَ الكُفْرِ نَجاةٌ[(١)].

٤- قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ تقييدٌ مقصودٌ منه التَّأدُّبُ، وتفويضُ العِلْمِ بالمستقبلِ إلى اللهِ، والكِنايةُ عن سُؤالِ الدَّوامِ على الإيمانِ مِنَ اللهِ تعالى[(٢)].

- وفي الإتيانِ بوَصْفِ الرَّبِّ وإضافتُه إلى ضميرِ المتكلِّمِ المشارِكِ ﴿رَبُّنَا﴾: تَعريضٌ بأنَّ اللهَ مَوْلى الَّذين آمَنوا[(٣)].

- وقولُه: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فيه إعادةُ وَصْفِ الرُّبوبيَّةِ، وهو مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزيادةِ إظهارِ وَصْفِهِ بالرُّبوبيَّةِ المُلْتَمَسِ بذِكْرِها فِعْلُ ما يَفعَلُ المُرَبِّي الشَّفيقِ، وتأكيدِ التَّعريضِ المتقدِّمِ؛ حتَّى يَصيرَ كالتَّصريحِ[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفِعْلِ؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: عليه تَوكَّلْنا لا على غَيرِهِ؛ تحقيقًا لمعنى التَّوحيدِ، ونَبْذِ غيرِ اللهِ تعالَى[(٥)].

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللَّهِ﴾ في موقِعِ الإضمارِ، يُفيدُ المبالَغةَ في التَّضرُّعِ والجُؤارِ إلى اللهِ تعالى[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥١).

- وقولُه: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَهُ[1].

٥- قولُه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾: ذِكْرُ الملأِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِطولِ الفَصْلِ بينَ المُتعاطِفَينِ، وإنَّما وَصَفَ الملأَ بالموصولِ وصِلَتِهِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دونَ أنْ يقولَ: (الكافِرون) فيَكتفيَ بحَرفِ التَّعريفِ المُقتضي أنَّ الملأَ الثَّانيَ هو الملأُ المذكورُ قَبْلَه؛ لِقَصْدِ زيادةِ ذَمِّ الملأِ بوَصْفِ الكُفْرِ، كما ذُمَّ فيما سبَق بوَصْفِ الاستكبارِ[2].

- و(إذًا) في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ تفيدُ التَّوكيدَ[3].

٦- قولُه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قالَ هنا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، وقال في سورَةِ هُودٍ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤] وقال تعالى إخبارًا عنهم في سورَةِ الشُّعَراءِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعراء: ١٨٩]؛ فالله تعالى أخبَر في هذه السُّورةِ هنا أنَّهم أخذَتْهم الرَّجْفَةُ، كما أرجَفوا شُعَيْبًا وأصْحابَه، وتَوَعَّدوهم بالجَلاءِ، والمناسَبَةُ في ذِكرِ الصيحة في سورة هود أنَّهم لَمَّا تَهكَّموا بنَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ في قَوْلِهم: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصَّيْحَةُ فأسْكَتَتْهم. وأما في سورَةِ الشُّعَراءِ فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعراء: ١٨٩] وما ذاك إلَّا لأنَّهم قالوا له في سِياقِ القِصَّةِ: ﴿فَأَسْقِطْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١١٥).

عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشُّعراء: ١٨٧] فأخْبَرَ أنَّه أصابَهم عذابُ يومِ الظُّلَّةِ، وقد اجْتَمَع عليهم ذلك كلُّه(١).

- وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قالَ هنا ﴿دَارِهِمْ﴾ بالإفرادِ مرَّتَيْنِ، وكذلك قال في العَنكبوتِ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧] مرَّةً واحدةً، بَينما قال في سورة هود: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧-٩٤] مرَّتَيْنِ بالجَمْعِ؛ لأنَّ ما في المواضعِ الأُوَلِ تَقدَّمَهُ ذِكْرُ الرَّجفةِ، أي: الزَّلزلةِ، وهي تَختصُّ بجُزْءٍ مِنَ الأرضِ، فناسَبَها الإفرادُ، وما في الأخيرَيْنِ تقدَّمَهُ ذِكْرُ الصَّيْحةِ، وكانتْ مِنَ السَّماءِ، وهي زائدةٌ على الرَّجفةِ، فناسَبَها الجَمْعُ(٢).

٧- قولُه: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾

- قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ استئنافٌ؛ لبيانِ ابتلائِهم بشُؤْمِ قَوْلِهم فيما سبَق(٣).

- والتَّعْريفُ بالموصوليَّةِ في قولِه: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾؛ للإيماءِ إلى وَجْهِ بِناءِ الخَبَرِ، وهو أنَّ اضمِحلالَهم وانقِطاعَ دابِرِهم كان جزاءً لهم على تكذيبِهم شعيبًا(٤)

- وقولُه: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ فيه تشبيهُ حالِ اسْتِئصالِهم، وعَفاءِ آثارِهِمْ بحالِ مَنْ لم تَسبِقْ لهم حياةٌ، ولم يُقيموا في هذا المكانِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٤).

- وقولُه: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ استئنافٌ آخَرُ؛ لبيانِ ابتلائِهم بعُقوبةِ قَوْلِهم الأخيرِ، وإعادةُ الموصولِ والصِّلَةِ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ كما هي؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بأنَّ ما ذُكِرَ في حَيِّزِ الصِّلَةِ هو الَّذي استوجَبَ العقوبتَيْنِ[1]. وفي هذا الاستئنافِ والابتداءِ وهذا التَّكريرِ: مبالَغَةٌ في رَدِّ مَقالةِ الملأِ لأشياعِهم، وتَسْفيهٌ لرأيِهم، واستهزاءٌ بنُصْحِهم لقومِهم، واستعظامٌ لِمَا جَرى عليهم، وإيقاظُ السَّامِعينَ- وهُمْ مُشرِكو العربِ-؛ ليتقُّوا عاقبةَ أمثالِهم في الشِّرْكِ والتَّكذيبِ على طريقةِ التَّعريضِ، ولتعظيمِ المَذَلَّةِ لهم، وتفظيعِ ما يَستحِقُّونَ مِنَ الجزاءِ على جَهْلِهم؛ فالعربُ تُكَرِّرُ مِثْلَ هذا في التَّفخيمِ والتَّعظيمِ[2].

- وضميرُ الفَصْلِ (هُم) في قولِه: ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ يُفيدُ القَصْرَ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ،، أي: هُمُ المخصوصونَ بالخُسْرانِ العظيمِ دونَ أَتْباعِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ؛ وذلك لإظهارِ سَفَهِ قولِ الملأِ للعامَّةِ: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾؛ توقيفًا للمُعتبِرينَ بهم على تهافُتِ أقوالِهم، وسفاهةِ رأيِهم، وتحذيرًا لأمثالِهم مِنَ الوُقوعِ في ذلك الضَّلالِ[3].

٨- قولُه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

- قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ نِداءٌ، الغرضُ منه التَّحسُّرُ، والتَّبرُّؤُ مِن عَمَلِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٥).

- قولُه: ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ وخاطَبَ به نَفْسَه؛ إذْ خَطَرَ له خاطِرُ الحُزنِ عليهم، فدَفَعَهُ عن نفسِهِ بأنَّهم لا يَستحِقُّونَ أنْ يُؤْسَفَ عليهم؛ لأنَّهُمُ اخْتاروا ذلك لأنْفُسِهم، ولأنَّه لم يترُكْ من تحذيرِهم ما لو أَلْقاهُ إليهم لأَقْلَعوا عمَّا هم فيه، فلم يَبْقَ ما يُوجِبُ أَسَفَهُ ونَدامتَهُ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الاستفهامُ الإنكاريُّ موجَّهًا إلى نفسِهِ في الظَّاهِرِ، والمقصودُ نَهْيُ مَنْ معه مِنَ المؤمنينَ عَنِ الأَسَى على قومِهِمُ الهالكينَ؛ إذْ يجوزُ أنْ يحصُلَ في نُفوسِهم حُزنٌ على هَلْكَى قومِهم، وإنْ كانوا قدِ اسْتحقُّوا الهلاكَ[1].

- وقوله: ﴿عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيْثُ لم يَقُلْ: (عليهم)-؛ لِيَتَأَتَّى وَصْفُهم بالكُفرِ زِيادةً في تعزيةِ شعيبٍ عليه السَّلامُ نَفْسَه، وتَرْكِ الحُزنِ عليهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٩٤-١٠٠)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ
يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا
ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟
وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧)
أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ
ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ
ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) ﴾.

غريب الكلمات:

﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾: البأساءُ اسمٌ للبُؤسِ، وهو المكروهُ والضَّرَرُ والشِّدَّةُ وسُوءُ الحالِ، وقيل: البأساءُ الفَقْرُ والفاقةُ، وهو مِن البُؤسِ، وأصل (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها. وقيل: البأساءُ ضرَّاءُ مَعها خوفٌ، وأصلُها مِن البأسِ، وهو الخَوفُ؛ يُقال: لا بَأسَ عليكَ، أي: لا خوفَ عليك(١).

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: أي: المرَضِ والضُّرِّ، والضَّرَّاءُ كذلك: سوءُ الحالِ، والفَقْرُ والقَحْطُ، والضُّرُّ: خِلافُ النَّفْعِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٠٢، ١٢٩).

﴿عَفَوْا﴾: أي: كَثُروا، وزَادوا، وأَصْلُ العَفْوِ: تَرْكُ الشَّيءِ(١).

﴿مَسَّ﴾: أي: أصابَ، والمسُّ يُقالُ في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن أَذًى، وأَصْلُ (مسس): جَسُّ الشيءِ باليَدِ(٢).

﴿وَالسَّرَّاءُ﴾: أي: السُّرورُ والفرَحُ ورخاءُ العَيْشِ، والسَّراءُ أيضًا لذَّةٌ في القلبِ عِند حُصولِ نفْعٍ أو توقُّعِه، أو عِند رؤيةِ أمْرٍ يُعجِبُ(٣).

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فجأةً، وكلُّ ما جاءَ فجأةً فقد بَغَتَ، يقال: قد بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بغْتًا وبَغتةً، إذَا أتاه فجأةً، والبغتُ: مفاجأةُ الشَّيءِ من حيثُ لا يُحتَسَبُ(٤).

﴿أَهْلَ الْقُرَى﴾: أي: سُكَّانَها؛ وأهلُ الرَّجُلِ في الأَصلِ: مَنْ يَجمعُه وإيَّاهم مَسْكَنٌ واحدٌ، والقَرْيَةُ: اسْمٌ للمَوْضِعِ الَّذي يَجتمِعُ فيه النَّاسُ، ويُقالُ للمَدينَةِ: قَرْيَةٌ؛ لاجْتِماعِ النَّاسِ فيها، مِنْ: قَرَيْتُ الماءَ، إذا جَمَعْتَه(٥).

﴿بَأْسُنَا﴾: أي: عذابُنا، وأَصْلُ (بأس): يدلُّ على الشِّدَّةِ وما شابهها(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٩٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٢)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١، ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

﴿بَيَاتًا﴾: أي: ليلًا، أو وَقْتَ بَياتٍ، واشتِغالٍ بالنَّوْمِ، وأَصْلُ البَيْتِ: مَأْوى الإنسانِ باللَّيلِ؛ لأنَّه يُقالُ: باتَ، أي: أقامَ باللَّيلِ[1].

﴿ضُحًى﴾: الضُّحَى: أوَّلُ اليوم، أو انبِساطُ الشَّمسِ وامتِدادُ النَّهارِ، وسُمِّيَ الوقتُ به، وأَصْلُهُ يدُلُّ على بُروزِ الشَّيءِ[2].

﴿أَصَبْنَاهُمْ﴾: أي: أَهْلَكْناهم وأخَذْناهم[3].

﴿وَنَطْبَعُ﴾: أي: ونَختِمُ، والطَّبْعُ: تصويرُ الشَّيءِ بصورةٍ ما، وهو مَثَلٌ على نِهايةٍ يَنتهي إليها الشَّيءُ، حتَّى يُخْتَمَ عِندَها[4].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه ما أرسَلَ في قريةٍ من نبيٍّ من أنبيائِه، فكذَّبَهُ المُرْسَلُ إليهم، إلَّا أخَذَهم بالفَقْرِ والأمراضِ؛ كي يتضرَّعوا إليه، ويَدْعوه أنْ يَكشِفَ عنهم، فلمَّا لم يُفِدْ ذلك معهم باستمرارِهم في الطُّغيانِ، بدَّلَ اللهُ حالَهم السَّيِّئَ إلى حالٍ حَسَنٍ، فعافى أبدانَهم، وأَجْرى عليهم الأرزاقَ، حتَّى كَثُروا وكَثُرَتْ أموالُهم وأولادُهم، وقالوا: قدْ أصابَ آباءَنا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ. فأخَذَهم اللهُ فجأةً، وَهُمْ لا يَشعُرونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ أَهْلَ القُرى لو آمَنوا واتَّقَوْا لَفَتَحَ عليهم بركاتٍ مِن السَّماءِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١).

والأرضِ، ولكنَّهم لم يَفعَلوا ذلك، بل كذَّبوا، فعاقَبَهم تعالى بما كَسَبوا مِن كُفرٍ، واقترَفوا من موبِقاتٍ؛ أَبَعْدَ ذلك يَأْمَنُ أهلُ القُرى أنْ يَحِلَّ عليهم عذابُ اللهِ الشَّديدُ ليلًا، وهُمْ نائمون؟! أو هل يأمَنونَ أنْ يأتيَهم العذابُ أوَّلَ النَّهارِ، وهم يَلعبَونَ؟! أفأمِنوا مَكْرَ اللهِ؟! فلا يأمَنُ مَكْرَهُ تعالى إلا القومُ الخاسِرونَ.

أوَلم يتبيَّنْ للَّذينَ يُستخلَفونَ في الأرضِ من بعْدِ هلاكِ أَهْلِها أنَّ اللهَ يَقْدِرُ إذا شاءَ أنْ يُهلِكَهم بسَبَبِ ذُنوبِهم، ويَختِمَ على قلوبِهم؛ فهم لا يَسمَعونَ؟!

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا عرَّفَنا اللهُ تعالى أحوالَ هؤلاءِ الأنبياءِ، وأحوالَ ما جَرى على أُمَمِهم، كان مِنَ الجائزِ أنْ يُظَنَّ أنَّه تعالى ما أنزَلَ عذابَ الاستِئصالِ إلَّا في زَمَنِ هؤلاءِ الأنبياءِ فقط، فبيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ هذا الجِنْسَ مِنَ الهلاكِ قد فَعَلَه بغَيْرِهم، وبيَّنَ العِلَّةَ الَّتي بها يَفعَلُ ذلك[(١)]، فقال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾.

أي: إذا أرسَلْنا إلى أهلِ مدينةٍ نبيًّا، يَدعوهم إلى توحيدِ اللهِ، فكذَّبوه؛ عاقَبْناهم بشِدَّةِ الفَقْرِ والأمراضِ[(٢)].

﴿ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٦).

أي: ابْتَلَيْناهم بالبأساءِ في أموالِهم، والضَّرَّاءِ في أَبْدانِهم؛ كيْ يَدْعوا ربَّهم أنْ يَكشِفَ ما حلَّ بهم مِنَ العذابِ، ويَخشَعوا له، ويُنِيبوا إليه بتَرْكِ الكفرِ به، وتكذيبِ أنبيائِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ ﴾.

أي: فلمَّا لم يُجْدِ معهم ذلك، واستمرَّ طُغيانُهم، حوَّلنا حالَهم مِنَ الشِّدَّةِ إلى الرَّخاءِ، فعافَيْنا أَبْدانَهم وأَجْرَيْنا عليهم الأرزاقَ، حتَّى كثُروا، وكَثُرَتْ أموالُهم وأولادُهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾.

أي: لم يتضرَّعْ أَهْلُ تلك القُرى إلى اللهِ تعالى حِينَ الشِّدَّةِ، ولم يَشْكروا اللهَ حِينَ النِّعمةِ، وقالوا: هذه أحوالٌ اعتياديَّةٌ قد جَرَتْ على آبائِنا مِنْ قَبْلِنا؛ فنالَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩- ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٧).

أحيانًا ما يَسوءُهم مِنَ الشَّدائدِ والأمراضِ، وأصابَهم في أحيانٍ أُخرى ما يَسرُّهم مِنَ الرَّخاءِ والنِّعَمِ، فنحنُ مِثلُهم، وليس لهذا الأمْرِ تعلُّقٌ بالموعظةِ والتَّذكيرِ والابتلاءِ، ونَحْوِ ذلك(١).

﴿ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

أي: فأَخَذْنا أهلَ تلك القُرى بالهلاكِ فجأةً، وهُمْ لا يَعلمونَ بمجيءِ العذابِ، ولم يَخْطُرْ ببالِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ الَّذينَ عَصَوْا وتَمرَّدوا أخَذهم اللهُ بَغْتةً؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّهم لو أطاعوا لَفَتَحَ اللهُ عليهم أبوابَ الخيراتِ(٣)، فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾.

أي: ولو حَصَلَ أنَّ أهلَ القُرى المُهلَكاتِ صَدَّقوا بما جاءَتْهم به الرُّسلُ مِنَ الوحيِ والدَّلالاتِ، واتَّقَوُا اللهَ بِفِعْلِ الطَّاعاتِ، وتَرْكِ المُحرَّماتِ، لَفَتَحَ اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢١-٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٩٨).

عليهم مِنَ السَّماءِ والأرضِ البركاتِ؛ فأنزَلَ عليهم الأمطارَ، وأنبَتَ لهم الأرضُ أنواعَ الثِّمارِ والنَّباتاتِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وقال سُبحانَه حاكيًا قَوْلَ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِهِ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال تَبارَكَ وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

أي: ولكنَّهم لم يُؤمِنوا ويتَّقوا، بل كذَّبوا رُسُلَهم وما جاؤوهم به مِنَ البراهينِ القاطِعاتِ؛ فعاقَبَهم اللهُ تعالى بأنواعِ العقوباتِ، ونَزْعِ البركاتِ؛ بسَبَبِ كُفْرِهم، واقترافِهم السَّيِّئاتِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٩).

قال ابن عاشور: (قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ مرادٌ به حقيقتُهُ؛ لأنَّ ما يَنالُهُ النَّاسُ مِنَ الخيراتِ الدُّنيويَّةِ لا يَعْدو أنْ يكونَ ناشِئًا مِنَ الأرضِ، وذلك مُعْظَمُ المنافعِ، أو مِنَ السَّماءِ مثل ماءِ المطرِ وشعاعِ الشَّمسِ وضوءِ القمرِ والنُّجومِ والهواءِ والرِّياحِ الصَّالِحَةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٣٠).

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

أي: أَبَعْدَ ذلك يَظُنُّ أهلُ القُرى الكافرةِ أنَّهم آمِنونَ مِن حُلولِ عذابِنا الشَّديدِ عليهم ليلًا وهم نِيامٌ(١)؟!

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

أي: أَوَيَظُنُّ أهلُ القُرى الكافرةِ أنَّهم في مَأْمَنٍ من أنْ يأتيَهم عذابُنا عليهم في أوَّلِ النَّهارِ وهم في لَهْوِهم وغَفْلتِهم(٢)؟!

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾.

أي: فهل أَمِنَ أهلُ القُرى الكافرةِ أنْ يَستدرِجَهم اللهُ بنِعَمِه، كما استدرَجَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨).

قال الزمخشريُّ: (المعطوفُ عليه قولُه: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، وقولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ وقَعَ اعتراضًا بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وإنَّما عطف بالفاء؛ لأنَّ المعنى: فعلوا وصنعوا ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾؛ أبَعْدَ ذلك أَمِنَ أهلُ القرى أنْ يأتيَهم بأسُنا بياتًا، وأَمِنوا أنْ يأتيَهم بأسُنا ضُحًى؟!). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٤). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٠).

وقال الشِّنقيطيُّ: (ومعنى إنكارِه على أهلِ القرى: جَمْعُهم بين الكفرِ به وتكذيبِ رُسلِه، وعدمُ خوفِهم من بطشِه ونَكالِه، فهذا يدُلُّ على غايةِ الجهلِ باللهِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧).

الَّذينَ مِنْ قَبْلِهم، ثمَّ يأخُذَهم بعذابِهِ بَغْتَةً في حالِ سَهْوِهم وغَفْلَتِهم[(١)]؟!

كما قال سُبحانَه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أي: فَلا يأمَنُ أحدٌ مكْرَ اللهِ تعالى له باستِدراجِه بنِعَمِه، مع إقامتِه على الكُفْرِ، وإصرارِهِ على المعاصي، إلَّا القومُ الهالكونَ، الَّذينَ أضاعوا عقولَهم، وأَعْرَضوا عَنِ التَّفكُّرِ بها، ففَقَدوا ما ينفَعُهم، وجَلَبوا إلى أنفسِهم ما يَضُرُّها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨).

قال الشنقيطيُّ: (معنى مكرِ اللهِ: أنَّه جلَّ وعلا يستدرِجُهم ويُغدِقُ عليهم النِّعَمَ والصِّحَّةَ والعافيةَ؛ حتَّى يكونوا أغفَلَ ما كانوا، ثمَّ يأخذُهم بغْتَةً، ويُهلِكُهم في غايةِ الغفلةِ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤).

وقال عبد الرحمن بن ناصر البرَّاك: (المكرُ والكيدُ: تدبيرٌ خفيٌّ يتضمَّن إيصالَ الضَّررِ من حيث يُظَنُّ النَّفعُ، فالَّذي يُريدُ أنْ يمكرَ يُظهِرُ المحبَّةَ، ويُظهِرُ الإحسانَ، وهو يتَّخذُ ذلك وسيلةً للإيقاعِ بخَصمِه وعدُوِّه، والمكرُ مِنَ النَّاسِ منه: المحمودُ، والمذمومُ، فإذا كان على وجهِ العدلِ فهو محمودٌ، وإذا كان على وجهِ الظُّلمِ والعُدوانِ فهو مذمومٌ... أمَّا مكرُ اللهِ فهو كلُّه محمودٌ، وعدلٌ، وحِكمةٌ، هو تعالى يمكر بالكافرين مكرًا حقيقيًّا، ويُدبِّر تدبيرًا خفيًّا يُوصِلُ به العِقابَ من حيث يُظَنُّ الإنعامُ). ((توضيح مقاصد العقيدة الواسطية)) (ص: ٩٢). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧-٨)، ((صفات الله عزَّ وجلَّ الواردة في الكتاب والسنة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى فيما تقدَّمَ مِنَ الآياتِ حالَ الكفَّارِ الَّذينَ أهْلَكَهم اللهُ بالاستِئْصالِ مُجمَلًا ومُفصَّلًا- أَتْبَعَهُ ببيانِ أنَّ الغَرَضَ من ذِكْرِ هذه القَصصِ هو حُصولُ العِبْرَةِ لجميعِ المُكلَّفينَ؛ في مصالحِ أدْيانِهم وطاعاتِهم[1].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: أَوَلَمْ يَتبيَّنْ ويَظهَرْ للَّذينَ يُستخلَفونَ في الأرضِ من بعْدِ هلاكِ أهلِها أنَّا نَقدِرُ- إذا شِئْنا- على إهلاكِهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم، كما عاقَبْنا الَّذينَ من قبْلِهم ممَّنْ سار سيرَتَهم، وفعَلَ مِثْلَ صَنيعِهم[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧- ٣١).

مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦- ١٨].

وقال جلَّ جلالُهُ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

أي: ونحن نَختِمُ على قلوبِهم، فيُؤدِّي ذلك بهم إلى عَدَمِ قَبولِ الهُدى، وعدمِ الاستجابةِ للحَقِّ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١، ٣٨).
قال الواحديُّ: (قال الزَّجَّاجُ: هذا مُستأنَفٌ مُنقطِعٌ عمَّا قبْلَه؛ لأنَّ قولَهُ ﴿أَصَبْنَا﴾ ماضٍ، و﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستقبَلٌ، والمعنى: ونحن نَطبَعُ على قلوبِهم، قال ابنُ الأنباريِّ: ويجوز أنْ يكونَ معطوفًا على ﴿أَصَبْنَا﴾ إذا كان بمعنى نُصيبُ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٩٠).
وقال ابن عاشور: (وجملةُ: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ليستْ معطوفةً على جملةِ: ﴿أَصَبْنَاهُمْ﴾ حتَّى تكونَ في حُكْمِ جوابِ ﴿لَوْ﴾؛ لأن هذا يُفسِدُ المعنى؛ فإنَّ هؤلاءِ الَّذينَ وَرِثوا الأرضَ من بعْدِ أهلِها قد طُبِعَ على قلوبِهم؛ فلذلك لم تُجْدِ فيهم دَعوةُ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنْذُ بُعِثَ إلى زمنِ نُزولِ هذه السُّورةِ، فلو كان جوابًا لـ ﴿لَوْ﴾ لصارَ الطَّبعُ على قلوبِهم صِيغَ بصيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على استمرارِ هذا الطَّبعِ، وازديادِهِ آنًا فآنًا، وإمَّا أنْ تُجْعَلَ (الواو) للاستئنافِ، والجُملة مُستأنَفة، أي: ونحن نَطْبَعُ على قلوبِهم في المستقبَلِ، كما طَبَعْنا عليها في الماضي، ويُعْرَفُ الطَّبعُ عليها في الماضي بأخبارٍ أُخْرى؛ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...﴾ الآيةَ [البقرة: ٦]، فتكونُ الجملةُ تَذْييلًا لِتَنْهِيَةِ القِصَّةِ، ولكنَّ مَوْقِعَ الواوِ في أوَّلِ الجملةِ يُرَجِّحُ الوجهَ الأوَّلَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨- ٢٩).
واختار ابنُ عطيَّةَ أنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ عاطفةٌ، فيكونُ الطَّبْعُ معطوفًا على المعاصي ومُتَوَعَّدًا به. =

كما قال سُبحانَه: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال جلَّ جلالُهُ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١ - قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾، ممَّا ثبَتَ بالتَّجارِبِ وتَقرَّرَ عِندَ علماءِ النَّفْسِ والأخلاقِ أنَّ الشَّدائِدَ ومَضايقَ الأُمورِ ممَّا يُربِّي النَّاسَ، ويُصْلِحُ من فسادِهم؛ فالمؤمنُ قد يَشْغَلُه الرَّخاءُ وهَناءُ العَيْشِ؛ فيُنْسيهِ ضَعْفَه وحاجتَه إلى ربِّه، والشَّدائدُ تُذَكِّرُه به، والكافرُ بالنِّعَمِ قد يَعرِفُ قيمتَها بفَقْدِها، فينقَلِبُ شاكرًا بعْدَ عَوْدِها، بل الكافرُ باللهِ عزَّ وجلَّ قد تُنبِّه الشَّدائدُ والأهوالُ مَرْكَزَ الشُّعورِ بوُجودِ الرَّبِّ الخالقِ المُدبِّرِ لأُمورِ الخَلْقِ في دِماغِهِ، وتُذكِّرُه بما أُودِعَ في فِطْرتِهِ من

= قال ابنُ عطيَّةَ: (﴿وَنَطْبَعُ﴾ عُطِفَ على المعاصي؛ إذِ المرادُ به الاستقبالُ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مُنقطِعًا؛ إخبارًا عن وُقوعِ الطَّبْعِ لا أنَّه مُتوَعَّدٌ به). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٣).
وهذا الَّذي جعَله ابنُ عطيَّةَ احتمالًا اختاره القرطبيُّ والشنقيطيُّ باعتبارِ أنَّ الواوَ استِئنافيَّةٌ، والمعنى: ونحن نَطْبَعُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١).

وُجودِ مَصْدَرٍ لنظامِ الكَوْنِ وأَقْدارِه، كما وقع كثيرًا، والآياتُ في هذا كثيرةٌ[(١)].

٢- المعاصي تَمْحَقُ بَركةَ الدِّينِ والدُّنيا، وما مُحِقَتِ البَركةُ مِنَ الأرضِ إلَّا بمعاصي الخَلْقِ، يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(٢)].

٣- إذا آمَن النَّاسُ واتَّقَوْا وأطاعُوا اللهَ تعالَى، أَغْدَقَ عليهم رِزْقَه؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[(٣)].

٤- لا ينبغي للعَبْدِ أنْ يكونَ آمِنًا على ما عِندَه مِنَ الإيمانِ، بل لا يَزالُ خائفًا وَجِلًا أنْ يُبْتَلى ببَليَّةٍ تَسلُبُ ما عِندَه مِنَ الإيمانِ؛ قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ فالمؤمنُ يعمَلُ بالطَّاعاتِ وهو مُشْفِقٌ وَجِلٌ خائفٌ، والفاجِرُ يعمَلُ بالمعاصي وهو آمِنٌ، كما قال بَعضُ السَّلَفِ[(٤)]، فهذه الآيةُ الكريمةُ فيها من التخويفِ البليغ، على أنَّ العبدَ لا ينبغي له أن يكونَ آمِنًا على ما معه من الإيمانِ، بل لا يزالُ خائفًا وَجِلًا؛ أن يُبتلَى ببليَّةٍ تسلُبُ ما معه من الإيمانِ، وأنْ لا يزالُ داعيًا بِقَولِه: (يا مُقلِّبَ القلوبِ، ثَبِّتْ قلبي على دينِك) وأن يعمَلَ ويسعى في كلِّ سببٍ يخلِّصُه من الشَّرِّ، عند وقوعِ الفِتَنِ؛ فإنَّ العبدَ- ولو بلغَتْ به الحالُ ما بلغَتْ- فليس على يقينٍ من السَّلامةِ[(٥)].

٥- مَنْ أَوْضَحَ اللهُ له سُبُلَ الهُدى، وذَكَرَ له أمثالًا ممَّنْ أَهْلَكَهم تعالى بذُنوبِهم، وهو مع ذلك دائمٌ على غَيِّهِ لا يَرْعَوي، يَطْبَعِ اللهُ على قلبِهِ؛ فيَنْبو سَمْعُه

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٤-١٥).
(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص:٨٤).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٩- ٦٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٩٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨).

عن سَماعِ الحَقِّ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[1].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ تَخصيصُ القُرى بإرسالِ الرُّسلِ فيها دونَ البَوادي- كما أشارَتْ إليه هذه الآيةُ وغيرُها من آيِ القرآنِ، وشَهِدَ به تاريخُ الأديانِ- يُنبِئُ أنَّ مُرادَ اللهِ تعالى من إرسالِ الرُّسلِ هو بَثُّ الصَّلاحِ لأصحابِ الحضارةِ الَّتي يَتَطَرَّقُ إليها الخَلَلُ بسَبَبِ اجتماعِ الأصنافِ المختلِفةِ[2].

٢- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾، في لَفْظِ ﴿مَكَانَ﴾ إشعارٌ بتَمَكُّنِ البأساءِ منهم، كأنَّه صارَ للشِّدَّةِ عِندهم مكانٌ[3].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾، إنَّما جُعِلَ ذلك سَيِّئَةً؛ لأنَّه ممَّا يَسوءُ النَّاسَ، ولا تَسوءُهم الحَسَنةُ، وهي الرَّخاءُ والنِّعمةُ، والسَّعةُ في المعيشةِ[4].

٤- قولُ اللهِ تَعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾، الحَسَنةُ اسْمٌ اعْتُبِرَ مؤنَّثًا؛ لتأويلِهِ بالحالةِ والحادثةِ، وكذلك السَّيِّئةُ، فَهُمَا في الأَصْلِ صفتانِ لموصوفٍ محذوفٍ، ثمَّ كَثُرَ حَذْفُ الموصوفِ؛ لِقِلَّةِ جَدْوى ذِكْرِهِ، فصارَتِ الصِّفتانِ كالاسمَيْنِ؛ ولذلك عُبِّرَ عَنِ الحسنةِ في بعضِ الآياتِ بما يتلمَّحُ منه معنى وَصْفِيَّتِها[5].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢١-١٢٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ نَصٌّ في أنَّ كَذِبَهم وكُفْرَهم هو كَسْبُهم الَّذي حَرَمَهم البركاتِ، وعليه توعَّدَهم بالعقوباتِ؛ ففيه رَدٌّ على الجَبْرِيةِ(١).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾، ﴿أهلُ القُرى﴾ يُرادُ به الجِنْسُ، أي: الأُمَمُ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ به مَنْ ذُكِرَ حالُهم فيما تقدَّمَ؛ وضعًا للمُظْهَرِ فيه مَوْضِعَ المُضْمَرِ؛ ليدُلَّ على أنَّ مضمونَها ليس خاصًّا بأقوامٍ بأعيانِهم، بل هو قواعدُ عامَّةٌ في أحوالِ الأُمَمِ، فيُرادُ بالاسمِ المُظْهَرِ العُنوانُ العامُّ لها، لا آحادُ ما ذُكِرَ منها(٢).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ فيه تَقريعٌ لهم بِنِسْبَتِهم إلى أنَّهم صِبيانُ العُقولِ، لا التِفاتَ لهم إلى غيرِ اللَّعِبِ(٣).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فيه ذَكَرَ الله تعالى مكْرَه وَحْدَه، ولم يذْكُرْ مكْرَ عبْدِه، كما قال في موضعٍ آخَرَ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فذَكَرَ مكرَهم ومكرَهُ، وهنا ذَكَرَ مكرَه وحدَه؛ فقال: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، والمكرُ صفةٌ أطلَقَها اللهُ على نفسِه، ولا يجوزُ إطلاقُها على اللهِ إلَّا في الموضِعِ الَّذي يُطلِقُها هو على نفسِهِ أو رسولُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد أَجْمَعَ جميعُ العلماءِ أنَّه لا يجوزُ أنْ يُشْتَقَّ له منها اسْمٌ، فلا تَقُلْ: من أسمائِهِ الماكِرُ؛ لأنَّ ذلك لا يَجوزُ إجماعًا(٤).

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٢٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧، ٨).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ اسْتُدِلَّ به على أنَّ الأمْنَ من مَكرِ اللهِ مِنَ الكبائرِ[١].

بلاغةُ الآيات:

١- **قولُهُ**: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾، ﴿مِنْ﴾ صِلةٌ؛ للتَّنْصيصِ على العُمومِ المُستَفادِ من وُقوعِ النَّكِرَةِ في سِيَاقِ النَّفْيِ[٢].

٢- **قولُهُ**: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه تأكيدُ مَعنَى البَغتةِ بقولِه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ فهي حالٌ مُؤكِّدةٌ لمعنَى ﴿بَغْتَةً﴾؛ إذ مدلولُ ﴿بَغْتَةً﴾ يَقتضِي عَدمَ الشُّعورِ بأخْذِه إيَّاهم حِينَ يَقَعُ[٣].

٣- **قولُهُ**: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا﴾، التَّعريفُ في القُرى تعريفُ العَهْدِ؛ فإضافةُ ﴿أَهْلَ﴾ إليه تُفيدُ عُمومَه بقَدْرِ ما أُضيفَ هو إليه[٤]، وهو تعريضٌ بإنذارِ الَّذينَ كذَّبوا مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أهلِ مكَّةَ، وتعريضٌ ببِشارَةِ أهلِ القُرى الَّذينَ يُؤمنونَ، كأهلِ المدينةِ[٥].

٤- **قولُهُ**: **﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾**

- في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ وقوله: ﴿أَوَأَمِنَ﴾ دَخَلَتْ الهَمْزةُ على (أَمِنَ)؛ للاستفهامِ على جِهَةِ التَّعجُّبِ، ومَحَلُّ التَّعجُّبِ هو تَواطُؤُهم على هذا الغُرورِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠) و(٢٥/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَتَرَتَّبُ على حِكايَةِ تَكْذيبِهم وَأَخْذِهم اسْتِفْهامُ التَّعجُّبِ مِنْ غُرورِهم، وأَمْنِهم غَضَبَ القَادِرِ العَليمِ(١).

- وجِيءَ بقَوْلِه: ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾ بصِيغَةِ المُضارِعِ؛ لأنَّ المُرادَ حِكايَةُ أَمْنِهم الَّذي مَضَى مِنْ إتْيانِ بَأْسِ اللهِ في مُسْتَقْبَلِ ذلك الوَقْتِ(٢).

- وتكرَّرَ لَفْظُ: ﴿أَهْلُ الْقُرَى﴾؛ لِمَا في ذلك مِنَ التَّسميعِ والإبلاغِ والتَّهديدِ والوَعيدِ بالسَّامِعِ ما لا يكون في الضَّميرِ لو جاء: (أَوَأَمِنوا)؛ فإنَّه متى قُصِدَ التَّفخيمُ والتَّعظيمُ والتَّهويلُ جِيءَ بالاسمِ الظَّاهِرِ(٣)، وفيه إنكارٌ بَعْدَ إنكارٍ؛ للمبالَغَةِ في التَّوبيخِ الشَّديدِ(٤).

- قولُه: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جاءَ ﴿نَائِمُونَ﴾ باسْمِ الفاعِلِ؛ لأنَّها حالةُ ثُبوتٍ واستِقرارٍ للبائِتينَ، وجاءَ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ بالمُضارِعِ؛ لأنَّهم مُشتغِلونَ بأفعالٍ مُتَجَدِّدَةٍ شيئًا فشيئًا في ذلك الوَقْتِ(٥).

- وفي قولِه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جاءَ تَقييدُ التَّعجُّبِ من أَمْنِهم مَجيءَ البأْسِ بوَقْتَي البَياتِ والضُّحَى مِن بَيْنِ سائرِ الأوقاتِ، وبِحَالَيِ النَّومِ واللَّعِبِ من بَيْنِ سائِرِ الأحوالِ؛ لأنَّ الوَقْتَيْنِ أَجْدَرُ بأنْ يُحْذَرَ حُلولُ العذابِ فيهما؛ لأنَّهما وقتانِ للدَّعَةِ، فالبَياتُ للنَّومِ بعْدَ الفراغِ مِنَ الشُّغْلِ، والضُّحى لِلَّعِبِ قبلَ استقبالِ الشُّغْلِ، فكان شأْنُ أُولي النُّهى المُعرضينَ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٢-١٣).

دعوةِ رُسُلِ اللهِ ألَّا يَأْمَنوا عذابَه، بخاصَّةٍ في هذَيْنِ الوقتَيْنِ والحالَيْنِ، وفي هذا التَّعجُّبِ تَعريضٌ بالمشركينَ المكذِّبينَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَحِلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ الماضيةِ؛ فكان ذِكْرُ وقتِ البَياتِ ووقتِ اللَّعِبِ أَشَدَّ مُناسَبَةً بالمعنى التَّعريضيِّ؛ تَهديدًا لهم بأنْ يُصيبَهم العذابُ بأَفْظَعِ أحوالِهِ؛ إذ يكون حُلولُهُ بهم في ساعةِ دَعَتِهم، وساعةِ لَهْوِهِمْ؛ نِكايةً بهم[1].

٥- قولُه: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، فيه تَكْرَار المكرِ مُضافًا إلى اللهِ؛ تحقيقًا لِوُقوعِ جزاءِ المَكْرِ بهم[2].

٦- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، الاستفهامُ في قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعْجبِ[3].

- وعبَّرَ عَنِ الإصابةِ بالماضي ﴿أَصَبْنَاهُمْ﴾؛ إشارةً إلى سرعةِ الإهلاكِ، وعَنِ الطَّبْعِ بالمضارِعِ ﴿وَنَطْبَعُ﴾؛ إيماءً إلى التَّجدُّدِ، بحيثُ لا يمُرُّ زَمَنٌ إلَّا كانوا فيه في طَبْعٍ جديدٍ[4]؛ فالتَّقديرُ: وطَبَعْنا على قلوبِهم، ولكنَّهُ صِيغَ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ هذا الطَّبْعِ، وازديادِه آنًا فآنًا، وإمَّا أنْ تكونَ (الواو) للاستئنافِ، والجُملة مُستأنَفةً، أي: ونَحنُ نَطْبَعُ على قُلوبِهم في المستقبَلِ كما طَبَعْنا عليها في الماضِي[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩).

الآيات (١٠١-١٠٢)

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: جَمْعُ بيِّنةٍ، وهي: الدَّلالةُ الواضحةُ أو الحُجَّةُ، وأَصْلُ (بين): اتِّضاحٌ وانْكِشافٌ[١].

﴿عَهْدٍ﴾: العَهْدُ: حِفْظُ الشَّيءِ ومُراعاتُهُ حالًا بعْدَ حالٍ، وأَصْلُهُ: الاحتِفاظُ بالشَّيءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: إنَّ تلك القُرى الَّتي سبَقَ ذِكْرُها، نَقُصُّ عليكَ من أخبارِها ما يَحْصُلُ به تَسْلِيَةٌ لك وللمؤمنينَ، وموعِظَةٌ للمُتَّعِظينَ، ورَدْعٌ وزَجْرٌ للكافرينَ، ولقدْ أَتى أهلَ القُرى رُسُلُهم بالأدلَّةِ الَّتي تدُلُّ على صِدْقِهم، فما كانوا ليؤمِنوا بما جاءَتْ به الرُّسلُ؛ وذلك بسببِ تَكْذيبِهم بالحَقِّ أوَّلَ ما وَرَدَ إليهم، كذلك يَخْتِمُ اللهُ على قلوبِ الكافرينَ؛ فَلا يؤمِنونَ أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٦٧)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٥٩١).

ويُخبِرُ تعالى أنَّه لم يَجِدْ لِأَكْثَرِ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي أَهْلَكَها من وَفاءٍ والتِزامٍ بعَهْدٍ، وما وجَدَ أكْثَرَهم إلَّا فاسقينَ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّه بَعَثَ من بعْدِ الأنبياءِ الَّذينَ حكَى قصصَهم موسى بالأدلَّةِ والمعجزاتِ الَّتي تدُلُّ على صِدْقِ ما جاء به، إلى فرعونَ ومَلَئِه، فكَفَروا بها واستكْبَروا عنها، فوَقَعوا في الظُّلْمِ بسَببِ ذلك، ثمَّ أمَرَ اللهُ نبيَّهُ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَنظُرَ كيف كانتْ نهايةُ القَوْمِ المُفسدينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١)﴾.

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾.

أي: هذه القُرى المُهلكَةُ الَّتي سبَقَ ذِكْرُها- وهم قَوْمُ نُوحٍ وعادٌ وثَمودُ، وقومُ لُوطٍ، وأصحابُ مَدْيَنَ[١]- نَتْلو عليكَ- يا مُحَمَّدُ- في هذا القرآنِ الكريمِ مِن[٢] أخبارِ أهلِها ما يَحْصُلُ به تَسْلِيَةٌ لكَ وللمؤمنينَ، وفيه عِبْرَةٌ للمُعْتبرينَ، وموعظةٌ للمتَّقينَ، وازْدِجارٌ للكافرينَ، ورَدْعٌ للظَّالمينَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ

(١) قال أبو حيَّانَ: (والقُرى هي بِلادُ قومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ بِلا خِلافٍ بَيْنَ المُفسِّرينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٣-١٢٤).

(٢) قال ابنُ عاشورٍ: (و«مِنْ» تبعيضيَّةٌ؛ لأنَّ لها أنباءً غيرَ ما ذُكِرَ هنا، ممَّا ذُكِرَ بعضُه في آياتٍ أُخرى، وطُوِيَ ذِكْرُ بعضِهِ؛ لِعَدَمِ الحاجةِ إليه في التَّبليغِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤).

أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٣].

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: إنَّ أهلَ تلك القُرى المُهْلَكَةِ، قد جاءَتْهم رُسُلُهم بالحُجَجِ، والمعجزاتِ الظَّاهرةِ الَّتي تدُلُّ على صِدْقِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ﴾.

أي: يَمتنِعُ على أهلِ تلك القُرى المُهْلَكَةِ أنْ يؤمِنوا بما جاءَتْهم به الرُّسلُ؛ وذلك بسببِ تكذيبِهم بالحقِّ أوَّلَ ما وَرَدَ عليهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨).

(٢) هذا المعنى اختاره ابنُ كثيرٍ، والسعديُّ، والشَّنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣).

ورجَّح ابنُ جرير أنَّ المعنى: أنَّهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم به مُكذِّبون في سابِقِ عِلمه قَبلَ مجيء الرُّسل، وعندَ مجيئِهم إليهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٩). =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: مِثْلَمَا خَتَمَ اللهُ على قلوبِ كفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ بهذا الخَتْمِ الشَّديدِ المُحْكَمِ، يختِمُ أيضًا على قُلوبِ جميعِ الكافرينَ؛ فَلا تؤثِّرُ فيهم الآياتُ والنُّذُرُ، ولا يؤمنون أبدًا[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ (١٠٢)﴾.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾.

أي: وما عَلِمْنا لِأَكْثَرِ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي أهلَكْناها مِن وَفاءٍ والتزامٍ بالعهْدِ الَّذي وَصَّيْناهم به، مِن توحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، واتِّباعِ رُسُلِه عليهم السَّلامُ[2].

= وفي الآية أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾.

أي: وقدْ وجَدْنا أكثرَ الأُمَمِ السَّابقةِ خارِجينَ عن طاعةِ اللهِ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٧].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لمَّا قَصَّ اللهُ تعالى على نبيِّهِ أخبارَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وما آلَ إليه أمْرُ قومِهم، وكان هؤلاءِ لم يَبْقَ منهم أَحَدٌ، أَتْبَعَ بقصصِ موسى وفرعونَ

= (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (والعهْدُ الَّذي أخَذَهُ عليهم هو ما جَبَلَهم عليه، وفطَرَهم عليه، وأخَذَ عليهم في الأصلابِ أنَّه ربُّهم ومَليكُهم، وأنَّه لا إلهَ إلَّا هو، فأقرُّوا بذلك، وشَهِدوا على أنفُسِهم به، فخالَفوه وتَرَكوه وَراءَ ظُهورِهم، وعبَدوا مع اللهِ غيرَه بلا دَليلٍ ولا حُجَّةٍ، لا مِنْ عقْلٍ ولا شرْعٍ، وفي الفِطَرِ السَّليمةِ خِلافُ ذلك، وجاءَتِ الرُّسلُ الكِرامُ من أوَّلِهم إلى آخِرِهم بالنَّهيِ عن ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣).

وقال ابنُ عاشورٍ: (العهْدُ هنا يجوزُ أنْ يُرادَ به الوَعْدُ الَّذي حقَّقَه الأُممُ لِرُسلِهم مثل قولِهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]؛ فإنَّ معنى ذلك: إنْ أَتَيْتَنا بآيةٍ صدَّقْناكَ، ويجوزُ أنْ يُرادَ به وَعدٌ وَثَّقَهَ أسلافُ الأُممِ من عهْدِ آدَمَ ألَّا يَعْبدوا إلَّا اللهَ، وهو المذكورُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ الآيةَ [يس: ٦٠]، فكان لازِمًا لِأَعْقابِهم، ويجوز أنْ يُرادَ به ما وَعَدَتْ به أرواحُ البَشَرِ خالِقَها في الأزَلِ، المَحْكيُّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢- ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٧).

وبني إسرائيلَ؛ إذْ كانت مُعجِزاتُه من أعْظَمِ المعجزاتِ، وأُمَّتُه من أكثرِ الأُمم تكذيبًا وتَعَنُّتًا واقتراحًا وجهلًا، وكان قد بَقِيَ من أتْباعِه عالَمٌ وهم اليهودُ، فقَصَّ اللهُ علينا قصصَهم؛ لِنَعْتبِرَ ونتَّعِظَ، ونَنْزَجِرَ عن أنْ نتشبَّهَ بهم[1]، فقال تعالى:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾.

أي: ثمَّ أرْسَلْنا من بعْدِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم السَّلامُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بالأدلَّةِ والمُعجِزاتِ الظَّاهرةِ الَّتي تدُلُّ على صِدْقِه، إلى مَلِكِ مِصْرَ، وأشرافِ قومِه، وكُبَراءِ رِجالِه[2].

﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾.

أي: فكَفَرَ فرعونُ وقومُهُ بالمُعجِزاتِ الَّتي أرسَلْنا بها موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤، ٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩- ٦٠).
قال ابنُ عاشورٍ: (فرعونُ عَلَمُ جِنْسٍ لملِكِ مِصْرَ في القديمِ... وهذا الاسْمُ نظيرُ (كِسْرى) لملِكِ مُلوكِ الفُرْسِ القدماءِ، و(قَيْصَرَ) لملِكِ الرُّومِ، و (نُمْرودَ) لملِكِ كَنْعانَ، و(النَّجاشِيِّ) لملِكِ الحَبَشِ، و(تُبَّع) لملِكِ مُلوكِ اليَمَنِ، و(خانَ) لملِكِ التُّرْكِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨).
وقال السَّمينُ الحَلَبيُّ: (يجوز أنْ يُضَمَّنَ (ظَلَموا) معنى كَفَروا؛ فيتعدَّى بالباءِ كتَعْديتِه... ويجوز أنْ تكونَ الباءُ سَبَبيَّةً، والمفعولُ محذوفٌ، تقديرُه: فظَلَموا أنفُسَهم، أو ظَلَموا النَّاسَ بمعنى صَدُّوهُمْ عَنِ الإيمانِ بسببِ الآياتِ). ((الدر المصون)) (٥/ ٤٠٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٥-٣٦)، ((العذب النمير)) (٤/ ٦٢).

بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧- ٥٠].

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: فانظُرْ- يا مُحَمَّدُ- إلى آخِرِ أَمْرِ أولئك الَّذينَ أَفْسَدوا في الأرضِ بالكُفْرِ والمعاصي، كانت نِهايتُهم أنْ أخزاهُمُ اللهُ تعالى، وأهلكَهم بالغَرَقِ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

مَنْ لم يُمْسِكْ نَفْسَه على عهْدِه مع اللهِ تعالى، مُستقيمًا على طريقتِه، مُسترشِدًا بهُداهُ، فلا بُدَّ أنْ تَتفرَّقَ به السُّبُلُ، ولا بُدَّ أنْ ينحرِفَ، ولا بُدَّ أنْ يَفْسُقَ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾؛ فأهلُ هذه القُرى لم يكُنْ لِأَكْثَرِهم عهْدٌ يَستمسِكونَ به، ويَثبُتونَ عليه، إنَّما هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٦-٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٥).
قال ابنُ عاشورٍ: (والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ هو وَمَنْ يُبَلِّغُه، أو المخاطَبُ غيرُ مُعيَّنٍ، وهو كُلُّ مَنْ يَتأتَّى منه النَّظَرُ والاعتبارُ عِنْدَ سماعِ هذه الآياتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٦).

الهَوى المُتقلِّبُ، والطَّبيعةُ الَّتي لا تَصبِرُ على تكاليفِ العهْدِ، ولا تَستقيمُ[١].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾، لَمَّا تكرَّرَ ذِكْرُ القُرى الَّتي كَذَّبَ أهلُها رُسُلَ اللهِ بالتَّعْيينِ وبالتَّعْميمِ، صارَتْ للسَّامِعينَ كالحاضِرَةِ المُشاهَدَةِ، الصَّالِحَةِ لِأَنْ يُشارَ إليها، فجاءَ اسْمُ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ لزيادةِ إحضارِها في أذهانِ السَّامعينَ من قومِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَعْتَبِروا حالَهم بحالِ أهلِ القُرى، فيَرَوْا أنَّهم سواءٌ؛ فيَفيئوا إلى الحقِّ[٢].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾، لمَّا كان العاقِلُ مَنْ يَكْفيهِ أَدْنى شيءٍ، هَوَّلَ الأمْرَ بأنَّ أخبارَها تفوتُ الحَصْرَ، وأنَّ ما قَصَّ منها يَكْفي المُعْتَبِرَ، فقال: ﴿مِنْ أَنْبَائِهَا﴾، أي: أخبارِها العظيمةِ الهائلةِ المُطابِقةِ للواقعِ، شيئًا بعْدَ شيءٍ، كما يفعَلُ مَنْ يتتبَّعُ الأثَرَ[٣].

٣- في قولِهِ تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ تَسْلِيَةٌ لِمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ ما لَقِيَهُ من قومِهِ هو سُنَّةُ الرُّسُلِ السَّابقينَ، وأنَّ ذلك ليس لتقصيرٍ منه، ولا لضَعْفِ آياتِهِ، ولكنَّهُ للخَتْمِ على قلوبِ كثيرٍ من قومِهِ[٤].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢).

لَفَاسِقِينَ﴾ حُكْمٌ على الأكثرِ؛ لأنَّ بعضَهم قد آمَنَ، والتَزَمَ كُلَّ عهْدٍ عاهَدَ اللهَ عليه، أو تَعاهَدَ عليه مع النَّاسِ، ومنهم مَنْ كان يَفي ببعضِ ذلك حتَّى في حالِ الكُفْرِ، وهذا من دِقَّةِ القرآنِ في تَحديدِ الحقائقِ بالصِّدْقِ الَّذي لا تَشُوبُه شُبُهاتُ المُبالَغَةِ بما يَسْلُبُ أحدًا حقَّه، أو يُعْطي أحدًا غيرَ حقِّه[1].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ يدُلُّ على أنَّ النَّبيَّ لا بُدَّ له من آيةٍ ومُعجِزةٍ، بها يَمتازُ عن غيرِه؛ إذْ لو لم يكُنْ مُخْتَصًّا بهذه الآيةِ، لم يكُنْ قَبولُ قولِه أَوْلَى من قَبولِ قولِ غيرِه[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُهُ: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافَ الفَذْلَكَةِ لِمَا قَبْلَها مِنَ القَصصِ، مِن قَولِه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحًا إِلى قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ثُمَّ قَولِه تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ الآيَةَ [الأعراف: ٩٤]، مُنْبِئَةٌ عن غايةِ غَوايةِ الأُممِ المذكورةِ، وتَماديهم فيها بعدما أَتَتْهم الرُّسُلُ بالمعجزاتِ الباهرةِ[3].

- وصيغةُ المضارعِ ﴿نَقُصُّ﴾؛ للإيذانِ بعَدَمِ انقضاءِ القِصَّةِ بَعْدُ[4]، وأيضًا قال: ﴿نَقُصُّ﴾ لا (قَصَصْنَا)؛ لأنَّ هذه الآيَةَ نَزَلَتْ مع تِلك القَصَصِ لا بَعْدَها[5].

- وجُملةُ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾؛ لمُناسَبةِ ما في كِلتَا الجُمْلتَيْنِ من قَصْدِ التَّنظيرِ بحالِ المُكذِّبينَ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٢٩).

بُمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجَمْعُ (البيِّناتِ) يُشيرُ إلى تَكَرُّرِ البيِّناتِ مع كُلِّ رسولٍ(١).

- وقولُهُ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ يُفيدُ مُبالَغَةَ النَّفْيِ بلامِ الجُحودِ الدَّالَّةِ على أنَّ حُصولَ الإيمانِ كان مُنافِيًا لحالِهم مِنَ التَّصَلُّبِ في الكُفْرِ(٢).

- وفيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾، وقال في سورةِ يُونُسَ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤]، فَسَقَطَ (به) في سورةِ الأعرافِ دونَ سورةِ يُونُسَ؛ وذلك لأنَّ سُقوطَ (به) في سورةِ الأعرافِ هو للبِناءِ على ما جُعِلَ صدرًا لهذه الآياتِ الَّتي نزَلَتْ في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وهو: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، فقولُهُ: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ لم يُذْكَرْ له مَفعولٌ، وانساقَتِ الآياتُ بعْدَ التَّحذيرِ المُتوالِي بقولِهِ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾، ثمَّ خُتِمَتْ بقولِهِ: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾، فالمُكذِّبونَ هُنا هم المُكذِّبونَ في قولِهِ: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾. أمَّا في سورةِ يُونُسَ؛ فقدْ سُبِقَ بقولِهِ: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [يونس: ٧٣]، فلمَّا جاءَ ذلك مُتعدِّيًا جاءَ قولُهُ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤] مِثْلَهُ(٣).

٢- قولُهُ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فيه إظهارُ الاسْمِ الجَليلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٤١-٦٤٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٠١).

بطريقِ الالتفاتِ؛ لِتربيَةِ المَهابَةِ، وإدْخالِ الرَّوْعَةِ، ولِمَا في إسنادِ الطَّبْعِ إلى الاسْمِ العَلَمِ من صَراحةِ التَّنبيهِ على أنَّه طَبْعٌ رَهيبٌ، لا يُغادِرُ للهُدى مَنْفَذًا إلى قلوبِهم(١).

٣- قولُهُ: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ مع قولِهِ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الكَافِرِينَ﴾، فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قالَه هُنا أوَّلًا بالنُّونِ، وإضمارِ الفاعِلِ ﴿ونَطْبَعُ﴾، وثانيًا بالياءِ وإظهارِ الفاعِلِ ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾، وقال في سورة يُونُس: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤] بالنُّونِ والإضمارِ فقط؛ لأنَّ الآيتَيْنِ هُنا تَقدَّمَهما الأمرانِ: الياءُ مع الإظهارِ مرَّتَيْنِ، والنُّونُ مع الإضمارِ؛ فالآيةُ في سورةِ الأعرافِ مَبْنِيَّةٌ على ما تَقدَّمَها مِنَ الآياتِ، وهي تَنتقِلُ مِنَ الإضمارِ إلى الإظهارِ، ومِنَ الإظهارِ إلى الإضمارِ في إخبارِ اللهِ عزَّ وجلَّ عن نفسِهِ، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾، و﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾، وقال بعْدَهُ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، فأَظْهَرَ ولم يَقُلْ: (أفأَمِنوا مَكْرَنا)، فلمَّا وَقَعَ هذا الإخبارُ في هذا المكانِ، ثمَّ جاءَ بعْدَهُ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، فأَجْرى الفِعْلَ على إضمارِ فاعلِهِ، ثمَّ عاد إلى ذِكْرِ الطَّبْعِ، كان إجراؤُهُ على إظهارِ الفاعِلِ أَشْبَهَ بما بُنِيَتْ عليه الآياتُ المُتقدِّمةُ مِنَ الانتقالِ مِنَ الإضمارِ إلى الإظهارِ المُختارِ استعمالُه في المكانِ؛ فناسَبَ الجَمْعُ بَيْنَ الأمرَيْنِ هُنا.

وأمَّا الآيةُ هناك في يُونُس فتقدَّمَها النُّونُ مع الإضمارِ فقط؛ فما قَبْلَها جارٍ على حَدٍّ واحِدٍ وهو إضمارُ الفاعِلِ، ففي قِصَّةِ نوحٍ قَبْلَهُنَّ، وهي من مُبتدَأ العَشْرِ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١]، إلى أنْ قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢).

الْمُنْذَرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ [يونس: ٧٣-٧٤]، فقال بعْدَهُ: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]؛ فناسَبَ الاقتِصارُ على النُّونِ مع الإضمارِ[1].

- ومن المناسبةِ الحَسنةِ في قولِ اللهِ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾، وقولِه في سورةِ يُونُسَ: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس:٧٤]: أنَّه جَعَلَ الطَّبْعَ على قلوبِ الكافرينَ في الأعرافِ، وعلى قلوبِ المُعتدينَ في يُونُسَ؛ وذلك لأنَّ الآياتِ الَّتي تَقَدَّمَتْ في سورةِ الأعرافِ فيها ذِكْرُ مُكَذِّبي الأُممِ أنبياءَهم، وما ردُّوا عليهم وخاطَبوهم به؛ كقَوْلِ كفَّارِ قومِ صالحٍ عليه السَّلامُ لِمَنْ آمَنَ به منهم: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦]، وفيها وَصْفُ الكفَّارِ؛ فَلا يَحْذَرُ عِقابَ اللهِ ومجيئَه بَياتًا أو ضُحًى إلَّا الكفَّارُ، ولا يكون إطلاقُ الخاسرينَ إلَّا في الكافرين، فلمَّا وَقَعَ التَّصريحُ بصِفاتِ الكُفْرِ صَرَّحَ به عِنْدَ ذِكْرِ الطَّبْعِ، ولمَّا كانتِ الآيةُ في سورةِ يُونُسَ قد تقدَّمَها في وَصْفِ الكفَّارِ ما كان كالكِنايةِ عنهم، فقال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، وليس كُلُّ مُنْذَرٍ كافرًا، كَنَّى عَنِ الكفَّارِ بعْدَهُ عِندَ ذِكْرِ الطَّبْعِ بالمُعتدينَ، وليس كُلُّ مُعْتَدٍ كافرًا، فمُخالَفَةُ كُلِّ واحدةٍ مِنَ الآيتَيْنِ للأُخرى إنَّما هي لِموافَقةِ ما قَبْلَ كُلِّ واحدةٍ منهما من طَرْحِ الكلامِ، وقَصْدِ الالتِئامِ[2].

٤- قولُهُ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾

- في قولِهِ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ أَسْنَدَ حُكْمَ النَّكْثِ إلى أكثَرِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٤٤-٦٤٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٤٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٣).

أهلِ القُرى؛ تَبْيينًا لِكَوْنِ ضَميرِ ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ جَرَى على التَّغْليبِ، ولعلَّ نُكْتَةَ هذا التَّصريحِ في خُصوصِ هذا الحُكْمِ أنَّه حُكْمُ مَذَمَّةٍ ومَسَبَّةٍ؛ فناسَبَتْ مُحاشاةُ مَنْ لم تَلْتَصِقْ به تلك المَسَبَّةُ(١).

- وفيه نَفْيُ وُجدانِ العَهدِ؛ لانتفاءِ سَببِه، وهو الوفاءُ بالعَهدِ، والتقديرُ: مِن إيفاءٍ بعهدٍ أو مِن التزامِ عهدٍ، و﴿عَهْدٍ﴾ اسمُ جِنسٍ، والإتيانُ به نكرةً في سِيَاقِ النَّفْيِ يَقتَضي انتِفاءَه بجَميعِ المعاني الصَّادِقِ هو عليها، وزِيادةُ ﴿مِنْ﴾ تَدلُّ أيضًا على الاستِغراقِ لجِنس العَهدِ(٢).

- وقولُه: ﴿وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ﴾ فيه إخبارٌ بأنَّ عدمَ الوَفاءِ بالعَهْدِ من أكثرِهم كان منهم عن عَمْدٍ ونَكْثٍ؛ ولِكَوْنِ ذلك معنًى زائدًا على ما في الجُملةِ الَّتي قَبْلَها عُطِفَتْ، ولم تُجْعَلْ تأكيدًا للَّتي قَبْلَها أو بيانًا؛ لأنَّ الفِسْقَ هو عِصيانُ الأمْرِ، وذلك أنَّهم كَذَّبوا فيما وَعَدوا عن قَصْدٍ للكُفْرِ(٣).

٥- قولُه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

قِصَّةُ موسى عليه السَّلامُ معطوفةٌ على جملةِ ما قَبلَها مِن القَصَص، مِن قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ القصَّة، فهي نوعٌ، وهُنَّ نوعٌ آخرُ، والفَرقُ بين النوعينِ أنَّ تلك القَصَص مُتشابهةٌ في تكذيبِ الأقوامِ فيها لرُسُلِهم، ومُعانَدَتِهم إيَّاهم، وإيذائِهم لهم، وفي عاقبةِ ذلك بإهلاكِ الله تعالى إيَّاهم بعذابِ الاستئصالِ؛ ولذلك عَطَفَ كلَّ واحدةٍ منهنَّ على الأولى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٦)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣).

بدونِ إعادةِ ذِكرِ الإرسالِ؛ للإيذانِ بأنَّها نوعٌ واحدٌ، فقال: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ...﴾، ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وقد أعاد في قِصَّةِ موسى ذِكرَ الإرسالِ للتَّفرقةِ، ولكِنْ بلفظِ البَعثِ، وهو أخَصُّ وأبلَغُ مِن لَفظِ الإرسالِ؛ لأنَّه يفيدُ معنى الإثارةِ والإزعاجِ إلى الشَّيءِ المُهِمِّ، ولم يُذكَر في القرآنِ إلا في بَعثِ الموتى، وفي الرِّسالةِ العامَّةِ؛ أي: بَعْثِ عِدَّةٍ من الرُّسُل، وفي بَعثةِ نَبيِّنا وموسى خاصَّةً، وكذا في بَعْثِ نُقَباءِ بني إسرائيل، وبَعْثِ مَن انتقَم منهم وعذَّبهم وسَبَاهم، حين أفسَدُوا في الأرض، فالتعبيرُ بلَفظِ البَعثِ هنا يؤكِّدُ ما أفادَتْه إعادةُ العامِلِ مِن التَّفرقةِ بين نوعَيِ الإرسالِ؛ أعني: أنَّ لَفظَه الخاصَّ مُؤكِّدٌ لِمَعناه العامِّ، كما يؤكِّدُها عطفُ هذه القِصَّة على أولئك بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تدلُّ على الفَصلِ والتَّراخي؛ إمَّا في الزَّمان، وإمَّا في النَّوعِ أو الرُّتبة، والأخيرُ هو المرادُ هنا، وبيانُه أنَّ هذا الإرسالَ وما ترتَّبَ عليه، وأعقَبَه في قومِ موسى، مخالِفٌ لجملةِ ما قبلَه مُخالفةَ تَضادٍّ؛ فقد أُنقِذَت به أمَّةٌ من عذابِ الدنيا، وهو تعبيدُ فرعونَ ومَلَئِه لها، وسَوْمُهم إيَّاها أنواعَ الخِزيِ والنَّكال، واهتَدَت إلى عبادةِ الله تعالى وَحدَه وإقامةِ شَرعِه، فأعطاها في الدُّنيا مُلكًا عظيمًا، وجعَلَ منها أنبياءَ وملوكًا، وأعدَّ بذلك المُهتدينَ منها لسعادةِ الآخرةِ الباقية، فأين هذا الإرسالُ مِن ذلك الإرسالِ، الذي أعقَبَ أقوامَ أولئك الرُّسُلِ في الدُّنيا عذابَ الاستئصالِ، وفي الآخرةِ ما هو أشدُّ وأبقى من الخِزيِ والنَّكال؟! وقد يظهَرُ للتَّراخي الزَّماني وجهٌ باعتبارِ كَونِ العَطفِ على قصَّةِ نُوحٍ؛ فإنَّ ما عُطِفَ عليها مِن قَصَصِ مَن بَعدَه قد جُعِلَ تابعًا ومُتمِّمًا لها بعَدَمِ إعادةِ العامِلِ ﴿أَرسَلْنا﴾[1].

- قولُه: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٤، ٣٥).

الصَّريحِ؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ(١).

- وفي قولِه: ﴿بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ قدَّمَ ذِكْرَ الآياتِ اهتمامًا بها؛ فهي الدَّليلُ على صِحَّةِ دَعْوى البَعْثِ(٢).

- وتخصيصُ (مَلَئِهِ) بالذِّكرِ مع عُمومِ رِسالتِه عليه السَّلامُ لقومِه كافَّةً؛ لأصالةِ الملأِ في الرأيِ، وتَدبيرِ الأمورِ، واتِّباعِ غيرِهم لهم في الورودِ والصُّدورِ(٣).

- وقِيل: إنَّما قال هنا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ ولم يَقُلْ: (إلى فرعونَ وقومِهِ)؛ لأنَّ الملِكَ ورِجالَ الدَّولةِ هُمُ الَّذينَ كانوا مُستعبِدينَ لبني إسرائيلَ، وبِيَدِهِمْ أمْرُهم، وليس لسائرِ المِصْرِيِّينَ مِنَ الأمْرِ شيءٌ، ولأنَّهم كانوا مُستعبَدينَ أيضًا، ولكنَّ الظُّلْمَ على بَني إسرائيلَ كان أشدَّ، وإنَّما بَعَثَ اللهُ تعالى موسى؛ لإنقاذِ قومِهِ بني إسرائيلَ من فرعونَ ورِجالِ دولتِهِ، وإقامةِ دِينِ اللهِ تعالى بهم في بلادِ أجدادِهم، ولو آمَنَ فرعونُ ومَلَؤُهُ لآمَنَ سائرُ قومِهم؛ لأنَّهم كانوا تَبَعًا لهم، بل كان هذا شأْنَ جميعِ الأقوامِ مع مُلوكِهم المُستبِدِّينَ الجائرينَ(٤).

- وقولُهُ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ لَمَّا كان ما آلَ إليه أمْرُ فرعونَ ومَلَئِهِ حالةً عجيبةً، عُبِّر عنه بـ ﴿كَيْفَ﴾ الموضوعةِ للسُّؤالِ عن الحالِ، والاستفهامُ المُستفادُ من ﴿كَيْفَ﴾ يَقتضي تَقديرَ شيءٍ، أي: انظُرْ عاقبةَ المُفسِدينَ الَّتي يُسألُ عنها بـ(كيف)(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٥-٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٦).

- ﴿عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ - حيثُ لم يقُل: (عاقبتهم) مع أنَّ المُرادَ بالمفسدين فرعونُ ومَلَؤُهُ -؛ تنبيهًا على أنَّهم أُصيبوا بسُوءِ العاقبةِ؛ لِكُفْرهم وفَسادِهم، والكُفْرُ أعظَمُ الفَسادِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٦).

الآيات (١٠٤-١١٢)

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ
أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلۡقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ
ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ
فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿حَقِيقٌ﴾: أي: حَريصٌ، أو جديرٌ، وحقيقٌ عليَّ: أي حقٌّ وواجبٌ عليَّ، وأصْلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[١].

﴿نَزَعَ﴾: أي: أَخْرَجَ وأَظْهَرَ[٢].

﴿أَرْجِهْ﴾: أي: احبِسْهُ، وأَخِّرْ أمْرَه، أو أَمْهِلْه، وأَصْلُ الإرجاءِ: التَّأْخيرُ[٣].

﴿الْمَدَائِنِ﴾: أي: الأَقاليمِ ومَعالِمِ مُلْكِكَ، وبلادِكَ وأمصارِ مِصْرَ[٤].

﴿حَاشِرِينَ﴾: أي: جامِعينَ للنَّاسِ بأمْرِ السَّحَرَةِ، والحَشْرُ: إخراجُ الجَماعةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢-٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥، ١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦).

عن مَقَرِّهم، وإزعاجُهم عنه إلى الحَربِ ونَحْوِها، وَأَصْلُ (حشر): سَوْقٌ وبَعْثٌ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ موسى عليه السَّلامُ قال لِفرعونَ: إنَّه مُرْسَلٌ إليه من ربِّ العالَمينَ، وإنَّه حقيقٌ على ألَّا يقولَ على اللهِ إلَّا الحَقَّ، وأنَّه قد جاءَهَ ببيِّنةٍ من ربِّه؛ فَلْيُرْسِلْ معه بني إسرائيلَ. فقال له فرعونُ: إنْ كُنْتَ أَتَيْتَ بآيةٍ فأَظْهِرْها، إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقينَ، فألْقى موسى عصاهُ؛ فإذا هي ثُعبانٌ عظيمٌ واضِحٌ لِمَنْ يَراهُ، وأَخْرَجَ يَدَهُ من جَيْبِهِ فإذا هي بيضاءُ لِكُلِّ مَنْ نَظَرَ إليها.

قال الملأُ من قومِ فرعونَ: إنَّ موسى لَساحِرٌ حاذِقٌ، عليمٌ بالسِّحْرِ، يُريدُ أنْ يُخرِجَكم من أرضِكم بِسِحْرِهِ؛ فما الَّذي تَأْمرونَ به في شَأْنِهِ؟

قال الملأُ لفرعونَ: أَخِّرْ موسى وأَخاهُ، وأَرْسِلْ في مُدُنِ مملكتِكَ مَنْ يَحْشُدُ السَّحَرَةَ؛ فَيَجيئونَ لكَ بِكُلِّ ساحِرٍ ماهِرٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنه لما لُخِّصَ في الآيةِ السَّابقةِ جميعُ القِصَّةِ على طولِها، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، فبَعْدَ هذا التَّشويقِ والتَّنبيهِ قَصَّ تعالى علينا ما كان مِن مَبْدَأِ أَمْرِ أولئك المُفسِدينِ، الَّذي انْتَهى إلى تلك العاقبةِ[٢]، فقال:

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٦-٣٧).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

أي: وقال موسى عليه السَّلامُ لَمَّا دخَلَ على مَلِكِ مِصْرَ: يا فِرعونُ، إنِّي رسولٌ إليكَ من مُرْسِلٍ عظيمٍ، وهو ربُّ جميعِ الخلائقِ، ومالِكُهم ومُدبِّرُ أُمورِهم[1].

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قولِهِ تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَى﴾ قراءتانِ:

١- قِراءة ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ بتشديدِ الياءِ، ومعناها: واجبٌ وحقٌّ عليَّ[2].

٢- قِراءة ﴿حَقِيقٌ عَلَى﴾، قيل: معناها: جَديرٌ وخَليقٌ بألَّا[3] أقولَ...، وقيل: معناها: حَريصٌ على[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

قال ابن عاشور: (الظَّاهرُ أنَّ خِطابَ موسى فرعونَ بقوله: ﴿يَا فِرْعَوْنُ﴾ خطابُ إكرام؛ لأنَّه ناداه بالاسمِ الدَّالِّ على المُلكِ والسُّلطانِ بحسَبِ مُتعارَفِ أُمَّتِه، فليس هو بترفُّعٍ عليه؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال له ولهارونَ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٧).

(٢) قرأ بها نافعٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢- ٣٤٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٩).

(٣) قال الفرَّاء: (والعربُ تجعلُ الباءَ في موضعِ عَلَى: رميت عَلَى القوسِ، وبالقوسِ، و: جئت عَلَى حالٍ حسنةٍ، وبحالٍ حسنةٍ). ((معاني القرآن)) (١/ ٣٨٦)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢- ٣٤٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٩).

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

قيل: أي: أنا جديرٌ وخليقٌ بألَّا أكذِبَ على اللهِ، ولا أقولَ عليه إلَّا الحَقَّ(١).

وقيل: أي: أنا حريصٌ على ألَّا أقولَ على الله إلا الحقَّ(٢).

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

---

(١) وممَّنِ اختار هذا القولَ: ابن عطيَّةَ، وأبو حيَّانَ، وابن تيميَّةَ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٧)، ((الجواب الصحيح)) (١/ ١٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ١٦٢).

وذكَرَه بعضُ المفسِّرين وجهًا في تفسيرِ الآيةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وفي القراءةِ المشهورةِ: يُخبِرُ أنَّه جديرٌ وحَرِيٌّ وثابتٌ ومستقِرٌّ على ألَّا يقولَ على اللهِ إلَّا الحقَّ، وعلى القِراءةِ الأخرى: أخبَرَ أنَّه واجبٌ عليه ألَّا يقولَ على اللهِ إلَّا الحقَّ). ((الجواب الصحيح)) (١/ ١٤١).

(٢) وممَّنِ اختار هذا القولَ: أبو عُبيدةَ مَعْمَرُ بن المُثنَّى، والقرطبيُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٦).

وذكَرَه بعضُ المفسِّرينَ وجهًا في تفسيرِ الآيةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

قال ابن عطيَّةَ: (وفي هذا القولِ بُعْدٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٥).

وقال الشنقيطيُّ: (وهذا القولُ مِنَ الأقوالِ الَّتي لا تَظهرُ؛ فلا يخلو عِندي من بُعْدٍ، واللهُ أعلَم). ((العذب النمير)) (٤/ ٦٨).

وفسَّرها بالقولَيْنِ محمد رشيد رضا، فقال: (جديرٌ بألَّا أقولَ على اللهِ إلَّا الحقَّ، وحَريصٌ على ذلك؛ فَلَنْ أُخِلَّ به). ((تفسير المنار)) (٩/ ٣٨).

وذكَرَ الشِّنقيطيُّ قولًا آخَرَ، فقال: (إنِّي رسولٌ حقيقٌ، أي: رِسالتي لا شكَّ فيها... الوجه الَّذي يظهر أنَّه أصوبُ الأوجهِ، ولا ينبغي العدولُ عنه، وإنْ قَلَّ مَنْ تنبَّه إليه من علماءِ التَّفسيرِ: هو أنَّ معنى الآيةِ الكريمةِ: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ﴾، وأمَّا قولُهُ: ﴿عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [فيتعلَّقُ] بمعنى الرِّسالةِ المُشارِ إليها في الرَّسولِ...، أي: أرسلني ربِّي على شَرطٍ ووتيرةٍ معيَّنةٍ، وهي ألَّا أقولَ عليه إلَّا الحقَّ). ((العذب النمير)) (٤/ ٦٦- ٧٢).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٥).

أي: قال موسى عليه السَّلامُ لفرعونَ ومَلَئِهِ: قد جِئْتُكم بحُجَّةٍ قاطعةٍ، ومعجزةٍ ظاهرةٍ من ربِّكم، تَدُلُّكم على صِدْقي(١).

﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

أي: فأَطْلِقْ- يا فرعونُ- ذُرِّيَّةَ النَّبيِّ يعقوبَ من أَسْرِكَ وقَهْرِكَ، وخَلِّهم يَخرُجُوا معي من مِصْرَ؛ لِنَعْبُدَ اللهَ تعالى حيث نَشاءُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه:٤٧].

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

أي: قال فرعونُ لموسى عليه السَّلامُ: إنْ كنتَ مُتمكِّنًا من إظهارِ حُجَّةٍ ومعجزةٍ تؤيِّدُ كلامَكَ، فهاتِها؛ لِنَرى إنْ كنتَ حقًّا مِنَ الصَّادقينَ فيما تَقولُ(٣).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٣].

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٣).

قال ابن عاشور: (تَقْييدُهُ بـ(معي)؛ لأنَّ المقصودَ من إخراجِهم من مِصرَ أنْ يكونوا مع الرَّسولِ؛ لِيُرشدَهم، ويُدبِّرَ شُؤونَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٤).

أي: فألقى موسى عصاهُ في الأرضِ؛ فانقلَبَتْ بإذنِ اللهِ ثُعبانًا عظيمًا واضحًا لِمَنْ يَراهُ(١).

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

أي: وأخْرَجَ موسى يَدَهُ من جَيْبِه، فظَهَرَتْ بيضاءَ لِكُلِّ مَنْ نَظَرَ إليها، وهذا البَياضُ مِن غيرِ بَرَصٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢].

﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

أي: قال الأشرافُ والسَّادةُ من قومِ فِرعونَ: إنَّ موسَى ساحرٌ حاذقٌ، عليمٌ بالسِّحرِ، ماهرٌ فيه، يُرِي الشَّيءَ بخِلافِ ما هو عليه، فيُخيِّلُ إلى النَّاسِ أنَّ عصاهُ تنقلِبُ حيَّةً، وأنَّ يَدَهُ تَصيرُ بيضاءَ من غيرِ سُوءٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).
قال البَغويُّ: (والثُّعبانُ: الذَّكَرُ العظيمُ من الحيَّاتِ، فإنْ قيل: أليس قد قال في موضعٍ آخَرَ: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠]، والجانُّ الحيَّةُ الصَّغيرةُ؟ قيل: إنَّها كانت كالجانِّ في الحركةِ والخفَّةِ، وهي في جُثَّتِها حيَّةٌ عظيمةٌ). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).
قال الزَّجَّاجُ: (وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ [النمل: ١٢]، وفي موضِعٍ آخَرَ: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢]، فهذا دليلٌ أنَّ معنى نَزْعِ يدِهِ إخراجُها من جيبِهِ، وإخراجُها من جَناحِهِ، وجَناحُ الرَّجلِ عَضُدُهُ، وقيل: جناح الرَّجلِ عِطْفُه، وتأويلُ الجَناحَيْنِ مِنَ الإنسانِ أنَّهما كالجَناحينِ مِنَ الطَّائرِ، وهما العَضُدانِ). ((معاني القرآن)) (٢/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٢)، =

وقد حَكَى اللهُ عزَّ وجلَّ عن فرعونَ رَمْيَهُ موسى عليه السَّلامُ بهذه الفِرْيَةِ نَفْسِها، فقال: ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦].

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾.

أي: قال الأشرافُ والسَّادةُ من قومِ فِرعونَ(١): يُريدُ موسى بسِحْرِه أنْ يُخرجَكم مِن أرضِكم؛ مِصْرَ(٢).

= ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

قال ابنُ عطيَّةَ: (السَّاحرُ كان عندهم في ذلك الزَّمنِ أعلى المراتبِ، وأعظمَ الرِّجالِ، ولكنَّ وصْفَهم موسى بذلك مع مُدافَعتِهم له عن النُّبوَّةِ ذمٌّ عظيمٌ وحطٌّ، وذلك قَصَدوا إذ لم يُمكنْهم أكثرُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٧).

وقال ابنُ عاشور: (وهذا القولُ قد أعرَبَ عن رأيِ جميعِ أهلِ مجلسِ فرعونَ، ففِرعونُ كان مُشارِكًا لهم في هذا؛ لأنَّ القرآنَ حَكَى عن فرعونَ في غيرِ هذه السُّورةِ أنَّه قال للملأ حوله: إنَّ هذا لساحرٌ عليمٌ، وهذه المَعذرةُ قد انتحلوها وتواطؤوا عليها، تَبِعوا فيها مِلكَهم أو تَبِعهم فيها، فكلُّ واحدٍ من أهلِ ذلك المجلسِ قد وطَّنَ نفسَه على هذا الاعتذارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٢).

(١) قال ابن عاشور: (قالوا هذا الكلامَ على وجهِ الشُّورى مع فرعونَ واستنباطِ الاعتذارِ لأنفسِهم عن قِيامِ حُجَّةِ موسى في وجوههم؛ فاعتلُّوا لأنفسِهم بعضُهم لبعضٍ بأنَّ موسى إنَّما هو ساحرٌ... ولذلك فالخِطابُ في قوله: ﴿يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ خِطابُ بعضِهم لبعضٍ، وهو حاصلٌ من طوائفِ ذلك الملأِ لطوائفَ يُردِّدونه بينهم، ويقوله بعضُهم لبعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٢).

وقال ابنُ عاشور: (وجهُ استفادتِهم أنَّ موسى يُريدُ إخراجَهم من أرضِهم، إمَّا أنَّهم قاسوا ذلك عن قولِ موسى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بقاعدةِ ما جاز على المِثلِ يجوزُ على المُماثِلِ، =

كما قال تعالى عن فِرعونَ: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥].

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

أي: فما الَّذي تَأمرونَ به في شأنِ مُوسَى[1]؟

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾.

= يَعنونَ أنَّه ما أظهَرَ إخراجَ بني إسرائيلَ إلَّا ذريعةً لإخراجِ كلِّ مَنْ يؤمِنُ به؛ ليتَّخذَهم تَبَعًا، ويُقيمَ بهم مُلكًا خارجَ مِصرَ، فزعموا أنَّ تلك مكيدةٌ من موسى؛ لِثَلْمِ مُلكِ فرعونَ. وإمَّا أنْ يكونَ ملأُ فرعونَ محتويًا على رجالٍ من بني إسرائيلَ كانوا مُقرَّبينَ عِند فرعونَ ومن أهلِ الرَّأيِ في المملكةِ، فهُمُ المقصودُ بالخِطابِ، أي: يُريدُ إخراجَ قومِكم من أرضِكم الَّتي استوطنتموها أربعةَ قرونٍ، وصارتْ لكم موطنًا، كما هي للمِصريِّينَ، ومقصِدُهم من ذلك تذكيرُهم بحُبِّ وطنِهم، وتقريبُهم من أنفسِهم، وإنساؤُهم ما كانوا يلقَوْنَ من اضطهادِ القِبطِ واستذلالِهم؛ شُعورًا منهم بحراجةِ الموقفِ. وإمَّا أنَّهم علِموا أنَّه إذا شاعَ في الأُمَّةِ ظُهورُ حُجَّةِ موسى وعجْزِ فرعونَ وملئِهِ، أدخَلَ ذلك فِتنةً في عامَّةِ الأمَّةِ فآمَنوا بموسى، وأصبح هو الملِكَ على مِصرَ؛ فأخرج فرعونَ وملأَهُ منها. ويجوز أنْ يكونَ الملأُ خاطَبوا بذلك فرعونَ، فجرَتْ ضمائرُ الخطابِ في قوله: ﴿أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ على صيغةِ الجمعِ؛ تعظيمًا للمُلكِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، وهذا استعمالٌ مُطَّرِدٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٢-٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

اختار ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، أنَّ القائلَ هو فرعونُ، يُخاطِبُ بذلك ملأَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧).

وقيل: هو مِن كلامِ الملأِ بعضِهم إلى بعضٍ يتشاورون فيما بينهم ما يَفعلون بموسى عليه السَّلامُ. وهذا اختيارُ ابن عَطيَّةَ، وظاهر اختيار السعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

وقال القرطبيُّ: (أي: قال فِرعونُ: فماذا تأمرون؟ وقيل: هو من قولِ الملأ، أي: قالوا لفرعونَ وحدَهُ: فماذا تأمرون؟ كما يخاطَبُ الجبَّارون والرُّؤساء: ما ترون في كذا؟ ويجوز أن يكونَ قالوا له ولأصحابِه). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧).

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾.

أي: قال الملأُ لفرعونَ: أخِّرْ موسى وأخاهُ هارونَ، وأمهِلْهما[1].

﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

أي: وابعَثْ- يا فرعونُ- في مُدُنِ مملكتِكَ أُناسًا[2] يَحشُدونَ منها السَّحرةَ[3].

﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿سَاحِرٍ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءة ﴿سَحَّارٍ﴾ على وَزْنِ (فَعَّالٍ)، وهو مِن أبنيةِ المُبالَغةِ، فـ(سحَّار) أشدُّ مُبالَغةً في الوَصْفِ من (ساحر)؛ إذْ تدُلُّ على بُلوغِهِ النِّهايةَ في عِلْمِ السِّحرِ، وتدُلُّ على تَكريرِ الفِعْلِ، وعلى أنَّ ذلك ثابتٌ لهم فيما مَضَى مِنَ الزَّمانِ[4].

٢- قِراءة ﴿سَاحِرٍ﴾، وهي اسْمُ فاعلٍ من سَحَرَ[5].

﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

(٢) قال الماورديُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ: «هُمْ أصحابُ الشُّرَطِ»، وهو قولُ الجماعةِ). ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

(٤) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٦)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٩١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧١-٤٧٢).

(٥) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧١-٤٧٢).

أي: يَجيئوا لك من سائرِ البِلادِ بالسَّحَرةِ المَهَرَةِ الَّذين بلَغوا النِّهايةَ في فَنِّ السِّحْرِ؛ ليُعارِضوا ما جاءَ به موسى[1].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ فرعونَ لِموسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ [طه: ٥٧-٥٨].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- حِكمةُ بَدءِ قِصَّةِ موسى عليه السلام بذِكرِ نَتيجَتِها، والعبرةِ المقصودةِ منها، في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ هي أن تكونَ مُتَّصلةً بما يُناسِبُها من العِبرةِ في القَصَص التي قَبلَها، مِن حيثُ إهلاكُ مُعاندي الرُّسُل- عليهم السَّلامُ- جُحودًا واستكبارًا، وقد ذُكِرَت هذه العبرةُ بعد جملةِ تلك القَصَص؛ لتَشابُهِها مبدأً وغايةً، وقصَّةُ موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طويلةٌ، فهي تُساويها في هذا من حيثُ رسالتُه إلى فِرعونَ ومَلَئِه فقط، وفيها عِبَرٌ أخرى فيما تُشابِهُ به أمْرَ خاتَمِ الرُّسُل صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن حيث إرسالُه إلى بني إسرائيلَ، وإرسالُ محمَّدٍ خاتَمِ النبيِّينَ إلى العَربِ وسائِر البَشرِ، وتوفيقُ اللهِ قومَهما للإيمانِ، ونَشر شَريعَتِهما فيمن أُرسِلا إليهم، إلى غيرِ ذلك؛ ولذلك ذكَرَ في أواخِرِها تبشيرَ موسى، وكذا عيسى، بالنبيِّ الأمِّيِّ الخاتَمِ محمَّدٍ، صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ[2].

٢- شأنُ الرُّسلِ ألَّا يَبتَدئوا بإظهارِ المعجزاتِ؛ صَوْنًا لِمَقامِ الرِّسالةِ عن تعريضِه للتَّكذيبِ، يُبيِّنُ ذلك قوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٨).

رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ فأَظْهَرَ موسى- عليه السَّلامُ- الاستعدادَ للتَّبيينِ على ذلك الصِّدْقِ بالبراهينِ أو المعجزةِ، شريطَةَ أنْ يطلبَها فرعونُ(١).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفي اختيارِ صِفةِ رَبِّ العالَمينَ في الإعلامِ بالمُرْسِلِ عِدَّةُ لَطائِفَ:

منها: أنَّ مَنْ كان مُرْسَلًا مِنْ جِهَةِ مَنْ هو رَبُّ العالَمينَ أَجمَعينَ فهو حَقيقٌ بالقَبولِ لِمَا جاءَ به، كما يَقولُ مَنْ أَرْسَلَهُ المَلِكُ في حاجةٍ إلى رَعِيَّتِهِ: أنا رسولُ الملِكِ إليكم، ثمَّ يَحْكي ما أُرْسِلَ به؛ ففي ذلك مِن تَربيةِ المَهابةِ، وإدخالِ الرَّوْعَةِ ما لا يُقادَرُ قَدْرُه(٢).

ومنها: الإبطالُ لاعتقادِ فرعونَ أنَّه رَبُّ مِصْرَ وأَهْلِها؛ فإنَّه قال لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، فلمَّا وَصَفَ موسى مُرْسِلَه بأنَّه ربُّ العالَمِينَ شَمِلَ فِرعونَ وأهلَ مملكتِهِ؛ فتَبْطُلُ دَعْوى فِرعونَ أنَّه إلهُ مِصْرَ بطريقِ اللُّزومِ، ودخَلَ في ذلك جميعُ البِلادِ والعِبادِ الَّذينَ لم يكُنْ فِرعونُ يَدَّعي أنَّه إلهُهُم؛ مِثْلُ الفُرْسِ والآشُورِيِّينَ(٣).

ومنها: أنَّ ربَّ العالَمين هو مُرَبِّي جَميعِ خَلْقِهِ بأنواعِ التَّدابيرِ الإلهيَّةِ، الَّتي من جُمْلتِها أنَّه لا يترُكُهم سُدًى، بل يُرسِلُ إليهم الرُّسلَ مُبشِّرينَ ومُنذرينَ، وهو الَّذي لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أنْ يتجرَّأَ عليه، ويَدَّعِيَ أنَّه أرْسَلَه ولم يُرْسِلْه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

٤- في قول موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّهم مَرْبوبونَ، وأنَّ فرعونَ ليس ربًّا ولا إلهًا، وإلى أنَّ البيِّنةَ ليسَتْ من كَسْبِ موسى، ولا ممَّا يَستقِلُّ به عليه السَّلامُ[1].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾، ما أَعْجَبَ أمْرَ هذَيْنِ الخارقَيْنِ! أحدُهما في نفسِهِ وذلك اليَدُ البيضاءُ، والآخَرُ في غيرِ نفسِهِ وهي العصا، وجمَعَ بِذَيْنِكَ تَبَدُّلَ الذَّواتِ وتبدُّلَ الأعراضِ، فكانا دالَّيْنِ على جوازِ الأمرَيْنِ، وأنَّهما كِلاهما ممكِنُ الوُقوعِ[2].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾، في ذِكْرِ ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾- أي: للنُّظَّارِ- تنبيهٌ على عِظَمِ بَياضِ يدِهِ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه لا يَعْرِضُ لها للنُّظَّارِ إلَّا إذا كان بَياضُها عجيبًا، خارجًا عَنِ العادةِ، يَجتمِعُ النَّاسُ إليه، كما يَجتمِعُ النُّظَّارُ للعجائبِ[3].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ السَّحَرةَ كانوا كثيرينَ في ذلك الزَّمانِ[4].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ دلَّ على أنَّ مُعْجِزَةَ كُلِّ نَبِيٍّ في زَمانِه كانت بما يُناسِبُ أهلَ ذلك الزَّمانِ فَمُوسَى عليه السَّلامُ كانت مُعْجِزَتُه مِمَّا يُناسِبُ أهلَ زمانِه، وكانوا سَحَرَةً أذكِياءَ، فبُعِثَ بآياتٍ بَهَرَتِ الأبصارَ، وخَضَعَتْ لها الرِّقابُ، ولمَّا كانَ السَّحَرَةُ خَبيرينَ بفُنونِ السِّحْرِ، وما يَنْتَهي إليه، وعايَنوا ما عايَنوا مِن الأمرِ

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٣٢).

الباهرِ الهائلِ، الَّذي لا يُمْكِنُ صدورُه إلَّا عمَّن أيَّدَه اللَّه وأجرَى الخارِقَ على يَدَيْه تصديقًا له أسْلَموا سِراعًا، ولم يتَلَعْثَموا[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مسوقٌ لتفصيلِ ما أُجمل فيما قَبْلَه من كيفيَّةِ إظهارِ الآياتِ، وكيفيَّةِ عاقبةِ المفسِدِين[٢].

- وفيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ فعطَف هنا بالواو، ولم يَفصِلْ أو يعطِف بالفاءِ كما في سُورة طه؛ حيثُ قال بعدَ أمْرِ موسى بالذَّهابِ مع أخيه هارونَ إلى فِرعونَ، وتَبليغِه الدَّعوةَ، مُبيِّنًا كيف كان امتثالُهما للأمرِ:﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨]؛ فجاء به مفصولًا على وجهِ الاستئنافِ البيانيِّ غيرَ مَوصولٍ بالواو، ولا بـ«أو» ولا بالفاءِ، ووجهُ العَطفِ بالواوِ هنا: أنَّه قد قفَّى في قِصَّةِ موسى هنا على ذِكرِ إرسالِه إلى فِرعون وملئه بذِكرِ نتيجةِ هذا الإرسالِ وعاقبتِه بالإجمالِ، وهو قوله تعالى: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، وبُدِئتِ القصةُ بَعدَه بتفصيل ذلك الإجمالِ ومُقدِّمات تِلك النتيجة، فكان المناسبُ أن يُعطَف عليها، لا أنْ يُستأنَف استئنافًا بيانيًّا؛ لِمَا هو ظاهرٌ مِن الاشتراكِ بين المقدِّمات والنتيجةِ، أو بين التفصيلِ والإجمالِ، وأنْ يكون العطفُ بالواوِ لا بالفاء؛ لأنَّ الفاءَ تدلُّ على التعقيبِ والترتيبِ، وهو لا يناسبُ هنا؛ لأنَّه يَقتضي أن تكونَ المقدِّماتُ متأخِّرةً عن النتيجةِ، وذلك باطلٌ بالبداهةِ؛ فتعيَّن أن يكونَ العطفُ بالواوِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٣٣)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٧).

- وقوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه حِكاية كلام موسى بصِيغةِ التأكيدِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّ المُخاطَب مَظِنَّةُ الإنكارِ، أو التردُّد القويِّ في صِحَّةِ الخبرِ[1].

٢- قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

- قولُه: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فيه تضمينٌ، حيث ضُمِّنَ ﴿حَقِيقٌ﴾ مَعْنَى (حَرِيص)؛ ليُفيدَ أنَّه مَحْقوقٌ بقولِ الحقِّ، وحريصٌ عليه[2]. وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- قولُه: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لما قبله، من كونه رسولًا من ربِّ العالمين، وكونِه حقيقًا بقولِ الحقِّ، وفيه تعريضٌ بأنَّ فرعون ليس ربًّا لهم، بل ربهم هو الذي جاء موسى بالبيِّنةِ من عِندَه[3].

- وتنكيرُ (بيِّنةٍ) للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، أي: قد جِئْتُكم ببيِّنةٍ عظيمةِ الشَّأْنِ، ظاهرةِ الحُجَّةِ في بيانِ الحَقِّ[4].

- و﴿مِنْ﴾ على القولِ بأنَّها مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ وقَعَ صِفةً لـ(بيِّنةٍ)؛ فإنَّها مُفيدةٌ لفخامتِها الإضافيَّةِ المؤكِّدةِ لفخامتِها الذاتيَّة، المستفادَة من التنوينِ التفخيميِّ[5].

- وإضافةُ اسمِ الربِّ إلى المخاطَبين بعد إضافتِه فيما قبله إلى (العالَمين)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٨).

لتأكيدِ وجوبِ الإيمان به[(١)].

٣- قوله: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استئنافٌ وقَع جوابًا عن سؤال يَنساقُ إليه الكلامُ؛ كأنه قيل: فماذا قال فرعونُ له عليه السَّلام حِين قال له ما قال؟ فقيل: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ...﴾[(٢)].

٤- قوله: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فيه مناسبةٌ حسنة، حيثُ قال هنا في الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ فنسَبَ القَولَ للمَلأِ، وقال في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[الشعراء: ٣٤] فنَسَبه لفِرعون، فأخبَرَ في الأولى أنَّ قائلَ ذلك الملأُ من قومِهِ، وفي الثَّانيةِ أنَّ فرعونَ هو القائلُ ذلك لملئِه؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قولَ الملإِ فيما حَكاهُ اللهُ تعالى في سورةِ الأعرافِ قولُ فرعونَ، أدَّاهُ عنه رؤساءُ قومِهِ إلى عامَّةِ أصحابِهِ، وإنَّما اختَصَّتْ سورةُ الأعرافِ بحكايةِ ما قال الملأُ، وسورةُ الشُّعَراءِ بما قالَهُ فرعونُ؛ لأنَّ أوَّلَ مَنْ رَدَّ قولَ موسى عليه السَّلامُ فرعونُ، ثمَّ مالأَهُ عليه مَلَؤُهُ، وهو ما حَكاهُ اللهُ تعالى في سورةِ الشُّعَراءِ واقْتَصَّ حالَهُ، حيث أخبَرَ عنه بما قاله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[الشعراء: ١٨]، إلى أنِ انتهتِ الآياتُ إلى القِصَّةِ المودَعةِ ذِكْرَ السَّحَرَةِ، فقال فرعونُ للملإِ حَوْلَهُ ما أدَّوْهُ عنه إلى غيرِهم، وسورةُ الشُّعَراءِ مكِّيَّةٌ كسُورةِ الأعرافِ، وترتيبُ الاقتصاصِ يَقتضي أنْ تكونَ قَبْلَها، وفي السُّورةِ الثَّانيةِ أخبَرَ عمَّا أدَّاهُ عنه ملؤُهُ إلى النَّاسِ الَّذينَ أجابوهُ بأنْ ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾، فكان قولُ فرعونَ للملإِ حَوْلَهُ سابقًا قولَ الملإِ الَّذينَ أَدَّوْا إلى غيرِهم قولَهُ، فذُكِر حيثُ قُصِدَ اقتِصاصُ أوَّلِ مَن دَعاه موسى عليه السَّلامُ إلى طَاعةِ اللهِ تعالى[(٣)]. وقيل: لَمَّا تَقدَّم في سُورة الأعراف قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٤٧-٦٤٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٦-١٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠٣).

مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾، فوقَعَ ذِكرُ الملأ مبعوثًا إليهم مع فِرعون؛ ناسَبَ ذلك أنْ يُذكَروا في الجوابِ؛ حتى يكونَ في قُوَّة أنْ لو قيل: بعث إليهم وخُوطِبوا فقالوا، ولم يكُن ليُناسِبَ: بعث إليهم فقال فرعون. ولَمَّا تَقدَّم في سُورة الشعراء قولُه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾، ثم جرَى ما بعدَ المحاورةِ ومراجعةِ الكلام بَينَ موسى عليه السلام وفرعون، ولم يقعِ الملأُ هنا ناسَبَ ذلك نِسبةُ القولِ لِفرعونَ؛ لأنَّه هو الذي راجَع وخُوطِب؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِب(١).

٥- قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾، وقال في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء: ٣٥]، بزيادة ﴿بِسِحْرِهِ﴾؛ وذلك لأنَّه لَمَّا أَسْنَدَ الفِعْلَ في سورةِ الشُّعَراءِ إلى فِرعونَ، وحَكى ما قالَهُ، وأنَّه قال للملأِ حولَهُ من قومِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، وكان فرعونُ أشدَّهم تمرُّدًا، وأوَّلَهم تجبُّرًا، وأبلغَهم فيما يُرَدُّ به الحقُّ، كان في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الشعراء: ٣٥] ذِكْرُ السَّبَبِ الَّذي يَصِلُ به إلى الإخراجِ، وهو: ﴿بِسِحْرِهِ﴾، فأَشْبَعَ المَقالَ بعْدَ قولِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] بأنْ ذَكَرَ ﴿بِسِحْرِهِ﴾. وأمَّا في الأعرافِ فلم يذكُرْ فيه ﴿بِسِحْرِهِ﴾ لأنَّه مِن قولِ الملأِ، حيثُ قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾، والملأُ لم يبلُغوا مَبْلَغَ فرعونَ في إبطالِ ما أَوْرَدَهُ موسى عليه السَّلامُ، ولم يَجْفوا في الخِطابِ جَفاءَهُ، فتناولَتِ الحِكايةُ ما قاله فرعونُ على جِهتِه بتكريرِ لَفْظِ السِّحْرِ من فِعْلِهِ بعدما أخرَجَه بصِفتِه، حيثُ قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٤- ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥١-٦٥٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٥-٢١٦).

وقيل: إنَّ المُناسَبةَ أنَّ آيةَ الأعرافِ بُنِيَتْ على الاقتصارِ، ولأنَّ لَفْظَ السَّاحِرِ في قوله قَبْلَ الآيةِ هنا: ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ يدلُّ على السِّحْرِ بخِلافِ الآيةِ في سُورةِ الشُّعراءِ[1].

٦- قوله: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حاشِرِين﴾ فيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿وَأَرْسِلْ﴾، وقال في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿وَابْعَثْ﴾ [الشعراء:٣٦]؛ قيل: هذا الاختِلافُ في التعبيرِ مَبْنِيٌّ على التَّرتيبِ الَّذي استقرَّ عليه المصحَفُ، فـ(أَرْسِلْ) أخصُّ في بابِ الإرسالِ مِنَ البَعْثِ؛ إذْ لا يُقالُ: (أَرْسِلْ) إلَّا فيما كان توجيهًا فيه معنى الانتقالِ، أمَّا (بَعَثَ) فأَوْسَعُ؛ فإنَّه يقَعُ بمعنى الإرسالِ وبمعنى الإحياءِ؛ ففيه اشتراكٌ، فلمَّا كان الإرسالُ أخصَّ وَقَعَ الإخبارُ به أوَّلًا، ثمَّ وَقَعَ ثانيًا بالبَعْثِ؛ تَنويعًا للعِبارةِ، وعلى التَّرتيبِ في مَوْضِعِ اللَّفظِ المُطَّرِدِ مِنَ القرآنِ، ولا يُمكِنُ على ما تقرَّرَ من ذلك العَكْسُ[2]. وقيل: إنَّ (أَرْسِل) و(ابْعَثْ) بمعنًى واحدٍ؛ وإنَّما عُبِّر بكلٍّ واحدٍ في مَوضِعٍ؛ تَكثيرًا للفائدةِ في التَّعبيرِ عن المرادِ بلَفظَيْنِ متساوِيَيْنِ معنًى[3].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥٤-٦٥٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠٤).

الآيات (١١٣-١١٦)

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: أي: أرْهبوهم، أو أخافوهم، أو استَدْعَوْا رَهبَتَهم، وهي الخوفُ، والرَّهبةُ: مَخافةٌ مع تَحَرُّزٍ واضْطِرابٍ، وأَصْلُ (رهب): يدُلُّ على خَوْفٍ(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾

﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾: (أنْ) في الموضعَينِ حَرْفٌ مَصدريٌّ. و﴿أَنْ تُلْقِيَ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَوَّلٌ، وما بَعدَه معطوفٌ عَلَيهِ، وفي محلِّ ﴿أَنْ تُلْقِيَ﴾ الإعرابيِّ ثلاثةُ أَوْجُهٍ: الأوَّلُ: النَّصْبُ بِفِعْلٍ مُقدَّرٍ، أي: اخترْ إمَّا إلقاءَك وإمَّا إلقاءَنا. الثَّاني: الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والتقديرُ: أَمْرُكَ إمَّا إلقاؤُك وإمَّا إلقاؤُنا. الثَّالثُ: أنْ يكونَ مبتدأً خبرُهُ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: إمَّا إلقاؤُك مَبدوءٌ به، وإمَّا إلقاؤُنا مبدوءٌ به(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٩٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٢-٥٩٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤١٥).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ السَّحَرَةَ الَّذينَ جُمِعوا مِنَ المدائنِ، لَمَّا جاؤوا فرعونَ قالوا له: هل ستُعْطينا أجْرًا إنْ نحن غَلَبْنا موسى، قال لهم: نَعَمْ، وستكونون أيضًا مِنَ المُقرَّبينَ منِّي.

فتوجَّهوا بالخِطابِ إلى موسى فخيَّروه بَيْنَ أنْ يُلْقِيَ عصاه، أو يكونوا هُمْ أوَّلَ مَنْ يُلقي، فأَمَرهم موسى أنْ يَبدؤوا هُمْ بالإلقاءِ، فلمَّا ألقَوْا سَحَروا أَعْيُنَ النَّاسِ، وأخافوهم، وجاؤوا بسِحْرٍ عظيمٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ قراءتانِ:

١ - قراءة ﴿إِنَّ﴾ على لَفْظِ الخبرِ، والمُرادُ به الإلزامُ؛ وذلك أنَّهم ألزموا فرعونَ أنْ يجعلَ لهم أجْرًا إنْ غلَبوا، وقيل: إنَّهم قَطَعوا ذلك لأنفسِهم في حُكْمِهم إنْ غلَبوا[١].

٢ - قراءة ﴿أَإِنَّ﴾ استفهامٌ، على معنى الاستخبارِ، أي: استَخْبَروا فرعونَ: هل يجعلُ لهم أجرًا إنْ غلَبوا، أو لا يجعلُ ذلك لهم[٢]؟

(١) قرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو جعفرٍ وحفصٌ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٢)، ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٦-٤١٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٢).

(٢) قرأ بها الباقون، إلَّا أنَّ أبا عمرو يُلين الثانية، ويُدخل بين الهمزتين ألِفًا، وهشام يُحقِّق =

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

أي: وجاء السَّحَرةُ الَّذينَ جُمِعوا مِنَ المُدُنِ إلى فرعونَ، فلمَّا حضَروا عِنده سألوه: هل ستَمنَحُنا عطاءً عظيمًا إنْ تغلَّبْنا على موسى[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١].

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

أي: قال فرعونُ للسَّحرةِ: نَعَمْ، لكم منِّي ذلك، ولكم أيضًا فَوقَ ما سألْتُم؛ أنْ أَجعلَكم مِنَ الَّذينَ أُقرِّبُهم منِّي[(٢)].

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

أي: قال السَّحرةُ: يا موسى، اختَرْ إمَّا أنْ تُلقيَ عصاكَ أوَّلًا، أو نُلقيَ قَبْلَكَ ما معنا مِنَ العِصيِّ والحِبالِ[(٣)].

= الهمزتين، ويدخل بين الهمزتين ألفًا. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٢)، ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٦-٤١٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٥-٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٦).=

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥].

﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ﴾.

أي: قال موسى للسَّحَرةِ: أَلْقوا أنتم أوَّلًا ما ستُلقونَه[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠].

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

أي: فلمَّا أَلْقى السَّحرةُ حِبالَهم وعِصيَّهم، خَيَّلوا إلى الأبصارِ بسِحْرِهم أنَّها حيَّاتٌ تسعَى في الحقيقةِ[2].

= قال السعدي: (فلمَّا حضَروا مع موسى بحَضْرةِ الخَلْقِ العظيمِ ﴿قَالُوا﴾ على وجه التَّألِّي وعدمِ المبالاةِ بما جاء به موسى: ﴿يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ ما مَعَك ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩- ٣٠٠).

وقال الشنقيطيُّ: (يَعْنونَ: إنْ أَلْقَيْتَ قَبْلَنا غلَبْناكَ، وإنْ أَلْقَينا قَبْلَكَ غلَبْناكَ، فإنْ شئتَ فتقدَّمْ، وإنْ شئتَ فتأخَّرْ). ((العذب النمير)) (٤/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٩).

قال ابن تيميَّةَ: (هذا يقتضي أنَّ أَعْيُنَ النَّاسِ قد حصَلَ فيها تغيُّرٌ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، فقدْ علِموا أنَّ السِّحرَ يُغيِّرُ الإحساسَ، كما يوجِبُ المرضَ والقتلَ، وهذا كلُّه من جنسِ مقدورِ الإنسِ؛ فإنَّ الإنسانَ يَقدِرُ أنْ يفعلَ في غيرِه ما =

كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾.

أي: وأخافَ السَّحرةُ النَّاسَ، وأفزعوهم بما خَيَّلوا إلى أعيُنِهم مِنَ الحيَّاتِ الكثيرةِ الضَّخمةِ الَّتي تَسْعى(١).

﴿وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: وجاءَ السَّحرةُ بتخييلٍ عظيمِ الشَّأنِ عِند مَنْ يَراهُ مِنَ النَّاسِ، ذي تأثيرٍ كبيرٍ في أَعْيُنِهم، وقد أدخَلَ الخوفَ الشَّديدَ في نُفوسِهم(٢).

= يُفسِدُ إدراكَه، وما يُمرِضُه ويقتله، فهذا مع كونِهِ ظلمًا وشرًّا هو من جنسِ مقدورِ البشَرِ). ((النبوات)) (٢/ ١٠٥٣).

وقال الشنقيطي: (دلَّ قوله: ﴿أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ على أنَّ سحرَهم من جنسِ الشَّعْبَذاتِ؛ لأنَّهم جاؤوا بسحرٍ أخَذَ بعُيونِ النَّاسِ حتَّى صارتْ ترى تخييلاتٍ ليستْ بحقيقيَّةٍ، وترى العِصِيَّ والحبالَ تظنُّها حيَّاتٍ- ثعابينَ- من أضخم الحيَّاتِ، بالمئاتِ والآلافِ مُكَدَّسَةٍ كالجبالِ، يركَبُ بعضُها بعضًا، حتَّى خافَ الخَلْقُ منها خوفًا شديدًا، فقوله هنا: ﴿أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ يدُلُّ على أنَّه تخييلٌ بالنِّسبةِ للعَينِ لا حقيقةٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٠).

قال ابن عاشور: (والاسترهابُ: طلَبُ الرَّهَبِ، أي: الخوفِ، وذلك أنَّهم عزَّزوا تخيُّلاتِ السِّحرِ بأمورٍ أُخْرى تُثيرُ خوفَ النَّاظرينَ؛ لِتزدادَ تمكُّنُ التَّخيُّلاتِ من قلوبِهم، وتلك الأمورُ أقوالٌ وأفعالٌ توهِمُ أنْ سيقَعَ شيءٌ مُخيفٌ كأنْ يقولوا للنَّاسِ: خُذوا حِذْرَكم وحاذِروا، ولا تقتربوا، وسيقع شيءٌ عظيمٌ، وسيحضُرُ كبيرُ السَّحرةِ، ونحوِ ذلك مِنَ التَّمويهاتِ، والخُزعبِلاتِ، والصِّيَاحِ، والتَّعجيبِ، ولك أنْ تجعلَ السِّينَ والتَّاءَ في ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ للتَّأكيدِ، أي: أرْهبوهم رهبًا شديدًا، كما يُقالُ: استكبَرَ، واستجابَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨١)، ((تفسير المراغي)) (٩/ ٢٩).

قال الشنقيطي: (فإنْ قيل: قوله في طه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ﴾ [طه: ٦٦]، وقوله في =

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- السِّحرُ لا يؤثِّرُ بقلبِ الأعيانِ إلى أعيانٍ أُخرَى[١]، مما يدلُّ على ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ فلو كان السَّحرةُ قادرينَ على قلبِ الأعيانِ، لَمَا احتاجوا إلى طلَبِ الأجْرِ والمالِ من فرعونَ؛ لأنَّهم لو قَدَروا على قلبِ الأعيانِ فلِمَ لم يَقلِبوا التُّرابَ ذهَبًا؟! ولِمَ لَمْ يَنقُلوا مُلكَ فرعونَ إلى أنفُسِهم، ولِمَ لَمْ يجعلوا أنفُسَهم مُلوكَ العالَمِ، ورؤساءَ الدُّنيا[٢]؟!

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ كُلَّ الخَلْقِ كانوا عالِمينَ بأنَّ فرعونَ كان عبْدًا ذليلًا مَهينًا عاجِزًا، وإلَّا لَمَا احتاجَ إلى الاستعانةِ بالسَّحرةِ في دَفْعِ موسى عليه السَّلامُ[٣].

٣- ليس في أمْرِ موسى عليه السَّلامُ إيَّاهم بالتَّقدُّمِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ ما يَقتضي تسويغَ مُعارَضةِ دعوةِ الحقِّ؛ لأنَّ القومَ كانوا مَعروفينَ بالكُفْرِ بما جاء به موسى، فليس في مُعارَضتِهم إيَّاهُ تجديدُ كُفْرٍ، ولأنَّهم جاؤوا مُصمِّمينَ على مُعارَضتِهِ، فليس الإذْنُ لهم تسويغًا، ولكنَّهم خيَّروه في التَّقدُّمِ

= الأعراف: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾، الدَّالَّانِ على أنَّ سحْرَ سَحَرةِ فرعونَ خيالٌ لا حقيقةَ له، يُعارِضُهما قوله في الأعراف: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾؛ لأنَّ وصْفَ سِحرِهم بالعِظَمِ يدُلُّ على أنَّه غيرُ خيالٍ، فالَّذي يَظهر في الجوابِ- والله أعلم- أنَّهم أخَذوا كثيرًا مِنَ الحبالِ والعِصيِّ، وخيَّلوا بسِحرِهم لأعيُنِ النَّاسِ أنَّ الحبالَ والعصيَّ تسعى، وهي كثيرةٌ، فظنَّ النَّاظرونَ أنَّ الأرضَ مُلِئَتْ حيَّاتٍ تسعى؛ لكثرةِ ما ألقَوْا مِنَ الحبالِ والعِصيِّ، فخافوا من كثرتِها، وبتَخْييلِ سَعْيِ ذلك العددِ الكثيرِ، وَصَفَ سحرَهم بالعِظَمِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ٨٨) (٥/ ٢)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٤٨)، ((القول المفيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أو أن يتقدَّموا، فاختار أنْ يتقدَّموا؛ لِحِكْمَةٍ إلهيَّةٍ تَزيدُ المعجزةَ ظُهورًا، ولأنَّ في تقديمِهِ إيَّاهم إبلاغًا في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ولعلَّ اللهَ ألْقى في نفسِهِ ذلك، وفي هذا دليلٌ على جوازِ الابتداءِ بتقريرِ الشُّبهةِ للَّذي يَثِقُ بأنَّه سيدفَعُها[1]. ومِن الحِكْمةِ في أمْرِه لهم بالتَّقدُّمِ- والله أعلم- لِيَرى النَّاسُ صَنيعَهم ويتأمَّلوه، فإذا فُرِغَ من بَهْرَجِهِم، جاءَهم الحقُّ الواضحُ الجَلِيُّ بعْدَ التَّطلُّبِ له، والانتظارِ منهم لمجيئِه، فيكون أَوْقَعَ في النُّفوسِ، وكذا كان[2].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ فيه ما يدُلُّ على رغبتِهم في أنْ يُلقوا قَبْلَه من تأكيدِ ضَميرِهم المُتَّصِلِ بالمُنْفَصِلِ وتعريفِ الخبرِ، أو تعريفِ الخبرِ وإقحامِ الفَصْلِ، وقد سوَّغَ لهم موسى ما تَراغَبوا فيه؛ ازدِراءً لِشأنِهم، وقِلَّةَ مُبالاةٍ بهم، وثِقَةً بما كان بصَدَدِهِ مِنَ التَّأييدِ السَّماوِيِّ، وأنَّ المعجزةَ لنْ يغلِبَها سِحْرٌ أبدًا[3].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا﴾، أَعادَ كلمةَ ﴿أَلْقُوا﴾ وحدَها؛ للإيذانِ بعدمِ مُبالاتِهِ، فهذه الكلمةُ الواحدةُ تبدو فيها قِلَّةُ المُبالاةِ، وتُلْقي ظِلَّ الثِّقةِ الكامنةِ وراءَها في نَفْسِ موسى[4].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾

- قوله: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، منوطٌ بسُؤالٍ نَشأَ مِن حِكايةِ مجيءِ السَّحرةِ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا له عندَ مجيئِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٧-٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٧)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٤٩).

فِرعونَ، وحين مُثُولِهم بينَ يَدَيْهِ؟ فقيل: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا...﴾؛ ولذلك لم يقُل: (وجاءَ السَّحرةُ فرعون فَقالوا)؛ لأنَّه على تَقديرِ سائِلٍ سأَلَ: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأُجيب بقولِه: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا...﴾[١].

- وتنكيرُ الأجرِ في قولِه: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ للتَّعظيمِ[٢].

- وقوله: ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ فيه تأكيدٌ لضمير (كنَّا) بالضَّمير (نحن)؛ إشعارًا بجدارتِهم بالغَلبِ، وثِقتِهم بأنَّهم أعلمُ النَّاسِ بالسِّحرِ؛ فأكَّدوا ضميرَهم؛ لزيادةِ تقريرِ مدلولِه[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا﴾، وقال في سورة الشُّعَراءِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ٤١]؛ وذلك لأنَّه لَمَّا تقدَّم في سورةِ الشُّعراءِ ما شرْحُه أكثَرُ، وما في سورةِ الأعرافِ أَوْجَزُ وأَخْصَرُ، كان قولُه في الأعرافِ: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بمعنى ما كان بإزائِهِ في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ [الشعراء: ٤١]، فَلَمْ يَحْتَجْ في جوابِ (لَمَّا) إلى (فاء) ولا إلى (واو)، وكذلك هُنا في سورةِ الأعرافِ، لَمَّا قَصَدَ هذا المعنى دَلَّ بحَذْفِ العاطِفِ على هذا القَصْدِ، فكأنَّه قال: فلمَّا جاء السَّحَرةُ فرعونَ قالوا: أَئِنَّ لنا لأجرًا[٤].

٢- قولُه: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ فيه مناسبة حسنة، حيث حَكَى اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ قولَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥٩-٦٦٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٧).

فِرعونَ بقولِه: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، وفي سورةِ الشُّعَراءِ بقولِه: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]، بزيادةِ ﴿إِذًا﴾ في الشُّعَراءِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ (إذًا) تقَعُ جوابًا وجزاءً، والمعنى في السُّورتَيْنِ مقصودٌ به الجزاءُ، فوَقَعَ الاكتفاءُ في الأعرافِ بقولِهِ تعالى: ﴿نَعَمْ﴾، والمعنى: نَعَمْ، لكم ما أردْتُم مِنَ الأجْرِ، وزيادةُ التَّقريبِ والحُظْوَةِ، ولا شكَّ أنَّ المعنى: إنْ غلَبْتُم فلكُم ذلك، فالمعنى على ذلك، ثمَّ وَرَدَ في سورةِ الشُّعَراءِ مُفْصَحًا بالأداةِ المُحْرِزَةِ له، وهي: (إذًا)؛ لِيُناسِبَ بزيادتِها ما مضَتْ عليه سورةُ الشُّعَراءِ مِنَ الاستيفاءِ والإطنابِ، وناسَبَ سُقوطُها في الأعرافِ مقصودَ الإيجازِ في هذه القِصَّةِ(١).

٣- **قوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾** استئنافٌ بيانيٌّ؛ كأنه قيل: فماذا فَعَلوا بعد ذلك؟ فقيل: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى...﴾(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سُورةِ الأعرافِ: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾، وقال في سورةِ طه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥]، والمعنى واحدٌ؛ لأنَّ كُلَّ واحدةٍ مِنَ الآيتَيْنِ جَرَتْ على وَفْقِ فواصِلِ تِلك السُّورةِ، ورُؤوسِ آياتِها، فالعكسُ لا يُناسِبُ؛ فاختُصَّتْ كُلُّ سورةٍ بما وَرَدَ فيها(٣).

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٧-١٢٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٧-٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٦٣-٦٦٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٨).

الآيات (١١٧-١٢٦)

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ
الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ
السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا
مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ
رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿تَلْقَفُ﴾: أي: تَأْكُل وتَلْتَهِمُ، وتَلْقَمُ وتَبْتَلِعُ؛ يُقالُ: لَقِفَ الشيءَ وأَلْقَفَه، وتَلَقَّفَه: تَناوَلَه بالحِذْقِ، سواءٌ في ذلك تَناوُلُه بالفَمِ أو اليَدِ[1].

﴿يَأْفِكُونَ﴾: أي: يَكذِبونَ ويُزوِّرونَ، والإفْكُ: الكَذِبُ، وأصلُ (أفك): يَدُلُّ على قَلْبِ الشَّيْءِ، وصَرْفِهِ عن جِهَتِه[2].

﴿وَانْقَلَبُوا﴾: أي: رجَعوا، وانصرَفوا، يُقالُ لِمَنْ كان على شيءٍ ثمَّ رجَع عنه: قدِ انْقَلَبَ على عَقِبِه، وأَصْلُ (قلب): صَرْفُ الشَّيءِ عن وجْهٍ إلى وجْهٍ، أو ردُّه من جِهَةٍ إلى جِهةٍ؛ كقَلْبِ الثَّوْبِ[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

﴿صَاغِرِينَ﴾: أي: أذلَّاءَ مُهانينَ، أو مُبْعَدينَ؛ فالصَّغارُ: الذِّلَّةُ والـمَهانَة، وأصلُ (صغر): يَدُلُّ على قِلَّةٍ وحَقارةٍ[1].

﴿لَمَكْرٌ﴾: أي: لَصَنيعٌ فيما بَيْنَكم وبَيْن موسى، وأَصْلُ (مكر): الاحْتيالُ والخِداعُ[2].

﴿مِنْ خِلَافٍ﴾: الخِلافُ: المُخالَفَةُ، والمرادُ بالقَطعِ مِن خِلافٍ: أنْ يُخالِفَ بينَ العُضوينِ في القَطعِ، وذلِك بقَطْعِ اليَدِ اليُمنى والرِّجلِ اليُسرى، أو قَطْعِ اليدِ اليُسرَى والرِّجلِ اليُمنى[3].

﴿تَنْقِمُ﴾: أي: تَكْرَهُ مِنَّا، وتُنْكِرُ وتَعيبُ؛ يقال: نَقَمَ الشَّيءَ، إذا أنكره؛ إمَّا باللِّسانِ، وإمَّا بالعقوبةِ، وأَصْلُ (نقم): يدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِه[4].

﴿أَفْرِغْ﴾: أي: أَنزِلْ واصبُبْ علينا؛ كما يُفرَغُ الدَّلْوُ، أي: يُصَبُّ ما فيه، وأصل (فرغ): يَدُلُّ على خُلُوٍّ، وَسَعَةِ ذَرْعٍ[5].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أَوْحى إلى موسى بأنْ يُلْقِيَ عصاهُ بعدَما أَلْقى السَّحرةُ حِبالَهم وعِصِيَّهم، فإذا هي ثُعبانٌ حقيقيٌّ يأكُلُ ما كان أَلْقاهُ السَّحَرةُ ممَّا أَوْهَموا النَّاسَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤، ١١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٦١).

كَذِبًا أنَّها حيَّاتٌ، فظَهَرَ حينَها الحقُّ، وبَطَلَ ما كانوا يَعمَلونَ، فغُلِبَ عِندَ ذلك الجَمْع السَّحَرةُ وفرعونُ وقومُه، وانصرفوا أذِلَّاءَ حقيرينَ، وسجَدَ السَّحرةُ لرَبِّهم بعَدْ أنْ رَأَوْا عظيمَ قُدْرتِه، وقالوا: آمَنَّا برَبِّ العالَمينَ، ربِّ موسى وهارونَ.

قال فرعونُ للسَّحرةِ: آمَنْتُمْ له قَبْلَ أنْ أُعطيَكم الإذْنَ بذلك؟! إنَّ هذا الَّذي فعلتُموهُ حيلَةٌ اتَّفَقْتُم مع موسى عليها؛ لِتُخْرِجوا أهلَ هذه المدينةِ منها، فسوف تعلَمونَ ما سأفعَلُ بكم مِنَ العذابِ، لَأُقَطِّعَنَّ من كُلِّ ساحرٍ منكم يدَه ورِجْلَه من جِهَتَيْنِ مختلِفتَيْنِ، ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكم كُلَّكم. قال السَّحرةُ الَّذينَ آمَنوا: إنَّا إلى رَبِّنا لَراجِعونَ، وما تُنْكِرُ منَّا يا فرعونُ إلَّا أنَّنا آمَنَّا بآياتِ ربِّنا لَمَّا أَتَتْنا، ثمَّ دعا السَّحرةُ ربَّهم فقالوا: ربَّنا أنزِلْ علينا صَبْرًا، وأَمِتْنا مُسلِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝١١٧﴾.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾.

أي: وأوحينا إلى موسى بعْدَ أنْ ألْقى السَّحرةُ حبالَهم وعِصِيَّهم: أنْ ألْقِ عصاكَ[1].

كما قال تعالى لموسى: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه: ٦٩].

﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿تَلۡقَفُ﴾ قراءتانِ:

١- قراءة ﴿تَلْقَفُ﴾، من لَقِفْتُ الشَّيءَ ألْقَفُهُ لَقْفًا، قيل: هو أَخْذُ الشَّيءِ بحِذْقٍ في الهواءِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٩).

(٢) قرأ بها حفص. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧١). =

٢- قراءة ﴿تَلَقَّفُ﴾، قيل: معناه: تَلتَهِمُ العِصِيَّ والحِبالَ الَّتي تُخُيِّلَتْ بِسِحرِ السَّحَرَةِ أنَّها حيَّاتٌ، وقيل: أَصْلُ الكلمةِ: تَتَلَقَّفُ، أي: تُبالِغُ وتتكلَّفُ اللَّقْفَ[1].

﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

أي: فألْقى موسى عصاهُ، فانقلبَتْ في الحقيقةِ ثُعبانًا عظيمًا، يأكُلُ ويبتَلِعُ بسرعةٍ هائلةٍ جميعَ ما ألْقاهُ السَّحرةُ مِنَ الحِبالِ والعِصِيِّ، الَّتي أَوْهَموا النَّاسَ كَذِبًا وافتراءً أنَّها حَيَّاتٌ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨)﴾.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾.

أي: فلمَّا جَرَى ذلك ظهَرَ الحقُّ، وتبيَّنَ لجَميعِ الحاضرينَ أنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رسولٌ من عِندِ اللهِ ربِّ العالَمينَ[3].

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: واضْمَحَلَّ وزالَ ما كان يَقُومُ به السَّحرةُ مِنَ الخِداعِ والكَذِبِ والتَّخْييلِ[4].

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٢، ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٠، ٥١)، ((العذب =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١- ٨٢].

﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) ﴾.

﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ ﴾.

أي: فغُلِبَ فرعونُ وقومُهُ والسَّحرةُ عِند ذلك الجَمْعِ(١).

﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾.

أي: وانصَرَفَ فرعونُ وقومُه والسَّحَرةُ(٢) أذِلاَّءَ حقيرينَ، بعْدَ أنْ غَلَبَهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٣).

﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) ﴾.

= النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٦).

وقال ابن عطيَّةَ: (و﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لفظٌ يَعُمُّ سِحرَ السَّحرةِ وسعْيَ فرعونَ وشِيعتِهِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٦- ٨٧).

قال ابن عاشور: (وقد عُطِفَ عليه جُملةُ ﴿فَغُلِبُوا﴾ بالفاءِ؛ لِحُصولِ المغلوبيَّةِ إِثْرَ تَلَقُّفِ العَصا لإفْكِهم، و﴿هُنَالِكَ﴾ اسْمُ إشارةِ المكانِ، أي: غُلِبوا في ذلك المكانِ؛ فأفادَ بَداهَةَ مغلوبيَّتِهم وظُهورَها لِكُلِّ حاضِرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٧).

قال ابنُ عطيةَ: (وفي قولِه: ﴿وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ﴾ إن قدَّرنا انقلابَ الجمعِ قبلَ إيمانِ السَّحرة فهم في الضميرِ، وإن قدَّرناه بعد إيمانِهم فليسوا في الضميرِ، ولا لحِقهم صغارٌ يصفُهم الله به؛ لأنَّهم آمَنوا واستُشْهِدوا رضِي الله عنهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الضَّميرُ قَبْلُ في قولِه: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ ضَميرًا مُشتركًا، جُرِّدَ المؤمنونَ وأُفْرِدوا بالذِّكْرِ[(١)].

﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

أي: ولم يتمالَكِ السَّحرةُ أنفُسَهم بعَدْ أنْ رَأَوْا عظيمَ قُدْرَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعرَفوا صِدْقَ موسى عليه السَّلامُ، فسقَطوا على وُجوهِهم ساجِدينَ لربِّهم[(٢)].

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

أي: قال السَّحرةُ: آمَنَّا بخالِقِ ومالِكِ ومُدبِّرِ كُلِّ شيءٍ، فلا نعبُدُ غيرَه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٤).

قال ابن عطيَّةَ: (قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ...﴾ الآياتِ، لمَّا رأى السَّحرةُ من عظيمِ القُدرةِ، وما تيقَّنوا به نُبوَّةَ موسى آمَنوا بقلوبِهم، وانضافَ إلى ذلك الاستِهوالُ والاستِعظامُ والفزعُ من قدرةِ اللهِ تعالى؛ فخرُّوا سجَّدًا للهِ تعالى مُتطارِحينَ وآمَنوا نُطقًا بألسنتِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠).

وقال الشنقيطي: (هُمْ وقتُ إلقائِهم ساجدينَ ليسوا بسَحرةٍ، بل إنَّما هُمْ من عبادِ اللهِ المُكرَمينَ المؤمنينَ الأفاضلِ، ولكنَّه سمَّاهم سَحرةً؛ نظرًا لحالِهم الماضيةِ كما سمَّى البالِغينَ (يتامى)؛ نظرًا لهم في حالِهم الماضيةِ في قوله: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢] كما هو معروفٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٨).

قال الشَّوكانيُّ: (وجملةُ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ مُستأنَفةٌ، جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قيل: ماذا قالوا عِند سجودِهم أو في سجودِهم؟). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٥).

وقال ابن عاشور: (وجملةُ: ﴿قَالُوا﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ من جُملةِ: ﴿أُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾؛ لأنَّ الهَوِيَّ للسُّجودِ اشتَمَلَ على ذلك القولِ، وهُمْ قصَدُوا من قولِهم ذلك الإعلانَ بإيمانِهم باللهِ؛ لئلَّا =

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَروا أنَّهم آمَنوا بربِّ العالَمينَ، خصُّوا مَنْ هَداهُمُ اللهُ على أَيْديهما؛ تصريحًا بالمُرادِ، وتشريفًا لهما، فقالوا[1]:

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

أي: ربُّنا الَّذي آمَنَّا به هو ربُّ الرَّسولَيْنِ الكريمَيْنِ موسى وهارونَ، اللَّذَيْنِ أيَّدَهما بهذه المعجزةِ العظيمةِ، الدَّالَّةِ على صِدْقِهما[2].

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾.

أي: قال فرعونُ للسَّحرةِ لَمَّا أَعْلَنوا إيمانَهم باللهِ عزَّ وجلَّ: أآمَنْتُمْ بموسى قَبْلَ أنْ أمنَحَكم الإذْنَ بذلك؟! فهذا سوءُ أدَبٍ منكم، وتجرُّؤٌ عليَّ[3]!

= يظنَّ النَّاسُ أنَّهم سجَدوا لفرعونَ؛ إذْ كانت عادةُ القِبْطِ السُّجودَ لفرعونَ؛ ولذلك وصَفوا اللهَ بأنَّه ربُّ العالَمينَ بالعُنْوانِ الَّذي دعا به موسى- عليه السَّلامُ-، ولعلَّهم لم يكونوا يَعرِفونَ اسْمًا عَلَمًا للهِ تعالى؛ إذ لم يكنْ للهِ اسْمٌ عِندهم، وقد عُلِمَ بذلك أنَّهم كفَروا بإلهيَّةِ فرعونَ، وزادوا هذا القَصْدَ بيانًا بالإبدالِ من ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قولَهم: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾؛ لئلَّا يُتَوَهَّمَ المبالَغةُ في وصْفِ فرعونَ بأنَّه ربُّ جميعِ العالَمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٩).

قال الأزهري: (مَنْ قَرَأَ ﴿آمَنْتُمْ﴾ بوزن (عَامَنْتُم) فلفظُه لفظُ الخبرِ، ومعناه للاستفهامِ، إلَّا أنَّه حَذَفَ إحدى الهمزتَيْنِ). ((معاني القراءات)) (١/ ٤١٩). =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾.

أي: قال فرعونُ للسَّحرةِ: إنَّ ما فعلتموه[1] خُدْعَةٌ وحيلَةٌ اتَّفَقْتُمْ أنتُمْ وموسى عليها؛ لتكونَ لكم الرِّياسةُ في مدينتِنا هذه، وتُخرِجوا منها أهلَها القِبْطَ، وتُسكِنوا فيها بني إسرائيلَ[2].

= وقال مَكي: (وقرأ حفصٌ... بهمزةٍ واحدةٍ، بعدَها ألِفٌ، على لفظِ الخبرِ الَّذي معناه الاستفهامُ). ((الكشف)) (١/ ٤٧٣).

وقال ابن عاشور: (وقوله: ﴿آمَنتُمْ﴾ قرأه الجمهورُ بصيغةِ الاستفهامِ - بهمزتين-... وقرأه حفصٌ عن عاصمٍ بهمزةٍ واحدةٍ، فيجوزُ أنْ يكونَ إخبارًا، ويجوز أنْ تكونَ همزةُ الاستفهامِ محذوفةً وما ذلك ببِدْعٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٣).

(١) قيل: الإشارةُ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ﴾ راجعةٌ إلى إيمانِهم باللهِ تعالى، وسجودِهم له، وتصديقِهم لموسى عليه السَّلامُ. وممَّن اختار هذا القول: ابنُ جرير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٢)، ((العذب النمير)) (٤/ ٨٩).

وقيل: الإشارةُ راجعةٌ إلى تغلُّبِ موسى على السَّحرةِ، أي: إنَّ ذلك كان عن تَشاوُرٍ وتراضٍ بين الطَّرفينِ. وممَّن اختار هذا القول: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٩).

قال ابن عاشور: (وقولُ فرعونَ هذا يحتملُ أنَّه قاله موافِقًا لظنِّهِ على سبيلِ التُّهمةِ لهم؛ لأنَّه لم يكن له عِلْمٌ بدقائقِ عِلْمِ السِّحرِ حتَّى يُفرِّقَ بينه وبين المعجزةِ الخارقةِ للعادةِ، فظنَّ أنَّها مَكيدةٌ دبَّرها موسى مع السَّحرةِ، وأنَّه لكونِهِ أعلمَهم أو معلِّمَهم أمَرَهم فأتمروا بأمْرِه، كما في الآيةِ الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩]. ويحتملُ أنَّه قاله تمويهًا وبُهتانًا؛ ليصرِفَ النَّاسَ عن اتِّباعِ السَّحرةِ، وعن التَّأثُّرِ بغَلَبةِ موسى إيَّاهم، فيُدخِلُ عليهم شكًّا في دلالةِ الغلبةِ واعترافِ السَّحرةِ بها، وأنَّ ذلك مواطَأَةٌ بين الغالبِ والمغلوبِ؛ لغايةٍ مقصودةٍ، وهو موافِقٌ في قوله هذا لِمَا كان أشارَ به). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٤).

وقال الشنقيطي: (وهذا فعلَه فرعونُ مكرًا منه وخِداعًا، وخوفًا منه أنْ تتَّبعَ النَّاسُ السَّحرةَ؛ فيؤمِنوا بموسى). ((العذب النمير)) (٤/ ٨٩).

ثم قال فرعونُ مُهدِّدًا السَّحرةَ الَّذينَ آمَنوا:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسوف تَعلَمون ما أفعَلُ بكم مِنَ العذابِ[١].

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)﴾.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾.

أي: قال فرعونُ مُبيِّنًا ما سيُعذِّبُ به السَّحرةَ الَّذينَ آمَنوا: أُقْسِمُ لَأُقطِّعَنَّ من كلِّ ساحرٍ منكم يدَهُ ورِجْلَه من جِهتَيْنِ مُختلِفتَيْنِ؛ فيقطَعُ اليَدَ اليُمنى والرِجْلَ اليُسرى أو بالعكْسِ[٢].

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: ثمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ كُلَّكُم- أيُّها السَّحرةُ- على جُذوعِ النَّخْلِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٠).

قال الشنقيطي: (يقطَعُ اليدَ اليُمنى من شِقٍّ؛ فيضعُفُ ذلك الشِّقُّ باليدِ، ويقطَعُ الرِّجْلَ اليُسرى من الشِّقِّ الآخَرِ؛ فيكون كلٌّ من الشِّقَّين قد ضعُفَ). ((العذب النمير)) (٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٥).

قال ابن عاشور: (وَالتَّصْلِيبُ: مبالغةٌ في الصَّلْبِ. والصَّلْبُ: ربطُ الجسمِ على عُودٍ مُنتَصِبٍ أو دَقُّه عليه بمساميرَ... والمبالغَةُ راجِعَةٌ إلى الكيفِيَّةِ أيضًا بشِدَّةِ الدَّقِّ على الأعوادِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٥).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥﴾.

أي: قال السَّحرةُ الَّذينَ آمَنوا بعْدَ أنْ توعَّدَهم فرعونُ بالعذابِ والقتلِ: إنَّا إلى ربِّنا الرَّحيمِ الكريمِ راجِعونَ، فنجِدُ لَدَيْهِ مِنَ النَّعيمِ ما يُنْسينا كُلَّ بلاءٍ ومحنةٍ في الدُّنيا، فلا نُبالي بعِقابِكَ- يا فرعونُ-، ولَنَصْبِرَنَّ على عذابِكَ في الدُّنيا؛ لِنَنْجُوَ من عذابِ اللهِ في الآخرةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠- ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٢- ٧٣].

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَا﴾.

أي: وما الَّذي تُنكِرُه وتكرَهُه منَّا، وتَعيبُه علينا- يا فرعونُ-؛ حتَّى تجعَلَهُ سببًا لعذابِنا وتقتيلِنا إلَّا أنَّنا صدَّقْنا وأَقْرَرْنا بحُجَجِ ربِّنا وأدلَّتِهِ حين جاءتْنا دالَّةً على رسولِه[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٣).

ثم دعا السَّحرةُ ربَّهم، فقالوا:

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾.

أي: ربَّنا أنزِلْ علينا صَبْرًا عظيمًا عِند تعذيبِ فرعونَ لنا؛ حتَّى نَثبُتَ على دِينِكَ(١).

﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾.

أي: أَمِتْنَا- يا ربَّنا- ونحن ثابتونَ على الإسلامِ؛ حتَّى نلقاكَ وأنتَ عنَّا راضٍ(٢).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- النَّفسُ البشريَّةُ حين تُسْتَعْلَنُ فيها حقيقةُ الإيمانِ تستَعْلي على قوَّةِ الأرضِ، وتَستهينُ ببأسِ الطُّغاةِ، وتنتصِرُ فيها العقيدةُ على الحياةِ، وتَحتقِرُ الفَناءَ الزَّائلَ إلى جِوارِ الخُلودِ المُقيمِ، يبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، فلمَّا تمكَّنَ الإيمانُ من قلوبِهم علِموا أنَّ عقوبةَ الدُّنيا أسهلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٤، ٩٧).

قال ابن كثير: (قال ابنُ عبَّاسٍ، وعُبَيْدُ بن عُمَيْرٍ، وقَتادةُ، وابن جُرَيْجٍ: كانوا في أوَّلِ النَّهارِ سحرةً، وفي آخِرِه شهداءُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠).

وقال ابن عاشور: (والقرآنُ لم يتعرَّضْ هنا، ولا في سورةِ الشُّعراءِ، ولا في سورة طه، للإخبارِ عن وُقوعِ ما توعَّدهم به فرعونُ؛ لأنَّ غَرَضَ القصصِ القرآنيَّةِ هو الاعتبارُ بمحلِّ العِبرةِ، وهو تأييدُ اللهِ موسى، وهدايةُ السَّحرةِ وتصلُّبهم في إيمانِهم بعد تعرُّضهم للوعيدِ بنفوسٍ مطمئنَّةٍ، وليس من غرَضِ القرآنِ معرفةُ الحوادثِ؛ كما قال في سورةِ النَّازعاتِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦]، فاختِلافُ المفسِّرينَ في البحثِ عن تحقيقِ وعيدِ فرعونَ زيادةٌ في تفسيرِ الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٦).

من عقوبةِ الآخرةِ وأقلُّ بقاءً، وأنَّ ما يحصُلُ لهم في الآخرةِ مِنْ ثوابِ الإيمانِ أعظَمُ وأنفَعُ وأكثَرُ بقاءً[1].

٢- قال تعالى على لِسانِ السَّحرةِ الَّذينَ آمَنوا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، دَعَوْا لأنفُسِهم بالوفاةِ على الإسلامِ؛ إيذانًا بأنَّهم غيرُ راغبينَ في الحياةِ، ولا مُبالينَ بوعيدِ فرعونَ، وأنَّ هِمَّتَهم لا تَرْجو إلَّا النَّجاةَ في الآخرةِ، والفَوزَ بما عِندَ اللهِ[2].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿تَلَقَّفُ﴾ بحذْفِ إحدى التَّاءَيْنِ مِنَ الأصلِ، أي: تَلْتَقِمُ التقامًا حقيقيًّا شديدًا سريعًا جدًّا بما دَلَّ عليه حذْفُ التَّاءِ[3]، على إحدى القراءتين.

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ دَلَّ على كثرةِ ما صَنَعوا بقولِهِ: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، أي: يُجدِّدونَ- حين إلقائِهم- في تَزْويرِه وقَلْبِه عن وَجْهِه[4].

٣- قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ هذه الحادثةُ الخارقةُ للعادةِ فيها إثباتُ الصانعِ، وإثباتُ نبوةِ أنبيائِه، فإنَّ حدوثَ هذا الحادثِ على هذا الوجهِ في مثلِ ذلك المقامِ يُوجبُ علمًا ضروريًّا أنَّه مِن القادرِ المختارِ لتصديقِ موسَى عليه السَّلامُ، ونصْرِه على السَّحرةِ؛ فقلبُ الأعيانِ إلى ما ليس في طبعِها الانقلابُ إليه، كمصيرِ الخَشبِ حيوانًا حسَّاسًا متحرِّكًا بالإرادةِ، يبلعُ عصيًّا وحبالًا، ولا يتغيَّرُ- ليس هذا مِن جنسِ مقدورِ

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١٣/ ١٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

البشرِ، لا معتادًا ولا نادرًا، ولا يحصلُ بقُوَى نفسٍ أصلًا، ولهذا لمَّا رأى سحرةُ فرعونَ ذلك علموا أنَّه خارجٌ عن طريقةِ السِّحرِ(١).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دلَّ بـ(كان) والمضارعِ على أنَّهم- مع بُطلانِ ما عمِلوا- نَسوا عِلْمَهم، بحيث إنَّه انسدَّ عليهم بابُ العملِ بعْدَ أنْ كان لهم به مَلَكَةٌ كمَلَكَةِ ما هو كالجِبلَّةِ(٢).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، لم يُعبِّرْ عنه بالسِّحرِ؛ إشارةً إلى أنَّه كان سِحرًا عجيبًا تكلَّفوا له، وأَتَوْا بمُنتهى ما يَعرِفونَه(٣).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾، لم يَقُلْ: (فغَلَبَهم موسى)؛ لأنَّ ذلك لم يكنْ بكَسْبِه وصُنْعِه عليه السَّلامُ(٤).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾، لم يتأخَّروا عَنِ السُّجودِ حتَّى كأنَّهم خرُّوا من غيرِ اختيارٍ(٥)، فعَبَّر بقولِه: ﴿وَأُلْقِيَ﴾ كأنَّ إنسانًا أَمْسَكَهم وألْقاهم ساجِدينَ بالقُوَّةِ؛ لِقوَّةِ البُرهانِ الَّذي رَأَوْا به الحَقَّ(٦).

٨- أنَّه قد يكونُ الشَّيءُ الخَسيسُ الحقيرُ وفيه بعضُ النَّفْعُ؛ لأنَّ عِلْمَ السِّحرِ من أَخسِّ العُلومِ وأَقْبَحِها، وقد صرَّحَ اللهُ جلَّ وعلا في المُحْكَمِ المُنَزَّلِ في سورةِ البقرةِ أنَّ تعلُّمَه يَضُرُّ ولا ينفَعُ، فهو ضَرَرٌ مَحْضٌ لا نَفْعَ فيه، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ولكنَّ اللهَ قد نَفَعَ هؤلاءِ القومَ بهذا العِلْمِ الخسيسِ الخبيثِ، فتبيَّنَ أنَّ قولَهُ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٦١).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩).
(٦) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٤).

يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢] من جميعِ الحَيْثِيَّاتِ غيرِ هذه الحَيْثِيَّةِ وهو انتفاعُهم به أنَّهم كانوا عالِمينَ بالسِّحرِ، عارِفينَ بحُدودِه الَّتي يَنتهي إليها، فلمَّا جاءتِ العصا والْتَقَمَتْ جميعَ الحِبالِ والعِصِيِّ، ولم يَجِدوا حبلًا ولا عصا، عرَفوا أنَّ هذا مِنَ اللهِ؛ لأنَّهم يَعرِفونَ السِّحرَ، ويَعرِفونَ مدى تأثيرِه، فمعرفتُهم بالسِّحرِ كانت نَفْعًا لهم؛ بأنْ عرَفوا أنَّ العصا ليسَتْ من جِنْسِ السِّحرِ، فلو كانوا جاهِلينَ بالسِّحرِ لظنُّوا أنَّ عصا موسى من جنْسِ السِّحرِ والشَّعوذةِ، وهُمْ لَمَّا عرَفوا السِّحرَ تمامًا عرَفوا أنَّ البُرهانَ خارجٌ عن طَوْرِ السِّحرِ، وأنَّه لا يدخُلُ فيه، وأنَّه أمْرٌ إلهيٌّ(١).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾، وقولُهُ: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يدُلُّ على أنَّ فِعْلَ العبْدِ لا يحصُلُ إلَّا بتخليقِ اللهِ وقضائِه(٢).

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ ظُهورَ الآيةِ موجِبٌ للإيمانِ عِند مَنْ ظهرتْ له، ولو أنَّ الرَّسولَ غيرُ مُرْسَلٍ إليه(٣).

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، لماذا خصَّهما اللهُ بالذِّكرِ، وهما يدخُلانِ في جُملةِ العالَمينَ؟ للعلماءِ في ذلك وُجوهٌ:

الوجْهُ الأوَّلُ: خصَّهما بالذِّكْرِ بعْدَ دُخولِهما في جُملةِ العالَمينَ؛ لأنَّ فيه معنى الَّذي دعا إلى الإيمانِ به موسى وهارونُ(٤).

الوجْهُ الثَّاني: خصَّهما بالذِّكرِ تفضيلًا وتشريفًا؛ كقولِه: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٣٧، ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠).
(٤) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٦).

وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[١] [البقرة: ٩٨].

الوجْهُ الثَّالثُ: أنَّ السَّحَرةَ لم يَكتفوا بقولِ: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، حتَّى قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾؛ لئلَّا يتوَّهمَ مُتوهِّمٌ من قومِ فرعونَ المقِرِّينَ بإلَهِيَّتِه أنَّ السُّجودَ له[٢].

الوجْهُ الرَّابِعُ: تخصيصُهما بإضافةِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى لهما؛ لأنَّ ربوبيَّةَ موسى وهارونَ لها اختِصاصٌ زائدٌ على الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ للخَلْقِ؛ فإنَّ مَنْ أَعْطاه اللهُ مِنَ الكمالِ أكثَرَ ممَّا أَعْطى غيرَهُ فقدْ ربَّه وربَّاه رُبوبيَّةً وتربيةً أكمَلَ من غيرِهِ[٣].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾، لَمَّا خافَ فرعونُ أنْ يكونَ إيمانُ السَّحرةِ حُجَّةَ قومِهِ أَلْقى في الحالِ نوعَيْنِ مِنَ الشُّبَهِ؛ أحدُهما: أنَّ هذا تواطُؤٌ منهم لا أنَّ ما جاء به حقٌّ. والثَّاني: أنَّ ذلك طَلَبٌ منهم للمُلْكِ[٤].

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾، قولُ فرعونَ: ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾؛ لِيُخَوِّفَهم من خطَرِ المُخالَفةِ له بما رجَّاهم فيه من إِذْنِه[٥].

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ...﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، طوَّلَ الكلامَ؛ تَبْيِينًا لِمَا أرادوا، وتَنْسِيَةً لخاطِرِ الإيمانِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٥- قولُ اللهِ تعالى على لسانِ فرعونَ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، لَمَّا ظهرتِ الحُجَّةُ عادَ إلى عادةِ مُلوكِ السُّوءِ- إذا غُلِبوا- وهي تَعذيبُ مَنْ ناوَأَهم، وإنْ كان مُحِقًّا[١].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فيه أنَّ الدِّينَ عِند اللهِ الإسلامُ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ[٢].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ استَدَلَّ به مَنْ قال: إنَّ الإيمانَ والإسلامَ واحدٌ؛ فإنَّهم قالوا أوَّلًا: ﴿آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾، ثمَّ قالوا ثانيًا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ[٣]﴾.

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فيه التعبيرُ عن الماضِي بصِيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على التَّجديدِ والتَّكريرِ، مع استحضارِ صُورةِ اللَّقفِ الهائلةِ[٤].

٢- قوله: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَتَى بقولِه: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، بعْدَ قولِه: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾، مع تضمُّنِه معناه؛ لِتقريرِ مَضمونِ جُملةِ: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ لتَسجيلِ ذَمِّ عَمَلِهم، والنِّداءِ بِخَيْبَتِهم؛ تأنيسًا للمُسلِمينَ، وتهديدًا للمشركينَ، وللكافرينَ أمثالِها[٥].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ *

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٢/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥١).

رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، وقال في سورةِ الشُّعراءِ مِثْلَه: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧- ٤٨]، وقال في سورةِ طه: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]، كرَّرَ ذِكْرَ ﴿رَبِّ﴾ في السُّورتَيْنِ، ولم يُكرِّرْه في سورةِ طه؛ لأنَّه إذا قيل: ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقدْ دخَلَ فيهم موسى وهارونُ، وهما دَعَوَا إلى ربِّ العالَمينَ لَمَّا قالَا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، إلَّا أنَّه كرَّر في السُّورتَيْنِ: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾؛ ليدُلَّ بتَخصيصِهما بعْدَ العُمومِ على تَصديقِهم بما جاءَا به عليهما السَّلامُ عن اللهِ تبارَكَ وتعالى، فكأنَّهم قالوا: آمَنَّا برَبِّ العالَمينَ، وهو الَّذي يَدْعو إليه موسى وهارونُ.

وأمَّا في سورةِ طه فَلَمْ يذكُرْ: ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لأنَّه هنا تتمة للآيةِ رعايةً للفواصلِ، كما في السُّورتَيْنِ، فيكونُ مَقْطَعُ الآيةِ فاصلةً مُخالِفةً للفواصلِ الَّتي بُنِيَتْ عليها سورةُ طه، فقال تعالى: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]، وربُّهما هو ربُّ العالَمينَ، وكان القَصْدُ حِكايةَ المعنى، لا أداءَ اللَّفْظِ[١].

٤- قولُه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ بهمزةٍ واحدةٍ إمَّا على الإخبارِ المحضِ المتضمِّنِ للتوبيخِ، أو على الاستفهامِ التوبيخيِّ بحذفِ الهمزةِ، ومعناه الإنكارُ والاستبعادُ[٢].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾، وقال في سورتَيْ طه والشُّعراءِ: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩]، فأَظهرَ اسْمَ فرعونَ- لَعَنه اللهُ- في سورةِ الأعرافِ في هذا اللَّفظِ، وأَضمَرَه في مِثلِه من سورتَيْ طه والشُّعراءِ؛

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٦٦-٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦١).

وذلك لأنَّ إظهارَ اسْمِ فرعونَ في سورةِ الأعرافِ؛ لأنَّه جاء في الآيةِ العاشرةِ من الآيِ الَّتي أَضْمَرَ فيها ذِكرَه، وهي قولُه: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، وجاء في الآيةِ العاشرةِ من هذه السُّورةِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ﴾، ولم يَبْعُدْ هذا الذِّكْرُ في الآيتَيْنِ اللَّتَيْنِ في سورةِ طه والشُّعراءِ؛ لأنَّ فرعونَ مذكورٌ في سورةِ طه في جُملةِ قومِهِ الَّذينَ أَخْبَرَ عنهم بقولِه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٥٧] وبعْدَه: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: ٦٠- ٦١]، وهذا خِطابُه لِفرعونَ وقومِه، وضَميرُهم مُنْطَوٍ على ضميرِه إلى قولِه: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤].

والذِّكرُ في قولِه: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ﴾ [طه: ٧١] إنَّما هو السَّابعُ من الآيِ الَّتي جَرى ذِكْرُه فيها، وكذلك في سورةِ الشُّعراءِ لم يَبْعُدِ الذِّكْرُ بعْدَه كما في سورةِ الأعرافِ، ألا ترى أنَّ آخِرَ ما ذَكَرَ فيما اتَّصلَ بهذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]، وذَكَرَهُ بعْدَ ذلك في الآيةِ الثَّامنةِ من الآيِ الَّتي جَرى ذِكْرُه فيها، فلمَّا بَعُدَ الذِّكرُ في سورةِ الأعرافِ خِلافَ بُعْدِهِ في السُّورتَيْنِ؛ إذْ كان في إحْداهما في السَّابعةِ، وفي الأُخْرى في الثَّامنةِ، وفي الأعرافِ في العاشرةِ أُعيدَ ذِكْرُه الظَّاهرُ لذلك[1].

- ومن المُناسَبةِ الحَسنةِ أيضًا أنَّه قال تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾، وقال في الموضعَيْنِ الآخَرَيْنِ: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩]؛ ووجهُ ذلك: أنَّ الباءَ في سورة الأعراف في قولِه: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ واللَّامَ في ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ في طه والشعراء مُحتاجٌ إلى كلٍّ واحدةٍ منهما من حيث

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٦٨-٦٧٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٩-٢٢٠).

إنَّ التَّصديقَ والانقيادَ معنيانِ يُحتاجُ إليهما؛ فالباءُ تُحْرِزُ التَّصديقَ، واللَّامُ تُحْرِزُ الانقيادَ والإذعانَ، فبُدِئَ بالباءِ المُعْطيةِ معنى التَّصديقِ، وهي أخصُّ بالمقصودِ من اللَّامِ، فاقتضى التَّرتيبُ تقديمَها، ثمَّ أُعْقِبَ في السُّورتَيْنِ بَعْدُ باللَّامِ، حتَّى كأنْ قد قيل لهم: أصدَّقتُموه مُنقادينَ له في دعائِه إيَّاكم إلى الإيمانِ بما جاء من عِندِ اللهِ؟! فحصَلَ المقصودُ على أكملِ ما يُمكِنُ(١).

وقيل: إنَّ وجْهَ ذلك أنَّ الهاءَ في قولِه: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ غيرُ الهاءِ في قوله: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩]، وكلُّ واحدةٍ تَعودُ إلى غيرِ ما تَعودُ إليه الأُخْرى؛ فالَّتي في ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ تعودُ إلى ربِّ العالَمينَ؛ لأنَّه تعالى حَكى عنهم أنَّهم: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهو الَّذي دعا إليه موسى عليه السَّلامُ، وأمَّا الهاءُ في قولِه: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ في طه والشعراء تعودُ إلى موسى عليه السَّلامُ. وقيل: يجوز أنْ يكونَ الهاءُ في ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ ضمير موسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه يُقالُ: آمَنَ بالرَّسولِ، أي: أظهرْتُم تصديقَه، وأقدمْتُم على خِلافي قبْلَ أنْ آذَنَ لكم فيه، وهذا مكرٌ مَكَرْتُموه، وسِرٌّ أَسْرَرْتُموه؛ لِتقلبوا النَّاسَ عليَّ؛ فاقتَضَى هذا الموضعُ الَّذي ذُكِرَ فيه المكرُ إنكارَ الإيمانِ به، فأمَّا الإيمانُ له في الموضعَيْنِ الآخَرَيْنِ؛ فاللَّامُ تُفيدُ معنى الإيمانِ من أَجْلِه، ومن أَجْلِ ما أَتى به من الآياتِ، فكأنَّه قال: آمَنْتُم بربِّ العالَمينَ لِأَجْلِ ما ظهَرَ لكم على يَدَيْ موسى عليه السَّلامُ من آياتِه، والموضعُ الَّذي ذُكِرَ فيه (له)، أي: مِنْ أَجْلِه، وعُبِّرَ عنه باللَّامِ، هو الموضعُ الَّذي قَصَدَ فيه إلى الإخبارِ بـ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه:٧١، والشعراء: ٤٩]؛ فلذلك خُصَّ باللَّامِ، والأوَّلُ خُصَّ بالباءِ، وقد تَدُلُّ اللَّامُ على الاتباعِ؛ فيكونُ المعنى: اتَّبعتُموه؛ لأنَّهُ كبيرُكم في عَمَلِ السِّحرِ، وقد يُؤمِنُ بالخبرِ مَنْ لا يعملُ عليه، ولا يتَّبعُ الدَّاعيَ إليه(٢).

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٧١-٦٧٢).

- وقولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ ساقَه بطريقِ الإجمالِ؛ للتهويلِ، ثمَّ عقَّبه بالتَّفصيلِ(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وقال في سورةِ طه: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [طه: ٧١]، وقال في سورةِ الشُّعراءِ: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩]، فقال في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ولم يَقُلْهُ في سورةِ طه، وإنَّما أَدْخَلَ الفاءَ على قولِه: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ [طه: ٧١]، وأمَّا في سورةِ الشُّعراءِ فإنَّه أتى بـ(سَوْفَ تَعْلَمُونَ) مع اللَّامِ فقال: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩]؛ وذلك لأنَّ قولَه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من الوعيدِ المُبْهَمِ، وهذا النَّوْعُ من الوعيدِ أَبْلَغُ مِنَ الإفصاحِ بقَدْرِه، على أنَّه قد قَرَنَ إليه بيانَه، وهو: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآيَةَ، فنَطَقَ القرآنُ بحكايةِ التَّعريضِ بالوعيدِ، والإفصاحِ بالتَّهديدِ معًا. وأمَّا اختصاصُ سورةِ الشُّعراءِ بقولِه: ﴿فَلَسَوْفَ﴾ وزيادةِ اللَّامِ؛ فلتقريبِ ما خوَّفَهم به من اطِّلاعِهم عليه وقُرْبِه منهم، حتَّى كأنَّه في الحالِ موجودٌ؛ إذِ اللَّامُ للحالِ، فالجَمْعُ بينها وبين (سوف) الَّتي للاستقبالِ إنَّما هو لتحقيقِ الفِعْلِ، وإدنائِه مِنَ الوُقوعِ، وقد بيَّنَّا أنَّ سورةَ الشُّعراءِ أَكْثَرُ اقتصاصًا لأحوالِ موسى عليه السَّلامُ في بَعْثِه، وابتداءِ أمْرِه، وانتهاءِ حالِه مع عدُوِّه، فجَمَعَتْ لفظَ الوعيدِ المُبْهَمِ مع اللَّفظِ المُقرِّبِ له، المُحَقِّقِ وُقوعَه، إلى اللَّفظِ المُفصِحِ بمعناه، ثمَّ وقَعَ الاقتصارُ في السُّورةِ الَّتي لم يُقْصَدْ فيها من اقتصاصِ الحالِ ما قُصِدَ في سورةِ الشُّعراءِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٤).

على ذِكْرِ بعضٍ ما هو في مَوْضِعِ التَّفصيلِ والشَّرْحِ، وهو التَّعريضُ بالوَعيدِ مع الإفصاحِ به. وأمَّا في سورةِ طه فإنَّه اقتصر على التَّصريحِ بما أَوْعَدَهم به، وتَرَكَ: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)، وقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [طه: ٧١]، إلَّا أنَّه جاء بَدَلَ هذه الكلمةِ ما يُعادِلُها ويُقارِبُ ما جاء في سورةِ الشُّعراءِ الَّتي هي مِثْلُها في اقتصاصِ أحوالِه من ابتدائِها إلى حين انتهائِها، وهو قولُه بَعْدَهُ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١]، فاللَّامُ والنُّونُ في: (لَتَعْلَمُنَّ) للقَسَمِ، وهما لتحقيقِ الفعْلِ وتوكُّدِه، كما أنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩] لإدناءِ الفعْلِ وتقريبِه، فقدْ تجاوَزَ ما في السُّورتَيْنِ المقصودَ فيهما إلى اقتصاصِ الحالِ من إعلاءِ الحقِّ وإزهاقِ الباطلِ(١).

- وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال في سورتَيْ طه والشُّعراءِ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩]، فاخْتَصَّتْ ما في سورةِ الأعرافِ بـ(ثُمَّ) والأُخْرَيَيْنِ بالواوِ، والمُتوعَّدُ به واحدٌ في الموضعَيْنِ؛ فإنَّ السُّورتَيْنِ اللَّتَيْنِ اختصَّتا بالواوِ هما المَبْنِيَّتانِ على الاقتصاصِ الأكثرِ، والتَّفصيلِ الأوْسَعِ، والواوُ أشبَهُ بهذا المعنى؛ لأنَّه يجوز أنْ يكونَ ما بعْدَها مُلاصِقًا لِمَا قبْلَها، كالتَّعقيبِ الَّذي يُفادُ بالفاءِ، ويجوز أنْ يكونَ مُتراخيًا عنه، كالمُهْلَةِ الَّتي تُفادُ بـ(ثمَّ)، لا، بَلْ يجوز أنْ يكونَ ما بعْدَها مُقدَّمًا على ما قبْلَها، ومُجامِعًا لها؛ إذْ هي موضوعةٌ للجَمْعِ، ولا ترتيبَ فيها، فكانت الواوُ أَشْبَهَ بهذَيْنِ المكانَيْنِ، و(ثم) تختصُّ بأحَدِ المواضعِ الَّتي تَصْلُحُ الواوُ لجميعِها، فلمَّا كانت مُقْتَصَرًا بها على بعضِ ما وُضِعَتْ له الواوُ، استُعْمِلَتْ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٧٤-٦٧٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٠).

حيث اخْتُصِرَتِ الحالُ، فاقتَرَنَ بكُلِّ مكانٍ ما يَليقُ بالمقصودِ فيه(١).

وقيل: لأنَّ (ثمَّ) تدُلُّ على أنَّ الصَّلْبَ يقَعُ بعْدَ التَّقطيعِ، وإذا دلَّ في الأولى عُلِمَ في غيرِها، ولأنَّ موضِعَ الواوِ تصلُحُ له (ثمَّ)(٢).

وقيل: إنَّ (ثمَّ) للتَّبايُنِ والتَّراخي في الزَّمانِ، وتكون للتَّبايُنِ في الصِّفاتِ والأحكامِ، وغيرِ ذلك مما يُحْمَلُ به ما بعْدَها على ما قبْلَها من غيرِ قصْدِ مُهْلَةٍ زمانيَّةٍ، بل لِيُعْلَمَ موقعُ ما يُعْطَفُ بها وحالُه، وأنَّه لو انفَرَدَ لكان كافيًا فيما قُصِدَ به، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، فَلَمْ يُقْصَدْ في هذا ترتيبٌ زمانيٌّ، بل تعظيمُ الحالِ فيما عُطِفَ، وموقعُه ومكانتُه، وتحريكُ النُّفوسِ لاعتبارِه، ولَمَّا تقدَّمَ في الأعرافِ تهويلُ الواقعِ من فِعْلِ السَّحرةِ وموقعُه من نُفوسِ الحاضرينَ؛ آنَسَ سُبحانَه نبيَّه موسى عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨]، ووقَعَ التَّعبيرُ عما ذكَرْنا بقولِه: ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، فناسَبَه- رَعْيًا لفظيًّا وتقابُلًا نَظْميًّا- تهويلُ ما توعَّدهم به فرعونُ، فعُطِفَ بـ(ثُمَّ)؛ لِتَحَرُّزِ ما قَصَدَ فرعونُ من تعظيمِ موقِعِ ما توعَّدهم به ثانيًا في قولِه: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ عليهم، وأيضًا فإنَّ فرعونَ وملأَه حين رَأَوْا ما جاءت به السَّحرةُ، ووَقَعَ منهم موقعًا أَطْمَعَهم، وتعلَّقَ به رجاؤُهم، ثمَّ لَمَّا وقَعَ ما أَبْطَلَه، وأَوْضَحَ كيْدَهم فيه وباطِلَهم الخياليَّ وجَدَ الملأُ لذلك، واستشعرَ فِرعونُ ما حَلَّ به وبملئِه، فهَوَّلَ في توعُّدِهم ومقالِه؛ تجلُّدًا وتصبُّرًا، أو تعزيةً لنفسِه عمَّا نَزَلَ به، فأَرْعَدَ وأَبْرَقَ في تهويلِه ما توعَّد به السَّحرةُ، فقال: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾، فقدْ تناسَبَ المُتقابِلانِ لفظًا ومعنًى، ولَمَّا ضُمَّ الواقعُ في سورةِ الشُّعراءِ لم يُحْتَجْ إلى هذا الرَّعْيِ، فعُطِفَ بالواوِ، ولم يكُنْ على ما تقرَّر لِيُمْكِنَ العكْسُ(٣).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٧٨-٦٧٩).
(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٩).
(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢١).

٦- قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ للجوابِ عن سُؤالٍ ينساقُ إليه الذِّهنُ، كأنَّه قيل: فماذا قال السَّحَرةُ عندما سَمِعوا وعيدَ فِرعونَ؛ هل تأثَّروا به أمْ تَصلَّبوا فيما هم فيه مِن الدِّين؟ فقيل: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾[1].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾، وقال في سورةِ الشُّعراءِ: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، بزيادةِ قولِه: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ على ما ذُكَرَ في سُورةِ الأعرافِ؛ وذلك لأنَّ السَّحرةَ قابَلوا وعيدَ فرعونَ بما يُهَوِّنُه، ويُزيلُ أَلَمَه من انتقالِهم إلى ثوابِ ربِّهم، مع التَّحقُّقِ من مُنْقَلَبِ مُعَذِّبِهم فِرعونَ، فجاء في سورةِ الشُّعراءِ- وهي الَّتي قُصِدَ بها الاقتصاصُ الأكبرُ-: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، أي: لا ضَرَرَ علينا؛ فإنَّ مُنْقَلَبَنا إلى جزاءِ ربِّنا؛ فنَنْعَمُ أبدًا، وتُعَذَّبُ أنتَ أبدًا، فالضَّررُ الَّذي تُحاوِلُ إنزالَه بنا بكَ نازِلٌ، وعليك مُقيمٌ، ونحن نَأْلَمُ ساعةً لا يُعْتَدُّ بها مع دوامِ النَّعيمِ بعْدَها، وفي سورةِ الأعرافِ وقَعَ الاقتصارُ على قولِه: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾، وفيه كِفايةٌ وإبانةٌ عن هذا المعنى، ودَلالةٌ على ما قُصِدَ فيها ممَّا بُيِّنَ وشُرِحَ في سواها[2].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠] مُقابَلٌ به ما تقدَّمَ من قولِه: ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ٤٤]؛ لِمَا اعتقدوه أوَّلًا أنَّ له عِزَّةً، ونَسَبوها إليه، فظنُّوا أنَّه يَقْدِرُ على ما يُريدُه، ويستبِدُّ بفعلِه، ثمَّ لَمَّا وَضَحَ لهم الحقُّ، ورجَعُوا عن اعتقادِهم، وعلِموا أنَّ القُدرةَ والعِزَّةَ لله سُبحانَه، وسلَّموا لخالِقِهم، ولم يُبالوا بِفرعونَ وملئِه، فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، أي: لا ضَرَرَ، ولا خوفَ من فرعونَ؛ إذ العِزَّةُ للهِ وحْدَه، ولَمَّا لم يقَعْ من قولِهم في الأعرافِ أوَّلًا مِثْلُ الواقعِ هنا، لم يَجيئوا في الجوابِ بما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٨٠-٦٨١).

جاؤوا هنا، فافترَقَ الموضعانِ، وجاء كلٌّ على ما يُناسِبُه(١).

٧- **قوله:** ﴿**وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ**﴾ فيه تأكيدُ المدحِ بِما يُشبِهُ الذمَّ، أو المدحُ في مَعرِض الذَّمِّ، حيثُ استثنَى مِن صِفةِ الذَّمِّ المنفيَّةِ عن الشَّيءِ، وهي: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا﴾، صِفةَ مَدْحٍ لذلك الشَّيءِ بتقديرِ دُخولِها في صِفة الذمِّ فقال: ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا...﴾، وهو نوعٌ طريفٌ مِن أنواع البَلاغةِ(٢).

- وقولُهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَكْمَلُ مِن أنْ يقولوا: (أنزِلْ علينا صبرًا)؛ لأنَّ إفراغَ الإناءِ هو صَبُّ ما فيه بالكُلِّيَّةِ، فكأنَّهم طلَبوا مِنَ اللهِ تعالى كُلَّ الصَّبْرِ لا بعضَه(٣)، والمقصودُ مِن ذلك: الكنايةُ عن قُوَّةِ الصَّبرِ؛ لأنَّ إفراغَ الإناءِ يستلزمُ أنَّه لم يَبْقَ فيه شيءٌ ممَّا حواه؛ لأنَّه لَمَّا كان وعيدُ فِرعونَ ممَّا لا تُطيقُه النُّفوسُ، سألوا اللهَ تعالى أنْ يَجعلَ لنُفوسِهم صبرًا قويًّا، يفوقُ المتعارَفَ(٤).

- وتَنكيرُ الصَّبرِ في قولِه: ﴿صَبْرًا﴾ مُفصِحٌ عن التَّفخيمِ، وفيه مِن الجَزالةِ ما لا يَخفَى، حيثُ يدلُّ على الكَمالِ والتَّمامِ، أي: صبرًا كاملًا تامًّا(٥).

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢١-٢٢٢).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٣/ ٤٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٤٤).

الآيات (١٢٧-١٢٩)

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ
بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿قَاهِرُونَ﴾: أي: غالِبونَ، أو عالُونَ، والقَهْرُ: الغَلَبةُ والتَّذليلُ معًا، وأَصْلُ (قهر): يَدُلُّ على غَلَبةٍ وَعُلُوٍّ[(١)].

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾: أي: يَجعلَكم تَخْلُفونَ مَن قَبْلَكم، والخِلافةُ: النِّيابةُ عن الآخَرِ، وخَلَفَ فلانٌ فلانًا: قام بالأمْرِ عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأصْلُه: مجيءُ شيءٍ بعْدَ شيءٍ يقوم مَقامَه[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

وقال الأشرافُ من قومِ فِرعونَ له: أتترُكُ موسى وقومَه المؤمنين من بني إسرائيلَ ليُفسِدوا في الأرضِ، ويترُكَ عِبادتَك، وعِبادةَ آلهتِك؟! قال فِرعونُ مُجيبًا لهم: سنُقتِّلُ أبناءَهم، ونَستحيي نِساءَهم، وإنَّا عالُون فوْقَهم.

قال موسى لقومِه: استعينوا باللهِ واصبِروا؛ إنَّ الأرضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يشاءُ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٩٤).

عِبادِه، والعاقبةُ المحمودةُ تكون لِمَنِ اتَّقى اللهَ تعالى.

قال بنو إسرائيلَ لموسى: آذانا فرعونُ وقومُه مِنْ قَبْلِ أنْ تأتيَنا، ومن بَعْدِ مَجيئِك بالرِّسالةِ أيضًا، قال لهم موسى: عسى ربُّكم أنْ يُهلِكَ عدُوَّكم فرعونَ وقومَه، ويجعلَكم خُلفاءَ في الأرضِ مِنْ بَعْدِ هلاكِهم، فينظُرَ كيف سيكون عَمَلُكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: وقال الأشرافُ من قومِ فرعونَ وكُبراءِ رجالِه له: أتترُكُ موسى وقومَه المؤمنين مِن بني إسرائيلَ مِن غيرِ أنْ تُعاقِبَهم، وتضرِبَ على أيدِيهم، فيُفسِدوا عليك رَعيَّتَك في أرضِ مِصْرَ بعبادةِ اللهِ وحْدَه من دونِكَ، والدَّعوةِ إليه، وإلى التَّمسُّكِ بالفضائلِ ومكارمِ الأخلاقِ[1]؟!

﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾.

أي: أتترُكُ موسى وقومَه يُفسِدون في الأرضِ، والحالُ أنَّه يَترُكُ عِبادتَك- يا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٧- ٩٨).

قال ابن عاشور: (والإفسادُ عِندهم هو إبطالُ أُصولِ ديانتِهم، وما ينشأ عن ذلك من تفريقِ الجماعةِ، وحثِّ بني إسرائيلَ على الحرِّيَّةِ، ومُغادَرةِ أرضِ الاستعبادِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨).

وقال الشِّنقيطي: (معنى إفسادِهم في الأرضِ: أنَّهم يَزعمون أنَّهم يؤمنون بموسى، ويكونون معه، ويَكونون حَرْبًا على القِبْطِ؛ [فيُخرجونهم] من بلادِ مصرَ، هذا معنى إفسادِهم في الأرضِ المزعومِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٩٨).

فرعونُ- وعِبادةَ آلِهتِك[1]، ويَنهى النَّاسَ عنكَ وعن عِبادتِها[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥- ٤٧].

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

أي: قال فرعونُ مُجيبًا لملئِه: سنُقتِّلُ الأبناءَ الذُّكورَ من أولادِ بني إسرائيلَ[3].

---

(١) قال الشنقيطي: (وقراءةُ الجمهورِ: ﴿وَآلِهَتَكَ﴾، ويذرك فلا يَعْبُدك، ويَذر آلهتَك فلا يعبدها، وقراءةُ ابنِ عبَّاسٍ: «وَيَذَرَكَ وإِلَاهَتَكَ»، أي: وعِبادتَك، وهي قراءةٌ شاذَّةٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٩٩).

قال ابن عاشور: (كان القِبطُ مُشركين يَعبدون آلهةً متنوِّعةً من الكواكبِ والعناصرِ، وصوَّروا لها صورًا عديدةً مختلفةً باختلافِ العصورِ والأقطارِ... وكان أعظمُ هذه الأصنامِ هو الَّذي يَنتسِب فرعونُ إلى بُنُوَّتِه وخِدْمتِه، وكان فرعونُ معدودًا ابنَ الآلهةِ، وقد حلَّتْ فيه الإلهيَّةُ على نحوِ عقيدةِ الحُلولِ، ففرعونُ هو المنفِّذُ للدِّينِ، وكان يُعَدُّ إلهَ مصرَ، وكانت طاعتُه طاعةً للآلهةِ كما حَكَى اللهُ تعالى عنه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨- ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٥- ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).

قال ابن تيميَّةَ: (ومن لم يعبُدِ اللهَ أصلًا كفرعونَ ونحوِه ممَّن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فهؤلاء مُعطِّلةٌ، وهم شرُّ الكفَّارِ، ومع هذا يكون لهم ما يعبدونه دونَ اللهَ، كما قال تعالى في قومِ فرعونَ: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾، فقال غيرُ واحدٍ من السَّلفِ: «كان له آلهةٌ يعبُدُها»). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٢٩٢).

وللواو في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ وجهانِ من الإعرابِ:

الأوَّلُ: أنَّها واوُ الحالِ. وهذا اختيار ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٦).

الثَّاني: أنَّها واو العطفِ، فيكون قولُه سبحانه: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ معطوفًا على ﴿لِيُفْسِدُوا﴾، وهذا اختيارُ ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨).

وحَكَى ابنُ كثير الوجهينِ، ولم يُرجِّحْ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩- ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥].

﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾.

أي: ونَستبقي الإناثَ منهم، فلا نقتُلُهُنَّ[1].

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾.

أي: قال فِرعونُ: وإنَّا عالون على بني إسرائيلَ مُذلِّلون لهم؛ فلا خُروجَ لهم عن حُكْمِنا[2].

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾.

أي: قال موسى لقومِه من بني إسرائيلَ: اطْلُبوا العَوْنَ من اللهِ تعالى على فِرعونَ وقومِه، واصْبِروا على ما يَحِلُّ بكم من المَكارِهِ في أنفُسِكم وأبنائِكم

= (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).

قال الرازيُّ: (اتَّفَقَ المفسِّرون على أنَّ هذا التهديدَ وقع في غيرِ الزَّمانِ الأوَّلِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٢). ويعني بالزَّمانِ الأوَّلِ: زمنَ وِلادةِ موسى عليه السَّلامُ. يُنظر: ((الإجماع في التفسير)) لعمَّار الجُماعي (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).

قال السعديُّ: (أي: نَسْتَبْقيهنَّ فلا نقتلهنَّ، فإذا فعَلْنا ذلك أَمِنَّا من كثرتِهم، وكنَّا مُستخدِمينَ لباقيهم، ومُسخِّرينَ لهم على ما نشاءُ من الأعمالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠).

وقال ابن عاشور: (الغَرَضُ من استبقاءِ النِّساءِ أنْ يتَّخِذوهُنَّ سراريَّ وخَدَمًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).

ونسائِكم؛ حتَّى يُنجِّيَكم اللهُ بفضْلِه من ظُلمِهم[١].

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: قال موسى لقومِه: إنَّ الأرضَ كُلَّها للهِ، وليسَتْ لفرعونَ ولا لقومِه، يُقدِّرُ اللهُ تعالى لِمَنْ يشاءُ من العِبادِ مِلْكَ شيءٍ منها، ثمَّ ينزِعُه منه، ويُداوِلُه بين النَّاسِ، وَفْقَ مشيئتِه وحِكْمتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: والحالُ الحَسنةُ المَحمودةُ في الدُّنيا والآخِرةِ تكون في آخِرِ الأمرِ للَّذين يتَّقونَ اللهَ عزَّ وجلَّ؛ بفِعْلِ أوامِره، واجتنابِ نواهيه[٣].

كما قال سُبحانَه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

وقال تعالى للمؤمنينَ: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠- ١٠١).

يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال تعالى عن إنجائِه يُوسُفَ عليه السَّلامُ من كَيْدِ إِخْوَتِه وغيرِهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٨٩-٩٠].

﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾.

أي: قال بنو إسرائيلَ لموسى: آذانا فرعونُ وقومُه بقتْلِ أبنائِنا، واستحياءِ نسائِنا، وإذْلالِنا مِنْ قَبْلِ مجيئِكَ برسالتِكَ - يا موسى - ومِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا كذلك[1].

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾.

أي: قال موسى لقومِه: أَرْجو لكم مِن خالِقِكم ومُدبِّرِ شُؤونِكم أنْ يُهلِكَ عدُوَّكم فرعونَ وقومَه[2].

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: وأنْ يَجعَلَكم خُلفاءَ في أرضِهم مِنْ بَعْدِ إهلاكِهم، فيُمَكِّنَكم فيها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠١- ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) =

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: فيَرى اللهُ عزَّ وجلَّ ما تَعمَلونه حينذاكَ من خيرٍ وشرٍّ، وشُكْرٍ وكُفْرٍ، فيُجازِيَكم عليه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣-١٤].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ إنَّه ليس لأصحابِ الدَّعوةِ إلى ربِّ العالَمينَ إلَّا مَلاذٌ واحدٌ، وهو المَلاذُ الحَصينُ الأمينُ، وإلَّا وَلِيٌّ واحدٌ، وهو الوَلِيُّ القويُّ المَتينُ، وعليهم أنْ يَصبِروا حتَّى يَأْذَنَ الوليُّ بالنُّصرَةِ في الوقتِ الَّذي يُقدِّرُه بحِكْمتِه وعِلْمِه، وألَّا يَعْجَلوا؛ فهم لا يَطَّلِعونَ الغَيْبَ، ولا يَعلمون الخيرَ، وإنَّ الأرضَ للهِ، وما هؤلاءِ الطَّواغيتُ إلَّا نُزَلاءُ فيها، واللهُ يُورِثُها مَنْ يشاء من عِبادِه- وَفْقَ سُنَّتِه وحِكْمتِه-، فلا ينظُرِ الدَّاعونَ إلى ربِّ العالَمينَ إلى شيءٍ من ظواهِرِ الأُمورِ الَّتي تُخيِّلُ للنَّاظرينَ أنَّ الطَّاغوتَ مَكينٌ في الأرضِ، غيرُ مُزَحْزَحٍ عنها؛ فصاحِبُ الأرضِ ومالِكُها هو الَّذي يُقرِّرُ متى يَطْرُدُهم منها، وإنَّ العاقبةَ للمتَّقينَ، طال الزَّمنُ أو قَصُرَ؛ فلا يُخالِجْ قلوبَ الدَّاعينَ إلى

= (ص: ٣٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٢).

قال القرطبيُّ: (وقد استُخلِفوا في مِصرَ في زمانِ داودَ وسليمانَ عليهما السَّلامُ، وفتَحوا بَيْتَ المَقْدِسِ مع يُوشَعَ بنِ نُونٍ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٣- ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).

ربِّ العالَمينَ قَلَقٌ على المَصيرِ، ولا يُخايِلُ لهم تقلُّبُ الَّذينَ كَفَروا في البلادِ، فيَحسَبوهم باقين(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ مَنِ اتَّقى اللهَ تعالى وخافَه فاللهُ يُعينُه في الدُّنيا والآخرةِ(٢).

٣- عُلِمَ من قولِه: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أنَّ مَنْ يشاء اللهُ أنْ يُورِثَهم الأرضَ هُمُ المتَّقونَ إذا كان في النَّاسِ مُتَّقونَ وغيرُهم، وأنَّ تمليكَ الأرضِ لغيرِهم إمَّا عارِضٌ، وإمَّا لاستواءِ أهلِ الأرضِ في عدمِ التَّقْوى(٣).

٤- قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، المتَّقونَ بمنزِلةِ مَنْ أكَلَ الطَّعامَ النَّافعَ، واتَّقى الأطعمةَ المُؤذيةَ؛ فَصَحَّ جِسمُه، وكانت عاقبتُه سَليمةً، وغيرُ المتَّقي بمنزِلةِ مَنْ خَلَطَ مِنَ الأطعمةِ؛ فإنَّه وإنِ اغْتَذَى بها لكنَّ تلك التَّخاليطَ قد تُورِثُه أمراضًا إمَّا مؤذيةً؛ وإمَّا مُهْلِكَةً(٤).

٥- قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، هذه الآيةُ الكريمةُ فيها وعيدٌ شديدٌ، وتخويفٌ عظيمٌ، لِمَنِ اسْتَخْلَفَه اللهُ في الأرضِ- بَعْدَ عدُوِّه الَّذي كان يُقاوِمُه- وبَسَطَ يَدَهُ بالأرضِ، فإذا كان عِندَه عَقْلٌ فإنَّه يخافُ من نَظَرِ اللهِ إليه كيف يَفْعَلُ؛ فيُطيعُ اللهَ في كُلِّ ما يفعَلُ، كما لا يَخفى، فهذه من أعظمِ المواعظِ وأكبرِها الَّتي يَعِظُ اللهُ بها الَّذينَ يُسْتَخْلَفونَ في الأرضِ بعْدَ الَّذينَ كانوا فيها(٥).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦١).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٣٦-١٣٧).
(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٢).

٦- قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ المُسْتَخْلَفينَ في الأرضِ لم يُسْتَخْلَفوا فيها لأَجْلِ الإنعامِ بها عليهم، بل كُلُّ ذلك للابتلاءِ والامتحانِ، فيَنظُرُ اللهُ تعالى هل يُطيعونَه فيما اسْتَخْلَفَهم فيه أو يَعْصونَه(١).

الفَوائِدُ العِلْمِيَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، في وَعْدِ موسى تبشيرٌ لقومِه بالنَّصرِ وحُسْنِ الخاتمةِ؛ فنتيجةُ طَلَبِ الإعانةِ توريثُ الأرضِ لهم، ونتيجةُ الصَّبرِ العاقبةُ المحمودةُ، والنَّصرُ على مَنْ عاداهم؛ فلذلك كان الأمرُ بشيئَيْنِ يَنتِجُ عنهما شيئانِ(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ جِيءَ فيه بلفظَيْنِ عامَّينِ، وهما: ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ و(المتَّقينَ)؛ لِتكونَ الجُملتانِ تَذْييلًا للكلامِ، ولِيَحْرِصَ السَّامعونَ على أنْ يكونوا مِنَ المتَّقينَ(٣).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، عبَّرَ بـ(عَسَى) ولم يَقْطَعْ بالوَعْدِ؛ لئلَّا يُكذِّبوه؛ لِضَعْفِ أنفُسِهم بما طالَ عليهم مِنَ الذُّلِّ والاسْتِخذاءِ لفرعونَ وقومِه، واستعظامِهم لِمُلْكِه وقُوَّتِه(٤).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، لا تَنافِيَ بين هذا الرَّجاءِ وبين قولِه: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من حيثُ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٧٢).

إنَّ الرَّجاءَ غيرُ مقطوعٍ بحُصولِ مُتَعَلَّقِه، والإخبارَ بأنَّ العاقبةَ للمُتَّقين واقِعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ العاقبةَ إنْ كانت في الآخرةِ فَظاهِرٌ عَدَمُ التَّنافي، وإنْ كانت في الدُّنيا فليس فيها تصريحٌ بعاقبةِ هؤلاءِ القومِ المخصوصين؛ فسَلَكَ موسى طريقَ الأدَبِ مع اللهِ، وساقَ الكلامَ مَساقَ الرَّجاءِ[١].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وهو سُبحانَه يَعلمُ ماذا سيكون قَبْلَ أنْ يكونَ، ولكنَّها سُنَّةُ اللهِ وعَدْلُه ألَّا يُحاسِبَ البَشَرَ حتَّى يقَعَ منهم في العِيَانِ ما هو مكشوفٌ مِنَ الغَيْبِ؛ لِعِلْمِه القديمِ، فهو سبحانه لا يُجازيهم على ما يَعلَمه منهم من خَطيئاتِهم الَّتي يعلَمُ أنَّهم عامِلوها لا مَحالةَ، إنَّما يُجازيهم على ما وقَعَ منهم[٢].

بلاغة الآيات:

١- قولُه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾

- جُملةُ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ﴾، أو على جُملةِ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾، وإنَّما عُطِفَتْ ولم تُفْصَلْ؛ لِأنَّها خارِجةٌ عَنِ المُحاوَرَةِ الَّتي بَيْنَ فرعونَ ومَنْ آمَنَ مِنْ قومِهِ بموسى وآياتِه؛ لأنَّ أولئك لم يُعَرِّجوا على ذِكْرِ ملأِ فرعونَ، بل هي مُحاوَرَةٌ بَيْنَ ملأِ فرعونَ وبَيْنه في وقتٍ غيرِ وقتِ المُحاوَرَةِ الَّتي جَرَتْ بين فرعونَ والسَّحرةِ[٣].

- والاستفهامُ في قولِهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى﴾ مُستعمَلٌ في الإغراء بإهلاكِ موسى وقومِه، والإنكارِ على الإبطاءِ بإتْلافِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٦٧)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٨).

- وقولهم: ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيُفْسِدُوا﴾ لامُ التعليل، وهو مبالغةٌ في الإنكار؛ إذ جَعَلوا تَرْكَ موسى وقومِه مُعلَّلًا بالفسادِ، وهذه اللام تُسمَّى لامَ العاقبة[1].

٢- قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ تشديدُ التاءِ في ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ للمبالغةِ في القَتْلِ مُبالغةَ كَثرةٍ واستيعابٍ، والاستحياء مبالغةٌ في الإحياءِ؛ فالسِّينُ والتاءُ في ﴿وَنَسْتَحْيِي﴾ للمُبالغةِ أيضًا[2].

٣- قوله: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

- قوله: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ كرَّرَ لفظ الجلالة، وأظهرَه في موضعِ الإضمارِ؛ تذكيرًا بالعَظَمَةِ، وتصريحًا، وتبركًا[3].

- قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ تذييلٌ وتعليلٌ للأمْر بالاستعانةِ بالله، وفيه كنايةٌ عن تَرقُّبِ زَوالِ استِعْبادِ فِرعونَ إيَّاهم، قُصِدَ منها صرفُ اليأسِ عن أنفسِهم النَّاشئِ عن مُشاهدةِ قُوَّةِ فِرعونَ وسُلطانِه[4].

- وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تذييلٌ بمنزلةِ تَعليلٍ ثانٍ للأمرِ بالاستعانةِ والصَّبرِ، وبهذا الاعتبارِ أُوثِرَ العطفُ بالواوِ على فَصْلِ الجُملةِ، مع أنَّ مُقتضَى التذييلِ أنْ تَكونَ الجملةُ مَفصولةً غير مَعطوفةٍ[5]. وفيه وعدٌ لبَني إسرائيلَ بالنُّصرةِ على القِبطِ، وتذكير لِمَا وعَدَهم من إهلاكِ القبطِ، وتوريثِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أرضَهم ودِيارَهم، وتحقيقٌ له[1].

٤- **قوله: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾** فيه تصريحٌ بما رَمَز إليه مِن البِشارةِ قَبلُ، وكشفٌ عنه، وهو إهلاكُ فِرعونَ، واستخلافُهم بعدَه في أرضِ مِصرَ[2]. وعَبَّر بـ(عَسَى) التي تدلُّ على الرجاء والطَّمعِ والإشفاقِ، ومِثلُ هذا الكلام إذا صَدَر من الأنبياءِ يُقوِّي قلوبَ أتْباعِهم، فيَصبرون إلى وُقوعِ مُتعلَّقِ الرَّجاءِ[3].

- قوله: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ جُملةٌ تَجري مجرَى البعثِ والتحريضِ على طاعةِ اللهِ تعالى[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٢- ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٦).

الآيات (١٣٠-١٣٣)

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿أَخَذْنَا﴾: أي: أَصَبْنا، أو اخْتبَرْنَا، أو كِنايةٌ عَنِ القَهْرِ، وأصل (أخذ): يدلُّ على حَوزِ الشَّيءِ وجَمْعِه[١].

﴿بِالسِّنِينَ﴾: جَمْعُ سَنَةٍ، وهي: الجَدْبُ والقَحْطُ؛ وأكثرُ ما تُستعمَلُ السَّنَةُ في الحولِ الذي فيه الجدبُ، يُقالُ: أَسْنَتَ القَومُ: إذا أَجْدَبوا، وأَصْلُ (سنه): يَدُلُّ على زَمانٍ[٢].

﴿يَطَّيَّروا﴾: أي: يَتَشاءَموا به، وأَصْلُ (طير): التَّفاؤُلُ بالطَّيْرِ، ثمَّ اسْتُعمِلَ في كلِّ ما يُتَفاءَلُ به ويُتَشاءَمُ[٣].

﴿طَائِرُهُمْ﴾: أي: شُؤْمُهم، أو حَظُّهم الَّذي قضاه اللهُ تعالى لهم مِنَ الخيرِ والشَّرِّ، فهو لازِمٌ عُنُقَهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨، ٩٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨، ٥٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦).

﴿الطُّوفَانَ﴾: أي: المَطَرَ الكثيرَ، أو الماءَ الكثيرَ، والسَّيلَ العظيمَ، ويُطلَقُ الطُّوفانُ على كُلِّ حادِثةٍ مُحيطَةٍ بالإنسانِ، فصار مُتعارَفًا في الماءِ المتناهي في الكَثْرَةِ، وأصل (طوف): يَدُلُّ على دَورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأن يُحَفَّ به، ثُمَّ يُحمَلَ عليه[1].

﴿وَالْقُمَّلَ﴾: السُّوس يقَعُ في الحِنْطَةِ، أو صغار الجَرادِ الَّذي لا أجنِحَةَ له، وقيل: صِغارُ الذُّبابِ، وأصل (قمل): يَدُلُّ على حَقارَةٍ وقَمَاءةٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه ابْتَلى آلَ فرعونَ بالجَدْبِ والقَحْطِ وقِلَّةِ الثِّمارِ؛ لعلَّهم يَذَّكَّرونَ، وأَخْبَرَ أنَّهم إذا جاءَهم الخِصْبُ والرِّزْقُ قالوا: هذه النِّعَمُ الكثيرةُ لنا، ولم يَشكروا اللهَ عليها، وإذا جاءهم الجَدْبُ والقَحْطُ تشاءموا بموسى ومَنْ معه مِنَ المؤمنينَ، إلَّا أنَّ ما أصابَهم من شَرٍّ هو مُقَدَّرٌ عليهم عقوبةً لهم، وليس من عِند موسى والمؤمنين معه، ولكنَّ أكثرَهم لا يَعلمون.

وقال آلُ فرعونَ لموسى: مهما تأتِنا بمعجزةٍ لِتَصْرِفَنا بها عن دِينِنا، فَلَنْ نؤمِنَ لك.

فأرسَلَ اللهُ عليهم الماءَ الكثيرَ الَّذي أَغْرَقَ بُيوتَهم ومزارعَهم، والجرادَ، والقُمَّلَ، والضَّفادِعَ، والدَّمَ، آياتٍ واضحاتٍ تدُلُّ على صِحَّةِ نُبوَّةِ موسى عليه السَّلامُ، وفَصَلَ كُلَّ عقوبةٍ عَنِ الأُخْرى؛ فكان بعضُها يأتي في إِثْرِ بعضٍ، فاسْتَكبروا، وكانوا قومًا مُجرِمينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨١، ٥٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عن موسى عليه السَّلامُ أنَّه قال لقومِه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾، بدأ هاهنا بذِكْرِ ما أنزله بفرعونَ وبقومِه مِنَ المِحَنِ حالًا بعْدَ حالٍ، إلى أنْ وَصَلَ الأمْرُ إلى الهلاكِ؛ تنبيهًا للمكلَّفينَ على الزَّجْرِ عَنِ الكُفْرِ والتَّمسُّكِ بتكذيبِ الرُّسلِ؛ خوفًا من نُزولِ هذه المِحَنِ بهم، فقال[١]:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾.

أي: ولقد ابتلَيْنا فِرعونَ وقومَه، واختبرْناهم بالجَدْبِ والقَحْطِ، وعدمِ نُزولِ المطرِ[٢].

﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾.

أي: وابتليناهم بقِلَّةِ ثِمارِهم، فلا تُثْمِرُ أشجارُهم إلَّا قليلًا[٣].

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّما ابتلَيْناهم واختبرْناهم بالجَدْبِ وقِلَّةِ الثِّمارِ؛ لِيَتَّعِظوا فينزجِروا عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٣، ١٠٤).

قال ابنُ عاشور: (ليس قولُه تعالى: ﴿بِالسِّنِينَ﴾ دليلًا على أنَّها طالت أعوامًا؛ لأنَّ السِّنينَ هنا جَمْعُ سَنَةٍ بمعنى الجَدْبِ لا بمعنى الزَّمنِ المُقدَّرِ من الدَّهرِ؛ فالسَّنَةُ في كلامِ العربِ إذا عُرِّفَتْ باللَّامِ يُرادُ بها سَنَةُ الجَدْبِ والقَحْطِ... فـ(السِّنين) في الآيةِ مُرادٌ بها القُحوطُ، وجَمْعُها باعتبارِ كثرةِ مَواقِعِها، أي: أصابَهم القَحْطُ في جميعِ الأَرَضِينَ والبُلْدانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٤).

كُفرِهم، ويَرجِعوا إلى ربِّهم(١).

كما قال تعالى عنهم: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾.

أي: فإذا جاءَتْ آلَ فرعونَ الحالُ الحَسَنةُ؛ مِنَ العافيةِ والرَّخاءِ، وكَثْرةِ الأمطارِ، وكثرةِ الثِّمارِ، قالوا: هذه النِّعَمُ الكثيرةُ لنا؛ لأنَّنا نَستحِقُّها، وجَديرون بها، ولم يَشْكروا اللهَ عليها(٢).

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾.

أي: وإنْ تُصِبْهُمْ حالٌ سيِّئةٌ في بعضِ الأوقاتِ؛ مِنَ الجَدْبِ والقَحْطِ، وقِلَّةِ الأرزاقِ، ومجيءِ الأمراضِ؛ يَتشاءَموا بموسى ومَنْ معه مِنَ المؤمنين، ويقولوا: هذا البَلاءُ جاءَنا بسَبَبِ موسى والَّذينَ آمَنوا بدينِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٥).

قال ابن عاشور: (لأنَّ المصائبَ والأضرارَ المُقارِنَةَ لتذكيرِ موسى إيَّاهم بربِّهم، وتسريحِ عَبيدِه، مِن شأنِها أنْ يكونَ أصحابُها مَرْجُوًّا منهم أنْ يَتذكَّروا بأنَّ ذلك عِقابٌ على إعراضِهم وعلى عدمِ تذكُّرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٦).

قال الشنقيطيُّ: (المرادُ بالحسنةِ هنا- بإجماعِ المفسِّرين- هو ذاك الخِصْبُ، وكثرةُ المطرِ، وكثرةُ الأرزاقِ، والعافيةُ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢٣٢)، =

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: إنَّ ما يُصيبُ فِرعونَ وقومَه من شرٍّ إنَّما هو مُقَدَّرٌ عليهم من عِند اللهِ تعالى؛ عُقوبةً لهم بسَبَبِ كُفْرِهم، وليس هو مِن عِنْدِ موسى والمؤمِنينَ معه(١).

= ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٦).

قال الرازيُّ: (والتَّطَيُّرُ التَّشاؤُمُ في قولِ جميعِ المفسِّرين). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٤).

(١) واختار أنَّ المرادَ بالطائرِ هنا شُؤْمُهم وما يَحُلُّ بهم من مصائبَ: الواحديُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاسٍ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٧).

وقيل: المرادُ بالطَّائرِ ما قُدِّرَ عليهم من خيرٍ وشرٍّ. وهذا اختيارُ ابن جرير، والبَغَوي، والرازي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٤٣)

قال ابنُ تيميَّةَ: (فسَّروا «الطَّائرَ» بالأعمالِ وجزائِها؛ لأنَّهم كانوا يقولون: إنَّما أصابَنا ما أصابَنا من المصائبِ بذُنوبِ الرُّسلِ وأتباعِهم؛ فبيَّنَ اللهُ سبحانه: أنَّ طائرَهم- وهو الأعمالُ وجزاؤُها- هو عِندَ اللهِ، وهو معهم؛ فهو معهم لأنَّ أعمالَهم وما قُدِّرَ من جزائِها معهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]، وهو من اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قدَّرَ تلك المصائبَ بأعمالِهم؛ فمِن عِندِه تتنزَّلُ عليهم المصائبُ جزاءً على أعمالِهم، لا بسببِ الرُّسلِ وأتباعِهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢٥٣). ويُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢٣٢).

وقال ابن القيِّم: (هاتانِ النِّسبتانِ نظيرُ هاتين النِّسبتين في هذه الآيةِ، وهي نِسبةُ السَّيِّئةِ إلى نفسِ العبدِ، ونسبةُ الحسنةِ والسَّيِّئةِ إلى أنَّهما مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فتأمَّلِ اتِّفاقَ القرآنِ، وتصديقَ بعضِه بعضًا؛ فحيث جعَلَ الطَّائرَ معهم، والسَّيِّئةَ من نفسِ العبدِ، فهو على وجهةِ السَّببِ والموجِبِ، أي: الشَّرُّ والشُّؤْمُ الَّذي أصابَكم هو منكم ومعكم؛ فإنَّ أسبابَه قائمةٌ بكم، كما تقول: شَرُّكَ منك، وشُؤْمُكَ فيك، يُرادُ به العملُ، وطائرُكَ معك، وحيثُ جعَلَ ذلك كلَّه من عنده فهو لأنَّه الخالِقُ له، المجازي به عدلًا وحكمةً، فالطَّائرُ يُرادُ به العملُ وجزاؤه، فالمضافُ إلى العبدِ العملُ، والمضافُ إلى الرَّبِّ الجزاءُ، فطائرُكُم معكم طائرُ العملِ، وطائرُكُم عند اللهِ الجزاءُ، فما جاءت به الرُّسلُ ليس سببًا لشيءٍ من المصائبِ، ولا تكون طاعةُ اللهِ ورسولِه =

كما قال تعالى في شأنِ المكذِّبين بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: ولكنَّ أكثرَ قَومِ فِرعونَ لا يَعلمون أنَّ ما يُصيبُهم من شرٍّ إنَّما هو عقوبةٌ لهم مِن عِندِ اللهِ تعالى بسببِ كُفْرِهم، لا مِن عِندِ موسى وأتباعِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

= سببًا لمصيبةٍ قَطُّ، بل طاعةُ اللهِ ورسولِه لا توجِبُ إلَّا خيرًا في الدُّنيا والآخرةِ، ولكنْ قد يُصيبُ المؤمنين باللهِ ورسولِه مصائبُ؛ بسببِ ذُنوبِهم، وتقصيرِهم في طاعةِ اللهِ ورسولِه). ((شفاء العليل)) (ص: ١٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).

قال ابن عاشور: (الضَّميرُ في قولِه: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ عائدٌ إلى الَّذينَ ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾، وإنَّما نُفِيَ العِلمُ عن أكثرِهم؛ تنبيهًا على أنَّ قليلًا منهم يعلمون خِلافَ ذلك، ولكنَّهم يُشايِعونَ مَقالةَ الأكثرين). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عن آلِ فرعونَ في الآيةِ الأُولى أنَّهم- لِجَهْلِهم- أسندوا حوادِثَ هذا العالَمِ لا إلى قَضاءِ اللهِ تعالى وقَدَرِه؛ حَكَى عنهم في هذه الآيةِ نوعًا آخَرَ من أنواعِ الجَهالةِ والضَّلالةِ، وهو أنَّهم لم يُميِّزوا بين المعجزاتِ وبين السِّحرِ، وجَعَلوا جُملةَ الآياتِ- مِثلَ انقلابِ العصا حيَّةً- من بابِ السِّحرِ منهم، وقالوا لموسى: إنَّا لا نَقْبَلُ شيئًا منها البتَّةَ[1].

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

أي: وقال آلُ فرعونَ لموسى: مهما تَجِئْنا- يا موسى- بمُعجزةٍ؛ لتصرِفَنا بها عن دِينِنا، جَزَمْنا بأنَّها سِحرٌ؛ فلن نُؤمنَ بك، ولا بما جِئْتَنا به[2].

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بارَزوا اللهَ تعالى بتِلك الأفعالِ العَظميةِ المذكورةِ فيما سبَقَ، استحقُّوا النَّكالَ، فَسُبِّبَ عن ذلك قولُه تعالى[3]:

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾.

أي: فبسَبَبِ كُفْرِهم بَعَثْنا عليهم الماءَ الكثيرَ، الَّذي دخَلَ بُيوتَهم، وأغْرَقَ مزارِعَهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٠).

(٤) وهذا المعنى المذكورُ للطُّوفانِ هو اختيارُ السعدي، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطي، ونَسَبَه للجمهورِ. =

كما قال اللهُ تعالى عن قومِ نوحٍ: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿وَالْجَرَادَ﴾.

أي: وبَعَثْنا عليهم الجرادَ، فأكَلَ زُروعَهم وثِمارَهم[1].

﴿وَالْقُمَّلَ﴾.

أي: وبعَثْنا عليهم القُمَّلَ[2]، وهو شيءٌ مِن خلقِ اللهِ سلَّطه الله عليهم فعذَّبهم

= يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١٢-١١٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، وأبو مالكٍ، والضحَّاك، وقتادةُ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، والسُّديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٤٤).

وقال ابنُ جريرٍ دونَ جزمٍ بتحديدِه: (والصَّوابُ من القولِ... أنَّه أمْرٌ من اللهِ طاف بهم، وأنَّه مصدرٌ من قولِ القائلِ: طاف بهم أمْرُ اللهِ يَطوفُ طوفانًا... وإذا كان ذلك كذلك جاز أن يكونَ الَّذي طاف بهم المطرَ الشَّديدَ، وجاز أنْ يكونَ الموتَ الذَّريعَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٩).

واختلَف السَّلفُ في تفسيرِ القمَّل:

فقال بعضُهم: هو الدَّبَى (الجرادُ الذي ليس له أجنحةٌ)، وممن رُوي عنه هذا القولُ منهم: ابنُ عبَّاس، والسُّديُّ، وقتادةُ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ في روايةٍ عنه، وعطاءٌ الخراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٣).

وقال بعضُهم: القمَّل هي البراغيثُ، وممن رُوي عنه هذه القولَ ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٤).

وقال بعضُهم: إنَّها دوابُّ سودٌ صغارٌ، وممن رُوي عنه هذا القولُ مِن السَّلف الحسنُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ في روايةٍ عنه، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٨). =

به، وآذاهم إيذاءً كثيرًا[١].

﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾.

أي: وبَعَثْنا عليهم الضَّفادِعَ، فامتلأَتْ منها بُيوتُهم وآنيتُهم، وآذَتْهم إيذاءً عظيمًا[٢].

﴿وَٱلدَّمَ﴾.

أي: وبَعَثْنا عليهم الدَّمَ، فصار ماؤُهم الَّذي يَشرَبونَه ويَستعمِلونَه دَمًا[٣].

﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾.

أي: بَعَثْنا على قومِ فرعونَ هذه العقوباتِ، الَّتي جعَلْناها علاماتٍ تدُلُّ بوضوحٍ على صِحَّةِ نُبوَّةِ موسى عليه السَّلامُ[٤]، وفصَلْنا كلَّ عُقوبةٍ عن العقوبةِ الأخرى؛ فكان بعضُها يأتي في إِثْرِ بعضٍ[٥].

= قال الشنقيطي: (والحاصلُ أنَّ القمَّل هنا فيه أقوالٌ متقاربةٌ) ثم ذكَر هذه الأقوالَ، وقال: (هذه أقوالٌ فيه لا يكذِّبُ بعضُها بعضًا، وعلى كلِّ حالٍ فهو شيءٌ مِن خلقِ الله، سلَّطه الله عليهم، فعذَّبهم به، وآذاهم إيذاءً كثيرًا، حتى ضجُّوا، وزعموا أنَّهم يتوبونَ). ((العذب النمير)) (٤/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٩- ٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢١).

وهذا قولُ الجمهورِ كما قال ابن الجوزي: (وفي الدَّمِ قولان؛ أحدُهما: أنَّ ماءهم صار دمًا، قاله الجمهورُ. والثَّاني: أنَّه رُعافٌ أصابهم، قاله زيدُ بنُ أَسْلَمَ). ((زاد المسير)) (٢/ ١٤٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).

(٤) وهذا المعنى لـ ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ هو اختيارُ السعديِّ، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٣).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٨).

(٥) وهذا المعنى هو اختيارُ ابنِ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٧)، وحكاه عددٌ مِن المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٤).=

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨].

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾.

أي: فتكبَّرَ آلُ فرعونَ تكبُّرًا شديدًا عن الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ، وطاعةِ رسولِه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع رُؤيتِهم لتِلك الآياتِ العظيمةِ، الدَّالَّةِ على صِدْقِه وصِحَّةِ رسالتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.

أي: وكانوا مِنْ قَبْلِ استكبارِهم قومًا يُصِرُّونَ على معصيةِ اللهِ سُبحانَه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩-٥٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- سنةُ اللهِ في الأُمَمِ أنْ يَبتليَها بالنِّقَمِ؛ ليَزدجِروا، ويتذكَّروا بذلك ما كانوا فيه مِنَ النِّعَمِ؛ فإنَّ الشِّدَّةَ تَجْلِبُ الإنابةَ والخشيةَ، ورِقَّةَ القلبِ، والرُّجوعَ إلى طلَبِ لُطفِ اللهِ وإحسانِه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ

= وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس، وابنُ جريج، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).
قال الشنقيطي: (المجرِمُ هو مرتكِبُ الجريمةِ، والجريمةُ: الذَّنبُ الَّذي يَستحِقُّ صاحبُه التَّنكيلَ والعذابَ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٢٥).

بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، في هذه الآيةِ تنبيهٌ للأُمَّةِ للنَّظَرِ فيما يُحيطُ بها من دلائلِ غَضَبِ اللهِ؛ فإنَّ سَلْبَ النِّعمةِ للمُنْعَمِ عليهم تنبيهٌ لهم على استِحقاقِهم إعراضَ اللهِ تعالى عنهم[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التَّطيُّرُ والتَّشاؤُمُ من صِفاتِ الكفَّارِ، وعلى المُسلِمينَ اجتنابُه، وأنْ يتوكَّلوا على اللهِ، ولا يَنبغي لهم أنْ يَجْزَعوا مِنَ التَّطيُّرِ، ولْيُعلَمْ أنَّ الأُمورَ بيدِ اللهِ، وأنَّ الشُّؤْمَ الحقيقيَّ الَّذي يَستجلِبُ كُلَّ الضَّرَرِ هو مُخالَفةُ ربِّ العالَمينَ جلَّ وعلا، أمَّا كُلُّ فِعْلٍ لم يُخالَفْ به اللهُ فهذا لا ضَرَرَ فيه ولا طِيَرَةَ؛ لأنَّ اللهَ ما أباحَه إلَّا لأنَّه لا ضَررَ فيه، وعلى المُسلِمِ أنْ يَتَحَرَّزَ من هذا كُلِّه، ولا يَتشاءمَ بشيءٍ، وأنْ يبنيَ الأُمورَ على التَّوكُّلِ على اللهِ، ومُراعاةِ أوامِرِه ونواهيه[٣].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ إنَّما سَمَّوها آيةً، ثم قالوا: ﴿لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾؛ لأنهم ما سَمَّوها آيةً لاعتقادِهم أنَّها آيةٌ، وإنَّما سمَّوها اعتبارًا لتَسميةِ مُوسى عليه السَّلامُ، وقَصَدوا بذلك الاستهزاءَ والتلهِّي[٤].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حُكْمٌ بنَفْيِ العِلْمِ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٦)

أكثرِهم؛ لأنَّ القليلَ منهم عَلِمَ؛ كمؤمنِ آلِ فرعونَ، وآسيةَ امرأةِ فرعونَ[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾، ذَكَرَ أوَّلًا: ﴿الطُّوفَانَ﴾، ولَمَّا كان ذلك ربَّما أخْصَبَتْ به الأرضُ أَخْبَرَ أنَّه أَرْسَلَ ما يُفسِدُ ذلك، فقال: ﴿وَالْجَرَادَ﴾، ولَمَّا كان الجرادُ ربَّما طار، وقد أَبْقى شيئًا أَخْبَرَ بما يَستمِرُّ لازقًا في الأرضِ حتَّى لا يَدَعَ بها شيئًا، فقال: ﴿وَالْقُمَّلَ﴾، ولَمَّا ربَّما كان عِندَهم شيءٌ مَخْزونٌ لم يَصِلْ إليه ذلك، أَخْبَرَ بما يُسْقِطُ نَفْسَهُ في الأكْلِ؛ فيُفسِدُه أو يَنْقُصُه، فقال: ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾، ولَمَّا تَمَّ ما يَضُرُّ بالمَأْكَلِ أَتْبَعَه ما أَفْسَدَ المِشْرَبَ، فقال: ﴿وَالدَّمَ﴾[٢].

بلاغة الآيات:

١- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: فيه تنكيرُ ﴿نَقْصٍ﴾؛ للتكثير؛ فنُكِّر ﴿نَقْص﴾ ولم يُضَفْ إلى ﴿الثَّمَرَاتِ﴾؛ لئلَّا تفوتَ الدَّلالةُ على الكثرةِ[٣].

٢- قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ عرَّف الحَسنةَ، وذكَّرها مع أداةِ التَّحقيقِ (إذا)؛ لكَثرةِ وُقوعِها، ونكَّرَ السيِّئةَ، وأتَى بها مع حرْف الشكِّ (إنْ)؛ لأنَّ السَّيِّئةَ لا تَقعُ إلَّا في النُّدرة، ولا يقعُ إلَّا شيءٌ منها، ولعدمِ القَصدِ إليها إلَّا بالتَّبع[٤]؛ فجِيءَ في جانب الحَسَنة بـ(إذا) الشرطيَّةِ؛ لأنَّ الغالبَ في (إذا) الدَّلالةُ على اليقين بوقوع الشَّرْط، أو ما يَقرُب من اليقين؛ ولذلك غلَب أنْ يكونَ فِعلُ الشرطِ مع (إذا) فعلًا ماضيًا؛ لكونِ الماضي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٤ - ١٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٠).

أقربَ إلى اليقينِ في الحُصولِ من المستقبَلِ، وجِيءَ في جانبِ السيِّئةِ بحَرْف (إنْ)؛ لأنَّ الغالب أن تدُلَّ (إنْ) على التردُّد في وقوعِ الشَّرْط، أو على الشكِّ؛ ولكون الشيءِ النادرِ الحصولِ غيرَ مجزومٍ بوقوعه، ومشكوكًا فيه، جِيءَ في شرْطِ إصابةِ السيئةِ بحرْفِ (إن)؛ لنُدرةِ وقوعِ السيِّئاتِ، أي: المكروهاتِ عليهم، بالنسبة إلى الحَسنات، أي: النِّعم، وفي ذلك تعريضٌ بأنَّ نِعمَ اللهِ كانتْ مُتكاثرةً لدَيهم، وأنَّهم كانوا مُعرِضين عن الشُّكرِ، وتعريضٌ بأنَّ إصابتَهم بالسيِّئاتِ نادرةٌ، وهم يَعدُّونَ السيِّئاتِ مِن جرَّاءِ موسى ومَن آمَن معه؛ فهم في كِلتا الحالتين بين كافِرين بالنِّعمة، وظالِمين لموسَى ومَن معه[1].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾: لتَفريعِ هذا الخبرِ على جُملةِ ﴿أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾، والمعنى: فلم يَتذكَّروا، ولكنَّهم زادوا كُفرًا وغُرورًا[2].

- وفي قولِه: ﴿فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ وقولِه: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عبَّر في جانِبِ الحَسنةِ بالمجيءِ؛ لأنّ حُصولَها مرغوبٌ؛ فإنَّها تُترقَّبُ كما يُترقَّبُ الجائي، وعبَّر في جانبِ السيِّئةِ بالإصابةِ؛ لأنَّها تحصُل فجأةً، مِن غير رغبةٍ ولا ترقُّب[3].

٣- قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جملةٌ معترضةٌ؛ ولذلك فُصلت، ولم تُعطَف على التي قَبْلَها بالواوِ[4].

- والقصرُ المستفادُ مِن ﴿إِنَّمَا﴾ إضافيٌّ، أي: سُوءُ حالهم عِقابٌ مِن اللهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٦٤- ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٦٧).

لا مِن عندَ موسى ومَن مَعَه[١].

- وفي قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراكُ المستفادُ مِن (لكن) عَمَّا يُوهِمُه الاهتمامُ بالخبرِ الذي قبْلَه؛ لقرنِه بأداةِ الاستفتاح، واشتمالِه على صِيغةِ القَصرِ، مِن كون شأنِه ألَّا يجهلَه العقلاءُ؛ فاستدرَكَ بأنَّ أكثرَ أولئك لا يَعلمونَ[٢].

٤- قولُه: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ جُمْلَةُ ﴿فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تفيدُ المبالغةَ في القطعِ بانتفاءِ إيمانهم بموسى؛ لأنَّهم جاؤوا في كلامِهم بما حَوتْه الجملةُ الاسميَّةُ التي حَكتْه من الدَّلالةِ على ثُبوتِ هذا الانتفاءِ ودوامِه، وبما تُفيدُه الباءُ مِن توكيدِ النَّفي، وما يُفيدُه تقديمُ مُتعلِّق (مُؤْمِنِينَ) مِن اهتمامِهم بموسى في تعليقِ الإيمانِ به المنفيِّ باسمِه[٣].

٥- قوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ فيه صياغةُ الخبرِ عن إجرامِهم بصِيغةِ الجملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ وصْفِ الإجرامِ فيهم، وتَمكُّنِه منهم، ورُسوخِه فيهم مِن قَبلِ حُدوثِ الاستكبارِ، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ وصفَ الإجرامِ الرَّاسخِ فيهم هو عِلَّةٌ للاستكبارِ الصادرِ مِنهم، فـ(كان) دالَّةٌ على استمرارِ الخبرِ، وهو وصفُ الإجرامِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٦٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٧١).

الآيات (١٣٤-١٣٧)

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿الرِّجْزُ﴾: العذابُ والسَّخَطُ، وأَصْلُ (رجز): الاضْطِرابُ[١].

﴿بَالِغُوهُ﴾: أي: واصِلونَ إليه، والبُلوغُ والبَلاغُ: الانتهاءُ إلى أقْصى المَقْصِدِ والمُنْتَهى، تَقولُ: بَلَغَ المَكانَ، إذا وَصَلَ إليه، وأَصْلُ (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيْءِ[٢].

﴿يَنْكُثُونَ﴾: أي: يَنقُضونَ عَهْدَهم، والنكثُ نقضُ ما أُبْرِم، ويُستعملُ في الأجسامِ وفي المعاني، وأصلُ (نكث) يَدُلُّ عَلَى نَقْضِ شَيْءٍ[٣].

﴿الْيَمِّ﴾: أي: البَحْرِ، أو النِّيلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٥) ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣).

﴿يَعْرِشُونَ﴾: أي: يَبْنونَ، والعُروشُ: البُيوتُ والسُّقوفُ، والعَرْشُ في الأصل: شَيءٌ مُسَقَّفٌ، وأصْلُ (عرش) يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنِيٍّ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لَمَّا وقَعَ على آلِ فرعونَ العذابُ عقوبةً لهم، طَلَبوا من موسى أنْ يَدْعوَ اللهَ بما أوْصاه أن يدعوَ به حتى يَكُفَّ عنهم هذا العذابَ، ووَعَدوه مُقْسِمينَ له: لَئِنْ كَشَفَ عنهم هذا العذابَ لَيُؤمِنُنَّ له، ولَيُرسِلُنَّ معه بني إسرائيلَ، فلمَّا كَشَفَ اللهُ عنهم هذا العذابَ، وأَمْهَلَهم إلى الوقتِ المُقدَّرِ لهلاكِهم، إذا بهم يَنْكُثونَ العَهْدَ الَّذي التَزَموه؛ فانتقم اللهُ منهم، فأَغْرَقهم في البحرِ؛ لكَوْنِهم كذَّبوا بآياتِه، وكانوا عنها غافلين.

وأَوْرَثَ اللهُ بني إسرائيلَ، الَّذين كانوا يُقهَرونَ ويُستعبَدونَ، مشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها الَّتي جَعَلَ اللهُ فيها البرَكةَ، ووَفَّى الله تعالى بما وَعَدَ به بني إسرائيلَ مِن إهلاكِ عدوِّهم، وتمكينِهم في الأرضِ؛ لِكَوْنِهم صَبَروا، ودمَّرَ ما كان يَصْنَعُ فرعونُ وقومُه، وما كانوا يَبنونه ويرفعونه مِنَ المباني والقُصورِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

أي: ولَمَّا نزَلَ بآلِ فرعونَ العذابُ[١] عقوبةٌ بَعْدَ أُخْرى[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣] [الزخرف: ٤٨].

﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾.

أي: فَزِعوا إلى موسى قائلين[٤]: يا موسى، ادعُ لنا ربَّكَ بالَّذي أَوْصاكَ أنْ

---

(١) اختلف المفسِّرون في المرادِ بالرِّجزِ هاهنا، فقيل: المرادُ به ما أُرسِلَ عليهم من الطُّوفانِ والجرادِ والقُمَّلِ والضَّفادعِ والدَّمِ. وهذا القولُ اختاره الواحديُّ وابنُ عاشورٍ والشنقيطيُّ، وذهب أبو حيَّان وابنُ عطيَّة إلى أنَّه ظاهرُ الآيةِ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).

وممَّن رُوي عنه مِن السَّلف أنَّ المرادَ به ما أُرسِلَ عليهم مِن الطُّوفانِ والجرادِ والقُمَّلِ والضَّفادعِ والدَّمِ: ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٩).

وقيل: المرادُ به الطَّاعونُ، وهذا قولٌ ذَكَرَه السعدي وابنُ عاشورٍ احتمالًا. ونَسَبَ السعدي القولَ به إلى كثيرٍ من المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧١).

وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّه الطاعونُ، ابنُ عبَّاس، وسعيدُ بنُ جبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٩).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّه عذابٌ عُذِّبوا به دون تحديدٍ لماهيَّتِه. قال ابن جرير: (جائزٌ أنْ يكونَ ذلك الرِّجزُ كان الطُّوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضَّفادعَ والدَّمَ؛ لأنَّ كلَّ ذلك كان عذابًا عليهم، وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك الرِّجزُ كان طاعونًا. ولم يُخبِرْنا اللهُ أيَّ ذلك كان، ولا صَحَّ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بأيِّ ذلك كان خبرٌ فنُسلِّمَ له. فالصَّوابُ أنْ نقولَ فيه كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾، ولا نتعدَّاه إلَّا بالبيانِ الَّذي لا تَمانُعَ فيه بين أهلِ التَّأويلِ، وهو لِمَا حَلَّ بهم عذابُ اللهِ وسَخَطُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠١).

وممن قال من السَّلف أنَّه العذابُ مجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).

(٣) قال الشنقيطي: (الرِّجزُ المذكورُ في «الأعرافِ» هو بِعَيْنِه العذابُ المذكورُ في آيةِ «الزُّخْرُفِ» هذه). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٢٢).

(٤) رجَّح أبو حيَّانَ أنَّ سؤالَهم موسى عليه السَّلامُ جاء بعْدَ وُقوعِ جميعِها- أي: الطُّوفانِ =

تَدْعوَه به(١)؛ لِيَكُفَّ عنَّا هذا العذابَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨، ٤٩].

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾.

أي: نُقْسِمُ لك- يا موسى- لَئِنْ رَفَعْتَ عنَّا هذا العذابَ بدعائِك ربَّكَ، لنُصَدِّقَنَّكَ، ولنؤمِننَّ بما جِئْتَ به(٣).

= والجرادِ والقُمَّلِ والضَّفادعِ والدَّم- لا بعْدَ وُقوعِ نوعٍ منها. وذهب الشنقيطيُّ إلى أنَّ سؤالَهم موسى قد تكرَّرَ فلجؤوا إليه عَقِبَ وُقوعِ كلِّ نوعٍ من تلك الأنواعِ على حِدَةٍ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).

(١) هذا المعنى للعَهْدِ هو اختيارُ ابنِ جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠١)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٣١٦).
وقريبٌ منه اختيارُ القرطبيِّ وابنِ عاشور.
قال القرطبيُّ: (أي: بما استودَعك من العِلْمِ، أو بما اختصَّكَ به فنبَّأَكَ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١).
وقال ابنُ عاشور: (أي: بما عرَّفك وأودَع عندك من الأسرارِ... أي: ادْعُه بما علَّمك ربُّك من وسائلِ إجابةِ دعائِك عِند ربِّك). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٢-٧٣).
وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧١- ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٢).
قال ابن عاشور: (ليس قولُهم: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ بإيمانٍ باللهِ ورسالةِ موسى، ولكنَّهم كانوا مُشركين، وكانوا يُجوِّزونَ تعدُّدَ الآلهةِ، واختصاصَ بعضِ الأُمَمِ وبعضِ الأقطارِ بآلهةٍ لهم، فهُمْ قد خامَرَهم من كثرةِ ما رَأَوْا من آياتِ موسى أنْ يكونَ لموسى ربٌّ له تصرُّفٌ وقُدرةٌ، وأنَّه أصابَهم بالمصائبِ؛ لأنَّهم أضرُّوا عَبيدَه، فسألوا موسى أنْ يَكُفَّ عنهم ربَّه، ويكونَ جزاؤه الإذْنَ لبني إسرائيلَ بالخُروجِ من مِصْرَ؛ ليعبُدوا ربَّهم... وقد كان عَبَدَةُ الأربابِ الكثيرين يُجَوِّزُ أنْ تَغْلِبَ بعضُ الأربابِ على بعضٍ؛ مِثْلُ ما يحدُثُ بين الملوكِ... وقد انْبَرَمَ حالُ موسى على فرعونَ، فَلَمْ يَدْرِ أهو رسولٌ من إلهٍ غيرِ آلهةِ القِبْطِ؛ فلذلك قال له: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، أي: بما عرَّفك وأودَع عِندك من الأسرارِ، وهذه عِبارةُ مُتَحَيِّرٍ في الأمرِ، مُلْتَبِسَةٍ عليه الأدلَّةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠١- ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير =

﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أي: ولنُخَلِّيَنَّ بني إسرائيلَ كما طلَبْتَ- يا موسى- فنترُكُهم معك، وتذهَبُ بهم حيثُ تَشاءُ[1].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

وقال سُبحانَه حاكيًا أيضًا قولَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

أي: فلَمَّا رَفَعَ اللهُ عن قومِ فِرعونَ العذابَ، وأَمْهَلَهم إلى الوقتِ الَّذي قدَّرَه لهلاكِهم، إذا بهم يَنقُضونَ عُهودَهم؛ فلَمْ يُؤمِنوا، ولم يُرسِلوا بني إسرائيلَ مع

= السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).
قال السعدي: (هُمْ في ذلك كَذَبَةٌ، لا قَصْدَ لهم إلا زوالُ ما حَلَّ بهم من العذابِ، وظَنُّوا إذا رُفِعَ لا يُصيبُهم غيرُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).
وقال ابن عاشور: (وَعْدُهم بالإيمانِ لموسى وَعْدٌ بالإيمانِ بأنَّه صادقٌ في أنَّه مُرسَلٌ من ربِّ بني إسرائيلَ؛ ليُخرِجَهم من أرضِ مصرَ، وليس وعدًا باتِّباعِ الدِّينِ الَّذي جاء به موسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّهم مُكذِّبونَ به في ذلك، وزاعِمون أنَّه ساحرٌ يُريدُ إخراجَ النَّاسِ من أرضِهم؛ ولذلك جاء فِعْلُ الإيمانِ مُتعلِّقًا بموسى لا باسمِ اللهِ، وقد جاء هذا الوعدُ على حسَبِ ظنِّهم أنَّ الرَّبَّ الَّذي يدعو إليه موسى هو ربٌّ خاصٌّ به وبقومِه، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾، وقد وضَّحوا مُرادَهم بقولِهم: ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ١٧٢).

موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩-٥٠].

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَخْبَرَ اللهُ تعالى عن إهلاكِه فرعونَ عَطَفَ عليه ما صَنَع ببني إسرائيلَ؛ تصديقًا لقولِ موسى عليه السَّلامُ: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، فكان كما تَرَجَّى، فأَغْرَقَ أعداءَهم في اليَمِّ، واسْتَخْلَفَ بني إسرائيلَ في الأرضِ(٢).

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾.

أي: فلمَّا نَقَضوا العُهودَ، وأصرُّوا على الكُفْرِ انْتَقَمْنا منهم، بأنْ أغرقْناهم جميعًا في البحرِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).

قال ابن عاشور: (هذا مَحَلُّ العِبرةِ من القِصَّةِ، فهو مُفَرَّعٌ عليها تفريعَ النَّتيجةِ على المقدِّماتِ... وكان إغراقُهم انتقامًا من الله لذاتِه؛ لأنَّهم جَحَدوا انفرادَ اللهِ بالإلهيَّةِ، أو جَحَدوا إلهيَّتَه أصلًا، وانتقامًا أيضًا لبني إسرائيلَ؛ لأنَّ فِرعونَ وقومَه ظلموا بني إسرائيلَ وأذلُّوهم واستعبَدوهم باطلًا. واليَمُّ: البحرُ، والنَّهرُ العظيمُ... والمرادُ به هنا بَحْرُ القُلْزُمِ... وهو البحرُ الأحمرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٤، ٧٥).

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

أي: أغرقْنا فِرعونَ وقومَه؛ بسَبَبِ تكذيبِهم بآياتِنا[1].

﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

أي: وكانوا مُعْرِضينَ عن آياتِنا الدَّالَّةِ على صِدْقِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَلَمْ يَتفكَّروا فيها، ولم يَعْتَبِروا بها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٥).

قال أبو حَيَّانَ: (والآياتُ هي المعجزاتُ الَّتي ظهرَتْ على يَدِ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣-٤٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٥).

واختلف المفسِّرون في عَوْدِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿عَنْهَا﴾، فذَهب كثيرٌ منهم إلى أنَّه عائدٌ على الآياتِ، وهذا اختيارُ الزَّجَّاج، وابن عطيَّة، وابن كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٥).

قال ابنُ جرير: (فلو قال قائلٌ: هي كِنايةٌ من ذِكْرِ الآياتِ، ووجهُ تأويلِ الكلامِ إلى: وكانوا =

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾.

أي: وملَّكْنا بني إسرائيلَ[(١)] الَّذينَ كان فِرعونُ وقومُه يَقهرونهم ويَستعبِدونهم، ويُذبِّحونَ أبناءَهم، ويَستحيون نِساءَهم- ملَّكْناهم جميعَ جِهاتِ شرْقِ أرضِ الشَّامِ، وجِهاتِ غرْبِها[(٢)].

= عنها مُعرِضينَ، فجعل إعراضَهم عنها غُفولًا منهم إذ لم يقبلوها كان مذهبًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣-٤٠٤).

ولكنَّ ابن جرير رجَّح أنَّ الضميرَ يعود على النِّقمةِ الَّتي حلَّتْ بهم؛ فكانوا غافلين عمَّا يُرادُ بهم من الغَرَقِ في البحرِ. واختار هذا القولَ القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) ١٠/ ٤٠٣- ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٢).

(١) قال الشنقيطي: (قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هُمْ بنو إسرائيلَ بإجماعِ العلماءِ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٢٥-١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٩/ ٣١٩- ٣٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٦).

واختار أنَّ المرادَ بالأرضِ هنا أرضُ الشَّامِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ عطية، وابنُ تيمية، وابنُ عاشور، ولم يَحْكِ ابنُ كثير عن السَّلفِ قولًا غيرَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٤٤، ٥٠٥، ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦).

وقال به مِن السَّلف: الحسنُ وقَتادةُ وزيدُ بنُ أسلمَ وسفيانُ الثوريُّ. يُنظر: ((تفسير سفيان الثوري)) (ص: ١١٣)، ((تفسير عبد الرزاق)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٤- ٤٠٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٢٧).

قال ابن عطيَّةَ: (الَّذي يَليقُ بمعنى الآيةِ... لا سيَّما بوصْفِه الأرضَ بأنَّها الَّتي بارَكَ فيها، ولا يتَّصِفُ بهذه الصِّفةِ، وينفرِدُ بها أكثَرَ من غيرِها إلَّا أرضُ الشَّامِ؛ لِمَا بها من الماءِ والشَّجرِ والنِّعَمِ والفوائِدِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٦).

وقيل: المرادُ بالأرضِ: الشَّامُ، ومِصْرُ. وممَّن اختار هذا القولَ: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: =

﴿ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾.

أي: الأرضَ الَّتي جعَلْنا فيها الخيرَ ثابتًا، مُستمِرًّا، وكثيرًا، فأخرَجْنا لهم منها الزُّروعَ والثِّمارَ، والعُيونَ والأنهارَ، ونَحْوَ ذلك من خيراتِ الأرضِ[(١)].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾.

أي: وقد وَفَّى ربُّكَ - يا مُحَمَّدُ - بما وَعَدَ به بني إسرائيلَ[(٢)] من إهلاكِ عدُوِّهم، وتمكينِهم في الأرضِ؛ وذلك بسببِ صَبْرِهم على أَذَى فرعونَ وقومِه[(٣)].

= ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٣- ٢٧٤).
وهذا القولُ مرويٌّ عن ابن عبَّاسٍ بسندٍ واهٍ، من طريقِ السُّدِّيِّ الصَّغيرِ، عن الكَلْبِيِّ، عن أبي صالحٍ، عن ابن عبَّاسٍ، وهذا أَوْهى الطُّرقِ عن ابن عبَّاسٍ، وتُسمَّى سلسلةَ الكَذِبِ، يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٤/ ٢٣٩)، وقد جَزَمَ الثَّعلبيُّ بهذا التَّفسيرِ من غيرِ أنْ ينسُبَه لأحدٍ، ونسَبَه تلميذُه الواحديُّ لابن عبَّاسٍ، وقد ذكَرَ هذا القولَ ابن الجوزيِّ ولم ينسُبْه لأحدٍ، وربَّما فيه إشارةٌ إلى عدمِ شُهرةِ هذا القولِ.
وذكَرَ ابنُ الجوزي والرازي قولًا ثالثًا في الآيةِ، وهو أنَّ المرادَ جُملةُ الأرضِ، ويوجد قولٌ رابعٌ، وهو أنَّ المرادَ مِصْرُ، وهو قولُ اللَّيثِ بنِ سعدٍ، وبه فسَّر السعديُّ الآيةَ.
والقولُ الأوَّلُ- وهو أنَّ المرادَ مشارقُ أرضِ الشَّامِ ومغاربُها- هو القولُ المشهورُ عن السَّلفِ، وعليه أكثرُهم. والله أعلم. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢٠)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٠)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٣١)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨).

(٢) ذهب كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ هذه الكلمةَ الحُسنى هي قولُه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٦)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩). ونسَب الشنقيطيُّ ذلك إلى جماهيرِ العلماءِ. يُنظر: ((العذب النمير)) (٤/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾.

أي: وأَهْلَكْنا، وخرَّبْنا خرابًا شديدًا[١] ما كان يُشيِّدُه فرعونُ وقومُه من العِماراتِ، ويَبْنُونَه من المَزارِعِ[٢].

﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾.

= قال ابن عاشور: (الحُسنى: صفةٌ لـ﴿كَلِمَتُ﴾، وهي صِفةُ تشريفٍ كما يُقالُ: الأسماءُ الحُسنى، أي: كلمةُ ربِّك المنزَّهةُ عن الخُلْفِ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ حُسْنَها لبني إسرائيلَ، وإنْ كانت سيِّئةً على فرعونَ وقومِه؛ لأنَّ العدلَ حَسَنٌ، وإنْ كان فيه إضرارٌ بالمحكومِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨).

(١) قال محمد رشيد رضا: (التَّدميرُ: إدخالُ الهلاكِ على السَّالمِ، والخرابِ على العامرِ). ((تفسير المنار)) (٩/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٩).
وممَّن اختار هذا المعنى لـ﴿يَصْنَعُ﴾: ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزيِّ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦).
وقيل: ما كان يَصنعونه من التَّدبيرِ في أمْرِ موسى عليه السَّلامُ وإخمادِ كلمته؛ كالمكايد السِّحريَّة والصِّناعيَّة الَّتي كان يصنعها السَّحرةُ؛ لإبطال آياتِه أو التَّشكيكِ فيها، كما قال تعالى لموسى عليه السَّلامُ: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ [طه: ٦٩]. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٨٨).

أي: وخرَّبْنا أيضًا ما كان يَبنيه، ويرفُعُه فرعونُ وقومُه، من المبانِي والقُصورِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦- ٣٧].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٩).

وهذا المعنى المذكور لـ﴿يَعْرِشُونَ﴾ هو في الجملةِ اختيارُ ابن جرير، وابن الجوزي، والواحديِّ، وأبي حيان. وحكاه ابنُ كثير عن بعض السَّلفِ ولم يَحْكِ سواه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، وقد جعَلَه ابن عاشور ممَّا تَحتمِلُه الآيةُ، فقال: (ويجوز أن يكونَ ﴿يَعْرِشُونَ﴾ بمعنى يرفعون، أي: يُشيِّدونَ من البِناءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٩).

وقال الشنقيطيُّ: (وقال بعضُهم: عَرَشَه: إذا رفَع بِناءَه، والعَرْشُ أصْلُه السَّقفُ، وعُروش الأبنيةِ: سُقوفُها. يعني: ودمَّرْنا ما كانوا يرفعونه من البناء؛ كصَرْحِ هامانَ المشهورِ، ونَحْوِ ذلك). ((العذب النمير)) (٤/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٣٢).

وقيل: ﴿يَعْرِشُونَ﴾: أي يُنشِئون الجنَّاتِ ذاتَ العرايشِ، فيجعلون للعنب العريشَ؛ ليمتدَّ عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وهذا اختيارُ محمَّد رشيد رضا، وابن عاشور.

قال محمَّد رشيد رضا: (العَرْشُ: رفْعُ المباني والسَّقائفِ للنَّباتِ والشَّجرِ المتسلِّقِ؛ كعرائش العنب، ومنه عَرْشُ الملكِ). ((تفسير المنار)) (٩/ ٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (و﴿يَعْرِشُونَ﴾ يُنشِئونَ من الجنَّاتِ ذاتِ العرايشِ، والعرايش: ما يُرْفَعُ من دوالي الكُرومِ، ويُطلَقُ أيضًا على النَّخلاتِ العديدةِ تُربَّى في أصْلٍ واحِدٍ، ولعلَّ جنَّاتِ القِبْطِ كانت كذلك كما تَشهَدُ به بعضُ الصورِ المرسومةِ على هياكلِهم نَقْشًا ودَهْنًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨).

وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾، العِبرةُ في هذه الآياتِ أنْ يَتفكَّرَ تالي القرآنِ في تأثيرِ الإيمانِ والوحيِ في موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ؛ إذ تَصَدَّيا لأعظمِ مَلِكٍ في الأرضِ، فَدَعَواهُ إلى الرُّجوعِ عن الكُفرِ والظُّلمِ والطُّغيانِ، وتعبيدِ بني إسرائيلَ، وأَنْذَراه وهدَّداه، وما زالا يُكافِحانِه بالحُجَجِ والآياتِ البيِّناتِ حتَّى أَظْفَرَهما اللهُ تعالى به، وأَنْقَذا قومَهما من ظلمِه وظلمِ قومِه، فجديرٌ بالمؤمنين باللهِ تعالى ورُسلِه أنْ يَنتقِلوا من التَّفكُّرِ في هذا إلى التَّفكُّرِ في وَعْدِ اللهِ تعالى للمؤمنين بالنَّصرِ، كما وعَدَ المرسَلين إذا هُمْ قاموا بما أَمَرَهم تعالى به على ألسنتِهم، وألَّا يَستعظِموا في هذه السَّبيلِ قُوَّةَ ظالمٍ، فإنَّ قوَّةَ الحقِّ الَّتي نَصَرَها اللهُ تعالى برجُلٍ أو رجُلين على أعظمِ الدُّوَلِ لا تُغْلَبُ إذا نَصَرْناها ونحن مئاتُ الملايينِ(١).

٢- الصَّابرُ صائرٌ إلى النَّصرِ، وتحقيقِ الأملِ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾، فقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ الباءُ سببيَّةٌ، و(ما) مصدريَّةٌ، أي: بسببِ صَبْرِهم على الأذى في ذاتِ الإلهِ، وفي ذلك تنبيهٌ على فائدةِ الصَّبرِ، وتنويهٌ بفَضيلتِه وحُسنِ عاقبتِه، وأنَّه سببٌ للفرَجِ ؛ فمَنْ قابَلَ البلاءَ بالجَزَعِ وَكَلَه اللهُ إليه، ومَنْ قابَلَه بالصَّبرِ وانتظارِ النَّصرِ ضَمِنَ اللهُ له الفرَجَ(٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، لم يقولوا: (ربَّنا)؛ كِبْرًا وعُتُوًّا(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٧، ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٠٨).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ عبَّر بالفاءِ دلالة على قُرْبِ الإجابةِ[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ إلى قولِه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾، السِّيَاقُ هنا يَختصِرُ حادِثَ الإغراقِ، ولا يُفصِّلُ أحداثَه كما يُفصِّلُها في مواضِعَ أخرى من السُّوَرِ؛ فالجوُّ هنا هو جوُّ الأَخْذِ الحاسِمِ بعْدَ الإمهالِ الطَّويلِ، فلا يَعْرِضُ لشيءٍ من التَّفصيلِ، والحَسْمُ السَّريعُ هنا أَوْقَعُ في النَّفسِ وأَرْهَبُ للحِسِّ، ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ضَرْبَةً واحدةً، فإذا هُمْ هالِكون، ومن التَّعالي والتَّطاوُلِ والاستكبارِ إلى الهَوِيِّ في الأعماقِ والأغوارِ؛ جزاءً وِفاقًا[٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾، المشارِقُ والمغارِبُ جَمْعٌ باعتبارِ تعدُّدِ الجِهاتِ؛ لأنَّ الجهةَ أمْرٌ نسبيٌّ تتعدَّدُ بتعدُّدِ الأمكِنةِ المفروضةِ، والمرادُ بهما إحاطةُ الأمكنةِ[٣].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى...﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، استدلَّ به بعضُ السَّلفِ على أنَّه لا ينبغي أنْ يُخْرَجَ على مُلوكِ السُّوءِ، وإنَّما ينبغي أنْ يُصْبَرَ عليهم، فإنَّ اللهَ تعالى يُدمِّرُهم[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جملةٌ مُستأنفَةٌ استئنافًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٧).

بيانيًّا؛ لأنَّ طلبَهم مِن موسى الدُّعاءَ بكَشفِ الرِّجز عنهم مع سابقيَّةِ كُفرِهم به يُثير سؤالَ موسى أنْ يقولَ: فما الجزاءُ على ذلِك[١]؟

- وقوله: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّه طلَب منهم الإيمانَ، كما أنَّه طلَب منهم إرسالَ بني إسرائيل، وقدَّموا الإيمانَ؛ لأنَّه المقصودُ الأعظمُ الناشِئ منه الطواعيةُ، وفي إسنادِ الكَشْفِ إلى موسى حَيدةٌ عن إسنادِه إلى اللهِ تعالى؛ لعدمِ إقرارِهم بذلك[٢].

- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾، كُرِّرَ (الرِّجْزَ) تصريحًا وتهويلًا[٣].

- وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾، قولُه: ﴿هُمْ بَالِغُوهُ﴾ صِفةٌ لـ﴿أَجَلٍ﴾، والوَصْفُ بهذه الجملةِ أَبْلَغُ من وصفِه بالمفرَدِ؛ لتكرُّرِ الضَّميرِ المؤذِنِ بالتَّفخيمِ[٤].

٢- قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ فيه العدولُ عن تَعريفِهم بطريقِ الإضافةِ إلى تَعريفِهم بطريق الموصوليَّة؛ لنُكتَتين: أُولاهما: الإيماءُ إلى عِلَّة الخبرِ، أي: إنَّ الله مَلَّكهم الأرضَ، وجعَلَهم أُمَّةً حاكمةً؛ جزاءً لهم على ما صَبَروا على الاستعبادِ، غَيرةً مِن اللهِ تعالى على عَبيدِه. الثانية: التعريضُ ببشارةِ المؤمنِينَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم ستكونُ لهم عاقبةُ السلطانِ، كما كانتْ لبني إسرائيلَ؛ جزاءً على صبْرِهم على الأذَى في اللهِ، ونذارة المشركينَ بزوالِ سُلطانِ دِينهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٢٨٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٦).

٣- قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ الخِطابُ في قولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أُدْمِجَ في ذِكْرِ القصَّةِ؛ إشارةً إلى أنَّ الَّذي حقَّقَ نصْرَ موسى وأُمَّتِه على عدُوِّهم هو ربُّك؛ فسينصُرُكَ وأُمَّتَكَ على عدُوِّكم؛ لأنَّه ذلك الربُّ الَّذي نَصَرَ المؤمنين السَّابقين، وتلك سُنَّتُه وصُنْعُه[1].

- وفي قولِه: ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: عُدِّيَ فِعلُ التمام بـ(على)؛ للإشارةِ إلى تَضمينِ (تمَّت) معنى الإنعامِ[2].

٤- قوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ فِعل (كان) في الصِّلتَينِ- ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ﴾ و﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾- دالٌّ على أنَّ ذلك دأبُه وهِجِّيراه، أي: ما عُنِي به مِن الصَّنائِعِ والجنَّات، وصِيغةُ المضارعِ في الخَبرينِ عن (كان)- ﴿يَصْنَعُ﴾ و﴿يَعْرِشُونَ﴾-؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتكرُّرِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٣٨-١٤١)

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ﴾: أي: يُقيمونَ عليها مُعَظِّمين، ويَعبُدُونَها مِن دُونِ اللَّهِ، والعُكوفُ: الإقبالُ على الشَّيءِ، وملازَمتُه على سبيلِ التَّعظيمِ له[(١)].

و﴿أَصْنَامٍ﴾: جَمْعُ صَنَمٍ، والصَّنمُ: جُثَّةٌ مُتَّخَذَةٌ من فِضَّةٍ، أو نُحاسٍ، أو خشبٍ، أو غير ذلك، كانوا يَعبدونها مُتقرِّبينَ بها إلى اللهِ تعالى[(٢)].

﴿مُتَبَّرٌ﴾: أي: مُهْلَكٌ أو هَالِكٌ، والتَّبْرُ: الكَسْرُ والإهلاكُ[(٣)].

﴿أَبْغِيكُمْ﴾: أي: أَلْتَمِسُ لكم وأطْلُبُ، وأصل (بغى): يدلُّ على طَلَبِ الشَّيءِ[(٤)].

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: أي: يُولُونَكُمْ؛ يُقالُ: فلانٌ يَسومُكَ خَسْفًا؛ أي: يُوليكَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:١١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

إذلالًا واستِخفافًا، أو يُريدونه منكم ويَطلُبونه، أو يَبْغُونَكُمْ، يُقالُ: سامَه: كلَّفَه العَمَلَ الشَّاقَّ، وقيل: يُرسِلون عليكم، مِن إرْسالِ الإبِلِ المَرْعى، والسَّوْمُ أصْلُه: الذَّهابُ في ابتِغاءِ الشَّيءِ وطَلَبِه[١].

﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾: أي: ويَسْتَبقُون فلا يَقتُلونَ، والاستِحياءُ: الإبقاءُ حيًّا، و(استفعل) فيه بمَعنَى (أفعل)، وأصلُ (حيي): خِلافُ المَوتِ[٢].

﴿بَلَاءٌ﴾: أي: اختبارٌ، وأَصْلُ البَلاءِ: الاختبارُ، ثمَّ صار يُطلَقُ على المكروهِ والشِّدَّةِ[٣].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾

﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾: الكافُ في ﴿كَمَا﴾ حرفُ جرٍّ وتشبيهٍ، وهو مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَعَ صفةً لـ ﴿إِلَهًا﴾، أي: إلهًا مماثِلًا لإلهِهم، و(مَا) فيها ثلاثةُ أوجُهٍ: الأوَّلُ: أن تكونَ مَوصولةً، و﴿لَهُمْ﴾ شِبْهُ جملةٍ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه (استقرَّ)، وهو صِلَةُ (ما)، و﴿آلِهَةٌ﴾ بَدَلٌ مِن الضَّميرِ في (استقرَّ) المحذوفِ، والتَّقديرُ: كالَّذي استقرَّ هو لهم آلهةٌ. الثَّاني: أنْ تكونَ كافَّةً لعَمَلِ حرفِ الجرِّ (الكاف)، وهي جملةٌ مِن خبرٍ مُقدَّمٍ ﴿لَهُمْ﴾، ومبتدأٍ مُؤَخَّرٍ: ﴿آلِهَةٌ﴾. الثَّالثُ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩-٢٥٠، ٢٥٣).

أن تكونَ (ما) مصدريَّةً- أي: موصولًا حرفيًّا-، وصِلتُها محذوفةٌ، والتَّقديرُ: كما ثبَتَ لهم آلهةٌ، فـ ﴿آلِهَةٌ﴾ على هذا الوجْهِ فاعِلٌ بـ (ثبَتَ) المحذوفِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه جاوز ببني إسرائيلَ البحرَ بعْدَ أنْ أَغْرقَ عدُوَّهم فرعونَ وقومَه، فمرُّوا على قومٍ مشركين، مُلازِمين أصنامًا لهم، يعبدونها مِن دونِ اللهِ، فقالوا لموسى عليه السَّلامُ: اجْعَلْ لنا إلهًا كما لهؤلاءِ آلهةٌ يعبدونها، فقال لهم موسى: إنَّكم قومٌ تَجْهَلونَ، إنَّ هؤلاءِ المشركين محكومٌ على ما هم فيه بالدَّمارِ، وزائلٌ ما كانوا يَعملونه من عبادةِ الأصنامِ؛ فلا يَنتفِعون بها.

وقال لهم موسى مُنْكِرًا عليهم طَلَبَهم ومُتعجِّبًا منه: أَغَيْرَ اللهِ أَطْلُبُ لكم إلهًا، وهو الَّذي فضَّلكم على العالَمين؟!

ثمَّ قال اللهُ تعالى مُذكِّرًا بني إسرائيلَ بنعمتِه العظيمةِ عليهم: واذْكروا حين أنجيناكم من آلِ فرعونَ، الَّذينَ كانوا يُذيقونكم سُوءَ العذابِ، ويُنكِّلونَ بكم؛ يُقتِّلونَ أبناءَكم الذُّكورَ، ويُبْقون إناثَكم أحياءً؛ لِيَقُمْنَ بخِدْمتِهم، ولِيَعْتَدوا على أعراضِهِنَّ، وفي ذلك امتحانٌ واختبارٌ عظيمٌ من اللهِ لكم.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنواعَ نِعَمِه على بني إسرائيلَ بإهلاكِ عدُوِّهم، أَتْبَعَ بالنِّعمةِ

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٨٧-٥٨٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٤٢-٤٤٣).

العُظْمى مِنْ إرَاءَتِهم هذه الآيةَ العظيمةَ، وقَطْعِهم البحرَ مع سلامتِهم[١]، فقال تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَاءِيلَ الْبَحْرَ﴾.

أي: وقَطَعْنا ببني إسرائيلَ البحرَ؛ فتَخَطَّوْهُ بعْدَ أنْ أغرقْنا عدُوَّهم فرعونَ وقومَه، ورَأَوْا من آياتِ اللهِ ما رَأَوْا[٢].

﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾.

أي: فمَرَّ بنو إسرائيلَ على مُشرِكين مُلازِمينَ أصنامًا لهم، يَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ سُبحانَه[٣].

﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

أي: قال بَنو إسرائيلَ لنبيِّهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: يا موسى، اصْنَعْ لنا صَنَمًا نتَّخِذْهُ إلهًا كما لهؤلاءِ القومِ أصنامٌ يَعبُدونها[٤]!

عن أبي واقِدٍ اللَّيْثيِّ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا خرَجَ إلى حُنَيْنٍ مَرَّ بشجرةٍ للمشركين يُقالُ لها: ذاتُ أَنْواطٍ، يُعلِّقونَ عليها أسلحتَهم، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، اجعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواطٍ! فقال

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

قال ابن عاشور: (المجاوَزةُ: البُعْدُ عن المكانِ عَقِبَ المرورِ فيه... معنى قولِه هنا: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ قدَّرنا لهم جوازَه ويسَّرْناه لهم. والبحرُ هو بحرُ القُلْزُمِ- المعروفُ اليومَ بالبحر الأحمر... والمعنى: أنَّهم قَطَعوا البحرَ وخرَجوا على شاطئِه الشَّرقيِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٩- ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٨-٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٢- ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٣).

النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سُبحانَ اللهِ! هذا كما قال قومُ موسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، والَّذي نَفْسي بيدِه لتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كان قَبْلَكم))[١].

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

أي: قال موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِه: إنَّكم قومٌ تَجْهَلونَ عظمةَ اللهِ، ووُجوبَ إفرادِه بالعِبادةِ وحْدَهُ لا شريكَ له[٢].

ثُمَّ أَعْلَمَهم موسى بفَسادِ حالِ أولئك القومِ؛ لِيَزولَ ما استحسَنوه من حالِهم، فقال لهم[٣]:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اسْتُفيدَ من كلامِه السَّابقِ لهم غايةُ الإنكارِ عليهم، ذَكَرَ هنا ما علَّل به هذا الإنكارَ[٤].

وأيضًا بَعْدَ أنْ ذكَّرهم بسُوءِ حالِهم مِن جهلِهم وسَفاهةِ أنفُسِهم، بيَّنَ لهم فسادَ ما طلبوه في نفسِه؛ عسى أنْ تستعِدَّ عقولُهم لِفَهْمِه، واستبانةِ قُبْحِه[٥]، فقال:

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٢١)، وأحمد (٢١٨٩٧)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٧٠٢).
قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ، وقال ابنُ القيِّم في ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ٤١٨): ثابتٌ، وصحَّح إسنادَه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٣/ ٣٣٧)، والألبانيُّ في ((تخريج أحاديث المشكاة)) (٥٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٩٧).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ المشركين سيُدمِّرُ اللهُ تعالى تلك الأصنامَ التي يعبدونها، ويُهلِكُ ما هُمْ فيه من الشِّرْكِ، ويُعذِّبهم[1].

كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: وزائلٌ ما كانوا يَعمَلونه من عِبادةِ الأصنامِ؛ فلَنْ يَنتفِعوا بها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٠) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن أنَّ هذه الأصنامَ الَّتي مَرُّوا عليها لا تَصْلُحُ لِأَنْ تُعْبَدَ، كان ذلك غيرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢- ٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٤).

كافٍ لهم؛ لِمَا تقَرَّرَ من جَهلِهم، فربَّما ظَنُّوا أنَّ غيرَها ممَّا سِوى اللهِ تجوزُ عِبادتُه، فأنْكَرَ أنْ يُتَأَلَّهَ غيرُه تعالى، وحَصَرَ الأمْرَ فيه[1].

﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾.

أي: قال موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُنكِرًا على قومِه ومُتعجِّبًا من طَلَبِهم: أأطلُبُ لكم إلهًا غيرَ اللهَ العظيمِ، المعبودِ بحقٍّ، الكاملِ في ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه[2]؟!

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: أفأطلُبُ لكم معبودًا لا يَنفَعُكم ولا يَضُرُّكم، وتَترُكون عِبادةَ اللهِ تعالى، والحالُ أنَّه هو الَّذي فضَّلكم على عالَمِي زمانِكم، وأُمَمِ عَصْرِكم[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٧١-٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٥).

قال ابن عطيَّة: (والعالَمينَ لفظٌ عامٌّ يُراد به تخصيصُ عالَـمي زمانِهم؛ لأنَّ أمَّةَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أفضلُ منهم بإجماعٍ، ولقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، اللَّهمَّ إلَّا أنْ يُرادَ بالفضلِ كثرةُ الأنبياءِ منهم؛ فإنَّهم فُضِّلوا في ذلك على العالَمينَ بالإطلاقِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (وظاهرُ صَوْغِ الكلامِ على هذا الأُسلوبِ أنَّ تفضيلَهم على العالَمين كان معلومًا عندهم؛ لأنَّ ذلك هو المناسِبُ للإنكارِ، ويحتملُ أنَّه أراد إعلامَهم بذلك، وأنَّه أمرٌ محقَّقٌ... وتفضيلهم عليهم بأنَّهم ذُرِّيَّةُ رسولٍ وأنبياءَ، وبأنَّ منهم رُسلًا وأنبياءَ، وبأنَّ اللهَ هداهم إلى التَّوحيدِ والخَلاصِ من دِينِ فرعونَ بعد أن تخبَّطوا فيه، وبأنَّه جعَلَهم أحرارًا بعد أنْ كانوا عبيدًا، وساقَهم إلى امتلاكِ أرضٍ مُبارَكةٍ، وأيَّدَهم بنصْرِه وآياتِه، وبعَثَ فيهم رسولًا، لِيُقيمَ لهم الشَّريعةَ، وهذه الفضائلُ لم تَجتمِعْ لأُمَّةٍ غيرِهم يومئذٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٤).

وقال الشنقيطي: (ومِن تفضيلِه لكم: أنْ أهلَكَ عدوَّكم، وأنجاكم وأنقذَكم من هذا الطَّاغيةِ العظيمِ، وهم في ذلك الوقت جميعُ النَّاسِ كَفَرَةٌ، وهم عندَهم إيمانٌ؛ فهُمْ أحسنُ الموجودين على ما كان منهم ممَّا لا يَنبغي). ((العذب النمير)) (٤/ ١٣٥).

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى يُبيِّنُ أنَّه هو الَّذي أَنْعَمَ عليهم بهذه النِّعمةِ العَظيمةِ؛ فكيف يَليقُ بهم الاشتغالُ بعبادةِ غيرِه تعالى[1]؟!

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءة ﴿أَنْجَاكُمْ﴾ على أنَّها من إخبارِ موسى عليه السَّلامُ عن اللهِ سُبحانَه وتعالى بـ(نون) التَّعظيمِ[2].

٢- قِراءة ﴿أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ على أنَّها من إخبارِ اللهِ تعالى عن نفْسِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥١).

(٢) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧١).

وهذا المعنى هو اختيارُ ابن خالويه، وظاهرُ اختيار مكيٍّ، واختاره أبو حيان.

قال ابن خالويه: (﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ يُقرأ بإثبات الياء والنون وبحذفهما... والحُجَّة لمَنْ حذفها: أنَّه من إخبار النَّبيِّ عليه السَّلامُ عن الله، والفاعل مُستترٌ في الفعل، و(إذ) في أوَّلِ الكلام متعلِّقةٌ بِفعْلٍ دليلُه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦]). ((الحجة في القراءات السبع)) (ص: ١٦٢- ١٦٣). ويُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٩).

وذَهب الأزهريُّ إلى أنَّها إخبارٌ من الله تعالى عن نفْسِه؛ فمعنى القراءتين لديه واحدٌ، حيثُ قال: (ومعنى ﴿أنجيناكم﴾ و﴿أنجاكم﴾ واحدٌ؛ لأنَّ الإنجاءَ لله جلَّ وعزَّ). ((معاني القراءات)) (١/ ٤٢٢).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٢- ١٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٩٤)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٥).

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾.

أي: قال اللهُ مُذكِّرًا بني إسرائيلَ نِعمتَه العظيمةَ عليهم[١]: واذْكُروا حينَ أَنجيناكُم من فِرعونَ وقومِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾.

أي: كانوا يُذيقونكم- يا بني إسرائيلَ- ويُكلِّفونكم أَقْبَحَ العذابِ وأفظَعَه[٣].

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى العَذابَ الَّذي كانوا يُسامونَ سُوءَهُ، فقال[٤]:

---

(١) قال ابنُ جرير: (واذكروا مع قِيلِكم هذا الَّذي قُلْتُموه لموسى بعدَ رُؤيتِكم من الآياتِ والعِبَرِ، وبعدَ النِّعَمِ التي سَلَفَتْ منِّي إليكم، والأيادي التي تقدَّمَتْ فعلَكم ما فعلْتُم). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٥).
وذَهَب ابنُ جرير وابنُ عاشور إلى أنَّ المخاطَبين بذلك هم اليهودُ الذين كانوا في زمن محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمرادُ أسلافُهم الذين كانوا مع موسى عليه السَّلامُ، أي: واذكروا إذ أنجَيْنا أسلافَكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٨٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٥).
ورجَّح ابنُ عطية أنَّ هذه الآيةَ خاطَبَ بها موسى عليه السَّلامُ مَنْ حضَره من بني إسرائيلَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦).
قال ابنُ عاشور: (﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ حالٌ من آل فرعون يَحصُل بها بيانُ ما وقَعَ الإنجاءُ منه، وهو العذابُ الشَّديدُ الذي كان الإسرائيليُّون يُلاقونه من معاملة القِبط لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦).

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

أي: يُكثِرون مِن قتْلِ أبنائِكم الذُّكورِ[١].

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

أي: ويُبقون إناثَكم أحياءً؛ لِيَقُمْنَ بخِدْمتِهم، ويَعْتَدوا على أعراضِهنَّ[٢].

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أي: وفي سَوْمِ آلِ فرعونَ لكم سُوءَ العذابِ مِحنةٌ واختبارٌ مِنَ اللهِ لكم عظيمٌ[٣].

وقيل: وفي إنجائِنا لكم مِن عذابِ آلِ فرعونَ نِعمةٌ من اللهِ لكم عَظيمةٌ[٤].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- كفَى بأيِّ أُمَّةٍ خِسَّةَ عُقولٍ أنْ تَعُدَّ القبيحَ حَسَنًا، وأنَّ تتَّخِذَ المظاهرَ المُزَيَّنَةَ قُدوةً لها، وأنْ تنخلِعَ عن كمالِها في اتِّباعِ نقائِصِ غيرِها؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[٥].

٢- يجِبُ على الدَّاعيةِ أنْ يصبِرَ على الالتواءاتِ والانحرافاتِ، وثِقْلَةِ الطَّبائعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٢- ٤٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦- ١٣٨).

(٣) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، وابنِ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٣) (٩/ ٨٥).

(٤) وهو اختيارُ السعديِّ، وفسَّر به ابنُ جريرٍ نظيرَ هذه الآيةِ في سورةِ البقرةِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٢-٦٥٣). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٩- ١٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨١).

وتفاهةِ الاهتماماتِ، ويجب أنْ يصبِرَ على الانتكاسِ الَّذي يُفاجِئُه في النُّفوسِ المدعُوَّةِ بعْدَ كلِّ مرحلةٍ، والاندفاعِ إلى الجاهليَّةِ عند أوَّلِ بادِرةٍ، يُرشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[(١)].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١ - قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾، ﴿وَجَاوَزْنَا﴾، أي: قَطَعْنا بما لنا مِن العَظَمةِ، فساقَه على طريقِ المفاعَلةِ؛ تعظيمًا له تعالى[(٢)].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ سَمَّوُا الصَّنَمَ إلهًا؛ لجهلِهم؛ فهُمْ يَحسَبونَ أنَّ اتِّخاذَ الصَّنمِ يُجْدي صاحِبَه، كما لو كان إلهَه معه، وهذا يدُلُّ على أنَّ بني إسرائيلَ قد انخلعوا في مُدَّةِ إقامتِهم بمصرَ عن عَقيدةِ التَّوحيدِ، وحَنيفيَّةِ إبراهيمَ ويعقوبَ الَّتي وصَّى بها في قولِه: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]؛ لأنَّهم لَمَّا كانوا في حالِ ذُلٍّ واستِعبادٍ ذهب عِلْمُهم، وتاريخُ مَجْدِهم، واندمَجوا في دِيانةِ الغالِبين لهم؛ فلم تَبْقَ لهم مِيزَةٌ تُميِّزُهم إلَّا أنَّهم خَدَمَةٌ وعَبيدٌ[(٣)].

٣- الفائدةُ في وصْفِ الأصنامِ بأنَّها ﴿لَهُمْ﴾، وعدمِ الاقتصارِ على قولِه: ﴿أَصْنَامٍ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾، زِيادةُ التَّشنيعِ، والتَّنبيهُ على جَهلِهم وغَوايتِهم في عِبادتِهم ما هو مِلْكٌ لهم عليهم أَشَدُّ[(٤)].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، لم يَصْدُرْ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٦٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٢/ ٢٤٧).

هذا القولُ من جميعِهم؛ فإنَّه كان فيهم السَّبعونَ المُختارونَ ومَنْ لا يَصْدُرُ منه هذا السُّؤالُ الباطلُ، لكنَّه نَسَبَ ذلك إلى بني إسرائيلَ؛ لِمَا وقَعَ من بعضِهم، على عادةِ العربِ في ذلك(١).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، ما أَحْسَنَ ما خاطَبَهم موسى عليه السَّلامُ! بدأهم أوَّلًا بنِسبتِهم إلى الجهلِ، ثمَّ ثانيًا أخبرهم بأنَّ عُبَّادَ الأصنامِ ليسوا على شيءٍ، بل مآلُ أمْرِهم إلى الهلاكِ، وبُطلانِ العملِ، وثالثًا أنكَرَ وتعجَّبَ أنْ يقَعَ هو عليه السَّلامُ في أنْ يَبْغِيَ لهم غيرَ اللهِ إلهًا، أي: أَغَيْرَ المُستحِقِّ للعبادةِ والألوهيَّةِ أَطْلُبُ لكم معبودًا، وهو الَّذي شرَّفكم واخْتَصَّكم بالنِّعَمِ الَّتي لم يُعطِها مَنْ سَلَفَ من الأُمَمِ، لا غَيرُه؛ فكيف أَبْغِي لكم إلهًا غيرَه(٢)؟!

٦- الانحرافُ عن التَّوحيدِ إلى الشِّرْكِ إنَّما ينشأ من الجهلِ والحماقةِ، والعِلْمُ والتَّعقُّلُ يَقودُ كِلاهما إلى اللهِ الواحِدِ، يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾(٣).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، كان جوابُ موسى عليه السَّلامُ بعُنْفٍ وغِلظةٍ بقولِه: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك هو المناسِبُ لحالِهم(٤).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وَصَفَهم فيه بالجهلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨١).

المُطلَقِ، غيرَ مُتعلِّقٍ بشيءٍ؛ لِيَشْمَلَ كلَّ ما يصلُحُ له من الجهلِ الَّذي هو فَقْدُ العِلْمِ، والجهلِ الَّذي هو سَفَهُ النَّفسِ، وطَيْشُ العقلِ، وأهمُّه المناسِبُ للمَقامِ جَهْلُ التَّوحيدِ، وما يجب من إفرادِ الرَّبِّ تعالى بالعبادةِ من غيرِ واسطةٍ(١).

٩- الاشتغالُ بعبادةِ غيرِ اللهِ مُتبَّرٌ وباطلٌ وضائعٌ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أُسلوبُ استئنافٍ مُفيدٌ للتَّعليلِ والدَّليلِ؛ ليُبيِّنَ لهم فسادَ ما طَلبوه في نفْسِه؛ عسى أنْ تستعِدَّ عُقولُهم لِفَهْمِه، واستبانةِ قُبْحِه(٣).

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾، لَمَّا كان الشَّيءُ قد يَهلِكُ في الدُّنيا أو في الآخرةِ عُبِّر بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ إشارةً إلى أنَّه الآنَ كذلك، وإنْ رُئِيَ بخِلافِه(٤).

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أنْكَرَ أنْ يُتَألَّهَ غيرُه، وحَصَرَ الأمْرَ فيه، ثمَّ بيَّنَه بقولِه: ﴿وَهُوَ﴾، أي: والحالُ أنَّه هو وحْدَهُ ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أي: لو لم يكُنْ لوجوبِ اختصاصِهم له بالعِبادةِ سببٌ سوى اختصاصِه لهم بالتَّفضيلِ لكان كافيًا(٥).

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، فَغَيْرُ اللهِ أَعَمُّ الألفاظِ الدَّالَّةِ على المُحْدَثاتِ؛ فهو يشمَلُ أَخَسَّ المخلوقاتِ وأَعْجَزَها عن النَّفعِ والضُّرِّ؛ كالأصنامِ، ويشمَلُ أفضلَها وأكملَها؛

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٠-٣٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٩٧).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٧١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٧٢).

كالملائكةِ والنَّبيِّينَ عليهم السَّلامُ؛ لِيُثْبِتَ أنَّه لا يوجد مخلوقٌ يَستحِقُّ العبادةَ مع اللهِ تعالى(١).

١٤- قولُ اللهِ تعالى عن مُوسَى عليه السَّلام: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي فضَّلَهم بفضائلَ لم تجتمِعْ لأُمَّةٍ غيرِهم يَومئذٍ، ومِن جُملةِ العالَمين هؤلاءِ القومُ الذين أَتَوْا عليهم، ورأوهم يَعكُفون على أصنامٍ لهم، وذلك كِنايةٌ عن إنكارِ طَلَبِهم اتِّخاذَ أصنامٍ مِثْلَهم؛ لأنَّ شأْنَ الفاضلِ ألَّا يُقلِّدَ المفضولَ؛ لأنَّ اقتباسَ أحوالِ الغَيْرِ يتضمَّنُ اعترافًا بأنَّه أَرْجَحُ رأيًا وأَحْسَنُ حالًا في تلك النَّاحيةِ(٢).

١٥- قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، إنَّما جُعِلَتِ النَّجاةُ من آلِ فرعونَ، ولم تُجْعَلْ من فرعونَ، مع أنَّه الآمِرُ بتعذيبِ بني إسرائيلَ؛ تعليقًا للفعلِ بمَنْ هو مِن متعلِّقاتِه على طريقةِ الحقيقةِ العقليَّةِ، وتنبيهًا على أنَّ هؤلاءِ المكلَّفين ببني إسرائيلَ كانوا يَتجاوَزون الحَدَّ المأمورَ به في الإعناتِ على عادةِ المُنفِّذينَ؛ فإنَّهم أقلُّ رحمةً، وأَضْيَقُ نُفوسًا من وُلاةِ الأُمورِ(٣).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

- قوله: ﴿عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾: فيه اختيارٌ لطريقِ التَّنكيرِ في ﴿أَصْنَامٍ﴾، ووصْفُها بأنَّها لهم؛ لِيُتوسَّل به إلى إرادةِ تحقيرِ الأصنامِ وأنَّها مجهولةٌ؛ لأنَّ التنكيرَ يستلزِمُ خفاءَ المعرفةِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٨٠).

- والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أرادوا به حَضَّ موسى على إجابةِ سؤالِهم، وابتِهاجًا بما رَأَوْا من حالِ القومِ الَّذينَ حَلُّوا بَيْنَ ظَهْرَانَيهم(١).

- قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: خبرٌ مُستعمَلٌ في مَعنَيَيه- الصَّريحِ والكِنايةِ- مُكنًّى به عن التعجُّبِ مِن فداحةِ جَهلِهم(٢).

- ووصْفُهم بالجَهلِ المُطلَق، ومَجيئُه بصِيغة المضارِع ﴿تَجْهَلُونَ﴾ يُشيرُ إلى أنَّ الجهلَ كأنَّه معهم في الحالِ والمستقبلِ لا يُفارقهم(٣).

- وإسنادُ الجهلِ إلى القومِ في قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أبلَغُ من إسنادِه إلى ضَميرِ المخاطَبين؛ لأنَّه حُكْمٌ على جماعتِهم بما هو كالمتحقِّقِ المعروفِ من حالِهم، الَّذي هو عِلَّةٌ لمقالِهم، يدخُلُ فيه الَّذينَ سألوه ذلك منهم دُخولًا أوَّليًّا(٤).

٢- قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ جملةٌ تَعليليَّةٌ لمضمونِ جُملة ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ فلذلِكَ فُصِلتْ، ولم تُعطَفْ عليها، وأُكِّدتْ وجُعِلتِ اسميَّةً(٥).

- وقولُه تعالى: ﴿مُتَبَّرٌ﴾ أي: مُكَسَّرٌ مُفَتَّتٌ مُهْلَكٌ على وجهِ المبالَغةِ(٦).

- وفي إيقاع ﴿هؤُلاءِ﴾ اسمًا لـ ﴿إِنَّ﴾، وتَقديمِ خَبرِ المبتدأ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مِن الجملة الواقعةِ خبرًا لها؛ وسْمٌ لعَبَدةِ الأصنامِ بأنَّهم هم المُعرَّضون للتَّبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٨٢).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٩٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٢).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٧١).

أي: الهَلاكِ، وأنَّه لا يَعْدُوهم البتَّةَ، وأنَّه لهم ضربةُ لازبٍ؛ ليُحَذِّرهم عاقبةَ ما طَلَبوا، ويُبغِّض إليهم ما أحبُّوا[١].

- وقوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: الإخبار بالباطِل هنا كالإخبارِ بالمصدرِ؛ يُفيدُ المبالغةَ في بُطلانِه؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ التوبيخِ، والمبالغةِ في الإنكارِ[٢].

٣- ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إعَادَةُ لَفْظِ ﴿قَالَ﴾ مُسْتَأْنَفًا في حِكايةِ تَكملةِ جوابِ موسَى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه يُعادُ في حِكايةِ الأقوال إذا طال المقولُ، أو لأنَّه انتقالٌ مِن غرَضِ التوبيخِ على سؤالِهم إلى غرَضِ التَّذكيرِ بنِعمةِ الله عليهم، وأنَّ شُكرَ النِّعمةِ يَقتضي زَجْرَهم عن مُحاولةِ عِبادةِ غيرِ المنعِم[٣].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾: للإنكارِ والتعجُّبِ مِن طَلِبَتِهم- مع كونِهم مَغمورِينَ في نِعمةِ اللهِ- عِبادةَ غيرِ الله، وقدْ أُولي المستفْهَم عنه الهمزةُ؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَحَلَّ الإنكارِ هو اتخاذُ غيرِ الله إلهًا؛ فتقديمُ المفعولِ الثاني للاختصاصِ؛ للمبالغةِ في الإنكارِ، أي: اختصاص الإنكارِ ببَغيِ غيرِ الله إلهًا[٤].

- وقوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فيه مَجيءُ المُسنَدِ ﴿فَضَّلَكُمْ﴾ فعليًّا؛ ليُفيدَ تقديمُ المسنَدِ إليه عليه تخصيصَه بذلك الخبرِ الفِعلي، أي: وهو فَضَّلَكم، لم تُفضِّلْكم الأصنامُ؛ فكان الإنكارُ عليهم تحميقًا لهم في أنَّهم مغمورونَ في نِعمة اللهِ ويَطلُبون عِبادةَ ما لا يُنعِم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٤).

٤- **قولُه تعالى:** ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ فيه انتقالٌ إلى كَلامِه تعالى عن نَفْسِه؛ خاطَبَ به مَنْ أَنْزَلَ إليهم هذا الوحيَ مِن خَلْقِه؛ تَنبيهًا لهم بتَلوينِ الكَلامِ، وبما في مُخاطَبةِ الرَّبِّ لهم كِفاحًا مِنَ التَّأثيرِ الخاصِّ إلى كَوْنِه هو المُسْدِي لهذا الإنعامِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠١).

الآيتان (١٤٢-١٤٣)

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿مِيقَاتُ﴾: المِيقَاتُ مِفعالٌ مِن الوَقْتِ، وهو الوقتُ المضروبُ للشَّيءِ، والوَعْدُ الَّذي جُعِلَ له وَقْتٌ، أو: هو القدرُ المحدَّدُ للفعلِ مِن الزَّمانِ أو المكانِ، وأصْلُ (وقت): يَدُلُّ عَلَى حَدِّ شَيْءٍ وَكُنْهِه؛ فِي زَمانٍ وَغَيْرِه[1].

﴿اخْلُفْنِي﴾: أي: قُمْ مَقامي، والخِلافةُ: النِّيابةُ عن الآخَرِ؛ يقال: خَلَفَ فلانٌ فلانًا، أي: قامَ بالأمْرِ عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأصْلُه: مجيءُ شيءٍ بعْدَ شيءٍ يقوم مَقامَه[2].

﴿تَجَلَّى﴾: أي: ظَهَر وبانَ، أو ظَهَرَ من أَمْرِه ما شاء، وأصْلُ الجَلْو: الكَشْفُ الظَّاهِرُ، وكذلك انْكِشافُ الشَّيْءِ وبُروزُه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٩).

﴿دَكًّا﴾: أي: مَدكوكًا أو مُنْدَكًّا، أو: مستويًا مع وجهِ الأرضِ، أو: مُلصقًا بالأرضِ، والدَّكُّ: الأرضُ اللَّيِّنةُ السَّهلةُ، ويُقالُ: ناقةٌ دَكَّاءُ: إذا لم يَكُنْ لها سَنامٌ، وأصْلُ (دكك): تَطامُنٌ وانْسِطاحٌ[1].

﴿وَخَرَّ﴾: أي: سَقَط، وأصْلُ (خرر): اضْطِرابٌ وسُقوطٌ مَعَ صَوْتٍ[2].

﴿صَعِقًا﴾: أي: مَغْشِيًّا عليه مع صِياحٍ، وشِدَّةِ صَوْتٍ، وكذلك يقال: صَعِقَ، إذا ماتَ[3].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

﴿أَرْبَعِينَ﴾: مَنصوبةٌ على أنَّها حالٌ، أي: تَمَّ كاملًا، أو بالغًا هذا العددَ. أو على أنَّها مَفعولٌ به لـ ﴿تَمَّ﴾، على تَضْمينِ «تَمَّ» معنى «بَلَغَ». أو على أنَّها ظَرْفٌ؛ لأنَّها عَددُ أزمنةٍ. أو على أنَّها تمييزٌ محوَّلٌ عن الفاعلِ، والأصْلُ: فتمَّ أربعونَ مِيقاتِ رَبِّه، ثمَّ أُسْنِدَ التَّمامُ إلى ميقاتٍ، وانتصَب ﴿أَرْبَعِينَ﴾ على التَّمييزِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[4] [مريم: ٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦، ٥٦٢).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٤٧-٤٤٨).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه واعَدَ موسى ثلاثين ليلةً، يرتقِبُ بعْدَها مُناجاةَ ربِّهِ، وإنزالَ التَّوراةِ عليه، وأتممَها عزَّ وجلَّ بعَشْرِ ليالٍ، فتَمَّ ميقاتُ ربِّه أربعين ليلةً، وأمَرَ موسى أخاه هارونَ- لَمَّا أراد الذَّهابَ لمناجاةِ اللهِ- أنْ يخلُفَه في قومِه، وأنْ يُصلِحَ كلَّ ما يحتاجُ إلى صلاحٍ من أَمْرِهم، ونهاه أنْ يَتَّبِعَ طريقَ المفسدينَ.

ولَمَّا جاء موسى للموعِدِ الَّذي حدَّده له اللهُ عزَّ وجلَّ ليُناجيَه، ويُعطيَه التَّوراةَ، وكَلَّمَهُ عزَّ وجلَّ بلا واسطةٍ، طلَب موسى مِن ربِّه أنْ يراه، فأخبره تعالى أنَّه لن يقدِرَ على رُؤيتِه في الدُّنيا، وأمره أنْ ينظُرَ إلى الجبلِ فإنِ استقرَّ في مكانِه بعْدَ أنْ يتجلَّى له اللهُ، فسوف يرَى موسى ربَّه، فلمَّا ظهَرَ اللهُ للجبلِ جعله دكًّا، وسقَطَ موسى مَغْشِيًّا عليه مِن شِدَّةِ دَكِّ الجبلِ، فلمَّا أَفاقَ قال: سُبحانَكَ! تُبْتُ إليك، وأنا أوَّلُ المؤمنين.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾.

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾.

أي: وواعَدْنا[1] موسى انقضاءَ ثلاثين ليلةً ينتظِرُ، ويترقَّب بعْدَها مُناجاتَنا، وإنزالَ التَّوراةِ عليه، وأَتْمَمْنا الثَّلاثينَ بعَشْرِ ليالٍ أُخْرى[2].

---

(١) يرَى الواحديُّ والشنقيطيُّ أنَّ المدَّةَ المضروبةَ لموسى عليه السلام إنما جُعلتْ؛ ليصوم أيَّامها، ويَتعبَّد فيها قَبْلَ المناجاةِ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٩/ ٣٣٠)، ((العذب النمير)) (٤/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٠، ١٤٣).=

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

أي: فكمَلَ بذلك الوقتُ الَّذي واعَدَ اللهُ موسى أنْ يُناجيَه فيه، ويُنزِلَ عليه التَّوراةَ، أربعين ليلةً[1].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾.

أي: وقال موسى لأخيه النَّبيِّ هارونَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، لمَّا أراد أنْ يذهبَ إلى جبلِ الطُّورِ؛ لمناجاةِ اللهِ: كُنْ- يا هارونُ- خليفتي في بَني إسرائيلَ إلى أنْ أرجعَ إليكم، وأَصْلِحْ كُلَّ ما يحتاجُ إلى الإصلاحِ من أَمْرِهم[2].

قال سُبحانَه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٣، ٨٤].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: وأَوْصى موسى عليه السَّلام أخاه هارونَ عليه السَّلامُ قائلًا له: ولا تَسْلُكْ طريقَ الَّذينَ يُفسِدون في الأرضِ بالمعاصِي[3].

= قال ابنُ كثير: (وقد اختلف المفسِّرون في هذه العَشْرِ ما هي؛ فالأكثرون على أنَّ الثلاثين هي ذو القَعدةِ، والعشر عَشْرُ ذي الحِجَّةِ. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. ورُوِيَ عن ابن عبَّاس. فعلى هذا يكون قد كمَل الميقاتُ يومَ النَّحرِ، وحصَل فيه التَّكليمُ لموسى عليه السلام). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٥)، ((تفسير المراغي)) (٩/ ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾.

أي: ولَمَّا جاءَ موسى إلى جَبلِ الطُّورِ في الوقتِ الَّذي حدَّدْناه له؛ لنُناجيَه، ونُعطيَه التَّوراةَ، وكلَّمه ربُّه عزَّ وجلَّ من غير واسطةٍ، قال موسى: يا ربِّ، أَرِني نفْسَكَ؛ لأنظُرَ إليك[1].

﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾.

أي: قال الله مُجيبًا موسى: لن تَقدِرَ على رُؤيتي في الدُّنيا[2].

= (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٧).

قال الشنقيطيُّ: (والمعنى: أنت أضعَفُ- يا موسى- من أن تقدِرَ على رؤية خالقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّ شأنَه أعظمُ، وأمْرَه أكبرُ وأجلُّ من أن يقدر على رؤيته أحدٌ في الدنيا؛ لأنَّ الناسَ في الدنيا مُركَّبون تركيبًا لا يبلغ غايةَ القوَّةِ، مُعرَّضون للموت والهلاكِ، فأنت بهذه الدَّارِ لا تَقدِر أنْ ترى ربَّ السَّموات والأرضِ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٤٧).

وقال السعدي: (الله تبارك وتعالى أنشأ الخلْقَ في هذه الدار على نشأةٍ لا يقدِرون بها، ولا يثبُتون لرؤيةِ اللهِ، وليس في هذا دليلٌ على أنَّهم لا يَروْنَهُ في الجنَّةِ، فإنه قد دلَّت النصوص القرآنيَّةُ والأحاديث النبويَّة على أن أهل الجنةِ يَرَوْنَ ربهم تبارك وتعالى، ويتمتَّعون بالنظرِ إلى وجهه الكريمِ، وأنه يُنشِئهم نشأةً كاملةً، يقدِرون معها على رؤيةِ اللهِ تعالى؛ ولهذا رتَّبَ اللهُ الرؤيةَ في هذه الآيةِ على ثُبوت الجبلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٨).

عن أبي موسى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بخَمسِ كَلِماتٍ، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا ينامُ، ولا ينبغي له أنْ ينامَ، يَخفِضُ القِسْطَ ويرفعُه، يُرفَعُ إليه عملُ اللَّيلِ قبلَ عملِ النَّهارِ، وعملُ النَّهارِ قبلَ عملِ اللَّيلِ، حِجابُه النُّورُ- وفي روايةِ أبي بكرٍ: النَّارُ- لو كشَفَه لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجْهِه[1] ما انتهى إليه بصرُه مِن خَلْقِه))[2].

ثمَّ بيَّنَ اللهُ تعالى لموسى عدمَ استطاعتِه رُؤيتَه في الدُّنيا، فقال مُقْنِعًا له بذلك[3]:

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾.

أي: ولكن انظُرْ إلى الجبلِ- يا موسى- فإنْ تجلَّيْتُ له، وثَبَتَ مكانَه فسَوف تَراني، وإذا لم يَثْبُتْ مَكانَه- وهو أقوى منك، وأَشَدُّ صَلابةً- فإنَّك لن تُطيقَ رُؤيتي من بابٍ أَوْلى؛ فأنتَ أضعَفُ مِن أنْ تتحمَّلَ ذلك[4].

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى ﴿دَكًّا﴾ قراءتانِ:

١ - قِراءة ﴿دَكَّاءَ﴾، أي: جعَلَها أرضًا دكَّاءَ، وهي الأرضُ المُستَوِيَةُ[5].

---

(١) سبحاتُ وجهِه: أي: نورُه وجلالُه وبهاؤُه. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٣).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٧).

(٥) قرأ بها حمزة، والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).

قال ابن زنجلة: (قرأ حمزة والكسائي: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ بالمد والهمز، قال الأخفش: قوله تعالى: ﴿دَكَّاءَ﴾ أي: جعله مِثْلَ دكَّاءَ، ثم حُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مُقامَه كما =

٢- قِراءة ﴿دَكًّا﴾، أي: جعلها أرضًا مدكوكةً، أي: مُفَتَّتةً كالتُّرابِ[١].

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾.

أي: فلمَّا ظهر اللهُ تعالى وبانَ للجبلِ جعله اللهُ مُفَتَّتًا، مستويًا بالأرضِ[٢].

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

أي: وسقَطَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَغْشِيًّا عليه من شِدَّةِ دكِّ الجبلِ[٣].

عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((النَّاسُ

= قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي﴾ [يوسف: ٨٢]، والعربُ تقول: ناقةٌ دكاء، أي: لا سِنام لها، وقال قطرب: قوله: ﴿دَكَّاءَ﴾ صفة، التقدير: جعله أرضًا دكَّاءَ، أي: ملساء، فأُقيمَتِ الصِّفةُ مُقامَ الموصوفِ، وحُذِفَ الموصوفُ ودلَّ عليه الصفة؛ كما قال سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، أي: قولًا حَسَنًا). ((حجة القراءات)) (ص: ٢٩٥). ويُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٧).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).

قال ابنُ زنجلة: (فرأ الباقون: ﴿دَكًّا﴾ مُنوَّنًا، جَعَلوا دكًّا مصدرًا من دككتُ الشَّيءَ إذا كسَّرْتَه وفتَّتَّه، فتأويله: جعَلَه مُفتَّتًا كالتراب، وحُجَّتهم قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]، المعنى: فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل جعَله مدكوكًا، فكأنَّه دكَّه، فيُجعل قوله: ﴿دَكًّا﴾ مصدرًا صَدَرَ عن معنى الفعل لا عن لفظِه). ((حجة القراءات)) (ص: ٢٩٥). ويُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٧).

وقال الشنقيطيُّ: (وعلى كلِّ حالٍ فالله جلَّ وعلا لمَّا تجلَّى للجبل دكَّ الجبلَ وأزاله وكسَّره، وصار رُفاتًا؛ لعَظَمَةِ خالق السمواتِ والأرضِ على القراءتين: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ ﴿جعله دكَّاء﴾). ((العذب النمير)) (٤/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٨، ١٥٤).

يَصعَقونَ يَوْمَ القِيامةِ، فأكونُ أوَّلَ مَنْ يُفيقُ، فإذا أنا بموسى آخِذٌ بقائِمةٍ من قَوائمِ العَرْشِ؛ فلا أدْري أَفاقَ قَبْلي، أم جُوزيَ بصَعْقةِ الطُّورِ))[1].

وقال سليمانُ بنُ حَرْبٍ: حدَّثَنا حمَّادُ بن سَلَمَةَ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قرأ هذه الآيَةَ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]- قال حمَّادٌ: هكذا، وأَمْسَكَ سليمانُ بطَرَفِ إبهامِه على أُنْمُلَةِ إصْبَعِه اليُمنى، قال:- فساخَ الجبلُ ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾))[2].

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾.

أي: فلمَّا أفاق موسى من غَشْيَتِه قال: أُنزِّهُك- يا ألله- تنزيهًا عمَّا لا يَليقُ بكمالِك وجلالِك وعَظمتِك، ومن ذلك أنْ يَتحمَّلَ أحدٌ رؤيتَكَ في الدُّنيا ثمَّ يَعيشَ[3].

﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٩٨) ومسلم (٢٣٧٤).

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٣٠٧٤)، وأحمد (١٣١٧٨)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٤٨٠)، وابن مَندَة في ((الرد على الجهمية)) (٢٦).
قال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ صحيح. وصحَّح أبو محمَّد الخلَّال إسنادَه كما في ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٧)، وقال ابنُ القيم في ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٢١): إسنادُه على شرْط مسلم. وقال الشوكاني في ((فتح القدير)) (٢/ ٣٤٥): صحيحٌ على شرط مسلم. وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٣٠٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٢)، ((شمس العلوم)) لنشوان الحميري (٨/ ٥٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٥).
قال ابنُ عاشور: (وسُبحانَك مصدرٌ جاء عِوَضًا عن فعْلِه، أي: أُسبِّحك، وهو هنا إنشاءُ ثناءٍ على الله، وتنزيهٍ عمَّا لا يليق به؛ لمناسَبةِ سؤاله منه ما تبيَّن له أنه لا يليقُ به سؤالُه دونَ استئذانه، وتحقُّقِ إمكانه؛ كما قال تعالى لنوحٍ: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦] في سورة هود). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٤).

أي: قال موسى: إنِّي تُبْتُ إليك- يا ربِّ-؛ فلَنْ أعودَ إلى طَلَبِ رؤيتِكَ في الدُّنيا[1].

كما قال نوحٌ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: قال موسى: وأنا أوَّلُ المؤمنينَ بأنَّه لا يَراكَ أحدٌ في الدُّنيا إلَّا هَلَكَ[2].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- جَمَعَ موسى لهارونَ في وصيَّتِه مِلاكَ السِّيَاسةِ بقولِه: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ فإنَّ سياسةَ الأُمَّةِ تدور حوْلَ مِحورِ الإصلاحِ، وهو جَعْلُ الشَّيءِ صالحًا، فجميعُ تصرُّفاتِ الأُمَّةِ وأحوالِها يجب أن تكونَ صالحةً، وذلك بأنْ تكونَ الأعمالُ عائدةً بالخيرِ والصَّلاحِ لفاعِلِها ولغيرِه، فإنْ عادت بالصَّلاحِ عليه وبِضِدِّه على غيرِه لم تُعتَبَرْ صلاحًا، ولا تلبَثُ أنْ تؤولَ فسادًا على مَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٢).

وهذا المعنى هو اختيارُ الإمامِ أحمدَ، وابنِ جرير، والزَّجَّاج، واستحسنه ابنُ كثير، إلَّا أنَّ ابن جرير قيَّدَ هذه الأوَّليَّةَ ببني إسرائيلَ، أي: أنا أوَّلُ مَنْ آمَنَ من قومي بأنَّك لا تُرى في الدُّنيا. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن ذهب مِن السَّلف إلى أنَّ المعنى: أولُ المؤمنين بأنَّه لا يراك أحدٌ مِن خلقِك في الدُّنيا؛ ابنُ عبَّاس- في أحدِ قولَيْه- وأبو العاليةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٣، ٤٣٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٤٧).

وقال قتادة في قَوْله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه لن تراك نفسٌ فتحيا. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٤٧).

لاحَتْ عِنده صلاحًا، ثمَّ إذا تردَّدَ فعْلٌ بين كونِه خيرًا من جِهةٍ، وشرًّا من جِهةٍ أخرى وَجَبَ اعتبارُ أقوى حالتَيْه، فاعْتُبِرَ بها إنْ تعذَّرَ العُدولُ عنه إلى غيرِه، ممَّا هو أوفَرُ صلاحًا، وإنِ استوى جهتاه أُلْغِيَ إنْ أَمْكَنَ إلغاؤُه وإلَّا تخيَّرَ، وهذا أمْرٌ لهارونَ جامِعٌ لِمَا يتعيَّنُ عليه عملُه من أعمالِه في سياسةِ الأُمَّةِ[1].

٢- أَمَرَ اللهُ بالصَّلاحِ، ونَهَى عن الفَسادِ، وبَعَثَ رُسلَه بتَحصيلِ المصالحِ وتكميلِها، وتَعطيلِ المفاسدِ وتقليلِها؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[2].

٣- لِكَوْنِ المسلِمِ للمُسلِمِ ناصحًا، والنَّصيحةُ حقٌّ وواجبٌ للمسلِمِ على المسلمِ؛ نَصَحَ موسى أخاه هارونَ، مع أنَّه يَعلَمُ أنَّه نبيٌّ مُرْسَلٌ من ربِّه معه؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾، واعَدَ اللهُ تعالى موسى ثَلاثين ليلةً، وأَتمَّها بعشْرٍ، فصارتْ أربعين ليلةً؛ ليستعِدَّ موسى ويتهيَّأَ لوعْدِ اللهِ، ويكونَ لنُزولِ التَّوراةِ موقِعٌ كبيرٌ لديهم، وتشوُّقٌ إلى إنزالِها[4].

٢- قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ سُمِّيَتْ زيادةُ اللَّيالي العشْرِ إتمامًا؛ إشارةً إلى أنَّ اللهَ تعالى أراد أنْ تكونَ مُناجاةُ موسى أربعين ليلةً، ولكنَّه لَمَّا أَمَرَه بها أمَرَه بها مُفرَّقةً؛ إمَّا لحِكْمةِ الاستيناسِ، وإمَّا لتكونَ تلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٧، ٨٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٣١/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢).

العشْرُ عبادةً أخرى؛ فيتكرَّرَ الثَّوابُ، والمرادُ اللَّيالي بأيامِها فاقْتُصِرَ على اللَّيالي؛ لأنَّ المُواعَدَةَ كانت لأجْلِ الانقطاعِ للعبادةِ وتلقِّي المناجاةِ، والنَّفسُ في اللَّيلِ أكثرُ تجرُّدًا للكمالاتِ النَّفسانيَّةِ، والأحوالِ الملكيَّةِ منها في النَّهارِ[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ...﴾، قال بعضُ العلماءِ: هذه الآيةُ الكريمةُ يُؤْخَذُ منها: أنَّ ضَرْبَ التَّأجيلِ، وتحديدَ المدَّةِ للمِيعادِ ونَحْوِه- أنَّه أمْرٌ مَعروفٌ قديمٌ، فيدُلُّ على ضرْبِ الأجَلِ والتَّحديدِ بثَلاثين أو أربعين لموعِدٍ ونحوِ ذلك، كَدَيْنٍ أو غيرِه ممَّا يحتاجُ إلى الآجالِ[2].

٤- قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ...﴾، قال بعضُ العلماءِ: هذه الآيةُ من سُورةِ الأعرافِ دلَّتْ على أنَّ التَّأْريخَ باللَّيالي لا بالأيَّامِ، وذلك هو المقرَّرُ في فنِّ العربيَّة كما دلَّتْ عليه هذه الآيةُ أنَّ التَّأْريخَ باللَّيالي لا بالأيَّامِ، فتقول: وقَعَ هذا لكذا وكذا ليلةً، ولا تقولُ: لكذا يومًا، فالتَّأْريخُ باللَّيالي؛ لأنَّ اللَّياليَ أوائلُ الشُّهورِ وهي سابقةٌ للأيَّامِ، فالتَّأْريخُ بها لا بالأيَّامِ، وهذه الآيةُ نَصٌّ صريحٌ في ذلك؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾، ولم يقُلْ: ثلاثين يومًا، وقال: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾، حَذَفَ منها التَّاءَ ولم يقُلْ: (بعشَرة)؛ لأنَّ اللَّياليَ مُؤنَّثةٌ، ولو أرادَ الأيَّامَ لقال: (بعشَرة) بالتَّاء، كما هو معروفٌ في محلِّه[3].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيه أمْرُه إيَّاه بالصَّلاحِ، ونَهْيُه عن اتِّباعِ سبيلِ المفسِدين هو على سَبيلِ التَّأكيدِ، لا لِتَوَهُّمِ أنَّه يقَعُ منه خِلافُ الإصلاحِ واتِّباعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٦).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تِلك السَّبيلِ؛ لأنَّ مَنْصِبَ النُّبوَّةِ مُنزَّهٌ عن ذلك[١].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، لَمَّا تعلَّق النَّهْيُ بسُلوكِ طريقِ المفسِدين، كان تحذيرًا من كُلِّ ما يُسْتَرْوَحُ منه مآلٌ إلى فسادٍ؛ لأنَّ المفسِدينَ قد يَعْملون عملًا لا فَسادَ فيه؛ فنُهِي عن المشارَكةِ في عَملِ مَنْ عُرِفَ بالفسادِ؛ لأنَّ صُدورَه عن المعروفِ بالفَسادِ كافٍ في توقُّعِ إفضائِه إلى فسادٍ؛ ففي هذا النَّهْيِ سَدُّ ذريعةِ الفسادِ، وسَدُّ ذرائعِ الفَسادِ من أُصولِ الإسلامِ[٢].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، ممَّا يُؤْذِنُ بأنَّ التَّكليمَ هو الَّذي أَطْمَعَ موسى عليه السَّلامُ في حُصولِ الرُّؤيةِ جَعْلُ جُملةِ: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ شرطًا لحرفِ (لَمَّا)؛ لأنَّ (لَمَّا) تدُلُّ على شِدَّةِ الارتباطِ بين شَرْطِها وجوابِها؛ فلذلك يَكْثُرُ أنْ يكونَ عِلَّةً في حُصولِ جوابِها[٣].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾، تعلَّقَ نُفاةُ الرُّؤيةِ بظاهرِ هذه الآيةِ، وقالوا: قال اللهُ: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، و(لن) تكون للتَّأبيدِ، ولا حُجَّةَ لهم فيها، ومعنى الآيةِ: لن تراني في الدُّنيا أو في الحالِ؛ لأنَّه كان يَسأل الرُّؤيةَ في الحالِ، و(لن) لا تكون للتَّأبيدِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، إخبارًا عن اليهودِ، ثمَّ أخبر عنهم أنَّهم يَتمنَّوْنَ الموتَ في الآخرةِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، و﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧]، والدَّليلُ عليه أنَّه لم يَنسُبْه إلى الجهلِ بسؤالِ الرُّؤيةِ، وأنَّه لم يَقُلْ: إنِّي لا أُرى،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦١).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٨).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٩١).

حتَّى تكونَ لهم حُجَّةً، بل علَّقَ الرُّؤيةَ على استقرارِ الجبلِ، واستقرارُ الجبلِ عِند التَّجلِّي غيرُ مستحيلٍ إذا جعل اللهُ تعالى له تلك القوَّةَ، والمعلَّقُ بما لا يَستحيلُ لا يكون مُحالًا(١).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾، نبَّه تعالى بذلك على أنَّ الجبلَ مع شِدَّتِه وصلابتِه إذا لم يَستقرَّ فالآدميُّ مع ضَعْفِ بِنْيَتِهِ أَوْلى بألَّا يستقِرَّ، وهذا تسكينٌ لقلبِ موسى، وتخفيفٌ عنه مِنْ ثِقَلِ أعباءِ المنْعِ(٢).

١٠- قوله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، وهذا مِن أَبْيَنِ الأدلَّةِ على جوازِ رُؤيتِه تبارَك وتعالى؛ فإنَّه إذا جازَ أنْ يَتجلَّى للجَبلِ الَّذي هو جمادٌ، لا ثَوابَ له، ولا عِقابَ عليه، فكيف يمتَنِعُ أنْ يتجلَّى لأنبيائِه ورُسلِه وأوليائِه في دارِ كرامتِهم، ويُرِيَهم نفْسَه؟! فأَعْلَمَ سُبحانَه وتعالى موسى أنَّ الجبلَ إذا لم يَثْبُتْ لرؤيتِه في هذه الدَّارِ فالبشرُ أَضْعَفُ(٣).

١١- قال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾، رأى محمَّدٌ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما رأى في ليلةِ الإسراءِ، وهو ثابتُ الجأْشِ، حاضرُ القلبِ، لم يَفْنَ عن تلقِّي خِطابِ ربِّه وأوامرِه، ومراجعتِه في أمْرِ الصَّلاةِ مِرارًا، ولا رَيْبَ أنَّ هذا الحالَ أكمَلُ من حالِ موسى الكليمِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهما؛ فإنَّ موسى خرَّ صَعِقًا، وهو في مَقامِه في الأرضِ، لَمَّا تجلَّى ربُّه للجبلِ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَطَعَ تلك المسافاتِ، وخَرَقَ تلك الحُجُبَ، ورأى ما رأى، وما زاغَ بَصَرُهُ وما طَغى، ولا اضْطَرَبَ فؤادُه ولا صَعِقَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، ولا

(١) ينظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٩).
(٢) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦٤).
(٣) ينظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٧)، وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٦).

ريبَ أنَّ الوِراثةَ المحمَّديَّةَ أكمَلُ مِنَ الوِراثةِ الموسويَّةِ[١].

١٢- قولُه: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، تَعبيرُه بالإيمانِ في غايةِ المناسَبةِ لعَدمِ الرُّؤيةِ؛ لأنَّ شرطَ الإيمانِ أنْ يكونَ بالغَيبِ[٢].

بلاغة الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ إنَّما قال: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ مع أنَّه قد عُلِم ذلِك عند انضمامِ العَشْرِ إلى الثَّلاثينَ؛ لوُجوهٍ: أحدُها: أنَّه للتَّأكيدِ والإيضاحِ. الثَّاني: ليدُلَّ أنَّ العشْرَ ليالٍ لا ساعاتٌ. الثَّالثُ: ليَنفيَ تمامَ الثَّلاثينَ بالعشْر أنْ تكونَ من جُملةِ الثَّلاثينَ؛ ولرَفْعِ توهُّم أنَّ العَشرَ داخلةٌ في الثَّلاثين، بمَعنَى أنَّها كانتْ عِشرينَ ليلةً فأُتِمَّتْ بعشْرٍ[٣].

- وإضَافَةُ الميقات إِلَى رَبِّهِ في قولِه: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾؛ لِلتَّشْرِيفِ[٤].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾: فيه التَّحذيرُ مِن الفَسادِ بأبلغ صِيغةٍ؛ لأنَّها جامعةٌ بين نَهيٍ، وبين تعليقِ النَّهيِ باتِّباعِ سَبيلِ المُفسِدين[٥].

٣- قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ معنى اللَّام في ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ الاختِصاصُ، فكأنَّه قيل: واختصَّ مَجيئُه بميقاتِنا[٦].

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٢٣، ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٨٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥١).

الآيتان (١٤٤-١٤٥)

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿اصْطَفَيْتُكَ﴾: أي: اخترْتُكَ، وأَصْلُ (صفو): يدُلُّ على خُلوصٍ من كُلِّ شَوْبٍ[١].

﴿مَوْعِظَةً﴾: الموعظةُ هي التَّخويفُ، أو الزَّجْرُ المُقترِنُ بتخويفٍ، وهي أيضًا تذكيرٌ بالخيرِ وما يَرِقُّ له القلبُ[٢].

مُشكلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾

﴿مِنْ كُلِّ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، حالٌ مِن ﴿مَوْعِظَةً﴾، و﴿مَوْعِظَةً﴾ مفعولٌ به منصوبٌ بالفعلِ (كتب)، و﴿تَفْصِيلًا﴾ معطوفٌ على ﴿مَوْعِظَةً﴾ منصوبٌ، والتقديرُ: كتبْنا له في الألواح موعظةً مِن كُلِّ شَيءٍ وتَفصيلًا، ويجوزُ أن يكونَ ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في محلِّ نصبٍ، مفعولَ ﴿كَتَبْنَا﴾ ، وعليه فـ ﴿مَوْعِظَةً﴾ بَدَلٌ مِن محلِّ الجارِّ والمجرورِ، و﴿تفصيلًا﴾ معطوفٌ منصوبٌ، والمعنى: كَتَبْنا له كلَّ شيءٍ كان بنو إسرائيلَ يَحْتاجون إليه في دينِهم؛ مِن المواعِظِ، وتَفصيلِ الأحكامِ، وقيل: مفعولُ ﴿كَتَبْنا﴾ محذوفٌ دَلَّ عليه الفِعلُ، تقديرُه: وكَتَبْنا له مكتوبًا مِن كُلِّ شَيءٍ[٣]، وانتصَبَ ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً﴾ على

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

(٣) وقدَّر أبو حيَّان المحذوفَ كلمةَ: (أشياءَ) أي: كتبْنا له أشياءَ مِن كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٠).

المفعولِ مِن أجلِه، أي: كَتَبْنا له ذلك المكتوبَ للاتِّعاظِ وللتَّفصيلِ، أو انتصَبَ ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ على الحالِ مِن الضَّميرِ المرفوعِ في قَولِه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ﴾ أي: واعظِينَ ومُفَصِّلينَ. وقيل غيرُ ذلك[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه قال لموسى: إنَّه اختارَه وفضَّلَه على أهلِ زمانِه، بإرسالِه إلى بني إسرائيلَ، وتكْليمِه إيَّاه بلا واسِطةٍ، وأمَرَه أنْ يأخُذَ ما آتاه من التَّوراةِ ويتمسَّكَ بها، وأنْ يكونَ من الشَّاكرينَ.

وأخبرَ تعالى أنَّه كتَبَ له في الألواحِ المُشتمِلةِ على التَّوراةِ كُلَّ شيءٍ تحتاج إليه أُمَّتُه في دِينِها، موعظةً، وتفصيلًا لكلِّ شيءٍ ممَّا يُحتاجُ إلى تَبْيينِه، وأمَرَه أنْ يتمسَّكَ بما كُتِبَ له بقوَّةٍ، وأنْ يأمُرَ قومَه أنْ يَتمسَّكوا بأحسنِ ما في التَّوراةِ، ثم قال تعالى: سَأُرِيكُمْ دارَ من عصاني، وخالف أمري.

تَفسيرُ الآيَتَيْنِ:

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا طلَبَ موسى عليه السَّلامُ الرُّؤيةَ ومُنِعَها، عدَّدَ عليه تعالى وُجوهَ نِعَمِه العظيمةِ عليه، وأمَرَه أنْ يَشتغِلَ بشُكرِها، وهذه تَسليةٌ منه تعالى له[٢].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٥٢-٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ٢٨٠-٢٨١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٩/ ٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦٩).

القراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ قراءتانِ:

١- قراءة ﴿بِرِسَالَتِي﴾، قيل: على معنى أنَّ اللهَ تعالى أرسَلَه مرَّةً واحدةً بكلامٍ كثيرٍ(١).

٢- قراءة ﴿بِرِسَالَاتِي﴾، قيل: على معنى أنَّه تعالى أَوْحى إليه مرَّةً بَعْدَ أُخْرى(٢).

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾.

أي: قال اللهُ: يا موسى، إنِّي اخترْتُكَ وفضَّلْتُكَ على أهلِ زمانِكَ بسببِ إرْسالي لك إلى بني إسرائيلَ، وتَكْليمي إيَّاكَ بلا واسطةٍ، دونَ غيرِكَ مِنَ النَّاسِ(٣).

---

(١) قرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو جعفرٍ المدني ورَوح. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٣- ١٦٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٩٥)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٥).
وقال ابنُ عطية: (وقرأ ابن كثير ونافع: (بِرِسَالَتِي) على الإفراد الذي يُرادُ به الجَمْعُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٢) فـ(رسالة) مفردٌ مضافٌ إلى معرفةٍ (الضمير) فهو بمعنَى الجمعِ.

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٣- ١٦٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٩٥)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٦- ١٥٧).
قال البغوي: (فإنْ قيل: فما معنى قوله: ﴿اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي﴾ وقد أُعْطِيَ غيرُه الرسالةَ؟ قيل: لَمَّا لم تكن الرسالةُ على العُموم في حقِّ النَّاسِ كافَّةً استقام قوله: ﴿اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ وإنْ شارَكه فيه غيرُه، كما يقولُ الرجلُ: خصصْتُك بمشورتي، وإنْ شاوَرَ غيرَه، إذا لم تكن المشورةُ على العموم يكون مستقيمًا). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣١).
وقال الرازي: (فإنْ قيل: كيف اصطفاه على النَّاس برسالاته مع أنَّ كثيرًا من الناسِ قد ساواه في الرسالةِ؟ قُلْنا: إنَّه تعالى بيَّنَ أنَّه خصَّهُ من دونِ الناسِ بمجموعِ الأمرين وهو الرِّسالة مع =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣].

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾.

أي: فَخُذْ ما أعطيْتُكَ من التَّوراةِ، وتمسَّكْ بها- يا موسى- واعمَلْ بما فيها مِنَ الأوامِرِ والنَّواهي(١).

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: وكُنْ- يا موسى- مِنَ الشَّاكرينَ(٢) للهِ تعالى بطاعتِه على ما آتاكَ مِنَ الرِّسالةِ، وخَصَّكَ به من الكلامِ، ومَنَحَكَ من النِّعَمِ(٣).

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ (١٤٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى أنَّه خَصَّ موسى عليه السَّلامُ بالرِّسالةِ، ذكَرَ في هذه الآيةِ

= الكلامِ بغيرِ واسطةٍ، وهذا المجموعُ ما حَصَلَ لغيرِه؛ فثَبَتَ أنَّه إنَّما حصَلَ التَّخصيصُ هاهنا؛ لأنَّه سمِع ذلك الكلامَ بغيرِ واسطةٍ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٧).

(٢) قال الشنقيطيُّ: (الشُّكر في لغة العربِ: الظُّهورُ... و(الشَّكيرُ): الغُصْنُ الذي يَظْهَرُ في الجِذْعِ الذي كان مقطوعًا، كما هو معروفٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٥٧).

قال القرطبيُّ: (﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، أي: من المظهِرين لإحساني إليك، وفَضْلي عليك، يُقالُ: دابَّةٌ شَكورٌ إذا ظهَرَ عليها مِنَ السِّمَنِ فوق ما تُعْطى من العَلَفِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٧).

قال الرازي: (﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، يعني: فخُذْ هذه النِّعمةَ، ولا يَضيقُ قلبُك بسبب منْعِك الرُّؤيةَ، واشتغِلْ بشُكر الفَوْزِ بهذه النِّعمةِ، والاشتِغالُ بشُكرها إنما يكون بالقيام بلوازِمِها عِلْمًا وعملًا. والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤).

تفصيلَ تلك الرِّسالةِ، فقال[1]:

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾.

أي: وكتبْنا لموسى في ألواحِه[2]- المُشتمِلةِ على التَّوراةِ[3]- كلَّ شيءٍ تحتاجُ إليه أُمَّتُه في دينِها[4].

عن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدمُ، أنتَ أبونا، خيَّبْتَنا وأخرجْتَنا منَ الجنَّةِ، فقالَ لَهُ آدمُ: أنتَ موسَى، اصطفاكَ اللهُ بِكَلامِهِ، وخطَّ لَكَ بيدِه، أتلومُني على أمْرٍ قدَّرَهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩).

(٢) قال القرطبيُّ: (أصلُ اللُّوح: (لَوْحٌ)- بفتْح اللامِ- ؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، فكأنَّ اللَّوْحَ تَلوحُ فيه المعاني). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨١).

(٣) ذهب الواحديُّ، والرَّازي، والقرطبيُّ، وابنُ تيميةَ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمينَ، إلى أنَّ المرادَ بهذه الألواحِ: التَّوراةُ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤١٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨١)، ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((العذب النمير)) (٢/ ٣٩٢) (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٧٧).

قال ابنُ كثير: (كانت هذه الألواحُ مُشتمِلةً على التَّوراة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣]، وقيل: الألواحُ أُعْطِيَها موسى قبْلَ التَّوراةِ، فالله أعلم. وعلى كلِّ تقديرٍ كانت كالتَّعويضِ له عمَّا سأل من الرُّؤية ومُنِعَ منه، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤).

وقال الرازيُّ: (واعلَمْ أنه ليس في لفظ الآيةِ ما يدُلُّ على كيفيَّةِ تلك الألواحِ، وعلى كيفيَّة تلك الكتابةِ، فإنْ ثبَتَ ذلك التَّفصيلُ بدليلٍ مُنفصِلٍ قويٍّ وجَبَ القولُ به وإلَّا وجب السُّكوتُ عنه). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٧).

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تبعيضيَّةٌ، أي: كتَبْنا له أشياءَ من كلِّ شيءٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٧).

اللهُ عليَّ قبلَ أنْ يخلُقَني بأربعينَ سنةً؟! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: فحَجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى))، وفي حديثِ ابنِ أبي عُمَرَ وابنِ عَبْدَةَ: ((قالَ أحدُهما: خَطَّ، وقالَ الآخَرُ: كتبَ لَكَ التَّوراةَ بيدِهِ))[١].

وفي روايةٍ أُخرى عن أبي هريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((احتجَّ آدمُ وموسى عليهما السَّلامُ عِندَ ربِّهما، فحجَّ آدمُ موسى، قال موسى: أنتَ آدمُ الَّذي خلقَكَ اللهُ بيدِه، ونفخَ فيكَ من رُوحِهِ، وأَسْجَدَ لَكَ ملائِكَتَهُ، وأسكنَكَ في جنَّتِهِ،ثمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بخطيئتِكَ إلى الأرضِ، فقال آدمُ: أنتَ موسى الَّذي اصطفاكَ اللهُ برسالتِهِ، وبكَلامِهِ، وأعطاكَ الألواحَ فيها تِبيانُ كلِّ شيءٍ، وقرَّبَكَ نجيًّا، فبِكَمْ وجدْتَ اللهَ كتَبَ التَّوراةَ قبْلَ أن أُخْلَقَ؟ قال موسى: بأربعينَ عامًا، قال آدمُ: فَهَل وجدْتَ فيها: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى؟ قالَ: نَعَمْ، قال: أفتلومُني على أنْ عَمِلْتُ عملًا كتبَهُ اللهُ عليَّ أنْ أعمَلَهُ قبْلَ أنْ يخلُقَني بأربعينَ سنةً؟! قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فَحجَّ آدمُ موسى))[٢].

﴿مَّوۡعِظَةً وَتَفۡصِيلًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ﴾.

أي: كتَبْنا لموسى في التَّوراةِ من كلِّ شيءٍ؛ تذكيرًا وتحذيرًا، وترغيبًا وترهيبًا لقومِه، ومَن أُمِر بالعملِ بما كُتِب في الألواحِ، وتبيينًا لكلِّ شيءٍ مِن الأمرِ والنَّهيِ، والحلالِ والحرامِ، والحدودِ، والأحكامِ، والعقائِدِ، والأخلاقِ، والآدابِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾.

أي: فقُلْنا: يا موسى، تَمَسَّكْ بما كتَبْنا لك في الألواحِ بِجِدٍّ واجتهادٍ، وصبرٍ وعزمٍ، ونشاطٍ على إقامةِ ما فيها[1].

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.

أي: وَأْمُرْ- يا موسى- قومَكَ بني إسرائيلَ بأنْ يتمسَّكوا بأحسَنِ ما يجِدونَ في التَّوراةِ، فيعملوا بأوامِرِها، ويَترُكوا نواهيَها، ويتدبَّروا مواعِظَها[2].

ثمَّ توعَّدَ اللهُ مَنْ يُضيعُ العملَ بالتَّوراةِ من بني إسرائيلَ، فقال لهم مُهدِّدًا[3]:

﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

قال ابنُ الجوزي: (إنْ قيل: كأنَّ فيها ما ليس بحَسَنٍ، فعنه جوابان؛ أحدُهما: أنَّ المعنى: يأخذوا بحَسَنِها، وكلُّها حَسَنٌ... والثَّاني: أنَّ بعضَ ما فيها أحْسَنُ من بعضٍ. ثم في ذلك خمسةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنهم أُمِروا فيها بالخير، ونُهوا عن الشَّرِّ، فِفعْلُ الخيرِ هو الأحسنُ. والثاني: أنها اشتملت على أشياءَ حسنةٍ بعضُها أحسنُ من بعضٍ؛ كالقِصاصِ والعفوِ والانتصارِ والصَّبرِ، فأُمِروا أن يأخذوا بالأحسنِ، ذَكَرَ القولين الزجاجُ. فعلى هذا القولِ يكون المعنى: أنهم يتَّبعون = = العزائمَ والفضائلَ، وعلى الذي قبْلَه يكون المعنى: أنهم يتَّبعون الموصوفَ بالحُسْن، وهو الطاعة، ويَجتنِبون الموصوفَ بالقُبْح وهو المعصية. والثالث: أحسنها: الفرائضُ والنوافلُ، وأدونها في الحُسْن: المباح. والرابع: أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة، فتُصْرَفَ إلى الأشْبَهِ بالحقِّ. والخامس: أنَّ أحسنَها: الجمعُ بين الفرائضِ والنوافلِ). ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٣).

وهذا القول الخامس هو اختيار السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١).

وقيل: يحتمِلُ أن يكون كلامًا مُنفصِلًا عمَّا قَبْلَه، فيكونَ استئنافًا ابتدائيًّا: هو وَعْدٌ له بدُخولِهم الأرضَ الموعودةَ، وفَتْحِ بلادِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١).

أي: سأُريكم دارَ[1] مَن عَصاني وخالَفَ أَمْري[2].

(١) اختلف المفسِّرون في المرادِ بقولِه: ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.
فقيل: ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ هي: جَهنَّمُ، والمعنى: سأُريكم في الآخِرةِ دارَ الفاسِقين. وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤١)، ((الوجيز)) (ص: ٤١٢).
وممن رُوي عنه هذا القولُ من السَّلف مجاهدٌ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤١).
وقيل: هذا وعدٌ من الله لبني إسرائيلَ بأنَّه سيُريهم في الدُّنيا دارَ الفاسقين، وهي الأرض المقدَّسةُ التي كان يسكُنُها الجبابرةُ المشركون. واختاره القاسميُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١).
وممن رُوي عنه هذا القولُ من السَّلف قتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٤)
قال ابنُ عاشور: (والمرادُ بالفاسقين المشرِكون، فالكلامُ وعْدٌ لموسى وقومِه بأنْ يفتحوا ديارَ الأممِ الحالَّةِ بالأرض المقدَّسةِ التي وعَدَهم اللهُ بها... ويُؤيِّده ما رُوِيَ عن قَتادةَ أنَّ دارَ الفاسقين هي دارُ العمالقةِ والجبابرةِ، وهي الشامُ، فمِن الخطأ تفسيرُ مَن فسَّروا دارَ الفاسقين بأنَّها أرضُ مصرَ؛ فإنهم قد كانوا بها وخرجوا منها ولم يرجِعوا إليها). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١-١٠٢).
وقيل: هي مصر (دارُ فرعونَ وقومِه)، واختاره الزمخشري، وابن جزي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٠١).
وممن قال بذلك مِن السَّلف عطيةُ العوفيُّ، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٦٢).
وقيل: هي الأرضُ المقدَّسةُ ومِصرُ، واختاره ابن تيمية. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٨/ ٢٨٣).
وقيل: هي منازِلُ القرونِ الذين أُهْلِكوا؛ كعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ ومدينَ وقومِ فرعونَ، فيُمُرُّون عليها إذا سافَروا. وهو قول الكَلْبيِّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٤٨).
وقيل: الدَّارُ: الهلاكُ، أي: سأُريكم هلاكَ الفاسقين. وهو قولُ سفيانَ الثوري. يُنظر: ((تفسير سفيان الثوري)) (ص: ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٨).
قال القرطبيُّ مُبيِّنًا معنى هذا القولِ: (وقيل: الدَّارُ: الهلاكُ، وجمعُه أدوارٌ، وذلك أن اللهَ تعالى لمَّا أغرق فرعونَ أوحى إلى البحر أن اقذِفْ بأجسادهم إلى الساحِل، قال: ففَعَلَ، فنظَرَ إليهم بنو إسرائيلَ؛ فأراهم هَلاكَ الفاسقين). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، أمْرُ اللهِ تعالى لموسى بأَخْذِ ما آتاه، والشُّكرِ على الاصطفاءِ والعطاءِ، هو أمْرُ التَّعليمِ والتَّوجيهِ لِمَا ينبغي أنْ تُقابَلَ به نِعمةُ اللهِ. والرُّسلُ- صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم- قُدوةٌ للنَّاسِ، وللنَّاسِ فيهم أُسْوَةٌ، وعلى النَّاسِ أنْ يأخُذوا ما آتاهم اللهُ بالقَبولِ والقَناعةِ والرِّضا بعَطاءِ اللهِ والشُّكرِ عليه؛ استِزادةً من النِّعمةِ، وإصلاحًا للقلبِ، وتحرُّزًا من البَطَرِ، واتِّصالًا باللهِ، فقولُه تعالى: ﴿فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فيه تأديبٌ وتقنيعٌ، وحَمْلٌ على جادَّةِ السَّلامةِ، ومثالٌ لكلِّ أحدٍ في حالِه، فإنَّ جميعَ النِّعَمِ من عِندِه بمقدارٍ، وكُلَّ الأمورِ بمَرْأًى من اللهِ ومَسْمَعٍ(١).

٢- الكتابُ الإلهيُّ يجِبُ أخْذُه بقوَّةٍ وإرادةٍ وجِدٍّ وعزيمةٍ؛ لتنفيذِ ما هَدَى إليه من الإصلاحِ، وتكوينِ الأُمَّةِ تكوينًا جديدًا صالحًا، ويتأكَّدُ ذلك في الدَّاعي إليه، والمُنفِّذِ له بقولِه وعملِه؛ ليكونَ لقومِه فيه أُسوةٌ حَسَنةٌ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾(٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾، الاصطِفاءُ: الاجتِباءُ، أي: فضَّلْتُك، ولم يَقُلْ: على الخَلْقِ؛ لأنَّ من هذا الاصطفاءِ أنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٦٧).

كلَّمَه، وقد كلَّمَ الملائكةَ، وأرسَلَه وأرسَلَ غيرَه، فالمرادُ: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ المرسَلِ إليهم[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ لم يُعَدَّ فِعْلُ الأَخْذِ بالباءِ في قولِه: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾؛ لأنَّه مُستعمَلٌ في معنى التَّلقِّي والحِفْظِ؛ لأنَّه أَهَمُّ من الأخْذِ بمعنى التَّمسُّكِ والعملِ؛ فإنَّ الأوَّلَ حَظٌّ وَلِيِّ الأمْرِ، والثَّانِيَ حَظٌّ جميعِ الأُمَّةِ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: الإراءَةُ مِن (رأى) البَصَرِيَّةِ؛ لأنَّها عُدِّيَتْ إلى مَفعولَيْنِ فقط، وأُوثِرَ فِعْلُ: ﴿سَأُرِيكُمْ﴾ دونَ نَحْوِ: (سَأُدْخِلُكم)؛ لأنَّ اللهَ مَنَعَ مُعظَمَ القومِ الَّذينَ كانوا مع موسى مِن دُخولِ الأرضِ المقدَّسةِ لَمَّا امتَنَعوا من قِتالِ الكَنْعَانِيِّينَ[٣] وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ في هذه الآيةِ.

بلاغةُ الآيتَين:

١ - قوله: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

- قوله: ﴿يَا مُوسَى﴾ النِّداءُ فيه للتأنيسِ، وإزالةِ الرَّوعِ[٤].

- وقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾: فيه تأكيدُ الخبرِ للاهتمامِ به؛ إذ ليسَ محلًّا للإنكارِ؛ والاصطفاءُ افتعالٌ مبالغةً في الإصفاءِ أيضًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإخبارُ عن ﴿كُنْ﴾ بقولِه: ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: أبلغُ مِن أنْ يُقال: (كن شاكرًا)؛ لأنَّ هذه الصِّيغةَ تُفيدُ كونَه مَعدودًا في زُمرةِ الشَّاكِرينَ، ومَعروفًا إسهامُه لهم في الشُّكرِ(١).

- وحذف مُتعلَّق الشُّكْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يدُلُّ على عُمومِه، كما أنَّ صِيغةَ الصِّفةِ منه تدُلُّ على التَّمكُّنِ منه والرُّسوخِ فيه، والمعنى: كُنْ من الرَّاسِخينَ في الشُّكرِ لِنِعمتي بها عليك وعلى قومِكَ(٢).

٢- قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾

- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ عرَّفَ (الألواحَ) لِعَظَمَتِها؛ تَنْبيهًا على أنَّها لجَلالةِ ما اخْتَصَّتْ به كأنَّها المُخْتَصَّةُ بهذا الاسمِ(٣).

- قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾

- قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ فيه تمثيلٌ لحالةِ العزمِ على العملِ بما في الألواحِ، بمنتهَى الجدِّ والحِرص دون تأخيرٍ ولا تساهُلٍ، ولا انقطاعٍ عند المشقَّةِ ولا مَللٍ- بحالةِ القويِّ الذي لا يَستعصي عليه عملٌ يُريده(٤).

- وفي قوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ جُزِمَ الفِعلُ ﴿يَأْخُذُوا﴾ جوابًا لقولِه: ﴿وَأْمُرْ﴾ تَحقيقًا لحُصولِ امتثالِهم عندَما يأمرُهم(٥).

- وقوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ وصْفٌ مَسلوبُ المفاضَلةِ، مقصودٌ به المبالغةُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٣- ٢٦٥) و(٩/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١١٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الحُسنِ؛ فإضافتُها إلى ضَميرِ الألواحِ على معنَى اللام، أي: بالأحسنِ الذي هو لها، وهو جميعُ ما فيها؛ لظُهورِ أنَّ ما فيها من الشرائع ليس بَينَه تفاضُلٌ بين أحسن ودُون الأحسن، بل كلُّه مَرتبةٌ واحدةٌ فيما عُيِّن له[1]، وهذا على أحدِ الأوجهِ في هذه الآيةِ.

- قوله: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ فيه تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى قَومِه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بطريقِ الالتفاتِ؛ لاستِرعاءِ الاهتمامِ، وحملًا لهم على الجِدِّ في الامتثالِ بما أُمِروا به؛ إمَّا على نهجِ الوعيدِ والترهيبِ على أنَّ المرادَ بـ﴿دَارَ الفَاسِقِينَ﴾ دِيارُ عادٍ وثمودَ وأضرابِهم؛ فإنَّ رُؤيتَها- وهي الخاليةُ عن أهلِها- خاوية على عُروشِها، موجبةٌ للاعتبارِ والانزجارِ عن مِثلِ أعمالِ أهلِها؛ كيلَا يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بأولئك. وإمَّا على نهجِ الوَعدِ والتَّرغيبِ على أنَّ المرادَ بـ﴿دَارَ الفَاسِقِينَ﴾ إمَّا أرضُ مصرَ خاصَّةً، أو مع أرضِ الجَبابرةِ والعمالقةِ بالشَّامِ[2]، وهذا على أحدِ أوجهِ تأويلِ هذه الآيةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) للدرويش (٣/ ٤٥٣).

الآيتان (١٤٦-١٤٧)

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟
كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟
سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿سَأَصْرِفُ﴾: أي: سأَرُدُّ، والصَّرفُ: رَدُّ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيرِه، وأصْلُ (صرف): يدُلُّ على رجْعِ الشَّيءِ[١].

﴿الْغَيِّ﴾: أي: الانهماكِ في الباطلِ والضَّلالِ، والجهلِ بالأمْرِ مِن اعتقادٍ فاسدٍ، وأصْلُ الغَيِّ: خِلافُ الرُّشْدِ[٢].

﴿غَافِلِينَ﴾: أي: ساهِينَ لاهِينَ، والغَفْلةُ: سَهْوٌ يَعْتري الإنسانَ مِن قِلَّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظِ، وأَصْلُ (غفل): ترْكُ الشَّيءِ سَهْوًا، وربَّما كان عن عَمْدٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه سيُبْعِدُ عن آياتِه الَّذينَ يَتكبَّرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ، وإنْ يَرَوْا كُلَّ حُجَّةٍ تدُلُّ على أنَّ اللهَ هو مَنْ يَستحِقُّ العِبادةَ لا يُؤْمِنوا بها، وإنْ يَرَوْا طَريقَ الهُدى والاستقامةِ لا يَسلُكوه، وإنْ يَرَوْا سَبيلَ الضَّلالِ يَسلُكوه؛ ذلك

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢).
(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٩).

بأنَّهم كذَّبوا بآياتِ اللهِ، وكانوا عنها غافلين.

ثُمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ الَّذينَ كذَّبوا بآياتِه، وأنْكَروا البَعْثَ بعْدَ الموتِ، ولقاءَه في الآخرةِ، بَطَلَتْ أعمالُهم، ولا يُجْزَوْنَ إلَّا بما يَستحِقُّونَ من العِقابِ على أعمالِهم السَّيِّئةِ.

تَفسيرُ الآيتَيْنِ:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٤٦) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى في الآيةِ المتقدمةِ قولَه: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، ذَكَرَ ما يعاملُهم به، وما يَفْعَلُ بهم مِنْ صَرْفِه إيَّاهم عن آياتِه؛ لِفِسْقِهم وخُروجِهم عن طَوْرِهم إلى وَصْفٍ ليس لهم، ثُمَّ ذَكَرَ تعالى من أحوالِهم ما استحقُّوا به اسْمَ الفِسْقِ[١]، فقال:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.

أي: سأَمْنَعُ وأصُدُّ عن فَهْمِ آياتِ كُتبي المُنزَّلةِ، وعن التَّفكُّرِ في آياتي الكَوْنيَّةِ الدَّالَّةِ على عَظَمَتي، الَّذينَ يُعجَبونَ بأنفُسِهم؛ فيَرُدُّونَ الحقَّ، ويَحتقِرونَ الخَلْقَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٣-٤٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٣)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤- ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٤).

حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ * أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٧].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يدخُلُ الجنَّةَ مَنْ كان في قلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قال رجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يكونَ ثوبُه حَسَنًا، ونَعْلُه حسنةً، قال: إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ؛ الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ[1]، وغَمْطُ النَّاسِ[2]))[3].

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾.

أي: وإنْ يرَ هؤلاءِ المتكبِّرون كُلَّ حُجَّةٍ للهِ تدلُّ على أنَّه المُستحِقُّ للعبادةِ

(١) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).
(٢) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتقارُهم. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).
(٣) رواه مسلم (٩١).

وحْدَه، لا يُؤمِنوا بها، سواءٌ كانت آيةً مُنزَّلةً، أو آيةً كَوْنيَّةً، أو معجزةً خارقةً(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ * وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٢- ١٥].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

أي: وإنْ يرَ هؤلاءِ المتكبِّرونَ طريقَ الهُدى ظاهرًا لهم، لا يسلُكوه، ولا يَرْغَبوا فيه(٢).

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).
قال ابنُ عاشور: (والرُّشْدُ: الصَّلاحُ، وفعْلُ النَّافعِ... والمرادُ به هنا: الشيءُ الصَّالحُ كلُّه من الإيمان والأعمالِ الصَّالحةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥).

أي: وإنْ يرَ هؤلاءِ المتكبِّرونَ طريقَ الضَّلالِ ظاهرًا لهم، يَسلُكوه، ويَرْغَبوا فيه[١].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

أي: صرَفْنا المتكبِّرينَ عن فَهْمِ آياتِنا الشَّرعيَّةِ والكَوْنيَّةِ، هو عُقوبةٌ منَّا لهم بسببِ تكذيبِهم بها[٢].

﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

أي: وكان الكافرون مُعْرِضينَ عن تلك الآياتِ، لا يَتدبَّرونها، ولا يتفكَّرون فيها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).
قال ابنُ عاشور: (والغَيُّ: الفساد والضَّلالُ... فالمعنى: إنْ يُدرِكوا الشَّيءَ الصَّالحَ لم يعملوا به؛ لغلبةِ الهوَى على قُلوبِهم، وإن يُدْرِكوا الفسادَ عَمِلوا به لغَلَبةِ الهوَى). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥).
قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أنَّهم ابتدؤوا بالتكذيبِ، ولم ينظروا، ولم يهتمُّوا بالتأمُّلِ في الآيات، فداموا على الكِبْرِ وما معه، فصرَفَ الله قلوبَهم عن الانتِفاع بالآيات، وليس المرادُ الإخبارَ بأنَّهم حصَلَ منهم التكذيبُ؛ لأنَّ ذلك قد عُلِمَ من قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٧).
ذهب أبو حيَّان، والسعديُّ إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ معطوفٌ على ما قَبْلَه؛ فيكون سببُ الصَّرْفِ عن فَهْمِ الآياتِ هو التَّكذيبَ بها والغفلةَ عنها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).
وقيل: يَحتمِلُ أن الصَّرْفَ سببُه التكذيبُ، ويكون قولُه: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ استئنافَ إخبارٍ منه تعالى عنهم، أي: مِن شأنِهم أنَّهم كانوا غافلين عن الآيات وتدبُّرِها؛ فأَوْرَثَتْهم الغفلةُ التكذيبَ بها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٤ - ١٧٥).

كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ الله تعالى ما لِأَجْلِه صَرَفَ المتكبِّرينَ عن آياتِه بقولِه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، بيَّنَ حالَ أولئك المكذِّبينَ، فقد كان يجوزُ أنْ يُظَنَّ أنهم يَختلِفونَ في بابِ العِقابِ؛ لأنَّ فيهم مَنْ يعمَلُ بعضَ أعمالِ البِرِّ؛ فبيَّنَ تعالى حالَ جميعِهم، سواءٌ كان مُتكبِّرًا أو مُتواضِعًا، أو كان قليلَ الإحسانِ أو كثيرَ الإحسانِ، فبيَّنَ تعالى أنَّ أعمالَهم مُحْبَطَةٌ[1].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾.

أي: والَّذينَ كذَّبوا بحُجَجِنا وأدِلَّتِنا، وأنْكَروا البَعْثَ بعْدَ الموتِ، ولِقاءَنا في الآخرةِ، واستمرُّوا على ذلك إلى مماتِهم؛ بَطَلَتْ أعمالُهم وفَسَدَتْ، وذهبَتْ كأنَّها لم تَكُنْ[2].

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

أي: لا نُجازي المكذِّبينَ بآياتي ولِقائي إلَّا بما يَستحِقُّونَ من العِقابِ على أعمالِهم السَّيِّئةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٧-٢٨].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢١-٣٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

القلبُ لا يَدخُلُه حَقائقُ الإيمانِ إذا كان فيه ما يُنجِّسُه مِنَ الكِبْرِ والحَسَدِ؛ فإنَّ مِن شأنِ الكِبْرِ أنْ يَصرِفَ أهلَه عن النَّظرِ والاستدلالِ على الحقِّ والهُدى لِأَجْلِ اتِّباعِه؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٨).

فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ فالَّذينَ يتكبَّرونَ مُعْجَبونَ بأنفُسِهم، يَعُدُّونَ أنفُسَهم عُظَماءَ؛ فلا يأتمِرونَ لآمِرٍ، ولا ينتصِحونَ لناصِحٍ(١).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ إشعارٌ بأنَّ الصَّرْفَ سببُه هذا التكبُّرُ، وفي قولِه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا﴾ إعْلامٌ بأنَّ ذلك الصَّرْفَ سببُه التَّكذيبُ، والجَمْعُ بينهما أنَّ التَّكبُّرَ سببٌ أوَّلُ، نَشَأَ عنه التَّكذيبُ؛ فنِسْبَةُ الصَّرْفِ إلى السَّببِ الأوَّلِ وإلى ما تَسَبَّبَ عنه(٢).

٢- قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، زيادةُ قولِه: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ لِتَفْضِيحِ تكبُّرِهم، والتَّشهيرِ بهم بأنَّ كِبْرَهم مظروفٌ في الأرضِ، أي: ليس هو خَفِيًّا مُقتصِرًا على أنفُسِهم، بل هو مَبْثوثٌ في الأرضِ، أي: مَبْثوثٌ أَثَرُه، فهو تكبُّرٌ شائعٌ في بِقاعِ الأرضِ؛ كقولِه: ﴿يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣]، وقولِه: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]، وقولِه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾(٣) [الإسراء: ٣٧].

٣- قال تعالى: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، الغفلةُ انصرافُ العقلِ والذِّهْنِ عن تذكُّرِ شيءٍ بقَصْدٍ أو بغيرِ قَصْدٍ، وأكثرُ استعمالِه في القُرآنِ فيما كان عن قَصْدٍ بإعراضٍ وتشاغُلٍ، والمذمومُ منها ما كان عن قَصْدٍ، وهو مَناطُ التَّكْليفِ والمؤاخَذةِ، فأمَّا الغفلةُ عن غيرِ قَصْدٍ فلا مؤاخَذةَ عليها، وهي المقصودُ من قولِ عُلماءِ أصولِ الفِقهِ: يَمْتَنِعُ تكليفُ الغافِلِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٤- ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٧).

بَلاغةُ الآيتَين:

١ - قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ على احتمالِ أنَّ هذِه الآيةَ تَكملةٌ لِمَا خاطَبَ اللهُ به موسَى وقومَه، فجملةُ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ بَني إسرائيلَ كانوا يَهابون أولئك الأقوامَ ويَخشونَ، فكأنَّهم تساءَلوا: كيف تُرينا دارَهم، وتَعِدُنا بها؟! وهو مَسوقٌ لتحذيرِهم عن التكبُّرِ الموجِبِ لعدمِ التفكُّرِ في الآياتِ، أو تكونُ الجُملةُ جوابًا لسؤالِ مَن يقول: إذا دَخَلْنا أرضَ العدوِّ فلعلَّهم يُؤمِنونَ بهَدْينا، ويتَّبعون دِينَنا؛ فلا نحتاجُ إلى قِتالهم، فأُجيبوا بأنَّ اللهَ يَصرِفُهم عن اتِّباعِ آياتِه؛ لأنَّهم جُبِلوا على التكبُّر في الأرضِ، والإعراضِ عن الآياتِ. وعلى احتمالِ أنْ تكونَ جملةُ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ مِن خِطابِ اللهِ تعالى لرسولِه مُحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فتكونُ الجملةُ مُعترضةً في أثناءِ قِصَّةِ بني إسرائيل، بمُناسَبةِ قولِه: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ تعريضًا بأنَّ حال مُشركي العربِ كحالِ أولئك الفاسِقينَ، وتصريحًا بسببِ إدامتِهم العنادَ والإعراضَ عن الإيمانِ؛ فتكونُ الجملةُ مُستأنَفةً استئنافًا ابتدائيًّا[(١)].

- وتقديمُ المجرورِ ﴿عَنْ آيَاتِيَ﴾ على مَفعولِ ﴿سَأَصْرِفُ﴾؛ للاهتمامِ بالآياتِ، ولأنَّ ذِكْرَه عقبَ الفعلِ المتعلِّقِ هو به أَحسنُ[(٢)].

- وتعريفُ المصروفِينَ عن الآياتِ بطريقِ الموصوليَّةِ ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ...﴾؛ للإيماءِ بالصِّلةِ إلى عِلَّةِ الصَّرْف، وهي ما تَضمَّنَتْه الصِّلاتُ المذكورةُ؛ لأنَّ مَن صارتْ تِلك الصفاتُ حالاتٍ له لا يَنصُرُه اللهُ، أو لأنَّه إذا صارَ ذلك حالَه رِينَ على قَلْبِه؛ فصُرِفَ قَلبُه عن إدراكِ دَلالةِ الآياتِ، وزالتْ منه الأهليَّةُ لذلك الفَهْمِ الشَّريفِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٣- ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ جاءَ لتشنيعِ التَّكبُّرِ بذِكرِ ما هو صِفةٌ لازمةٌ له، وهو مُغايَرةُ الحقِّ، أي: باطل، وهي حالٌ لازمةٌ للتكبُّرِ، كاشِفةٌ لوصْفِه؛ إذ التكبُّرُ لا يكونُ بحقٍّ في جانبِ الخَلْقِ، وإنَّما هو وصْفٌ لله بحقٍّ؛ لأنَّه العظيمُ على كلِّ موجودٍ[1].

٢- قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، واجْتُلِبت (أنَّ) الدالة على المصدريَّة والتوكيدِ؛ لتحقيقِ هذا التسبُّبِ وتأكيدِه؛ لأنَّه محلُّ غرابةٍ[2].

- وصِيغَ الإخبارُ عنهم بصِيغةِ ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ غَفلتِهم، وللتنبيهِ على أنَّ غَفلتَهم عن قصْدٍ، وكونِها دأبًا لهم، وإنَّما تكون كذلك إذا كانوا قد الْتَزَموها، فأمَّا لو كانتْ عن غيرِ قَصدٍ؛ فإنَّها قد تَعترِيهم وقد تُفارِقُهم[3].

٣- قوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملةُ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، جَوابًا عن سؤالٍ ينشأُ عن قوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾؛ إذ قدْ يقولُ سائلٌ: كيف تَحبَطُ أعمالُهم الصالحةُ؟ فأُجيبَ بأنَّهم جُوزوا كما كانوا يَعملون، والاستفهامُ بـ﴿هَلْ﴾ مُشرَبٌ معنى النَّفي[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٨).

الآيتان (١٤٨-١٤٩)

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿حُلِيِّهِمْ﴾: الحُلِيُّ جَمْعُ الحَلْي، وهو اسمٌ لكلِّ ما يُتَزَيَّنُ به مِن مَصاغِ الذَّهَبِ والفِضَّة، وأصْلُ (حلي): تحسينُ الشيءِ[١].

﴿خُوَارٌ﴾: أي: صوتُ البَقَرِ، وقد يُستعارُ للبَعيرِ، وأَصْلُ (خور): يَدُلُّ عَلَى صَوْتٍ[٢].

﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾: أي: نَدِموا، يُقالُ: سُقِطَ في يَدِ فُلانٍ، إذا نَدِمَ، وأصْلُ (سقط): يَدُلُّ على الوقوعِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ قومَ موسى صَنَعوا بعْدَ ذَهابِه لِميقاتِ ربِّه من حُلِيِّهم عِجْلًا جَسَدًا لا رُوحَ فيه، له صَوْتُ البقَرِ، فعبَدوه مِن دونِ اللهِ؛ ألم يَرَ هؤلاءِ القومُ أنَّ هذا العِجْلَ الَّذي عبَدوه لا يُكلِّمُهم، ولا يُرشِدُهم إلى خيرٍ؟! اتَّخذوه وكانوا ظالِمين.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

ولَمَّا نَدِمَ بنو إسرائيلَ نَدَمًا شديدًا على اتِّخاذِهم العِجْلَ معبودًا مِن دونِ اللهِ، بعْدَ عَوْدَةِ موسى عليه السَّلامُ إليهم، ورَأَوْا أنَّهم قد انحرَفوا عن الطَّريقِ القويمِ؛ قالوا: لَئِنْ لم يرحمْنا ربُّنا ويغفِرْ لنا ذُنوبَنا لَنكُونَنَّ من الخاسِرين.

تَفسيرُ الآيتَيْنِ:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى فيما تقدَّمَ قِصَّةَ المُناجاةِ، وما حصَلَ فيها من الآياتِ والعِبَرِ، ذَكَرَ في هذه الآيةِ ما كان من قَومِ موسى في مُدَّةِ مَغِيبِه في المناجاةِ من الإشْراكِ؛ لِمَا بَيْنَ السِّياقَيْنِ مِنَ العَلاقةِ والاشتراكِ في الزَّمَنِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾.

أي: وصَنَعَ بنو إسرائيلَ مِن بعْدِ ذَهابِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى مِيقاتِ ربِّه، صَنَعوا مِن مَصُوغِهِمُ الَّذي يَتزيَّنونَ به عِجْلًا، وهو وَلَدُ البقرةِ، فعبَدوه مِن دونِ اللهِ سُبحانَه وتعالى[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٦)، ((المخصص)) لابن سيده (١/ ٣٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥- ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

قال الشنقيطيُّ: (أصْلُ هذا الحُلِيِّ للقِبْطِ... فاتَّخذ السامريُّ العجلَ من ذلك الحُلِيِّ، وهنا قال: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾، قال بعضُ العلماء: لأنَّ اللهَ أورَثَهم أموالَهم بعدَهم، كما في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]؛ ولذا أضافَه إليهم بعد هلاكِ فرعونَ وقومِه. وقال بعضُ العلماءِ: الإضافةُ تقَعُ بأدْنى مُلابَسةٍ، فلمَّا كان تحتَ أيديهم عاريَّةً عِندهم أضافَه إليهم بهذه الملابسةِ، وقد بيَّن في «طه» أنَّه مِن زينةِ قومٍ آخرين كما ذَكَر عن الإسرائيليين أنَّهم =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

وقال سُبحانَه حاكيًا قولَ بني إسرائيلَ: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٧-٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٣-٨٥].

﴿جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

أي: كان العِجْلُ الَّذي عبدَه قومُ موسى جِسْمًا، لا رُوحَ فيه، له صَوتُ البقرِ(١).

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

= قالوا: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]، وهي حُلِيُّ القِبْطِ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

قال ابنُ كثير: (وقد اختَلف المفسِّرون في هذا العجلِ: هل صار لحمًا ودمًا له خُوارٌ، أو استمرَّ على كونه من ذَهَبٍ إلَّا أنه يَدخُلُ فيه الهواءُ فيُصوِّتُ كالبقرِ؛ على قولَيْنِ، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٥-١٦٦).

وقال ابنُ عاشور: (المراد أنَّه كجِسمِ العجلِ في الصُّورة والمقدارِ، إلَّا أنه ليس بحيٍّ، وما وقَعَ في القصص أنَّه كان لحمًا ودمًا ويأكُلُ ويَشرَبُ؛ فهو مِن وَضْعِ القصَّاصين، وكيف والقرآن يقول: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾، ويقول: ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اتَّخذَ قومُ موسى العِجلَ، بيَّن اللهُ تعالى لهم صِفاتِ النَّقْصِ الَّتي تُنافي الألوهيَّةَ، فقال[1]:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

أي: ألم يَرَ هؤلاء القومُ الَّذينَ عبَدوا العِجلَ المصْنوعَ من حُلِيِّهم أنَّه لا يستطيع أنْ يتحدَّثَ إليهم، ولا يُرشِدَهم إلى أيِّ خيرٍ؟! فكيف اتَّخذوه إلهًا، ومِن صِفاتِ المعبودِ الحقِّ أنَّه يتكلَّمُ ويَهدي[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٨٩- ٩١].

﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

أي: اتَّخذَ قومُ موسى العِجلَ إلهًا، وكانوا بعِبادتِهم له ظالِمين لأنفُسِهم؛ حيثُ جعلوا العِبادةَ لمخلوقٍ، فوَضعوها في غيرِ مَوْضِعِها[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٧- ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٦٠)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٨- ١٦٩).

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾.

أي: ولـمَّا نَدِمَ بنو إسرائيلَ ندمًا شديدًا على عِبادتِهم العِجلَ بعْدَ رُجوعِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إليهم(١).

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾.

أي: وعَلِمَ قومُ موسى أنَّهم قدِ انحرَفوا عن طَريقِ الحقِّ(٢).

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

أي: قالوا حينذاكَ تائبينَ إلى اللهِ تعالى من عِبادةِ العِجلِ: واللهِ لَئِنْ لم يَتداركْنا ربُّنا برحمتِه؛ بالتَّوبةِ، والتَّوفيقِ للأعمالِ الصَّالحةِ، ويَغفِرْ لنا ذُنوبَنا، لَنكُونَنَّ من الهالِكينَ(٣).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ ولا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ فيه دليلٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٩، ١٧٢).
قال الرازي: (اتَّفقوا على أنَّ المرادَ من قوله: ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أنَّه اشتدَّ نَدَمُهم على عبادةِ العجلِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١١- ١١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٧٢).

على أنَّ مَنْ أنْكَر كلامَ اللهِ فقدْ أنْكَرَ خصائِصَ إلهيَّةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ ذَكَرَ أنَّ عدمَ الكلامِ دَليلٌ على عدمِ صلاحيةِ الَّذي لا يتكلَّمُ للإلهيَّةِ(١)، وفيه دليلٌ أيضًا على أنَّ عدمَ التَّكلُّمِ وعدمَ الهِدايةِ نَقْصٌ، وأنَّ الَّذي يَتكلَّمُ ويَهدي أكْمَلُ ممَّنْ لا يتكلَّمُ ولا يَهدي، والرَّبُّ أحَقُّ بالكمالِ(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، سَلَبَ تعالى عنه هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ دونَ باقي أوصافِ الإلهيَّةِ؛ لأنَّ انتِفاءَ التَّكليمِ يَستلزِمُ انتِفاءَ العِلْمِ، وانتِفاءَ الهِدايةِ إلى سبيلٍ يَستلزِمُ انتفاءَ القُدرةِ، وانتفاءَ هذَيْنِ الوصفَيْنِ- وهما العِلْمُ والقُدْرَةُ- يَستلزِمانِ باقيَ الأوصافِ؛ فلذلك خُصَّ هذانِ الوَصْفانِ بانتفائِهما(٣).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾،كان مُقتضى الظَّاهرِ في ترتيبِ حِكايةِ الحوادثِ أنْ يتأخَّرَ قولُه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ...﴾ الآيَةَ، عن قولِه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾؛ لأنَّهم ما سُقِطَ في أيديهم إلَّا بعْدَ أنْ رجَعَ موسى، ورَأَوْا فَرْطَ غضبِه، وسمِعوا توبيخَه أخاه وإيَّاهم، وإنَّما خُولِفَ مُقتضى التَّرتيبِ؛ تعجيلًا بِذِكْرِ ما كان لاتِّخاذِهم العجلَ من عاقبةِ النَّدامةِ وتَبيُّنِ الضَّلالةِ؛ موعظةً للسَّامعين؛ لكيلَا يَعْجَلوا في التَّحوُّلِ عن سُنَّتِهم حتَّى يتبيَّنوا عواقِبَ ما هُمْ مُتحوِّلونَ إليه(٤).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨١- ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٢).
(٢) يُنظر: ((الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال)) لابن تيمية (ص: ١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١١).

الْخَاسِرِينَ﴾، لَمَّا كان السِّيَاقُ في ذِكْرِ إسراعِهم في الفِسْقِ، لم يُذْكَرْ قَبولُ توبتِهم كما في سُورةِ البقرةِ[١].

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

- قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لبيانِ فَسادِ نظرهم في اعتقادهم، والاستفهامُ للتقريرِ وللتعجُّبِ مِن حالِهم[٢]. وفيه تَقريعٌ لهم على فَرْطِ ضَلالِهم، وإفراطِهم بالنَّظرِ؛ لأنَّ هذا العجلَ لا يُمكِنُه أن يَتكلَّمَ بصوابٍ، ولا يَهدِي إلى رَشَدٍ، ولا يَقدِر على ذلك، ومَن كان كذلك كان ناقصًا عاجزًا لا يَصلُحُ أنْ يُعبَدَ[٣].

- وقوله: ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ مؤكِّدٌ لجُملةِ ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى﴾؛ فلذلك فُصِلَت، ولم تُعطَفْ عليها، والغَرَضُ من التوكيدِ في مِثلِ هذا المقامِ هو التَّكريرُ لأجْلِ التعجُّبِ[٤].

٢- قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ فيه كِنايةٌ عن اشتِدادِ نَدمِهم؛ فإنَّ النَّادمَ المتحسِّرَ على شيءٍ يَعضُّ يدَه غمًّا فتَصيرُ يدُه مسقوطًا فيها؛ لأنَّ فاهَ قدْ وقَعَ فيها[٥]. وقيل معناها: سَقَط في يدِه ساقطٌ فأَبطَلَ حركةَ يدِه؛ إذ المقصودُ أنَّ حركةَ يدِه تعطَّلت بسببٍ غيرِ معلومٍ، إلَّا بأنَّه شيءٌ دخَلَ في يدِه فصيَّرها عاجزةً عن العملِ، وذلك كنايةٌ عن كونِه قد فَجَأَه ما أوجبَ حيرتَه في أمْرِه، واستُعمِلَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٣/ ٤٥٩).

في الآيةِ في معنى النَّدمِ، وتبيُّنِ الخطإِ لهم[١].

٣- قولُهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ فيه تأكيدُ التَّعليقِ الشرطيِّ بالقَسَمِ الذي وطَّأتْه اللام؛ لأنَّهم قد علِموا أنهم أخطؤُوا خطيئةً عظيمة، وقدَّموا الرحمةَ على المغفرةِ؛ لأنَّها سببُها، ومجيءُ خبرِ (كان) مقترنًا بحَرْف ﴿مِن﴾ التبعيضيَّة؛ لأنَّ ذلك أقوَى في إثباتِ الخَسارةِ مِن (لنكوننَّ خاسرين)[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١١٣).

الآيات (١٥٠-١٥٣)

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿أَسِفًا﴾: أي: حزينًا، وقيل: شديدَ الغَضَبِ، يُقالُ: آسَفَني فأَسِفْتُ، أي: أغضبَني فغَضِبْتُ، والأَسَفُ: حزنٌ مَعَ غضَبٍ، وأَصْلُ (أسف): يدُلُّ على الفَوتِ والتَّلَهُّفِ(١).

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾: أي: فلا تَسُرَّهم بما أَكْرَهُ؛ فالشَّماتَةُ: السُّرورُ بمكارِه الأَعداءِ، والفَرَحُ بِبَلِيَّةِ مَنْ تُعادِيه ويُعاديكَ(٢).

﴿وَذِلَّةٌ﴾: الذِّلَّةُ: الصَّغَارُ والهوانُ، وأَصْلُ الذُّلِّ: الخُضوعُ، والاستِكانةُ، واللِّينُ، وهو ضِدُّ العِزِّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ٧٨).

مُشْكِلُ الإعراب:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾

﴿ابْنَ أُمَّ﴾: في إعرابِها وجهانِ؛ الأوَّلُ: أنَّه مُنادًى مبنيٌّ على الضَّمِّ المُقدَّرِ، في محلِّ نصْبٍ، ومَنَعَ من ظُهورِ الضَّمِّ على آخِرِه حَركةُ البِناءِ الأصليِّ، وهو فتْحُ الجُزأينِ؛ فهو تركيبٌ أشْبَهَ تركيبَ خَمْسَةَ عَشَرَ. الثَّاني: أنَّ ﴿ابْنَ﴾ مُنادًى منصوبٌ، وهو مُضافٌ، و﴿أُمَّ﴾ مُضافٌ إليه مجرورٌ بالكَسرةِ المُقدَّرةِ على الألفِ المحذوفةِ المنقلِبةِ عن الياءِ، وقدْ دَلَّ على الألفِ المحذوفةِ الفتحةُ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لَمَّا رجَعَ موسى من مُناجاةِ ربِّه جلَّ وعلا إلى قومِه، وهو شديدُ الغضَبِ حزينًا؛ لأنَّ اللهَ قد أخبَرَه أنَّ قومَه عبَدوا العِجْلَ مِنْ بعْدِه، قال لهم: بِئْسَ الخِلافةُ الَّتي خَلَفْتُموني مِنْ بَعْدِي؛ أَسْتَعْجَلْتُمْ مَجيئي إليكم من مُناجاةِ اللهِ قبْلَ الوقتِ الَّذي قدَّرَه اللهُ تعالى لِتَمامِ المَوْعِدِ؟! ورَمَى موسى عليه السَّلامُ الألواحَ، وأَخَذَ يَجُرُّ شَعْرَ أخيه هارونَ بشِدَّةٍ وغَضَبٍ، فقال له هارونُ: يا ابنَ أُمِّي، إنَّ القومَ الَّذينَ عبَدوا العِجْلَ استَضْعَفوني، وأَوْشَكوا أنْ يقتُلوني، فلا تُشْمِتْ بي الأعداءَ عَبَدَةَ العَجلِ بضَرْبي وإهانَتي، ولا تجعَلْني مع القومِ الظَّالمينَ.

قال موسى عليه السَّلام: ربِّ اغفِرْ لي ولأخي ذُنوبَنا، وأدخِلْنا في رحمتِكَ، وأنتَ أرحَمُ الرَّاحمينَ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ الَّذينَ اتَّخذوا العجلَ سيُصيبُهم غضَبٌ مِنَ اللهِ، وهوانٌ في الحياةِ الدُّنيا، وكذلك يَجزي سُبحانَه المفتَرين، والَّذينَ عمِلوا السَّيِّئاتِ، ثمَّ أنابوا

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٣٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٥- ٥٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٦٧)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٣٩٧).

إلى ربِّهم، ونَدِموا وأقْلَعوا عنها، وآمَنوا، سيَغفِرُ اللهُ لهم مِنْ بَعْدِها ويرحمُهم؛ فإنَّه غَفورٌ رَحيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾.

أي: ولَمَّا رجَعَ موسى من مُناجاةِ اللهِ إلى قومِه بني إسرائيلَ، وهو شديدُ الغضَبِ حزينًا، بعْدَ أنْ أعلَمَه اللهُ بعبادةِ قومِه العِجْلَ، عَقِبَ انصِرافِه عنهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه: ٨٣-٨٦].

﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٣).

قال الواحديُّ: (اختلَفوا في معنى الأسِفِ؛ فقيل: الأسِفُ: الشَّديدُ الغضَبُ، وهو قول أبي الدرداء، و...ابن عباس، واختيار الزجاج، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، أي: أغضبونا، واختاره ابن قُتَيْبَة... وقال ابنُ عباس والسُّدِّيُّ والحسن: الآسِفُ: الحزينُ... والقولان مُتقاربان؛ لأن الغضبَ من الحزن، والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تَكرَه ممَّن هو دونَك غضِبتَ، وإذا جاءك ممَّن هو فوقَك حزِنتَ، يُسمَّى أحدُهما: حزنًا، والآخرُ: غضبًا، وأصْلُهما أنْ يُصيبَك ما تكرَه). ((البسيط)) (٩/ ٣٦٥- ٣٦٦). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧٨)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٦).

أي: بِئْسَ الحالُ والفِعْلُ الَّذي قُمْتُمُوه مَقامي بعِبادتِكم العجلَ بعْدَ انصِرافي عنكم! وقدْ كنْتُ آمُرُكم بتوحيدِ اللهِ، وأُحَذِّرُكم من الشِّرْكِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٦- ٨].

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.

أي: هل استعجلتُم مَجيئي إليكم من مُناجاةِ اللهِ قبْلَ الوقتِ الَّذي قدَّرَه اللهُ تعالى لِتَمامِ هذا الموعِدِ، ولم تَنتظِروني، فعبَدْتُم العِجلَ، ولم تُحافظوا على ما وصَّيْتُكم به من عِبادةِ اللهِ حتَّى أرجِعَ إليكم بالخيرِ الَّذي أتَيْتُكم به مِن عِندِ اللهِ تعالى[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٠)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (١/ ٥٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٧٩- ١٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١).

رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦].

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾.

أي: ورَمى موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الألواحَ في الأرضِ؛ غَضَبًا على قومِه حينَ رآهم يَعبُدونَ العِجلَ[١].

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ليس الخَبَرُ كالمُعايَنَةِ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخبرَ موسى بما صَنَعَ قومُه في العِجلِ، فَلَمْ يُلْقِ الألواحَ، فلمَّا عايَنَ ما صَنَعوا أَلْقى الألواحَ))[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥١، ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٥).

قال الرازيُّ: (ليس في القرآن إلَّا أنَّه أَلْقى الألواحَ، فأمَّا أنَّه ألْقاها بحيثُ تَكسَّرَتْ فهذا ليس في القُرآن). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٢).

وقال ابنُ عاشور: (وقَعَ في التَّوراةِ أنَّ الألواحَ تكسَّرَتْ حين ألقاها، وليس في القرآنِ ما يدُلُّ على ذلك سِوى أنَّ التعبيرَ بالإلقاء الذي هو الرَّميُ، وما رُوِيَ من أنَّ الألواح كانت من حَجَرٍ، يقتضي أنها اعتراها انكسارٌ، ولكنَّ ذلك الانكسارَ لا يُذهب ما احتوتْ عليه من الكتابة، وأمَّا ما رُوِيَ أنها لمَّا تكسَّرت ذهب سِتَّةُ أسباعِها، أو ذهب تفصيلُها وبَقِيَتْ موعظتُها، فهو مِن وَضْعِ القصَّاصين، والله تعالى يقول: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٥-١١٦).

وقال الشنقيطيُّ: (وكثيرٌ من المفسِّرين يقولون: إنَّه ألقاها إلقاءً قويًّا حتى تكسَّرت، وأنه رُفِعَ شيءٌ منها مع المكسَّرِ منها. وكلُّ هذا لا دليلَ عليه، ولم يَقُمْ عليه دليلٌ صحيحٌ لا في كتاب ولا من سُنَّةٍ، وظاهرُ القرآنِ أنَّها لم تتكسَّرْ، ولم يَضِعْ منها شيء؛ لأنه قال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٤]، و(أل) هنا عَهْدِيَّةٌ، وهي الألواح المعهودةُ التي ألقاها). ((العذب النمير)) (٤/ ١٨١- ١٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤٧)، وعبد الله بن أحمد في ((السنة)) (١١١٤)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٢١٣).

قال ابنُ حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (٢/ ١٣٩): له شاهدٌ. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر =

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾.

أي: وأَمْسَكَ موسى بشَعْرِ رأسِ أخيه هارونَ، وجعَلَ يَسحَبُه بشِدَّةٍ؛ غَضَبًا عليه(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢-٩٣].

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي﴾.

أي: قال هارونُ مُستعطِفًا موسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ: يا ابنَ أُمِّي، إنَّ الَّذينَ عبَدوا العِجلَ اعتقدوا أنِّي ضَعيفٌ واحتقَروني؛ فلَمْ يُطيعوني عندما نَهَيْتُهم عن عِبادتِه(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩٠-٩١].

﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾.

= في ((مسند أحمد)) (٤/ ١٤٧). وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٥٣٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٥).

قيل: غضِبَ موسى من هارونَ؛ لتَرْكِه اللَّحاقَ به إلى الطُّور، وإقامتِه مع بني إسرائيلَ بعد عبادتِهم العِجلَ. وهذا قول ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٧).

وقيل: خَشْيَةَ أن يكونَ قد قَصَّرَ في نَهْيِهم. وهذا قولُ ابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧).

وقيل: هذا تأنيبٌ لهارونَ على عدمِ أخْذِه بالشِّدَّةِ على عَبَدَةِ العِجلِ، واقتصارِه على تغييرِ ذلك عليهم بالقول. وهو قولُ ابنِ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

أي: وقال هارونُ لأخيه موسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ مُبيِّنًا عُذْرًا آخَرَ: وقد أَوْشَكَ بنو إسرائيلَ على قَتْلي حين نَهَيْتُهم عن عبادةِ العِجلِ؛ فلا تَظُنَّ بي تقصيرًا[1].

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾.

أي: قال هارونُ لموسى ناهيًا له عن استمرارِه في أَخْذِه بشَعْرِه: فلا تَسُرَّ أعدائي عَبَدَةَ العِجلِ بضَرْبي وإهانَتي[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: ولا تَجعلْني في غضَبِكَ عليَّ، وعُقوبتِكَ لي، مع الَّذينَ عبَدوا العِجلَ، وفي عِدادِهم، والحالُ أنَّني لم أَعْصِ أمْرَكَ كما فعلوا[3].

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اعْتَذَرَ هارون إلى موسى عليهما السلام، وتَحَقَّقَ مُوسَى عليه السَّلامُ براءةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).
قال الشوكاني: (أي: إني لم أُطِقْ تغييرَ ما فَعَلوه؛ لهذينِ الأمرينِ: استضعافِهم لي، ومقاربتِهم لقتْلي). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٣). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٧- ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

ساحَتِه، وتبيَّنَ له عُذْرُه، وعَلِمَ أنَّه لم يُفرِّطْ في الواجبِ الَّذي كان عليه- دعا[1]، فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾؛ لِيُرْضيَ أخاه، ويُظهِرَ لأهلِ الشَّماتَةِ رِضاه عنه؛ فلا يَتِمَّ لهم شَماتتُهم، واستغفَرَ لنفسِه ممَّا فَرَطَ منه إلى أخيه، ولِأخيه أنْ عسَى فَرَّطَ في حِين الخِلافةِ، وطَلَبَ ألَّا يتفرَّقا عن رحمتِه، ولا تَزالَ مُتضمِّنَةً لهما في الدُّنيا والآخرةِ[2].

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾.

أي: قال موسى داعيًا ربَّه: ربِّ اغفِرْ لي ذَنْبي فيما فعلْتُ بأخِي، وبَدَرَ منِّي من غضَبٍ وحِدَّةٍ عليه، واغفِرْ لأخِي هارونَ[3].

﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

أي: وارحمْنا برَحمتِكَ الواسِعةِ، واجعَلْها مُحيطَةً بنا من كُلِّ جانِبٍ، وأنتَ أرحَمُ بعبادِكَ من كلِّ راحِمٍ[4].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ (١٥٢) ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

قال ابنُ عطية: (استغفَرَ موسى من فِعْلِه مع أخيه، ومن عَجَلَتِه في إلقاءِ الألواحِ، واستغفَرَ لأخيه من فِعْلِه في الصَّبرِ لبني إسرائيلَ، ويُمكِنُ بأنَّ الاستغفارَ كان لغيرِ هذا ممَّا لا نعلمُه، والله أعلم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٨).

وذهب الرازيُّ، وابنُ عاشور إلى أنَّ طلب موسى المغفرةَ لأخيه كان لِمَا عسى أن يكونَ قد ظهَر من هارونَ مِن تَفريطٍ أو تساهُلٍ في ردْعِ عَبَدَةِ العِجلِ عن ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾.

أي: إنَّ الَّذينَ اتَّخذوا العِجلَ إلهًا سيُصيبُهم غضَبٌ من اللهِ(١)، فلم يقبلِ اللهُ تعالى لهم توبةً، حتى قتلَ بعضُهم بعضًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وقيل: غَضَبُ اللهِ هو عذابُه في الآخرةِ لِمَنْ لم يَتُبْ منهم من عِبادةِ العِجلِ(٣).

﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وسَيَنالُ الَّذينَ عبَدوا العِجلَ هوانٌ في حَياتِهم الدُّنيا، فيَصيرونَ مَغلوبينَ؛ عقوبةً من اللهِ لهم بسببِ كُفرِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢)، ((شمس العلوم)) لنشوان الحميري (١٠/ ٦٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٩).

(٢) ممَّن اختارَ هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢- ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧).

قال الشوكاني: (والأَوْلَى أنْ يُقيَّدَ الغضَبُ والذِّلَّةُ بالدُّنيا؛ لقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وإنَّ ذلك مُخْتَصٌّ بالمُتَّخِذين للعِجلِ إلهًا لا لِمَنْ بعدَهم من ذَرَارِيِّهِمْ، ومُجرَّدُ ما أُمِروا به مِن قتْلِ أنفسِهم هو غضَبٌ من الله عليهم، وبه يَصيرون أذِلَّاءَ، وكذلك خروجُهم من دِيارهم هو مِن غضَبِ الله عليهم، وبه يصيرون أذِلَّاءَ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٤- ٢٨٥).

(٣) ممَّن اختار هذا المعنى: الواحدي، والبغوي، يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤١٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢- ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٨٤).

قال ابنُ عاشور: (الذِّلَّةُ: خضوعٌ في النَّفسِ، واستِكانةٌ مِن جرَّاءِ العَجْزِ عن الدَّفعِ، فمعنى نَيْلِ الذِّلَّة إيَّاهم: أنَّهم يَصيرون مغلوبين لِمَنْ يغلِبُهم؛ فقد يكون ذلك بتسليط العدُوِّ عليهم، أو بسَلْبِ الشجاعةِ من نُفوسِهم، بحيث يكونون خائفين العدُوَّ، ولو لم يُسَلَّطْ عليهم، أو ذِلَّةُ الاغترابِ؛ =

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾.

أي: وكما جَزَيْتُ أولئك الَّذينَ عبَدوا العِجلَ بالغَضَبِ والذِّلَّةِ، نَجزي كُلَّ مَنْ كَذَبَ على اللهِ؛ فعبَدَ غيرَه، وشَرَعَ ما لم يأذَنْ به سُبحانَه[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى المُصِرِّينَ على المعصيةِ؛ عَطَفَ عليه التَّائبينَ؛ تَرغيبًا في

= إذْ حَرَمَهم اللهُ مُلْكَ الأرضِ المقدَّسةِ؛ فكانوا بلا وَطَنٍ طول حياتِهم حتَّى انقرَضَ ذلك الجيلُ كلُّه، وهذه الذِّلَّةُ عقوبةٌ دُنيويَّةٌ قد لا تمحوها التوبةُ، فإن التوبةَ إنما تقتضي العفوَ عن عقابِ التكليفِ، ولا تَقتضي تَرْكَ المؤاخَذةِ بمصائبِ الدُّنيا؛ لأنَّ العقوباتِ الدُّنيويَّةَ مُسَبَّباتٌ تنشأُ عن أسبابِها، فلا يَلْزَمُ أن ترفعَها التوبةُ إلا بعنايةٍ إلهيَّةٍ خاصَّةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٩).

وقال الشِّنقيطيُّ: (قال جماعةٌ من العلماء: هذه الآيةُ من سورة الأعرافِ في طائفةٍ من بني إسرائيلَ أُشْرِبَتْ قلوبُهم حُبَّ العِجلِ، ولم يتوبوا فيمَن تاب، بل بَقُوا غيرَ تائبين، وَعَدَهم اللهُ هذا الوعيدَ، وهدَّدَهم هذا التَّهديدَ، وهذا هو الأظْهَرُ؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ أكثرَ الإسرائيليِّين تاب من عبادةِ العِجلِ تلك التوبةَ العظيمةَ، حيث قدَّموا أنفُسَهم للقتل تائبين إلى الله، الواحدُ منهم يَجُودُ بنفسِه فيُقتَلُ مرضاةً للهِ، وإنابةً إليه). ((العذب النمير)) (٤/ ١٨٤).

وذهَب بعضُ المفسِّرين إلى أن المرادَ بالذِّلَّة هاهنا: الجزيةُ، وهذا اختيارُ الواحديِّ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤١٣).

قال ابنُ عطية: (وقال بعض المفسِّرين: الذِّلَّةُ: الجِزْيَةُ، ووَجْهُ هذا القولِ أن الغضَبَ والذِّلَّةَ بَقِيَتْ في عَقِبِ هؤلاء المقصودين بها أوَّلًا، وكأنَّ المرادَ سيَنالُ أعقابَهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٣- ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف أبو قلابةَ، وسفيانُ بنُ عيينةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٧).

مِثْلِ حالِهم، فقال تعالى[(١)]:

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)﴾.

أي: والَّذينَ عمِلوا الأعمالَ السَّيِّئةَ من الشِّرْكِ والكُفْرِ والمعاصي، ثمَّ نَدِموا وأَقْلَعوا عن ذلك، وعَزَموا على ألَّا يعودوا إليه، وآمَنوا بما أَوْجَبَ اللهُ تعالى الإيمانَ به، إنَّ ربَّكَ- يا مُحَمَّدُ- مِن بعْدِ ارتكابِهم للسَّيِّئاتِ[(٢)] لَساتِرٌ عليهم أعمالَهم السَّيِّئةَ، ومُتَجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، ورَحيمٌ بهم بقَبولِ توبتِهم، وتوفيقِهم للأعمالِ الصَّالحةِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٩٢).

(٢) وهذا المعنى- وهو عَوْدُ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ على السَّيِّئاتِ وفِعْلِها- هو اختيارُ ابنِ جرير، والقرطبيِّ، وابنِ كثير، وابن عاشور، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٨٥).

وقيل: الضَّميرُ عائدٌ على التَّوبةِ من السَّيِّئاتِ. وهذا اختيارُ الواحديِّ، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٥- ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢١).

وقال الشنقيطيُّ: (﴿لَغَفُورٌ﴾، أي: كثيرُ المغفرةِ والرَّحمةِ لعبادِه). ((العذب النمير)) (٤/ ١٨٥).

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((قال اللهُ تبارَكَ وتعالى: يا ابنَ آدمَ، إنَّكَ ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني غَفَرْتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي، يا ابنَ آدمَ، لو بَلَغَتْ ذُنوبُكَ عَنانَ[1] السَّماءِ ثمَّ اسْتَغْفَرْتَني غَفَرْتُ لك ولا أُبالي، يا ابنَ آدمَ، إنَّكَ لو أَتَيْتَني بقُرابِ الأرضِ[2] خَطايا ثمَّ لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شيئًا لأَتَيْتُكَ بقُرابِها مَغْفِرَةً))[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ السَّيِّئاتِ بِأَسْرِها- صغيرِها وكبيرِها- مشتركةٌ في التَّوبةِ، وأنَّ اللهَ تعالى يَغفِرُها جميعًا بفَضْلِه ورحمتِه، وهذا مِن أعظَمِ ما يُفيدُ البِشارةَ والفَرَحَ للمُذنِبينَ التَّائبينَ[4].

٢- الإيمانُ هو الأساسُ الَّذي لا يُقْبَلُ عمَلٌ لم يُبْنَ عليه، يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5].

---

(١) العَنانُ (بفتح العين): السَّحابُ، والواحِدةُ (عَنانةٌ). ينظر: ((غريب الحديث)) للقاسم بن سلام (٤/ ٨٤)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٢٠).

(٢) بقُراب الأرضِ: أي: بما يُقارِبُ مِلأَها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٤) ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٩٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٣٠٥)، وابن شاهين في ((الترغيب في فضائل الأعمال)) (١٧٩).

صحَّحه ابنُ القيِّم في ((مدارج السالكين)) (٢/ ٢٢٥). وقال ابنُ رجب في ((جامع العلوم)) (٢/ ٤٠٠): إسنادُه لا بأسَ به، وحسَّنه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٢٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٩٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ فيه مِن اللَّطائفِ: أنَّه عبر هنا بالعجلةِ، ولم يُعبِّر بالسرعةِ؛ لأنَّه أنسبُ لِفعلِهم؛ فالعَجلةُ: التقدُّمُ بالشيءِ قبلَ وقْتِه، والسُّرعةُ: عملُه في أقلِّ أوقاتِه[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾، موسى صلواتُ اللهِ عليه لم يكُنْ ليُلْقيَ ألواحًا كتبَها اللهُ تعالى، فيها كلامُه مِن على رأسِه إلى الأرضِ اختيارًا منه لذلك، ولا كان فيه مَصلحةٌ لبني إسرائيلَ، وكذلك جَرُّهُ هارونَ بلحيتِه ورأسِه وهو أخوه، وإنَّما حَمَلَه على ذلك الغَضَبُ؛ فعَذَرَه اللهُ سُبحانَه به، ولم يَعْتِبْ عليه بما فَعَلَ؛ إذ كان مصدرُه الغضَبَ الخارجَ عن قُدْرةِ العبْدِ واختيارِه؛ فالمُتَوَلِّدُ عنه غيرُ منسوبٍ إلى اختيارِه ورِضاه به[2].

٣- كلُّ مُفترٍ على اللهِ، كاذبٍ على شَرْعِه، مُتَقَوِّلٍ عليه ما لم يَقُلْ؛ له نَصيبٌ من الغَضَبِ من اللهِ، والذُّلِّ في الحياةِ الدُّنيا، يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[3].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾، جَمَعَ ﴿السَّيِّئَاتِ﴾؛ إعلامًا بأنَّه لا يَتَعاظَمُه ذَنْبٌ، وإنْ عَظُمَ وكَثُرَ[4].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (ص: ٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٩٢).

- قوله: ﴿أَسِفًا﴾ بدون مدٍّ صِيغةُ مبالغةٍ للآسِفِ (بالمدِّ)، الذي هو اسمُ فاعلٍ للذي حلَّ به الأسفُ[١].

- وزِيادةُ ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ عَقِب ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾؛ للتذكيرِ بالبَون الشاسعِ بينَ حال الخَلف وحال المخلوفِ عنه، تصويرًا لفظاعةِ ما خَلَفوه[٢].

٢- قوله: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾

- قوله: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ مُنادًى بحذْفِ حرْف النِّداء، والنداء بهذا الوصفِ للتَّرقيقِ والاستشفاعِ، ولم يقُلْ: يا ابنَ أبي، وهما لأبٍ واحدٍ وأُمٍّ واحدةٍ؛ استِعطافًا له على نفسِه بِرَحِمِ الأُمِّ، وحُذِفَ حرفُ النِّداءِ؛ لإظهارِ ما صاحَبَ هارونَ مِن الرُّعبِ والاضطرابِ، أو لأنَّ كلامَه هذا وقَع بعدَ كلامٍ سبَقَه فيه حرفُ النِّداء[٣].

- وقوله: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ فيه تأكيدُ الخبرِ بـ(إنَّ)؛ لتحقيقِه لدَى موسى، لأنَّه بحيثُ يُتردَّدُ فيه قَبْلَ إخبارِ المُخبِر به، والتأكيدُ يَستدعيه قَبولُ الخَبرِ للتردُّدِ مِن قِبَلِ إخبارِ المخبِر به، وإنْ كان المخبِرُ لا يُظَنُّ به الكذبُ، أو لئلَّا يُظنَّ به أنَّه توهَّم ذلك مِن حالِ قومِه، وكانتْ حالُهم دونَ ذلك[٤].

٣- قوله: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ تذييلٌ، والواو للحالِ أو اعتراضيَّة، وفيه مُبالَغةٌ؛ فإنَّ ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ هو الأشدُّ رحمةً مِن كلِّ راحمٍ[٥].

٤- قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٦)

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١١٨).

- قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ تأكيدٌ لمفادِ المُهلة التي أفادَها حرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾، وهذا تعريضٌ للمشرِكينِ بأنَّهم إنْ آمَنوا يُغْفَرْ لهم، ولو طالَ أَمَدُ الشِّرْكِ عليهم[1].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ عُطِفَ الإيمانُ على التوبةِ- مع أنَّ التوبةَ تَشملُه مِن حيثُ إنَّ الإيمانَ توبةٌ مِن الكُفر-؛ إمَّا للاهتمامِ به؛ لأنَّه أصلُ الاعتدادِ بالأعمالِ الصالحةِ عند الله تعالى، ولِئَلَّا يُظَنَّ أنَّ الإشراكَ لخُطورتِه لا تُنْجي منه التَّوبةُ، وإمَّا أنْ يُرادَ بالإيمانِ إيمانٌ خاصٌّ، وهو الإيمانُ بإخلاصٍ، فيَشمَلُ عمَلَ الواجباتِ[2].

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ فيه تعريفُ المسنَدِ إليه (رب) بالإضافةِ؛ للتوسُّلِ إلى تَشريفِ المضافِ إليه بأنَّه مربوبٌ للهِ تعالى، وفي ذِكر وصْفِ الرُّبوبية هنا تمهيدٌ لوصْفِ الرَّحمةِ، وتأكيدُ الخبر بـ(إنَّ) ولامِ التوكيدِ وصِيغَتي المبالغةِ في ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ لمزيدِ الاهتمامِ به؛ وترغيبًا للعُصاةِ في التوبةِ، وطردًا للقُنوطِ من نفوسِهم، وإنْ عظُمتْ ذُنوبُهم[3].

- وضميرُ: ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ الثاني في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مُبالغةٌ في الامتنانِ بقَبولِ تَوبتِهم بعدَ التملِّي من السيِّئاتِ، وحُذِفَ مُتعلِّقُ (غَفُور رَحِيم)؛ لظهورِه من السِّياقِ، والتقديرُ: لغفورٌ رحيمٌ لهم، أو لكلِّ مَن عَمِلَ سيِّئةً وتابَ منها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٥٤-١٥٧)

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ
أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ
لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ
شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ
(١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي
ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ
لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي
كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ
مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾: أَي: سَكَنَ، وأَصْلُ (سكت): يَدُلُّ على خِلافِ الكَلامِ(١).

﴿نُسْخَتِهَا﴾: أي: المنسوخِ فيها، وهو المكتوبُ فيها مِن التوراةِ مِن كلامِ ربِّ العالمينَ، والنَّسْخُ: نَقْلُ ما في كتابٍ إلى كتابٍ آخَرَ، وأَصْلُ (نسخ): تحويلُ شيءٍ إلى شيءٍ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٤)، =

﴿يَرْهَبُونَ﴾: يَخافونَ، وأَصْلُ الرَّهْبَةِ والرَّهَبِ: مَخافةٌ مع تَحَرُّزٍ واضْطِرابٍ(١).

﴿السُّفَهَاءُ﴾: جمْعُ سَفيهٍ، وهو الجاهلُ، والسَّفَهُ: الجَهْلُ، وخِفَّةُ العقلِ، والضَّعْفُ والحُمْقُ(٢).

﴿هُدْنَا﴾: أي: تُبْنا، والهَوْدُ: الرُّجوعُ برفق، وأَصْلُ (هود): يَدُلُّ على إرْوادٍ (رفق) وسُكونٍ(٣).

﴿الْأُمِّيَّ﴾: أي: الذي لا يكتبُ ولا يقرأُ مِن كتابٍ، قيل: هو منسوبٌ إلى الأُمَّةِ الَّذينَ لم يَكتُبوا؛ لِكَوْنِه على عادتِهم؛ مثل عامِّيٍّ؛ لكونِه على عادةِ العامَّةِ، وقيل: سُمِّيَ بذلك لنِسْبَتِه إلى أمِّ القُرَى، وقيل: نسبةً إلى الأُمِّ، والمعنَى أنَّه باقٍ على حالتِه التي وُلِد عليها لا يكتبُ ولا يقرأُ المكتوبَ، وأَصْلُ (أمم): الأَصْلُ والمَرجِعُ(٤).

﴿الطَّيِّبَاتِ﴾: الحلال، أو ما اسْتَطابَتْه العرَبُ ممَّا لم يُحَرَّمْ، وأَصْلُ الطَّيِّبِ: ما تَستلِذُّه الحواسُّ، وما تَستلِذُّه النَّفسُ، وأَصْلُ (طيب): يَدُلُّ على خِلافِ الْخَبيثِ(٥).

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩، ١١٩).

﴿الْخَبَائِثَ﴾: أي: الحرام، أو: ما لا يُوافِقُ النَّفسَ من المحظوراتِ، والخُبْثُ والخَبِيثُ: ما يُكْرَهُ رَداءَةً وخَساسَةً، محسوسًا كان أو معقولًا، وأصْلُه الرَّديءُ الجارِي مَجْرى خَبَثِ الحديدِ، وكذلك يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الطَّيِّبِ [1].

﴿إِصْرَهُمْ﴾: أَي: مَا عُقِدَ مِن عَقْدٍ ثقيلٍ عليهم؛ مِثلُ: قتْلِ أنفُسِهم وما أشْبَهَ ذلك، وأصلُ (أصر): يدُلُّ على العَهْدِ، أو عَقْدِ الشَّيءِ، وحَبْسِه بقَهْرٍ [2].

﴿وَالْأَغْلَالَ﴾: أي: والشَّدائِدَ، أو الفرائِضَ المانِعَةَ لهم مِنْ أشياءَ رُخِّصَ فيها لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والغُلُّ مُخْتَصٌّ بما يُقيَّدُ به فَيُجْعَلُ الأعضاءُ وَسَطَه، وغُلَّ فلانٌ: قُيِّدَ به، وأَصْلُ (غلل): يَدُلُّ عَلَى تَخَلُّلِ شَيْءٍ، وثَباتِ شيءٍ [3].

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: أي: وعَظَّموه ونصَروه، أو أعانوه، والتَّعزيرُ: التَّعظيمُ، أو النُّصرةُ مع التَّعظيمِ [4].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١، ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

اللَّامُ في قولِه: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ فيها أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّها زائدةٌ للتَّقويةِ[(١)] - لأنَّ المعمولَ (ربهم) لَمَّا قُدِّمَ على عامِلِه ﴿يَرْهَبُونَ﴾ ضعُفَت تعديتُه إليه، فجِيءَ باللَّام لتقويةِ التَّعديةِ-، وعلى هذا فـ(ربهم) مجرورٌ لفظًا، منصوبٌ محلًّا، مفعولٌ به مقدَّمٌ لـ﴿يَرْهَبُونَ﴾. وقيل: إنَّ اللَّامَ في ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ لامٌ أصليَّةٌ للعلَّةِ، ومَفعولُ ﴿يَرْهَبُونَ﴾ على هذا محذوفٌ؛ أي: يرهبونَ عِقابَه لأجلِه. وقيلَ غيرُ ذلك[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾

﴿قَوْمَهُ﴾: منصوبٌ على نَزْعِ الخافِضِ، وهو في رُتبةِ المَفعولِ الثَّاني - لأنَّ أصلَ الفِعلِ (اختَارَ) أنَّه يتعدَّى إلى مَفعولِه الثَّاني بـ(مِن)، فحُذِفَت (مِن)، فتعدَّى الفعلُ إليه بنفسِه فنُصِبَ- والتقديرُ: واختارَ موسَى سبعينَ رجلًا مِن قَوْمِه، و﴿سَبْعِينَ﴾ مَفعولٌ به منصوبٌ بالياءِ، و﴿رَجُلًا﴾ تمييزٌ منصوبٌ لـ﴿سَبْعِينَ﴾[(٣)].

---

(١) لامُ التَّقويةِ: هي التي تجيءُ لِتقويةِ عاملٍ ضَعيفٍ؛ إما بسبَبِ تأخُّره عن معمولِه، نحو: قوله تعالى هُنا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، وإمَّا بسبَبِ أنَّه فرعٌ مأخوذٌ مِن غيرِه - كالفُروعِ المشتقَّةِ- مثل قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾؛ فأصلُ الكلامِ في الآيتَينِ الأُولَيَينِ: إن كنتُم تعبرونَ الرُّؤيا، يَرهبونَ ربَّهم، فلمَّا تقدَّم كلٌّ من المفعولينِ على فِعلِه، ضَعُفَ الفعلُ بسبَبِ تأخيرِه عن معمولِه «مَفعولِه»، فجاءت اللَّامُ لِتَقويتِه، وأصلُ الكلامِ في الآيتينِ الأخيرتينِ: فعَّالٌ ما يريدُ، مُصدِّقًا ما مَعهم، فكلمة: «فعَّالٌ» صيغةُ مبالغةٍ متعدِّيةٌ، تعمَلُ عمَلَ فِعلِها، ولكنَّها أضعَفُ منه، وكذلك كلمةُ: «مصدِّقًا» وهي اسمُ فاعلٍ. فجاءت اللَّامُ لتَقويتِهما. يُنظر: ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٢٨٦-٢٨٧)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ١٨٤) و(٢/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠-١٩١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٩/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٧٣-٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لَمَّا سكَنَ غضَبُ موسى عليه السَّلامُ أخَذَ الألواحَ الَّتي كان ألْقاها، وفي نُسْخَتِها هِدايةٌ من الضَّلالةِ، ورحمةٌ من العذابِ للَّذينَ هُمْ يخافون ربَّهم ويخشَوْنَه.

واختارَ موسى من قومِه سَبعينَ رجُلًا لِميقاتٍ وَقَّتَهُ اللهُ لهم، فلَمَّا أَخَذَتْ هؤلاءِ السَّبعينَ الزَّلزَلةُ الشَّديدةُ، قال موسى لربِّه: يا ربِّ، لو شِئْتَ لأَهْلَكْتَهم مِن قَبْلُ، وأَهْلَكْتَني معهم، أتُهْلِكُنا بِما فَعَلَه السُّفهاءُ منَّا بعبادتِهم العِجلَ؟! وما عبادةُ هؤلاءِ السُّفهاءِ للعِجلِ إلَّا ابتلاءٌ منك لهم؛ تُضِلُّ به مَنْ تشاء، وتَهدي مَنْ تشاء، أنتَ ناصِرُنا ومُتَوَلِّي أُمورِنا، فاغفِرْ لنا، وارحَمْنا، وأنتَ خيرُ مَنْ غَفَرَ، واكتُبْ لنا في الحياةِ الدُّنيا حالةً حسنةً، وفي الآخرةِ، إنَّا تُبْنا إليك.

قال تعالى مُجيبًا موسى عليه السَّلام: عَذابي في الدُّنيا أُصيبُ به مَنْ أشاء، ورَحمتي في الدُّنيا وَسِعَتْ كُلَّ خَلْقي، فسأكْتُبُها للَّذينَ يتَّقونَ، ويُعْطونَ الزَّكاةَ المفروضةَ عليهم، والَّذينَ يُؤمنون بآياتي، الَّذينَ يتَّبِعون مُحَمَّدًا الرَّسولَ النَّبيَّ، الَّذي لا يَقرأ ولا يَكتُبُ، الَّذي يَجِدونَه مذكورًا عِندهم في التَّوراةِ والإنجيلِ بصِفاتِه الواضحةِ، يأمُرُهم بالمعروفِ، ويَنْهاهم عَنِ المنكَرِ، ويُحِلُّ لهم الطَّيِّباتِ، ويُحَرِّمُ عليهم الخبائِثَ، ويُذهِبُ عنهم التَّكاليفَ الشَّاقَّةَ الَّتي كانت عليهم، فالَّذينَ آمَنوا به وعظَّموه ونصَروه، واتَّبَعوا القرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ إليه، فأولئك هُمُ المفلِحونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ما كان من موسى عليه السَّلامُ مع الغَضَبِ، بَيَّنَ في هذه الآيةِ ما كان مِنه عِنْدَ سُكوتِ الغضَبِ[1]، فقال:

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾.

أي: ولَمَّا سَكَنَ عن موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غَضَبُه[2].

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾.

أي: أخَذَ موسى الألواحَ الَّتي أَلْقاها[3].

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾.

أي: وفي المَكْتوبِ في الألواحِ وما نُقِلَ منها هُدًى من الضَّلالةِ، ورحمةٌ من العَذابِ[4].

﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

أي: فيها هُدًى ورحمةٌ للَّذينَ يخافون اللهَ سُبحانَه وتعالى ويخشَوْنَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٨٩).

قال الشنقيطيُّ: (وذلك باعتذارِ أخيه حتَّى عرَف صِدقَ عُذرِه، وبتوبةِ الذين عبَدوا العِجلَ حتى قدَّموا أنفسَهم للموتِ طائعين؛ مَرضاةً لربِّهم). ((العذب النمير)) (٤/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

ويخضَعون له؛ فيعمَلون بما فيها[1].

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) ﴾.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾.

أي: واختارَ مُوسى من قَومِه سَبعينَ رجُلًا لوقتٍ وقَّته اللهُ لهم؛ ليَحضُروا فيه إلى مكانٍ مُعيَّنٍ[2].

﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾.

أي: فلمَّا أصابَتِ الزَّلزلةُ الشَّديدةُ السَّبعينَ الَّذينَ مع مُوسَى، فصَعِقوا أو ماتوا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩١- ١٩٥).

ذهَب ابن جرير، والسعدي إلى أنَّ سَببَ اختيارِهم لهذا الميقاتِ هو التوبةُ من فِعلِ سُفهائِهم الذين عبَدوا العِجلَ، والاعتذارُ لقومِهم عند ربِّهم سُبحانَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

قال ابنُ الجوزي: (في هذا الميقاتِ أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّه الميقاتُ الذي وقَّته اللهُ لموسى؛ ليأخذَ التوراةَ، أُمِرَ أن يأتيَ معه بسَبعين... والثاني: أنَّه ميقاتٌ وقَّته الله تعالى لموسى، وأمَره أن يختارَ من قومه سبعين رجلًا؛ ليدعوا ربَّهم... والثالث: أنَّه ميقاتٌ وقَّته الله لموسى؛ لأنَّ بني إسرائيلَ قالوا له: إنَّ طائفةً تزعُم أن اللهَ لا يُكلِّمك، فخُذْ معك طائفةً منَّا؛ ليسمَعوا كلامَه، فيؤمنوا، فتَذهبَ التُّهمةُ... والرابع: أنَّه ميقاتٌ وقَّته الله لموسى ليلقاه في ناسٍ من بني إسرائيلَ، فيعتذِرَ إليه من فِعلِ عبَدَةِ العِجلِ). ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٨).

وقال الشنقيطيُّ: (أقوالٌ كثيرةٌ من هذا النَّمَطِ لا دليلَ عليها... وعلى كلِّ حالٍ، فهُمْ سبعون رجُلًا من خِيَارِ الإسرائيليِّين، [اختارَهم] موسى لميقاتٍ وقَّته اللهُ له). ((العذب النمير)) (٤/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٤). =

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾.

أي: قال موسى مُتَضَرِّعًا لربِّه: يا ربِّ، لو شِئْتَ إهلاكَ هؤلاءِ السَّبعينَ لأهْلَكْتَهم مِن قَبْلِ هذا الوقتِ، وأمَتَّني معهم، وذلك على مَرْأًى من قَومِنا؛ حتَّى لا يتَّهموني؛ فماذا أقولُ لبَني إسرائيلَ إذا لَقيتُهم وقد أَهْلَكْتَ خِيَارَهم؟! فإنَّ إهلاكَهم في هذا الوقتِ أَدْعى لاتِّهامِهم لي وإيذائي[1].

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾.

أي: سَأَلَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ربَّه سؤالَ استِعلامٍ مع تذلُّلٍ واستعطافٍ[2]: أتُصيبُنا بالهلاكِ بسببِ ما فعَلَه ضُعفاءُ العُقولِ منَّا بعِبادتِهم العِجلَ[3]؟!

= قال ابنُ الجوزي: (فأمَّا الرَّجفةُ فهي الحركة الشَّديدةُ، وفي سببِ أخذِها إيَّاهم أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنه ادِّعاؤهم على موسى قتْلَ هارونَ... والثاني: اعتداؤهم في الدُّعاءِ... والثالث: أنهم لم يَنهَوْا عَبَدَةَ العِجلِ ولم يَرضَوا... والرابع: أنهم طلبوا سماعَ الكلامِ من اللهِ تعالى، فلمَّا سمِعوه قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]). ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٨- ١٥٩).

وقال الشنقيطيُّ بعْدَ حكايتِه عِدَّةَ أقوالٍ: (هذه أقوالُ المفسِّرين، وفيها غيرُ هذا، ولا شيءَ يقوم عليه الدَّليلُ القاطعُ منها، واللهُ تعالى أعلمُ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٩٤).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٥).

(٢) قال السعديُّ: (اعتذر بأنَّ المتجرِّئين على الله ليس لهم عُقولٌ كاملةٌ تَردَعُهم عمَّا قالوا وفَعلوا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٦- ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٥- ١٩٦).

واختارَ أن المرادَ بالسُّفهاءِ هنا هم عبَدَةُ العِجلِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٦).

وقال الشنقيطيُّ: (المرادُ بهم هنا: الذين فعلوا الموجِبَ الذي أخذتْهم الرَّجفةُ بسببِه، سواء قلنا: إنه قولُهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، ولا سَفَهَ أكبرُ من ذلك، أو عبادتُهم العِجلَ، أو عدمُ نَهْيِهم مَنْ عبَدَ العجلَ، إلى غير ذلك). ((العذب النمير)) (٤/ ١٩٥).

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾.

أي: قال موسى مُعْتَذِرًا لربِّه: ما عبادةُ قَومِي للعِجلِ إلَّا ابتِلاءٌ واختِبارٌ منك لهم، قدَّرْتَه عليهم؛ لِيَتَبَيَّنَ الضَّالُّ منهم مِن المُهتدي(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥].

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾.

أي: قال موسى: تُضِلُّ بسَبَبِ هذه الفتنةِ مَنْ تشاءُ مِن عبادِك ممَّن خالَفَ الرُّسلَ، وتَهدي بها مَنْ تشاء ممَّن اتَّبَعَهم؛ فلا يَفتتِنونَ ولا يَضِلُّونَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٧).
قال ابنُ تيمية: (﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾، أي: مِحنتُك واختبارُك وابتلاؤُك،كما ابتلَيْتَ عبادَك بالحسناتِ والسَّيِّئاتِ؛ ليتبيَّنَ الصَّبَّارُ الشَّكورُ مِن غيرِه، وابتليتهم بإرسال الرُّسلِ وإنزالِ الكُتبِ؛ ليتبيَّنَ المؤمنُ من الكافرِ، والصَّادقُ من الكاذبِ، والمنافقُ من المخلِصِ؛ فتَجعلَ ذلك سببًا لضلالةِ قومٍ، وهُدَى آخَرين). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٧).

أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾.

أي: أنتَ وحْدَكَ- يا ربَّنا- ناصرُنا، ومُتولِّي أُمورِنا[١].

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾.

أي: فاستُرْ ذُنوبَنا، ولا تُعاقِبْنا عليها، وتَعطَّفْ علينا برحمتِكَ[٢].

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

أي: وأنتَ- يا ربَّنا- خيرُ مَنْ يَستُرُ الذُّنوبَ، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بالنَّقائصِ والعُيوبِ[٣].

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٩).

قال ابنُ كثير: (والرحمةُ إذا قُرِنَتْ مع الغَفرِ يُرادُ بها: ألَّا يُوقِعَه في مِثْلِه في المستقبَلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٩).

قال الرازيُّ: (معناه: أنَّ كُلَّ مَن سِواكَ فإنَّما يتجاوَز عن الذَّنبِ إما طلبًا للثَّناء الجميلِ أو للثَّواب الجزيلِ... وبالجُملةِ فذلك الغُفرانُ يكون لطلبِ نفْعٍ أو لدفْعِ ضَررٍ، أمَّا أنت فتغفِرُ ذنوبَ عبادِك لا لطلبِ عِوَضٍ وغرضٍ، بل لمَحضِ الفضلِ والكرمِ؛ فوجَبَ القطْعُ بكونه خيرَ الغافرين). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٨).

وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: دعا موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ربَّه لِبَني إسرائيلَ، فقال: واجعلْنا ممَّن كتبْتَ له وقدَّرْتَ له في الدُّنيا الحالةَ الحَسَنةَ؛ مِن العِلمِ النَّافعِ، والعملِ الصَّالِحِ، والرِّزقِ الواسِعِ، والتَّوفيقِ والعافيةِ، والحياةِ الطَّيِّبةِ، واكتُبْ لنا في الآخرةِ حسنةً؛ بمغفرةِ الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، ودُخولِ الجنَّاتِ[1].

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾.

أي: إنَّا تُبْنا، ورَجَعْنا إليك، يا ربَّنا[2].

﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾.

أي: أجابَ اللهُ موسى فقال: عَذابي في الدُّنيا أُصيبُ به مَنْ أشاءُ ممَّنْ يَستحِقُّه مِن خَلْقي، كما أَصَبْتُ هؤلاءِ السَّبعينَ مِن قومِك بالرَّجفةِ[3].

﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٠- ٢٠١).

قال الواحديُّ: (قال جميع المفسِّرين وأهلِ المعاني: تُبْنا ورجَعْنا إليك بتوبتِنا). ((البسيط)) (٩/ ٣٩٢).

وقال الخازن: (﴿إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ معناه: إنَّا تُبْنا إليك، وهذا قولُ جميعِ المفسِّرين). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٩).

أي: ورحمتي عمَّتْ في الدُّنيا جميعَ خَلْقي[1].

كما قال اللهُ تعالى حاكيًا قولَ حَمَلَةِ العَرْشِ مِن الملائكةِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وعن أبي هريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ لله مِئةَ رحمةٍ، أنزَلَ منها رحمةً واحدةً بين الجنِّ والإنسِ، والبهائمِ والهَوامِّ؛ فبها يتعاطَفون، وبها يتراحَمون، وبها تَعطِفُ الوَحْشُ على ولدِها، وأخَّرَ اللهُ تسعًا وتسعين رحمةً، يرحَمُ بها عبادَه يومَ القيامةِ))[2].

وعن سَلْمَانَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ خَلَقَ يومَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ مِئةَ رحمةٍ، كُلُّ رحمةٍ طِباقُ ما بين السَّماءِ والأرضِ[3]، فجعَلَ منها في الأرضِ رحمةً، فبها تَعطِفُ الوالدةُ على ولدِها، والوَحْشُ والطَّيْرُ بعضُها على بعضٍ، فإذا كان يومُ القيامةِ أكمَلَها بهذه الرَّحمةِ))[4].

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَعْلَمَ اللهُ تعالى أنَّ رحمتَه واسعةٌ، وقُدرتَه شاملةٌ، وكان ذلك مُوَسِّعًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٢).
قال ابنُ جرير: (عن الحسن، وقَتادةَ، في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، قالا: وسعتْ في الدُّنيا البَرَّ والفاجرَ، وهي يومَ القيامةِ للذين اتَّقَوْا خاصَّةً). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٦).
(٢) رواه مسلم (٢٧٥٢).
(٣) طِباقُ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ: أي: مِلءُ ما بَينَهما. ينظر: ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمناوي (١/ ٢٥٣).
(٤) رواه مسلم (٢٧٥٣).

للطَّمَعِ؛ سَبَّبَ عن ذلك قولَه، ذاكِرًا شرْطَ إتمامِ تلك الرَّحمةِ؛ ترهيبًا لِمَنْ يَتَوانى عن تحصيلِ ذلك الشَّرطِ(١):

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

أي: فسأُوجِبُ حُصولَ رحْمتي الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ للَّذينَ يَمتثِلونَ ما أَمَرْتُ به، ويَجتنِبونَ ما نَهَيْتُ عنه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((إنَّ اللهَ كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يخلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رحمتي سَبَقَتْ غضَبي، فهو مكتوبٌ عِندَه فَوْقَ العَرْشِ))(٣).

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

أي: وأَجْعَلُ رحمتي للَّذينَ يُعْطونَ الزَّكاةَ المَفروضةَ في أموالِهم لِمُستحِقِّيها(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٢- ٢٠٤).

(٣) رواه البخاري (٧٥٥٤) ومسلم (٢٧٥١).

(٤) وتفسيرُ الزكاةِ هنا بزَكاةِ الأموالِ المفروضةِ هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، والشوكانيِّ، والسعدي، ونسَبَه الشنقيطيُّ إلى أكثرِ العُلماء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٤).

وقال ابنُ كثير: (قيل: زكاةُ النُّفوسِ. وقيل: زكاةُ الأموالِ. ويحتمِلُ أن تكونَ عامَّةً لهما؛ فإنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٣). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٤).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وأَجْعَلُ رحمتي للَّذينَ يؤمِنون بآياتي، المُنزَّلةِ على رُسُلي[١]، فيتَّبِعونها[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣- ٦].

---

(١) خصَّ ابنُ عاشورٍ الآياتِ هنا بآياتِ القرآنِ الكريمِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٥).

قال الشنقيطيُّ: (ويَشمَلُ ذلك عِندَ بعضِهم: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الكَونيَّةِ القَدَريَّةِ، كما نَصَبْنا من العلاماتِ على قُدْرتِنا، وأنِّي أنا المُستحِقُّ العبادةَ وحدَه، يُؤمنون بذلك؛ فيَعلمون أنَّها دالَّةٌ على رُبوبيَّةِ مَنْ نَصَبَها، واستحقاقِه للعبادةِ وحدَه). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٠٥).

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ مِن صِفةِ مَنْ تُكتَبُ له الرَّحمةُ في الدُّنيا والآخرةِ: التَّقْوى، وإيتاءَ الزَّكاةِ، والإيمانَ بالآياتِ؛ ضَمَّ إلى ذلك أنْ يكونَ مِن صِفتِه اتِّباعُ النَّبيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يَجِدونه مكتوبًا عِندهم في التَّوراةِ والإنجيلِ[1].

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾.

أي: الَّذينَ كتبْتُ لهم رحمتي هُمُ الَّذينَ يتَّبِعونَ مُحَمَّدًا الرَّسولَ النَّبيَّ[2]، الَّذي لا يَقرأُ مِن كتابٍ ولا يَكتُبُ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٠).

(٢) قال الخازن: (أَجمَعَ المفسِّرون على أنَّ المرادَ بالرَّسولِ مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وَصَفَه بكونِه رسولًا؛ لأنَّه الواسطةُ بين اللهِ وبين خَلْقِه، المُبلِّغُ رسالتَه وأوامرَه ونواهيَه وشرائعَه إليهم، ثم وصفه بكونه نبيًّا، وهذا أيضًا من أعلى المراتبِ وأشرفِها). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٦).

قال ابنُ جرير: (هُمْ أُمَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنه لا يُعْلَمُ للهِ رسولٌ وُصِفَ بهذه الصِّفةِ- أعني الأمِّيَّ- غير نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (هو إشارةٌ إلى اليهودِ والنَّصارى الكائنين في زَمنِ البَعثةِ وبعدَها؛ لقوله: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣١).

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾.

أي: يَجِدونَ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَذكورًا بصِفاتِه الواضحةِ في التَّوراةِ الَّتي أنزَلَها اللهُ على موسى، وفي الإنجيلِ الَّذي أنزَلَه اللهُ على عِيسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وعن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، قال: لَقيتُ عبدَ اللهِ بنَ عمرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنهما، قلْتُ: أخبِرْني عن صِفةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التَّوراةِ، قال: ((أَجَلْ، واللهِ إنَّه لموصوفٌ في التَّوراةِ ببعضِ صِفتِه في القرآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ[2]، أنتَ عَبْدي ورسولي، سمَّيْتُك المُتوكِّلَ، ليس بفَظٍّ ولا غَليظٍ، ولا سخَّابٍ في الأسواقِ، ولا يدْفَعُ بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكنْ يَعْفو ويَغفِرُ، ولنْ يَقبِضَه اللهُ حتَّى يُقيمَ به المِلَّةَ العوجاءَ، بأنْ يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويَفتَحَ بها أَعْيُنًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٧).

(٢) وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ: أي: حافِظًا لدِينِهم، والمرادُ العَرَبُ، وسُمُّوا بالأُمِّيِّينَ؛ لأنَّ الكتابةَ كانت فيهم قليلةً. ينظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١١/ ٢٤٣).

(٣) رواه البخاري (٤٨٣٨).

وقد أخبَرَ اللهُ في القرآنِ بأنَّ عيسى عليه السَّلامُ بَشَّرَ بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

أي: يأمُرُهم الرَّسولُ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمعروفِ، وهو كلُّ خيرٍ أمَرَ به الشَّرعُ من الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، ويَنْهاهم عن المنكَرِ، وهو كلُّ شرٍّ أنكَرَه الشَّرعُ من الشِّركِ والمعاصِي(١).

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: ويُحِلُّ لهم مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الأطعِمةَ والأشرِبةَ النَّافعةَ، الَّتي تَستطيبُها الأذْواقُ السَّليمةُ ممَّا حُرِّمَ على اليهودِ مِنْ قَبْلُ في التَّوراةِ، أو حرَّمَه العربُ على أنفُسِهم في جاهليَّتِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٣)، ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٩).

قال ابنُ القيِّم: (أَمَرَهم بالمعروف الذي تَعرِفه العُقولُ وتُقِرُّ بحُسْنِه الفِطَرُ، فأمَرَهم بما هو مَعْروفٌ في نفسه عِند كلِّ عقلٍ سليمٍ، ونهاهم عمَّا هو مُنْكَرٌ في الطِّباع والعقولِ، بحيث إذا عُرِضَ على العُقولِ السَّليمةِ أنكرَتْه أشدَّ الإنكارِ، كما أنَّ ما أَمَرَ به إذا عُرِضَ على العقل السَّليمِ قَبِلَه أعظمَ قَبولٍ، وشهِد بحُسْنِه). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٩- ٢١١).

اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٤- ٥].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٥- ١٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

أي: ويُحرِّمُ عليهم مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الأطعِمةَ والأشرِبةَ، والأفعالَ الضَّارَّةَ، الَّتي تَستخبِثُها النُّفوسُ السَّليمةُ ممَّا يَستحِلُّه بعضُ النَّاسِ؛ كلَحْمِ الخِنزيرِ، والمَيتةِ، والدَّمِ، والخمْرِ، والزِّنا، والرِّبا، والرِّشوةِ، وأكْلِ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٦١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥).
قال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ: (والخبائثُ نوعان: ما خُبْثُه لِعَيْنِه؛ لمعنًى قام به؛ كالدَّمِ والميتةِ ولحمِ الخنزيرِ، وما خُبْثُه لكَسْبِه؛ كالمأخوذِ ظُلمًا أو بعَقْدٍ مُحرَّمٍ؛ كالرِّبا والميسِرِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ٣٣٤).

كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ويُبطِلُ مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويُزيلُ عن الَّذين يتَّبِعونَه من أهلِ الكتابِ العَهْدَ الثَّقيلَ، الَّذي أخَذَه اللهُ عليهم؛ مِن العَملِ بما في التَّوراةِ من الواجباتِ الثَّقيلةِ، والمُحرَّماتِ الشَّديدةِ، الَّتي كانتْ كالقُيودِ على أعناقِهم(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٨-٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٢).

قال القرطبيُّ: (الأغلالُ عِبارةٌ مُستعارةٌ لتلك الأثقالِ، ومن الأثقالِ ترْكُ الاشتِغالِ يومَ السبْتِ... ولم يكن فيهم الدِّيَةُ، وإنما كان القِصاصُ، وأُمِروا بقَتْلِ أنفسِهم علامةً لتوبتِهم، إلى غير ذلك، فشُبِّهَ ذلك بالأغلالِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخَلَ قلوبَهم منها شيءٌ لم يدخُلْ قلوبَهم من شيءٍ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: سمِعْنا وأطعْنا وسلَّمْنا، قال: فألْقى اللهُ الإيمانَ في قلوبِهم، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قدْ فَعَلْتُ. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قدْ فَعَلْتُ. ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قدْ فَعَلْتُ))(١).

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ تجاوَزَ عن أُمَّتي ما حدَّثَتْ به أنفُسَها، ما لم تعمَلْ أو تتكلَّمْ))(٢).

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾.

= وقال ابنُ تيميَّة: (الآصارُ: ترجِعُ إلى الإيجاباتِ الشَّديدةِ، والأغلالُ: هي التَّحريماتُ الشَّديدةُ؛ فإنَّ الإصْرَ: هو الثِّقْلُ والشِّدَّةُ، وهذا شأنُ ما وَجَبَ، والغُلُّ: يَمنَعُ المغلولَ من الانطِلاقِ، وهذا شأنُ المحظورِ). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٣٢٤).

(١) رواه مسلم (١٢٦).

(٢) رواه البخاري (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧).

أي: فالَّذينَ صدَّقوا وأقرُّوا بأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، وعظَّموه، وأعانوه على أعدائِه، الَّذينَ ظَلَموه وكذَّبوه[1].

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾.

أي: واتَّبَعوا القرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ على مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع نُبوَّتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٣- ٢١٤).
وممَّن اختار أنَّ [عَزَّرُوهُ] بمعنى عظَّموه وبجَّلوه ووقَّروه: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥).
وممن رُوي عنه ذلك مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٨٣).
وقال ابنُ جرير: وقَّروه وعظَّموه، وحَمَوْه مِن النَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٧).
واختار ابنُ عاشورٍ أنَّ المراد بـ(عَزَّرُوهُ): أيَّدوه وقَوَّوْهُ؛ قال ابنُ عاشور: (معنى عَزَّرُوهُ أيَّدوه وقَوَّوْهُ، وذلك بإظهارِ ما تضمَّنَتْه كُتُبُهم من البِشارةِ بصفاتِه، وصفاتِ شريعتِه، وإعلانِ ذلك بين النَّاسِ، وذلك شيءٌ زائدٌ على الإيمانِ به، كما فَعَلَ عبدُ اللهِ بن سَلَامٍ، وكقولِ ورقة بن نوفل: «هذا النَّاموسُ الذي أُنزِلَ على موسى»، وهو أيضًا مُغايِرٌ للنَّصرِ؛ لأنَّ النَّصرَ هو الإعانةُ في الحربِ بالسِّلاحِ؛ ومِن أجْلِ ذلك عُطِفَ عليه: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٤).
قال أبو السُّعود: (﴿أُنْزِلَ مَعَهُ﴾، أي: مع نُبوَّتِه، وهو القرآنُ، عُبِّرَ عنه بالنُّورِ المُنبِئِ عن كونِه ظاهرًا بنفسِه، ومُظهِرًا لغيرِه، أو مُظهِرًا للحقائقِ، كاشِفًا عنها). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٠).

وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

أي: فالَّذينَ آمَنوا بالرَّسولِ وعظَّموه ونصَروه واتَّبعوا القرآنَ الَّذي أُنْزِلَ معه هُمْ وَحْدَهم الفائِزونَ، الظَّافِرونَ بالخيراتِ والخُلودِ في الجنَّاتِ، والنَّاجونَ من الشُّرورِ والمكروهاتِ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ما مِن مُسلمٍ ولا كافرٍ ولا مُطيعٍ ولا عاصٍ في الدُّنيا إلَّا وهو مُتقلِّبٌ في نِعمةِ اللهِ تعالى؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ فرحمةُ اللهِ أَوْسَعُ من ذلك الكَوْنِ الهائلِ الَّذي خَلَقَه، والَّذي لا يُدرِكُ البشَرُ مَداه[2].

٢- أَصْلُ كلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ الخوفُ من اللهِ تعالى، يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾؛ فليس كُلُّ أَحَدٍ يَقْبَلُ هُدى اللهِ ورحمتَه، وإنَّما يَقبَلُ ذلك ويَنقادُ له، ويَتلقَّاه بالقَبولِ الَّذينَ يَخافونَ من اللهِ تعالى ويخشَوْنَه، وأمَّا مَنْ لم يَخَفِ اللهَ، ولا المُقامَ بين يدَيْه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٦-٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٢٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٧٨).

فإنَّه لا يَزدادُ بها إلا عُتُوًّا ونُفورًا، وتقوم عليه حُجَّةُ اللهِ فيها[١].

٣- لا سعادةَ ولا فلاحَ إلَّا باتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ظاهرًا وباطنًا في أصولِ الدِّينِ وفُروعِه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

٤- لا بُدَّ أنْ يُفتَنَ النَّاسُ، فيَمتحِنَهم اللهُ تعالى ويَبتليَهم ويَختبِرَهم؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾[٣].

٥- قوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ فيه تَعليمٌ لكيفيَّةِ اتِّباعِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبيانٌ لعُلوِّ رُتبةِ مُتَّبِعيه، واغتنامِهم مَغانمَ الرَّحمةِ الواسعةِ في الدَّارينِ إثرَ بيانِ نُعوتِه الجليلةِ، والإشارةُ إلى إرشادِه عليه الصَّلاةُ والسلامُ إيَّاهُم بالأمْرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكرِ، وإحلالِ الطيباتِ، وتَحريمِ الخبائثِ، أي: فالَّذين آمنوا بنُبوَّتِه وأطاعوه في أوامِره ونواهِيه[٤].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ خَصَّهم بالذِّكرِ؛ لأنَّهم هُمُ المُنتفِعونَ به، وجَرَتِ العادةُ في القرآنِ أنَّ اللهَ يَخُصُّ المنتفعين، كما قال: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١]، وهو مُنْذِرٌ للأسودِ والأحمرِ، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وهو مُنذِرٌ للجميعِ، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وهو مذكِّرٌ لِمَنْ يخاف ومَنْ لا يخاف كما هو معلومٌ[٥].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٧)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٠).
(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ المرادُ منه الألواحُ المذكورةُ سابقًا في قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾، وظاهرُ هذا يدُلُّ على أنَّ شيئًا منها لم يَنكسِرْ ولم يَبْطُلْ(١).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾، الاختيارُ يكونُ من فاعِلٍ مُخْتارٍ، وشيءٍ مختارٍ منه، فيتعدَّى للثَّاني بـ(من)، وكأنَّ نُكْتَةَ حَذْفِ (من): الإشارةُ إلى كَوْنِ أولئك السَّبعينَ خِيَارَ قومِه كلِّهم لا طائفةً منهم(٢).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، السُّفهاءُ هم الَّذينَ عبَدوا العِجلَ، وسُمِّيَ شِركُهم سَفَهًا؛ لأنَّه شِرْكٌ مَشوبٌ بِخِسَّةِ عقلٍ؛ إذ جعلوا صورةً صَنَعوها بأنفُسِهم إلهًا لهم(٣).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، كأنَّ موسى عليه السَّلامُ عبَّرَ بهذه العِبارةِ المُقْتَضِيَةِ لإهلاكِ الجميعِ؛ لأنَّه جوَّزَ أنَّه كما أَهْلَكَ هؤلاءِ يُهْلِكُ غيرَهم لتقصيرٍ آخَرَ بسببِ ذلك؛ كعدمِ الجهادِ- مثلًا- حتَّى يَعُمَّهم الهلاكُ(٤).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾، من الحُجَجِ الظَّاهرةِ على القَدَريَّةِ الَّتي لا يَبقى لهم معها عُذْرٌ(٥).

٧- قال اللهُ تعالى على لسانِ موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الَّذي جرَّأ موسى على أنْ يُضيفَ الفِتنةَ إلى اللهِ هو أنَّ اللهَ قال له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]؛ فأَسْنَدَ اللهُ هذه الفتنةَ لنفسِه بقولِه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٥).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٠٢).
(٥) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٤).

قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾، فجرَّأ ذلك موسى على أنْ يقولَ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾[١].

٨- القَصْدُ من جُملةِ: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ الاعتِرافُ بالانقطاعِ لعِبادةِ اللهِ تعالى؛ تمهيدًا لِمَطْلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ؛ لأنَّ شأنَ الوَلِيِّ أنْ يَرحَمَ مَوْلاه وينصُرَه[٢].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، عَطَفَ جُملةَ: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾؛ لأنَّه خبرٌ في معنى طلبِ المغفرةِ العظيمةِ، فعُطِفَ على الدُّعاءِ، كأنَّه قيل: (فاغفِرْ لنا وارحمْنا واغفِرْ لنا جميعَ ذُنوبِنا)؛ لأنَّ الزِّيادةَ في المغفرةِ من آثارِ الرَّحمةِ[٣].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ دفْعَ الضَّررِ مُقدَّمٌ على تحصيلِ النَّفعِ؛ إذ بدأ بطَلَبِ دَفْعِ الضَّررِ، وهو قولُه: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾، ثمَّ أَتْبَعَه بطَلَبِ تحصيلِ النَّفعِ[٤].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أي: قد كان مِنْ سَبْقِ رحمتي غضَبي: أنْ أَجْعلَ عذابي خاصًّا؛ أُصيبُ به مَنْ أشاء من الكفَّارِ والعُصاةِ المجرمين، وأمَّا رحمتي فقدْ وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ من العالَمينَ؛ فهي من صِفاتي القديمةِ الأَزَليَّةِ الَّتي قام بها أمْرُ العالَمِ مُنْذُ خَلَقْتُه، والعذابُ ليس من صِفاتي، بل من أفعالي المترتِّبةِ على صِفة العَدْلِ؛ ولهذا عبَّر عن التَّعذيبِ بالفِعْلِ المضارِعِ، وعن تعلُّقِ الرَّحمةِ بالفعلِ الماضي[٥].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٠٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٩٢).

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، خَصَّ الزَّكاةَ بالذِّكْرِ دونَ الصَّلاةِ وما دونَها من الطَّاعاتِ؛ لأنَّ فتنةَ حُبِّ المالِ تقتضي- بنظَرِ العقلِ والاختبارِ بالفعلِ- أنْ يكونَ المانِعونَ للزَّكاةِ أكثَرَ من التَّاركينَ لغيرِها من الفرائضِ، وفيه إشارةٌ إلى شِدَّةِ حُبِّ اليهودِ للدُّنيا، وافتِتانِهم بجَمْعِ المالِ، ومَنْعِ بَذْلِه في سبيلِ اللهِ(١).

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾، الرَّسولُ- في اصْطِلاحِ الشَّرعِ- أَخَصُّ من النَّبيِّ، فكُلُّ رسولٍ نَبِيٌّ، وما كُلُّ نبيٍّ رسولٌ؛ ولذلك جَعَلَ بعضُ المفسِّرين نُكْتَةَ تقديمِ الرَّسولِ على النَّبيِّ هنا كَوْنَه أَهَمَّ وأَشْرَفَ، أو أنَّهما ذُكِرا هنا بمعناهما اللُّغويِّ(٢).

١٤- قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾، المرادُ من الطَّيِّباتِ الأشياءُ المُستطابةُ بحسَبِ الطَّبْعِ؛ وذلك لأنَّ تناوُلَها يُفيدُ اللَّذَّةَ، والأَصْلُ في المنافعِ الحِلُّ؛ فكانتْ هذه الآيةُ دالَّةً على أنَّ الأصلَ في كلِّ ما تَستطيبُه النَّفسُ ويَستلِذُّه الطَّبْعُ: الحِلُّ، إلَّا لدليلٍ مُنفصِلٍ، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ كُلُّ ما يَستخبِثُه الطَّبْعُ وتَستقذِرُه النَّفسُ كان تناولُه سببًا للألمِ، والأصْلُ في المَضارِّ الحُرْمَةُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٤).

والفرقُ بينَ النبيِّ والرسولِ، أنَّ النبيَّ هو الذي ينبِّئه الله، وهو ينبِّئُ بما أنبأ الله به؛ فإن أُرسِل مع ذلك إلى مَن خالَف أمرَ الله؛ ليبلغَه رسالةً مِن الله إليه؛ فهو رسولٌ، وليس مِن شرطِ الرسولِ أن يأتيَ بشريعةٍ جديدةٍ، وأمَّا إذا كان إنما يعملُ بشريعةِ مَن قبلَه، ولم يُرسل هو إلى أحدٍ يبلغُه عن الله رسالةً؛ فهو نبيٌّ، وليس برسولٍ، فالأنبياءُ يأتيهم وحيٌ مِن الله بما يفعلونه، ويأمرون به مَن آمَن بهم، وقيل: الرسول: مَن أُنزل إليه كتابٌ مستقلٌّ، كمحمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وموسى عليه السلامُ، والنبيُّ: مَن أُمِر بأن يتعبَّد بكتابٍ منزَّلٍ على غيرِه، كأنبياءِ بني إسرائيلَ الذين يُؤمرون بالتعبُّدِ بما في التوراةِ. يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٥).

فكان مُقتضاه أنَّ كلَّ ما يَستخبِثُه الطَّبْعُ فالأصْلُ فيه الحُرْمَةُ إلَّا لدليلٍ مُنفصِلٍ[١].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأصلَ في المَضارِّ ألَّا تكونَ مشروعةً؛ لأنَّ كلَّ ما كان ضررًا كان إِصْرًا وغُلًّا، وظاهرُ هذا النَّصِّ يَقتضي عدمَ المشروعيَّةِ[٢].

١٦- دِينُ الإسلامِ سَهْلٌ سَمْحٌ مُيَسَّرٌ، لا إِصْرَ فيه ولا أغلالَ، ولا مَشقَّاتِ ولا تَكاليفَ ثِقالٌ، يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٣].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فيه تنويهٌ بعَظيمِ فَضْلِ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ورضِيَ اللهُ عنهم، ويَلْحَقُ بهم مَنْ نصَرَ دينَه بعْدَهم[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ فيه تنزيلُ الغَضبِ الحاملِ له عَلَى ما صَدَرَ عنْهُ من الفعل والقول مَنزلةَ الآمِرِ بذلك، المُغرِي عليه بالتحكُّمِ والتشديدِ؛ حتَّى عبَّر عن سُكونِه بالسُّكوتِ؛ فشُبِّهَ ثَوَرانُ الغضبِ في نفْسِ موسى عليه السَّلامُ المُنشِئُ خواطِرَ العقوبةِ لأخيه ولقومِه، وإلْقاءَ الألواحِ، بكلامِ شخص يُغريه بذلك، وحَسَّن هذا التَّشبيهَ أنَّ الغضبانَ يجيش في نفسه حديثٌ للنَّفسِ يَدفَعُه إلى أفعالٍ يُطفِئ بها ثورانَ غضبه، فإذا سَكَن غضبُه وهدأتْ نفْسُه كان ذلك بمنزلةِ سُكوتِ المغري؛ فلذلك أَطلقَ عليه السُّكوتَ، وهذا يَستلزِمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٩).

تشبيهَ الغضبِ بالناطقِ المغري على طريقةِ المكنيَّة[١].

٢- قوله: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾

- قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ تمهيدٌ للتعريضِ بطَلَبِ العفوِ عنهم الآن، وهو المقصودُ مِن قولِه: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، أي: إنَّك لم تشأْ إهلاكَهم حين تَلبَّسوا بعِبادةِ العِجل، فلا تُهلِكْهم الآن[٢].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ مُستعمَلٌ في التفجُّع، أي: أخشَى ذلك؛ لأنَّ القَومَ استحقُّوا العذابَ، ويُخشَى أنْ يَشملَ عذابُ اللهِ مَن كان مع القومِ المستحقِّين، وإنْ لم يُشارِكهْم في سببِ العذابِ، وجملة: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ مُستأنفةٌ على طريقةِ تقطيعِ كلامِ الحزينِ الخائفِ السَّائِل[٣]. وقد جاء الرَّجاءُ بصِيغةِ الاستفهامِ؛ زيادةً في طلبِ استبعادِ الهلاكِ، أي: رَبِّ، إنَّه لَمُستبعَدٌ على رَحمتِك أنْ تُهلكَنا بما فَعَلَ السُّفهاءُ منا[٤].

٣- قولُه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾

- الخبرُ في وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ...﴾ الآيةَ، مُستعمَلٌ في إنشاءِ التَّمجيدِ بسَعَةِ العِلمِ والقُدرةِ، والتعريضِ بطَلَبِ استبقائِهم وهِدايتِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٢٦- ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٦-١٢٧).

- وقولُه: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، في التَّذييلِ بقولِه: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ حَذَفَ ذِكْرَ الرَّحمةِ؛ استِغناءً عنه بذِكْرِ المغفرةِ؛ فإنَّ ترتيبَ التَّذييلِ في الثَّناءِ عليه تعالى على طَلَبِ مغفرتِه ورحمتِه معًا يَقتضي أنْ يكونَ هذا الثَّناءُ بهما معًا، فاكْتَفى بذِكْرِ الأُولى؛ لدَلالتِها على الثَّانيةِ قطْعًا، فهو مِن الإيجازِ المُسَمَّى في عِلمِ البديعِ (الاكتِفاء)[1].

٤- **قولُه: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾** قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتعليلِ الدُّعاءِ وطَلَبِ الْغُفْرَانِ والحَسَنَةِ؛ لأنَّ التوبةَ والإنابةَ والرُّجوعَ إليه من الأسبابِ الَّتي يكتُبُ اللهُ بها حسنةَ الدُّنيا وحسنةَ الآخِرةِ، وتَصديرُها بحرْف التَّحقيقِ؛ لإظهارِ كمالِ النَّشاطِ والرَّغبةِ في التوبةِ[2].

٥- **قوله: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾**

- قوله: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ...﴾ استئنافٌ وَقَع جوابًا عن سؤال ينساقُ إليهِ الكلامُ، كأنَّه قيلَ فماذَا قالَ الله تعالى عند دعاءِ مُوسى عليه السَّلامُ؟ فقيل: قال: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾[3].

- وقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مقابلُ قولِ مُوسَى: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾، وهو وعدٌ تعريضٍ بحُصولِ الرَّحمةِ المسؤولةِ له، ولِمَن مَعَه مِن المُختارِين؛ لأنَّها لَمَّا وَسِعتْ كلَّ شيءٍ، فهُمْ أرْجى الناسِ بها، وأنَّ العاصِين هم أيضًا مَغمورونَ بالرَّحمةِ؛ فمنها رحمةُ الإمهالِ والرِّزْقِ، ولكنْ رحمةُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٨).

اللهِ عبادَه ذاتُ مَراتِبَ متفاوتةٍ[(١)].

- وقولُه: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ تفريعٌ على سَعةِ الرَّحمةِ؛ لأنَّها لَمَّا وَسِعتْ كلَّ شيءٍ كان منها ما يُكتَب، أي: يُعطَى في المستقبَلِ للذين أُجرِيتْ عليهم الصِّفاتُ، ويَتضمَّنُ ذلك وعدًا لموسى ولصُلحاءِ قومِه؛ لتحقُّقِ تِلك الصِّفاتِ فيهم[(٢)].

- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه تَكريرُ الموصولِ (الَّذين)، مع أنَّ المرادَ به عينُ ما أُريدَ بالموصولِ الأوَّلِ في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾- دون أنْ يُقالَ: (يُؤمنون بآياتنا) عَطفًا على ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ كما عُطِفَ ﴿يُؤْتُونَ﴾ على ﴿يَتَّقُونَ﴾ للقَصْرِ بتَقديمِ الجارِّ والمجرورِ؛ أي: هُم بجميعِ آياتِنا يُؤمِنونَ لا ببَعضِها دُون بَعضٍ[(٣)].

وقيل: نُكتةُ إعادةِ الموصولِ (الذين) مع الضَّمير (هم)؛ إمَّا جَعْلُ الموصولِ الأوَّلِ عامًّا لقومِه الَّذينَ دعا لهم- مَن استمرُّوا على التزامِ التَّقوى، وأداءِ الزَّكاةِ منهم-، وجَعْلُ الثَّاني خاصًّا بمَنْ يُدرِكونَ بَعْثَةَ خاتَمِ الرُّسلِ عليه السَّلامُ ويتَّبِعونَه، كما يُعْلَمُ ممَّا بعْدَه، وإمَّا لِبيانِ الفَصْلِ بين مَفهومِ الإسلامِ ومفهومِ الإيمانِ، والتَّعريضِ بأنَّ الَّذينَ طَلَبوا من موسى أنْ يجعَلَ لهم آلهةً، والَّذينَ عبَدوا العِجلَ، والَّذينَ قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، لم يكونوا مؤمِنين بآياتِ اللهِ العامَّةِ ولا الخاصَّةِ الَّتي جاء بها نبيُّهم؛ إذْ لم يكونوا يَعقِلونها، بل كانوا مُتَّبِعينَ له؛ لإنقاذِهم مِن ظُلمِ المِصْريِّينَ، وبيانِ أنَّ كتابةَ الرَّحمةِ الخاصَّةِ إنَّما تكون لِمَنْ جَمَعوا بين الإسلامِ- وهو اتِّباعُ الرُّسلِ بالفِعْلِ- والإيمانِ الصَّحيحِ بالآياتِ الإلهيَّةِ المفيدةِ لليقينِ المانعِ من العودةِ إلى الشِّركِ بمِثْلِ عبادةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٨).

العِجلِ، والمُقْتَضِي لاتِّباعِ مَنْ يأتي مِنَ الرُّسلِ بمِثْلِ هذه الآياتِ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ تَعريضٌ بهم وبكُفرِهم بالآياتِ العِظامِ التي جاءَ بها موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبما سيَجيءُ بعدَ ذلك مِنَ الآياتِ البيِّناتِ، كتَظليلِ الغمامِ، وإنزالِ المنِّ والسَّلْوى، وغيرِ ذلك[٢].

٦- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

- قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ فيه تقديمُ وصْفِ الرَّسولِ؛ لأنَّه الوصفُ الأخصُّ الأهمُّ، ولأنَّ في تقديمِه زِيادةَ تَسجيلٍ لتحريفِ أهلِ الكِتاب، حيثُ حَذَفوا هذا الوصفَ؛ ليصيرَ كلامُ التوراةِ صادِقًا بمَن أتَى بعدَ مُوسَى من أنبياءِ بَني إسرائيلَ[٣].

- وفي قولِهِ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ لم يَعْطِفْ؛ لئلَّا يُوهِمَ تَعدادَ الموصوفِ[٤].

- وجاءَ بقولِه: ﴿عِندَهُمْ﴾ لِزيادةِ التقريرِ، وأنَّ شأنَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حاضرٌ عِندَهم لا يَغيبُ عنهم أصلًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٩).

- قولُه: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فيه تشبيهُ حالِ المُزالِ عنه ما يُحرِجُه مِن التَّكاليفِ، بحالِ مَن كان مُحمَّلًا بثِقلٍ فأُزِيلَ عن ظَهرِه ثِقلُه[1].

- قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ فيه تَشبيهُ حالِ المُقتَدِي بهَدْي القرآنِ، بحالِ السَّاري في اللَّيلِ إذا رَأى نُورًا يَلوحُ له اتَّبعَه؛ لعِلمِه بأنَّه يجِدُ عِندَه مَنجاةً مِن المخاوفِ، وأضرارِ السَّيرِ[2].

- وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه مِن مَعْنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ دَرجتِهم، وسُموِّ طبقتِهم في الفضلِ والشَّرفِ، أي: أولئك المنعوتُون بتِلك النُّعوتِ الجليلةِ هُمُ المُفْلِحُونَ، لا غيرُهم مِن الأُمم، ففيه تنويهٌ بشَأنِهم، ودَلالةٌ على أنَّ المُشارَ إليهم بتِلك الأَوصافِ صارُوا أحرياءَ بما يُخبَّرُ به عنهم بعدَ اسمِ الإشارةِ[3].

- والقصرُ المستفادُ مِن تَعريفِ المُسنَد ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ ومِن ضَمير الفَصلِ ﴿هُمْ﴾ قَصرٌ إضافيٌّ، أي: هُم الذين أفلحوا، أي: دُونَ مَن كَفَر به، بقَرينةِ المقامِ، ويجوزُ أنْ يكونَ القصرُ ادعائيًّا دالًّا على معنى كمالِ صِفةِ الفلاحِ للَّذينَ يتَّبعونَ النبيَّ الأُمِّيَّ؛ ففلاحُ غيرِهم من الأُممِ المفلِحين الذين سَبَقوهم كلا فَلاحٍ إذا نُسِب إلى فلاحِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٣٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٨).

الآية (١٥٨)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

المعنى الإجمالي:

يأمرُ اللهُ نَبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للنَّاسِ جَميعِهم: يا أيُّها النَّاسُ، إنِّي رسولُ اللهِ إليكم كُلِّكم، الذي له وحدَه مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما، لا معبودَ بِحقٍّ إلَّا هو وحدَه، بيَدِه وحدَه إحياءُ الخَلقِ وإماتَتُهم، فآمِنوا- أيُّها النَّاسُ- باللهِ ورَسولِه مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، النَّبيِّ الأمِّيِّ، الذي يؤمِنُ باللهِ وكَلِماتِه، واتَّبعوه؛ لعلَّكم تهتدونَ.

تَفسيرُ الآية:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى لموسى- عليه السلام- صفةَ مُحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأخبرَ أنَّ مَن أدركَه وآمَنَ به، أفلح- أمَرَ تعالى نبيَّه بإشهارِ دَعوَتِه ورسالَتِه إلى النَّاسِ كافَّةً، والدُّعاءِ إلى الإيمانِ باللهِ ورسولِه وكَلِماتِه، واتِّباعِه[1].

وأيضًا لَمَّا دعا أهلَ التَّوراةِ مِن بني إسرائيلَ إلى اتِّباعِه، وكان ربَّما توهَّم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٦).

مُتَوهِّمٌ أنَّ الحُكمَ مَقصورٌ عليهم- أتى بما يدلُّ على العُمومِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الرَّسولَ الأُمِّيَّ، استطرَدَ بتذكيرِ بني إسرائيلَ بما وعَدَ اللهُ به موسى عليه السَّلام، وإيقاظًا لأفهامِهم بأنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو مِصداقُ الصِّفاتِ التي عَلَّمَها اللهُ موسى(٢).

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ كُلِّهم: يا أيُّها النَّاسُ، إنِّي مُرسَلٌ مِن اللهِ إلى جَميعِكم؛ مِن العَرَب وغَيرِهم، ولم أُرسَلْ إلى بعضِكم دونَ بَعضٍ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أُعطيتُ خمسًا لم يُعطَهنَّ أحدٌ مِنَ الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٤/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٨).
قال ابنُ كثيرٍ: (هذا خطابٌ للأحمَرِ والأسوَدِ، والعربيِّ والعَجَميِّ: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميعِكم، وهذا مِن شَرَفِه وعَظَمَتِه؛ أنَّه خاتَم النبيِّينَ، وأنَّه مبعوثٌ إلى النَّاسِ كافَّةً... وهو معلومٌ مِن دِينِ الإسلامِ ضرورةً؛ أنَّه- صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- رسولُ اللهِ إلى النَّاسِ كُلِّهم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٩).

مَسيرةَ شَهرٍ، وجُعِلَت لي الأرضُ مسجدًا وطَهورًا، وأيُّما رجلٍ مِن أمَّتي أدركَتْه الصَّلاةُ فلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائِمُ، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأُعطِيتُ الشَّفاعةَ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((والذي نَفسُ محمَّدٍ بيَدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمَّةِ؛ يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرسِلْتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النَّارِ))(٢).

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: إنِّي رسولُ مَن له وَحدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ وما فيهما، وله وَحدَه تدبيرُ ذلك، والقيامُ بتَصريفِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، وحدَه دونَ ما سواه(٤).

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨) ومسلم (٥٢١).

(٢) رواه مسلم (١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٨ - ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٩).

وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾.

أي: هو وَحدَه الذي بيَدِه إحياءُ الخَلقِ وإماتَتُهم[1].

كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ﴾.

مُناسبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا صَدَّرَ الأمرَ بخطابِ جَميعِ البَشَرِ، وكان فيهم مَن لا يؤمنُ باللهِ، وفيهم مَن يؤمِنُ باللهِ ولا يؤمِنُ بالنَّبيِّ الأمِّيِّ- جمعَ بين الإيمانِ باللهِ والإيمانِ بالنَّبيِّ الأمِّيِّ في طَلَبٍ واحدٍ؛ ليكونَ هذا الطَّلبُ مُتوجِّهًا للفِرَق كُلِّهم، ليجمَعوا في إيمانِهم بين الإيمانِ باللهِ والنبيِّ الأمِّيِّ، مع قضاءِ حَقِّ التأدُّبِ مع الله بجَعلِ الإيمانِ به مُقَدَّمًا على طلَبِ الإيمانِ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ للإشارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٩ - ٢٢٠).

إلى أنَّ الإيمانَ بالرَّسولِ إنَّما هو لأجْلِ الإيمانِ بالله[١]، فقال تعالى:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾.

أي: فآمِنُوا- أيُّها النَّاسُ- باللهِ تعالى، الذي تلك صِفَتُه، وآمِنوا برَسولِه محمَّدٍ النَّبيِّ الذي لا يكتُبُ ولا يقرأُ مِن كتابٍ[٢].

﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

أي: الذي يؤمِنُ بالله، ويوحِّدُه في عبادَتِه، ويؤمِنُ بكَلِماتِ اللهِ، التي منها جميعُ كُتُبِه التي أنزَلَها على رُسُلِه صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٩ - ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٩ - ٥٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢١).

قال الشِّنقيطي: (والتحقيقُ: أنَّ كَلِماتِ اللهِ أعَمُّ مِن كُتُبِه، وأنَّها لا يُحصِيها إلَّا هو جَلَّ وعلا، كما نوَّه عنها في أُخرَياتِ الكَهفِ وأُخرياتِ لُقمانَ، في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، وكلماتُ اللهِ لا يعلَمُها إلَّا اللهُ جلَّ وعلا، ولو كانت البُحورُ مِداداً لكلماتِه لنَفِدَت البُحورُ وتلاشَت، قبل أن تنفَدَ كلماتُه جلَّ وعلا). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٣٩).

أي: واقتَدُوا- أيُّها النَّاسُ- بهذا الرَّسولِ، وأطيعوه؛ لأجلِ أن تهتَدُوا إلى الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قال تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ مَن كان يحيي ويميتُ، فهو الذي يُخافُ منه غايةَ الخَوفِ؛ لأنَّه لا يقَعُ على الإنسانِ في هذه الدَّارِ الدُّنيا حادِثٌ أعظَمُ مِن الموتِ، الذي يقطَعُه عن كُلِّ شيءٍ، ولا شيءَ أعظَمُ- مِن التصَرُّفات- مِن إحياءِ الإنسانِ بعدَ مَوتِه، والإتيانِ به حيًّا بعد أن صار عِظامًا رَميمًا- سبحانَ رَبِّنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٢).

قال الرَّازي: (المتابعةُ تتناوَلُ المتابعةَ في القَولِ وفي الفِعلِ؛ أمَّا المتابعةُ في القَولِ فهو أن يمتثِلَ المكَلَّفُ كُلَّ ما يقولُه في طرفَي الأمرِ والنَّهي، والتَّرغيب والتَّرهيب. وأمَّا المتابعةُ في الفِعلِ فهي عبارةٌ عن الإتيانِ بمِثلِ ما أتى المتبوعُ به، سواءٌ كان في طَرَف الفِعلِ أو في طَرَف التَّركِ، فثبت أنَّ لَفظَ ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ يتناوَلُ القِسمينِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٦).

قال الشِّنقيطي: (ومعنى اتِّباعه: هو الاقتداءُ به فيما جاء به مِن عقائِدَ وأفعالٍ وأقوالٍ). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٢٢).

وخالِقِنا، ما أعظَمَه! وما أعظَمَ قُدرَتَه جلَّ وعلا! وما أظهَرَ براهينَ تَوحيدِه[١]!

٢- الدَّعوةُ لا بُدَّ أن يسبِقَها إيمانُ الدَّاعي بحقيقةِ ما يدعو إليه، ووضوحُه في نَفسِه، ويقينُه منه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾، فجاء وصفُ النبيِّ المُرسَل إلى النَّاسِ جميعًا بأنَّه ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ليس هناك رجاءٌ في أن يهتديَ النَّاسُ بما يَدعوهم إليه رسولُ اللهِ- صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- إلَّا باتِّباعِه فيه، ولا يكفي أن يُؤمِنوا به في قُلوبِهم ما لم يَتْبَعِ الإيمانَ الاتِّباعُ العَمَليُّ، وهو الإسلامُ، إنَّ هذا الدِّينَ يُعلِنُ عن طبيعَتِه، وعَن حَقيقَتِه في كلِّ مُناسبةٍ، إنَّه ليس مجرَّدَ عقيدةٍ تَستكِنُّ في الضَّميرِ، كما أنَّه كذلك ليس مجرَّدَ شعائِرَ تُؤدَّى وطقُوسٍ، إنَّما هو الاتِّباعُ الكامِلُ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يُبلِّغُه عن رَبِّه، وفيما يَشرَعُه ويَسُنُّه، والرَّسولُ لم يأمُرِ النَّاسَ بالإيمانِ باللهِ ورَسولِه فحَسبُ، ولم يأمُرْهم كذلك بالشَّعائِرِ التعبُّديَّة فحسْبُ، ولكنَّه أبلَغَهم شريعةَ اللهِ في قَولِه وفِعلِه، ولا رجاءَ في أن يهتديَ النَّاسُ إلَّا إذا اتَّبَعوه في هذا كُلِّه، فهذا هو دينُ اللهِ، وليس لهذا الدِّينِ مِن صورةٍ أخرى إلَّا هذه الصُّورةُ التي تُشيرُ إليها هذه اللَّفتةُ: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بعد الأمرِ بالإيمانِ باللهِ ورَسولِه، ولو كان الأمرُ في هذا الدِّينِ أمرَ اعتقادٍ وكَفى، لكانَ في قَولِه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الكفايةُ[٣]!

٤- على الخلقِ كلِّهم اتباعُ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فلا يعبدونَ إلا اللهَ،

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويعبدونَه بشريعةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم لا بغيرِها، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ المقصودُ مِن ذِكرِ هذه الأوصافِ الثَّلاثة: تذكيرُ اليَهودِ، ووَعظُهم؛ حيث جحَدوا نبوَّةَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وزعموا أنَّه لا رسولَ بعد موسى، واستعظَموا دعوةَ مُحمَّدٍ، فكانوا يعتقدونَ أنَّ موسى لا يُشبِهُه رَسولٌ، فذُكِّروا بأنَّ اللهَ مالِكُ السَّمواتِ والأرضِ، وهو واهِبُ الفَضائِلِ، فلا يُستعظَمُ أن يُرسِلَ رَسولًا، ثم يُرسِلَ رَسولًا آخَرَ؛ لأنَّ المُلكَ بيَدِه، وبأنَّ اللهَ هو الذي لا يُشابِهُه أحدٌ في ألوهيَّتِه، فلا يكونُ إلَهانِ للخَلقِ، وأمَّا مَرتبةُ الرِّسالةِ فهي قابلةٌ للتعَدُّدِ، وبأنَّ اللهَ يحيي ويُميتُ، فكذلك هو يُميتُ شريعةً ويُحيي شريعةً أخرى، وإحياءُ الشَّريعةِ إيجادُها بعد أنْ لم تكُنْ؛ لأنَّ الإحياءَ حَقيقَتُه إيجادُ الحياةِ في الموجودِ، ثم يحصُلُ مِن هذه الصِّفاتِ إبطالُ عقيدةِ المُشركينَ بتعَدُّدِ الآلهةِ وبإنكارِ الحَشرِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ دلَّ على أنَّه لا يُشرِّعُ للخلقِ، ويأمرُهم وينهاهم، ويحرِّم عليهم إلا الملكُ، الذي هو نافذُ التصرُّفِ نفوذًا مطلقًا، وله الكلمةُ العليا، وهو فوقَ كلِّ شيءٍ[3].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ لَمَّا أثبَتَ تعالى هذه الأصولَ المذكورةَ بهذه الدَّلائِلِ المذكورةِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٣١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٨).

في هذه الآيةِ، ذكَرَ بَعدَه قولَه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وهذا التَّرتيبُ في غايةِ الحُسنِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا بيَّنَ أوَّلًا أنَّ القَولَ ببَعثةِ الأنبياءِ والرُّسُلِ- عليهم السَّلامُ- أمرٌ جائزٌ مُمكِنٌ، أردَفَه بذِكرِ أنَّ مُحمَّدًا رسولٌ حَقٌّ مِن عندِ الله؛ لأنَّ مَن حاولَ إثباتَ مَطلوبٍ، وجبَ عليه أن يُبيِّنَ جوازَه أوَّلًا، ثمَّ حصولَه ثانيًا[1].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ لَمَّا كان الإيمانُ باللهِ هو الأصلَ يتفَرَّعُ عنه الإيمانُ بالرَّسولِ والنبيِّ، بدأ به، ثم أتبَعَه بالإيمانِ بالرَّسولِ، ثم أتبَعَ ذلك بالإشارةِ إلى المُعجِزِ الدَّالِّ على نبوَّتِه، وهو كونُه أميًّا، وظهر عنه من المُعجِزاتِ في ذاتِه ما ظهَرَ مِن القُرآنِ الجامِعِ لعُلومِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، مع نشأتِه في بلدٍ عارٍ مِن أهلِ العِلمِ، لم يقرأْ كتابًا ولم يخُطَّ، ولم يصحَبْ عالِمًا، ولا غابَ عن مكَّةَ غَيبةً تقتضي تعلُّمًا[2].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ الإيمانُ باللهِ: الإيمانُ بأعظَمِ صِفاتِه، وهي الإلهيَّةُ المتضمِّنُ إيَّاها اسمُ الذَّاتِ، والإيمانُ بالرَّسولِ: الإيمانُ بأخَصِّ صِفاتِه، وهو الرِّسالةُ، وذلك معلومٌ مِن إناطةِ الإيمانِ بوَصفِ الرَّسولِ دونَ اسمِه العَلَمِ[3].

٦- قال الله تعالى: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ كلماتُ اللهِ تشمَلُ كُتُبَه ووحيَه للرُّسُلِ، وأوثِرَ هنا التعبيرُ بكَلِماتِه، دون كُتُبِه؛ لأنَّ المَقصودَ الإيماءُ إلى إيمانِ الرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بأنَّ عيسى كَلِمةُ الله، أي: أثَرُ كَلِمَتِه، وهي أمرُ التَّكوينِ؛ إذ كان تكَوُّنُ عيسى عن غيرِ سَبَبِ التكَوُّنِ المُعتادِ، بل كان تكَوُّنُه بِقَولِ اللهِ: كُن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤١).

مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فاقتضى أنَّ الرَّسولَ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يُؤمِنُ بعيسى، أي: بِكَونِه رَسولًا مِن الله، وذلك قَطعٌ لِمَعذرةِ النَّصارى في التردُّدِ في الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واقتضى أنَّ الرَّسولَ يُؤمِنُ بأنَّ عيسى كلمةُ الله، وليس ابنَ اللهِ، وفي ذلك بيانٌ للإيمانِ الحَقِّ، ورَدٌّ على اليهودِ فيما نسَبُوه إليه، ورَدٌّ على النَّصارى فيما غَلَوْا فيه[١].

بلاغةُ الآيةِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ تأكيدُ الخَبَرِ بـ (إنَّ) باعتبارِ أنَّ في جملةِ المُخاطَبينَ مُنكِرينَ ومُتَردِّدينَ، استقصاءً في إبلاغِ الدَّعوةِ إليهم[٢].

- وتأكيدُ ضَميرِ المُخاطبينَ في (إليكم) بوَصْفِ ﴿ جميعًا ﴾ الدَّالِّ نصًّا على العُمومِ؛ لرَفعِ احتمالِ تَخصيصِ رِسالَتِه بغيرِ بني إسرائيلَ؛ فإنَّ مِن اليهودِ فريقًا كانوا يزعمونَ أنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نبيٌّ، ويزعمونَ أنَّه نبيُّ العَرَبِ خاصَّةً[٣].

٢- وتقديمُ المَجرورِ ﴿ لَهُ ﴾ في قَولِه: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ للقَصرِ، أي: لا لِغَيرِه ممَّا يعبُدُه المُشركون، فهو قَصرٌ إضافيٌّ؛ للرَّدِّ على المُشركينَ[٤].

٣- قَولُه: ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ حالٌ مِن اسمِ الجلالةِ، في قُوَّةِ (مُتفَرِّدًا بالإلهيَّةِ)، وهذا قَصرٌ حَقيقيٌّ؛ لتحقيقِ صِفةِ الوَحدانيَّةِ، لا لقَصدِ الرَّدِّ على المُشركينَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٤٠).

٤- قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ...﴾ فيه التفاتٌ؛ حيث عَدَل عن الضَّميرِ - فلم يقُل (فآمِنُوا باللهِ وبي)- إلى الاسمِ الظَّاهِرِ؛ لتجريَ عليه الصِّفاتُ التي أُجرِيَت عليه، ولِما في طريقةِ الالتفاتِ من البلاغةِ، وليُعلِمَ أنَّ الذي يجِبُ الإيمانُ به، واتِّباعُه، هو هذا الشَّخصُ المُستقلُّ بأنَّه النبيُّ الأميُّ، الذي يؤمِنُ باللهِ وكلماتِه كائنًا مَنْ كان، أنا أو غيري؛ إظهارًا للنَّصَفةِ، وتفاديًا مِنَ العصبيَّةِ لِنَفسِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٨٤).

الآيتان (١٥٩-١٦٠)

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾: أي: فرَّقْناهم، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ، وإبانةِ شَيءٍ مِن شيءٍ(١).

﴿أَسْبَاطًا﴾: أي: قبائِلَ، وأصلُ (سبط): يدلُّ على امتدادِ شَيءٍ(٢).

﴿اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾: أي: طلَبُوا السُّقيا، والاستِسقاءُ: طلَبُ السَّقيِ، وأصلُ (سقي): إشرابُ الشَّيءِ الماءَ، وما أشبَهَه(٣).

﴿فَانْبَجَسَتْ﴾: أي: انفَجَرت، والبَجسُ: انشقاقٌ في قِربةٍ، أو حَجرٍ، أو أرضٍ يَنبُع منها ماءٌ(٤).

﴿عَيْنًا﴾: العينُ هاهنا إشارةٌ إلى المكانِ الذي ينبُعُ أو يسيلُ منه الماءُ، لا إلى الماءِ بِعَينِه، وأصلُ (عين): يدلُّ على عضوٍ به يُبصَر ويُنظَر، ثم يُشتَقُّ منه، وإنَّما

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٧٤٠).
(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٤)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٤).
(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩٩).

سُمِّيَتْ العَيْنُ الجاريَةُ النَّابِعَةُ مِنْ عُيونِ الماءِ عَيْنًا؛ تَشْبيهًا لها بالعَيْنِ النَّاظِرَةِ؛ لِصَفائِها ومائِها (١).

﴿مَشْرَبَهُمْ﴾: أي: مَوضِعَ شُربِهم، وهو مَفعَلٌ مِن الشَّرابِ، يكونُ للمَصدَرِ والزَّمانِ والمكانِ(٢).

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾: أي: جَعَلْناه يُظلِّلُكم، والظِّلُّ: ما أظلَّك مِن سحابٍ ونَحوِه. وأصلُ (ظلل): يدلُّ على سَترِ شَيءٍ لشَيءٍ(٣).

﴿الْغَمَامَ﴾: جمعُ غمامةٍ، وهو سحابٌ أبيضُ، سُمِّي بذلك لأنَّه يغمُّ السَّماءَ، أي يستُرُها، وأصلُ الغَمِّ: سَترُ الشَّيءِ، وكُلُّ شيءٍ غطَّيتَه فقد غمَّمتَه(٤).

﴿المَنَّ﴾: شيءٌ حُلوٌ كان يسقُطُ على شَجَرِهم، فيجتَنونَه فيأكلونَه، وقيل: المنُّ مصدرٌ يَعُمُّ جميعَ ما مَنَّ اللَّه به على عبادِه مِن غيرِ تَعَبٍ ولا زَرْعٍ، وأصلُ (منن): اصطِناعُ خَيْرٍ(٥).

﴿وَالسَّلْوَى﴾: طائِرٌ يُشبِهُ السُّمانَى، لا واحِدَ له مِن لفظِه، واشتقاقُ السَّلوى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩٩) ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦١، ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٩٦) ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥-١٠٦)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٦٧١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

من السَّلوةِ؛ لأنَّه لطِيبِه يُسلِّي عن غَيرِه[(١)].

مشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾

﴿اثْنَتَيْ﴾ مَنصوبٌ، على أنَّه حالٌ مِن مفعولِ ﴿قَطَّعْنَاهُمْ﴾، أي: فَرَّقْناهم معدودِينَ بهذا العددِ. أو يكون ﴿قَطَّعْنا﴾ متضمِّنًا معنى (صَيَّرنا)، فيَكونُ ﴿اثْنَتَيْ﴾ مَفعولًا ثانيًا، وتمييزُ ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ محذوفٌ لِفَهمِ المعنى، وتقديره: اثنتَي عَشرةَ فرقةً أو أمَّةً، و﴿أَسْبَاطًا﴾ بدلٌ مِن ذلك التَّمييزِ، و﴿أُمَمًا﴾: نَعتٌ لـ ﴿أَسْبَاطًا﴾، أو بَدَلٌ مِنها بعدَ بدلٍ. ولم تُعرَبْ ﴿أَسْبَاطًا﴾ تمييزًا؛ لوَجهينِ؛ أحدُهما: أنَّ المعدودَ ﴿أَسْبَاطًا﴾ مُذكَّرٌ؛ لأنَّ أسباطًا جمعُ سِبْطٍ، فكان التَّركيبُ يكون (اثْنَيْ عَشَرَ). والثاني: أنَّ تمييزَ العَدَدِ المركَّب- وهو من أحدَ عَشَر إلى تسعةَ عشَرَ- مفردٌ منصوبٌ، و﴿أسباطًا﴾ جَمْعٌ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى أنَّ هناك جماعةً مِن قومِ موسى يهتدونَ بالحَقِّ الذي أنزلَه اللهُ، وبالعَدلِ يَحكمونَ، فلا يَظلمونَ النَّاسِ.

ويُخبِرُ تعالى أنَّه قسَّم قومَ مُوسى إلى اثنتي عشرةَ قبيلةً، تشمَلُ كلُّ قبيلةٍ جماعةً كثيرةً، وأوحى إلى موسى- لَمَّا طلب منه قَومُه أن يسقِيَهم، وهم في التِّيهِ- أنْ يَضرِبَ بعصاه الحَجَرَ، فانفجَرَت منه اثنتا عشرةَ عينًا مِن الماء، قد عَلِمَ كلُّ قبيلةٍ مِن تلك القبائِلِ العينَ التي تخصُّهم، فيشربونَ منها لا يشارِكُهم فيها

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٣٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٨٤-٤٨٧).

غيرُهم، وظلَّلَ اللهُ عليهم السَّحابَ في التِّيهِ يقيهِم حرَّ الشَّمسِ، وأنزل عليهم المَنَّ والسَّلوى، وأمَرَهم بالأكلِ مِن طيباتِ الرِّزقِ، فخالفوا أمر الله وعصَوه سبحانه، وَمَا ظَلَمُوا الله تعالى بفعلِهم ذلك؛ لأنَّ اللهَ لا تضرُّه معصيةُ العاصينَ، وإنما ظَلَموا بذلك أنفُسَهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمر اللهُ تعالى بالإيمانِ باللهِ ورسولِه، وأمر باتِّباعِه، ذكر أنَّ مِن قَومِ موسى مَن وُفِّقَ للهدايةِ، وعَدَلَ ولم يَجُرْ، ولم تكن له هِدايةٌ إلَّا باتِّباعِ شريعةِ موسى قبل مَبعَثِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وباتِّباعِ شَريعةِ رَسولِ اللهِ بعد مَبعَثِه، فهذا إخبارٌ عمَّن كان مِن قَومِ موسى بهذه الأوصافِ(١).

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: ومِن أتباعِ موسى- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِن بني إسرائيلَ، جماعةٌ يهتدونَ بالحقِّ الذي شَرَعَه اللهُ عزَّ وجلَّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٢، ٢٤٢، ٢٤٣).

وتفسير ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ بمعنى: يهتدونَ به فيستقيمونَ عليه، ويعملون به. هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، وابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١).

وقيل معناه: يرشدونَ النَّاسَ إليه. وهذا اختيارُ الزَّجاجِ، والبغويِّ، والقرطبيِّ، والسَّعدي، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) =

كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال جلَّ جلاله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

أي: وبالحقِّ الذي أنزله الله تعالى يحكمونَ، وبالعَدلِ يقومونَ، فلا يظلمونَ النَّاس(١).

= (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٢، ٢٤٢، ٢٤٣).

قال ابنُ عاشور: (وقَومُ مُوسى هم أتباعُ دِينِه مِن قَبلِ بَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم، فمَن بَقِيَ متمسِّكًا بدِينِ مُوسى بعد بلوغِ دَعوةِ الإسلامِ إليه، فليس مِن قَومِ موسى، ولكِن يقال: هو مِن بني إسرائيل، أو مِن اليهودِ؛ لأنَّ الإضافةَ في قومِ موسى تؤذِنُ بأنَّهم مُتَّبِعو دينِه الذي من جملةِ أصولِه ترقُّبُ مَجيءِ الرَّسولِ الأُمِّيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير =

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)﴾.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.

أي: وقسَّمنا قومَ موسى- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- اثنتَي عَشرةَ قبيلةً، كلُّ قبيلةٍ عبارةٌ عن جماعةٍ كثيرةٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾.

أي: وقُلْنا لنبيِّنا موسى حينَ طلَب منه قَومُه أن يسقِيَهم ماءً، وهم في التِّيهِ: اضرِبْ بعصاك الحجَرَ(٢).

= البغوي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١).

قال السعدي: (وكأنَّ الإتيانَ بهذه الآيةِ الكريمةِ فيه نوعُ احترازٍ ممَّا تقدَّم؛ فإنَّه تعالى ذكَر فيما تقدَّمَ جملةً مِن معايبِ بني إسرائيلَ، المُنافية للكمالِ، المُناقِضة للهدايةِ، فربَّما توهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ هذا يعمُّ جميعَهم، فذكر تعالى أنَّ منهم طائفةً مستقيمةً، هاديةً مَهدِيَّةً). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٢ - ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٨).

قال الرازي: (والمرادُ أنَّه تعالى فرَّق بني إسرائيلَ اثنتي عشرةَ فِرقةً؛ لأنَّهم كانوا مِن اثنَي عشَر رجلًا مِن أولادِ يعقوبَ، فميَّزَهم، وفعل بهم ذلك؛ لئلَّا يتحاسَدوا، فيقَعَ فيهم الهَرج والمَرج). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠].

﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

أي: فانفجَرَت مِن الحَجَرِ الذي ضرَبَه موسى بعصاه اثنتا عشرةَ عينًا مِن الماء[١].

كما قال تعالى: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠].

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾.

أي: قد عرَف كُلُّ سِبطٍ- وهم بنو أبٍ واحدٍ- عينَهم التي تخرُجُ مِن الحَجَرِ، فيَشربونَ منها، ولا يشارِكُهم فيها غيرُهم مِن الأسباطِ[٢].

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾.

أي: وسَتَرْنا قومَ موسى بالسَّحابِ، يقيهم مِن حَرِّ الشَّمسِ، وهم في التِّيهِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧].

= قال السعدي: (يحتملُ أنَّه حجَرٌ مُعَيَّن، ويحتملُ أنَّه اسمُ جنسٍ، يشمَلُ أيَّ حجرٍ كان). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٦).

قال السَّعدي: (أي: قد قَسَمَ على كلِّ قبيلةٍ من تلك القبائِلِ الاثنتَي عشرةَ، وجَعَلَ لكلٍّ منهم عينًا، فعَلِموها، واطمأنُّوا، واستراحوا من التَّعَبِ والمُزاحمة والمُخاصَمة، وهذا مِن تَمامِ نعمةِ اللهِ عليهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩٨) و (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٧).

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾.

أي: وأنزَلْنا على قَومِ موسى، وهم في التِّيهِ، رِزقًا طيِّبًا سَهلًا، يحصُلون عليه بلا كُلفةٍ، ولا مشقَّةٍ، وهو المَنُّ: الذي قيل: إنَّه كل ما امتنَّ الله تعالى به عليهم مِن الطَّعامِ والشَّرابِ، ممَّا ليس في تحصيلِه كلفةٌ ولا مشقَّةٌ. قيل: هو التُّرَنجَبين، وهو شيءٌ أبيضُ ينزِلُ على الشَّجَرِ كالنَّدى، حُلوٌ، يُشبِه العَسلَ الأبيض، والسَّلوى: وهو طائر، قيل: هو السُّمَانَى، وقيل: يُشبِه السُّمَانَى[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

وعن سعيدِ بنِ زَيدٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الكَمْأةُ مِن المَنِّ[2]))[3].

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

أي: وقُلنا لقومِ موسى: كُلُوا مِن حَلالِ المُستلَذَّاتِ التي رزَقْناكم[4].

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٠٤) و (١٠/ ٥٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (١/ ١٣٨)، ((المفردات)) للراغب الأصفهاني (ص: ٧٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٧).

(٢) الكَمأةُ: نَباتٌ لا وَرَقَ لها ولا ساقَ، تُوجَدُ في الأرضِ مِن غَيرِ أن تُزرَعَ، وتُعرَف عندَ بعضِ الناسِ بالفقع.

والمَنُّ: هو الذي أُنزِلَ على بني إسرائيلَ، وشَبَّهَ به الكَمأةَ؛ بجامِعِ ما بَينَهما من وجودِ كُلٍّ منهما عَفوًا بغيرِ عِلاجٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ١٦٣)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٧١٠).

(٣) رواه البخاري (٤٤٧٨) ومسلم (٢٠٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٨ - ٢٥٩).

أي: فعَصَوني، ولم يشكُروا نِعمَتي عليهم، وما أدخَلوا علينا بذلك نقصًا في مُلكِنا، ولم يضرُّونا، ولكن كانوا يَنقُصونَ أنفُسَهم حُظوظَها مِن الخَيرِ، ويضرُّونها بتعريضِها لاستحقاقِ عِقابي(١).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

المُكَلَّفُ إذا أقدَمَ على المعصيةِ، فهو ما أضَرَّ إلَّا نَفسَه؛ حيث سعى في صيرورةِ نَفسِه مُستحِقَّةً للعِقابِ العَظيمِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فالأمَمُ العظيمةُ لا تخلو مِن أهلِ الحَقِّ والعَدلِ، فهذا مِن بَيانِ القرآنِ للحَقائِقِ، وعَدْلِه في الحُكم على الأمَمِ(٣).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لَمَّا وصَفَهم بهذه الكثرةِ في قَولِه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، وكان ذلك مجرى لِذِكرِ الإنعامِ عليهم بالكِفايةِ في الأكلِ والشُّربِ؛ ذكَرَ نعمةً خارقةً للعادةِ في الماءِ، وبدأ به؛ لأنَّه الأصلُ في الحياةِ(٤).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٣).

الْحَجَرَ﴾، التعبيرُ بالقَومِ إشارةٌ إلى تبكيتِهم بكَونِهم أهلَ قُوَّةٍ، ولم يتأسَّوا بموسى عليه السَّلامُ، في الصَّبرِ إلى أن يأتيَ اللهُ- الذي أمَرَهم بهذا المسيرِ- بالفَرَجِ[١].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لَمَّا أتمَّ تبريدَ الأكبادِ، أتبَعَه غذاءَ الأجسادِ[٢].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ هنا قَولٌ مُقَدَّرٌ يكثُرُ مِثلُه في التَّنزيلِ وكلامِ العَرَبِ، أي: (وقُلْنا لهم: كُلُوا من طيِّباتِ ما رَزَقْناكم)، فوُضِعَ هذا الوصفُ للمَنِّ والسَّلوى موضِعَ الضَّميرِ؛ لتعظيمِ شأنِ المنَّةِ بهما[٣].

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فيه تَخصيصٌ لظاهِرِ العُمومِ الَّذي في قَولِه: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى...﴾ قُصِدَ به الاحتراسُ؛ لِئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ ذلك قد عَمِلَه قومُ موسى كلُّهم، وللتَّنبيهِ على دفعِ هذا التوهُّمِ، قَدَّمَ ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ على متعلَّقِه. وفيه إشارةٌ إلى التَّقليلِ، وأنَّ مُعظَمَهم لا يهدي بالحَقِّ، ولا يَعدِلُ به، وهم إلى الآن كذلك؛ دخَل في الإسلامِ مِن النَّصارى عالَمٌ لا يعلَمُ عددَهم إلَّا اللهُ تعالى، وأمَّا اليَهودُ فقليلٌ مَن آمَنَ مِنهم[٤].

- وتقديمُ المجرورِ في قَولِه: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ للاهتمامِ به ولرعايةِ الفاصِلةِ؛ إذ لا مُقتضيَ لإرادةِ القَصرِ، بقرينة قَولِه: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ حيث لم يُقدِّمِ المجرورَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣١١).
(٤) يُنظر: ((البحر المحيط)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢).

- وجاء قولُه: ﴿يَهْدُونَ﴾ و﴿يَعْدِلُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ المفيدِ الاستمرارَ؛ لتصويرِ الماضي في صورة الحاضِرِ(١).

٢- قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

- جيءَ باسمِ العَدَدِ بصيغةِ التأنيثِ في قولِه: ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾؛ لأنَّ السبطَ أُطلقَ هنا على الأُمَّة، فحذفَ تمييز العددِ؛ لدلالةِ قولِه: ﴿أُمَمًا﴾ عليه(٢).

- وتعريفُ الحَجَرِ؛ لتعظيمِ جِرمِه(٣).

- قَولُه ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكَلامُ قد حُذِفَ؛ أي: فضَرَب فانبجَسَت؛ تعويلًا على كَمالِ الظُّهورِ، وإيذانًا بغايةِ مُسارَعَتِه عليه السَّلامُ إلى الامتثالِ، وسُرعةِ التأثيرِ عن ضَربِه، وتنبيهًا على كَمالِ سرعةِ الانبجاسِ- وهو الانفجارُ، كأنَّه حصل إثرَ الأمرِ قبلَ تحقُّقِ الضَّربِ(٤).

- وقولُه هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾، وفي سورةِ البقرةِ: ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، فالانبجاسُ ابتداءُ الانفجارِ، والانفجارُ بعدَه غايةٌ له، فلما كان الواقعُ في الأعرافِ طلبَ بني إسرائيلَ مِن موسَى عليه السلامُ السُّقيا؛ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾، ولما كان الواردُ في

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢، ١٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٢)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٢٧).

سورةِ البقرةِ طلبَ موسَى عليه السلامُ مِن ربِّه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ فطلبُهم ابتداءٌ، فناسَبه الابتداءُ، وطلبُ موسَى عليه السلامُ غايةٌ لطلبِهم؛ لأنَّه واقعٌ بعدَه، ومرتَّبٌ عليه، فناسب الابتداءُ الابتداءَ، والغايةُ الغايةَ، فقيل جوابًا لطلبِهم: ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾، وقيل إجابةً لطلبِه: ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ وتناسَب ذلك، وجاء على ما يجِبُ، ولم يكنْ ليناسبَ العكسُ[1]، وأيضًا لأنَّ الانفجارَ أبلغُ في كثرةِ الماءِ، فناسَبَ سِياقَ ذِكْرِ النِّعَمِ في سورةِ البقرةِ التعبيرُ به[2].

- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إسنادُ الرِّزقِ إلى ضميرِ جَمعِ العَظَمةِ تأكيدٌ؛ للتَّنبيه والتَّذكيرِ بما يجِبُ مِن شُكرِه تعالى على ذلك[3].

- قَولُه: ﴿ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تقديمُ المفعولِ ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ لإفادةِ القصْرِ الذي يقتضيه النفيُ السَّابقُ، وفيه ضَربٌ مِن التهكُّمِ بهم. والجمعُ بين صِيغَتي الماضي والمستقبَلِ؛ للدَّلالةِ على تمادِيهم فيمَا هُم فيهِ من الظُّلمِ والكُفرِ[4].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل)) للغرناطي (١/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣١١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٢-٢٨٣).

الآيتان (١٦١-١٦٢)

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حِطَّةٌ﴾: أي: طَلَبُنا أن تحُطَّ عنَّا ذنوبَنا، وأصلُ الحطِّ: إنزالُ الشَّيءِ مِن علوٍّ[١].

﴿سُجَّدًا﴾: أي: رُكَّعًا، والسُّجودُ أصلُه: التَّطامُن والتَّذلُّل، وجُعِلَ ذلك عبارةً عن التَّذلُّلِ لله، وعبادَتِه، وهو عامٌّ في الإنسانِ والحيواناتِ والجَماداتِ[٢].

﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾: جمعُ خطيئةٍ، وهي فعيلةٌ مِن الخطأِ، وهو العُدولُ عن القَصدِ والجِهةِ؛ يقال: خَطِئَ الرجلُ يَخْطَأُ خِطْأً: إذا تعمَّدَ الذَّنبَ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

واذكرُ- يا محمَّدُ- إذ قال اللهُ لِقَومِ موسى: اسكُنوا بيتَ المَقدِس، وكُلوا مِن ثِمارِها وحُبوبِها ونَباتِها في أيِّ مكانٍ شِئتُم منها، وقولوا: مسألَتُنا يا ربَّنا أن تحُطَّ ذُنوبَنا، وادخُلوا بابَ القريةِ ركَّعًا متواضعينَ خاضعينَ للهِ، نَغفِرْ لكم ذُنوبَكم، وسنزيدُ المُحسنينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

فغيَّرَ الذين ظَلَموا مِن قَومِ موسى قولًا غيرَ الذي أُمِرُوا أن يقولوه، فأرسَلَ اللهُ عليهم عذابًا مِن السَّماءِ؛ بسبَبِ ظُلمِهم لأنفُسِهم بالمعاصي.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى ما حَباهم في القِفارِ؛ أتبَعَه إنعامَه عليهم عند الوُصولِ إلى الدَّارِ، فقال سبحانه[1]:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين قال اللهُ تعالى لقَومِ موسى لَمَّا خَرَجوا مِن مِصرَ: اسكنُوا مدينةَ بيتِ المَقدِس، واستوطِنُوها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).
قال الشنقيطيُّ: (وأكثرُ المفسِّرين على أنَّ هذه القريةَ هي بيتُ المقدسِ، وبعضُ المفسِّرين يقولُ: هي أَرِيحا. وبعضُهم يقولُ غيرَ ذلك، فهي قريةٌ في فلسطينَ مِن قُرَى الشَّام). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٦٠).

مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٢].

﴿وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾.

أي: قال الله لِقَومِ موسى: وكُلُوا مِن ثِمارِ هذه القَريةِ وحُبوبِها ونَباتِها، في أيِّ مكانٍ شِئتُم منها[1].

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾.

أي: وقولوا: طَلَبُنا ومسألَتُنا- يا ربَّنا- أن تحُطَّ ذُنوبَنا[2].

﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدًا﴾.

أي: وادخُلوا بابَ القَريةِ رُكَّعًا مُنحَنينَ مُتواضِعينَ، وخاضِعينَ لله تعالى[3].

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔتِكُمۡ﴾.

أي: إذا قُمتم بما أمَرَكم اللهُ تعالى به فقُلتم: حِطَّةٌ، ودخَلْتُم بابَ القَريةِ ساجِدينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

اختار أنَّ السُّجودَ هنا بمعنى الانحناءِ تواضعًا وخضوعًا لله تعالى: مقاتلُ بن سليمان، والسمعاني، وابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ عاشورٍ، ونسَبَ ابنُ جريرٍ لابنِ عبَّاس أنَّه انحناءُ ركوعٍ، ولم يحْكِ قولًا سواه. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٨٣)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ١٣٧)، ((الفتاوى الكبرى)) (١/ ٣٥٨)، ((زاد المعاد)) (٤/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٤).

وقيل: بل هو سُجودُ شُكرٍ لله تعالى، وهذا ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختاره الشِّنقيطي، وابنُ عثيمينَ، في تفسيرِهم لنظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ البَقَرة. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٤)، ((العذب النمير)) (١/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة البقرة)) (١/ ١٩٩-٢٠٠).

فإنَّنا نسترُ جميعَ ذُنوبِكم، ونتجاوَزُ عن مؤاخَذَتِكم بها[١].

﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

أي: سنزيدُ المُطيعينَ لله، الذين أحسَنوا أعمالَهم، وأتقَنوها بمراقبةِ اللهِ تعالى فيها، فعَبَدوه كأنَّهم يَرونَه؛ سنزيدُهم على مَغفِرَتِنا لذُنوبهم، ثوابًا مِن خيرِ الدُّنيا والآخِرة[٢].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بارزًا يومًا للنَّاسِ، فأتاه جبريلُ، فقال: ما الإحسانُ؟ قال: أن تعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٤-٢٦٦).

لم تكُنْ تراه فإنَّه يراك))[1].

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

أي: فغيَّر الظَّالمون مِن قَومِ موسى ما أمَرَهم اللهُ أن يَقولوه ليغفِرَ لهم ذُنوبَهم، فقالوا بدَلَ حِطَّة: حَبَّةٌ في شَعرةٍ[2]!!

عن أبي هريرةَ رَضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قيل لبني إسرائيلَ: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] فبدَّلوا، فدَخَلوا يزحَفونَ على أسْتاهِهم، وقالوا: حبَّةٌ في شَعرة))[3].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: فبَعَثْنا على الذين بدَّلوا ما أمَرَهم الله به، عذابًا نزَلَ عليهم من السَّماءِ؛ إمَّا الطَّاعونَ، وإمَّا غيرَه[4].

كما قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾[البقرة: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[العنكبوت: ٣٤].

وعن أسامةَ بنِ زيدٍ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٣) رواه البخاري (٤٦٤١)، واللفظ له، ومسلم (٣٠١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

وسلَّم: ((الطَّاعونُ رِجزٌ أو عذابٌ أُرسِلَ على بني إسرائيلَ، أو على مَن كان قَبلَكم، فإذا سَمِعتُم به بأرضٍ، فلا تَقدَمُوا عليه، وإذا وقَعَ بأرضٍ وأنتم بها، فلا تَخرُجوا فرارًا منه))[1].

﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

أي: أرسَلْنا على قومِ موسى العذابَ؛ بسبَبِ ظُلمِهم لأنفسِهم بمعصيةِ اللهِ[2].

الفَوائد التربويَّة:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ العبرةُ فيه أن نتَّقيَ الظُّلمَ والفِسقَ، ونَعلَمَ أنَّ اللهَ يُعاقِبُ الأمَمَ على ذُنوبِها في الدُّنيا قبل الآخرةِ، وأنَّه قد عاقب بني إسرائيلَ بظُلمِهم، ولم يَحُلْ دون عقابِه ما كان لهم مِن المزايا والفضائِلِ، وكثرةِ وُجودِ الأنبياءِ فيهم[3].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ عبَّرَ هنا بالمجهولِ في ﴿قيل﴾ أي: مِن أيِّ قائلٍ كان، وبأيِّ صيغةٍ ورَدَ القَولُ، وعلى أيِّ حالةٍ كان؛ وذلك إعراضًا عن تلذيذِهم بالخِطابِ؛ إيذانًا بأنَّ هذا السِّياقَ للغَضَبِ عليهم؛ بتساقُطِهم في الكُفرِ، وإعراضِهم عن الشُّكر، وإظهارًا للعَظَمةِ؛ حيث كانت أدنى

---

(١) رواه البخاري (٦٩٧٤) ومسلم (٢٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).
قال أبو السُّعود: (﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ بسبَبِ ظُلمِهم المستمِرِّ السَّابِقِ واللَّاحِقِ، حسَبَما يفيدُه الجَمعُ بين صيغَتَي الماضي والمستقبَل، لا بسبَبِ التَّبديلِ فقط). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣١٥-٣١٦).

إشارةٍ منه كافيةً في سُكناهم في البِلادِ، واستقرارِهم فيها، قاهِرينَ لأهلِها الذين مَلؤُوا قلوبَهم هيبةً(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ جُمِعَ ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ جمعَ قلَّةٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّها قليلٌ في جَنبِ عَفوِه تعالى(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ القائِلَ مَن له إلزامُهم، بنى الفِعلَ للمَجهولِ في قَولِه ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾(٣).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ لم يُفصِّلْ نوعَ العَذابِ الذي أصابَهم؛ لأنَّ غَرَضَ القصَّةِ يتمُّ بدون تعيينِه، فالغَرَضُ هو بيانُ عاقبةِ المعصيةِ عن أمرِ اللهِ، وتحقيقُ النُّذْرِ، ووقوعُ الجزاءِ العادِلِ الذي لا يُفلِتُ منه العُصاةُ(٤).

بلاغة الآيتين:

- هاتان الآيتان (١٦١-١٦٢) من سورةِ الأعرافِ، نظيرُ ما في سورةِ البَقَرةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨- ٥٩]، وفِيهما مُناسَباتٌ حَسنةٌ من وجوهٍ، وبيانُ ذلك على النحو التالي(٥):

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٨٢).
(٥) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٣٦- ٤٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) =

- عبَّرَ هنا في سورة الأعرافِ بقَولِه: ﴿اسْكُنُوا﴾، وفي سورةِ البَقَرةِ بقَولِه: ﴿ادْخُلُوا﴾ لأنَّ القَولينِ قيلَا لهم، أي قيل لهم: ادخُلوا واسكُنوها. وقيل: إنَّ أمْرَهم بدخولِ القَريةِ مُغايرٌ مِن حيث المعنى لأمْرِهم بسُكناها، وإن كان الأمرُ بدُخولِهم قد يُشيرُ بما نُسِقَ معه إلى سُكناها، لكنْ ليس نصًّا، بل ولا هو ظاهِرٌ، وإنَّ آيةَ الأعراف بيَّنَتْ ذلك، وأوضحتِ المقصودَ، وحصَل الأمرُ بالدُّخول والسُّكنى، وتبيَّنَ وجهُ ورودِ العِبارَتينِ على الترتيبِ.

- وقال هنا: ﴿وَكُلُوا﴾ وفي سُورةِ البقرة قال: ﴿فَكُلُوا﴾ بَحرْفِ التعقيبِ؛ لأنَّ الأكلَ لا يكونُ إلَّا بعد الدُّخولِ، ولا يكونُ قَبلَه ولا معه، وإنَّما يكونُ مرتَّبًا عليه، ولأنَّ الدُّخولَ سَريعُ الانقِضاءِ فيتبَعُه الأكلُ؛ فجيءَ بالحرفِ الذي يُبيِّنُ ذلك المعنى، ويُفيدُ أنَّه على التعقيبِ مِن غيرِ مُهلة. وأمَّا قولُه: ﴿وَكُلُوا﴾ هنا في سورة الأعراف؛ فلأنَّ السَّكَنَ مُنجرٌّ معه الأكلُ ومُساوِقٌ له، ولا يمكِنُ أن يكونَ مُرتَّبًا عليه؛ فجاء بالحَرفِ الصَّالح لذلك المعنى، وهو الواو، والمعنى: أقيموا فيها، وذلك ممتَدٌّ؛ فذُكِرَ بالواو، أي: اجمَعوا بين الأكلِ والسُّكونِ؛ فقيلَ في البقرة بما يُرادِفُ فاءَ التعقيبِ؛ لأنَّ التعقيبَ معنًى زائدٌ على مُطلَقِ الجَمعِ، الذي تفيدُه واو العَطفِ في سورة الأعرافِ.

- وردَ قَولُه: ﴿رَغَدًا﴾ في البقرة، ولم يَرِدْ في الأعراف؛ وذلك لأنَّ مفهومَ السُّكنى الوارد في الأعرافِ، مع الأمرِ بالأكلِ حيث شاؤوا، مع انضمامِ معنى الامتنانِ والإنعامِ المقصودِ في الآيةِ؛ كلُّ ذلك مُشعِرٌ ومعرِّفٌ بتمادي الأكلِ، وقوَّةُ السِّياقِ مانعةٌ مِن التَّحجير والاقتصارِ؛ فحصل معنى الرَّغَد، فوقَع الاكتفاءُ بهذا المفهومِ الحاصِل قطعًا من سياقِ آيةِ الأعرافِ، ولو لم

= للكرماني (ص: ٧٢- ٧٤)، ((البرهان)) للزركشي (١/ ١٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٥- ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٤-١٤٦).

يَرِد في سورةِ البَقَرة لم يُفهَم من سياقِ الآيةِ كفَهمِه مِن سياقِ آية الأعرافِ، وأيضًا ذَكَرَ ﴿رَغَدًا﴾ في سورةِ البقرة؛ لأنَّ زيادةَ المنَّة أدخَلُ في تقويةِ التَّوبيخِ، وأيضًا لأنَّه سبحانه أسنَدَه إلى ذاتِه بلَفظِ التَّعظيمِ، وهو قولُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بخلافِ ما في الأعراف؛ فإنَّ فيه ﴿وَإِذ قِيلَ﴾.

- واقتُصِرَ هنا على حِكايةِ أنَّه قيل لهم، وكانت آيةُ البقرةِ أَوْلى بحكايةِ ما دلَّت عليه فاءُ التَّعقيبِ؛ لأنَّ آيةَ البقرةِ سيقَت مَساقَ التَّوبيخِ، فناسَبَها ما هو أدَلُّ على المنَّةِ، وهو تعجيلُ الانتفاعِ بخَيراتِ القَريةِ، وآياتُ الأعرافِ سِيقَت لمجرَّدِ العبرةِ بقصَّةِ بني إسرائيلَ، ولأجْلِ هذا الاختلافِ مُيِّزَت آيةُ البَقَرة بإعادةِ الموصولِ وصِلَتِه في قَولِه: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾، وعُوِّضَ عنه هنا بضميرِ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ لأنَّ القَصدَ في آيةِ البَقَرة بيانُ سببِ إنزالِ العَذابِ عليهم مرَّتين، أُشيرَ إلى أولاهما بما يومِئُ إليه الموصولُ مِن علَّةِ الحُكم، وإلى الثَّانية بحرف السببيَّةِ، واقتصَرَ هنا على الثاني.

- وقد وقع في سورة البَقَرة لفظ ﴿فَأَنْزَلْنَا﴾، ووقع هنا لَفظُ ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ ولَمَّا قُيِّدَ كِلاهما بقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ كان مفادُهما واحدًا، فالاختلافُ لمجرَّدِ التفنُّنِ بين القصَّتينِ، أو لأنَّ لَفظَ الرَّسولِ والرِّسالة كَثُر في الأعرافِ، فجاء ذلك وَفقًا لِما قَبلَه، وليس كذلك في سورةِ البقرةِ.

- وعبَّرَ هنا ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ وفي البقرة ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ لأنَّه لَمَّا اقتضى الحالُ في القِصَّتينِ تأكيدَ وَصْفِهم بالظُّلم، وأُدِّي ذلك في البقرة بقَولِه: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾- استُثقِلت إعادةُ لَفظِ الظُّلمِ هنالك مرةً ثالثةً، فعدَلَ عنه إلى ما يُفيدُ مفادَه، وهو الفِسقُ، وهو أيضًا أعَمُّ، فهو أنسبُ بتذييلِ التَّوبيخِ، وجِيء هنا بلَفظِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لئلَّا يفوتَ تسجيلُ الظُّلمِ عليهم مرةً ثالثةً، فكان تذييلُ آيةِ البَقَرة أنسبَ بالتَّغليظِ في ذمِّهم؛

لأنَّ مقامَ التَّوبيخِ يَقتضيه. وقيل: إنَّ وجهَ ذلك: أنَّه لَمَّا وُصِفَ اعتداؤُهم نِيطَت بهم أوَّلًا صفةُ الظُّلمِ، ومِن المعلومِ أنَّ مَواقِعَه تتَّسِعُ، ثُم لَمَّا ذَكَر من اعتدائِهم وسُوءِ مُرتكَبِهم غيرَ ما تَقَدَّم، وتضاعَفَ مُوجِبُ وَبيلِ جَزائِهم- وُصِفوا بالفِسقِ المُنبِئِ عن حالٍ أوبَقَ من الظُّلم، فالفِسقُ نقيضُ الإيمانِ، وفي طَرَفٍ منه؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾، والظُّلمُ قد يقعُ على أضعَفِ المعاصي، ولوقوعِه على مُختَلفاتِ المآثِمِ، ومُطابَقتِه لِما قَلَّ أو كثُرَ منها، وُصِفَ بالعِظَمِ حين أُريدَ به الشِّركُ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وإذا تقرَّرَ هذا، فسياقُ آياتِ البَقَرة مِن لَدُن قولِه تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إلى ذِكرِ وَصْفِهم بتظليلِهم بالغمامِ؛ ذُكِروا فيه أولًا بالظُّلم، فقال تعالى عَقِبَ ذِكرِ تظليلِهم بالغَمامِ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، ثم أردفَ ذِكرَ اعتدائِهم في تبديلِهم قولًا غيرَ الذي قيل لهم، وأعقَبَ بقَولِه: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، وجَعَلَ الفِسقَ ختامَ وصفِهم الجاري؛ جزاءً على مُرتكَباتِهم، ولم يقَعْ بعده ذِكرُ علَّةٍ مَنوطةٍ بجزاءِ ما وقعَ منهم، وأمَّا آيةُ الأعراف فهي جاريةٌ على منهجِ ما ورد في سورة البَقَرةِ، وأنَّ أوَّلَ وَصفِهم جزاءً على مُرتكَباتِهم قَولُه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ فطابَقَ هذا ما ورَدَ في البقرةِ مِن تَقَدُّم وصفِهم أوَّلًا بالظُّلم، ثم بعد ذلك بالفِسقِ، ووضحَ الاتِّفاقُ في ختامِ القِصَّة في السُّورتينِ مِن غيرِ اختلافٍ فيهما.

- ووقع في هذه الآية ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ ولم يقَعْ لَفظُ ﴿مِنْهُمْ﴾

في سورةِ البَقَرة، ووجهُ زيادَتِها هنا: التصريحُ بأنَّ تبديلَ القَولِ لم يصدُرْ مِن جَميعِهم، وأجمَلَ ذلك في سورة البقرة؛ لأنَّ آيَةَ البقرة لَمَّا سِيقَت مساقَ التَّوبيخ ناسَب إرهابَهم بما يُوهِمُ أنَّ الذين فعلوا ذلك هم جميعُ القَومِ؛ لأنَّ تَبِعاتِ بعض القبيلةِ تُحمَلُ على جماعَتِها؛ لأنَّ آيَةَ البَقَرة يُفهَم منها أنَّها ليست على عُمومِها، فزادت آيةُ الأعراف تخصيصًا سمعيًّا بما يعطيه حرفُ التَّبعيضِ في قولِه تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾، وآيةُ الأعراف مخَصِّصةٌ للعموم البادي من آيةِ البقرة؛ ولهذا القَصدِ من التَّخصيصِ ورد أيضًا في سورة البَقَرة: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يَرِدْ فيها (فأنزَلْنا عليهم)؛ لأنَّه لو ورد كذلك لكان يتناوَلُ المتقَدِّمَ ذكرُهم على التَّعميمِ، وليس مقصودًا، فناسب: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنَّ المُعَذَّب هو الظَّالم ممَّن تَقدَّم، وجاء في الأعراف: ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ لتخصيصِ ذِكرِ الظَّالمِ بقَولِه: ﴿مِنْهُمْ﴾ فجاء كلٌّ على ما يجِبُ.

- وقدَّم في سورةِ البَقَرة قَولَه: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ على قَولِه: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وعَكَسَ هنا في الأعرافِ؛ لأنَّ قَولَهم: (حِطَّةٌ) دعاءٌ أُمِروا به في سُجودِهم، فلو ورد في السُّورتينِ على حدٍّ سواءٍ، لأوهَم من حيث مقتضى الواو من الاحتمالِ، أنَّهم أُمِروا بالسُّجودِ والقَولِ منفصلينِ غيرَ مُساوِقٍ أحدُهما للآخَرِ، على أحدِ مُحتمَلاتِ الواو في عدمِ الرُّتبةِ، فقَدَّمَ وأخَّرَ في السُّورتين؛ ليُحرِزَ المجموعُ أنَّ المرادَ بهذا القَولِ أن يكونَ في حالِ السُّجودِ لا قَبلَه ولا بَعدَه وتعيَّن بهذا معنى المعيَّةِ مِن محتَمَلات الواوِ، وتحرَّرَ المقصودُ، وأنَّ المراد: وادخلوا البابَ سجَّدًا قائلينَ في سجودكم: حِطَّةٌ، فاكتفى بتقلُّبِ الورودِ عن الإفصاحِ بمعنى المعيَّة؛ إيجازًا جليلًا، وبلاغةً عظيمةً، وقدَّم في البقرةِ الأمرَ بالسُّجودِ؛ لأنَّ ابتداءَ السُّجودِ يتقدَّمُ ابتداءَ الدُّعاءِ، ثمَّ يتساوَقُ

المطلوبانِ، فجاء ذلك على التَّرتيبِ الثَّابتِ في السُّور والآياتِ.

ومن عادة العَرَب في كلامِهم: أَنَّهم يقَدِّمونَ ما بيانُه أهَمُّ لهم، وهم به أعْنَى؛ فقولُه تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ مقتضاه على ما تمهَّدَ الابتداءُ بأوَّلِ الأمرَينِ، فلا يمكنُ تحصيلُ ذلك في الآيتين إلَّا بالمساوَقةِ، وكونِهما معًا في حالةٍ واحدةٍ. وقيل: هو اختلافٌ في الإخبارِ لمُجرَّد التفنُّنِ؛ فإنَّ كِلا القولينِ واقعٌ، قُدِّم أو أُخِّر.

- وأمَّا الاختلافُ في جمعِ خطيئة في السُّورتين؛ فإنَّها تُجمَع من حيثُ ثبوتُ تاء التأنيث في الواحدةِ منها بالألفِ والتاءِ، وتُجمَع أيضًا جمع تكسيرٍ، وورد جمعُها في البقرة جمعَ تكسيرٍ؛ ليُناسِبَ ما بُنِيَت عليه آياتُ البقرة من تَعدادِ النِّعَم والآلاءِ، لأنَّ جموعَ التَّكسير- ما عدَا الأربعةَ الأبنيةِ التي هي: (أفعُل وأفعال وأفعِلة وفِعْلة)- إنما ترِدُ في الغالِبِ للكثرة؛ فطابق الوارِدُ في البَقَرة ما قُصِدَ من تكثيرِ الآلاءِ والنِّعَم، وأمَّا الجمعُ بالألف والتَّاء فبابُه القِلَّةُ في الغالِبِ أيضًا ما لم يقتَرِنْ به ما يبيِّنُ أنَّ المرادَ به الكثرةُ؛ فناسَب ما ورد في الأعرافِ من حيثُ لم تُبْنَ آياتُها على قَصدِ تَعدُّد النِّعَم، على ما بُنِيَت عليه آياتُ البَقَرة، ولأنَّ صِيغةَ الجَمعِ الكثيرِ ومَغفِرَتَها في قوله: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، أليقُ في آيةِ البقرةِ بإسنادِ الفِعلِ إلى نفْسِه سبحانَه؛ فجاء كلٌّ على ما يناسِبُ.

- وأيضًا قولُه: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه وعدٌ بشيئَينِ: بالغُفرانِ، وبالزِّيادةِ، وطَرحُ الواو لا يُخلُّ بذلك؛ لأنَّه استئنافٌ مُرتَّبٌ على تقديرِ قَولِ القائِلِ: وماذا بعد الغُفرانِ؟ فقيل له: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٠).

الآيات (١٦٣-١٦٦)

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾: أي قريبةً مِن شاطِئِه، وأصلُ (حضر) إيرادُ الشَّيءِ، ووُرودُه ومُشاهَدَتُه(١).

﴿يَعْدُونَ﴾: أي: يتعَدَّون ويُجاوِزونَ ما أُمِروا به، أو يظلمونَ؛ يقال: عَدَوْتُ على فلانٍ: إذا ظَلَمْتَه، والاعتِداءُ: مُجاوزةُ الحقِّ(٢).

﴿حِيتَانُهُمْ﴾: الحوتُ: السمكُ، وقيل: العَظيمُ مِنه، وهو مُضطرِبٌ أبدًا غيرُ مُستقِرٍّ، ويقال: حاوَتَني فلانٌ، أي: راوَغَني مُراوغةَ الحُوتِ، وأصله: مِن الاضطرابِ والرَّوغانِ(٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٤)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٣/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٨٣).

﴿شُرَّعًا﴾: أي: ظاهرةً، واحِدُها شارعٌ، وأصلُ (شرع): شيءٌ يُفتَح في امتدادٍ يكونُ فيه[(١)].

﴿لا يَسْبِتُونَ﴾: أي: لا يَفعَلونَ سَبتَهم، أو لا يَدَعونَ العَمَلَ في السَّبتِ، وقيل: معناه: لا يقطعونَ العَمَل، وقيل: لا يكونونَ في السَّبتِ، وأصلُ السَّبتِ: القَطعُ[(٢)]

﴿نَبْلُوهُمْ﴾: أي: نَختبِرُهم ونمتَحِنُهم[(٣)].

﴿يَفْسُقُونَ﴾: أي: يَخرُجونَ عَنِ الطَّاعةِ، وذلك مِن قولِهم: فسَقَ الرُّطَبُ، إذا خرجَ عَن قِشرِه، والفُسوق: خروجٌ مِن الطَّاعةِ إلى المعصيةِ، وخروجٌ من الإيمانِ إلى الكُفرِ[(٤)].

﴿تَعِظُونَ﴾: أي: تَنْهونَ وتَزجُرونَ[(٥)].

﴿مَعْذِرَةً﴾: أي: لِنُعذَرَ فيهم، والعُذْرُ: تحرِّي الإنسانِ ما يمحو به ذنوبَه؛ فهو مَصدَرُ (عَذَرْت)، كأنَّه قيل: أطلُبُ منه أن يَعذِرَني[(٦)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠).

﴿بَئِيسٍ﴾: أي: شَدِيدٍ، والبُؤْسُ والبَأْسُ والبَأْسَاءُ: الشدَّةُ والمَكروهُ، إلَّا أنَّ البُؤسَ في الفَقرِ والحَربِ أكثَرُ، والبأسُ والبأساءُ في النِّكايةِ، وأصلُ الكَلِمةِ مِن الشِّدَّة(١).

﴿عَتَوْا﴾: أي: تكبَّروا وتجبَّروا، والعُتُوُّ: النبُوُّ عن الطَّاعةِ، وأَصلُه يدُلُّ على استكبارٍ(٢).

﴿خَاسِئِينَ﴾: أي: صاغِرينَ ذليلينَ، أو باعِدينَ ومُبعَدينَ أيضًا، والخسوءُ: الصَّغارُ والطَّردُ، ويقال: خَسَأْتُ الكَلبَ فَخَسَأَ، أي: زَجَرتُه مستهينًا به فانزجَرَ(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يسألَ اليَهودَ الذين بحَضرتِه، عن القريةِ التي على شاطئِ البَحرِ، وأن يستفسِرَهم عن اعتداءِ أهلِها يومَ السَّبتِ، ومُخالَفَتِهم لأمرِ اللهِ؛ بتعظيمِ ذلك اليومِ، والانقطاعِ للعبادةِ، وتركِ الاصطيادِ فيه، حين كانت تأتيهم الحيتانُ يومَ السَّبتِ كثيرةً ظاهرةً ومُقبلةً، وفي بقيَّةِ الأيَّامِ غَيرِ السَّبتِ لا تأتيهم، كذلك يختبِرُهم اللهُ بما كانوا يفسُقونَ.

واذكر- يا محمَّدُ- حين قالت جماعةٌ مِن أهلِ تلك القريةِ لِمَن كان يعِظُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٤٣٨).

المُعتدينَ منهم: لمَ تنهَونَ المُستحِلِّينَ للصَّيدِ يومَ السَّبتِ، واللهُ تعالى مُهلِكُهم، أو مُعذِّبُهم عذابًا شديدًا، فأجابوهم: نفعلُ ذلك مَعذِرةً إلى رَبِّكم فيما أخَذ علينا مِن الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهي عن المُنكَر، ولعلَّ هؤلاء المُعتدينَ يتَّقونَ اللهَ، ويجتنبونَ المعصيةَ، فلمَّا تَرَكَ المعتدونَ ما ذُكِّروا به، ولم يَقبَلوا نصيحةَ الواعظِينَ؛ أنجى اللهُ الذين ينهونَ عَن المعصيةِ، وأخذَ الذينَ ظَلَموا أنفسَهم بمعصِيَتِهم لله، بعذابٍ شديدٍ نتيجةَ فِسقِهم.

فلمَّا تَمَرَّدوا وتجاوَزوا ما نُهوا عنه، وتمادَوْا في صَيدِ السَّمَكِ يومَ السَّبتِ، قال اللهُ لهم: صِيرُوا قردةً حَقيرينَ، مَطرودينَ مِن الخَيرِ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾.

أي: واسأَلْ- يا محمَّدُ- اليهودَ الذين بحَضرَتِك، عن خَبرِ المدينة التي كانت على شاطئِ البحرِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٤).

قال الشنقيطي: (قصةُ هذه القريةِ كان يُخفِيها اليهودُ؛ لأنَّها سُبَّةٌ عليهم، وإخبارُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم بها، وسؤالُهم عنها مع أنَّه نبيٌّ أُميٌّ- مِن مُعجِزاتِه وأدلَّةِ نُبُوَّتِه؛ لأنَّه ما عَلِمَها إلَّا عن طريقِ الوَحيِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٧١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣١٦). =

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾.

أي: اسألِ اليَهودَ عن اعتداءِ أهلِ تلك القريةِ في يومِ السَّبتِ، ومُخالَفَتِهم ما أمَرَهم اللهُ به مِن تعظيمِ يومِ السَّبتِ بالانقطاعِ للعِبادةِ، وتَركِ العَمَلِ، والاصطيادِ فيه[1].

كما قال سبحانه: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ [النساء: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾.

أي: اسْألْهم حينَ اعتدى أهلُ تلك القريةِ عندما كانت الأسماكُ الكثيرةُ تَجيءُ إليهم في يَومِ السَّبتِ مُقبلةً ظاهرةً، وكثيرةً على وَجهِ البَحرِ[2].

= وقال ابنُ عاشور: (هذه القصَّةُ ليست مما كُتِب في توراةِ اليَهودِ، ولا في كُتُبِ أنبيائِهم، ولكنَّها ممَّا كان مرويًّا عن أحبارِهم، ولذلك افتُتِحَت بالأمرِ بسُؤالِهم عنها؛ لإشعارِ يهودِ العَصرِ النبويِّ بأنَّ اللهَ أطلعَ نبيَّه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- عليها، وهم كانوا يكتُمونَها.. وهذه القريةُ قيل: (أَيْلَة)، وهي المسمَّاةُ اليومَ (العَقَبة)، وهي مدينةٌ على ساحِلِ البَحرِ الأحمرِ، قُربَ شِبهِ جزيرة طور سِينا، وهي مبدأُ أرضِ الشَّامِ مِن جِهةِ مِصرَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٦ - ١٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٠٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

قال الرازي: (قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ معناه: يومَ تَعظيمِهم أمرَ السَّبتِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١).
وقال البيضاوي: (مصدرُ (سَبَتَتِ اليهودُ): إذا عظَّمت سَبتَها بالتجَرُّدِ للعبادةِ، وقيل: اسمٌ لليومِ، والإضافةُ لاختصاصِهم بأحكامٍ فيه). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٩). ويُنظر: ((البسيط)) =

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

أي: وفي سائرِ الأيَّامِ غيرِ يومِ السَّبتِ لا تأتيهم الحِيتانُ[١].

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

أي: مِثلَ ذلك الابتلاءِ العَظيمِ الذي وصَفْنا؛ نختَبِرُهم؛ بسبَبِ خُروجِهم عن طاعةِ اللهِ[٢].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَرتَكِبوا ما ارتكَبَت اليهودُ، فتستحِلُّوا محارِمَ اللهِ بأدنى الحِيَل))[٣].

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤)﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾.

أي: واذكُرْ[٤]- يا مُحمَّدُ- حينَ قالت جماعةٌ مِن أهلِ تلك القَريةِ لِمَن كان

= للواحدي (٩/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

(٣) رواه ابن بطة في كتابه ((إبطال الحيل)) (ص: ٤٦).

جوَّد إسناده ابن تيمية في ((بيان الدليل)) (٨٦)، وابن القيم في ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٥١٣)، وابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٤٩٢)، وصححه ابن باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٩/ ٢٣٠).

(٤) قدَّر المحذوف هاهنا بـ(اذكر): ابنُ جرير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((العذب النمير)) (٤/ ٢٧٩). =

يعِظُ المُعتَدينَ منهم: لِماذا تَنهَونَ المُستحِلِّينَ للصَّيدِ في يَومِ السَّبتِ، واللهُ سيُهلِكُهم في الدُّنيا بعذابٍ يستأصِلُهم[١]؟!

﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

أي: أو سيعذبهم الله بعذابٍ شديدٍ[٢].

= وقدَّره بـ(اسأل): أي: اسألْ بني إسرائيلَ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٩ - ٢٨٠).

قال ابنُ كثيرٍ: (يُخبِرُ تعالى عن أهلِ هذه القَريةِ أنَّهم صاروا إلى ثلاثِ فِرَقٍ: فِرقةٌ ارتكَبَت المحذورَ، واحتالوا على اصطيادِ السَّمَك يومَ السبت، .. وفرقةٌ نَهَت عن ذلك، وأنكَرَت واعتزَلَتْهم. وفرقةٌ سَكَتَت فلم تَفعَلْ ولم تَنهَ، ولكنَّها قالت للمُنكِرةِ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ أي: لم تَنهَونَ هؤلاءِ، وقد عَلِمتُم أنَّهم هَلَكوا واستحَقُّوا العقوبةَ مِن اللهِ؟ فلا فائدةَ في نَهيِكم إيَّاهم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤). والقَولُ بأنَّهم افترَقوا ثلاثَ فِرَقٍ هو قولُ جُمهورِ المُفَسِّرينَ، كما نسبَه إليهم القُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٧).

وقال الرازي: (قوله: ﴿أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: جماعةٌ مِن أهلِ القَريةِ- مِن صُلحائِهم الذين رَكِبوا الصَّعبَ والذَّلولَ في مَوعظةِ أولئك الصيَّادينَ، حتى أيِسُوا مِن قَبولِهم- لأقوامٍ آخَرينَ ما كانوا يُقلِعونَ عَن وَعظِهم. وقوله: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي: مُختَرِمُهم، ومُطَهِّرُ الأرضِ منهم ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لِتماديهم في الشَّرِّ، وإنَّما قالوا ذلك لِعِلمِهم أنَّ الوَعظَ لا ينفَعُهم). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٨ - ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٥).

قال أبو السعود: (﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دونَ الاستئصالِ بالمرةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٥).

وقال الشوكانيُّ: (قالوا ذلك على غلبةِ الظنِّ لما جرتْ به عادةُ الله مِن إهلاكِ العصاةِ، أو تعذيبِهم مِن دونِ استئصالٍ بالهلاكِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٣).

وقال أبو حيان: (يحتملُ أن يكونَ العذابُ في الدُّنيا، ويحتملُ أن يكونَ في الآخرةِ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٨ - ٢٠٧).

وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بالعذابِ هنا عذابُ الآخرةِ. وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الطلاق: ٨-١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦].

وقال جلَّ جلاله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٧].

﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

أي: قال الذين يَنهونَ المُعتَدينَ عن مَعصيةِ اللهِ: نحن نعِظُهم مِن أجلِ أن نُعذَرَ عند اللهِ فيما فَرَض علينا مِن الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ، فلا يؤاخِذنا بالتَّقصيرِ في ذلك[1].

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أي: ونَعِظُهم أيضًا رجاءَ أن تُؤَثِّرَ فيهم موعِظَتُنا، فيمتَثِلوا أوامِرَ اللهِ تعالى،

= والزجاجِ، وابنِ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

قال ابنُ عاشور: (ومعنى اعتذرَ: أظهر العُذْر، والعذرُ السببُ الذي تبطلُ به المؤاخذةُ بذنبٍ أو تقصيرٍ، فهو بمنزلةِ الحجةِ التي يُبديها المؤاخَذُ بذنبٍ؛ ليظهرَ أنَّه بريءٌ مما نُسِب إليه، أو متأوِّلٌ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٢).

ويجتَنِبوا نواهِيَه، فيكفُّوا عن اقترافِ هذا الجُرمِ العَظيمِ، وهو مخالفةُ نَهيِ اللهِ تعالى عن صَيدِ السَّمكِ يَومَ السَّبتِ[1].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)﴾.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

أي: فلما تَرَكَ المُعتَدونَ ما أمَرَهم اللهُ تعالى به مِن تَعظيمِ يَومِ السَّبتِ، ولم يَقبَلوا نصيحةَ الواعظينَ[2].

﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾.

أي: أنجَينَا مِن العَذابِ، الذين كانوا يَنهَونَ المُعتَدينَ عن ارتكابِ السيِّئاتِ، واستحلالِ المُحرَّماتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٤ - ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

قال ابنُ كثير: (نصَّ على نجاةِ النَّاهينَ، وهلاكِ الظَّالِمينَ، وسكَتَ عن السَّاكِتينَ؛ لأنَّ الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فهم لا يستحقُّونَ مدحًا فيُمدَحوا، ولا ارتكَبوا عظيمًا فيُذَمُّوا). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤).

قال الشِّنقيطيُّ: (أشكَلَ على ابنِ عبَّاسٍ أمْرُ الفِرقةِ السَّاكتة التي لم ترتَكِبْ ما نُهِيَت عنه، مِن اليهودِ، هل عُذِّبُوا أو نَجَوا، حتى بيَّنَ له مولاه عكرمةُ دُخولَهم في النَّاجِينَ دُونَ المُعَذَّبينَ، وهذا هو الحَقُّ؛ لأنَّه سبحانَه قال عن السَّاكتين: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأخبرَ أنَّهم أنكَروا فِعلَهم، وغَضِبوا عَليهم، وإنْ لم يواجِهوهم بالنَّهيِ، فقد واجَهَهم به مَن أدَّى الواجِبَ عنهم؛ فإنَّ الأمرَ بالمَعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ، فَرضُ كفايةٍ؛ فلما قام به أولئك سَقَط عن الباقِينَ، فلم يكونوا ظالِمينَ بِسُكوتِهم. وأيضًا فإنَّه سبحانَه إنَّما =

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾.

أي: وأخَذْنا الذين ظَلَموا أنفُسَهم بمعصِيةِ الله، بعذابٍ شَديدٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

أي: عذَّبناهم بسبَبِ خُروجِهم عن طاعةِ اللهِ[2].

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

أي: فلمَّا تَمَرَّدوا وتجاوَزوا ما نُهوا عنه، وتمادَوْا في صَيدِ السَّمَكِ يومَ السَّبتِ[3].

= عذَّبَ الذين نَسُوا ما ذُكِّروا به، وعَتَوا عمَّا نُهُوا عنه، وهذا لا يتناوَلُ السَّاكتينَ قَطعًا). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٢٢). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٢ - ٢٨٣).
قال ابنُ جريرٍ في معنى ﴿بَئِيسٍ﴾: (أهلُ التَّأويلِ أجمَعوا على أنَّ مَعناه: شَديد). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٧).
وقال ابنُ عاشور: (وقد أُجمِلَ هذا العَذابُ هنا، فقيل: هو عذابٌ غَيرُ المَسخِ المَذكورِ بَعدَه، وهو عذابٌ أُصيبَ به الذين نَسُوا ما ذُكِّروا به... أي: أنَّ اللهَ أعذَرَ إليهم، فابتَدَأهم بعذابِ الشدَّةِ، فلمَّا لم يَنتَهوا وعَتَوا، سلَّط عليهم عذابَ المَسخِ. وقيل: العَذابُ البَئيسُ هو المَسخُ، فيكونُ قَولُه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ بيانًا.. بمنزلةِ التَّأكيدِ لِقَولِه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾، صِيغَ بهذا الأسلوبِ؛ لتَهويلِ النِّسيانِ والعُتوِّ، ويكونُ المعنى: أنَّ النِّسيانَ- وهو الإعراضُ- وقع مقارنًا للعتوِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٣ - ٢٨٤).

(٣) وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ، والنحاسِ، والقرطبيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٨)، =

وقيل: فلمَّا تكبَّروا عن تَركِ ما نهاهم اللهُ عنه[1].

قال تعالى: ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال عز وجل: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

أي: فلما تمرَّدوا وتكبَّروا، قُلنا لهم: صِيرُوا قردةً حَقيرينَ، مَطرودينَ مِن الخَيرِ[2].

كما قال سبحانَه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

وقال تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

= ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٩).
وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٩).

(١) وهو اختيارُ الواحديِّ، والزمخشريِّ، والرازي، وابنِ جزيٍّ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٩/ ٤٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٥).
وممَّن قال بنحوِ هذا مِن السَّلَفِ عكرمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦ - ٦٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٥ - ٢٨٦).

الفَوائِد التربويَّة:

١- مَن أطاعَ اللهَ تعالى خفَّفَ اللهُ عنه أحوالَ الدُّنيا والآخرةِ، ومَن عصاه ابتلاه بأنواعِ البَلاءِ والمِحَنِ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ففِسقُهم هو الذي أوجَبَ أن يبتَلِيَهم اللهُ تعالى، وأن تكونَ لهم هذه المِحنةُ، وإلَّا فلو لم يَفسُقوا، لعافاهم الله، ولَما عَرَّضَهم للبلاءِ والشَّرِّ[١].

٢- واجِبُ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، والتَّخويفِ مِن انتهاكِ الحُرُماتِ، فائِدَتُه أن نُبلِغَ إلى اللهِ تعالى عُذرَنا، ويَعلمَ أنْ قد أدَّيْنا واجِبَنا، ثمَّ لعلَّ النُّصحَ يؤثِّرُ في تلك القُلوبِ العاصيةِ، فيُثيرُ فيها وِجدانَ التَّقوى؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٢].

٣- العقوبةُ إذا نزلَت نجا منها الآمِرونَ بالمعروفِ، والنَّاهونَ عَن المنكَرِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[٣].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الحِيَلَ في تحليلِ الأمورِ التي حرَّمَها الشَّارِعُ، مُحرَّمةٌ؛ كنِكاحِ المُحَلِّل، وما أشبَهَه مِن الحِيَلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٨٤-١٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٣٦٠).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ زاد في تَبكيتِهم بالإشارةِ إلى المُسارعةِ في الكُفرِ، بالإضافةِ في قَولِه: ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ إيماءً إلى أنَّها مخلوقةٌ لهم، فلو صَبَروا نالوها وهم مُطيعونَ[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ انقسَمَ سكَّانُ القريةِ الواحدةِ إلى ثلاثِ أُممٍ: أمَّةٌ عاصيةٌ مُحتالةٌ، وأمَّةٌ تَقِفُ في وجهِ المَعصيةِ والاحتيالِ وقفةً إيجابيَّةً؛ بالإنكارِ والتَّوجيهِ والنَّصيحةِ، وأمَّةٌ تَدَعُ المُنكَرَ وأَهلَه، وتَقِفُ موقِفَ الإنكارِ السَّلبيِّ، ولا تَدفَعُه بعَمَلٍ إيجابيٍّ، وهي طرائِقُ مُتعدِّدةٌ مِن التصوُّرِ والحركةِ، تجعَلُ الفِرَقَ الثَّلاثَ أمَمًا ثلاثًا!

فلمَّا لم يُجْدِ النُّصحُ، ولم تنفَعِ العِظَةُ، وسَدَر السَّادرونَ في غَيِّهم، حقَّت كَلِمةُ اللهِ، وتحقَّقَت نُذُرُه، فإذا الذينَ كانوا يَنهَونَ عَنِ السُّوءِ، في نَجوةٍ مِن السُّوءِ، وإذا الأُمَّةُ العاصيةُ يحُلُّ بها العذابُ الشَّديدُ، فأمَّا الفِرقةُ الثَّالثة- أو الأمَّةُ الثَّالثةُ- فقد سكَتَ النَّصُّ عنها، ربَّما تهوينًا لِشَأنِها- وإن كانَتْ لم تُؤخَذْ بالعذابِ- إذ إنَّها قعَدَت عن الإنكارِ الإيجابيِّ، ووقَفَت عند حدودِ الإنكارِ السَّلبيِّ، فاستحَقَّتِ الإهمالَ، وإن لم تستحِقَّ العَذابَ[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٨٥).

جاء فيها بيانُ حِكمَتَينِ مِن حِكَمِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ؛ لأنَّ استقراءَ القُرآنِ دَلَّ على أنَّ الأمرَ بالمَعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ، له حِكَمٌ ثلاثٌ، تضمَّنَت هذه الآيةُ مِن تلك الحِكَمِ الثَّلاثِ اثنتينِ، أمَّا الحِكَمُ الثَّلاثُ:

فالأولى منها: أن يُقيمَ الإنسانُ عُذرَه أمامَ رَبِّه، ويَخرُجَ بذلك الأمرِ مِن عُهدةِ التَّقصيرِ في الأمرِ بالمَعروفِ؛ لِئلَّا يدخُلَ في قَولِه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] وهذه الحكمةُ أشاروا لها بِقَولِهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾.

الحكمةُ الثَّانيةُ: هي رَجاءُ انتفاعِ المُذَكَّرِ، كما قال هنا عنهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

الحكمةُ الثَّالثةُ مِن حِكَمِ الأمرِ بالمعروفِ التي لم تُذكَرْ في هذه الآيةِ الكريمةِ: هي إقامةُ الحُجَّةِ لله على خَلقِه في أرضِه نيابةً عَن رُسُلِه؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فأهلُ العِلمِ يُقيمونَ حُجَّةَ اللهِ على خَلقِه بإقامةِ الحُجَّةِ، والأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ، نيابةً عن الرُّسُلِ في ذلك[١].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ مَسَخَهم اللَّه إلى صورةِ القِرَدةِ، وهي أشبهُ شيءٍ بالأناسِيِّ في الشَّكْلِ الظَّاهِرِ، وليست بإنسانٍ حقيقةً، فكذلك أعمالُ هؤلاء وحِيَلُهم لـمَّا كانت مُشابهةً للحقِّ في الظَّاهِرِ، وَمُخالِفَةً له في الباطنِ، ولما كان الذَّنبُ الذي فعلُوه صورتُه صورةُ المباحِ، ولكنَّ حقيقتَه غيرُ مباحٍ، كَانَ جَزاؤُهم مِن جنسِ عَملِهم، فمُسِخوا قردةً، لما مسَخوا دينَ الله بحيثُ لم يتمسَّكوا إلا بما يشبهُ الدِّينَ في بعضِ ظاهِرِه، دونَ حقيقتِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣١).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

- ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ هذا السُّؤالُ معناه التَّقريرُ، والتَّقريعُ بقديمِ كُفرِهم وتجاوُزِهم حدودَ اللهِ، والإعلامُ بأنَّ هذا مِن عُلومِهم التي لا تُعلَمُ إلَّا بكِتابٍ أو وَحيٍ، فإذا أعلَمَهم به مَن لم يَقرأْ كِتابَهم، عُلِمَ أنَّه مِن جِهةِ الوَحيِ[(١)].

- قَولُه تعالى: ﴿يَعْدُونَ﴾ اختيارُ صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك منهم[(٢)].

- وقَولُه: ﴿سَبْتِهِمْ﴾ أضيفَ إلى ضَميرِهم؛ لاختصاصِه بهم بما أنَّهم يهود، تعريضًا بهم لاستحلالِهم حُرمةَ السَّبتِ[(٣)].

- قوله: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا لجوابِ سُؤالِ مَن يَقولُ: ما فائدةُ هذه الآيةِ مع عِلمِ اللهِ بأنَّهم لا يَرعَوُونَ عَن انتهاكِ حُرمةِ السَّبتِ[(٤)].

٢- قَولُه: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الاستفهامُ هنا إنكاريٌّ في معنى النَّفي، فيدلُّ على انتفاءِ جَميعِ العِلَلِ التي مِن شَأنِها أن يُوعَظَ لِتَحصيلِها، وذلك يُفضي إلى اليَأسِ مِن حُصولِ اتِّعاظِهم[(٥)].

- واسما الفاعِلِ في قَولِه: ﴿مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ مُستعملانِ في مَعنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٤٩-١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٥١).

الاستقبالِ، بِقَرينةِ المقامِ، وبقرينةِ التَّردُّدِ بين الإهلاكِ والعَذابِ؛ فإنَّها تُؤذِنُ بأنَّ أحدَ الأمرينِ غَيرُ مُعَيَّنِ الحُصولِ، لأنَّه مُستقبَلٌ، ولكِنْ لا يخلو حالُهم عن أحَدِهما[1].

٣- قَولُه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ بيانٌ لإجمالِ العَذابِ البَئيسِ- على القَولِ بأنَّ العذابَ البَئيسَ هو المَسخُ- وهو بمنزلةِ التَّأكيدِ لِقَولِه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا...﴾ صِيغَ بهذا الأُسلوبِ لِتَهويلِ النِّسيانِ والعُتُوِّ، ويكون المعنى أنَّ النِّسيانَ- وهو الإعراضُ- وقع مُقارِنًا للعُتُوِّ؛ وما ذُكِّروا به وما نُهُوا عنه معناهما شَيءٌ واحدٌ، فكان مقتضى الظَّاهِرِ أن يُقالَ: (فلمَّا نَسُوا وعَتَوا عمَّا نهُوا عنه وذُكِّرُوا به قُلنَا لهم...)، فعدل عن مُقتضى الظَّاهِرِ إلى هذا الأسلوبِ مِن الإطنابِ؛ لتَهويلِ أمرِ العَذابِ، وتكثيرِ أشكالِه، ومقامُ التَّهويلِ مِن مُقتَضياتِ الإطنابِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥١-١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٥٣-١٥٤).

الآيات (١٦٧-١٧٠)

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿تَأَذَّنَ﴾: أي: أعْلَمَ، وهو من آذَنْتُك بالأمرِ، والتأذُّنُ: مِن قَولِك: لأفعلَنَّ كذا، تريدُ به إيجابَ الفِعلِ، أي: سأفعَلُه لا محالةَ، وأصلُ (أذن): العِلمُ[1].

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: أي: جاءَ بَعدَهم، والخَلْف: الرَّديءُ مِن النَّاسِ ومِنَ الكلامِ، وأصلُ (خلف): مجيءُ شيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه[2].

﴿عَرَضَ هذا الْأَدْنَى﴾: أي: ما يَعرِضُ لهم مِنَ الدُّنيا، وقيل: الرِّشوةُ في الحُكمِ، والعَرَضُ: ما لا يكونُ له ثباتٌ، و﴿الْأَدْنَى﴾ الأمرُ الأقربُ، وهي الدُّنيا[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٦٥٩).

﴿مِيثَاقُ﴾: الميثاقُ: عَقدٌ مُؤكَّدٌ بِيَمينٍ وعَهدٍ، أو العَهدُ المُحكَم، وأصله: العَقدُ والإحكامُ(١).

﴿وَدَرَسُوا﴾: أي: قَرَؤُوا، وأصلُه مِن: دَرَس العِلمَ، أي: تناوَلَ أثَرَه بالحِفظِ، ولَمَّا كان تناوُلُ ذلك بمداومةِ القِراءةِ، عبَّرَ عن إدامةِ القِراءةِ بالدَّرسِ(٢).

﴿يُمَسِّكُونَ﴾: أي: يستَمْسكون ويعملونَ به، أو: يعتصمونَ به ويَقتَدونَ بأوامِرِه، ويتركونَ زواجِرَه، وأصلُ (مسك) يدلُّ على حَبسِ الشَّيءِ أو تحبُّسِه(٣).

المعنى الإجماليُّ:

واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين أعلمَ ربُّك اليهودَ بما قَضاه عليهم، مِمَّا هو واقِعٌ بهم لا محالةَ، وذلك أنَّه سيُسَلِّطُ عليهم مَن يُذيقُهم أشَدَّ العذابِ، إنَّ ربَّك لَسريعُ العِقابِ، وإنَّه لغفورٌ رَحيمٌ.

ويخبِرُ تعالى أنَّه مَزَّقَ بني إسرائيلَ، فجَعَلَهم أمَمًا متفرِّقةً في أنحاءِ الأرضِ، منهم الصَّالحونَ، ومنهم دونَ ذلك، واختبَرَهم بالأحوالِ الحَسَنةِ والأحوالِ السيِّئةِ؛ لعلَّهم يرجعونَ، فجاء مِن بَعدِهم جيلُ سُوءٍ لا خيرَ فيهم، وَرِثُوا الكتابَ عَمَّن تقدَّمَهم، يأخذونَ المالَ الحرامَ، وأضاعوا العملَ بالتَّوارة، ويقولونَ اغترارًا: سيَغفِرُ اللهُ لنا، وإن يأتِهم كَسْبٌ حرامٌ مِثلُ الأوَّلِ، يأخُذوه أيضًا؛ إصرارًا منهم على ذُنوبِهم، ألم يأخُذِ اللهُ على هؤلاءِ العَهدَ المؤكَّدَ في التَّوارةِ، بألَّا يَقولُوا على اللهِ إلَّا الحَقَّ، وقَرَءُوا ما فيها وفَهِموها، والدَّارُ الآخرةُ خَيرٌ للَّذينَ يتَّقونَ،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٥٣).
(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٨)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣١١)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢٠)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٨٨).

أفلا يعقِلُ هؤلاء الذينَ يأخُذونَ الحَرامَ، ويُخالِفونَ كِتابَ اللهِ.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ الذين يعتصِمونَ بكتابِ اللهِ، ويَعملونَ بما فيه، وأقاموا الصَّلاةَ، هم مِن المُصلحين، واللهُ تعالى لن يُضِيعَ أجرَ المُصلحينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قُبحَ فِعالِهم، واستعصاءَهم؛ أخبَرَ تعالى أنَّه حكَمَ عليهم بالذُّلِّ والصَّغارِ إلى يومِ القِيامةِ[1]، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين أعلَمَ ربُّك اليهودَ بما قضاه عليهم، ممَّا هو واقعٌ بهم لا محالةَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٠).

وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ - ٨].

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: أعلَمَهم مُؤكِّدًا لهم بأنَّه سيُرسِلُ ويُسَلِّطُ عليهم في الدُّنيا إلى يومِ القِيامةِ مَن يُذيقُهم[١] أشدَّ العَذابِ[٢] بسبَبِ كُفرِهم وعِصيانِهم، واحتيالِهم على المَحارِمِ[٣].

---

(١) قال القرطبي: (قيل: المرادُ بُختنصَّر. وقيل: العرب. وقيل: أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو أظهَرُ؛ فإنَّهم الباقونَ إلى يومِ القيامةِ. والله أعلم). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٩).
وقال ابنُ عطية: (الصَّحيحُ أنَّها عامَّةٌ في كلِّ مَن حالُ اليَهودِ معه هذه الحالُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧١).
وقال ابنُ كثيرٍ: (يقالُ: إنَّ موسى- عليه السَّلامُ- ضرَبَ عليهم الخَراجَ سَبْعَ سِنينَ. وقيل: ثلاثَ عَشرةَ سَنةً، وكان أوَّلَ مَن ضرَبَ الخَراجَ. ثم كانوا في قَهرِ الملوكِ مِن اليُونانيِّينَ والكشدانيِّينَ والكلدانيِّينَ، ثم صاروا إلى قَهرِ النَّصارى، وإذلالِهم إيَّاهم، وأخذِهم منهم الجزيةَ والخَراجَ، ثم جاء الإسلامُ ومحمَّدٌ- عليه أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ- فكانوا تحت قَهرِه وذِمَّتِه يؤدُّونَ الخَراجَ والجزيةَ... ثم آخِرُ أمرِهم أنَّهم يَخرُجونَ أنصارًا للدَّجَّالِ، فيقتُلُهم المسلمونَ مع عيسى ابنِ مريمَ- عليه السَّلامُ- وذلك آخِرَ الزَّمانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨).
(٢) ذهَبَ بعضُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ العذابَ المذكورَ هنا مرادٌ به: الجزيةُ والإذلالُ. منهم: ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧١). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٢).
وممَّن رُوِي عنه هذا القَولُ مِنَ السَّلَفِ ابنُ عَبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّي، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٠).
قال ابن عاشور: (ومعنى البَعثِ الإرسالُ.. وهو يُؤذِنُ بأنَّ ذلك في أوقاتٍ مُختلفةٍ، وليس ذلك مُستمِرًّا يومًا فيومًا، ولذلك اختيرَ فِعل: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ دون نحو: (لَيُلزِمنَّهم)، وضُمِّن معنى التَّسليط فعُدِّي بعلى؛ كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ [الإسراء: ٥]، وقولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. و﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ غايةٌ لِما في القَسَمِ مِن معنى الاستقبالِ... أي: أنَّ اللهَ يُسَلِّطُ عليهم ذلك في خِلالِ المُستقبَلِ كُلِّه، والبَعثُ مُطلَقٌ لا عامٌّ... والآيةُ تُشيرُ إلى وَعيدِ اللهِ إيَّاهم بأن يُسَلِّطَ عليهم عَدُوَّهم كلَّما نقَضُوا ميثاقَ اللهِ تعالى، وقد تكرَّر هذا الوعيدُ مِن عَهدِ موسى عليه السَّلامُ إلى هلمَّ جَرًّا ... وأوَّلُ مَن سُلِّط عليهم بختنصَّر ملك بابل، =

كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- يعاقِبُ الكُفَّارَ والعصاةَ بلا تأخيرٍ، إذا حلَّ وقتُ عَذابِهم[1].

﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: وإنَّ ربَّك كثيرُ المغفرةِ لِعبادِه التَّائبينَ، فيستُرُ ذُنوبَهم، ولا يعاقِبُهم بها، رحيمٌ بهم؛ إذ يَقبَلُ توبتَهم، ويتقبَّل طاعاتِهم، ويُثيبُهم عليها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

= ثم نوالت عليهم المصائِبُ، فكان أعظمَها خرابُ (أورشليم)... ولم تَزَل المصائِبُ تتابعهم، ويُنَفَّسُ عليهم في فَترَاتٍ معروفةٍ في التَّاريخِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٥ – ١٥٦).

وقال الشنقيطيُّ: (وفي هذه الآيةِ مِن سورةِ الأعراف تأذَّنَ اللهُ وأعلَمَ أنَّه سَلَّط عليهم مَن يَسومُهم سُوءَ العَذابِ، إلَّا أنَّهم يَرُدُّ اللهُ لهم الكرَّةَ حتى يجتمِعُوا ويكونوا أمَّةً؛ لأنَّهم لو بَقُوا مُقَطَّعينَ في الأرضِ، لن تقومَ لهم قائمةٌ -كما قال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: آية ١٦٨]- ولم يكُنِ العذابُ والهلاكُ، ولم يجِدْ موقعًا يقعُ عليه، فصار مِن عادةِ اللهِ أن يرُدَّ لهم الكرَّةَ، ويجعلَهم أمَّةً حتى يكونوا أمَّةً فيُسَلِّطَ عليهم مَن يُعَذِّبُهم؛ ليكونَ العَذابُ واقعًا موقِعَه). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٦-١٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٣).

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ الله تعالى بالتأذُّنِ، كان كأنَّه قيل: (فأسرَعْنا في عقابِهم بذنوبِهم، وبعثْنا عليهم مَن سامَهم سوءَ العذابِ بالقتل والسبيِ)، فعَطَف عليه قولَه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾- أي: بسبَبِ ما حصل لهم مِن السَّبيِ المترتِّبِ على العذابِ- تقطيعًا كثيرًا، بأنْ أكثَرْنا تَفريقَهم[1].

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾.

أي: ومزَّقْنا بني إسرائيلَ في أقطارِ الأرضِ، إلى جماعاتٍ مُتفَرِّقةٍ؛ بحيثُ لا تَخلو ناحيةٌ من الأرضِ مِنهم[2].

﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾.

أي: مِن بني إسرائيلَ الصَّالحونَ الذين يُؤمِنونَ باللهِ ورُسُلِه، ومنهم مَن انحطَّت رُتبَتُهم عن مَرتبةِ الصَّلاحِ، فكانوا عُصاةً مُذنبينَ، أو كَفرةً مُجرمينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٥).

قال ابنُ جرير: (وإنَّما وَصَفَهم اللهُ جلَّ ثناؤه بأنَّهم كانوا كذلك، قبلَ ارتدادِهم عن دِينِهم وقبلَ كُفرِهم بربِّهم، وذلك قبلَ أن يُبعَثَ فيهم عيسى بنُ مريمَ صَلواتُ اللهِ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧١).

وقال الشنقيطي: (﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ منهم قَومٌ صالِحونَ مُطيعونَ للهِ، وهمُ الذين كانوا =

كما قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾.

أي: واختبَرْنا بني إسرائيلَ بالأحوالِ الحَسَنةِ؛ كالرَّخاءِ والخِصبِ والعافيةِ تارةً، وبالأحوالِ السيِّئةِ؛ كالشِّدَّةِ والجَدْبِ والأمراضِ تارةً أخرى(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

= على شَرعِ موسى بنِ عِمرانَ، لم يُغَيِّروا ولم يُبَدِّلوا حتى ماتوا على ذلك، أو أدركُوا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلم فآمَنُوا به، كعبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٥ - ٢٩٦).
قال ابن عاشور: (أي أظهَرْنا مختَلِفَ حالِ بني إسرائيلَ في الصَّبرِ والشُّكرِ، أو في الجَزَعِ والكُفرِ؛ بسبَبِ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٨).

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: اختبَرْنا بني إسرائيلَ بالخَيرِ والشَّرِّ؛ ليتُوبُوا ويَرجِعوا عن مَعصيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى طاعَتِه(١).

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾.

أي: فجاء بعد أولئكَ القومِ- الَّذينَ كان منهم صالِحونَ، ومِنهم دونَ ذلك- جيلُ سُوءٍ لا خير فيه، قد أخَذُوا التَّوراةَ مِن أسلافِهم، وعَلِمُوا ما فيها مِن الأحكامِ(٢).

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾.

أي: إنَّ خَلْفَ السُّوءِ- الَّذين وَرِثُوا التَّوراة- يأخذونَ المالَ الحَرامَ؛ مِن الرِّشوةِ وغَيرِها مِن مَتاعِ الدُّنيا الزَّائل، وأضاعوا العَمَل بالتَّوراةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٦-٢٩٧).
ظاهِرُ كلامِ ابنِ جَريرٍ، واختيارُ ابن كثيرٍ؛ أنَّ المرادَ بقَولِه تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: مِن بعدِ الجِيلِ الذينَ منهم الصَّالحون، ومنهم دونَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨).
وقيل بل المرادُ: مِن بَعدِ القَومِ الصَّالحينَ مِن بني إسرائيلَ، وهذا اختيارُ الرازي، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٥)، ((العذب النمير)) (٤/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٨-٢٩٩). =

كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ * وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٩-٨٠].

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

أي: ويقولُ هؤلاءِ الَّذينَ يأخُذونَ المالَ الحَرامَ، ويُخالِفونَ كِتابَ اللهِ تعالى، يقولونَ- اغترارًا وتمنِّيًا على اللهِ الباطِلَ-: سيغفِرُ اللهُ لنا ذُنوبَنا هذه[1].

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾.

أي: وإن جاء أولئك اليهودَ كَسبٌ حرامٌ مِن متاعِ الدُّنيا الزائِلِ، مِثل الكَسبِ السَّابِقِ؛ استحَلُّوه، وتناوَلُوه مَرَّةً ثانيةً؛ إصرارًا منهم على ذُنوبِهم، فهم مُنهَمِكونَ في أخذِ الحَرامِ، ومع هذا يزعُمونَ أنَّ اللهَ تعالى يَغفِرُ لهم[2]!

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

أي: ألم يأخُذِ اللهُ على أولئك اليَهودِ- الذينَ وَرِثُوا التَّوراةَ، وأكلوا تلك

= قال ابنُ عاشورٍ: (والعَرَض- بفتح العين وفتح الراء- الأمرُ الذي يَزولُ ولا يدومُ، ويُرادُ به المالُ، ويُراد به أيضًا ما يَعرِضُ للمرءِ مِن الشَّهواتِ والمنافِعِ، والأدنى: الأقرَبُ مِن المكانِ، والمرادُ به هنا الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠١).

قال السَّعدي: (هذا قولٌ خالٍ مِن الحقيقةِ؛ فإنَّه ليس استغفارًا وطلبًا للمَغفرةِ على الحقيقةِ. فلو كان ذلك لنَدِموا على ما فَعَلوا، وعَزَموا على ألَّا يعودوا، ولكنَّهم- إذا أتاهم عَرَضٌ آخَرُ، ورِشوةٌ أخرى- يأخذونَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠١).

المكاسِبَ الخبيثةَ- العهدَ المؤكَّدَ في التَّوراةِ بأن يُبيِّنوا الحقَّ للنَّاسِ، ولا يَكذِبوا على اللهِ سُبحانَه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾.

أي: والحالُ[2] أنَّهم قد قَرَؤوا كتابَ اللهِ، وعَلِموا ما فيه، وفَهِموا معانِيَه[3].

﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: وما أعدَّه اللهُ تعالى في الآخرةِ مِن ثوابٍ ونعيمٍ، خيرٌ للَّذين يمتَثِلونَ ما أمرَ اللهُ تعالى به، ويجتنبونَ ما نهى عنه، من هذا الحُطامِ الدُّنيويِّ الفاني،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٢ - ١٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢).

(٢) هذا اختيارُ الشَّوكاني والسَّعدي؛ أنَّ الجملةَ حاليَّةٌ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

وذهب الزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ عاشور إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ معطوفٌ على ﴿يُؤْخَذْ﴾ مِن قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾، فيكون المعنى: ألم يؤخَذْ عليهم... وألم يَدرُسوا ما فيه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٣). ويُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٣/ ٤٨٨).

وقال ابنُ جرير: (وأمَّا قَولُه: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ فإنَّه مَعطوفٌ على قَولِه: ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ ومعناه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾، ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٠).

قال ابنُ عطيَّةَ مُعَقِّبًا: (وفي هذا نظَرٌ؛ لِبُعدِ المعطوفِ عليه؛ لأنَّه قوله: ﴿وَدَرَسُوا﴾ يزولُ منه معنى إقامةِ الحُجَّةِ بالتقديرِ الذي في قَولِه: ﴿أَلَمْ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٣).

أفلا يكونُ لكم عَقلٌ- يا من تأخُذونَ الحرامَ، وتُخالِفونَ كِتابَ الله- تنظرونَ به إلى العَواقِبِ، فتعلمونَ أنَّ ما عِندَ الله خيرٌ مِن هذا العَرَضِ القَليلِ الزَّائلِ الذي تستعجِلونَه في الدُّنيا، وترتَدِعونَ به عن التَّهافُتِ على هذا الكَسبِ الحَرامِ المُورِث لخزي الدُّنيا والآخرةِ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

وقال سبحانَه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

وقعَت جملةُ: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ...﴾ إلى آخِرِها عقِبَ التي قَبلَها؛ لأنَّ مَضمونَها مُقابِلُ حُكمِ التي قَبلَها؛ إذ حصل مِن التي قَبلَها أنَّ هؤلاءِ الخَلْفَ الذين أخَذُوا عَرَض الأدنى، قد فرَّطوا في مِيثاقِ الكِتابِ، ولم يكونوا مِن المتَّقينَ، فعقَّبَ ذلك ببشارةِ مَن كانوا ضِدَّ أعمالِهم، وهم الآخِذونَ بمِيثاقِ الكِتابِ، والعامِلونَ ببِشارَتِه بالرُّسُل، وآمَنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأولئك يستكمِلونَ أجرَهم؛ لأنَّهم مُصلِحونَ[2].

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).
قال ابنُ عاشور: (وجملةُ: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ حاليَّةٌ مِن ضميرِ ﴿يَأْخُذُونَ﴾ أي: يأخذونَ ذلك، ويَكذِبونَ على اللهِ، ويُصِرُّونَ على الذَّنبِ، ويَنبِذونَ مِيثاقَ الكِتابِ، على علمٍ، في حالِ أنَّ الدَّارَ الآخرةَ خَيرٌ مِمَّا تعجَّلوه). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٤).

أي: والَّذينَ يعتَصِمونَ بكِتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويَعملونَ بما فيه[1].

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وحافَظُوا على الصَّلاةِ، وأقامُوها بحدُودِها[2].

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

أي: فمَن تمسَّك بالكِتابِ، وأقام الصَّلاةَ، فهو مِن المُصلحينَ، الذين يُصلِحونَ أنفُسَهم وأعمالَهم، ويُصلِحونَ غيرَهم، ونحنُ لا نُضيعُ ثوابَهم[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

قال السمعاني: (قيل: هذا في أمَّة مُحَمَّد. وقيل: هو فيمَن أسلَمَ من اليَهودِ، يُمَسِّكونَ بالقرآنِ، وأقاموا الصَّلاةَ). ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٢٩).

وقال ابنُ عاشور: (فالمرادُ مِن هؤلاءِ هم مَن آمَنَ مِن اليهودِ بعيسى في الجُملةِ، وإن لم يتَّبِعوا النَّصرانيَّةَ؛ لأنَّهم وجدوها مُبدَّلةً مُحرَّفةً، فبَقُوا في انتظارِ الرَّسولِ المُخَلِّص الذي بشَّرَت به التوراةُ والإنجيلُ، ثمَّ آمنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين بُعث: مثل عبد الله بن سَلَام، ويحتمِلُ أنَّ المرادَ بالَّذين يُمسِّكونَ بالكِتابِ: المسلمونَ؛ ثناءً عليهم بأنَّهم الفائزونَ في الآخِرةِ، وتبشيرًا لهم بأنَّهم لا يَسلُكونَ بكِتابِهم مَسلَكَ اليَهودِ بكِتابِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٤ - ١٦٥). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قلَّما ذكَرَ اللهُ عذابَ الفاسِقينَ المُفسدينَ، إلَّا وقَرَنه بذِكرِ المغفرةِ والرَّحمةِ للتَّائبينَ المُحسنينَ، حتى لا ييأسَ صالحٌ مُصلحٌ مِن رَحمَتِه بذَنبٍ عَمِلَه بجهالةٍ، ولا يأمَنَ مُفسِدٌ مِن عِقابِه؛ اغترارًا بِكَرمِه وعَفوِه، وهو مُصِرٌّ على ذَنبِه(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ المتابعةُ بالابتلاءِ رحمةٌ مِن اللهِ تعالى بالعِبادِ، وتذكيرٌ دائِمٌ لهم، ووقايةٌ مِن النِّسيانِ المؤدِّي إلى الاغترارِ والبَوارِ(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كلُّ واحدٍ مِن الحَسَناتِ والسيِّئاتِ يدعو إلى الطَّاعةِ، أمَّا النِّعَمُ فلأجْلِ التَّرغيبِ، وأمَّا النِّقَمُ فلأجلِ التَّرهيبِ(٣).

٤- ما أعَدَّه اللهُ في الآخرةِ للَّذينَ يتَّقونَ الرَّذائِلَ والمعاصيَ، خيرٌ مِن الحُطامِ الفاني مِن عَرَضِ الدُّنيا؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٤).

٥- قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ هذه الآيةُ وإن كانَت في اليهودِ، فكُلُّ مَن فَعَل فِعلَهم فهو أخُوهم،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢٢).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢٣).

ينالُه مِن وَعيدِها وعذابِها ما نالَهم، فيجِبُ على المُسلمِ إذا كان في مَنصِبٍ يُوصَلُ فيه الحقُّ لصاحِبِه بإنابةِ مَن بَسَط اللهُ يَدَه، ألَّا يُغَيِّرَ أحكامَ اللهِ، ويأخُذَ الرِّشا بدلًا منها؛ فإنَّه إن أخذَ الرِّشوةَ وغَيَّرَ وبدَّلَ، فهو أخو اليَهودِ، وهو مِن هذا الخَلْفِ السَّيِّئِ القبيحِ[1].

٦- إذا ما وُجدَ مُسلِمٌ أو من يَدَّعي أنَّه مُسلِمٌ، ينتَهِكُ حُرُماتِ اللهِ، ويُصِرُّ ويثِقُ بالمغفرةِ؛ فاعلَمْ أنَّه مغرورٌ، وأنَّه أخو اليهودِ؛ قال تعالى عنهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[2].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قَد عُلِمَ من الآيةِ أنَّ الطَّمَعَ في متاعِ الدُّنيا هو الذي استحوَذَ على بني إسرائيلَ، فأفسَدَ عليهم أمْرَهم، ولا يزالُ هذا التَّفاني فيه أخَصَّ صفاتِهم، وقد سرى شيءٌ كثيرٌ مِن هذا الفَسادِ إلى المُسلمينَ، حتى أولئك الذين وَرِثُوا الكتابَ الكَريمَ، والقرآنَ الحَكيمَ، ودَرَسوا ما فيه، غَلَب على كثيرٍ منهم الطَّمَعُ في حُطامِ الدُّنيا القليلِ، وعَرَضِها الدَّنيءِ، والغُرورُ بالنِّسبةِ إلى الإسلامِ والتَّحلِّي بلَقَبِه، والتعَلُّلُ بأماني المغفرةِ، مع الإصرارِ على الذَّنبِ، والاتِّكالِ على المُكَفِّراتِ والشَّفاعات، وهم يَقرَؤونَ ما في الكتابِ مِن النَّهيِ عن الأمانيِّ والأوهامِ، ومِن نَوْطِ الجزاءِ بالأعمالِ، والمغفرةِ بالتَّوبةِ والإصلاحِ، وكَونِ الشَّفاعةِ لا تقَعُ إلَّا بإذنِ اللهِ لِمَن رَضِيَ عنه، بل ما قَصَّ اللهُ علينا مِثلَ هذه الآياتِ مِن أخبارِ بني إسرائيلَ إلَّا لنَعتبِرَ بأحوالِهم، ونتَّقِيَ الذُّنوبَ التي أخَذَهم

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٠١).

بها، ولكِنَّا مع هذا كُلِّه اتَّبَعْنا سُنَنَهم شبرًا بشِبرٍ، وذراعًا بذِراعٍ [(١)].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ التمسُّكُ بالكتابِ في جِدٍّ وقُوَّةٍ وصرامةٍ، وإقامةُ الصَّلاةِ- أي شَعائِرِ العبادةِ- هما طَرَفَا المنهجِ الرَّبانيِّ لصلاحِ الحياةِ، والتمسُّكُ بالكتابِ في هذه العبارةِ مَقرونًا إلى الشَّعائِرِ يعني مدلولًا مُعيَّنًا؛ إذ يعني تحكيمَ هذا الكتابِ في حياةِ النَّاسِ؛ لإصلاحِ هذه الحياةِ، مع إقامةِ شَعائِرِ العبادةِ؛ لإصلاحِ قُلوبِ النَّاسِ، فهما طرفانِ للمَنهجِ الذي تصلُحُ به الحياةُ والنُّفوسُ، ولا تصلُحُ بِسِواه[(٢)].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: يُمسِكونَ إمساكًا شديدًا يتجَدَّدُ على وجهِ الاستمرارِ، وهو إشارةٌ إلى أنَّ التمَسُّكَ بالسُّنَّةِ في غاية الصعوبةِ، لا سيَّما عند ظُهورِ الفَسادِ[(٣)].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ اللهَ بعَثَ رُسُلَه- عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالصَّلاحِ لا بالفَسادِ، وبالمنافِعِ لا بالمضارِّ، وأنَّهم بُعِثوا بصلاحِ الدَّارَينِ، فكلُّ من كان أصلَحَ، كان أقرَبَ إلى اتِّباعِهم[(٤)].

١١- في التعبيرِ بقولِه: ﴿الْمُصْلِحِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ تَمْسيكَهم للكتابِ يتجاوزُ الإمساكَ إلى الدعوةِ إليه[(٥)].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢٣).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٨٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٧).
(٥) يُنظر: ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٦/ ٣٠٠١).

هَذَا ...﴾ المقصودُ هو ذَمُّ الخَلْفِ بأنَّهم يأخُذُونَ عَرَضَ الأدنى، ويقولونَ سيُغفَرُ لنا، ومَهَّدَ لذلك بأنَّهم وَرِثُوا الكتابَ؛ ليَدُلَّ على أنَّهم يفعلونَ ذلك عَن عِلمٍ لا عَن جهلٍ، وذلك أشَدُّ مَذمَّةً[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لَمَّا كان النَّافِعُ الغفرانَ مِن غَيرِ نَظَرٍ إلى مُعيَّنٍ، بنَوُا الفِعلَ للمَفعولِ، ومن غيرِ شَكٍّ[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ﴾ بنى الفِعلَ للمَفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ العَهدَ يَجِبُ الوفاءُ به على كلِّ حالٍ[3].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ لَمَّا كان مِن تَمسيكِهم بالكتابِ عند نُزولِ هذا الكلامِ انتقالُهم عن دِينِهم إلى الإسلامِ؛ عَبَّر عن إقامةِ الصَّلاةِ المعهودةِ لهم بلَفظِ الماضي دونَ المُضارِعِ؛ لِئلَّا يَجعلُوه حجَّةً في الثَّباتِ على دينِهم، فيُفيدَ ضِدَّ المرادِ[4].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

- قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ ما يَصنَعونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٤٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٤٩).

بالكِتابِ بَعدَ وِراثَتِهم إيَّاه، أي: يأخُذونَ حُطامَ هذا الشَّيءِ الأدنى، أي: الدُّنيا[1].

- قَولُه: ﴿عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ في اسمِ الإشارةِ إيماءٌ إلى تَحقيرِ هذا العَرَضِ الذي رَغِبُوا فيه[2].

- قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿يَأْخُذُونَ﴾ لأنَّ كِلا الخَبَرينِ يُوجِبُ الذَّمَّ، واجتماعُهما أشَدُّ في ذلك[3].

- قَولُه: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ الاستفهامُ للتَّقريرِ المقصودِ منه التَّوبيخُ[4].

- قوله: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ كنايةٌ عَن كَونِهم خَسِروا خيرَ الآخرةِ بأخذِهم عَرَضَ الدُّنيا بتلك الكيفيَّةِ؛ لأنَّ كَونَ الدَّارِ الآخرةِ خَيرًا مِمَّا أَخَذُوه، يستلزِمُ أن يكونَ ما أخَذُوه قد أفات عليهم خَيرَ الآخرةِ[5].

- وفي جَعْلِ الآخرةِ خيرًا للمُتَّقينَ كنايةٌ عن كَونِ الذين أخَذُوا عَرَضَ الدُّنيا بتلك الكيفيَّةِ لم يكونوا مِن المتَّقينَ؛ لأنَّ الكنايةَ عَن خسرانِهم خَيرَ الآخرةِ، مع إثباتِ كَونِ خَيرِ الآخرةِ للمُتَّقينَ، تستلزِمُ أنَّ الذينَ أضاعوا خَيرَ الآخرةِ لَيسُوا من المتَّقينَ[6].

- قَولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهامُ هنا إنكاريٌّ، وفي (تَعْقِلُونَ) التفاتٌ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٦٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٦٣، ١٦٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الغَيبةِ إلى الخطابِ؛ ليكونَ أوقَعَ في توجيهِ التَّوبيخِ إليهم مُواجهةً[1].

٢- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ خصَّ الصَّلاةَ بالذِّكرِ، مع دُخُولِها فيما قبلَها، فالتمسُّكُ بالكتابِ يشتَمِلُ على كلِّ عبادةٍ، ومنها إقامةُ الصَّلاةِ؛ إظهارًا لعُلُوِّ مَرتبَتِها؛ لكونِها عمادَ الدِّينِ، وأعظَمَ العباداتِ بعد الإيمانِ، وناهيةً عن الفحشاءِ والمُنكَرِ، ولِكَونِها ميزانَ الإيمانِ، وإقامَتِها داعيةً لإقامةِ غَيرِها مِن العِباداتِ[2].

- قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ خبرٌ عن ﴿الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾، والمُصلِحونَ هم، والتقديرُ: إنَّا لا نُضيعُ أجرَهم؛ لأنَّهم مُصلِحونَ، فطُوِيَ ذِكرُهم؛ اكتفاءً بشُمولِ الوَصفِ لهم، وثناءً عليهم، على طريقةِ الإيجازِ البَديعِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٦-٣٩٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٤).

الآيات (١٧١-١٧٤)

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿نَتَقْنَا الجَبَلَ﴾: أي: قَلَعْناه مِن أَصلِه، ورَفَعْناه فوقَهم، أو زعزَعْناه؛ يُقالُ: نَتَقَ الشيءَ: جذبَه، ونزَعه حتى يسترخِيَ(١).

﴿ظُلَّةٌ﴾: الظُّلَّة: مَا غطَّى وستَرَ، وأصلُ (ظلل) يدلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشيءٍ(٢).

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الذُّرِّيَّة: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، و(ذُرِّيَّة) مأخوذةٌ مِن (ذَرَأَ)، أي: خَلَق؛ لأنَّ الذُّرِّيَّة خَلْقُ اللهِ؛ يُقال: ذَرَأَ اللهُ الخَلْقَ، أي: خَلَقَهم فهو يَذْرَؤُهم، وتُرِكتِ الهَمزةُ فيها؛ لكثرةِ ما يُتكلَّم بِها(٣).

﴿الْمُبْطِلُونَ﴾: أي: الآخِذونَ بالباطِلِ. والبَاطِلُ: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

ثباتَ له عند الفَحصِ عنه، وأصلُه: ذهابُ الشَّيءِ، وقلَّةُ مُكثِه ولُبثِه(١).

المَعنى الإجماليُّ:

واذكُر- يا محمَّدُ- حين اقتلَعْنا الجبلَ، فرَفَعْناه فوقَ بني إسرائيلَ كأنَّه سحابةٌ تُظِلُّهم، وظنُّوا أنَّه ساقِطٌ عليهم، وقُلْنا لهم: اعمَلوا بما آتيناكم في التَّوراةِ بجِدٍّ واجتهادٍ، واذكروا ما فيه، لعلَّكم تتَّقونَ اللهَ ربَّكم بالعَملِ به.

واذكُرْ- يا محمَّدُ- حين استخرجَ ربُّك من ظهورِ بني آدمَ ذُرِّيَّتَهم، وأشهَدَهم على أنفُسِهم، فقال لهم: ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلى شَهِدْنا، وكان إشهادُهم على أنفُسِهم كراهةَ أن يُنكِروا يومَ القيامةِ، ويقولوا: إنَّه لا عِلمَ لنا بأنَّ اللهَ هو الرَّبُّ المعبودُ بحَقٍّ وَحدَه لا شريكَ له، أو يقولوا: إنَّما حصل الشِّركُ مِن آبائنا قبل زَمانِنا، وكنَّا ذريَّةً من بَعدِهم، فاقتدَينا بهم عن جَهلٍ، أفتُهلِكُنا بما فعل آباؤُنا الذين أتَوا بالباطِلِ، وترَكوا التَّوحيدَ؟!

ثم بيَّنَ تعالى أنَّه كما وضَّحَ هذه الآياتِ، يوضِّحُ أيضًا غيرَها من آياتِ القُرآنِ الكريمِ؛ لكي يهتديَ بها النَّاسُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾.

أي: واذكُر- يا مُحمَّد- حين اقتَلَعْنا جبلَ الطُّورِ، فرَفَعْناه فوقَ بني إسرائيلَ، كأنَّه سحابةٌ تُظِلُّهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩- ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾.

أي: وغلَبَ على ظَنِّهم أنَّ الجَبَلَ ساقِطٌ عليهم(١).

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾.

أي: وقُلْنا لهم: خُذوا ما أعطيناكم في التَّوراةِ، فاقبَلوه، واعمَلُوا به بجِدٍّ واجتهادٍ، من غيرِ تقصيرٍ ولا تفريطٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أي: وقُلْنا لهم: واذكروا ما في التَّوراةِ مِن العقائِدِ والأوامِرِ والنَّواهي، وتدارَسُوها؛ كي تتَّقوا ربَّكم بالعَمَل بها(٣).

= (٧/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٥).

قال السعدي: (﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ حين امتنعوا مِن قَبول ما في التَّوراة، فألزَمَهم اللهُ العمل، ونتَقَ فوق رؤوسهم الجبل). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظَر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٧ – ٣٠٨).

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (١٧٢)﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين استخرجَ ربُّك ذريَّةَ بني آدَمَ، بَعضَهم من ظهورِ بَعضٍ، وأخرَجَ جميعَ ذلك من صُلبِ آدَمَ في صورةِ الذَّرِّ؛ ليأخُذَ عليهم العَهدَ[1].

(١) وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ، والشوكانيُّ، والشنقيطيُّ، ونسبه إلى جمهورِ السَّلف. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/٥٤٦، ٥٥٢- ٥٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس، وعبدُ الله بنُ عمرٍو، وأُبيُّ بنُ كعبٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، وعطاءٌ، ونضرُ بنُ عربي، والضحَّاكُ، والسُّديُّ. ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٧، ٥٦٠).
قال الواحدي: (قال أبو بكر بن الأنباري: مذهبُ أصحاب الحديثِ، وكبراءِ أهلِ العِلمِ في هذه الآيةِ؛ هو: أنَّ الله عزَّ وجلَّ أخرج ذريَّاتِ آدمَ مِن صُلبِه وأصلابِ أولادِه، وهم في صُوَرِ الذَّرِّ، وأخذ عليهم الميثاقَ أنَّه خالِقُهم وأنَّهم مصنوعونَ، فاعترفوا بذلك وقَبِلوا، وذلك بعد أن ركَّبَ فيهم عقولًا، عرَفوا بها ما عَرَضَ عليهم). ((البسيط)) (٩/ ٤٤٨).
وقال الرازي: (ظاهِرُ الآيةِ يدلُّ على أنَّه تعالى أخرج الذَّرَّ مِن ظُهورِ بني آدَمَ، فيُحمَلُ ذلك على أنَّه تعالى يعلَمُ أنَّ الشَّخصَ الفُلانيَّ يتولَّدُ منه فلانٌ، ذلك الفلانُ فلانٌ آخر، فعلى الترتيبِ الذي عَلِمَ دخولَهم في الوجودِ يُخرِجُهم، ويميِّزُ بَعضَهم من بعض، وأمَّا أنَّه تعالى يُخرِجُ كلَّ تلك الذريَّة مِن صُلبِ آدَمَ، فليس في لفظِ الآيةِ ما يدلُّ على ثُبوتِه، وليس في الآيةِ أيضًا ما يدلُّ على بُطلانِه، إلَّا أنَّ الخبَرَ قد دلَّ عليه، فثبت إخراجُ الذريَّةِ مِن ظهورِ بني آدَمَ بالقرآن، وثبت إخراجُ الذريَّةِ مِن ظَهرِ آدمَ بالخَبرِ، وعلى هذا التقديرِ: فلا منافاةَ بين الأمرينِ ولا مدافعةَ، فوجب المصيرُ إليهما معًا). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٢).
وقال البغوي: (فإن قيل: ما معنى قَولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وإنَّما أخرَجَهم مِن ظهرِ آدَمَ؟ قيل: إنَّ الله أخرجَ ذريَّةَ آدمَ بَعضَهم من ظهورِ بَعضٍ، على نحو ما يتوالَدُ الأبناءُ مِن الآباءِ في الترتيبِ، فاستُغنيَ عن ذكرِ ظَهرِ آدمَ؛ لِما عُلِم أنَّهم كُلَّهم بَنُوه وأُخرِجوا مِن ظَهْرِه). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٧). ويُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣١٧).
وقيل: معنى الآية: واذكُرْ حين استخرجَ ربُّك ذريَّةَ آدمَ مِن أصلابِ آبائِهم، وجعَلَهم يتناسلونَ في الدُّنيا قرنًا بعد قَرنٍ. وممَّن اختار هذا القَولَ: ابنُ تيميَّة، وابنُ القَيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسَّعدي. =

عن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَمَّا خلَقَ اللهُ آدمَ مَسحَ ظَهرَه، فسقَطَ مِن ظَهرِه كُلُّ نَسَمةٍ هو خالِقُها مِن ذُرِّيَّتِه إلى يومِ القيامةِ))(١).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أخذ اللهُ تبارك وتعالى الميثاقَ مِن ظَهرِ آدمَ بـ (نَعمان)- يعني عرفة- فأخرج مِن صُلبِه كلَّ ذريَّةٍ ذرَأَها، فنَثَرهم بين يديه كالذَّرِّ، ثمَّ كلَّمَهم قُبُلًا، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾))(٢).

= يُنظَر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٧)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٥٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢، ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، والبزار (٨٨٩٢)، والفريابي في ((القدر)) (٢٠)، والحاكم في ((المستدرك)) (٤١٣٢).

قال الترمذي: حسن صحيح، وصحَّحه ابن بطال في ((شرح البخاري)) (٣/ ٣٧٠)، وابن العربي في ((أحكام القرآن)) (٢/ ٣٣٣)، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٠٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٥٥)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٢٠٢)، والفريابي في ((القدر)) (٥٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٢٧).

قال الشوكاني في ((فتح القدير)) (٢/ ٣٧٠): إسنادُه لا مَطعَنَ فيه. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (٤/ ١٥١)، والألباني في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١١٧).

وقال ابن حجر في ((تحفة النبلاء)) (١٣٤): وقفُه أصَحُّ.

قال الواحدي: (وقال صاحب النظم: ليس بين قَولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم: ((إنَّ اللهَ مسحَ ظَهرَ آدمَ، فأخرج منه ذُرِّيَّته)) وبين الآيةِ اختلافٌ- بحَمدِ اللهِ؛ لأنَّه- عزَّ وجَلَّ- إذا أخَذَهم من ظَهرِ آدمَ فقد أخَذَهم من ظهورِ ذُريَّته؛ لأن ذرِّيَّةَ آدمَ ذرِّيَّةٌ لذريَّتِه، بعضُهم مِن بَعضٍ. قال: وحاصل الفائدةِ بهذا الفَصلِ، أنَّه قد أثبت الحجَّةَ على كلِّ مَنفوسٍ- ممَّن بُلِّغ، وممَّن لم يُبَلَّغ- بالميثاقِ الذي أخَذَه عليهم، وزاد على من بُلِّغَ منهم الحُجَّة بالآياتِ والدَّلائلِ التي نصَبَها في نفسِه وفي العالَم، وبالرُّسُلِ المُنْفَذةِ إليهم، مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، وبالمواعِظِ والمَثُلات المنقولةِ إليهم أخبارُها). ((البسيط)) (٩/ ٤٤٩).

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

أي: قرَّرَهم على توحيدِه، حين أخرجَهم مِن صُلبِ آدمَ في صُورةِ الذَّرِّ، فقال لهم: ألستُ أنا خالِقَكم ومَعبُودَكم[1]؟

(١) وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٦، ٥٥٢- ٥٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣).

قال ابنُ جُزيٍّ: (في معناها قولان: أحدُهما: أنَّ اللهَ لَمَّا خلق آدمَ أخرَجَ ذريَّتَه من صُلبِه، وهم مِثلُ الذَّرِّ، وأخذ عليهم العَهدَ بأنَّه ربُّهم، فأقرُّوا بذلك والتَزَموه؛ رُوِيَ هذا المعنى عن النبيِّ- صلَّى اللهُ تعالى عليه وآلِه وسلَّم- مِن طُرُقٍ كثيرةٍ، وقال به جماعةٌ من الصحابةِ وغَيرِهم. والثاني: أنَّ ذلك من بابِ التَّمثيلِ، والأول هو الصَّحيحُ؛ لتواتُرِ الأخبارِ به، إلَّا أنَّ ألفاظَ الآيةِ لا تُطابِقُه بظاهِرِها، فلذلك عَدَلَ عنه من قال بالقَولِ الآخَرِ، وإنَّما تُطابِقُه بتأويلٍ: وذلك أنَّ أخْذَ الذرِّيَّة إنَّما كان مِن صُلبِ آدمَ، ولفظُ الآيةِ يقتضي أنَّ أخْذَ الذرِّيَّة من بني آدمَ، والجمعُ بينهما أنَّه ذَكَرَ بني آدمَ في الآيةِ، والمرادُ آدمُ؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٢). ويُنظَر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٩٠).

وقال الشوكاني: (وقيل: المرادُ ببني آدَمَ هنا: آدمُ نَفسُه؛ كما وقع في غَيرِ هذا الموضِعِ. والمعنى: أنَّ الله سُبحانه لَمَّا خلَقَ آدمَ مَسحَ ظَهرَه فاستخرجَ منه ذرِّيَّتَه، وأخذ عليهم العَهدَ، وهؤلاء هم عالَمُ الذَّرِّ، وهذا هو الحقُّ الذي لا ينبغي العدولُ عنه، ولا المصيرُ إلى غيره؛ لثبوته مرفوعًا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وموقوفًا على غيرِه من الصَّحابة، ولا مُلجِئَ للمصيرِ إلى المجازِ، وإذا جاء نَهرُ اللهِ بطَلَ نَهرُ مَعقِلٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٩).

وقال ابنُ عبد البر: (ومعنى الآيةِ والحديثِ: أنَّه أخرج ذرِّيَّةَ آدم مِن ظَهرِه كيف شاء ذلك، وألهَمَهم أنَّه ربُّهم، فقالوا: بلى؛ لِئَلَّا يقولوا يومَ القيامةِ إنَّا كنَّا عن هذا غافلينَ، ثم تابَعَهم بحجَّةِ العَقلِ عند التَّميزِ، وبالرُّسُلِ بعد ذلك؛ استظهارًا بما في عقولِهم من المنازعةِ إلى خالِقٍ مُدَبِّرٍ حكيمٍ، يُدَبِّرُهم بما لا يتهيَّأُ لهم، ولا يُمكِنُهم جَحدُه، وهذا إجماعُ أهلِ السُّنَّة، والحمد لله). ((التمهيد)) (١٨/ ٨٩، ٩٥، ٩٦).

وقيل: أي: خَلَقَهم حين وُلِدوا على الفِطرةِ مُقِرِّينَ بأنَّ اللهَ رَبُّهم، فِفِطَرُهم شاهدةٌ عليه، ويكونُ سبحانه بذلك قد أشهَدَهم على أنفُسِهم وقرَّرَهم، وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والقاسميُّ، والسعديُّ. يُنظَر: ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (١/ ١١، ١٢)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٢ - ٤٩١)، ((الروح)) لابن القيم =

﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ﴾.

أي: قال بنو آدمَ: قد أقرَرْنا بأنَّك ربُّنا[(١)].

﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

أي: أشهَدْناكم على أنفُسِكم بأنَّ اللهَ ربُّكم؛ لِئَلَّا تقولوا يومَ القيامةِ: إنَّه لا عِلمَ لنا بأنَّ اللهَ هو الرَّبُّ المعبودُ بحَقٍّ، وَحْدَه لا شريكَ له[(٢)].

﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

= (ص: ١٦٣-١٧١)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٩٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣١٨)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١١، ١٢)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٦٣ - ١٧١)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٩٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٥ - ٣١٦).

اختلف المُفَسِّرونَ تبعًا للاختلافِ السَّابِقِ، هل أقرُّوا بذلك بِلِسانِ المَقالِ أم بلِسانِ الحالِ. يُنظَر: المصادر السابقة.

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٥١-٤٥٢)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٠).

وممَّن اختار أنَّ الإشارةَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا﴾ تعودُ إلى معرفةِ الخالقِ وتوحيدِه سبحانه: ابنُ جرير، وابنُ تيمية، وابنُ كثير، والشوكاني. يُنظَر: المصادر السَّابقة.

قال ابنُ عطية: (المعنى في هذه الآياتِ أنَّ الكَفَرة لو لم يُؤخَذْ عليهم عَهدٌ، ولا جاءَهم رسولٌ مُذَكِّرٌ بما تضمَّنَه العهدُ من توحيدِ اللهِ وعبادتِه، لكانت لهم حُجَّتانِ؛ إحداهما: كنَّا غافلينَ، والأخرى: كنَّا أتباعًا لأسلافِنا، فكيف نُهلَك، والذَّنبُ إنَّما هو لِمَن طَرَّقَ لنا وأضَلَّنا؟! فوقَعَت شهادةُ بَعضِهم على بعضٍ، أو شهادةُ الملائكةِ عليهم؛ لتنقَطِعَ عنهم هذه الحُجَجُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٦).

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

أي: وَلئلَّا تعتذِرُوا يومَ القيامةِ، فتقولوا: إنَّما أشرَكَ آباؤُنا مِن قَبلِ زَمانِنا، فنَقَضوا الميثاقَ، وكُنَّا ذرِّيَّةً أتينا مِن بَعدِهم، فاقتَدَينا بهم عن جَهلٍ منَّا[1].

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

أي: أتُعامِلُنا بغيرِ ما فَعَلْنا، فتُعَذِّبَنا بِشِرْك آبائِنا الذين أتَوْا بالباطِلِ، وتركوا التَّوحيدَ[2]؟!

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾.

أي: وكما بيَّنَّا هذه الآياتِ[3] ووضَّحْناها، نبيِّنُ أيضًا غيرَها من آياتِ القُرآنِ الكَريمِ[4].

كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

قال الشوكاني: (أي: فعَلْنا ذلك كراهةَ أن تعتَذِروا بالغَفلةِ، أو تنسُبوا الشِّركَ إلى آبائِكم دونَكم... بَيَّنَ اللهُ سبحانَه في هذه الحِكمةِ التي لأجْلِها أخرَجَهم من ظَهرِ آدَمَ وأشهَدَهم على أنفُسِهم، وأنَّه فعَلَ ذلك بهم؛ لئلَّا يقولُوا هذه المقالةَ يومَ القيامةِ، ويعتَلُّوا بهذه العِلَّةِ الباطلةِ، ويعتَذِروا بهذه المَعذِرةِ السَّاقطةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٧ - ٣١٨).

(٣) ذهب ابنُ جَريرٍ إلى أنَّ المعنيَّ آياتُ هذه السُّورةِ الكريمةِ. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦).
وذهب الواحديُّ إلى أنَّ المرادَ أمرُ الميثاقِ الذي تقدَّمَ ذِكرُه. يُنظَر: ((التفسير البسيط)) (٩/ ٤٥٩).
وذهب الشِّنقيطيُّ إلى أنَّ المرادَ: أخبارُ الأمَمِ، وما جرى عليها، وسبَبُ إهلاكِ مَن هلَكَ منها، ونجاةُ مَن نجا منها. يُنظَر: ((العذب النمير)) (٤/ ٣١٨).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٨).

وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: ووضَّحْنا الآياتِ؛ لكي يهتَديَ بها النَّاسُ فيرجِعوا عن الشِّركِ والمعاصي إلى التَّوحيدِ والطَّاعةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧- ٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- الجِدُّ وقوَّةُ العَزمِ في إقامةِ الدِّينِ، يُهذِّبُ النَّفسَ ويُزكِّيها، والتَّهاونُ والإغماضُ فيه، يُدَسِّيها ويُغويها؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٨).

قال الواحدي في قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: (وقيل: إلى ما أُخِذَ عليهم من الميثاقِ في التوحيدِ، والرُّجوعُ إلى ذلك الميثاقِ رجوعٌ إلى التوحيدِ). ((التفسير البسيط)) (٩/ ٤٥٩).

وقال السَّعدي: (﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى ما أودَعَ اللهُ في فِطَرِهم، وإلى ما عاهَدوا اللهَ عليه، فيرتدعونَ عن القبائِحِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢٥).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ أنَّه يَجِبُ على مَن خُوطِبَ بأوامِرِ اللهِ في كُتُبِه المُنَزَّلة، أن يلتَزِمَها بقوةٍ ونَشاطٍ واجتهاد، فلا يضعُف فيها، ولا يُفَرِّط فيها؛ لأنَّها لا تُمتثَلُ على الوجهِ الأكمَلِ إلَّا بالقوَّةِ والجِدِّ والاجتهادِ[(١)].

٣- النَّفسُ بِفِطرتِها إذا تُرِكَت كانت مُقِرَّةً لله بالإلهيَّة، مُحبَّةً له، تعبُدُه لا تُشرِكُ به شيئًا؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ هذه آيةٌ أظهَرَها اللهُ لهم تخويفًا لهم؛ لتكونَ مُذَكِّرةً لهم، فيَعقُب ذلك أخذُ العَهدِ عليهم بعزيمةِ العَمَلِ بالتَّوراةِ[(٣)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ عَرَّفَ ﴿الْجَبَلَ﴾ لمَعرِفَتِهم به، وعبَّرَ به لدَلالةِ لفظِه على الصُّعوبةِ والشِّدَّة، دونَ (الطُّورِ) كما في البَقَرةِ؛ لأن السِّياقَ لبيانِ نَكَدِهم بإسراعِهم في المعاصي الدَّالَّةِ على غِلظِ القَلبِ[(٤)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ أصلٌ في الإقرارِ[(٥)].

٤- شأنُ الذرِّيَّةِ الاقتداءُ بالآباءِ، وإقامةُ عوائِدِهم؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى:

(١) يُنظَر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٧).
(٢) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٩٦).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٥).
(٤) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٠).
(٥) يُنظَر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٧).

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾(١).

٥- لا يُعاقِبُ اللهُ تعالى أحدًا بِذَنبِ غَيرِه؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فأخبرَ سُبحانه أنَّه استخرَجَ ذُرِّياتِهم، وأشهَدَهم على أنفُسِهم؛ لئلَّا يقولوا: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أتى بنونِ العَظَمةِ في ﴿نَتَقْنَا﴾ لزيادةِ التَّرهيبِ(٣).

- في قَولِه ﴿وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ عُدِّيَ ﴿وَاقِعٌ﴾ بالباءِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا مُستقرِّينَ في الجبلِ، فهو إذا ارتفَعَ وقَعَ ملابسًا لهم ففتَّتَهم، فهم يرَونَ أعلاه فوقَهم، وهم في سَفْحِه، وهذا وجهُ الجمعِ بين قولِه ﴿فَوْقَهُمْ﴾ وبين باءِ المُلابسةِ. وقيل: إنَّ الباءَ بِمَعنى (على)(٤).

٢- قوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾

- في قَولِه: ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إيثارُ الأخذِ على الإخراجِ؛ للإيذانِ بالاعتناءِ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظَر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٠).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٥).

بِشَأْنِ المأخوذِ؛ لِما فيه من الإنباءِ عن الاجتباءِ والاصطفاء، هو السببُ في إسنادِه إلى اسمِ الربِّ بطريق الالتفات، مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي[1]، وقِيل: إنَّ إيثارَ الأخذِ على الإخراجِ؛ لمناسبةِ ما تضمَّنتْه الآيةُ مِن الميثاقِ؛ فإنَّ الذي يناسبُه هو الأخذُ دونَ الإخراجِ، وإضافتُه إلى ضميره صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للتشريف[2].

– وقولُه تعالى: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ بدلٌ من ﴿بَنِي آدَمَ﴾ بدل البَعضِ بتكريرِ الجارِّ، وفيه مزيدُ تقريرٍ؛ لابتنائِه على البيانِ بعد الإبهامِ، والتفصيلِ بعد الإجمالِ[3].

– والاستفهامُ في قَولِه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ تقريريٌّ، وجملة: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ جوابٌ عَنِ الاستفهامِ التَّقريريِّ، وفُصِلَت؛ لأنَّها جاءَت على طريقةِ المُحاورةِ، وقوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ تأكيدٌ لِمَضمونِ ﴿بلى﴾، والشَّهادةُ هنا أيضًا بمعنى الإقرارِ[4].

– قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ فيه تحويلٌ مِن خِطابِ الرَّسولِ في قَولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إلى خطابِ قَومِه؛ تصريحًا بأنَّ المقصودَ مِن قِصَّةِ أخْذِ العَهدِ تذكيرُ المُشركينَ بما أودَعَ اللهُ في الفِطرةِ مِن التَّوحيدِ، وهذا الأسلوبُ هو مِن تَحويلِ الخِطابِ عن مخاطَبٍ إلى غيرِه، وليس مِن الالتفاتِ؛ لاختلافِ المُخاطبينَ[5].

– والإشارةُ بـ ﴿هَذَا﴾ إلى مَضمونِ الاستفهامِ وجَوابِه، وهو الاعترافُ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٩).
(٢) يُنظَر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٩٤).
(٣) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٩).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٨-١٦٩).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٦٩).

بالربوبيَّةِ لله تعالى، على تقديرِه بالمذكورِ[1].

٣- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ إنكاريٌّ[2].

٤- قولُه: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فيه شَبَّه الإقلاعَ عن الحالةِ التي هم متلبِّسونَ بها، بِتَركِ مَن حَلَّ في غيرِ مَقَرِّه، الموضِعَ الذي هو به؛ ليرجِعَ إلى مَقَرِّه، وهذا التشبيهُ يقتضي تشبيهَ حالِ الإشراكِ بمَوضِعِ الغُربةِ؛ لأنَّ الشِّركَ ليس مِن مُقتضى الفِطرةِ، فالتلبُّسُ به خروجٌ عن أصلِ الخِلقةِ، كخُروجِ المُسافِرِ عن مَوطِنِه، ويقتضي أيضًا تشبيهَ حالِ التَّوحيدِ بمحَلِّ المَرءِ وحَيِّه الذي يأوِي إليه، وهو تعريضٌ بالعَرَبِ؛ لأنَّهم المُشركونَ مِن عَقِبِ إبراهيمَ[3].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٩).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٧٠).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٧١).

الآيات (١٧٥-١٧٨)

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ
وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ
ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ
(١٧٦) سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ (١٧٧) مَن
يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (١٧٨) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نَبَأَ﴾: النَّبأُ: خَبرٌ له شَأنٌ، وفائدةٌ عظيمةٌ، يحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[١].

﴿فَانْسَلَخَ﴾: أي: خرَجَ مِن العَمَلِ بها، وأصلُ (سلخ): إخراجُ الشَّيءِ عَن جِلدِه[٢].

﴿فَأَتْبَعَهُ﴾: أي أدرَكَه ولَحِقَه، يقال: أتبعتُ القَومَ: إذا لحِقتُهم، وَأصل (تبع): يدلُّ على التُّلُوِّ والقَفْوِ[٣]

﴿الْغَاوِينَ﴾: أي: الضَّالِّينَ أو الهالِكينَ، والغَيُّ: جَهلٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ، وأصلُ (غوي): يدلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة =

﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾: أي: اطمأنَّ إليها، ولزِمها، أو ركَن إلى الدُّنيا وسكَنَ؛ ظانًّا أنَّه يخلدُ فيها، وأصلُ (خلد): يدلُّ على الثَّباتِ والمُلازمةِ(١).

﴿تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾: أي: تَزجُرْه، أو تَطرُدْه، وأَصلُ (حمل): يَدُلُّ عَلَى إِقْلَالِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: حَمَلْتُ الشَّيْءَ أَحْمِلُه حَمْلًا(٢).

﴿يَلْهَثْ﴾: أي: يُخرِجْ لِسانَه من حرٍّ أو عطَشٍ، واللَّهَثُ يقال للإعياءِ وللعَطشِ جميعًا(٣).

﴿سَاءَ﴾: أي: قَبُحَ، والسُّوءُ: اسمٌ جامِعٌ للآفاتِ، ثم استُعمِلَ في كلِّ ما يُستقبَحُ. وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ(٤)

﴿الْخَاسِرُونَ﴾: أي: الهالكونَ والمَغبونونَ، والخُسرُ والخُسرانُ: انتقاصُ

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

قال ابنُ عاشورٍ: (مَعْنَى ﴿إِنْ تَحْمِلْ عليه﴾ إنْ تُطارِدْه وتُهاجِمْه. مُشتَقٌّ مِنَ الحَمْلِ الَّذي هو الهجومُ على أحدٍ لِقتالِه، يقالُ: حَمَل فلانٌ على القومِ حملَةً شعواءَ أو حملةً منكرةً. وقد أغفل المُفَسِّرون توضيحَه، وأغفل الرَّاغِبُ في «مُفرداتِ القرآنِ» هذا المعْنَى لهذا الفعلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٨)

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

رأسِ المالِ، ويستعمَلُ في نُقصان العقل والإيمان، والثواب، وأصلُ (خسر) يدلُّ على النَّقصِ[١].

المَعنى الإجمالي:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه أن يتلُوَ على قَومِه قصَّةَ الرَّجُلِ الذي عَلَّمَه اللهُ- عزَّ وجَلَّ- آياتِه، فتبرَّأ منها وفارَقَها، فلَحِقَه الشَّيطانُ، وجَعَله له تابعًا، فصار مِن أهلِ الضَّلالِ والغَوايةِ، ولو شاء اللهُ لرَفَعه بها، ولكنَّه سكَنَ إلى الأرضِ وزِينتِها، واتَّبَع ما تميلُ إليه نَفسُه مِن الباطِلِ، فمَثَلُه كمَثَلِ الكَلبِ؛ إنْ تَطرُدْه أو تترُكْه لا يزالُ لاهثًا، ذلك مَثَلُ القَومِ المكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ، ثم أمر اللهُ نبيَّه أن يَقصُصَ على قَومِه وعلى اليهودِ القَصَصَ؛ لعَلَّهم يتفكَّرونَ.

قَبُحَ هذا المثَلُ الذي شُبِّه به المكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ تعالى، والظَّالِمونَ لأنفُسِهم، مَن يَهدِ اللهُ تعالى فهو المُوفَّقُ، ومن يُضْلِلْه فأولئك الذينَ خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان تعالى قد ذكَرَ أخْذَ الميثاقِ على توحيدِه تعالى، وتقريرِ رُبوبيَّتِه، وذكَرَ إقرارَهم بذلك، وإشهادَهم على أنفُسِهم- ذكَرَ حالَ مَن آمن به، ثم بعد ذلك من كَفَر، كحالِ اليهودِ؛ حيث كانوا مُقِرِّينَ مُنتظِرينَ بَعثةَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١- ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

وسلَّم؛ لِما اطَّلَعوا عليه مِن كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلةِ وتَبشيرِها به، وذِكْرِ صفاتِه، فلمَّا بُعِثَ كفروا به، فذُكِّروا أنَّ ما صدَرَ منهم هو طريقةٌ لأسلافِهم اتَّبَعوها(١).

وأيضًا مناسَبةُ هذه الآيةِ للتي قَبلَها أنَّها إشارةٌ للعبرةِ مِن حالِ أحدِ الَّذينَ أخَذَ اللهُ عليهم العَهدَ بالتَّوحيدِ والامتثالِ لأمرِ الله، وأمَدَّه اللهُ بعِلمٍ يُعينُه على الوفاءِ بما عاهدَ اللهَ عليه، وما أودعَ في فطرتِه، ثمَّ لم ينفَعْه ذلك كلُّه حين لم يُقَدِّرِ اللهُ له الهُدى المُستَمِرَّ(٢).

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾.

أي: واقرأْ- يا مُحمَّدُ- على قَومِك قِصَّةَ الرَّجُلِ الذي عَلَّمْناه آياتِنا(٣).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦، ٥٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٨).

قيل: إنَّ المرادَ بالآياتِ هي الآياتُ الشَّرعيَّةُ المُنَزَّلة، وممَّن اختار ذلك: السعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) (٤/ ٣٢٤).

وقيل: المرادُ بالآياتِ هنا: حُجَجُ التَّوحيدِ وفَهمُ أدلَّتِه. وممَّن اختار هذا: الواحدي، وابن عاشور. يُنظَر: ((الوسيط)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٥).

وفي معنَى قولِه: ﴿آيَاتِنَا﴾ أقوالٌ أخرى، وذهب ابنُ جريرٍ إلى عدم تحديدِ مَعناها؛ لعَدَمِ وُجودِ دلالةٍ ثابتةٍ على ذلك. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦، ٥٧٤-٥٧٥).

قال ابنُ كثير: (عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما في قَولِه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ قال: هو صاحِبُكم أميَّةُ بن أبي الصَّلتِ. وقد رُوِيَ من غيرِ وجهٍ عنه، وهو صحيحٌ إليه، وكأنَّه إنما أراد أنَّ أميَّةَ بنَ أبي الصَّلت يُشبِهُه، فإنَّه كان قد اتَّصلَ إليه علمٌ كثيرٌ مِن عِلم الشَّرائِعِ المتقدِّمة، ولكنَّه لم ينتفِعْ بعِلمِه؛ فإنَّه أدرك زمانَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبلَغَتْه أعلامُه وآياتُه ومُعجزاتُه، وظَهَرَت لكلِّ مَن له بصيرةٌ، ومع هذا اجتمَعَ به ولم يتَّبِعْه، وصار إلى مُوالاةِ المُشركين ومناصَرتِهم وامتداحِهم، ورثى أهلَ بَدرٍ من المشركينَ بمَرثاةٍ بليغةٍ- قبَّحَه اللهُ تعالى). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٧). وقال ابنُ عاشورٍ: (ذهب كثيرٌ مِن المُفَسِّرينَ إلى أنَّها نَزَلتْ في رجلٍ مِن الكنعانيِّينَ، وكان في زمنِ موسى عليه السَّلامُ، يقال له: بلعامُ بنُ=

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾.

أي: فخرَج من تلك الآياتِ التي علَّمَه اللهُ تعالى إيَّاها، وتبرَّأَ منها وفارَقَها، ولم يَعْلَقْ به منها شيءٌ(١).

عن حُذيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ مِمَّا أتخَوَّفُ عليكم لَرجُلًا قرأَ القرآنَ، حتى إذا رُئِيَت بهجَتُه عليه، وكان ردءًا للإسلامِ، اعتراه إلى ما شاءَ الله، انسلَخَ منه، ونبَذَه وراءَ ظَهرِه، وسعى على جارِه بالسَّيفِ، ورماه بالشِّرْكِ، قلتُ: يا نبيَّ الله، أيُّهما أَوْلى بالشِّرْكِ: المرميُّ أو الرَّامي؟ قال: بل الرَّامي))(٢).

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

أي: فلَحِقَه الشَّيطانُ وأدرَكَه، وجعَلَه له تابعًا يُطيعُ أمْرَه، فصار من الضالِّين

= باعور، وذكروا قصَّتَه فخَلَطوها وغيَّروها واختَلَفوا فيها... فلا ينبغي الالتفاتُ إلى هذا القَولِ؛ لاضطرابِه واختلاطِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٥).

وقال ابنُ جرير: (والصوابُ مِن القَولِ في ذلك أن يقالَ: إنَّ اللهَ- تعالى ذِكْرُه- أمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يتلوَ على قَومِه خَبَرَ رجلٍ كان اللهُ آتاه حُجَجَه وأدلَّتَه، وهي الآياتُ... وجائزٌ أن يكونَ الذي كان اللهُ آتاه ذلك بلعم، وجائزٌ أن يكونَ أُمَيَّةَ، ولا خبَرَ بأيِّ ذلك المرادُ، وأيُّ الرَّجُلينِ المعنيُّ- يُوجِبُ الحُجَّةَ، ولا في العَقلِ دلالةٌ على أنَّ ذلك المعنيَّ به مِن أيٍّ، فالصوابُ أن يُقالَ فيه ما قال اللهُ، ويُقَرُّ بظاهِرِ التَّنزيلِ على ما جاء به الوَحيُ مِن اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٤، ٥٧٥).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه البزار (٢٧٩٣)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٨٦٥)، وابن حبان في الصحيح (٨١)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (١٨٥٩).

حسَّن إسنادَه البزَّارُ كما في ((البحر الزخار)) (٧/ ٢٢٠)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١/ ١٩٢)، وجوَّدَ إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٥٠٩)، وحسَّن الحديثَ الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٣٢٠١).

الذين لا يَعملونَ بعِلْمِهم[(١)].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ مُوهِمًا لِمَن لم يرسخْ قَدَمُه في الإيمانِ أنَّ الشيطانَ له تأثيرٌ مُستقِلٌّ في الإغواءِ- نفى ذلك؛ غيرةً على هذا المقامِ في مَظهَرِ العظمةِ، فقال[(٢)]:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾.

أي: ولو شِئْنا لرَفَعْنا قَدْرَه ومنزِلتَه في الدُّنيا والآخرةِ، بتوفيقِنا له للعَمَلِ بآياتِنا[(٣)].

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾.

أي: ولكنَّه سكَنَ إلى الحياةِ الدُّنيا، ومال إلى زِينتِها، وآثَرَ لذَّاتِها وشَهَواتِها

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٢٥)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٤، ٣٢٦).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٩).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦، ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٧).

قال ابنُ القَيِّم: (مضمونُ قَولِه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا...﴾ أنَّه لم يتعاطَ الأسبابَ التي تقتضي رَفعَه بالآياتِ؛ من إيثارِ اللهِ ومَرضاتِه على هواه، ولكنَّه آثرَ الدُّنيا، وأخلدَ إلى الأرضِ، واتَّبعَ هواه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٣٠).

على الآخرةِ، واتَّبعَ ما تميلُ إليه نَفسُه مِن الباطِلِ، وخالَفَ أمرَ اللهِ(١).

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

أي: فمَثَلُ هذا الذي آتيناه آياتِنا فانسلَخَ منها؛ في عَدَمِ اتعاظِه، وعَدَمِ تَركِه الحِرصَ على الدُّنيا بحالٍ- مَثَلُ الكَلْبِ الذي لا يترُكُ اللَّهَثَ بحالٍ، سواءٌ زَجَرتَه وطَرَدْتَه، أم تَركْتَه؛ فهذا الذي ترك العَملَ بكتابِ اللهِ، إن وعَظْتَه فهو على ضلالِه لا يتَّعِظُ، وإن تركْتَه فهو مستمِرٌّ في ضلالِه، لا يترُكُ في جميعِ الأحوالِ ما هو عليه من الكُفرِ، واللَّهَفِ على الدُّنيا(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أي: ذلك المثَلُ المضروبُ لِتَشبيهِ المُنسلِخ مِن آياتِنا، بالكَلْبِ الذي يلهثُ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٧).
قال الواحدي: (فسَّرُوا ﴿الْأَرْضِ﴾ في هذه الآيةِ بالدُّنيا، وذلك لأنَّ الدُّنيا هي الأرضُ؛ لأنَّ ما فيها مِن العَقارِ والرِّباعِ والضِّياعِ كُلُّها أرضٌ، وسائِرُ مَتاعِها يُستخرَجُ مِن الأرضِ، فالدُّنيا كلُّها هي الأرضُ، فصَلَح أن يعبَّرَ عنها بالأرضِ؛ لأنَّها هي). ((البسيط)) (٩/ ٤٦٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨٦، ٥٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٧١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١١، ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٧-٣٢٩).

في جميعِ الأحوالِ؛ هو مَثَلُ جميعِ المُكَذِّبينَ بآياتِنا[١].

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: فاسْرُدْ- يا مُحمَّدُ- على قَومِك مِن قُريشٍ، وعلى اليَهودِ، ما قَصَصْتُه عليك في القُرآنِ من أخبارِ الأُمَمِ السَّابقة؛ ليتفَكَّروا فيها، فيعتَبِروا ويتوبوا إلى ربِّهم، وليَعلَمَ أهلُ الكِتابِ صِحَّةَ نبوَّتِك، فيُؤمِنوا بك[٢].

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ١٧٧﴾.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

أي: بِئسَ وقَبُحَ هذا المَثَلُ الذي شُبِّه به المكَذِّبونَ بآياتِنا[٣].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ليس لنا مَثَلُ السَّوءِ[٤]؛ الذي يعودُ في هِبَتِه كالكَلبِ يَرجِعُ في قَيئِه))[٥].

﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣٠).
قال القرطبي: (وهذا المثَلُ في قولِ كَثيرٍ مِن أهلِ العِلمِ بالتَّأويلِ؛ عامٌّ في كلِّ مَن أوتِيَ القُرآنَ، فلم يعمَلْ به). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣٠).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣٠).
قال ابن كثير: (أي: ساءَ مَثَلُهم أن شُبِّهوا بالكلابِ التي لا همَّةَ لها إلَّا في تحصيلِ أكلةٍ أو شهوةٍ، فمَن خرج عن حَيِّزِ العِلمِ والهُدى، وأقبل على شَهوةِ نَفْسِه، واتَّبَع هواه؛ صار شبيهًا بالكَلْبِ، وبِئسَ المثَلُ مثَلُه). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢).

(٤) مَثَلُ السَّوءِ: أي: الصِّفةُ الذَّميمةُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٥/ ٢٠٠٨).

(٥) رواه البخاري (٢٦٢٢) ومسلم (١٦٢٢)، واللفظ للبخاري.

أي: والَّذين كذَّبوا بآياتِنا، لم يظلِمْهم اللهُ سبحانه، بل كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بنَقْصِها مِن الخَيرِ الذي ينفَعُها، وتعريضِها لعذابِ اللهِ(١).

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وصَفَ الله تعالى الضَّالِّينَ بالوَصفِ المذكورِ فيما تقَدَّمَ مِن الآياتِ، وعرَّفَ حالَهم بالمَثَلِ المذكورِ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ الهِدايةَ مِن اللهِ تعالى، وأنَّ الضَّلالَ مِن اللهِ تعالى(٢)، فقال:

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾.

أي: مَن يَهْدِه اللهُ فهو الموفَّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ، ولا مُضِلَّ له(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزُّمَر: ٣٧].

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

أي: ومَن يُضْلِلْه اللهُ ويَخذُلْه، ولا يُوفِّقْه لطاعَتِه؛ فأولئك هم الذينَ خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٧).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣١).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣١).

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فالرِّفعةُ عند اللهِ تعالى ليست بمجَرَّدِ العِلمِ- فإنَّ هذا كان مِن العُلَماءِ- وإنَّما هي باتِّباعِ الحَقِّ وإيثارِه، وقَصدِ مرضاةِ اللهِ تعالى، فإنَّ هذا كان مِن أعلَمِ أهلِ زَمانِه، ولم يرفَعْه اللهُ بعِلمِه، ولم ينفَعْه به، وفي الآيةِ أنَّه هو سبحانه الذي يرفَعُ عَبْدَه- إذا شاء- بما آتاه اللهُ مِن العِلمِ، وإنْ لم يرفَعْه اللهُ، فهو موضوعٌ لا يرفَعُ أحدٌ به رأسًا؛ فإنَّه سبحانه هو الخافِضُ الرَّافِعُ؛ وقد خَفَضَه اللهُ سبحانه، ولم يَرْفَعْه[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ هَذَا مَثَلُ عَالمِ السُّوءِ، الَّذِي يعمَلُ بخِلافِ عِلْمِه، وقد تضمَّنَت هذه الآيةُ ذَمَّه مِن عِدَّة وجوهٍ:

أحدُها: أنَّه ضلَّ بعد العِلمِ، واختار الكُفرَ على الإيمانِ، عمدًا لا جَهلًا.

ثانيها: أنَّه فارقَ الإيمانَ مُفارقةَ مَن لا يعودُ إليه أبدًا؛ فإنَّه انسلخَ مِن الآياتِ بالجُملةِ، كما تنسلِخُ الحيَّةُ مِن قِشرِها، ولو بَقِيَ معه منها شيءٌ، لم ينسلِخْ منها.

ثالثُها: أنَّ الشَّيطانَ أدرَكَه ولَحِقَه بحيث ظَفِرَ به وافترَسَه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقُلْ تَبِعَه؛ فإنَّ في معنى أتبَعَه: أدرَكَه ولَحِقَه، وهو أبلَغُ مِن تَبِعَه لفظًا ومعنًى.

رابعُها: أنَّه غَوى بعد الرُّشدِ، والغَيُّ: الضَّلالُ في العِلمِ والقَصدِ، وهو أخَصُّ بفسادِ القَصدِ والعَمَلِ، كما أنَّ الضَّلالَ أخَصُّ بفسادِ العِلمِ والاعتقادِ، فإذا أُفرِدَ

(١) يُنظَر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩).

أحدُهما دخل فيه الآخَرُ، وإن اقترَنا فالفَرْقُ ما ذُكِرَ.

خامسُها: أنَّه سبحانَه لم يَشَأْ أن يَرفَعَه بالعِلمِ، فكان سببَ هلاكِه؛ لأنَّه لم يُرفَعْ به، فصار وَبالًا عليه، فلو لم يكُنْ عالِمًا، كان خيرًا له، وأخَفَّ لِعذابِه.

سادسُها: أنَّه سبحانه أخبَرَ عن خِسَّةِ هِمَّتِه، وأنَّه اختار الأسفَلَ الأدنى على الأشرَفِ الأعلى.

سابعُها: أنَّ اختيارَه للأدنى لم يكُنْ عن خاطِرٍ وحديثِ نَفْسٍ، ولكنَّه كان عن إخلادٍ إلى الأرضِ، ومَيلٍ بكُلِّيَّتِه إلى ما هناك، وأصلُ الإخلادِ اللُّزومُ على الدَّوامِ، وعبَّرَ عن مَيلِه إلى الدُّنيا بإخلادِه إلى الأرضِ؛ لأنَّ الدُّنيا هي الأرضُ وما فيها، وما يُستخرَجُ منها مِن الزِّينةِ والمَتاعِ.

ثامنُها: أنَّه رغِبَ عن هُداه، واتَّبَع هواه، فجَعلَ هواه إمامًا له، يقتَدي به ويتَّبِعُه.

تاسعُها: أنَّه شبَّهَه بالكَلبِ الذي هو أخَسُّ الحيواناتِ هِمَّةً[1]، وأسقَطُها نَفْسًا وأبخَلُها، وأشَدُّها كَلَبًا، ولهذا سُمِّيَ كَلْبًا.

عاشرُها: أنَّه شَبَّه لهَثَه على الدُّنيا وعدَمَ صَبْرِه عنها، وجَزَعَه لفَقْدِها وحِرصَه

---

(١) قال ابنُ القيِّم: (شَبَّه- سبحانَه- مَن آتاه كتابَه، وعلَّمَه العلمَ الذي منَعَه غيرَه، فترَكَ العمَلَ به واتَّبَع هواه، وآثَرَ سخَطَ اللهِ على رضاه، ودُنياه على آخِرتِه، والمخلوقَ على الخالقِ؛ بالكَلبِ الذي هو مِن أخبَثِ الحيواناتِ، وأوضَعِها قَدْرًا، وأخبَثِها نَفَسًا، وهِمَّتُه لا تتعدَّى بطنَه، وأشَدِّها شَرَهًا وحِرصًا، ومِن حِرصِه أنَّه لا يمشي إلَّا وخَطْمُه في الأرضِ؛ يتشَمَّم ويتروَّح حِرصًا وشَرَهًا، ولا يزالُ يشَمُّ دُبُرَه دون سائرِ أجزائِه، وإذا رَمَيتَ له بحجَرٍ رجَعَ إليه ليَعَضَّه مِن فَرطِ نَهْمتِه، وهو من أمهَنِ الحيواناتِ، وأحمَلِها للهَوانِ، وأرضاها بالدَّنايا، والجِيَفُ المُروَّحةُ أحَبُّ إليه من اللَّحمِ الطَّريِّ، والعَذِرةُ أحَبُّ إليه من الحلوى، وإذا ظَفِرَ بمَيتةٍ تكفي مئةَ كلبٍ، لم يدَعْ كلبًا يتناوَلُ معه منه شيئًا إلَّا هَرَّ عليه وقَهرَه؛ لِحِرصِه وبُخلِه وشَرَهِه، ومِن عجيبِ أمْرِه وحِرصِه أنَّه إذا رأى ذا هيئةٍ رثَّةٍ، وثيابٍ دَنيَّةٍ، وحالٍ زَريَّةٍ، نَبَحَه، وحمَلَ عليه، كأنَّه يتصوَّرُ مُشارَكتَه له، ومُنازَعتَه في قُوتِه، وإذا رأى ذا هيئةٍ حَسَنةٍ، وثيابٍ جَميلةٍ ورياسةٍ، وضَعَ له خَطْمَه بالأرضِ، وخضَعَ له، ولم يرفَعْ إليه رأسَه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٢٧).

على تحصيلِها، بلَهَثِ الكَلْبِ في حالتَي ترْكِه، والحَمْلِ عليه بالطَّردِ، وهكذا هذا؛ إن تُرِكَ فهو لَهْثانُ على الدُّنيا، وإن وُعِظَ وزُجِرَ فهو كذلك؛ فاللَّهَثُ لا يُفارِقُه في كلِّ حالٍ، كلَهَثِ الكَلْبِ، وهذا التَّمثيلُ لم يقَعْ بكلِّ كَلْبٍ، وإنما وقعَ بالكَلْبِ اللَّاهِثِ، وذلك أخَسُّ ما يكونُ وأشنَعُه[1].

٣- اتِّباعُ الإنسانِ لِهَواه، بتَحَرِّيه وتشَهِّيه ما تَميلُ إليه نفسُه في كلِّ عَمَلٍ مِن أعماله، دونَ ما فيه المصلحةُ والفائدةُ له؛ مِن حيث هو جَسَدٌ وروحٌ- يُضِلُّه عن سبيلِ اللهِ، المُوصِلةِ إلى سعادةِ الدُّنيا والآخرة، ويتعَسَّفُ به في سُبُلِ الشَّيطانِ المُردِيَةِ المُهلِكة؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[2].

٤- قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ هذه الآيةُ مِن أشَدِّ الآيِ على أصحابِ العِلمِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ أنَّه آتاه آياتِه، فاستوجَبَ بالسُّكونِ إلى الدُّنيا واتِّباعِ الهوى، تغييرَ النِّعمةِ عليه، والانسلاخَ عنها، ومَنِ الذي سَلِمَ من هاتين الخَلَّتينِ، إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ[3]!

٥- من كانت نِعَمُ اللهِ تعالى في حَقِّه أكثَرَ، كان بُعْدُه عن اللهِ- إذا أعرَضَ عنه- أعظَمَ وأكبَرَ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا... وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾[4].

٦- لا يغتَرَّ أحدٌ بما أوتِيَ من المعارِف، وما حاز من المفاخِرِ واللَّطائِفِ؛ فإنَّ العِبرةَ بالخواتيمِ، يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ

(١) يُنظَر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠١، ١٠٢).
(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٤١).
(٣) يُنظَر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٦٨).
(٤) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٥).

إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾[١].

٧- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ عبرةٌ للمُوفَّقينَ؛ ليَعلَموا فَضلَ اللهِ عليهم في توفيقِهم[٢].

٨- قال الله تعالى: قال تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ أي: سكَن إليها، ونزَل بطبعِه إليها، فكانت نفسُه أرضيةً سفليةً، لا سماويةً علويةً، وبحسبِ ما يخلدُ العبدُ إلى الأرضِ يهبطُ مِن السَّماءِ[٣].

٩- قالَ الله تعالَى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المُرادُ بهذا المثلِ: أنَّ منْ لم يزجرْه علمُه عن القبيحِ، صارَ القبيحُ عادةً له، ولم يؤثِّرْ فيه علمُه شيئًا، فيصيرُ حالُه كحالِ الكلبِ اللاهثِ فإنَه إنْ طُرِدَ لَهِثَ، وإنْ ترِكَ لَهِثَ، فالحالتانِ عنده سواءٌ. وهذا أخسُّ أحوالِ الكلبِ وأبشعُهَا، فكذلكَ من يرتكبُ القبائح مع جهلِهِ ومع علمِهِ، فلا يؤثِّرُ علمُه شيئًا، وكذلكَ مثلُ مَنْ لا يرتدعُ عن القبيحِ بوعظٍ ولا زجرٍ ولا غيرِهِ، فإنَّ فعلَ القبيحِ يصيرُ عادةً، ولا ينزجِرُ عنه بوعظٍ ولا تأديبٍ ولا تعليمٍ، بل هو متبعٌ للهَوى على كلِّ حالٍ، فهذا حالُ كلِّ مَن اتَبعَ هواه، ولم ينزجِرْ عنه بوعظٍ ولا غيرِهِ، وسواءٌ كانَ الهَوى المُتبعُ داعيًا إلى شهوةٍ حسيةٍ، كالزِّنا والسرقةِ وشربِ الخمرِ، أو إلى غضبٍ وحقدٍ وكبرٍ وحسدٍ، أو إلى شُبهةٍ مضلَّةٍ في الدِّينِ، وأشدُّ ذلكَ: حالُ من اتَّبع هواهُ في شبهةٍ مضلةٍ، ثمَّ من اتبع هواهُ في غضبٍ وكبرٍ وحقدٍ وحسدٍ، ثم

(١) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٦٠).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٦).
(٣) يُنظَر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ١٩٤)

من اتَّبع هواهُ في شهوةٍ حسيةٍ(١).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يدلُّ على تعظيمِ شَأنِ ضَربِ الأمثالِ في تأثيرِ الكَلامِ، وكونِه أقوى مِن سَوقِ الدَّلائلِ والحُجَجِ المجَرَّدةِ، ويدلُّ على تعظيمِ شأنِ التفكُّرِ، وكونِه مبدأَ العِلمِ، وطَريقَ الحَقِّ(٢).

١١- ما يحصُلُ بالقَلبِ مِن العِلمِ، وإن كان بكَسْبِ العَبدِ ونَظَرِه، واستدلالِه واستماعِه ونحو ذلك؛ فإنَّ الله تعالى هو الذي أثبَتَ ذلك العِلمَ في قَلْبِه، وهو حاصِلٌ في قَلْبِه بفَضلِ اللهِ وإحسانِه وفِعْلِه؛ قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٣).

١٢- قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فيه تنويهٌ بشأنِ المُهتَدينَ، وتلقينٌ للمُسلمينَ؛ للتَّوجُّهِ إلى اللهِ تعالى بطَلَبِ الهِدايةِ منه، والعِصمةِ مِن مَزالِقِ الضَّلالِ(٤).

١٣- قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ العبدُ فقيرٌ إلى اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، يحتاجُ إليه في كلِّ شَيءٍ، لا يستغني عن اللهِ طَرفةَ عَينٍ؛ فمَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هادِيَ له. فإذا ثبتَتْ هاتانِ المُقَدِّمتانِ، فنقول: إذا أُلهِمَ العبدُ أن يسألَ اللهَ الهدايةَ، ويستعينَه على طاعَتِه؛ أعانه وهداه، وكان ذلك سببَ سَعادَتِه في الدنيا والآخرةِ، وإذا خُذِلَ العَبدُ فلم يعبُدِ اللهَ، ولم يستعِنْ به، ولم يتوكَّلْ عليه؛ وُكِلَ إلى حَولِه وقُوَّتِه، فيُوَلِّيه الشَّيطانَ، وصُدَّ عن السَّبيلِ، وشَقِيَ في الدُّنيا والآخرةِ(٥).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن رجب الحنبلي)) (١/ ٨٨، ٨٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٤٢).

(٣) يُنظَر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٣٠).

(٤) يُنظَر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٠).

(٥) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٦، ٢٣٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ دلَّت على مَنعِ التَّقليدِ لِعالِمٍ إلَّا بحجَّةٍ يُبيِّنُها؛ لأنَّ الله تعالى أخبَرَ أنَّه أعطى هذا آياتِه فانسلَخَ منها، فوجب أن يُخافَ مثلُ هذا على غَيرِه، وألَّا يُقبَلَ منه إلَّا بحُجَّةٍ[1].

٢- الآياتُ مِن شأنِها أن تكونَ سَببًا للهدايةِ والتَّزكيةِ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ التعبيرُ بالانسلاخِ المُستعمَلِ عند العَرَبِ في خروجِ الحَيَّاتِ والثَّعابينِ أحيانًا مِن جُلودِها؛ يدلُّ على أنَّه كان متمَكِّنًا منها ظاهرًا، لا باطنًا[3].

٤- قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ قولُه: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ أخبرَ سبحانه أنَّه هو الذي آتاه آياتِه؛ فإنَّها نعمةٌ، واللهُ هو الذي أنعَمَ بها عليه، فأضافَها إلى نفسِه، ثمَّ قال: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرجَ منها، كما تنسَلِخُ الحيَّةُ مِن جِلْدِها، وفارَقَها فِراقَ الجِلدِ ينسَلِخُ عن اللَّحمِ، ولم يقُلْ: (فسلخْناه منها)؛ لأنَّه هو الذي تسبَّبَ إلى انسلاخِه منها؛ باتِّباعِ هواه[4].

٥- قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فقد كان محفوظًا مَحروسًا بآياتِ اللهِ، محمِيَّ الجانِبِ بها مِن الشَّيطانِ، لا يَنالُ منه شيئًا إلَّا على غِرَّةٍ وخَطفةٍ؛ فلمَّا انسلَخَ من آياتِ اللهِ، ظَفِرَ به الشَّيطانُ ظَفَرَ الأسَدِ بفَريسَتِه، فكان مِن الغاوينَ العامِلينَ بخِلافِ عِلمِهم، الذينَ يعرِفونَ الحَقَّ ويعملونَ

(١) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٣).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٦).
(٣) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٤٠).
(٤) يُنظَر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩).

خِلافَه، كعُلَماءِ السُّوءِ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في هذا التعبيرِ تَعليمٌ للأدَبِ؛ في إسنادِ الخَيرِ إلى اللهِ، والشَّرِّ إلى غَيرِه، وإن كان الكُلُّ خَلْقَه[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ في تشبيهِ مَن آثَرَ الدُّنيا وعاجِلَها على اللهِ والدَّارِ الآخرةِ- مع وُفورِ عِلمِه- بالكَلْبِ في لَهَثِه؛ سِرٌّ بديعٌ، وهو: أنَّ الذي حالُه ما ذَكَرَه اللهُ؛ مِن انسلاخِه مِن آياتِه، واتِّباعِه هواه- إنَّما كان لشِدَّةِ لَهَفِه على الدُّنيا؛ لانقطاعِ قَلْبِه عن اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ، فهو شديدُ اللَّهَفِ عليها، ولهَفُه نظيرُ لَهَثِ الكَلْبِ الدَّائِمِ في حالِ إزعاجِه وتَرْكِه[٣].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الاقتصارُ في الإخبارِ عَمَّن هَدى اللهُ بالمهتدي؛ تعظيمٌ لشَأنِ الاهتداءِ، وتَنبيهٌ على أنَّه في نفسِه كمالٌ جَسيمٌ، ونَفعٌ عَظيمٌ، لو لم يحصُلْ له غيرُه لَكَفاه، وأنَّه المُستلزِمُ للفوزِ بالنِّعَمِ الآجِلةِ، والعنوانُ له[٤].

٩- أفضلُ ما يُقدِّر الله لعبدِه، وأجلُّ ما يقسِمُه له الهدَى، وأعظمُ ما يَبتَليه به، ويُقدِّرُه عليه الضَّلالُ، وكلُّ نعمةٍ دونَ نعمةِ الهدَى، وكلُّ مصيبةٍ دونَ مصيبةِ الضَّلالِ، قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٥].

---

(١) يُنظَر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩).
(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٩).
(٣) يُنظَر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٨).
(٤) يُنظَر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٣٧).
(٥) يُنظَر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥).

١٠- اتَّفقتْ رسلُ الله- مِن أوَّلِهم إلى آخرِهم- وكتبُه المنزلةُ عليهم على أنَّه سبحانَه يُضلُّ مَن يشاءُ، ويهدي مَن يشاءُ، وأنَّه مَن يهدِهِ الله فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأنَّ الهدَى والإضلالَ بيدِه لا بيدِ العبدِ، وأنَّ العبدَ هو الضالُّ أو المهتدي، فالهدايةُ والإضلالُ فعلُه سبحانه وقدرُه، والاهتداءُ والضلالُ فعلُ العبدِ وكسبُه، قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾

- في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ عظَّمَ ما أعطاه بمَظهرِ العَظَمةِ، ولَفْظِ الإيتاءِ، بعدما عَظَّمَ خَبَرَه بلَفْظِ الإنباءِ[2].

- قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ مِن (أتْبع) رُباعيًّا، أي: لَحِقه وصارَ معه، وهي مُبالغةٌ في حقِّه؛ إذ جُعِلَ كأنَّه هو إمامٌ للشَّيطانِ يَتبَعُه، وكذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[3] [الصافات: ١٠].

٢- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فيه تمثيلٌ

---

(١) يُنظَر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥). ويُنظَر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٦)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٢٩٠).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٢).

لحالِ المتلَبِّسِ بالنَّقائصِ والكُفرِ، بعدَ الإيمانِ والتَّقوى؛ بحالِ مَن كان مُرتفعًا عن الأرضِ، فنزَلَ من اعتلاءٍ إلى أسفَلَ، فبِذِكرِ (الأرض) عُلِمَ أنَّ الإخلادَ هنا ركونٌ إلى السُّفلِ، أي: تلبُّسٌ بالنَّقائِصِ والمفاسِدِ[1].

- وقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ جاءَ الاستدراكُ هنا تَنبيهًا على السَّببِ الذي لأجْلِه لم يُرفَعْ ولم يُشرفْ، كما فُعِل بغيرِه ممَّن أُوتِيَ الهُدَى فآثَرَه واتَّبعَه[2]؛ فعبر بقولِه: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ولم يقُل: (ولكنَّه أعْرَض عنها)؛ مُبالغةً وتنبيهًا على ما حَمَله عليه، وأنَّ حُبَّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ[3].

- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيه تَشبيهُ المكذِّبينَ بالآياتِ- حيثُ أُوتوها وجاءَتْهم واضحاتٍ تَقتضي التَّصديقَ بها، فقابَلُوها بالتكذيبِ، وانْسَلخوا منها- كما شُبِّهَ وصْفُ المُؤتَى الآياتِ المنسلخِ منها بالكَلبِ في أخسِّ حالاتِه، و﴿ذَلِكَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ إشارةً لِمَثَل المنسلِخِ، وأنْ يكونَ إشارةً لوصفِ الكَلبِ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ أداةُ التَّشبيهِ مَحذوفةً مِن ﴿ذَلِكَ﴾، أي: صِفةُ ذلِك صِفةُ الذين كذَّبوا، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ مَحذوفةً مِن ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ﴾، أي: ذلك الوصْفُ وصْفُ المنسلِخِ، أو وصفُ الكَلبِ كمَثَل الذين كذَّبوا بآياتِنا، ويَكون أبلغَ في ذمِّ المكذِّبين حيثُ جُعِلوا أصلًا، وشُبِّهَ بهم[4].

- وجملةُ ﴿ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا﴾ جملةٌ مُبيِّنةٌ لجُملةِ: ﴿وَاتْلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٥).

عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا...﴾، أي: ذلك التمثيلُ مَثَلٌ للمُشركينَ المُكَذِّبينَ بالقُرآنِ، وهو تَشبيهٌ بليغٌ؛ لأنَّ حالةَ الكَلبِ المُشبَّه شَبيهةٌ بحالِ المُكَذِّبين، وليستْ عَينَها[1].

- قولُه: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تذييلٌ للقِصَّةِ المُمَثَّلِ بها، يشمَلُها وغَيرَها مِن القَصَص التي في القُرآن؛ فإنَّ في القَصَصِ تفكُّرًا ومَوعظةً، فيُرجى منه تفكُّرُهم ومَوعِظَتُهم[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾

- قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذه الجُملةُ تأكيدٌ للجُملةِ السَّابقةِ[3]، وهي جملةٌ مُستأنفةٌ؛ لأنَّها جُعِلَت إنشاءَ ذَمٍّ لهم، بأنْ كانوا في حالةٍ شَنيعةٍ، وظَلَموا أنفُسَهم[4].

- قوله: ﴿وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ فيه تقديمُ المَفعولِ ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ للاختصاصِ، كأنَّه قِيل: وخَصُّوا أنفُسَهم بالظُّلمِ، وما تَعدَّى أثرُ ذلك الظُّلمِ عنهم إلى غيرِهم[5].

- وقولُه: ﴿كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أقْوَى في إفادةِ وَصْفِهم بالظُّلمِ مِن أن يُقالَ: وظَلَموا أنفُسَهم[6].

٤- قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٩-١٨٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٠).

تذييلٌ للقِصَّةِ والمَثَلِ وما أُعقِبا به من وَصْفِ حالِ المُشركينَ؛ فإنَّ هذه الجُملةَ تُحصِّلُ ذلك كُلَّه، وتجري مجرى المَثَلِ، وذلك أعلى أنواعِ التَّذييلِ[١].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن تعريفِ جُزأيِ الجُملةِ ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ قَصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ، باعتبارِ الكَمالِ، واستمرارِ الاهتداءِ إلى وفاةِ صاحِبِه. وكذلك القَولُ في ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وزِيدَ في جانِبِ الخاسرينَ الفَصلُ باسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ)؛ لزيادةِ الاهتمامِ بتَمييزِهم بعنوانِ الخُسرانِ تحذيرًا منه، فالقَصرُ فيه مؤكَّدٌ. وقد عُلِمَ مِن مُقابلةِ الهِدايةِ بالإضلالِ، ومُقابلةِ المهتدي بالخاسِرِ أنَّ المُهتديَ فائِزٌ رابحٌ، فحُذِفَ ذِكرُ رِبحِه إيجازًا[٢].

- وجاء الإفرادُ في الأوَّلِ ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾، والجَمعُ في الثَّاني ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ باعتبارِ اللَّفظِ والمعنى لـ﴿مَنْ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ المُهتَدينَ كواحِدٍ، لاتِّحادِ طَريقتِهم، بخلافِ الضَّالِّينَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٣٧).

الآيات (١٧٩-١٨٣)

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿ذَرَأْنَا﴾: أي: خلقنا، وأصلُ (ذرأ) البَذْرُ والزَّرعُ[١].

﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾: أي: لا يَفهمونَ، والفقه هو مطلقُ الفهمِ، أو: فهمُ الأشياءِ الدقيقةِ، يُقال: فقهتُ الكلامَ. إذا فهمتَه حقَّ الفهمِ، والفقهُ التوصُّلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ مِن العلمِ[٢].

﴿وَذَرُوا﴾: أي: اترُكوا ودَعُوا، وفلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه لقلَّةِ اعتدادِه به[٣].

﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: أي: يَجُورونَ فيها عن الحَقِّ ويَعْدِلونَ، وذلك بتَسمِيَتِهم آلهتَهم بأسمائِه تعالى، فاشتقُّوا اللَّاتَ مِن (اللهِ) والعُزَّى من (العزيزِ)،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

وأصلُ (لحد): يدلُّ على مَيلٍ عن استقامةٍ(١).

﴿أُمَّةٌ﴾: أي: جماعةٌ، وأصلُ (أَمَّ): الأصلُ والمرجِعُ، والجماعةُ والدِّينُ(٢).

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾: أي: سنأخُذُهم قليلًا قليلًا، درجةً فدرجةً، ولا نُباغِتُهم، وأصلُ (درج): يدلُّ على مُضِيِّ الشَّيءِ، والمُضيِّ في الشَّيءِ(٣).

﴿وَأُمْلِي﴾: أي: أؤخِّرُهم وأُمْهِلُهم؛ مأخوذٌ مِن المُلاوةِ، وهي الحينُ(٤).

﴿كَيْدِي﴾: أي: مَكْرِي أو أَخْذِي، والكيدُ: ضربٌ من الاحتيالِ، وقد يكونُ مَذمومًا وممدوحًا، وإن كان يستعمَلُ في المذمومِ أكثَرَ، وأصلُ (كيد) يدلُّ على معالجةٍ لِشَيءٍ بِشِدَّةٍ(٥).

﴿مَتِينٌ﴾: أي: شديدٌ، وأصلُ (متن) يدلُّ على صلابةٍ في الشَّيءِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥، ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢، ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩). ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه خلَقَ لجهنَّمَ كثيرًا من الجِنِّ والإنسِ، لهم قلوبٌ لا يَفهمونَ بها الحقَّ، ولهم أعيُنٌ لا يُبصرونَ بها آياتِ اللهِ وأدلَّتَه، ولهم آذانٌ لا يَسمعونَ بها كتابَ اللهِ سَماعَ تَدبُّرٍ وتفكُّرٍ، أولئك كالأنعامِ التي لا تفهَمُ شيئًا، بل هم أضَلُّ منها، أولئك هم الغافلونَ عن آياتِ اللهِ وذِكرِه، وعمَّا ينفَعُهم من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ.

ويخبِرُ تعالى أنَّ له الأسماءَ الحُسنى، ويأمُرُ عبادَه أن يدعُوه بها، ويتركُوا الذين يميلونَ في أسمائِه عن الحَقِّ الواجِبِ لها؛ فإنَّه تعالى سيُجازيهم بما كانوا يَعملونَ؛ مِن الكُفرِ والإلحادِ في أسمائِه.

ويخبِرُ تعالى أنَّ مِمَّن خَلَق جماعةً مِن المُسلمينَ، يهتدونَ بالحَقِّ، ويُرشِدونَ النَّاسَ إليه، وبه يعدِلونَ بينهم، والذين جَحَدوا بآياتِه- عزَّ وجَلَّ- سيستدرِجُهم إلى ما يُهلكُهم ويُضاعفُ عقابَهم مِن حيثُ لا يعلمون، فيمهِلُهم، ويطيلُ أعمارَهم، ولا يعاجِلُهم بالعقوبةِ؛ ليتمادَوا في الكُفرِ والعِصيانِ؛ إنَّ كيدَه- عزَّ وجلَّ- قويٌّ شديدٌ، لا يُمكِنُ الإفلاتُ منهُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه هو الهادي وهو المُضِلُّ؛ أعقَبَه بذِكْرِ مَن خُلِقَ للخُسرانِ

والنَّارِ، وذكَرَ أوصافَهم فيما ذكَر، وفي ضِمنِه وعيدُ الكُفَّار[(١)].

وأيضًا فهذه الآيةُ عطفٌ على جملةِ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ والمناسبةُ أنَّ صاحبَ القصَّة المعطوفِ عليها انتقَل مِن صورةِ الهدَى إلى الضَّلال؛ لأنَّ الله لما خلَقَه خلَقَه ليكونَ مِن أهلِ جهنَّمَ، مع ما لها- أيضًا- مِن المناسبةِ للتذييلِ الذي خُتِمت به القصةُ، وهو قولُه: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ... ﴾[(٢)].

وأيضًا لَمَّا انقضَتْ تلك القَصَصُ، فأسفَرَت عن أنَّ أكثَرَ الخَلقِ هالكٌ، صَرَّحَ بذلك هنا[(٣)]، فقال:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا وبثَثْنا لنارِ جَهنَّم كثيرًا مِن الجِنِّ والإنسِ؛ ليصيرُوا إليها يومَ القِيامةِ، فهم لطَريقِها سالكونَ، وبعَملِ أهلِها عاملونَ[(٤)].

عن عائشةَ أمِّ المُؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ خلقَ للجنَّةِ أهلًا، خلَقَهم لها، وهم في أصلابِ آبائِهم، وخلَقَ للنَّارِ أهلًا، خَلَقَهم لها، وهم في أصلابِ آبائِهم))[(٥)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يقولُ: ((كتبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائقِ، قبلَ أن يخلُقَ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٢).

(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٢).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٤٤، ٣٤٦).

قال القرطبي: (أخبر تعالى أنَّه خلقَ للنَّارِ أهلًا بعَدْلِه). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٤).

(٥) رواه مسلم (٢٦٦٢).

السَّمواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سنةٍ، قال: وعَرشُه على الماءِ))[1].

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾.

أي: لهؤلاءِ- الذين خلَقْناهم لجهنَّمَ- قلوبٌ لا يَفهمونَ بها الحَقَّ الذي جاء مِن عندِ اللهِ، ولا يتفكَّرونَ فيه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾.

أي: ولهم أعينٌ لا يَنظرونَ بها إلى آياتِ اللهِ وأدِلَّتِه، فيتأمَّلُوها ويعلَموا الحَقَّ[3].

كما قال سُبحانه: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١].

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٨]

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٧١]

﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٢، ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)؛ ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٤٧).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٤٨).

أي: ولهم آذانٌ لا يَسمَعونَ بها آياتِ كتابِ اللهِ سَماعَ تَدَبُّرٍ وتفكُّرٍ في معانيها، فيهتَدُوا بها إلى الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

أي: أولئك- الَّذينَ ذرَأْنا لجهنَّم، الَّذينَ لا يَسمعونَ الحَقَّ ولا يَعُونَه ولا يُبصِرونَه، إنما همُّهم من الدُّنيا الأكلُ والتمتُّعُ بالشَّهواتِ- مِثلُ البَهائِم التي لا تفهَمُ الحقَّ، بل هم أضلُّ منها؛ لأنَّ الأنعامَ تُبصِرُ منافِعَها ومضارَّها، وتتْبَعُ مالِكَها، وتُستعمَل فيما خُلِقَت له، بخلافِ أولئك القَومِ الضَّالينَ(٢).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٣، ١٨٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٤٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٤، ٥٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥٠).

قال ابنُ عاشور: (وجهُ كَونِهم أضَلَّ مِن الأنعامِ: أنَّ الأنعامَ لا يبلُغُ بها ضلالُها إلى إيقاعِها في مَهاوي الشَّقاءِ الأبدي؛ لأنَّ لها إلهامًا تتفصَّى به عن المهالِك، كالتردِّي من الجبالِ والسُّقوط في الهُوَّات). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٤).

وقال سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

أي: هؤلاءِ الكفَّارُ- الَّذين لم ينتَفِعوا بعُقولِهم ولا بأعيُنِهم ولا بآذانِهم- هم الذينَ غَفَلوا غفلةً كاملةً عن آياتِ اللهِ وذِكرِه، وعمَّا ينفَعُهم من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ[1].

كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى أنَّه ذرأَ كثيرًا من الجنِّ والإنسِ للنَّارِ؛ ذكرَ نوعًا منهم، وهم الذينَ يُلحِدونَ في أسمائِه[2]. ولَمَّا بيَّنَ في الآيةِ السَّابقةِ حالَ المَخلوقينَ لجَهنَّمَ؛ في عدَمِ استعمالِ عُقولِهم وحَواسِّهم في الاعتبارِ بآياتِ اللهِ، والتفقُّهِ في تزكيةِ أنفُسِهم بالعِلمِ الصَّحيحِ، الذي يترتَّبُ عليه العمَلُ الصَّالِحُ، وأنَّ ذلك الإهمالَ أعقَبَهم الغفلةَ التَّامةَ عَن أنفُسِهم، وما فيه صَلاحُها؛ من ذِكرِ الله تعالى وشُكرِه، والثَّناءِ عليه بما هو أهلُه مِن صفاتِ الكَمالِ- قفَّى على ذلك بدَواءِ هذه الغَفلةِ، فأمرَ سُبحانه بذِكرِه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وهذا كالتَّنبيهِ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٥)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٤/ ٢٦٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٣٠).

على أنَّ المُوجِبَ لدُخولِ جهنَّمَ، هو الغفلةُ عن ذِكرِ اللهِ، والمُخَلِّصَ من عذابِ جهنَّمَ هو ذِكرُ اللهِ تعالى (١).

وأيضًا لَمَّا أنتَجَ ما سبَقَ أنَّ للمُشركينَ الأسماءَ السُّوأى، ولِمَعبوداتِهم أسوأَ منها؛ عطَفَ عليه الآيةَ هنا؛ دفعًا لِوَهْم من يتوهَّمُ- بالحُكمِ بالضَّلالِ، والذَّرْءِ لِجَهنَّمَ- ما لا يليقُ بالله تعالى(٢).

وأيضًا لَمَّا كان أفظَعُ أحوالِ المَعدودينَ لجهنَّمَ هو حالَ إشراكِهم باللهِ غَيرَه؛ لأنَّ فيه إبطالًا لأخَصِّ الصِّفاتِ بمعنى الإلهيَّةِ: وهي صِفةُ الوحدانيَّةِ، وما في معناها مِن الصِّفاتِ؛ نحو: الفَرْدِ الصَّمَدِ، وينضوي تحتَ الشِّركِ تعطيلُ صِفاتٍ كَثيرةٍ، مع إنكارِ أهلِ الشِّركِ صِفةَ الرَّحمنِ- فعُقِّبَت الآياتُ التي وصَفَت ضلالَ إشراكِهم، بتَنبيهِ المُسلمينَ للإقبالِ على دُعاءِ اللهِ بأسمائِه الدَّالَّةِ على عظيمِ صِفاتِ الإلهيَّةِ، والدَّوامِ على ذلك، وأن يُعرِضوا عن شَغْبِ المُشرِكينَ وجِدالِهم في أسماءِ اللهِ تعالى(٣)، فقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾.

أي: ولله أحسَنُ الأسماءِ الدالَّةِ على صفاتِ كمالِه، فادعُوا اللهَ وَحْدَه بتلك الأسماءِ العظيمةِ(٤).

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٢).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٥).

(٤) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥١، ٣٥٢).

قال القرطبي: (سمَّى اللهُ سُبحانه أسماءَه بالحُسنى؛ لأنَّها حَسَنةٌ في الأسماعِ والقُلوبِ، فإنَّها تدلُّ على توحيدِه وكَرَمِه، وَجُودِه ورَحمتِه وإفضالِه). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٦).

وقال الشنقيطي: (﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فادْعُوه بتلك الأسماءِ؛ كأن تقولَ: يا رحمنُ ارحَمْنا، يا رحيمُ ارحَمْني. قال بعضُ العلماء: تقول: يا رحيمُ ارحَمْني، يا رازقُ ارزُقْني، يا حكيمُ احكُمْ لي. =

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الحشر: ٢٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ للهِ تسعةً وتِسعينَ اسمًا- مئةً إلَّا واحدًا- مَن أحصاها دخَلَ الجنَّةَ))[١].

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾.

أي: واترُكوا الذينَ يَميلونَ في أسماءِ اللهِ، عن الحقِّ الواجبِ لها، كأنْ يُسَمُّوا بها آلهتَهم، أو يزيدُوا فيها، أو ينقُصوا منها، أو يُنكِروا بَعضَها[٢].

= ولا تقولُ: يا حكيمُ اغفِرْ لي، أو: يا رزاقُ ارحَمْني. والتحقيقُ أنَّ هذا كلَّه جائزٌ؛ لأنَّ أسماءَ اللهِ مُتلازمةٌ، كلُّ صفةٍ في واحدٍ منها تستلزمُ جميعَ الصِّفاتِ الأخرى لعَظمةِ صِفاتِه جلَّ وعلا، واستلزامُ كُلِّ واحدةٍ منها غايةُ الكَمالِ والجلالِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٥٢).

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥٦، ٣٥٧).

قال ابنُ القيِّم: (وحقيقةُ الإلحادِ فيها: العُدولُ بها عن الصَّوابِ فيها، وإدخالُ ما ليس مِن معانيها فيها، وإخراجُ حقائقِ معانيها عنها... فالإلحادُ إمَّا بجَحْدِها وإنكارِها، وإمَّا بجَحدِ معانيها وتعطيلِها، وإمَّا بتَحريفِها عن الصَّوابِ، وإخراجِها عن الحَقِّ بالتَّأويلاتِ الباطلةِ، وإمَّا بجَعلِها أسماءً لهذه المخلوقاتِ المصنوعاتِ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٥٤).

قال ابنُ عُثيمين: (وقد ذكَرَ أهلُ العِلمِ للإلحادِ في أسماءِ اللهِ تعالى أنواعًا، يَجمَعُها أن نقولَ: هو المَيلُ بها عمَّا يجِبُ اعتقادُه فيها، وهو على أنواعٍ:

النوع الأول: إنكارُ شَيءٍ مِن الأسماءِ، أو ما دلَّت عليه مِن الصِّفاتِ.

النوع الثاني: أن يُسمِّيَ اللهَ- سبحانه وتعالى- بما لم يُسَمِّ به نفسَه. =

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: سيُجازي اللهُ أولئك الذين يُلحِدونَ في أسمائِه، على جميع ما كانوا يعمَلونَ مِن الكُفرِ والإلحادِ في أسمائِه[1].

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مَن ذرَأَ للنَّارِ، ذكَرَ هنا مُقابِلَهم[2]، فقال:

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: ومِنَ الذين خَلَقْنا، جماعةٌ مِن المُسلمينَ، يهتدونَ بالحَقِّ الذي أنزَلَه اللهُ، ويُرشِدونَ النَّاسَ إليه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

= النوع الثالث: أن يَعتقِدَ أنَّ هذه الأسماءَ دالَّةٌ على أوصافِ المَخلوقينَ، فيجعَلَها دالَّةً على التَّمثيلِ.

النوع الرابع: أن يَشتَقَّ مِن أسماءِ اللهِ- تعالى- أسماءً للأصنامِ، كاشتقاقِ اللَّاتِ مِن الإلهِ، والعُزَّى من العزيزِ، ومناةَ مِن المنَّانِ. هذه أنواعُ الإلحادِ في أسماءِ اللهِ تعالى). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٥٨).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٣٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥٩).

وعن ثوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تزالُ طائفةٌ مِن أمَّتي ظاهرينَ على الحقِّ، لا يضُرُّهم مَن خَذَلهم، حتى يأتيَ أمرُ اللهِ وهم كذلك))[1].

﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾.

أي: وبالحَقِّ يعدلونَ بين النَّاسِ ويُنصِفونَهم[2].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ الهادينَ المَهديِّينَ، وكان أصلُ السِّياقِ الضَّالِّينَ المُضلِّين؛ أتبَعَه بقيَّةَ الحديثِ عنهم على وجهٍ مُلَوِّحٍ بأنَّ عِلَّةَ الهدايةِ التَّوفيقُ[3].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾.

أي: والَّذينَ جَحَدوا آياتِنا ورَدُّوها، سنُقَرِّبُهم إلى هلاكِهم بالتَّدريجِ، درجةً درجةً، فنُغدِقُ عليهم مِن نِعَمِنا، ونفتَحُ لهم أبوابَ رِزقِنا، حتى يغتَرُّوا بما هم فيه، فيزدادوا انهماكًا في الفَسادِ، وتماديًا في البَطَرِ والغَفلةِ والعِنادِ، وهم لا يَعلمونَ حقيقةَ ما يُرادُ بهم، حتى يأخُذَهم اللهُ تعالى بعذابِه على غِرَّةٍ[4].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٤٠) ومسلم (١٩٢٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥٩).

وهذا المعنى المذكور هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، والسعدي. يُنظَر: المصادر السابقة.

وقال الشِّنقيطي: (﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعملونَ هم في أنفُسِهم؛ لأنَّ مَن عَمِلَ به عدَلَ وأصابَ العدالةَ، وتنحَّى عن طرَفِ الإفراطِ والتَّفريطِ؛ لأن العدالةَ هي التوسُّطُ بين الأمرينِ، والتَّجافي عن طَرَفِ الإفراطِ وطرَفِ التَّفريطِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٥٩).

(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٨).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦٢ - ٣٦٤). =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

وقال سُبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤- ٥٦].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾.

أي: وأُمهِلُ الذين كذَّبوا بآياتي، فأُطيلُ أعمارَهم، ولا أعاجِلُهم بالعُقوبةِ؛ ليتمادَوْا في الكُفرِ، ويزدادُوا عصيانًا، فتزيدَ عقوبتُهم، ويتضاعَفَ عذابُهم[(١)].

عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالِمِ حتَّى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه. ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢]))[(٢)].

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

أي: إنَّ كَيْدي قَويٌّ شديدٌ لا يُمكِنُ الإفلاتُ منه[(٣)].

= قال ابنُ جرير: (وأصلُ الاستدراجِ: اغترارُ المُستَدرَجِ بلُطفٍ، مِن حيثُ يرى المُستدرَجُ أنَّ المُستَدرِجَ إليه مُحسِنٌ، حتى يورِّطَه مَكروهًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٠-٦٠١).
قال الشِّنقيطي: (يظنُّونَ أنَّ تلك النِّعَمَ مُسابَقةٌ لهم في الخَيراتِ، وأنَّهم ينالونَ بعد ذلك أحسَنَ منه). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٤).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٨٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩١، ١٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦٤).

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) =

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥- ١٧].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- لِلأنعامِ استعداداتٌ فِطريَّةٌ تَهديها، أمَّا الجِنُّ والإنسُ فقد زُوِّدوا بالقَلبِ الواعي، والعَينِ المُبصِرةِ، والأُذُنِ المُلتَقِطة؛ فإذا لم يفتَحُوا قلوبَهم وأبصارَهم وأسماعَهم ليُدرِكوا، إذا مرُّوا بالحياةِ غافلينَ لا تلتقِطُ قلوبُهم معانيَها وغاياتِها، ولا تلتقِطُ أعينُهم مَشاهِدَها ودلالاتِها، ولا تلتقِطُ آذانُهم إيقاعاتِها وإيحاءاتِها؛ فإنَّهم يكونونَ أضَلَّ مِن الأنعامِ الموكولةِ إلى استعداداتِها الفِطريَّةِ الهادية؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(١).

٢- مِن أعظَمِ الأسبابِ التي يُحرَمُ بها العبدُ خَيرَ الدُّنيا والآخرةِ، ولذَّةَ النَّعيمِ في الدَّارينِ، ويَدخُلُ عليه عدوٌّ منها: الغفلةُ المُضادَّةُ للعِلمِ، وقد ذَمَّ اللهُ تعالى أهلَها، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٢).

٣- الدُّعاةُ إلى الحَقِّ لا يسكُتونَ عن الدَّعوةِ به وإليه، ولا يتقَوقعونَ على أنفُسِهم، ولا يَنْزَوونَ بالحَقِّ الذي يعرفونَه، ولكنَّهم يَهدُونَ به غيرَهم؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فهذه أمَّةٌ

= (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٢، ١٩٣).

(١) يُنظَر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٠١).

(٢) يُنظَر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١١٢).

فاضِلةٌ كاملةٌ في نَفسِها، مُكمِّلةٌ لِغَيرِها، يهدونَ أنفُسَهم وغيرَهم بالحقِّ، فيعلمونَ الحقَّ ويعملونَ به، ويُعلِّمونَه، ويدعونَ إليه وإلى العمَلِ به(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ لَمَّا كانوا لا يتدبَّرونَ شيئًا مِن الآياتِ، ولا ينظرونَ إليها نظَرَ اعتبارٍ، ولا يسمعونَها سماعَ تفكُّرٍ، جُعِلوا كأنَّهم فَقَدوا الفِقهَ بالقُلوبِ، والإبصارَ بالعيونِ، والسَّماعَ بالآذانِ، وليس المرادُ نفيَ هذه الإدراكاتِ عن هذه الحواسِّ، وإنَّما المرادُ نفيُ الانتفاعِ بها فيما طُلِبَ منهم من الإيمانِ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ يدلُّ على أنَّ كُفَّارَ الجِنِّ في النَّارِ(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ تقديمُ المجرورِ على المفعولِ في قَولِه: ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ لِيَظهرَ تعلُّقُه بـ﴿ذَرَأْنَا﴾(٤).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ قدَّمَ ذكرَ الجِنِّ على الإنسِ في الآيةِ، والعلَّةُ في ذلك:

قيل: لَمَّا كانوا يُعَظِّمونَ الجِنَّ ويخافونَهم ويَضِلُّون بهم، بدأ بالجِنِّ(٥).

وقيل: لعلَّ تقديمَهم هنا في الذِّكرِ على الإنسِ أنَّهم أكثَرُ أهلِ جَهنَّم؛ لأنَّهم

(١) يُنظَر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠).
(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٨).
(٣) يُنظَر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٧).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٣).
(٥) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٣).

أجدَرُ وأعرَقُ في الصِّفاتِ المذكورةِ عَقِبَ هذه الجملةِ في الآيةِ، والتي هي سببُ استحقاقِها[١].

وقيل: بل قدَّمَ الجِنَّ على الإنسِ في الذِّكرِ؛ ليتعيَّنَ كونُ الصِّفاتِ الواردةِ مِن بعدُ صِفاتٍ للإنسِ، وبقرينةِ قَولِه: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فيه دليلٌ على أنَّ القَلبَ آلةٌ للفِقهِ والعِلمِ، كما أنَّ العينَ آلةٌ للإبصارِ، والأُذُنَ آلةٌ للسَّماعِ[٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لَمَّا كان السِّياقُ للتفكُّرِ، بدأ بالقُلوبِ[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أبلَغُ مِن أن يُقالَ: (ليس لهم قلوبٌ يفقهونَ بها)؛ لأنَّ إثباتَ خلقِ القُلوبِ لهم، هو موضِعُ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، والتعبيرُ الآخَرُ يَصدُقُ بأمرينِ: بعَدَمِ وجودِ القُلوبِ لهم بالمرَّةِ، وبوجودِ قلوبٍ لا يفقهونَ بها، وفي الحالةِ الأولى لا تقومُ عليهم حجَّةٌ؛ لأنَّهم لم يُؤتَوا آلةَ التَّكليفِ، وهو العَقلُ والوِجدانُ، فلا تكونُ العبارةُ نصًّا في قيامِ الحُجَّةِ؛ لاحتمالِها عدمَ التَّكليفِ. وإنَّما قال: ﴿لَا يَفْقَهُونَ بها﴾، ولم يقُل: (لا تفقَهُ)؛ لبيانِ أنَّهم هم المؤاخَذونَ بعَدمِ تَوجيهِ إرادتِهم لِفقهِ الأمورِ، واكتناهِ الحَقائقِ، ويقالُ مثلُ هذا وما قبلَه فيما بَعدَه، وهو: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[٥].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٥٠).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٣).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٨).
(٤) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٣).
(٥) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٥٦).

٨- السَّمعُ والعَقلُ هما أصلُ العِلمِ، وبهما يُنالُ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[1].

٩- قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ليس في تقديمِ الأعيُنِ على الآذانِ مُخالَفةٌ لِما جرى عليه اصطلاحُ القُرآنِ، مِن تقديمِ السَّمعِ على البَصرِ؛ لتَشريفِ السَّمعِ بتلقِّي ما أمرَ اللهُ به، كما في قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] لأنَّ التَّرتيبَ في آيةِ سُورةِ الأعرافِ هذه، سلك طريقَ الترقِّي مِن القُلوبِ التي هي مقَرُّ المُدرَكاتِ، إلى آلاتِ الإدراكِ: الأعيُنِ، ثم الآذانِ؛ فللآذانِ المرتبةُ الأولى في الارتقاءِ[2].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ وقع هنا التدرُّجُ في وَصفِهم بهذه الأوصافِ: مِن نَفيِ انتفاعِهم بمَدارِكهم، ثم تَشبيهِهم بالأنعامِ، ثم الترقِّي إلى أنَّهم أضَلُّ مِن الأنعامِ، ثمَّ قَصرِ الغَفلةِ عليهم[3].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وجهُ كونِهم أضلَّ مِن الأنعامِ: أنَّها تَنقادُ لأربابِها، وتعرِفُ مَن يُحسِنُ إليها، وتجتنِبُ ما يضرُّها، وهؤلاءِ لا يَنقادونَ لِربِّهم، ولا يَعرِفونَ إحسانَه إليهم، من إساءةِ الشَّيطانِ الذي هو عدوُّهم[4]!

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ فأسماءُ اللهِ ليسَت إلَّا لِلَّهِ،

---

(١) يُنظَر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٤).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٥).

(٤) يُنظَر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢١١، ٢١٢).

والصِّفاتُ الحُسنى ليسَت إلَّا للَّهِ، فيجِبُ كَونُها موصوفةً بالحُسنِ والكَمالِ؛ فهذا يفيدُ أنَّ كلَّ اسمٍ لا يُفيدُ في المسمَّى صفةَ كمالٍ وجلالٍ، فإنَّه لا يجوزُ إطلاقُه على اللهِ سُبحانه[١].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ اللهَ- عزَّ وجلَّ- لا يُخلِي الدُّنيا في وقتٍ مِن الأوقاتِ مِن داعٍ يدعو إلى الحَقِّ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ فيه تأكيدٌ بلامِ القَسَمِ وبـ(قَد)؛ لقَصدِ تحقيقِ الخَبَرِ؛ لأنَّ غرابتَه تُنَزِّلُ سامِعَه خاليَ الذِّهنِ منه منزلةَ المُتردِّدِ في تأويلِه، ولأنَّ المُخبَرَ عنهم قد وُصِفوا بـ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ إلى قَولِه: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، والمعنيُّ بهم المُشركونَ، وهم يُنكِرونَ أنَّهم في ضلالٍ، ويحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا، وكانوا يحسَبونَ أنَّهم أصحابُ أحلامٍ وأفهامٍ[٣].

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ مستأنفةٌ لابتداءِ كلامٍ بتفظيعِ حالِهم، فجُعِلَ ابتداءَ كلامٍ؛ ليكونَ أدعى للسَّامِعينَ، وعُرِّفوا بالإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لزيادةِ تَميِيزِهم بتلك الصِّفاتِ، وللتنبيهِ على أنَّهم بسبَبِها أَحْرِياءُ

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٤).
(٢) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٩).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٢).

بما سيُذكَرُ مِن تَسويَتِهم بالأنعام، أو جَعلِهم أضلَّ مِن الأنعامِ[١].

- قَولُه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ تعليلٌ لِكَونِهم أضلَّ مِن الأنعامِ، وهو بلوغُهم حدَّ النِّهايةِ في الغَفلةِ، وبلوغُهم هذا الحدَّ أُفيدَ بصيغةِ القَصرِ الادِّعائيِّ؛ إذِ ادُّعِيَ انحصارُ صِفةِ الغَفلةِ فيهم، بحيث لا يُوجدُ غافلٌ غيرُهم؛ لعدمِ الاعتدادِ بغَفلةِ غَيرِهم، فكلُّ غفلةٍ في جانبِ غَفلَتِهم كَلَا غفلةٍ؛ لأنَّ غَفلةَ هَؤلاءِ تعلَّقَت بأجدَرِ الأشياءِ بألَّا يُغفَلَ عنه، وهو ما تُفضي الغفلةُ عنه بالغافِلِ إلى الشَّقاءِ الأبديِّ، فهي غفلةٌ لا تدارُكَ منها[٢].

٢- ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ تقديمُ المجرورِ المسنَدِ على المسنَدِ إليه؛ لمجرَّدِ الاهتمامِ المُفيدِ تأكيدَ استحقاقِه إيَّاها، المُستفاد من اللَّامِ، والمعنى أنَّ اتِّسامَه بها أمرٌ ثابتٌ[٣].

- والتَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ تفريعٌ عَن كَونِها أسماءً له، وعن كونِها حُسنى، أي: فلا حَرجَ في دعائِه بها؛ لأنَّها أسماءٌ مُتعدِّدةٌ لمسمًّى واحِدٍ، لا كما يزعُمُ المُشركون، ولأنها حُسنى فلا ضيرَ في دعاءِ الله تعالى بها[٤].

- وجملةُ: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تتنزَّلُ منزلةَ التَّعليلِ للأمرِ بتَركِ المُلحِدينَ، و (ما) موصولةٌ عامَّةٌ، أي: سيُجزَونَ بجَميعِ ما يَعمَلونَه مِن الكُفرِ، ومِن جملة ذلك إلحادُهم في أسمائِه، والسينُ للاستقبالِ، وهي تفيدُ التَّأكيد[٥].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٤).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٥).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٦).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٧).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٠).

- وقيل: ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دونَ أن يُقالَ (ما عَمِلوا) أو (ما يعملونَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك العمَلَ سنةٌ لهم، ومتجَدِّدٌ منهم[(١)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراجُ: استفعالٌ من درَجَ بمعنى (صعِد)، ثم اتُّسِع فيه، فاستُعمِلَ في كلِّ نقلٍ تدريجيٍّ، سواءٌ كان بطريقِ الصُّعودِ أو الهبوطِ أو الاستقامةِ، ثم استُعيرَ لطَلَبِ كُلِّ نَقلٍ تدريجيٍّ مِن حالٍ إلى حالٍ، من الأحوالِ المُلائمةِ للمُنتَقِل، المُوافِقةِ لِهَواه، بحيث يزعُم أنَّ ذلك ترقٍّ في مراقي منافِعِه، مع أنَّه في الحقيقة تَرَدٍّ في مهاوي مصارعِه، فاستدراجُه- سُبحانَه- إيَّاهم: أن يواتِرَ عليهم النِّعَمَ مع انهماكِهم في الغَيِّ، فيحسَبوا أنَّها لُطفٌ لهم منه تعالى، فيَزدادوا بَطَرًا وطغيانًا، لكِنْ لا على أنَّ المطلوبَ تدرُّجُهم في مراتِبِ النِّعَمِ، بل هو تدرُّجُهم في مدارجِ المعاصي إلى أن يحِقَّ عليهم كلمةُ العذابِ على أفظَعِ حالٍ وأشنَعِها[(٢)].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (إنَّ وما بَعدَها) في موضِعِ العِلَّةِ للجُملَتينِ قبلها؛ فإنَّ الاستدراجَ والإملاءَ ضَربٌ مِن الكَيدِ[(٣)].

- والمغايرةُ بين فعلَيْ (نستَدرِج) و(أُملي)- في كونِ ثانيهما بهمزةِ المتكَلِّم، وأوَّلِهما بنونِ العَظَمةِ- مغايرةٌ اقتضَتْها الفصاحةُ، مِن جِهةِ ثِقَلِ الهَمزةِ بين حرفينِ مُتماثِلَين في النُّطقِ في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾، وللتفنُّنِ والاكتفاءِ بحُصولِ معنى التعظيمِ الأوَّلِ[(٤)].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٠).
(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٧).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٢).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٨٤-١٨٦)

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿جِنَّةٍ﴾: أي: جُنونٍ، وَأصلُ (جنن): السَّترُ والتستُّر[١].

﴿مَلَكُوتِ﴾: أي: مُلْكِ، وزيدَت فيه الواوُ والتاءُ، وبُنِي بناءَ جَبَروتٍ، وهو مختَصٌّ بمُلكِ اللهِ تعالى[٢].

﴿طُغْيَانِهِمْ﴾: أي: عُتُوِّهِمْ وتكبُّرِهم، أو غَيِّهم وكُفْرِهم، وأصلُ الطُّغيانِ: مجاوزةُ الحدِّ[٣].

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يتَحيَّرون ويجورونَ عَن الطَّريقِ، وأصلُ العَمهِ: التردُّدُ في الأمْرِ، مِن التحيُّرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص:٢١٣، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٧٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (١ / ٨٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

المَعنى الإجماليُّ:

أوَلم يتفكَّرْ هؤلاءِ المكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ، فيما جاءهم به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّهم لا يخفى عليهم حالُه، فيعلَمُوا أنَّه ليس به جُنونٌ، وما هو إلَّا نذيرٌ مُبينٌ.

أوَلم ينظُرْ هؤلاءِ المكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ نظَرَ تأمُّلٍ واعتبارٍ، في ملكوتِ السَّمَواتِ والأرضِ، وفي جميعِ ما خلقَ اللهُ تعالى فيهما، فيعلَمُوا أنَّ خالِقَ ذلك كلِّه ومُدبِّرَه، هو المستحِقُّ وَحْدَه للعبادةِ، وينظرُوا في آجالهم التي عسَى أن تكونَ قد قربَتْ، فيَحذَروا ويُبادِرُوا إلى التَّوبةِ، فبأيِّ حديثٍ بعد القرآنِ يُصَدِّقونَ ويَنْقادون.

وأخبَرَ تعالى أنَّ مَن يَكتُبِ عليه الضَّلالةَ فلن يهْديَه أحدٌ، ويتركُهم اللهُ تعالى في كُفرِهم وضلالِهم يتحيَّرونَ، فلا يهتَدونَ للحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان تكذيبُ المُشركينَ بالآياتِ مُنبعِثًا عن تكذيبِهم مَن جاء بها، وناشئًا عن ظَنِّ أنَّ آياتِ اللهِ لا يجيءُ بها البشَرُ، وأنَّ مَن يدَّعي أنَّه مُرسَلٌ مِن الله مجنونٌ- عقَّبَ الإخبارَ عن المُكَذِّبينَ ووعيدِهم، بدَعوتِهم للنَّظَرِ في حالِ الرَّسولِ، وأنَّه ليس بمجنونٍ كما يزعمونَ[١].

وأيضًا لَمَّا بالغَ اللهُ تعالى في تهديدِ المُعرضينَ عن آياتِه، الغافلينَ عن التأمُّلِ في دلائِلِه وبيِّناتِه- عاد إلى الجوابِ عن شُبُهاتِهم[٢]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٩).

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾.

أي: أوَلم يُعمِلْ أولئك المكذِّبونَ بآياتِنا فِكرَهم فيما جاءَهم به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي خالَطوه وعَرَفوه، ولا يخفى عليهم شيءٌ مِن حالِه، فيعلَمُوا أنْ ليس به أيُّ جنونٍ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نفى أن يكونَ به شَيءٌ ممَّا نَسَبوه إليه وافتَرَوْه عليه، فثبَتَت رسالتُه- حصَرَ أمْرَه في النِّذارةِ؛ لأنَّها النَّافِعةُ لهم[2]، فقال:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٠)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦٦).

و(ما) في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ نافيةٌ، ويجوزُ أن تكونَ استفهاميةً، ويجوز أن تكونَ موصولةً، بمعنى (الذي)، وتقديره: (أو لم يتفكَّروا في الذي بصاحِبِهم)، وعلى هذا يكونُ الكلامُ خرَجَ على زعمِهم. ينظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٢٥).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٨٠).

أي: ما محمَّدٌ إلا نذيرٌ يخوِّفُ الكفَّارَ مِن عِقابِ اللهِ إن لم يُؤمِنوا، يُبينُ ما يُنذِرُهم به؛ ليكونَ إنذارًا واضحًا جليًّا، لا لبْسَ فيه ولا شَكَّ، ولا عُذرَ معه(١).

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حضَّهم اللهُ تعالى على التفكُّرِ في حالِ الرَّسولِ، وكان مُفرَّعًا على تقريرِ دليلِ التَّوحيدِ؛ أعقبَ بما يدلُّ على التَّوحيدِ، ووجودِ الصَّانِعِ الحَكيمِ(٢)، فقال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾.

أي: أوَلم ينظُرِ المُكذِّبونَ بآياتِ اللهِ نظَرَ تأمُّلٍ واعتبارٍ في مُلكِ اللهِ الواسِعِ، وسُلطانِه العظيمِ، في السَّمواتِ وفي الأرضِ، وفيما خلَقَ مِن الأشياءِ كُلِّها، فيتفكَّروا في كلِّ ذلك، فيعلَموا أنَّ خالِقَ ذلك ومُدبِّرَه هو المُستحِقُّ للعبادة وَحْدَه، فيؤمِنوا به ويُصَدِّقوا رسولَه(٣)؟

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦٨، ٣٧٠).
قال الشِّنقيطي: (المبينُ: اسمُ فاعلِ (أبان يُبين)، قال بعضُ العلماءِ: هو مِن (أبان) المتعديةِ. وعليه فالمفعولُ محذوفٌ لعمومِه، والمعنى: مُبينٌ نذارتَه، مصرحٌ لكم في غايةِ البيانِ بما ينذركم الله به، ويحذِّركم منه. وأكثرُ العلماءِ على أنَّ قولَه: ﴿مُّبِينٌ﴾ صفةٌ مشبهةٌ، هي الوصفُ مِن: (أبان) اللازمةِ ... فعلى القولِ الأولِ ﴿مُّبِينٌ﴾: أي: مُبينٌ ما ينذِرُكم ويُحَذِّرُكم به، موضِّحٌ له بالتَّفصيلِ. وعلى الثَّاني: أنَّه الصِّفةُ المُشَبَّهة مِن: (أبانَ) اللَّازمةِ، فمعنى (مُبِين): نذيرٌ بَيِّنُ الإنذارِ واضِحُه، لا إشكالَ في إنذارِه). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٧٠). ويُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٥).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٠)، (تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٣٥).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٩١)، ((تفسير ابن =

﴿ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾.

أي: وينظُروا في احتمالِ دنُوِّ وَقتِ مَوتِهم وهم على كُفْرِهم، فيَحْذَروا ويبادِرُوا إلى التَّوبةِ قبل أن يصيروا إلى عذابِ اللهِ[1].

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: فبأيِّ تخويفٍ وتحذيرٍ بعد القرآنِ يُصَدِّقون، إن لم يُصَدِّقوا بهذا الكتابِ الذي جاءَهم به مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِن عندِ الله تعالى[2]؟

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى إعراضَهم عن الإيمانِ، ذكَرَ علَّةَ ذلك: فضَلالُهم أمْرٌ قَدَّرَ

= عطية)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٠، ٣٧١).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٢، ٣٧٣).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في ﴿بَعْدَهُ﴾ يعودُ على القرآنِ: ابنُ جَريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ، والشِّنقيطي. يُنظَر: المصادر السابقة.

وقيل: هو عائِدٌ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقيل: عائدٌ على الأجَلِ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٩).

اللهُ دوامَه، فلا طمَعَ لأحدٍ في هَدْيِهم [1]، فقال تعالى:

﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ ﴾.

أي: مَن كتبَ اللهُ عليه الضَّلالةَ، فلن يهدِيَه أحدٌ مِن بعدِ اللهِ [2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

﴿ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾.

أي: ويترُكُهم اللهُ في تمادِيهم في كفْرِهم وضلالِهم، يتحَيَّرون ويتردَّدونَ، فلا يهتدونَ إلى الحقِّ [3].

كما قال تعالى: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٥).

وقال جل جلاله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- الحَثُّ على الفِكرِ والتأمُّلِ والتدبُّرِ، والتَروِّي لطَلَبِ معرفةِ الأشياءِ كما هي، عِرفانًا حقيقيًّا تامًّا؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾[1].

٢- يجِبُ على العاقِلِ المُبادرةُ إلى التفكُّرِ والاعتبارِ، والنَّظرِ المؤدِّي إلى الفَوزِ والنَّعيمِ الدَّائمِ؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾[2].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ النَّظرُ بالقَلبِ المفتوحِ والعَينِ المُبصِرةِ، في هذا الملكوتِ الواسِعِ الهائِلِ العَظيمِ؛ يكفي وَحْدَه لانتفاضِ الفِطرةِ مِن تحتِ الرُّكامِ، وتفَتُّحِ الكينونةِ البَشَريَّةِ لإدراكِ الحقِّ الكامِنِ فيه، والإبداعِ الذي يَشهَدُ به، والإعجازِ الذي يَدلُّ على البارئِ الواحِدِ القَديرِ. والنَّظرُ إلى ما خلَقَ اللهُ مِن شَيءٍ- وكم في ملكوتِ السَّمواتِ والأرضِ مِن شَيءٍ- يُدهِشُ القَلبَ، ويُحيِّرُ الفِكْرَ، ويلجِئُ العَقلَ إلى البحثِ عَن مَصدرِ هذا كلِّه، وعن الإرادةِ التي أوجَدَت هذا الخَلقَ على هذا النِّظامِ المقصودِ المَشهورِ[3].

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٤٢).

(٣) يُنظَر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٠٥).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ نبَّهَ على الفِكرِ في اقترابِ الأجَلِ؛ لعلَّهم يُبادِرونَ إليه، وإلى طلَبِ الحَقِّ وما يُخَلِّصُهم من عذابِ الله، قبل مُقانَصةِ الأجَلِ[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ حَذفُ مَعمولِ التفكُّرِ يؤذِنُ بِعُمومِ ما يدلُّ عليه المقامُ ممَّا تقتضيه الحالُ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ مُحمَّدًا خاتَمُ الرُّسُلِ، وأنَّ الوَحيَ ينقطِعُ بعد القُرآنِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فيه أنَّ الهُدى والضَّلالَ مِن اللهِ تعالى[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

- قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مَسوقٌ لإنكارِ عَدمِ تفكُّرِهم في شأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجَهلِهم بحقيقةِ حالِه، المُوجِبةِ للإيمانِ به وبما أُنزِلَ عليه مِن الآياتِ التي كذَّبوا بها، والهمزةُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ استفهاميَّةٌ للإنكارِ والتَّعجيبِ والتَّوبيخِ[٥].

- ودخولُ (مِن) على النَّكرةِ في قولِه: ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾؛ لتوكيدِ العمومِ في

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن حيان)) (٥/ ٢٣٥).
(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٨١).
(٣) يُنظَر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٩٢).
(٤) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٢).
(٥) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٨).

النَّفي[١]، فيوجب ألَّا يكونَ به نوعٌ مِن أنواعِ الجنونِ[٢].

- والتَّعبيرُ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بصاحِبِهم؛ للإيذانِ بأنَّ طولَ مُصاحَبتِهم له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ممَّا يُطْلِعُهم على نزاهَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن شائبةِ ما ذُكِرَ، ففيه تأكيدٌ للنَّكيرِ، وتشديدٌ له[٣].

- وقَولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جملةٌ مُقَرِّرةٌ لِمَضمونِ ما قَبلَها، ومبيِّنةٌ لحقيقةِ حالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أي: ما هو إلَّا مُبالغٌ في الإنذارِ، مُظهِرٌ له غايةَ الإظهارِ؛ إبرازًا لكمالِ الرَّأفةِ، ومبالغةً في الإعذارِ[٤].

- القَصرُ المُستفادُ مِن النَّفيِ والاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قَصرُ مَوصوفٍ على صفةٍ، وهو يقتضي انحصارَ أوصافِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النِّذارةِ والبَيانِ، وذلك قَصرٌ إضافيٌّ، هو قَصرُ قَلبٍ، أي هو نذيرٌ مُبِينٌ، لا مجنونٌ كما يزعمونَ، وفي هذا استغباءٌ أو تسفيهٌ لهم بأنَّ حالَه لا يلتبِسُ بحالِ المَجنونِ؛ لِلْبَونِ الواضحِ بين حالِ النِّذارةِ البيِّنةِ، وحال هَذَيانِ المجنونِ؛ فدعواهم جُنونَه: إمَّا غباوةٌ منهم، بحيث التبَسَت

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٣)، ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٩٠).

(٣) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٨).

قال محمد رشيد رضا: (وقد عَبَّر عنه في هاتينِ الآيَتَيْنِ، وفي آيةِ التَّكويرِ بالصَّاحِبِ لهم؛ لتَذْكيرِهم بأنَّهم يعرفونه مِن أَوَّلِ نشأتِه إلى أنْ تَجاوَزَ الأربعين مِن عُمْرِه، فما عليهم إلَّا أنْ يتَفَكَّروا حَقَّ التَّفكُّرِ في سيرَتِه الشَّريفةِ المعقولةِ؛ ليعلموا أنَّ الشُّذوذَ ومجافاةَ المعقولِ ليس مِن دَأْبِه، ولا ممَّا عُهِدَ عنه، وكذلك الكذبُ كما قال بعضُ زعمائِهم مِنْ أهلِ مَكَّةَ: إنَّ مُحَمَّدًا لم يكذبْ قط على أحدٍ مِنَ الناسِ أفيكذِبُ على الله؟ وقد قال تعالَى في أُولئك الزعَماءِ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٨١).

(٤) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٨-٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٥).

عليهم الحقائِقُ المتمايِزةُ، وإمَّا مكابرةٌ وعنادٌ وافتراءٌ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

٢- ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ ترَقٍّ في الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن حالِهم في إعراضِهم عن النَّظرِ في حالِ رَسولِهم، إلى الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن إعراضِهم عن النَّظَرِ فيما هو أوضَحُ من ذلك وأعَمُّ، وهو مَلَكوتُ السَّمواتِ والأرضِ، وما خلَقَ اللهُ مِن شَيءٍ ممَّا هو آياتٌ مِن آياتِ وحدانيَّة اللهِ تعالى، التي دعاهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الإيمانِ بها[٢].

- وعُدِّيَ فِعلُ النَّظرِ ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ إلى مُتعلِّقِه بحَرفِ الظَّرفيَّةِ (في)؛ لأنَّ المرادَ التأمُّلُ بتدبُّرٍ، وهو التفكُّرُ، فدلَّ بحَرفِ الظَّرفيَّةِ على أنَّ هذا التفكُّرَ عَميقٌ مُتغلغِلٌ في أصنافِ الموجوداتِ[٣].

- قَوْلُه: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ معطوفٌ على ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وصِيغَ الكلامُ على هذا النَّظمِ؛ لإفادةِ تَهويلِ الأمرِ عليهم وتخويفِهم، بجَعْلِ متعلِّقِ النَّظرِ مِن معنى الإخبارِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ مِن شأنِه أن يخطُرَ في النُّفوسِ، وأن يتحدَّثَ به النَّاسُ، وأنَّه قد صار حديثًا وخَبرًا، فكأنَّه أمرٌ مُسلَّمٌ مُقرَّرٌ[٤].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٥-١٩٦).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٦).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٧).

- قَولُه ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ استفهامٌ تعجيبيٌّ، مَشوبٌ باستبعادٍ للإيمانِ بما أبلَغَ إليهم اللهُ بلِسانِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما نصَبَ لهم من الآياتِ في أصنافِ المَخلوقاتِ؛ فإنَّ ذلك كُلَّه قد بلغ مُنتهى البَيانِ قَولًا ودلالةً، بحيث لا مَطمَعَ أن يكونَ غيرُه أدلَّ منه[1].

٣- قولُه: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ هذه الجملةُ تعليلٌ للإنكارِ في قَولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ لإفادةِ أنَّ ضَلالَهم أمرٌ قَدَّرَ اللهُ دوامَه، فلا طَمَعَ لأحدٍ في هَدْيِهم[2].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٨).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٩).

الآيتان (١٨٧-١٨٨)

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾: أي: متى إِقَامَتهَا وإثباتها ومُستقَرُّها، ويُسأَلُ بأيَّانَ عن الزَّمانِ المُستقبَلِ، وأصلُ (رسو): يدلُّ على الثَّبات[1].

﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾: أي: لا يُظهِرُها، يقال: جلَّى لي الخَبَرَ: أي كشَفَه وأوضَحَه، وأصلُ (جلو): يدلُّ على انكشافِ الشَّيءِ وبُروزِه[2].

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: خَفِيَ عِلمُ السَّاعة على أهلِ السَّمواتِ والأرضِ، وإذا خَفِيَ الشَّيءُ ثَقُلَ، أو ثقُلَ وقوعُها على أهل السَّمواتِ والأرضِ، وأصل (ثقل) ضِدُّ الخفَّة[3].

﴿حَفِيٌّ﴾: أي: مُلِحٌّ في طَلَبِ عِلْمِها، مُستَقْصٍ السُّؤالَ عنها. يقال: أحفى فلانٌ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٢، ٢٢٥، ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣١). ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٣).

في المسألةِ: إذا ألَحَّ فيها وبالَغَ، وأصلُ (حفي): يدلُّ على استقصاءٍ في السُّؤالِ(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قال تَعالَى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾: ﴿ما﴾ اسمٌ مَوصولٌ مبنيٌّ في محلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ المتَّصِلِ مِن مَجموعِ النَّفعِ والضَّرِّ- على تقديرِ أنَّه يملِكُ من ذلك ما ملَّكَه اللهُ- أي: إلَّا ما شاءَ اللهُ تمكيني منه، فإنِّي أملِكُه، وقيل: الاستثناءُ مُنقطِعٌ- لأنَّ المخلوقَ لا يملِكُ لنَفسِه نفعًا ولا ضَرًّا بحالٍ- والتَّقديرُ: لكنْ ما شاء اللهُ مِن ذلك كائِنٌ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يسألُك النَّاسُ متى يحُلُّ يومُ القيامةِ، قل لهم: إنَّما عِلمُ ذلك عند ربِّي، لا يُظهِرُه في وقتِه إلَّا هو وَحدَه، خفِي علمُ وقتِها على أهلِ السمواتِ والأرضِ، لا تأتيكم إلَّا فجأةً، يَسألونَك عنها يا مُحمَّدُ، وكأنَّك قد أكثَرْتَ السُّؤالَ عنها حتى عَلِمْتَ وَقتَها، قلْ لهم: لا عِلمَ لي بوَقتِها، إنَّما عِلمُ ذلك عند اللهِ، ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمونَ.

قلْ لهم: لا أملِكُ أنْ أجلِبَ لنفسي النَّفعَ، ولا أدفَعَ عنها الضُّرَّ، إلَّا ما شاء اللهُ، ولو كنتُ أعلَمُ الغيبَ لفعَلتُ الأسبابَ التي أعلَمُ أنَّها تُنتِجُ لي الكثيرَ مِن المصالِحِ، ولَتجنَّبتُ الشَّرَّ قبل أن يقَعَ، ما أنا إلَّا مُنذِرٌ ومُبَشِّرٌ لِقَومٍ يُؤمنونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٠، ٤١٣).

(٢) يُنظَر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٢)، ((الرد على الإخنائي)) لابن تيميَّة (ص: ١٤٧). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٨).

تفسيرُ الآيتين:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

في مُناسَبةِ الآيةِ لِما قَبلَها وجهان:

الوجهُ الأول: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى التوحيدَ والنبوَّةَ والقضاءَ والقدَرَ؛ أتبعَ ذلك بذِكرِ المَعادِ.

الوجه الثاني: لَمَّا تقدَّمَ قَولُه تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ وكان ذلك باعثًا للمبادرةِ إلى التَّوبةِ والإصلاحِ، قال بعده: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾؛ ليتحقَّقَ في القُلوبِ أنَّ وقتَ السَّاعةِ مكتومٌ عن الخَلقِ، فيصيرَ ذلك حاملًا للمُكلَّفينَ على المسارعةِ إلى التَّوبةِ وأداءِ الواجباتِ[1].

سببُ النُّزولِ:

عن طارقِ بنِ شِهابٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان لا يزالُ يَذكُرُ مِن شأنِ السَّاعةِ، حتى نزلَت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[2].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٥٨١)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٨/ ٣٢٢) (٨٢١٠)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (٣٩٤٥).
قال ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٥٢٦)، والحكمي في ((معارج القبول)) (٢/ ٦٨٧): إسنادُه جيِّدٌ قويٌّ.

أي: يسألُكَ النَّاسُ[١]- يا مُحمَّدُ- عن يومِ القيامةِ متى يحُلُّ وَقتُه[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال سُبحانه: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٥-٦].

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّد- للَّذينَ يسألونَك عن وَقتِ وُقوعِ يَومِ القيامةِ: إنَّما عِلمُ ذلك عند خالِقي ومُدَبِّر شُؤوني، لا عندي، لا يُظهِرُها ولا يوجِدُها في وَقتِها الذي قُدِّرَ أنَّها تقومُ فيه، إلَّا اللهُ وحده[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧].

---

(١) قال ابنُ كثير: (يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، قيل: نزلت في قريشٍ. وقيل: في نفَرٍ مِن اليهودِ. والأوَّلُ أشبَهُ؛ لأنَّ الآيةَ مكيَّةٌ، وكانوا يسألونَ عن وقتِ السَّاعة؛ استبعادًا لوقوعِها، وتكذيبًا بوجودِها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]) يُنظَر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٨).
وقال الشِّنقيطي: (والذين سألوه: قال بعضُ العُلَماءِ: هم كفَّارُ مكَّةَ. وقال بعضُ العُلماءِ: نفرٌ مِن اليهودِ، ولا مانعَ مِن أن يكون كلٌّ منهم سألوه عنها). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٧٥-٣٧٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٧ - ٣٧٩).

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: خَفِيَتِ السَّاعةُ عَلَى أَهْلِ السَّمواتِ والأرضِ، وثقلَ علمُها عليهم، واشتدَّ خَوفُهم منها؛ لِما سيكونُ فيها من الأهوالِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٧-١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧-١٨].

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٩).
وممَّن اختار أنَّ معنى ثقُلَت: خَفِيَ عِلْمُها: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة، وابنُ كثير.
وممَّن رُوي عنه هذا القولُ مِن السَّلف السُّدِّي. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٨) وروي نحوه عن قتادةَ، ينظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٢٧).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: عَظُمَ خَطبُها، واشتدَّ خَوفُ الخلائقِ مِن أهوالِها: ابنُ عاشور، والشِّنقيطي.
وممَّن رُوي عنه نحو هذا القول مِن السَّلف الحسنُ، وابنُ جريجٍ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٢٧).
وجمع السعدي بين المعنيين. يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، وينظر أيضًا: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٧٥).
وقال ابنُ كثيرٍ بعد اختيارِه القَولَ الأوَّلَ: (ولا ينفي ذلك ثِقَلَ مجيئِها على أهلِ السَّموات والأرضِ، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٩).

أي: لا تجيءُ السَّاعةُ إلَّا فجأةً، وأنتم لا تَشعرونَ بِمَجيئِها[1].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٨-٥٠].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَقومُ السَّاعةُ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها، فإذا طلَعَت فرآها النَّاسُ آمَنُوا أجمعونَ، فذلك حين: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد نشر الرَّجُلانِ ثَوبَهما بينهما فلا يَتَبايعانِه، ولا يَطْوِيانِه، ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد انصرَفَ الرَّجُلُ بلَبَنِ لِقحَتِه[2] فلا يطعَمُه، ولتَقومَنَّ السَّاعةُ وهو يَليطُ حَوضَه[3] فلا يَسقي فيه، ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد رفَعَ أحدُكم أُكلَتَه إلى فيه فلا يطعَمُها))[4].

وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بارِزًا

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨١).

(٢) اللِّقحةُ (بِكَسرِ اللامِ): النَّاقةُ الحَلوبُ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٩٢).

(٣) يَليطُ حَوضَه: أي: يُطَيِّنُه ويُصلِحُه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٩٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٤٠٧).

(٤) رواه البخاري (٦٥٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٥٧) و (٢٩٥٤).

يومًا للنَّاسِ، فأتاه جبريلُ... قال: متَّى السَّاعةُ؟ قال: ((ما المَسؤولُ عنها بأعلَمَ مِن السَّائِلِ))(١).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ قبلَ أن يموتَ بِشَهرٍ: ((تَسألوني عن السَّاعةِ؟! وإنَّما عِلْمُها عندَ اللهِ، وأُقسِمُ باللهِ ما على الأرضِ مِن نفسٍ مَنفوسةٍ تأتي عليها مئةُ سَنةٍ))(٢).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾.

أي: يَسألُك النَّاسُ عن وقتِ وُقوعِ القيامةِ، وكأنَّك- يا مُحمَّدُ- قد أكثَرْتَ وبالغتَ في السُّؤالِ عنها حتى علِمتَ وقتَها(٣)!!

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّد- لِمَن يسألُك عن مَوعدِ وقوعِ القيامةِ: لا عِلمَ لي بِوَقتِها، ولا يعلَمُ وَقتَها إلَّا اللهُ وَحدَه(٤).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمونَ أنَّ وَقتَ وُقوعِ يومِ القيامةِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ وَحدَه(٥).

---

(١) رواه البخاري واللفظ له، (٥٠) ومسلم (٩).

(٢) رواه مسلم (٢٥٣٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٢).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٢).

قال الشِّنقيطي: (﴿قُلْ﴾ لهم يا نبيَّ اللهِ: ﴿إِنَّماَ عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ كرَّرَ رَدَّ عِلمِها إلى اللهِ؛ ليعلَمَ الخَلْقُ أنَّها لا يعلمُها إلَّا اللهُ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٨٢).

(٥) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٤)، ((تفسير أبي =

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

أي: قلْ - يا مُحمَّد - لِسَائليك عن وَقتِ قيامِ السَّاعةِ: أنا لا أقدِرُ على جَلبِ نَفعٍ إلى نفسي، ولا دفْعِ ضَرٍّ عنها، إلَّا ما أقدرَني اللهُ عليه بمشيئتِه، فيعينُني عليه(١).

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ ﴾.

أي: وقل - يا مُحمَّدُ - لِمَن يسألُك عن وقتِ قيامِ السَّاعةِ: ولو كنتُ أعلَمُ ما هو كائنٌ في المستقبَلِ، لأعدَدْتُ الكثيرَ ممَّا ينفعُني من المالِ وغَيرِه(٢).

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾.

= حيان)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٣٢).

قال أبو السعود: (أي: لا يعلمونَ ما ذُكِرَ مِن اختصاصِ عِلمِها به تعالى؛ فبعضُهم ينكرونَها رأسًا فلا يعلمونَ شَيئًا ممَّا ذُكِرَ قَطعًا، وبعضُهم يعلمونَ أنَّها واقعةٌ البتَّةَ، ويزعمونَ أنَّك واقِفٌ على وَقتِ وُقوعِها فيسألونَك عنه جهلًا، وبعضُهم يدَّعونَ أنَّ العِلمَ بذلك من موجِبِ الرِّسالةِ فيتَّخِذونَ السُّؤالَ عنه ذريعةً إلى القَدحِ في رسالتِك). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٢).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٥- ٦١٦)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٥، ٣٨٦).

قال الشَّنقيطي: (المرادُ بالخيرِ في هذه الآيةِ الكريمة قيل: المالُ، ويدلُّ على ذلك كثرةُ ورودِ الخَيرِ بمعنى المالِ في القرآنِ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، وقولِه: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقولِه: ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ [البقرة: ٢١٥]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ. وقيل: المرادُ بالخَيرِ فيها العملُ الصَّالحُ، كما قاله مجاهِدٌ وغيره، والصَّحيحُ الأوَّلُ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مستكثِرٌ جِدًّا من الخيرِ الذي هو العمَلُ الصَّالِحُ؛ لأنَّ عمَلَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان دِيمةً، وفي روايةٍ: كان إذا عَمِلَ عملًا أثبَتَه). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٦).

أي: ولو كنتُ أعلَمُ الغَيبَ لاحتَرَستُ ممَّا يُفضي إلى المكروهِ، ولكنِّي لا أعلَمُ الغيبَ؛ ولهذا يصيبُني ما قدَّر اللهُ لي[1].

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ما أنا إلَّا مُنذِرٌ عقابَ اللهِ مَن عصاه، ومُبَشِّرٌ بثوابِه مَن أطاعَه، وإنذاري وتبشيري إنَّما ينتفِعُ به المؤمنونَ[2].

كما قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجِبُ على المؤمنينَ أن يخافوا ذلك اليومَ، وأن يحمِلَهم الخوفُ على مُراقبةِ الله تعالى في أعمالِهم،

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٦، ٣٨٨).

قال ابنُ جُزيٍّ: (﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يجوزُ أن يتعَلَّقَ ببشير ونذير معًا، أي: أُبَشِّرُ المؤمنينَ وأُنذِرُهم، وخَصَّ بهم البِشارةَ والنِّذارةَ؛ لأنَّهم هم الذين ينتفعونَ بها، ويجوز أن يتعلَّقَ بالبشارةَ وَحدَها، ويكون المتعَلِّقُ بنذير محذوفًا، أي: نذيرٌ للكافرينَ، والأوَّلُ أحسَنُ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٥). وهذا الذي استحسَنه ابنُ جُزيٍّ، ذهب إليه الواحديُّ، وابنُ عاشور، والشِّنقيطي. يُنظَر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٨).

فيلتَزِموا فيها الحقَّ، ويتحَرَّوا الخيرَ، ويتَّقُوا الشَّرَّ والمعاصيَ، ولا يجعَلوا حَظَّهم مِن أمْرِ السَّاعةِ الجِدالَ، والقيلَ والقالَ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ في السُّؤالِ عن زَمَنِ وُقوعِها بكلمةِ (الإرساءِ)- الدَّالةِ على استقرارِ ما شأنُه الحركةُ والجَرَيانُ، أو المَيَدانُ والاضطرابُ- نكتةٌ دقيقةٌ: وهو أنَّ قيامَ السَّاعةِ عبارةٌ عن انتهاءِ أمْرِ هذا العالَمِ، وانقضاءِ عُمُرِ هذه الأرضِ التي تدورُ بمَن فيها من العوالِمِ المتحَرِّكة المُضطربةِ، فعبَّر بإرسائِها عن منتهى أمْرِها، ووقوفِ سَيرِها. والسَّاعةُ زمَنٌ، وهو أمرٌ مُقدَّرٌ، لا جسمٌ سائرٌ أو مُسَيَّرٌ، وما يقع فيها ويعبَّرُ بها عنه فهو حركةُ اضطرابٍ وزلزالٍ، لا رَسْوَ ولا إرساءَ، وهو أمرٌ مُستقبَلٌ لا حاصلٌ، ومتوقَّعٌ لا واقِعٌ، فلم يبقَ لإرسائِها معنًى إلَّا إرساءُ حركةِ هذا العالَم فيها، وإنَّه لتعبيرٌ بليغٌ، لم يُعهَدْ له في كلامِ البُلَغاءِ نَظيرٌ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ وقال بَعدَها: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فأجابَ عن الأوَّلِ بقَولِه: ﴿إِنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ وعن الثَّاني بقولِه: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فذكَرَ في الثَّاني اسمَ الجلالةِ؛ للإشعارِ بأنَّه ممَّا استأثَرَ بعِلمِه لِذاتِه، كما أنَّ ذِكرَه للرَّبِّ في الأوَّلِ أشعَرَ بأنَّه مِن شُؤونِ رُبوبيَّتِه، وكلٌّ منهما ممَّا يستحيلُ على خَلقِه(٣).

بلاغةُ الآيَتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي

---

(١) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٩١).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٨٨).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٩٢).

لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، يَذكرُ به شيئًا مِن ضلالِهم ومحاولةِ تعجيزِهم النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بتعيينِ وَقتِ السَّاعةِ. ومناسبةُ هذا الاستئنافِ هي التعرُّضُ لتوقُّعِ اقترابِ أجَلِهم في قَولِه: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾[١].

- وقد أُطلِقَ الإرساءُ هنا؛ تشبيهًا لوقوعِ الأمرِ الذي كان مترقَّبًا أو متردَّدًا فيه بوصولِ السَّائرِ في البرِّ أو البحرِ، إلى المكان الذي يريدُه[٢].

- وذَكَرَ السَّاعةَ أوَّلًا، والاستفهامَ عن زمَنِ وُقوعِها ثانيًا؛ على قاعدةِ تَقديمِ الأهَمِّ، وهو المقصودُ بالذَّاتِ[٣].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ فيه حصرٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّه الأصلُ: أنَّ عِلمَ السَّاعةِ بالتَّحديدِ مقصورٌ على اللهِ تعالى، والتَّعريفُ بوَصفِ الرَّبِّ وإضافَتِه إلى ضميرِ المتكلِّمِ إيماءٌ إلى الاستدلالِ على استئثارِ اللهِ تعالى بعِلمِ وَقتِ السَّاعةِ دون الرَّسولِ المسؤولِ؛ ففيه إيماءٌ إلى خَطئِهم، وإلى شُبهةِ خَطَئِهم[٤].

- وفُصِلَت جُملةُ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ لأنَّها تتنزَّلُ مِن ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ منزلةَ التَّأكيدِ والتقريرِ، وقدَّمَ المجرورَ، وهو ﴿لِوَقْتِهَا﴾، على فاعِلِ ﴿يُجَلِّيها﴾ الواقعِ استثناءً مفرَّغًا؛ للاهتمامِ به، تنبيهًا على أنَّ تَجليةَ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٠).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٠٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٨٩).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٢).

أَمْرِها تكونُ عند وقتِ حُلولِها؛ لأنَّها تأتي بغتةً(١).

- جملةُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ مؤكِّدةٌ لجملةِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، ومُبَيِّنة لكيفيَّةِ سؤالِهم فلِذَينِكَ فُصِلَت، وحُذِفَ مُتعَلَّقُ السُّؤالِ؛ لعِلمِه مِن الجملةِ الأولى(٢).

وقيل: السُّؤالُ الأوَّلَ عن وقتِ قيامِ السَّاعة، والثَّاني عن كُنهِ ثِقلِ السَّاعةِ وشِدَّتِها ومهابَتِها، وقيل: ذُكِرَ الثَّاني للتَّأكيدِ، ولِما جاء به من زيادةِ قَولِه: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾(٣).

- قولُه: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: كأنَّك عالمٌ بها. وحقيقتُه: كأنَّك بليغٌ في السُّؤالِ عنها؛ لأنَّ من بالغَ في المسألةِ عن الشَّيءِ والتنقيبِ عنه، استحكَمَ عِلمُه فيه ورصَنَ، وهذا التركيبُ معناه المبالغةُ(٤).

٢- قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، قُصِدَ منه الاهتمامُ بمضمونِه؛ كي تتوجَّهَ الأسماعُ إليه، ولذلك أعيدَ الأمرُ بالقَولِ مع تقدُّمِه مرَّتينِ في قَولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ و﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ للاهتمامِ باستقلالِ المَقولِ، وألَّا يندرِجَ في جملةِ المقُولِ المحكيِّ قَبلَه(٥).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٢).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٠٤).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٤٣).
(٤) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٤).
(٥) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٧).

- وقال اللهُ تعالى هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ* قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وقال في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس:٤٨-٤٩]، فقَدَّمَ النَّفعَ على الضَّرِّ في الأُولى، وأخَّره عنه في الأُخرى، وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ أنَّه هنا في الأعرافِ لَمَّا تقدَّمَ سُؤالُ المشركينَ عن السَّاعةِ، وتكرَّر في قولِه: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، وكان ظاهِرُ السِّياقِ يُشيرُ إلى أنَّهم كانوا يظنُّونَ أنَّه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يعلَمُها، فطَلَبوا تعريفَهم بها، وأن يخُصَّهم بذلك، ولا شَكَّ أنَّ العِلمَ بالشَّيءِ نَفعٌ لصاحِبِه، فعَرَّفَهم أنَّه لا يملِكُ لنَفسِه نفعًا ولا ضَرًّا، فتقدَّمَ ذِكرُ النَّفعِ؛ لأنَّه مُشيرٌ إلى ما ظَنُّوه أنَّه عِندَه مِن عِلمِها، فأعلَمَهم أنَّه سبحانَه استأثَرَ بعِلمِها، وأنَّه- عليه الصَّلاةُ والسَّلام- لا يملِكُ من ذلك شيئًا إلَّا ما شاء اللهُ له ممَّا عدا عِلمَ السَّاعةِ؛ لانفرادِه سبحانه عن خَلقِه بعِلمِها، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ثم تأكَّدَ هذا الغَرَضُ بقَولِه تعالى على لسانِ نبيِّه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ وهذا كلُّه بيِّنُ التناسُبِ.

وأمَّا الآيةُ في سورةِ يونُسَ فإنَّها فيما كان يستعجِلُه الكُفَّارُ مِن عذابِ اللهِ تعالى، وقَبلَها ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، ويقولُ الكُفَّارُ: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] قل: لا أملِكُ ما وعدَكم اللهُ مِن هذا العذابِ، ولا أن أدفَعَ عنكم سُوءَ العِقابِ، كما لا أملِكُ لنفسي ضرًّا ولا نفعًا إلَّا ما شاء اللهُ أن يملِّكَنيه منهما، فتقديمُ (الضَّرِّ) على (النَّفعِ) في هذه الآيةِ؛ لخروجِها عن ذكرِ

العذابِ الذي قال اللهُ تعالى فيه بَعدَها: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾(١) [يونس: ٥١].

- وإنَّما عَطفَ قَولَه: ﴿ولا ضرًّا﴾ مع أنَّ المرءَ لا يتطَلَّبُ إضرارَ نَفسِه؛ لأنَّ المقصودَ تَعميمُ الأحوالِ، إذ لا تعدو أحوالُ الإنسانِ عن نافعٍ وضارٍّ، فصار ذِكرُ هَذينِ الضِّدَّينِ مثلَ ذِكرِ المساءِ والصَّباحِ، وذِكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، والشَّرِّ والخَيرِ(٢).

- وجملة ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ فيها الاستدلالُ على انتفاءِ عِلمِه بالغَيبِ، بانتفاءِ الاستكثارِ مِن الخَيرِ، وتجنُّبِ السُّوءِ؛ وهو استدلالٌ بأخَصِّ ما لو عَلِمَ المرءُ الغَيبَ لعَلِمَه أولَ ما يعلَمُ، وهو الغيبُ الذي يُهِمُّ نفسَه، ولأنَّ اللهَ لو أراد إطلاعَه على الغيبِ، لكان القَصدُ من ذلك إكرامَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيكونُ إطلاعُه على ما فيه راحتُه أوَّلَ ما ينبغي إطلاعُه عليه، فإذا انتفى ذلك كان انتفاءُ غيرِه أَولى. ودليلُ التَّالي في هذه القضيَّةِ الشَّرطيَّةِ، هو المُشاهَدةُ مِن فواتِ خَيراتٍ دُنيويَّةٍ لم يتهيَّأْ لتَحصيلِها، وحصولِ أسواءٍ دُنيويَّةٍ، وفيه تعريضٌ لهم؛ إذ كانوا يتعرَّضونَ له- صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بالسُّوءِ(٣).

- قوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ مِن تمامِ القَولِ المأمورِ به، وهي مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، ناشئًا عن التبرُّؤِ مِن أن يملِكَ لنَفسِه نَفعًا أو ضَرًّا(٤).

---

(١) يُنظَر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٨٢-٦٨٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٧).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٠٨).

(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

- وخصَّ اللهُ تعالى المؤمنينَ بالذِّكرِ في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإن كان نذيرًا وبشيرًا للكُلِّ، إلَّا أنَّ المُنتفِعَ بتلك النِّذارةِ والبِشارةِ هم المؤمنونَ[1].

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤١٠).

الآيات (١٨٩-١٩٣)

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا
تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا
صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ
ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾
وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا
يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿لِيَسْكُنَ﴾: أي: ليأوِيَ. وأصلُ (سكن): يدلُّ على خلافِ الاضْطرابِ والحَركةِ[١].

﴿تَغَشَّاهَا﴾: أي: جامَعَها، وأصلُ (غشي): يدلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بِشَيءٍ[٢].

﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾: وذلك أوَّل الحَمْلِ، لا تجِدُ المرأةُ له ألَمًا، والخَفيفُ: بإزاءِ الثَّقيلِ[٣].

﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾: أي: استمَرَّت به، وقعَدَت وقامَت، ولم يُثقِلْها الحَملُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤).

﴿أَثْقَلَتْ﴾: أَيْ: صارت ذات ثِقلٍ بكِبَرِ الولَدِ في بَطنِها، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

اللهُ الذي خَلَقكم- أيُّها النَّاسُ- مِن نَفسٍ واحدةٍ: هي آدَمُ، وخلقَ مِن آدَمَ زَوجَه حَوَّاءَ- عليهما السَّلامُ؛ ليأوِيَ إليها، فلما جامَعَها حمَلَت في رَحِمِها حملًا خفيفًا عليها، وذلك في أوَّلِه، فاستمَرَّتْ بذلك الحَملِ الخفيفِ تقومُ وتقعدُ مِن دُونِ أن يُثقِلَها الحَملُ، فلمَّا كبِرَ الجنينُ في بَطنِها وصار حَمْلُها ثقيلًا، دعا آدمُ وحوَّاءُ ربَّهما لَئِن آتيتَنا ولدًا سَوِيَّ الخِلقةِ لنكونَنَّ ممَّن يشكُرُ نِعمَك، فلما آتاهما ما طلبَا جعَل أولادُهما لله شُركاءَ، فتنزَّه جل وعلا عمَّا يُشركونَ.

أيعبُدُ المُشركونَ مع اللهِ ما لا يقدِرُ على خَلْقِ شَيءٍ، وهم مخلوقونَ مَصنوعونَ، ولا يستطيعونَ نصْرَ مَن يعبُدُهم، ولا أن ينصُروا أنفُسَهم ممَّن أراد بهم سُوءًا.

وإن تدْعُوا- أيُّها المُشركونَ- هذه الأصنامَ إلى طريقِ الحَقِّ، لا يستجيبوا لكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تعقِلُ، ولا تسمَعُ الدُّعاءَ، وسواءٌ عليكم أدعَوْتُموهم أم صَمَتُّم عن ذلك، فإنَّها لا تتَّبِعُكم ولا تسمَعُكم، فكيف تعبدونَ مَن هذه صِفتُه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَ سؤالُ الكُفَّارِ عن السَّاعةِ ووَقتِها، وكان فيهم من لا يُؤمِنُ بالبعثِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥).

ذكَرَ ابتداءَ خَلقِ الإنسانِ وإنشائِه؛ تنبيهًا على أنَّ الإعادةَ مُمكِنةٌ، كما أنَّ الإنشاءَ كان مُمكِنًا، وإذا كان إبرازُه مِن العَدَمِ الصِّرْفِ إلى الوجودِ واقعًا بالفِعلِ، فإعادتُه أحرى أن تكونَ واقعةً بالفِعلِ(١).

وأيضًا لَمَّا أمرَ تعالى بالنَّظَرِ في الملكوتِ الدَّالِّ على الوحدانيَّة، وقسَّمَ خَلْقَه إلى مؤمنٍ وكافرٍ، ونفى قُدرةَ أحدٍ مِن خَلْقِه على نَفعِ نَفسِه أو ضَرِّها؛ رجع إلى تقريرِ التَّوحيدِ(٢)، فقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

أي: اللهُ هو الذي خَلَقكم- أيُّها النَّاسُ- من آدَمَ، عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

أي: وخلقَ اللهُ- عزَّ وجلَّ- حوَّاءَ مِن آدَمَ، عليهما السَّلامُ(٤).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٤).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٠٤).

(٤) يُنظَر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤).
والقولُ بأنَّ حواءَ مخلوقةٌ مِن آدمَ هو قولُ جمهورِ المفسِّرين، كما نسبه إليهم ابنُ الجوزيِّ، وهو قولُ مقاتلِ بنِ سليمانَ، وابنِ جريرٍ، وابنِ تيميةَ، وابنِ جزيٍّ، وابنِ القيِّم، وابنِ كثيرٍ، والشوكانيِّ. يُنظَر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٢).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف قتادةُ، والضحَّاك، ومقاتلُ بنُ حيَّان. ينظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦].

وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اسْتَوْصوا بالنِّساءِ، فإنَّ المرأةَ خُلقت من ضِلَع، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضلعِ أعلاه، فإن ذهبْتَ تُقيمه كسرْتَه، وإن تركتَه لم يزلْ أعوجَ، فاستوصوا بالنِّساءِ))[١].

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

أي: خلَقَ اللهُ حوَّاءَ؛ لأجْلِ أن يأوِيَ إليها آدَمُ، ليقضِيَ وطَرَه ولَذَّتَه، ويأنَسَ بها، ويطمَئِنَّ إليها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾.

أي: فلمَّا جامَعَها حَمَلت في رَحِمِها حملًا يخِفُّ عليها، وذلك في أوَّلِه[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣١) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٣-٤١٤).
قال القُرطبي: (﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليأنَس بها ويطمئنَّ، وكان هذا كلُّه في الجنَّةِ، ثم ابتدأ بحالةٍ أخرى هي في الدُّنيا بعد هبوطِهما فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ كنايةً عَن الوِقاعِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٧). ويُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٥).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).
قال الشنقيطي: (﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: جامَعها ﴿حَمَلَتْ﴾ مِن ذلك الجماع ﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾ إنَّما وُصف الحملُ بأنَّه خفيفٌ؛ لأنَّ المرأةَ في أوَّل حبلِها، ما دام حبلُها نطفةً فعلقةً فمضغةً، يكونُ خفيفًا، كأنَّها ليس في بطنِها شيءٌ، تذهبُ وتجيءُ، ولا تجدُ ثقلًا له إلى حوالي خمسةِ =

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾.

أي: فاستمَرَّتْ بذلك الحَملِ الخَفيفِ تقومُ وتقعُدُ، مِن غَيرِ أن يُثقِلَها الحَملُ[1].

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾.

أي: فلما صار حَملُها ثقيلًا؛ لِكِبَرِ الجَنينِ في بطنِها، ودُنُوِّ وِلادَتِها[2].

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: نادى آدمُ وحوَّاءُ إلهَهما وربَّهما قائِلَينِ: نُقسِمُ بك- يا ربَّنا- لئِنْ رَزَقْتَنا ولدًا سَوِيَّ الخِلقةِ صحيحًا لا عيبَ فيه[3] لنكونَنَّ ممَّن يشكُرُك على نِعَمِك[4].

= أشهرٍ، فبعدَ ستةِ أشهرٍ يعظمُ الجنينُ في بطنِها، وتثقلُ، وتكونُ الحركةُ ثقيلةً). ((العذب النمير)) (٤/ ٤١٤).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).

(٣) ممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ كثيرٍ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظَر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).

وممن رُوِي عنه نحوُ هذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس، وأبو البَخْتري، وأبو صالحٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، والسُّدِّي، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٠).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى القَولِ بعُمومِ معنى الصَّلاحِ، فقال: (الصَّلاحُ قد يشمَلُ معانيَ كثيرةً؛ منها الصلاحُ في استواءِ الخَلقِ، ومنها الصَّلاحُ في الدِّينِ، والصَّلاحُ في العَقلِ والتَّدبيرِ، وإذ كان ذلك كذلك، ولا خبَرَ عن الرَّسولِ يُوجِبُ الحجَّةَ بأنَّ ذلك على بعضِ معاني الصَّلاحِ دونَ بَعضٍ، ولا فيه من العَقلِ دليلٌ، وجبَ أن يعُمَّ كما عَمَّه اللهُ، فيقال إنَّهما قالا: لَئِن آتيتَنا صالحًا بجميعِ معاني الصَّلاحِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٢).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٩، ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾.

أي: فلمَّا رزَقَهما اللهُ ولدًا صالحًا كمَا سألاه، جعَلَ أهلُ الكُفرِ مِن بني آدَمَ(١) لله شُرَكاءَ فيما رزَقَهم(٢)، سبحانَه(٣).

---

(١) قال الشنقيطي: (جرتِ العادةُ في القرآنِ أن يُسندَ فعلَ الآباءِ إلى الأولادِ، وربما أسنَد فعلَ الأولادِ إلى الآباءِ، وأنَّ الفعلَ هنا أُسنِد لآدمَ وحواءَ (جعلا) بألفِ التثنيةِ الواقعةِ على آدمَ وحوَّاء، والمرادُ ذريتُهما التي أعطاها الله التناسلَ، يخرجُ هذا بشرًا سويًّا، ويخرجُ بسلامٍ، ومع ذلك يكفرونَ بالله- جلَّ وعلا- ويعبدونَ غيرَه، والدليلُ على أنَّه أطلَق آدمَ وحواءَ وأراد ذريتَهما مِن القرآنِ، أنَّه قال بعده: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ بصيغة الجمع ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ثمَّ ذكَر علاماتِ الأصنامِ التي يُشرك بها أولادُهم كما هو واضحٌ. وهذا القولُ أرجحُ، واختارَه غيرُ واحدٍ مِن المحقِّقين؛ لدلالةِ القرآنِ عليه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤١٩).

وقال الرازي: (التَّقديرُ: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ ولدًا صالحًا سويًّا ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ أي: جعَلَ أولادُهما له شركاءَ، على حذفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مقامَه، وكذا ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: فيما آتى أولادَهما، ونظيرُه قوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: واسأل أهلَ القَريةِ. فإن قيل: فعلى هذا التَّأويلِ ما الفائدةُ في التثنيةِ في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾؟! قلنا: لأنَّ وَلَده قسمانِ: ذكرٌ وأنثى، فقولُه: ﴿جَعَلَا﴾ المرادُ منه الذَّكرُ والأنثى، مرةً عبَّر عنهما بلفظِ التَّثنيةِ؛ لكونِهما صِنفَينِ ونوعين، ومرةً عبَّر عنهما بلفظِ الجَمعِ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٨، ٤٢٦).

(٢) قال السعدي: (﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: جعلا لله شركاءَ في ذلك الولدِ الذي انفَرد الله بإيجاده، والنعمةِ به، وأقرَّ به أعينَ والديه، فعَبَّداه لغيرِ الله، إمَّا أن يُسمِّياه بعبدِ غيرِ الله ... أو يُشركا بالله في العبادةِ، بعدما منَّ الله عليهما بما منَّ مِن النِّعمِ التي لا يُحصيها أحدٌ مِن العبادِ، وهذا انتقالٌ مِن النَّوعِ إلى الجنسِ، فإنَّ أولَ الكلامِ في آدمَ وحواءَ، ثم انتقَل إلى الكلامِ في الجنسِ، ولا شكَّ أنَّ هذا موجودٌ في الذريةِ كثيرًا، فلذلك قرَّرهم الله على بطلانِ الشركِ، وأنَّهم في ذلك ظالمون أشدَّ الظُّلمِ، سواء كان الشركُ في الأقوالِ، أم في الأفعالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) =

= (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٧- ٤٢٠).
اختار المعنى المذكور الزَّمخشري، والرَّازي، والقُرطبي، وابن جُزَي، وابنُ القيم، وابنُ كثير، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، والسَّعدي، والشِّنقيطي. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٧، ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٧- ٤٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦).
وممَّن رُوي عنه نحوُ هذا القولِ مِن السَّلف الحسنُ. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٩).
وقيل: المرادُ بهما آدَمُ وحوَّاءُ- عليهما السَّلامُ؛ كان لا يعيشُ لهما ولدٌ، فأتاهما الشَّيطانُ فقال: إنْ سَرَّكُما أن يعيشَ لكما ولدٌ فسَمِّيَاه عبدَ الحارثِ، فأشْرَكَا في التَّسميةِ، ولم يُشرِكا في العبادةِ، واختاره ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، ونسبه ابنُ الجوزي إلى الجمهور. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٤-٦٣٠)، ((الوجيز)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٤٠)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٧٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سمرةُ بنُ جندبٍ، وابنُ عبَّاس، وأُبيُّ بنُ كعبٍ، وقتادةُ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٦٢٣).

قال ابن كثير: (وقد تلقَّى هذا الأثرَ عن ابنِ عبَّاسٍ جماعةٌ من أصحابِه؛ كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسُّدِّي، وغيرُ واحد مِن السَّلَفِ، وجماعةٌ من الخَلَف، ومِن المفسِّرين من المتأخرينِ جماعاتٌ لا يُحصَوْنَ كثرةً، وكأنَّه- والله أعلم- أصلُه مأخوذٌ مِن أهلِ الكتابِ؛ فإنَّ ابنَ عبَّاسٍ رواه عن أُبيِّ بنِ كعبٍ، كما رواه ابنُ أبي حاتم.. وهذه الآثارُ يظهَرُ عليها- واللهُ أعلم- أنَّها من آثارِ أهلِ الكِتابِ، وقد صحَّ الحديثُ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إذا حدَّثكم أهلُ الكتابِ، فلا تُصَدِّقوهم ولا تُكَذِّبوهم)). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٨).
وقال الرَّازي: (واعلَمْ أنَّ هذا التَّأويلَ فاسِدٌ، ويدلُّ عليه وجوهٌ: الأوَّل: أنَّه تعالى قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وذلك يدلُّ على أنَّ الذين أتَوْا بهذا الشِّرْكِ جماعةٌ. الثاني: أنَّه تعالى قال بعده: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، وهذا يدلُّ على أنَّ المَقصودَ مِن هذه الآيةِ الرَّدُّ على مَن جعَلَ الأصنامَ شُرَكاءَ لله تعالى، وما جرى لإبليسَ اللَّعينِ في هذه الآيةِ ذِكرٌ. الثالث: لو كان المرادُ إبليسَ لقال: أيُشرِكونَ مَن لا يخلُقُ شيئًا، ولم يقُل: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾؛ لأنَّ العاقِلَ إنما يُذكَرُ بِصيغةِ «مَن» لا بصيغةِ «ما»... فثبت بهذه =

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: فتنزَّه اللهُ وتعاظَمَ عن شِركِ الذين يُشرِكونَ باللهِ، بأقوالِهم أو أفعالِهم[1]!!

كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)﴾.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾.

أي: أيعبُدُ المُشركونَ مع اللهِ ما لا يقدِرُ على خلْقِ شَيءٍ[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

أي: وهؤلاءِ الذينَ يعبدونَهم مع اللهِ- مِن الأصنامِ وغَيرِها- مخلوقونَ مَصنوعونَ[3].

كما قال الله تعالى حاكيًا قولَ إبراهيمَ الخليلِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

= الوجوهِ أنَّ هذا القَولَ فاسِدٌ، ويجب على العاقِلِ المُسلِمِ ألَّا يلتَفِتَ إليه). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٧). ويُنظَر: ((تفسير ابن جُزي)) (١/ ٣١٦).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣).

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾.

أي: ولا يستطيعُ هؤلاءِ الذين يعبدونَهم مع اللهِ، أن ينصرُوا عابِدِيهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣].

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.

أي: ولا هؤلاءِ المعبودونَ مع اللهِ، يستطيعونَ أن ينصُروا أنفُسَهم ممَّن أرادَهم بسُوءٍ، فكيف يكونونَ آلهةً، وهم لا يملِكونَ لأنفُسِهم جلبَ نفْعٍ، ولا دفْعَ ضُرٍّ؟! ومَن عجَز عن نَصرِ نَفسِه فهو عن نَصرِ غَيرِه أعجَزُ[2].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أثبتَ اللهُ تعالى بالآيةِ المتقَدِّمةِ أنَّه لا قُدرةَ لهذه الأصنامِ على أمْرٍ مِن الأمورِ؛ بيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّه لا عِلمَ لها بشيءٍ مِن الأشياءِ[3]، فقال:

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾.

أي: وإن تَدْعُوا- أيُّها المُشركون- هذه الأصنامَ إلى طَريقِ الحقِّ، لا يستجيبوا

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢١).

(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣١).

لكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تعقِلُ، ولا تسمَعُ دعاءَ مَن دعاها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ [الأعراف: ١٩٨].

﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾.

أي: سواءٌ عليكم - أيُّها المُشركونَ - أدعوتُم هذه الأصنامَ، أم أنتم ساكتونَ عن دُعائِها؛ فإنَّها لا تتَّبِعُكم ولا تسمَعُكم، فكيف تعبدونَ مَن هذه صِفتُه وحالُه[2]؟!

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿تَغَشَّاهَا﴾ أي: أتاها، كغَشِيَها، ويزيدُ ما تُعطيه صيغةُ التَّفعُّل مِن جُهدٍ، وهو كنايةٌ نزيهةٌ عن أداءِ وظيفةِ الزَّوجيَّة، تشيرُ إلى أنَّ مُقتضى الفِطرةِ وأدبَ الشَّريعةِ فيها، السَّترُ[3].

٢- إيتاءُ الصَّالِحِ مِن الوَلَدِ نِعمةٌ مِن اللهِ على والِدَيه، فينبغي الشُّكرُ عليها؛ إذ هي مِن أجَلِّ النِّعَم؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فأقسَمَا على أنَّهما يكونانِ مِن الشَّاكرينَ إنْ آتاهما صالحًا[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- عِلَّةُ سُكونِ الرَّجُلِ إلى امرأتِه كَونُها مِن جِنسِه وجوهَرِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فالجِنسُ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٢).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٣٢).

(٤) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٦).

إلى الجِنسِ أميَلُ، وبه آنَسُ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ احتُجَّ به على أنَّ العَبدَ غَيرُ مُوجِدٍ ولا خالِقٍ لأفعالِه، خلافًا للمعتزلةِ القائلينَ بخلقِ الإنسانِ أفعالَ نفسِه؛ وذلك لأنَّ الله تعالى طعنَ في إلهيَّةِ الأجسامِ؛ بسببِ أنَّها لا تخلقُ شَيئًا، وهذا يقتضي أنَّ كلَّ مَن كان خالقًا كان إلهًا، فلو كان العبدُ خالقًا لأفعالِ نَفسِه، كان إلهًا، ولَمَّا كان ذلك باطلًا، عَلِمْنا أنَّ العبدَ غَيرُ خالقٍ لأفعالِ نَفسِه[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أشار إلى الأصنامِ في ﴿يُخْلَقُونَ﴾ بضميرِ العُقَلاءِ مِن قَبيلِ الحكايةِ؛ لاعتقادِ المُشركينَ فيها ما يعتَقِدونَه في العُقَلاءِ، أو لأنَّهم مُختَلِطونَ بمَن عُبِدَ مِن العقلاءِ؛ كالمَسيحِ وعُزيرٍ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لَمَّا كان المصنوعُ لا يكونُ صانعًا، اكتفى بالبناءِ للمَفعولِ، فقال: ﴿يُخْلَقُونَ﴾[٤]، والتعبيرُ بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يُخْلَقُونَ﴾؛ لِتصويرِ حُدوثِ خَلْقِهم، وكونِ مِثلِه ممَّا يتجَدَّدُ فيهم وفي أمثالِهم مِن المُشركين، وهذا أسوأُ فضائِحِهم في الشِّركِ[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ لعلَّه عبَّر بصيغةِ العاقِلِ عن الأصنامِ؛ إشارةً إلى أنَّهم لو كانوا يَعقِلونَ، وكانوا بهذه الصِّفاتِ

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣١)، ((التوضيح عن توحيد الخلاق)) لسليمان آل الشيخ (ص: ٦٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٦).

(٤) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩٢).

(٥) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٣٨).

الخَسيسةِ؛ ما أهَّلُوهم لِأنْ يكونوا أحبابَهم، فضلًا عن أن يجعَلوهم أربابَهم[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ تَخصيصَ النَّصرِ مِن بين الأعمالِ التي يتخيَّلونَ أن تقومَ بها الأصنامُ؛ مقصودٌ منه تنبيهُ المُشركينَ على انتفاءِ مَقدرةِ الأصنامِ على نَفعِهم؛ إذ كان النَّصرُ أشَدَّ مرغوبٍ لهم، لأنَّ العَربَ كانوا أهلَ غاراتٍ وقتالٍ وَتِراتٍ، فالانتصارُ مِن أهَمِّ الأمورِ لَدَيهم، وأنَّ اللهَ أعلَمَ المسلمينَ بذلك؛ تعريضًا بالبشارةِ بأنَّ المُشركينَ سيُغلبونَ[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ جُعِلَ الأمرانِ سواءً على المُخاطَبينَ، ولم يُجعَلا سواءً على المدْعُوِّينَ: فلم يقُل (سواءٌ عليهم)، وإن كان ذلك أيضًا سواءً عليهم؛ لأنَّ المقصودَ مِن الكلامِ هو تأييسُ المُخاطبينَ مِن استجابةِ المَدعُوِّينَ إلى ما يَدعُونَهم إليه، لا الإخبارُ، وإن كان المعْنَيانِ مُتَلازِمَينِ[٣].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

- قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، عاد بها الكلامُ إلى تقريرِ دليلِ التَّوحيدِ، وإبطالِ الشِّركِ[٤].

---

(١) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩٢).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٧).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢١٩).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢١٠).

- وإيقاعُ الموصولِ خبَرًا في قَولِه: ﴿هُوَ الَّذِي﴾ لِتَفخيمِ شأنِ المبتدأِ، أي: هو ذلك العظيمُ الشَّأنِ الذي خلقَكم جميعًا وحدَه مِن غَيرِ أن يكونَ لِغيرِه مدخلٌ في ذلك بوجهٍ مِن الوجوهِ(١).

- قولُه: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ تعليلٌ لِما أفادَتْه (مِن) التبعيضيَّة، أي: جعَلَ مِن نوعِ الرَّجُلِ زَوجَه ليألَفَها، ولا يجفُوَ قُربَها، ففي ذلك منَّةُ الإيناسِ بها، وكثرةُ ممارَستِها؛ لينساقَ إلى غِشْيانِها(٢).

- قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ التغشِّي: كنايةٌ عن الجِماعِ، وصِيغَت هذه الكنايةُ بالفِعلِ (تغشَّى) الدَّالِّ على التكَلُّفِ- لأنَّه بزِنةِ تفعَّلَ- لإفادةِ قُوَّةِ التمَكُّنِ مِن ذلك؛ لأنَّ التكَلُّفَ يقتضي الرَّغبةَ(٣).

- وقد سلَكَ في وصفِ تَكوينِ النَّسلِ مَسلَكَ الإطنابِ؛ لِما فيه من التَّذكيرِ بتلك الأطوارِ الدَّالَّةِ على دقيقِ حِكمةِ اللهِ وقُدرتِه، وبِلُطفِه بالإنسانِ(٤).

- وإجراءُ صِفةِ ﴿رَبَّهُمَا﴾ المؤذِنةِ بالرِّفقِ والإيجادِ، في قَولِه: ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾؛ للإشارةِ إلى استحضارِ الأبوَينِ هذا الوَصفَ عند دُعائِهما اللهَ، أي: يذكُرُ أنَّه باللَّفظِ أو ما يُفيدُ مَفادَه(٥)

٢- قوله: **﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾** مرادٌ منه مع الإخبارِ التَّعجيبُ مِن سَفَهِ آرائِهم؛ إذ لا يَجعَلُ رشيدُ الرَّأيِ شريكًا لأحدٍ في مُلكِه وصُنعِه بدونِ حَقٍّ؛ فلذلك عُرِّفَ المشروكُ فيه بالموصوليَّةِ، فقيل ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ دونَ الإضمارِ،

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٣).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١١).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٢).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٢).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢١٣).

بأن يقال: (جعَلا له شُركاءَ فيه)؛ لِما تؤذِنُ به الصِّلةُ مِن فَسادِ ذلك الجَعلِ، وظُلْمِ جاعِلِه، وعدمِ استحقاقِ المَجعولِ شَريكًا لِما جُعِلَ له، وكُفرانِ نِعمةِ ذلك الجاعِلِ؛ إذ شكَرَ لِمَن لم يُعطِه، وكفَرَ مَن أعطاه، وإخلافِ الوَعدِ المؤكَّدِ. وجعْلُ الموصولِ (ما) دون (مَن) باعتبارِ أنَّه عطيَّةٌ، أو لأنَّ حالةَ الطُّفولةِ أشبَهُ بغَيرِ العاقِلِ[1].

٣- قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتوبيخِ المُشركينَ، واستقباحِ إشراكِهم على الإطلاقِ، وإبطالِه بالكُلِّيَّةِ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإنكارِ، وصيغةُ المُضارِعِ في (يُشْرِكُونَ) دالَّةٌ على تجدُّدِ هذا الإشراكِ منهم. ونفيُ المضارِعِ في قَولِه: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ نفيِ الخالقيَّةِ عنهم[2].

- و (ما) في قَولِه تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لِما لا يَعقِلُ، ولَفظُها مفردٌ، وهو مِن صِيَغ العُمومِ، فأُفرِدَ الضَّميرُ في ﴿يَخْلُقُ﴾ مراعاةً لِلَّفظِ، ثمَّ جُمِعَ في ﴿يُخْلَقُونَ﴾ مُراعاةً للمَعنى[3].

٤- وتقديمُ المَفعولِ في ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ للاهتمامِ بنَفيِ هذا النَّصرِ عنهم؛ لأنَّه أدَلُّ على عجزِ تلك الآلهةِ؛ لأنَّ مَن يُقصِّرُ في نَصرِ غَيرِه لا يُقصِّرُ في نَصرِ نَفسِه لو قَدَر[4].

٥- قولُه: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٣-٢١٤).
(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٥).
(٣) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٣٨).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٧).

- الخطـابُ للمُشـركينَ، بطريـقِ الالتفـاتِ المُنبِئِ عَـن مَزيدِ الاعتنـاءِ بأمْرِ التَّوبيـخِ والتَّبكيتِ(١).

- قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبلَه، ومُبَيِّنٌ لكيفيَّةِ عدمِ الاتِّباعِ؛ فهو مؤكِّدٌ لجُملةِ ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ فلذلك فُصِلَ(٢).

- وعَطْفُ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ على الفِعليَّةِ ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ لفائدةٍ وحِكمةٍ، وهي أنَّ صيغةَ الفِعلِ مُشعِرةٌ بالتجَدُّدِ والحُدوثِ حالًا بعد حالٍ، وصيغةُ الاسمِ مُشعِرةٌ بالدَّوامِ والثَّباتِ والاستمرارِ، فهؤلاءِ المُشركونَ كانوا إذا وقَعوا في مُهِمٍّ وفي معضلةٍ تضرَّعوا إلى تلك الأصنامِ، وإذا لم تَحدُثْ تلك الواقعةُ بَقُوا ساكِتينَ صامِتينَ، فقِيل لهم: لا فرقَ بينَ إحداثِكم دعاءَهم، وبينَ أن تستمرُّوا على صَمتِكم وسُكوتِكم(٣).

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥).
(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٨).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣١).

الآيات (١٩٤-١٩٨)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿يَبْطِشُونَ﴾: البَطْشُ: تناوُلُ الشَّيءِ بِصَولةٍ، وأصلُه: أخذُ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ وقوَّةٍ[1].

﴿تُنْظِرُونِ﴾: أي: تُؤَخِّرونِ، والنَّظَرُ: الانْتِظَارُ. يقال: نَظَرتُه وانتظَرتُه وأنْظَرتُه، أي: أخَّرْتُه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ المُشركين قائلًا لهم: إنَّ الذينَ تعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ هم عِبادٌ أمثالُكم، فادعُوهم، وليُجيبوا دُعاءَكم، إن كُنتُم صادقينَ في أنَّها تستحِقُّ العبادةَ.

ألِهَؤلاءِ الأصنامِ أرجُلٌ يمشونَ بها، أم لهم أيدٍ يأخُذونَ ما أرادُوا بها بشِدَّةٍ وينصُرونكم بها، أم لهم أعيُنٌ يُبصِرونَ بها، قلْ لهم يا مُحمَّدُ: ادعُوا شُرَكاءَكم ثم اجتَمِعوا أنتم وهم على إيقاعِ السُّوءِ والمكروهِ بي عاجلًا، ولا تُمهِلوني،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣١).

وقلْ لهم: إنَّ الذي يتولَّاني فينصُرُني ويحفَظُني، هو الله الذي نزَّلَ القُرآنَ، وهو سبحانه يتولَّى الصَّالحينَ. وقلْ لهم أيضًا: إنَّ الذين تعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ لا يَقدِرونَ على نَصرِكم، ولا يَستطيعونَ نَصرَ أنفُسِهم ممَّن أرادَهم بسُوءٍ، وإن تدعُوا- أيُّها المُشركونَ- هؤلاءِ الأصنامَ إلى الحَقِّ، لا يسمَعُوا، وترى- يا مُحمَّدُ- هذه الأصنامَ المنحوتةَ تُقابِلُك بعيونٍ مُصَوَّرةٍ، كأنَّها تنظُرُ إليك، بينما هي لا تُبصِرُ في الحقيقةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذه الجُملةَ ورَدَت على سبيلِ التَّوكيدِ لِما قَبلَها في انتفاءِ كَونِ هذه الأصنامِ قادرةً على شيءٍ مِن نَفعٍ أو ضَرٍّ[1].

وأيضًا ورَدَت بيانًا وتعليلًا لِجُملةِ ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٣]، أي: لأنَّهم عبادٌ، أي: مخلوقونَ[2].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ ﴾.

يقولُ اللهُ تعالى مُوبِّخًا المُشركينَ على عِبادتِهم ما لا يضُرُّهم ولا ينفَعُهم مِن الأصنامِ: إنَّ الذينَ تعبدونَ ممَّا سِوى اللهِ وتَدعونَهم، هم مملوكونَ للهِ، كما أنَّكم مماليكُ للهِ سُبحانَه، لا فَرْقَ بينكم وبَينَهم[3].

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٠-٢٢١).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢).

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: فادعُوا أصنامَكم، ولْتُجِبْ دُعاءَكم إن كُنتُم صادقينَ في أنَّها تضرُّ وتنفَعُ، وأنَّها تستحِقُّ العبادةَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥)﴾.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾.

أي: ألهؤلاءِ الأصنامِ أرجُلٌ يَمشونَ بها، كما لكم- أيُّها المُشركون- أرجُلٌ تَمشونَ بها(٢)؟!

﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾.

أي: أمْ لهؤلاءِ الأصنامِ أيدٍ يأخُذونَ بها ما يريدونَ أخْذَه وتناوُلَه بشِدَّةٍ، وينصرونَكم بها، كما لكم أيُّها المُشرِكونَ(٣)؟!

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٥).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٦).

﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآ﴾.

أي: أمْ لهؤلاءِ الأصنامِ أعيُنٌ يُعايِنونَ بها الأشياءَ، كما لكم[١]؟!

﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَا﴾.

أي: أمْ لِهَؤلاءِ الأصنامِ آذانٌ يَسمعونَ بها، كما لكم؟! فكيف تَعبدونَها، وأنتم أفضَلُ وأقدَرُ منها[٢]؟!

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- متحدِّيًا هؤلاءِ المُشركينَ: استنصِرُوا عليَّ بأصنامِكم التي تزعُمونَ أنَّها آلهةٌ مع اللهِ، ثم عجِّلوا أنتم وهِي بالكَيدِ لي، والمَكرِ بي، فلا تُمهِلوني[٣].

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآياتِ المُتقدِّمة أنَّ هذه الأصنامَ لا قدرةَ لها على النَّفعِ والضَّرِّ؛ بيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ الواجِبَ على كلِّ عاقلٍ عبادةُ اللهِ تعالى؛ لأنَّه هو الذي

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٣).

قال ابن جرير: (يُعلِمُه جلَّ ثَناؤُه بذلك أنَّهم لم يضُرُّوه، وأنَّه قد عَصَمه منهم، ويُعرِّفُ الكَفَرةَ به عجْزَ أوثانِهم عن نُصرةِ مَن بَغى أولياءَهم بِسُوءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦).

يتولَّى تحصيلَ منافِعِ الدِّينِ والدُّنيا[١].

وأيضًا لَمَّا أحالَهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الاستنجادِ بآلِهَتِهم في ضَرِّه، في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ وأراهم أنَّ اللهَ هو القادِرُ على كلِّ شَيءٍ- عقَّبَ ذلك بالاستنادِ إلى اللهِ تعالى والتوكُّلِ عليه، والإعلامِ أنَّه تعالى هو ناصِرُه عليهم[٢]، فقال:

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: إنَّ نَصيري الذي ينصُرُني عليكم ويحفَظُني، ويعصِمُني منكم؛ هو اللهُ الذي نزَّل عليَّ القُرآنَ[٣].

كما قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٢، ٣].

وعن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((غَزَوْنا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غزوةَ نَجدٍ، فلما أدرَكَتْه القائلةُ، وهو في وادٍ كَثيرِ العِضاهِ[٤]، فنزل تحتَ شَجَرةٍ واستظَلَّ بها وعلَّق سيفَه، فتفَرَّقَ النَّاسُ في الشَّجرِ يستظِلُّونَ،

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٥٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٠).

(٤) العِضَاه: كُلُّ شَجرٍ عَظيمٍ له شَوكٌ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٣٧).

وبينا نحن كذلك إذ دعانا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فجِئْنا، فإذا أعرابيٌّ قاعِدٌ بين يدَيه، فقال: إنَّ هذا أتاني وأنا نائِمٌ، فاختَرَط سيفي[1]، فاستيقظتُ وهو قائِمٌ على رأسي، مُختَرِطٌ صَلتًا[2]، قال: من يمنَعُك مني؟ قلتُ: اللهُ، فشامَه[3] ثم قعَدَ، فهو هذا. قال: ولم يعاقِبْه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[4].

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: وهو سُبحانَه ينصُرُ ويحفَظُ الذين صلَحَت نيَّاتُهم وأعمالُهم وأقوالُهم، فآمَنُوا باللهِ تعالى، وامتثَلوا ما أمَرَ به، واجتَنَبوا ما نهى عنه[5].

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ قال: مَن عادَى لي وليًّا فقد آذنْتُه بالحَربِ، وما تقرَّبَ إليَّ عَبدِي بشيءٍ أحَبَّ إليَّ ممَّا افترضْتُ عليه، وما يزالُ عبدي يتقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتى أحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سَمعَه الذي يسمَعُ به، وبصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويَدَه التي يبطِشُ

(١) فاختَرَط سيفي: أي: سَلَّه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٣٧).
(٢) صَلْتًا: أي: مُجَرَّدًا من غِمْدِه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٣٧).
(٣) فشَامَه: أي: غَمَدَه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٣٧).
(٤) رواه البخاري (٤١٣٩) واللفظ له، ومسلم (٨٤٣).
(٥) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٢).

بها، ورِجلَه التي يمشي بها، وإن سألَني لأُعطيَنَّه، ولئن استعاذَني لأُعيذَنَّه))(١).

وعن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كنتُ خَلفَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا، فقال: يا غُلامُ، إنِّي أعَلِّمُك كلماتٍ، احفَظِ اللهَ يَحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك))(٢).

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾.

أي: وقُل- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: والذينَ تعبدونَهم وتَدعُونَهم مِن دونِ اللهِ تعالى لا يَقدِرونَ على نَصرِكم على عَدُوِّكم، ولا أن يدفعُوا عنكم ظُلمًا أو عذابًا حلَّ بكم(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥].

وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠٠-١٠١].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤١٧). صححه الترمذي، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (٢٥١٦)، وابن باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١/١٦٠)، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٦٩٩): صحيح لغيره، وحسنه ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٢٧). وصحح إسناده أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٢).

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾.

أي: ولا تلك الأصنامُ- مع عَجْزِهم عن نُصرَتِكم- يقدرونَ على نُصرةِ أنفُسِهم ممَّن أرادَهم بسُوءٍ(1).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩].

وقال سبحانه: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ ذاكرًا فعلَ إبراهيمَ عليه السَّلام حينَ كسَر أصنامَ قومِه: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣].

وقال تعالى حاكيًا قولَ إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧-٥٨].

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواۖ﴾.

أي: وقُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: وإنْ تَدْعُوا أصنامَكم إلى الحَقِّ، لا يَسمَعوا دُعاءَكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تَسمَعُ(2).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤١).

﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

أي: وترى- يا مُحمَّدُ- آلهةَ المُشركينَ المنحوتةَ، تُقابِلُك بعيونٍ مُصَوَّرةٍ، كأنَّها تنظُرُ إليك، وهي لا تُبصِرُ شيئًا في الحقيقةِ؛ لأنَّها جماداتٌ لا تُبصِرُ[1].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ المؤمنونَ الصَّالِحونَ لَمَّا تولَّوا ربَّهم بالإيمانِ والتَّقوى، ولم يتولَّوا غيرَه مِمَّن لا ينفَعُ ولا يضُرُّ؛ تولَّاهم اللهُ ولَطفَ بهم، وأعانَهم على ما فيه الخَيرُ والمصلحةُ لهم، في دِينِهم ودُنياهم، ودفَعَ عنهم بإيمانِهم كُلَّ مَكروهٍ[2].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أطلَقَ الدُّعاءَ على العبادةِ؛ إشارةً إلى أنَّه لا تصِحُّ عبادةُ مَن ليس فيه قابليَّةٌ أن يُدعى[3].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ فيه أنَّه قد يُطلَقُ لَفظُ (العَبد) على المخلوقاتِ كُلِّها؛ الذي يعقِلُ والذي لا يَعقِلُ[4].

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ إنَّما أطلَقَ على الأصنامِ اسمَ العِبادِ، وعبَّرَ عنها بضمائِرِ العُقَلاءِ؛ لأنَّ الكُفَّارَ يَصِفونَها بصفاتِ مَن هو خيرٌ مِن مُطلَقِ العُقَلاءِ: أنَّها مَعبوداتٌ، وأنَّها تشفَعُ وتُقرِّبُ إلى الله زُلفَى، فبهذا الاعتبارِ أجرى عليها ضمائِرَ العُقَلاءِ، وعبَّرَ عنها بالعبادِ، ووجهُ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٥).
(٢) يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٢).
(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩٤-١٩٥).
(٤) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٤٤).

مُماثَلتِهم هنا: أنَّ الكُفَّارَ العابِدينَ، والأصنامَ المعبوداتِ؛ كلُّهم مَخلوقاتٌ لله، لا تَقدِرُ أن تجلِبَ لِنَفسِها نفعًا، ولا أن تدفَعَ عنها ضرًّا، فهم مِن قَبيلِ تسخيرِ اللهِ لهم، وخَلْقِه للجَميعِ، وقُدرتِه على الجَميعِ، بهذا الاعتبارِ هم سواءٌ؛ ولذا قال: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ لَمَّا كان دعاءُ الجماعةِ أقرَبَ إلى السَّماعِ مِن دُعاءِ الواحِدِ، نسَقَ على ما قَبلَه قَولَه: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقل به إلى مُخاطبةِ المُشرِكينَ؛ ولذلك صُدِّرَ بحَرفِ التَّوكيدِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ يُنكِرونَ مساواةَ الأصنامِ إيَّاهم في العبوديَّةِ[3].

- قَولُه تعالى: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ تحقيقٌ لِمَضمونِ ما قَبلَه بتَعجيزِهم وتَبكيتِهم، أي: فادعُوهم في جَلبِ نَفعٍ أو كَشْفِ ضُرٍّ[4].

٢- قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾

- قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ

---

(١) يُنظَر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٥).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩٩).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٠-٢٢١).

(٤) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٢).

يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ تبكيتٌ إثْرَ تبكيتٍ، مؤكِّدٌ لِما يفيدُه الأمرُ التَّعجيزي مِن عَدمِ الاستجابةِ، ببيانِ فُقدانِ آلاتِها بالكليَّةِ(١).

- والاستفهامُ في ﴿أَلَهُمْ﴾ وما بَعدَه؛ إنكاريٌّ، وتقديمُ المُسنَدِ على المُسنَد إليه؛ للاهتمامِ بانتفاءِ المِلْك الذي دَلَّت عليه اللَّامُ(٢).

- وقد وُجِّهَ الإنكارُ إلى كُلِّ واحدةٍ من هذه الآلاتِ الأربعِ على حِدَةٍ؛ تكريرًا للتَّبكيتِ، وتثنيةً للتَّقريعِ، إشعارًا بأنَّ انتفاءَ كلِّ واحدةٍ منها بِحِيالِها كافٍ في الدَّلالةِ على استحالةِ الاستجابةِ(٣).

- ووصفُ الأرجُلِ بـ ﴿يَمْشُونَ﴾، والأيدي بـ﴿يَبْطِشُونَ﴾، والأعيُنِ بـ ﴿يُبْصِرُونَ﴾، والآذانِ بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾: إمَّا لزيادةِ تسجيلِ العَجزِ عليهم فيما يَحتاجُ إليه النَّاصِرُ، وإمَّا لأنَّ بَعضَ تلك الأصنامِ كانت مجعولةً على صورِ الآدَميِّينَ، وخَصَّ الأرجُلَ والأيديَ والأعيُنَ والآذانَ؛ لأنَّها آلاتُ العِلمِ والسَّعيِ والدَّفعِ للنَّصرِ(٤).

- والأمرُ والنَّهيُ في قولِه تعالى: ﴿كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ للتَّعجيزِ(٥)

- وقولُه: ﴿فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ تفريعٌ على الأمرِ بالكَيدِ، أي: فإذا تمكَّنْتُم مِن إضراري، فأعجِلُوا، ولا تؤَجِّلوني(٦).

- وفي هذا التحدِّي تعريضٌ بأنَّه سيبلغُهم، وينتصرُ عليهم، ويستأصلُ آلهتَهم(٧).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٦).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٢).
(٣) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٦).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٢).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٣).
(٦) يُنظَر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ هذا مِن المأمورِ بِقَولِه أيضًا، وفُصِلَت هذه الجُملةُ عَن جُملةِ ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾؛ لِوُقوعِها مَوقِعَ العلَّةِ لِمَضمونِ التَّحدِّي في قَولِه ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذي هو تحقُّقُ عَجْزِهم عن كَيدِه[1].

– وإجراءُ الصِّفةِ لاسْمِ اللهِ بالموصوليَّةِ ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾؛ لِمَا تدُلُّ عليه الصِّلةُ مِن عَلاقاتِ الوِلايةِ؛ فإنَّ إنزالَ الكِتابِ عليه وهو أُمِّيٌّ، دليلُ اصطفائِه وتوَلِّيه[2].

– والتَّعريفُ في الكتابِ للعَهدِ، أي: الكتابَ الَّذي عَهِدتُموه وسَمِعتُموه، وعَجَزتُم عن مُعارَضتِه، وهو القُرآنُ[3].

– ومَجيءُ المُسنَدِ ﴿يَتَوَلَّى﴾ فعلًا مُضارعًا؛ لقَصدِ الدَّلالةِ على استمرارِ هذا التَّولِّي وتجدُّدِه، وأنَّه سُنَّةٌ إلهيَّةٌ، فكما توَلَّى النبيَّ يتولَّى المؤمنينَ أيضًا، وهذه بِشارةٌ للمُسلمينَ المُستَقيمينَ على صِراطِ نَبِيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَنصُرَهم اللهُ، كما نصَرَ نبيَّه وأولياءَه[4].

– وقولُه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قَبلَه[5].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ عَطْفٌ على جملةِ: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ وسلوكُ طَريقِ المَوصوليَّة في التَّعبيرِ عن الأصنامِ؛ للتَّنبيهِ على خَطأِ المُخاطَبينَ في دُعائِهم إيَّاها مِن دُونِ اللهِ، مع ظُهورِ عَدمِ استِحقاقِها للعِبادةِ؛

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٤).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٤).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٤).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٤).
(٥) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٧).

بِعَجزِها عن نَصرِ أتباعِها، وعن نَصرِ أنفُسِها[١].

٥- **قولُه تعالى:** ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ تشبيهٌ بليغٌ، أي: تَراهم كأنَّهم يَنظُرونَ إلَيك؛ لأنَّ صُوَرَ كَثيرٍ مِن الأصنامِ كان على صُوَرِ الأناسيِّ، وقد نحتوا لها أمثالَ الحِدَقِ النَّاظِرةِ إلى الواقِفِ أمامَها[٢].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٥).

الآيات (١٩٩-٢٠٣)

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿الْعَفْوَ﴾: أي: الميسورَ مِن أخلاقِ النَّاسِ، والعفوُ يُطلق على ضدِّ الجهدِ، فكلُّ شيءٍ متيسرٍ، لا مجهودَ فيه يسمَّى عفوًا، وأصلُ العَفْوِ: القَصدُ لِتَناوُلِ الشَّيءِ[(١)].

﴿بِالْعُرْفِ﴾:أي: المَعْرُوف مِن الإحسانِ، وأصلُ (عرف) يدلُّ على السُّكونِ والطُّمأنينةِ، ومنه العُرفُ والمعروفُ، سُمِّي بذلك؛ لأنَّ النُّفوسَ تسكُنُ إليه[(٢)].

﴿يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾: أي: يستَخِفَّنَّك منه خِفَّةٌ وغضَبٌ وعَجَلةٌ، أو يُحَرِّكنَّك بِالشَّرِّ. وأصلُ (نزغ): يدلُّ على إفسادٍ بينَ اثنَينِ[(٣)].

﴿مَسَّهُمْ﴾: أي: أصابَهم، أو ألَمَّ بِهم، والمسُّ يقالُ في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦١٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

مِن أذًى، وأصلُ (مس): جَسُّ الشَّيءِ باليَدِ[١].

﴿طَائِفٌ﴾: أي: عارِضٌ أو وَسْوَسةٌ مِن الشَّيطانِ، وأصلُ (طيف): يَدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ[٢].

﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾: أي: يُزَيِّنونَه لهم، أو يُطِيلونَ لهم فيه، وأصلُ (مَدَّ): يدلُّ على جَرِّ شيءٍ في طُولٍ. والغَيُّ: خِلافُ الرُّشدِ، والانهماكُ في الباطِلِ[٣].

﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾: أي: لا يَسأَمونَ، وأصلُ (قصر): كفٌّ مع القُدرةِ عليه[٤].

﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾: أي: تقوَّلْتَها مِن نَفْسِك؛ مِن اجتَبيتُ الشَّيءَ: إذا اختَرَعتَه وارتجَلْتَه واختَلَقْتَه والاجتباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصْطفاءِ[٥].

﴿بَصَائِرُ﴾: أي: حُجَجٌ ظاهِرةٌ بَيِّنة، واحدتُها بَصِيرة، وأصلُ (بصر): العِلمُ بالشَّيءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٦)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩ و٥/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٥، ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣، ٢١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس =

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَقبَلَ ما تيسَّرَ مِن أخلاقِ النَّاسِ، وأن يأمُرَ بالمَعروفِ الذي يُقِرُّه الشَّرعُ، وأن يُعرِضَ عمَّن جَهِلَ عليه.

ويأمُرُه إن ناله مِن الشَّيطانِ وَسوسةٌ ما أو غَضَبٌ أو غيرُ ذلك، أن يَستعيذَ باللهِ؛ إنَّه هو السَّميعُ العَليمُ.

ويخبِرُ تعالى أنَّ الذينَ اتَّقَوا إذا أصابَتْهم وسْوَسةٌ مِن الشَّيطانِ أو غضَبٌ أو غيرُ ذلك، تذكَّرُوا؛ فإذا هم يُبصِرونَ بقُلوبِهم هُدى الله، فيَنتَهونَ عن مَعصِيتِه.

كما يخبِرُ تعالى أنَّ إخوانَ الشَّياطينِ - وهُم كَفَرةُ الإنْسِ وفجَرَتُهم - تُزَيِّنُ لهم الشَّياطينُ الضَّلالَ، وتُعينُهم على الكُفرِ والمعاصي، ثمَّ لا يسأمُ الشَّياطينُ ولا يَفتُرونَ عن ذلك، كما أنَّ أولياءَهم مِن الإنسِ لا يُقصِرونَ في ارتكابِ تلك السَّيئاتِ.

ويُخاطِبُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: وإذا لم تأتِ المُشركينَ بآيةٍ وَفْقَ ما يَطْلبونَ، قالوا: هلَّا أتَيتَ بها مِن تِلقاءِ نَفسِك، قل لهم - يا مُحمَّد: إنَّما أتَّبِعُ ما يُوحيه إليَّ ربِّي، وهذا القُرآنُ عَلاماتٌ واضحة للهُدى، وحُجَجٌ قاطعةٌ على الحَقِّ مِن الله سبحانَه وتعالَى، ومُرشِدٌ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، ورحمةٌ في الدُّنيا والآخرةِ للمُؤمنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما أشبعتِ السُّورة مِن أفانينِ قوارعِ المشركين، وعظِتِهم، وإقامةِ الحجَّةِ عليهم، وفضحِ ضلالِهم، وفسادِ معتقدِهم، والتشويهِ بشركائِهم، وقد تخلَّل ذلك

= اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

كلَّه التسجيلُ بمكابرتِهم، والتعجيبُ منهم كيفَ ينأَوْن بجانبِهم، وكيف يصمُّون أسماعَهم، ويغمضونَ أبصارَهم عما دُعوا إلى سماعِه وإلى النَّظر فيه، إلى غيرِ ذلك، وإذ قد كان مِن شأنِ ذلك أن يثيرَ في أنفسِ المسلمين كراهيةَ أهلِ الشِّرك، ويحفزَهم للانتقامِ منهم، ومجافاتِهم، والإعراضِ عن دعائِهم إلى الخيرِ - لا جرمَ شرَع في استئنافِ غرضٍ جديدٍ، يكونُ ختامًا لهذا الخوضِ البديعِ، وهو غرضُ أمرِ الرَّسول والمؤمنين بقلَّةِ المبالاةِ بجفاءِ المشركينَ وصلابتِهم، وبأن يَسَعوهم مِن عفوِهم، والدأبِ على محاولةِ هديِهم، والتبليغِ إليهم[1].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّه هو الذي يتولَّى رَسولَه، وأنَّ الأصنامَ وعابِدِيها لا يَقدِرونَ على الإيذاءِ والإضرارِ؛ بَيَّن في هذه الآيةِ ما هو المَنهَجُ القَويمُ والصِّراطُ المُستقيمُ في مُعاملةِ النَّاسِ[2]، فقال تعالى:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾.

أي: اقبَلْ ما تيسَّرَ مِن أخلاقِ النَّاسِ، وما سَمَحت به أنفُسُهم، ولا تُغلِظْ عليهم، فإنْ وَجدْتَ منهم خُلُقًا طَيِّبًا فاقبَلْه، وما جاءَك مِن غَيرِ ذلك فاصفَحْ عنه وتجاوَزْه، واترُكْ ما لك من الحَقِّ عليهم[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٤).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٩).

قال ابنُ عطيَّة: (وصيةٌ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعُمُّ جميعَ أمَّتِه، وأخْذٌ بِجَميعِ مَكارِمِ الأخلاقِ... معناه: اقبَلْ مِن النَّاسِ في أخلاقِهم وأقوالِهم ومُعاشَرتِهم، ما أتى عَفْوًا دونَ تكَلُّفٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٠).

الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (أمَرَ اللهُ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يأخُذَ العَفْوَ مِن أخلاقِ النَّاسِ)(١).

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾.

أي: وأْمُرِ النَّاسَ- يا مُحمَّد- بالمَعروفِ الذي يُقِرُّه الشَّرعُ؛ مِن كُلِّ قَولٍ وفِعلٍ تَعرِفُ حُسنَه ونَفعَه العُقولُ والفِطَرُ السَّليمةُ، وتطمئِنُّ إليه النُّفوسُ المُستقيمةُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

أي: وأعرِضْ عمَّن جَهِلَ عليك، فإذا سَفِهَ عليك، وأساءَ إليك، فلا تؤاخِذْه بزَلَّتِه(٣).

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٩).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٢).

قال الرَّازي: (المقصودُ منه أمرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يصبِرَ على سُوءِ أخلاقِهم، وألَّا يُقابِلَ أقوالَهم الرَّكيكةَ ولا أفعالَهم الخَسيسةَ بأمثالِها، وليس فيه دَلالةٌ على امتناعِه مِن القتالِ؛ لأنَّه لا يمتنِعُ أن يُؤمَرَ عليه السَّلامُ بالإعراضِ عن الجاهلينَ مع الأمرِ بقِتالِ المُشركينَ.. فحينئذ لا حاجةَ إلى التزامِ النَّسخِ، إلَّا أنَّ الظَّاهريَّةَ مِن المُفَسِّرينَ مَشغوفونَ بتكثيرِ النَّاسِخِ والمنسوخِ مِن غيرِ ضرورةٍ ولا حاجةٍ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٥). ويُنظَر: ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((قَدِمَ عُيينةُ بنُ حِصنِ بنِ حُذيفةَ، فنزل على ابنِ أخيه الحُرِّ بنِ قيسٍ، وكان مِن النَّفَرِ الذين يُدنِيهم عُمَرُ، وكان القُرَّاءُ أصحابَ مجالسِ عمرَ ومُشاورتِه، كهولًا كانوا أو شبَّانًا، فقال عُيينةُ لابنِ أخيه: يا ابنَ أخي، هل لك وجهٌ عندَ هذا الأميرِ؟ فاستأذِنْ لي عليه، قال: سأستأذِنُ لك عليه، فاستأذَنَ الحرُّ لِعُيَينةَ، فأذِنَ له عُمرُ، فلما دخَل عليه قال: هِيْ[1] يا ابنَ الخطَّابِ، فواللهِ ما تُعطينا الجَزلَ[2] ولا تَحكمُ بيننا بالعَدلِ! فغضِبَ عُمرُ حتى همَّ أن يوقِعَ به، فقال له الحرُّ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ اللهَ تعالى قال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإنَّ هذا مِن الجاهِلينَ. واللهِ ما جاوَزها عمرُ حينَ تلاها عليه، وكان وقَّافًا عندَ كتابِ اللهِ))[3].

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما كان الشيطانُ بعداوتِه لبني آدمَ مجتهدًا في التنفيرِ من هذه المحاسنِ

= ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٧).

وقال ابنُ القَيِّم: (ليس المرادُ إعراضَه عمَّن لا عِلمَ عِندَه، فلا يُعَلِّمُه ولا يُرشِدُه، وإنَّما المرادُ إعراضُه عن جَهلِ مَن جَهِلَ عليه، فلا يُقابِلُه ولا يُعاتِبُه). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٠١).

(١) هِيْ: كَلمةٌ للزَّجرِ وطَلَبِ الكَفِّ، كما يُقال: إيهٍ عنَّا، أي: كُفَّ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٢٥٩).

(٢) الجَزْل: العَطاء الكثير. يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (٢٥/ ٣٧).

(٣) رواه البخاري (٤٦٤٢).

المذكورةِ في قولِه تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ والترغيبِ في أضدادِها- شرَع لأُمتِه ما يعصمُهم منه عندَ نزغِه، مخاطبًا له بذلك؛ ليكونَ أدعَى لهم إلى القبولِ، وأجدرَ باشتدادِ الخوفِ المقتضي للفرارِ، المثمرِ للنَّجاة[(١)].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أفضَلَ ما يُعامِلُ البَشَرُ به بعضُهم بعضًا، ولو عَمِلَ النَّاسُ بهذه الوصايا لصَلَحَت أحوالُهم، ولم يجِدِ الفَسادُ إليهم سبيلًا- قفَّى عليها بالوصيَّةِ باتِّقاءِ إفسادِ الشَّيطانِ[(٢)].

وأيضًا أنَّه عندَ الأمرِ بالعُرفِ ربَّما يَهيجُ سَفيهٌ ويُظهِرُ السَّفاهةَ، فعند ذلك أمرَ تعالى نبيَّه بالسُّكوتِ عن مُقابَلتِه، فقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ولَمَّا كان مِن المَعلومِ أنَّه عند إقدامِ السَّفيهِ على السَّفاهةِ يَهيجُ الغَضَبُ والغَيظُ، ولا يبقى الإنسانُ على حالةِ السَّلامةِ، وعند تلك الحالةِ يَجِدُ الشَّيطانُ مَجالًا في حَملِ ذلك الإنسانِ على ما لا ينبغي- لا جرَمَ بَيَّن تعالى ما يَجري مَجْرى العلاجِ لهذا الغَرَضِ، فقال[(٣)]:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

أي: وإن نالَك مِن الشَّيطانِ وَسوسةٌ ما أو غَضَبٌ أو غيرُ ذلك؛ لِيُثبِّطَك عن الخيرِ، أو يَحُثَّك على الشَّرِّ والفَسادِ، أو يحمِلَك على الغَضَبِ، ومُجازاةِ مَن جَهِلَ عليك- فالتجِئْ إلى اللهِ، واطلُبْ منه أن يحفَظَك مِن الشَّيطانِ[(٤)].

---

(١) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٥٠).

(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٥-٤٣٦).

(٤) يُنظَر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥، ٦٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٩، ٢٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٤). =

عن سُلَيمانَ بنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كنتُ جالسًا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورجلانِ يَستبَّانِ، فأحَدُهما احمَرَّ وَجهُه، وانتفخَتْ أوداجُه[1]، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنِّي لأعلَمُ كَلمةً لو قالَها، ذهب عنه ما يَجِدُ، لو قال: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ، ذهَبَ عنه ما يجِدُ))[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقولُ: مَن خلَق كذا؟ مَن خلَق كذا؟ حتى يقولَ: مَن خلَق ربَّك؟ فإذا بلَغه فليستعِذْ بالله ولْيَنْتَهِ))[3].

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الذي تستعيذُ به مِن نَزغِ الشَّيطانِ، سَميعٌ لِدُعائِك، ولِوَسْوسةِ الشَّيطانِ، ولكلِّ صوتٍ، عليمٌ باستعاذَتِك، وبِوَسْوسةِ الشَّيطانِ، ولا يخفَى عليه شيءٌ؛ فهو الذي بيَدِه إنجاؤُك منه، وحمايَتُك مِن نَزَغاتِه[4].

كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

= قال ابن عطية: (النزغُ حركةٌ فيها فسادٌ، وقلَّما تُستعمَلُ إلَّا في فعلِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ حركاتِه مسرعةٌ مفسدةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩١).

وقال ابنُ عاشور: (وهذا الأمرُ مرادٌ به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ابتداءً، وهو شامِلٌ لأمَّتِه... وحَظُّ المؤمنينَ منه أقوى؛ لأنَّ نَزغَ الشَّيطانِ إيَّاهم أكثرُ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُؤيَّدٌ بالعِصمةِ، فليس للشَّيطانِ عليه سبيلٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(١) أوداجُه: جَمعُ وَدَجٍ: وهو عِرقٌ في الحَلقِ في المَذبحِ. وانتفاخُ الأوداجِ كنايةٌ عن شِدَّةِ الغَضَبِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٧٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٢)، واللفظ له، ومسلم (٢٦١٠).

(٣) رواه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٥).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى في الآيةِ السَّابِقةِ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد ينزَغُه الشَّيطانُ، وبيَّنَ أنَّ علاجَ هذه الحالةِ الاستعاذةُ بالله؛ بيَّنَ هنا في هذه الآيةِ أنَّ حالَ المتَّقينَ يَزيدُ على حالِ الرَّسولِ في هذا البابِ(١)، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾.

أي: إنَّ الَّذينَ اتَّقَوا اللهَ تعالى بفِعلِ الواجِباتِ، وتَرْكِ الشِّرْكِ والسَّيِّئاتِ، إذا أصابَتْهم وَسْوسةٌ مِن الشَّيطانِ، أو غضَبٌ أو غيرُ ذلك، فهَمُّوا بتَرْكِ طاعةِ اللهِ، أو اقترافِ مَعصيَتِه- تذَكَّروا عَظَمةَ اللهِ تعالى، وما يَعلَمونَه مِن عِقابِه وثَوابِه، وما أمَرَهم به مِن الاستعاذةِ مِن الشَّيطانِ(٢).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٦ - ٦٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤٣).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الشَّيطانُ إذا زيَّنَ المَعصيةَ يجعَلُ في القَلبِ ظُلمةً، ويُضعِفُ نورَ الإيمانِ، ولهذا سمَّاه طائفًا، أي: يَطيفُ بالقَلبِ مثلَ ما يَطيفُ الخيالُ بالنَّائم، ويغيبُ عن القلبِ حينئذٍ مِن أمرِ اللهِ ونَهيِه ووَعْدِه ووَعيدِه ما يُناقِضُ ذلك، فإذا كان العَبدُ مُتَّقيًا للهِ أمَدَّه اللهُ تعالى بنورِ الإيمانِ، فذكرَ ما في الذَّنبِ مِن عذابِ اللهِ وسَخَطِه، وما يَفوتُه به مِن كرامةِ اللهِ وثَوابِه). ((جامع المسائل)) (٥/ ٢٥٦).

وقال مُحمَّد رشيد رضا: (﴿تَذَكَّرُوا﴾ أنَّ هذا مِن عَدُوِّهم الشَّيطانِ وإغوائِه، وما أمرَ اللهُ =

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

أي: فإذا المُتَّقونَ بِسَببِ ذلك التذكُّرِ يُبصِرونَ بقُلوبِهم هُدى اللهِ، ومكائِدَ الشَّيطانِ، ومَواطِنَ الزَّلَلِ، فيَنتَهونَ عَن مَعصِيَتِه سُبحانه[1].

عن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ[2] سَوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكرَها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ بَيضاءُ، حتى تصيرَ على قَلبينِ؛ على أبيضَ مِثلِ الصَّفَا[3]، فلا تَضُرُّه فتنةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسوَدُ مُرْبادًّا[4] كالكُوزِ مُجَخِّيًا[5]، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواه))[6].

= تعالى به في هذه الحالِ مِن الاستعاذةِ به، والالتجاءِ إليه في الحِفظِ منه، وقال بعضُهم: تذكَّروا ما أمَرَ اللهُ تعالى به ونهى عنه، وقال آخَرونَ: تذكَّروا عِقابَ اللهِ لِمَن أطاع الشَّيطانَ وعصى الرَّحمنَ، وجزيلَ ثوابِه لِمَن عصى الشَّيطانَ وأطاع الرَّحمنَ، وقال بعضُهم: تذكَّروا وَعدَه ووعيدَه، ومآلُ الأقوالِ كُلِّها واحدٌ، وهو يَعُمُّها كما تُفيدُه قاعدةُ حَذفِ المَفعولِ). ((تفسير المنار)) (٩/ ٤٥٣).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٦).

(٢) نُكِتَ فيه نُكتةٌ: أي: نُقِطَتْ وَأُثِّرَتْ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨)

(٣) الصَّفا: الحَجَر الأملَس؛ من غايةِ البَياضِ والصَّفاءِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨).

(٤) مُرباد‍ًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ؛ مِنَ الرُّبدةِ: لونٌ بين السَّوادِ والغُبرةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨).

(٥) كالكُوزِ مُجَخِّيًا: أي: كالكوزِ المائِلِ المنكوسِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨).

(٦) رواه مسلم (١٤٤).

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ عطفَ الضِّدِّ على ضِدِّه؛ فإنَّ الضِّدِّيَةَ مُناسَبةٌ يحسُنُ بها عَطفُ حالِ الضِّدِّ على ضِدِّه، فلمَّا ذَكَر شَأنَ المتَّقينَ في دَفْعِهم طائِفَ الشَّياطينِ، ذكَرَ شَأنَ أضدادِهم مِن أهْلِ الشِّركِ والضَّلالِ[1]، فقال:

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾.

أي: وإخوانُ الشَّياطينِ- وهم كَفَرةُ الإنسِ وفَجَرتُهم- تُزَيِّنُ لهم الشَّياطينُ الضَّلالَ، وتُساعِدُهم على الكُفرِ والمعاصي[2].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٧).

وهذا القولُ- وهو أنَّ إخوانَ الشَّياطِينِ يَمُدُّهُم الشَّياطينُ في الغيِّ- هو قَولُ جُمهورِ المُفَسِّرينَ. ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس، والسُّدِّي، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وعبدُ الله بنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٦٣٣).

وقيل: وإخوانُ الشَّياطينِ- وهُم كَفَرةُ الإنسِ- يَمُدُّونَ الشَّياطينَ في الغَيِّ بإغواءِ النَّاسِ. هذا ما استظهَرَه الرَّازي. يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٨).

وقال سبحانه: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

أي: إنَّ الشَّياطينَ لا تَسأمُ ولا تَفتُرُ مِن إمدادِ أوليائِهم مِن الإنسِ بالضَّلالِ، ولا تتوقَّفُ عن تَزيينِ الكُفرِ والمعاصي لهم، وكذلك أولياؤُهم مِن الإنسِ لا يُقصِرونَ أيضًا في ارتكابِ تلك السَّيِّئاتِ، فهم دائمًا في ازديادٍ مِن الآثامِ(١).

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ شياطينَ الجِنِّ والإنسِ لا يُقصِرونَ في الإغواءِ والإضلالِ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ نوعًا مِن أنواعِ الإغواءِ والإضلالِ، وهو: أنَّهم كانوا يَطلُبونَ آياتٍ مُعَيَّنةً، ومعجزاتٍ مَخصوصةً على سبيلِ التعنُّتِ(٢)، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾.

أي: وإذا لم تأتِ المُشركينَ- يا مُحمَّدُ- بآيةٍ وَفقَ ما يطلُبونَ، قالوا: هلَّا أتيتَ بها، وافتعلتَها مِن تلقاءِ نفسِك(٣).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٠، ٦٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٧).
واختار أنَّ قولَه: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ يشملُ الشياطينَ وأولياءَهم مِن الإنسِ: ابنُ جريرٍ والسعديُّ، وذكَر ابنُ كثيرٍ القولينِ، واختار الشنقيطيُّ أنَّ المقصودَ به الشَّياطين.

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٤، ٦٥٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٢، =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾.

= ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٦، ٢٣٧).

المرادُ بالآيةِ هنا قيل: المعجزةُ الخارقةُ ممَّا يقترِحونَ عليه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وقيل: المرادُ: آيةٌ يتلوها عليهم مِن غيرِ ما أُنزِلَ إليه. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٦-٢٣٧).

وقال الشِّنقيطي: (﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾ أصلُ الاجتباءِ معناه المشهورُ في لغة العَرَبِ: الاختيارُ والاصطفاءُ. هذا أشهرُ معانيه المعروفةِ... وقالت جماعةٌ مِن المفسِّرين: العربُ تقول: اجتبيتُ الكلامَ: إذا اختلقْتَه واخترعتَه مِن وَقتِه، ولم يكُن عندكَ فيما سبق... ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلَّا جِئتَ بها مُخترَعةً مُختلَقةً في عَجَلةٍ؛ لأنَّهم يَزعمونَ أنَّ كلَّ القُرآنِ اختلاقٌ... وذهبت جماعةٌ أخرى مِن أهلِ التَّأويلِ إلى أنَّ الآيةَ المطلوبةَ هنا آيةٌ كونيَّةٌ قَدَريَّةٌ، كما قال: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: آية ٩٠]... وعلى أنَّ الآيةَ المطلوبةَ هنا كونيَّةٌ قَدَريَّةٌ، قال بعضُ العُلماءِ: معنى ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلَّا اقترحتَها وتَلقَّيتَها مِن تلقاءِ ربِّك؛ لأنَّك تزعُمُ أنَّ كُلَّ ما سألتَ منه يُعطيك إيَّاه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٥٠-٤٥١).

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ الذينَ يَطلبونَ مِنك الآياتِ: ليس لي ذلك، وهو ليس مِن شأني، إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، لا أتَّبِعُ إلَّا ما يُوحيه إليَّ ربِّي[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى قَولَ المُشركينَ: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾؛ بَيَّنَ لهم أنَّ هذا القُرآنَ العظيمَ أعظَمُ آيةٍ، لا ينبغي للإنسانِ أن يطلُبَ آيةً غَيرَه[2]، فقال تعالى:

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: هذا القُرآنُ العظيمُ عَلاماتٌ للهُدى بَيِّناتٌ، وحُجَجٌ على الحَقِّ قاطعاتٌ، وأنوارٌ للقُلوبِ ساطعاتٌ مِن ربِّكم سبحانه وتعالى[3].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وهذا القُرآنُ مُرشِدٌ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، ورحمةٌ في الدُّنيا والآخرةِ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٥١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٥٣).

للمُؤمنينَ الذين يعملونَ بما فيه[١].

كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ هذه الآيةُ مِن ثلاثِ كلماتٍ، تضمَّنَت قواعِدَ الشَّريعةِ في المأموراتِ والمنهيَّاتِ؛ فَقولُه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلةُ القاطعينَ، والعَفوُ عن المُذنِبينَ، والرِّفقُ بالمؤمنينَ، وغيرُ ذلك من أخلاقِ المُطيعينَ، ودخَلَ في قولِه: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صِلةُ الأرحامِ، وتَقْوى اللهِ في الحَلالِ والحرامِ، وغضُّ الأبصارِ، والاستعدادُ

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٥٦).

لدارِ القَرارِ، وفي قولِه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحَضُّ على التعلُّقِ بالعِلمِ، والإعراضُ عن أهلِ الظُّلمِ، والتنَزُّهُ عن مُنازعةِ السُّفَهاءِ، ومُساواةِ الجَهَلةِ الأغبياءِ، وغيرُ ذلك من الأخلاقِ الحميدةِ، والأفعالِ الرَّشيدةِ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فيه جِماعُ الأخلاقِ الكريمةِ، وقد تضمَّن الحثَّ على حُسنِ المعاشرةِ مع الخلقِ، وأداءَ حقِّ الله فيهم، والسلامةَ مِن شرِّهم، فلو أخَذ النَّاس كلُّهم بهذه الآيةِ لكفَتْهم وشَفَتْهم؛ فإنَّ الإنسانَ مع النَّاسِ مأمورٌ أن يأخُذَ منهم ما يحِبُّ، ما سَمَحوا به، ولا يُطالِبَهم بزيادةٍ؛ فإنَّ العفوَ ما عفا مِن أخلاقِهم، وسمحَتْ به طبائعُهم، ووسِعهم بذلُه مِن أموالِهم وأخلاقِهم، فهذا ما منهم إليه. وأمَّا ما يكونُ منه إليهم فأمرُهم بالمعروفِ، وهو ما تشهدُ به العقولُ، وتعرفُ حسنَه، وهو ما أمَر الله به. وإذا فعَل معه جاهلُهم ما يَكرَهُ فإنَّه يُعرِضُ عنه، ويتركُ الانتقامَ لنفسِه والانتصارَ لها، فأيُّ كمالٍ للعبدِ وراءَ هذا؟ وأيُّ معاشرةٍ وسياسةٍ لهذا العالمِ أحسنُ مِن هذه المعاشرةِ والسياسةِ؟ فلو فكَّر الرجلُ في كلِّ شرٍّ يلحقُه مِن العالمِ- أي الشرِّ الحقيقيِّ الذي لا يوجبُ له الرفعةَ والزلفَى مِن الله- وجَد سببَه الإخلالَ بهذه الثلاثِ أو بعضِها، وإلا فمع القيامِ بها فكلُّ ما يحصلُ له مِن النَّاس فهو خيرٌ له، وإن كان شرًّا في الظاهرِ[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا

---

(١) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٤).

(٢) يُنظَر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص:٧٥)، ويُنظَر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٧٠، ٣٧١).

قال بعضُ العُلَماءِ: النَّاسُ رَجُلانِ: فرَجُلٌ مُحسِنٌ، فخُذ ما عفا لك من إحسانِه، ولا تُكَلِّفْه فوقَ طاقَتِه ولا ما يُحرِجُه. وإمَّا مُسيءٌ، فمُرْه بالمعروفِ، فإنْ تمادى على ضَلالِه واستعصى عليك، واستمَرَّ في جَهلِه؛ فأعرِضْ عنه، فلعَلَّ ذلك أن يَرُدَّ كَيدَه. ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٢).

يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] هذه الآياتُ الثَّلاثُ- في «الأعرافِ» و«المؤمنون» و«فُصِّلَت»- لا رابعَ لهنَّ، فإنَّه تعالى يُرشِدُ فيهنَّ إلى مُعاملةِ العاصي من الإنسِ بالمَعروفِ، والتي هي أحسَنُ؛ فإنَّ ذلك يكُفُّه عمَّا هو فيه مِن التَّمرُّدِ بإذنه تعالى؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ثم يُرشِدُ تعالى إلى الاستعاذةِ به من شيطانِ الجانِّ؛ فإنَّه لا يكفُّه عنك الإحسانُ، وإنَّما يُريدُ هَلاكَك ودَمارَك بالكُلِّيَّةِ؛ فإنَّه عَدوٌّ مُبينٌ لك ولأبيك مِن قَبلِك(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأمرُ بالاستعاذةِ قد عُلِّلَ بعلَّتينِ:

أولاهما: أنَّ الاستعاذةَ باللهِ مَنجاةٌ للرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِن نَزغِ الشَّيطانِ.

والثانية: أنَّ في الاستعاذةِ باللهِ مِن الشَّيطانِ تَذكُّرَ أنَّ الواجِبَ مُجاهدةُ الشَّيطانِ، والتيقُّظُ لِكَيدِه، وأنَّ ذلك التيقُّظَ سُنَّةُ المُتَّقينَ؛ فالرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مأمورٌ بِمُجاهدةِ الشَّيطانِ؛ لأنَّه مُتَّقٍ، ولأنَّه يبتهِجُ بمُتابعةِ سِيرةِ سَلَفِه مِن المتَّقينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٢، ٥٣٣).

كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(١) [الأنعام: ٩٠].

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ لا شيءَ أقوى على طَردِ الشَّيطانِ مِن ذِكرِ اللهِ تعالى بالقَلبِ، ومُراقَبتِه في السِّرِّ والجَهرِ؛ فذِكرُ اللهِ تعالى بأيِّ نَوعٍ مِن أنواعِه يُقَوِّي في النَّفسِ حُبَّ الحقِّ، ودواعيَ الخَيرِ، ويُضعِفُ فيها المَيلَ إلى الباطِلِ والشَّرِّ، حتى لا يكونَ للشَّيطانِ مَدخلٌ إليها(٢).

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ المتَّقونَ إذا أصابَهم هذا الطَّيفُ الذي يَطيفُ بِقُلوبِهم، يتذَكَّرونَ ما عَلِمُوه قبل ذلك، فيزولُ الطَّيفُ، ويُبْصِرونَ الحَقَّ الذي كان معلومًا، ولكِنَّ الطَّيفَ يمنَعُهم عن رُؤيَتِه(٣).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ مَن تمادى مع الشَّيطانِ عَمِيَ، وأنَّ مَسَّ الشَّيطانِ يُعمِي ويَطمِسُ ويُغلِقُ البصيرةَ(٤).

٨- القرآنُ العظيمُ يُستبصَرُ به في جميعِ المَطالِبِ الإلهيَّةِ، والمقاصِدِ الإنسانيَّةِ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٥).

٩- ذَكَرَ اللهُ في غيرِ مَوضعٍ مِن كِتابِه أنَّ الرَّحمةَ تَحصُلُ بالقرآنِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال هنا

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣١).
(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٥٣).
(٣) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٧، ٣٤٨).
(٤) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٠٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٢٠).
(٥) يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٣).

في سورةِ الأعرافِ: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ الأمرُ يشمَلُ النَّهيَ عَن الضِّدِّ؛ فإنَّ النَّهيَ عَن المُنكَرِ أمْرٌ بالمعروفِ، والأمرَ بالمَعروفِ نَهيٌ عن المُنكَرِ؛ لأنَّ الأمرَ بالشَّيءِ نَهيٌ عَن ضِدِّه، وإنَّما اقتصَرَ على الأمرِ بالعُرفِ هنا؛ لأنَّه الأهَمُّ في دَعوةِ المُشركينَ، لأنَّه يدعوهم إلى أصولِ المَعروفِ واحدًا بعد واحدٍ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أشار إلى مَزيدِ اعتنائِهم بالإغواءِ، ومُثابَرتِهم على الإضلالِ والإغراءِ بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: لا يتركُونَ إغواءَهم ولو لحظةً؛ لِجَهلِهم وشَرِّهم(٣).

٣- قال تعالى ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ فإخوانُ الشَّياطينِ تَمُدُّهم الشَّياطينُ في غَيِّهم ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ لا تُقصِرُ الشَّياطينُ عَن المَدَد والإمدادِ، ولا الإنسُ عن الغَيِّ، فلا يُبصِرونَ مع ذلك الغَيِّ ما هو معلومٌ لهم مُستقِرٌّ في فِطَرِهم، لكِنَّهم يَنسَونَه؛ ولِهذا كانت الرُّسُل إنَّما تأتي بتَذكيرِ الفِطرةِ ما هو معلومٌ لها، وتقويَتِه وإمدادِه، ونَفيِ المُغَيِّر للفِطرةِ، فالرسُلُ بُعِثوا بتقريرِ الفِطرةِ وتكميلِها، لا بِتَغييرِ الفِطرةِ وتَحويلِها، والكمالُ يَحصُلُ بالفِطرةِ المُكَمَّلة بالشِّرعةِ المُنَزَّلة(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

---

(١) يُنظَر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٣٩٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٨).

(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٠٧).

(٤) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٧، ٣٤٨).

- التَّعريفُ في ﴿الْعَفْوَ﴾ تعريفُ الجِنسِ؛ فهو مُفيدٌ للاستغراقِ [١].

- والاجتزاءُ بالأمرِ بالعُرفِ عنِ النَّهيِ عن المُنكَرِ مِن الإيجازِ [٢].

- وحُذِفَ مَفعولُ الأمرِ في قَولِه: ﴿وَأْمُرْ﴾ لإفادةِ عُمومِ المأمورينَ، فأمَرَ اللهُ رسولَه بأن يأمُرَ النَّاسَ كُلَّهم بكلِّ خَيرٍ وصلاحٍ، فيدخُلُ في هذا العمومِ المُشركونَ دُخولًا أوَّليًّا؛ لأنَّهم سببُ الأمرِ بهذا العُمومِ [٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- جملة: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ في موقِعِ العلةِ للأمرِ بالاستعاذةِ بالله مِن الشَّيطانِ [٤].

- وقال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقال في سُورةِ فُصِّلَت: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، فجاء في الآيةِ هنا ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ على لفظِ النَّكرةِ، وفي سورةِ فُصِّلَت مُعرَّفتينِ بالألفِ واللَّامِ، مُؤَكَّدَتينِ بـ (هو)، وذلك لمناسبةٍ حسنة؛ أنَّ التي هنا وقع في فاصلةِ ما قَبلَها من الفواصِلِ أفعالُ جماعةٍ، وأسماءٌ مأخوذةٌ من الأفعالِ: نحوُ قَولِه تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وبَعْدَه ﴿يُخْلَقُونَ﴾، و ﴿يَنْصُرُونَ﴾، و ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾، و﴿الْجَاهِلِينَ﴾، فأُخرِجَت هذه الفاصلةُ بأقربِ ألفاظِ الأسماءِ المُؤدِّيةِ معنى الفِعلِ، وهي النَّكِرةُ، وكان المعنى: استعِذْ باللهِ إنَّه يسمَعُ استعاذَتَك، ويعلَمُ استجارَتَك.

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٦).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٨).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٣١).

والتي في سورة فُصِّلَت: قبلها فواصِلُ سلك بها طريقَ الأسماءِ، وهي ما في قَولِه تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]. فقولُه: ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ليس من الأسماءِ التي يُرادُ بها الأفعالُ، وكذلك قَولُه: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ليس ذو حَظٍّ بمعنى فِعلٍ، فأُخرِجَ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بعد الفواصِلِ التي هي على سَنَنِ الأسماءِ على لفظٍ يَبعُدُ عَن اللَّفظِ الذي يؤدِّي معنى الفِعلِ، فكأنَّه قال: إنَّه هو الذي لا يَخفى عليه مسموعٌ ولا معلومٌ، فليس القصدُ الإخبارَ عن الفِعلِ، كما كان في الأولى: إنَّه يَسمَعُ الدُّعاءَ، ويعلَمُ الإخلاصَ، فهذا فَرقُ ما بين المَكانَينِ(١).

وفيه وجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ آيةَ فُصِّلَت تَقدَّمَ قَبلَها قولُه تعالى ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] فكان مُؤَكَّدًا بالتَّكرارِ، وبالنَّفي والإثباتِ، فبالغَ في قَولِه: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] بزيادة ﴿هُوَ﴾ وبالألفِ واللَّامِ، ولم يكُنْ في الأعرافِ هذا النَّوعُ مِن الاتِّصالِ، فأتى على القِياسِ: المُخبَرُ عنه معرفةٌ، والخَبَرُ نكرةٌ(٢).

وقيل: سِرُّ ذلك- والله أعلم- أنَّه حيث اقتصَرَ على مجرَّدِ الاسمِ، ولم يؤكِّدْه، أُريدَ إثباتُ مُجرَّدِ الوَصفِ الكافي في الاستعاذةِ، والإخبارُ بأنَّه سبحانه يسمَعُ ويَعلَمُ، فيسمَعُ استعاذتَك فيُجيبُك، ويَعلَمُ ما تستعيذُ منه فيدفَعُه عنك، فالسَّمعُ لكلامِ المُستعيذِ، والعِلمُ بالفِعلِ المُستعاذِ منه، وبذلك يحصُلُ مَقصودُ الاستعاذةِ، وهذا المعنى شامِلٌ للمَوضِعَينِ، وامتاز المذكورُ في سورة فُصِّلت بمزيدِ التأكيدِ والتَّعريفِ والتَّخصيصِ؛ لأنَّ سياقَ ذلك بعد إنكارِه سُبحانه على الذين شَكُّوا في سَمْعِه لِقَولِهم وعِلْمِه بهم، كما جاء في الصَّحيحينِ مِن

(١) يُنظَر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٨٧ - ٦٨٨).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٢).

حديثِ ابنِ مَسعودٍ، قال: ((اجتمَعَ عند البيتِ ثلاثةُ نفَرٍ: قُرشيَّانِ وثَقَفيٌّ، أو ثَقَفيَّانِ وقُرَشيٌّ، كثيرٌ شَحمُ بُطونِهم، قليلٌ فِقهُ قُلوبِهم، فقالوا: أتَرونَ اللهَ يسمَعُ ما نقولُ؟ فقال أحدُهم: يسمَعُ إن جَهَرْنا، ولا يسمَعُ إن أخفَينا، فقال الآخَرُ: إن سَمِعَ بعضَه، سَمِعَ كلَّه، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٣]))(١).

فجاء التوكيدُ في قَولِه: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] في سياقِ هذا الإنكارِ، أي: هو وَحدَه الذي له كمالُ قُوَّةِ السَّمعِ وإحاطةِ العِلمِ، لا كما يظُنُّ به أعداؤُه الجاهلونَ: أنَّه لا يسمَعُ إنْ أخْفَوا، وأنَّه لا يعلَمُ كثيرًا ممَّا يعملونَ، وحَسَّنَ ذلك أيضًا: أنَّ المأمورَ به في سورةِ فُصِّلَت دفْعُ إساءتِهم إليه بإحسانِه إليهم، وذلك أشَقُّ على النُّفوسِ مِن مجرَّدِ الإعراضِ عنهم؛ ولهذا عقَّبَه بقَولِه: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] فحَسُنَ التأكيدُ لحاجةِ المُستعيذِ.

وأيضًا فإنَّ السِّياقَ هاهنا لإثباتِ صِفاتِ كَمالِه وأدلَّةِ ثُبوتِها، وآياتِ رُبُوبيَّتِه وشواهِدِ تَوحيدِه؛ ولهذا عقَّبَ ذلك بقَولِه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧] وبِقَولِه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩] فأتى بأداة التَّعريفِ الدَّالَّةِ على أنَّ مِن أسمائِه «السَّميع العليم» كما جاءت الأسماءُ الحُسنى كلُّها مَعرفةً، والذي في الأعرافِ في سياقِ وعيدِ المُشركين وإخوانِهم مِن الشَّياطينِ، ووعْدِ المستعيذِ بأنَّ له ربًّا يسمَعُ ويعلَمُ، وآلهةُ المُشرِكين التي عَبَدوها من دونِه ليس لهم أعيُنٌ يُبصِرون بها، ولا آذانٌ يَسمَعونَ بها؛ فإنَّه سميعٌ عليمٌ، وآلهتُهم لا تسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تَعلَمُ، فكيف تُسَوُّونَها به في العبادةِ؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٧)، ومسلم (٢٧٧٥).

فعُلِمَ أنَّه لا يليقُ بهذا السِّياقِ غيرُ التَّنكيرِ، كما لا يليقُ بذلك غيرُ التعريفِ، واللهُ أعلَمُ بأسرارِ كلامِه.

وختَم الآيَةَ هنا، وفي سورةِ فُصِّلت بصِفتي السَّمعِ والعِلم، وختَمها في سورةِ غافر بقوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لأنه لَمَّا كان المُستعاذُ منه في سورة غافر هو شَرَّ مجادلةِ الكُفَّارِ في آياتِه، وما ترتَّبَ عليها من أفعالِهم المرئيَّةِ بالبَصرِ في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فلَمَّا كان المستعاذُ منه كلامَهم وأفعالَهم المُشاهَدةَ عِيانًا، قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، وهنا المُستعاذُ منه غيرُ مُشاهَدٍ لنا؛ فإنَّه يَرانا هو وقَبيلُه من حيثُ لا نراه. بل هو معلومٌ بالإيمانِ، وإخبارِ اللهِ ورَسولِه[(١)].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

هذا تأكيدٌ وتقريرٌ لِما تقدَّمَ مِن وُجوبِ الاستعاذةِ باللهِ عند نَزغِ الشَّيطانِ، فتتنَزَّلُ جُملةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إلى آخِرِها، مَنزلةَ التَّعليلِ للأمرِ بالاستعاذةِ مِن الشَّيطانِ إذا أحسَّ بِنَزغِ الشَّيطانِ[(٢)].

- والطَّائِفُ هو النَّازِلُ بالمكانِ قبل دُخولِه المكانَ، أُطلِقَ هنا على الخاطِرِ الذي يخطُرُ في النَّفسِ، يبعَثُ على فِعلِ شَيءٍ نهى اللهُ عن فِعلِه؛ شَبَّه ذلك الخاطِرَ في مَبدأِ جَوَلانِه في النَّفسِ بِحُلولِ الطَّائِفِ قبل أن يستقِرَّ[(٣)].

- في كَلمةِ (إذا) مِن قَولِه: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ مع

(١) يُنظَر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٦).
(٢) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣١).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٢).

التعبيرِ بِفعلِ ﴿مَسَّهُمْ﴾ الدَّالِّ على إصابةٍ غيرِ مَكينةٍ- إشارةٌ إلى أنَّ الفَزَعَ إلى اللهِ مِن الشَّيطانِ، عند ابتداءِ إلمامِ الخواطِرِ الشَّيطانيَّةِ بالنَّفسِ؛ لأنَّ تلك الخواطِرَ إذا أُمهِلَت لم تلبَثْ أن تصيرَ عَزمًا ثم عملًا[1].

- والفاءُ في ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ لتفريعِ الإبصارِ على التذكُّرِ، وأكَّدَ معنى (فاء) التَّعقيبِ بـ(إذا) الفُجائيَّةِ الدَّالةِ على حُصولِ مَضمونِ جُملَتِها دفعةً بدونِ تَريُّثٍ، أي: تذكَّروا تذكُّرَ ذوي عَزْمٍ، فلم تتريَّثْ نفوسُهم أن تَبيَّنَ لها الحقُّ الوازِعُ عن العَمَلِ بالخواطِرِ الشَّيطانيَّةِ، فابتعَدَت عنها، وتمسَّكَت بالحَقِّ، وعَمِلَت بما تذكَّرَت[2].

- ووصْفُهم باسمِ الفاعِلِ ﴿مُبْصِرُونَ﴾ دونَ الفِعلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإبصارَ ثابِتٌ لهم مِن قَبلُ، وليس شيئًا مُتجدِّدًا، ولذلك أخبَرَ عنهم بالجملةِ الاسميَّةِ الدَّالةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ عطفَ الضِّدِّ على ضِدِّه[4].

٥- قولُه: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ مُستأنفةٌ

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٢-٢٣٣).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٣٣).
قال البقاعي: (لَمَّا كانوا بإسراعِ التذكُّرِ كأنَّهم لم يَمسَّهم شيءٌ مِن أمْرِه؛ أشار إلى ذلك بالجُملةِ الاسميَّةِ مُؤكِّدًا لسرعةِ البَصرِ بإذا الفُجائيَّة) ((نظم الدرر)) (٨/ ٢٠٦).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٣).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

لابتداءِ كَلامٍ في التَّنويهِ بشأنِ القُرآنِ، مُنقطعةٌ عَن المَقولِ؛ للانتقالِ مِن غَرَضٍ إلى غرَضٍ، بمنزلةِ التَّذييلِ لِمَجموعِ أغراضِ السُّورةِ، والخطابُ للمُسلمين. ويجوزُ أن تكونَ مِن تمامِ القَولِ المأمورِ بأن يجيبَهم به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيكون الخِطابُ للمُشركينَ، ثمَّ وقع التخلُّصُ لِذكرِ المُؤمنينَ بِقَوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

- وجمَعَ (البصائِرَ)؛ لأنَّ في القرآنِ أنواعًا مِن الهدى على حسَبِ النَّواحي التي يَهدِي إليها[2]، وأفرَدَ (الهدى والرحمة)؛ لأنَّهما جِنسانِ عامَّانِ يَشملانِ أنواعَ البَصائِرِ؛ فالهُدى يُقارِنُ البَصائِرَ، والرَّحمةُ غايةٌ للبصائِرِ[3].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٧).

(٢) مِن تنويرِ العَقلِ في إصلاحِ الاعتقادِ، وتسديدِ الفَهمِ في الدِّينِ، ووضعِ القَوانينِ للمُعاملاتِ والمعاشرةِ بين النَّاسِ، والدَّلالةِ على طُرُقِ النَّجاحِ والنَّجاةِ في الدنيا، والتَّحذيرِ مِن مهاوي الخُسرانِ. يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٨).

الآيات (٢٠٤-٢٠٦)

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وَأَنْصِتُوا﴾: الإنصاتُ: السُّكوتُ للاستماعِ، مع تَرْكِ الكَلامِ، وَأصلُ (نصت) يدُلُّ على السُّكوتِ(١).

﴿وَخِيفَةً﴾: أي: خوفًا مِن اللهِ، وأصلُه يدلُّ على الذُّعرِ والفَزَعِ(٢).

﴿بِالْغُدُوِّ﴾: جمع غَدَاةٍ: وهي أولُ النَّهارِ، وأصْلُ (غدو): يَدُلُّ عَلَى زَمَانٍ(٣).

﴿وَالْآصَالِ﴾: جمعُ أُصُلٍ، والأُصُل: جمعُ أصيلٍ: وهو آخِرُ النَّهارِ(٤).

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: أي: لا يتكبَّرونَ، والاستكبارُ: أن يتشبَّعَ الإنسانُ فيُظهِرَ مِن نَفْسِه ما ليس له، وأصلُ (كبر): يدلُّ على خلافِ الصِّغَرِ(٥).

﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾: أي: يُعظِّمونَه ويُنزِّهونَه عن كلِّ سُوءٍ، وأصل (سبح): يدلُّ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٧).

على جِنسٍ مِن العبادةِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ عبادَه في حالِ تِلاوةِ القُرآنِ أن يستمِعُوا له ويُنصِتوا؛ لعلَّهم يُرحَمونَ بذلك.

وأمرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يذكُرَه بلِسانِه في نفسِه بحيث لا يشعُرُ بذلك أحدٌ، مُتخَشِّعًا متذلِّلًا لله، وخائفًا منه عزَّ وجلَّ، ومن عقابِه، وأن يذكُرَه أيضًا بلِسانِه مِن غَيرِ رَفعِ الصَّوتِ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، ونهاه أن يكونَ مِن الغافلينَ.

وأخبَرَ تعالى أنَّ الذينَ عِندَه مِن الملائكةِ، لا يتكبَّرونَ عن عبادَتِه سُبحانه، ويُنزِّهونَه عن كُلِّ سُوءٍ، وله وَحْدَه يَسجُدونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى أنَّ القُرآنَ بَصائِرُ وهُدًى ورحمةٌ؛ أمرَ باستماعِه إذا شُرِعَ في قراءتِه، وبالإنصاتِ- وهو السُّكوتُ مع الإصغاءِ إليه؛ إعظامًا له واحترامًا، ولأنَّ ما اشتمَلَ على هذه الأوصافِ مِن البَصائِرِ والهُدى والرَّحمةِ، حَريٌّ بأن يُصغى إليه؛ حتى يحصُلَ منه للمُنصِتِ هذه النَّتائِجُ العَظيمةُ، وينتفِعَ بها فيستبصِرَ مِن العَمى، ويهتديَ مِن الضَّلالِ، ويُرحَمَ بها[2].

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦١)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٦).

أي: وإذا قُرِئَ عليكم القرآنُ فأَصْغُوا له سَمعَكم، وأحضِرُوا قلوبَكم؛ لِتتفهَّموا آياتِه، واصمُتُوا حينَ تسمَعونَه لِتتدبَّروه[1].

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: استَمِعوا للقُرآنِ وأنصِتوا له؛ لِيرحمَكم اللهُ تعالى[2].

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أن أُمِرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآيةِ السَّابقة بما أُمِرَ بتبليغِه مِن الآياتِ المتقَدِّمةِ، وأُمِرَ النَّاسُ باستماعِ القُرآنِ، كان ذلك يستلزِمُ أمْرَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بقراءةِ القُرآنِ عليهم قراءةً جَهريَّةً يَسمعونَها، بصوتٍ عالٍ رفيعٍ؛ ليحصلَ المقصودُ مِن تبليغِ الوحيِ والرِّسالةِ، ثم إنَّه تعالى أردَفَ ذلك الأمرَ، بأن أمَرَه في هذه الآيةِ بأن يذكرَ ربَّه في نفسِه، وهو التذكُّرُ الخاصُّ به، فأمَرَه بأن يذكُرَ اللهَ ما استطاع، وكيفما تسنَّى له، وفي أوقاتِ النَّهارِ المختلفةِ[3].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال الإمامُ أحمدُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أجمعَ النَّاسُ أنَّها نزلت في الصَّلاةِ. وقد قيل: في الخُطبةِ، والصَّحيحُ أنَّها نزلت في ذلك كُلِّه). ((الفتاوى الكبرى)) (٥/ ٣٥٥). ويُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٧).

وقال السَّعدي: (هذا الأمرُ عامٌّ في كلِّ مَن سَمِعَ كِتابَ اللهِ يُتلَى؛ فإنَّه مأمورٌ بالاستماعِ له والإنصاتِ، والفَرقُ بين الاستماعِ والإنصاتِ: أنَّ الإنصاتَ في الظَّاهِرِ بِتَركِ التحَدُّثِ، أو الاشتغالِ بما يَشغَلُ عن استماعِه. وأمَّا الاستماعُ له: فهو أن يُلقِيَ سَمعَه، ويُحضِرَ قَلبَه ويتدبَّرَ ما يستمِعُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤). ويُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤).

(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤١-٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَهم تعالى بالاستماعِ والإنصاتِ إذا شُرِعَ في قراءةِ القُرآنِ، ارتقى مِن أمْرِهم إلى أمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يذكُرَ ربَّه في نَفسِه، أي: بحيثُ يراقِبُه ويذكُرَه في الحالةِ التي لا يَشعُرُ بها أحَدٌ، وهي الحالةُ الشَّريفةُ العُليا[1]، فقال تعالى:

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ ﴾.

أي: واذكُرِ اللهَ تعالى بلسانِك فيما بينك وبينَه[2]، مِن حيثُ لا يشعُرُ بذلك أحَدٌ، متذكِّرًا ومُستحضِرًا بقَلْبِك عظَمَته وصِفاتِه، وثوابَه وعقابَه، ونحوَ ذلك[3].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٢).

(٢) قال الرازي: (قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ وإن كان ظاهِرُه خطابًا مع النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، إلَّا أنَّه عامٌّ في حَقِّ كُلِّ المُكَلَّفين). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٥)، وينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٣-٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٢-٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦١، ٤٦٣).

وممَّن ذهب إلى أنَّ هذا الذِّكرَ في النَّفسِ يكونُ باللِّسانِ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ عاشور. يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤١)، ونسبه ابنُ عطيَّةَ للجُمهورِ، فقال: (والجُمهورُ على أنَّ الذِّكرَ لا يكونُ في النَّفسِ، ولا يراعى إلَّا بحركةِ اللِّسانِ، ويدلُّ على ذلك مِن هذه الآيةِ قولُه: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ فهذه مَرتبةُ السِّرِّ والمخافتةِ باللَّفظِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٤).

وقال ابنُ عاشور: (وذلك يشمَلُ قراءةَ القُرآنِ وغيرِ القُرآنِ؛ مِن الكلامِ الذي فيه تمجيدُ الله وشُكرُه ونحوُ ذلك، مثلُ كلمةِ التَّوحيدِ، والحَوقَلةِ، والتَّسبيحِ والتَّكبيرِ، والدُّعاءِ ونحوِ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤١).

وقيل المرادُ بالذِّكرِ هنا: الذِّكرُ النَّفساني بالقَلبِ بالتدبُّرِ والاعتبارِ، والتفكُّرِ في عظمةِ الله تعالى وأسمائِه وصفاتِه وآياتِه دونَ تَحريكِ اللِّسانِ، وممَّن ذهب إلى ذلك: أبو حيان، والشِّنقيطي. يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٣)، ((العذب النمير)) (٤/ ٤٦١). ويُنظَر أيضًا: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٤).

وقال ابن تيمية: (قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ فأمرَ بذِكرِ اللهِ في نَفسِه، فقد يقال: هو ذِكرُه في قَلبِه =

كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا عندَ ظنِّ عَبدِي بي، وأنا مَعَه حين يذكُرُني، إنْ ذَكَرَني في نفسِه، ذكَرتُه في نَفسي، وإنْ ذَكَرَني في ملإٍ، ذَكَرتُه في ملإٍ هم خيرٌ منهم))(١).

﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

أي: اذكُرِ اللهَ تعالى، وأنت مُتخشِّعٌ متذلِّلٌ، متواضِعٌ مُستكينٌ لله، وخائفٌ وَجِلُ القَلبِ من اللهِ تعالى، ومن عقابِه- سُبحانه(٢).

= بلا لسانِه؛ لقولِه بعد ذلك: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وقد يُقالُ- وهو أصَحُّ-: بل ذِكرُ اللهِ في نَفسِه باللِّسانِ مع القَلبِ، ونظيرُ قَولِه: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما رَوى عن ربِّه: «مَن ذكَرَني في نفسِه ذَكَرتُه في نفسي، ومن ذكَرَني في ملأٍ ذَكَرتُه في ملأٍ خَيرٍ منه»، وهذا يدخُلُ فيه ذِكرُه باللِّسانِ في نَفسِه، فإنَّه جعَلَه قسيمَ الذِّكرِ في المَلأِ، وهو نظيرُ قَولِه: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، والدَّليلُ على ذلك أنَّه قال: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، ومعلومٌ أنَّ ذِكرَ اللهِ المشروعَ بالغُدوِّ والآصالِ في الصَّلاةِ وخارِجَ الصَّلاة؛ هو باللِّسانِ مع القلبِ، مثل: صلاتَي الفَجرِ والعَصرِ، والذِّكرِ المَشروعِ عَقِبَ الصَّلاتينِ، وما أمر به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعلَّمَه وفَعَلَه مِن الأذكارِ، والأدعِيَةِ المأثورةِ مِن عَمَلِ اليومِ واللَّيلة المشروعةِ طرفَيِ النَّهارِ بالغُدوِّ والآصالِ. وقد يدخُلُ في ذلك أيضًا ذِكرُ اللهِ بالقَلبِ فقط؛ لكنْ يكونُ الذِّكرُ في النَّفسِ كاملًا وغيرَ كامل؛ فالكامِلُ باللِّسانِ مع القلبِ، وغيرُ الكامِلِ بالقَلبِ فقط). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٣- ٣٥). وأيضًا (٧/ ١٣٥).

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) واللفظ له.

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦١).

قال الشِّنقيطي: (﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ قيل: هما مفعولانِ لأجلِهما، أي: لأجْلِ التضَرُّع. والتضَرُّعُ معناه: التذلُّل والتخَشُّع والتَّواضُع؛ أي: لأجلِ التَّذلُّلِ والتخشُّعِ والتواضُعِ لِرَبِّ العالمين. =

﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾.

أي: اذكُرِ اللهَ - عزَّ وجلَّ - بلسانِك، في خفاءٍ من القَولِ، من غيرِ رفعٍ للصَّوتِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكنَا إذا أشرَفْنا على وادٍ هَلَّلْنا وكَبَّرْنا، ارتفَعَت أصواتُنا، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا(٢) على أنفُسِكم؛ فإنَّكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائبًا، إنَّه معكم، إنَّه سَميعٌ قريبٌ))(٣).

﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾.

أي: اذكُرِ اللهَ في أوَّلِ النَّهارِ، وفي آخِرِه مِن العَصرِ إلى المَغربِ(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

= وقال بعضُ العلماء: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ مصدرانِ مُنكَّرانِ بمعنى الحال، أي: في حالِ كَونِك مُتضَرِّعًا خائفًا، والكُلُّ مُحتَمَلٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٦١). ويُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٣).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٣).

(٢) ارْبَعوا (بهمزة وصل وفتح الباء): أي ارفُقُوا ولا تُجهِدوا أنفُسَكم. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ١٨٨).

(٣) رواه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤)، واللفظ للبخاري.

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٤).

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾.

أي: وأكثِرْ مِن ذِكرِ اللهِ تعالى، ولا تكُنْ مِن الغافِلينَ عن ذِكرِه- سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

وقال جلَّ جلاله: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا رغَّبَ اللهُ تعالى رسولَه في الذِّكرِ، وفي المواظبةِ عليه، ذكَرَ عَقيبَه ما يقَوِّي دواعيَه، فبَيَّنَ أنَّ الملائكةَ- مع نهايةِ شَرَفِهم، وغايةِ طَهارَتِهم، وعِصمَتِهم وبراءَتِهم عن بواعثِ الشَّهوةِ والغَضَبِ، وحوادثِ الحقدِ والحَسَدِ- لَمَّا كانوا مُواظِبينَ على العبوديَّةِ والسُّجودِ والخُضوعِ والخُشوعِ؛ فالإنسانُ- مع

---

(١) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٤).

قال الشنقيطي: (معلوم أنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يغفلُ عن ذكرِ ربِّه، ولكنه يُؤمر ويُنهى ليشرعَ لأُمَّتِه على لسانِه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٦٤).

كَونِه مُبتلًى بظُلُماتِ عالَم الجُسمانيَّاتِ، ومُستعِدًّا للَّذَّاتِ البشريَّةِ والبواعِثِ الإنسانيَّةِ- أولى بالمُواظبةِ على الطَّاعةِ(١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾.

أي: إنَّ الملائكةَ الَّذين عند اللهِ تعالى، لا يتكبَّرونَ عن عبادتِهِ سُبحانَه؛ فهم خاضِعونَ لِرَبِّهم، مُتذلِّلونَ له، ومُنقادونَ لأوامِرِه سُبحانه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩-٥٠].

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾.

أي: والملائكةُ ينزِّهونَ اللهَ عزَّ وجلَّ عن كلِّ سُوءٍ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٥).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٧١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٥).

قال القرطبي: (يعني الملائكةَ، بإجماعٍ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦).

(٣) يُنظَر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٦).

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦].

﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾.

أي: وله- وَحْدَه لا شريكَ له- يَسجُدونَ سُجودَ تذلُّلٍ وخُضوعٍ، وتواضُعٍ له تعالى، ويخصُّونه بأشرفِ عبادةٍ [١].

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنِّي أرى ما لا تَرَونَ، وأسمَعُ ما لا تَسمعونَ: أَطَّتِ [٢] السَّماءُ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ؛ والَّذي نفسي بيَدِه، ما فيها موضِعُ أربعةِ أصابعَ، إلَّا ومَلَكٌ واضعٌ جَبهتَه، ساجِدٌ للهِ...)) [٣].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ مَن لازَمَ على الاستماعِ والإنصاتِ حين يُتلَى كتابُ اللهِ؛ فإنَّه ينالُ خيرًا كثيرًا،

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٦).

(٢) أطَّتِ: أي: صوَّتَت وأنَّت، وسُمِعَ لها أطيطٌ. والأطيطُ: هو صريرُ الرَّحْلِ على البَعيرِ، إذا كان الحِملُ ثقيلًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٥٠)، ((شرح الأربعين النووية)) للعثيمين (ص: ٤٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجة (٤١٩٠)، وأحمد (٢١٥١٦).

قال الترمذي: حسن غريب، وصححه ابن العربي في ((عارضة الأحوزي)) (٥/ ١٥٢)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٢٣١٢).

وعِلمًا غزيرًا، وإيمانًا مُستمِرًّا مُتجدِّدًا، وهدًى مُتزايدًا، وبصيرةً في دينِه؛ ولهذا رتَّبَ اللهُ حُصولَ الرَّحمةِ عليهما، فدلَّ ذلك على أنَّ مَن تُلِيَ عليه الكتابُ، فلم يستمِعْ له ويُنصِتْ، أنَّه مَحرومُ الحَظِّ مِن الرَّحمةِ، قد فاته خيرٌ كثيرٌ[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قال بعضُهم: الرَّحمةُ أقرَبُ شَيءٍ إلى مُستمِعِ القُرآنِ؛ لهذه الآيةِ[2].

٣- الترغيبُ في الإكثارِ مِن ذِكرِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ، خصوصًا طرَفَيِ النَّهارِ، والتَّحذيرُ مِن الغفلةِ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾[3].

٤- لا يريدُ اللهُ تعالى أن يتكثَّرَ بعبادةِ الخَلقِ مِن قِلَّةٍ، ولا ليتعزَّزَ بها من ذِلَّةٍ، وإنَّما يريدُ نَفعَهم، وأن يربَحوا عليه أضعافَ أضعافَ ما عَمِلوا؛ فإنَّ لله تعالى عبادًا مُستديمينَ لعبادتِه، مُلازمينَ لِخدمَتِه، وهم الملائكةُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ استدلَّ به من قال: إنَّ المأمومَ إذا سَمِعَ قراءةَ الإمامِ يستمِعُ لها، ويُنصِتُ لا يقرأُ بالفاتحةِ ولا غَيرِها، وإذا لم يسمَعْ قراءَتَه بها، يقرأ الفاتحةَ وما زاد[5].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ

(١) يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٩).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤).
(٤) يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤).
(٥) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٠).

الْقَوْلِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ المَشروعَ في الذِّكرِ كُلِّه؛ المخافتةُ، إلَّا أن يكونَ هناك سببٌ يُشرَعُ له الجَهرُ[1]، أو ما دلَّ دليلٌ خاصٌّ على مشروعيةِ الجهرِ به.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ فيه دقيقةٌ، وهي أنَّ سَماعَ لَفظِ (الرَّبِّ) يُوجِبُ الرَّجاءَ، وسَماعَ لَفْظِ (التضَرُّع) و(الخِيفةِ) يوجِبُ الخوفَ، فلمَّا وقع الابتداءُ بما يُوجِبُ الرَّجاءَ، عَلِمْنا أنَّ جانِبَ الرَّجاءِ أقوى[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ خَصَّ (الغُدُوَّ) و(الآصالَ) بهذا الذِّكرِ؛ والحكمةُ فيه:

قيل: إنَّ عند الغُدوةِ انقلب الإنسانُ مِن النَّومِ- الذي هو كالموتِ- إلى اليقظةِ التي هي كالحياةِ، والعالَمُ انقلب من الظُّلْمة- التي هي طبيعةٌ عَدَميَّةٌ- إلى النُّورِ الذي هو طبيعةٌ وُجوديَّة. وأمَّا عند الآصالِ، فالأمرُ بالضِّدِّ؛ لأنَّ الإنسانَ ينقلِبُ فيه من الحياةِ إلى الموتِ، والعالَمُ ينقلِبُ فيه من النُّورِ الخالصِ إلى الظُّلمةِ الخالصةِ، وفي هذينِ الوَقتينِ يحصُلُ هذان النَّوعانِ مِن التَّغييرِ العَجيبِ القويِّ القاهِرِ، ولا يقدِرُ على مِثلِ هذا التَّغييرِ إلَّا الإلهُ الموصوفُ بالحِكمةِ الباهرةِ، والقُدرةِ غيرِ المُتناهية؛ فلهذه الحِكمةِ العَجيبةِ خَصَّ اللهُ تعالى هذينِ الوَقتينِ بالأمرِ بالذِّكرِ.

وقيل: إنَّما خُصَّا بالذِّكرِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ بعد صلاةِ الصُّبحِ، وبعد صلاةِ العَصرِ مكروهةٌ، واستُحِبَّ للعبدِ أن يذكُرَ اللهَ تعالى فيهما؛ ليكونَ في جميعِ أوقاتِه مُشتغِلًا بما يقرِّبُه إلى اللهِ تعالى، مِن صلاةٍ وذِكرٍ.

وقيل: إنَّ أعمالَ العِبادِ تَصعَدُ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، فيصعَدُ عَملُ اللَّيلِ عند

---

(١) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٣).

صلاةِ الفَجرِ، ويصعَدُ عَملُ النَّهارِ بعد العَصرِ إلى الغُروبِ، فاستُحِبَّ له الذِّكرُ فيهما؛ ليكونَ ابتداءُ عَمَلِه بالذِّكرِ، وختامُه بالذِّكرِ.

وقيل: خَصَّ هذينِ الوَقتينِ لِشَرفِهما، والمرادُ دَوامُ الذِّكرِ لله(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ لَمَّا كان رُبَّما أوهمَ هذا الخُصوصَ بهَذينِ الوَقتينِ ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ وإن كان ظاهِرًا في الدَّوامِ، قال مُصَرِّحًا: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: في وَقتٍ غَيرِهما، بل كُن ذاكِرَه في كلِّ وَقتٍ، على كلِّ حالٍ(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ذكرَ مِن طاعاتِهم أوَّلًا: كونَهم يُسبِّحونَ، والتَّسبيحُ عبارةٌ عن تنزيهِ اللهِ تعالى مِن كلِّ سُوءٍ، وذلك يرجِعُ إلى المعارفِ والعُلومِ، ثمَّ لَمَّا ذكَرَ التَّسبيحَ أردَفَه بذِكرِ السُّجودِ، وذلك يرجِعُ إلى أعمالِ الجَوارِحِ، وهذا الترتيبُ يدلُّ على أنَّ الأصلَ في الطَّاعةِ والعبوديَّةِ أعمالُ القلوبِ، ويتفرَّعُ عليها أعمالُ الجَوارِحِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾** ذِكرُ اسْمِ (القُرآنِ) هنا إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ القرآنَ تقدَّمَ ذِكرُه بواسطةِ اسمِ الإشارةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فنكتةُ هذا الإظهارِ: التَّنويهُ بهذا الأمرِ، وجَعْلُ جُملَتِه

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٥٠-٥٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٢٠).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢١١-٢١٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٦).

مُستقلَّةً بالدَّلالةِ غَيرَ مُتوقِّفةٍ على غَيرِها، وهذا من وجوهِ الاهتمامِ بالكَلامِ، ومِن دواعي الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ(١).

- والاستماعُ: الإصغاءُ. وصيغةُ الافتعالِ دالَّةٌ على المُبالغةِ في الفِعلِ(٢).

٢- قولُه: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أشَدُّ في الانتفاءِ وفي النَّهيِ مِن نحوِ: (ولا تَغفُلْ)؛ لأنَّه يَفرِضُ جماعةً يحِقُّ عليهم وصفُ الغافلينَ، فيُحَذِّرُ مِن أن يكونَ في زُمرَتِهم، وذلك أبيَنُ للحالةِ المنهيِّ عنها(٣).

٣- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ يتنزَّلُ مَنزلةَ العِلَّة للأمرِ بالذِّكرِ؛ ولذلك صُدِّرَ بـ (إنَّ) التي هي لمجرَّدِ الاهتمامِ بالخَبَر، لا لرَدِّ تردُّدٍ أو إنكارٍ؛ لأنَّ المخاطَبَ مُنَزَّهٌ عن أن يتردَّدَ في خبرِ الله تعالى، فحَرفُ التوكيد في مثل هذا المقامِ يُغني غَناءَ فاءِ التَّفريعِ، ويُفيدُ التَّعليلَ، وفيها تعريضٌ بالمُشركينَ المُستكبرينَ عن عبادةِ الله، بأنَّهم مُنحطُّونَ عن تلك الدَّرَجاتِ(٤).

- وجهُ العُدولِ عن لفظِ الملائكةِ إلى الموصوليَّةِ في قَولِه: ﴿الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن رِفعةِ مَنزِلَتِهم، فيتذرَّعُ بذلك إلى إيجادِ المُنافَسةِ في التخَلُّقِ بأحوالِهم(٥).

- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ ليس المقصودُ به التَّنويهَ بِشأنِ الملائكةِ؛ لأنَّ التَّنويهَ بهم يكونُ بأفضَلَ مِن ذلك، وإنَّما أُريدَ به التَّعريضُ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٩).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٤٢).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٤٣).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

بالمُشركينَ، وأنَّهم على النَّقيضِ مِن أحوالِ الملائكةِ المُقَرَّبينَ؛ فخليقٌ بهم أن يكونوا بُعَداءَ عَن مَنازِلِ الرِّفعةِ، والمقصودُ هو قَولُه: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: يُنزِّهونَه بالقَولِ والاعتقادِ عن صِفاتِ النَّقصِ، وهذه الصِّلةُ هي المقصودةُ مِن التَّعليلِ للأمرِ بالذِّكرِ(١).

- وتقديمُ المعمولِ في قَولِه: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ للدَّلالةِ على الاختصاصِ، أي: ولا يَسجُدونَ لِغَيره، وهذا أيضًا تَعريضٌ بالمُشركينَ الذين يَسجُدونَ لِغَيرِه، وصيغةُ المُضارِعِ تُفيدُ الاستمرارَ(٢).

تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ السادسُ

ويليه المجلدُ السابعُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الأنفالِ

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٤٤).

الفهرس

الفهرس

سُورةُ الأعرافِ ٧
أسماءُ السُّورةِ ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ ٧
مقاصِدُ السُّورةِ ٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٨
الآيات (١-٣) ١١
غريبُ الكَلِماتِ ١١
المَعْنَى الإجماليُّ ١١
تَفسيرُ الآياتِ ١٢
الفوائِدُ التربويَّةُ ١٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥
بلاغةُ الآياتِ ١٦
الآيات (٤-٩) ١٩
غريبُ الكَلِماتِ ١٩
المَعْنَى الإجماليُّ ٢٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢٠
الفوائِدُ التربويَّةُ ٢٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩
بلاغةُ الآياتِ ٣٢
الآيات (١٠-١٨) ٣٦
غريبُ الكَلِماتِ ٣٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٨
المَعْنَى الإجماليُّ ٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩
الفوائِدُ التربويَّةُ ٤٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥١
بلاغةُ الآياتِ ٥٦
الآيات (١٩-٢٥) ٦٨
غريبُ الكَلِماتِ ٦٨
مُشكِلُ الإعرابِ ٧٠
المَعْنَى الإجماليُّ ٧٠
تَفسيرُ الآياتِ ٧١
الفوائِدُ التربويَّةُ ٧٧
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٩
بلاغةُ الآياتِ ٨٢
الآيات (٢٦-٣٠) ٨٥
غريبُ الكَلِماتِ ٨٥
مُشكِلُ الإعرابِ ٨٦
المَعْنَى الإجماليُّ ٨٧
تَفسيرُ الآياتِ ٨٨
الفوائِدُ التربويَّةُ ٩٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٠١
بلاغةُ الآياتِ ١٠٥
الآيتان (٣١-٣٢) ١١١
غريبُ الكَلِماتِ ١١١
المَعْنَى الإجماليُّ ١١١
تَفسيرُ الآيتينِ ١١٢
الفوائِدُ التربويَّةُ ١١٧

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١١٩
بلاغة الآيتين ١٢٠
الآيتان (٣٣-٣٤) ١٢٢
غريبُ الكَلِماتِ................ ١٢٢
المَعْنَى الإجماليُّ................ ١٢٣
تَفسيرُ الآيتين................ ١٢٣
الفوائِدُ التربويَّةُ................ ١٢٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٢٨
بلاغة الآيتين ١٢٩
الآيات (٣٥-٣٩)................ ١٣٢
غريبُ الكَلِماتِ................ ١٣٢
المَعْنَى الإجماليُّ................ ١٣٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٤
الفوائِدُ التربويَّةُ................ ١٤٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٣
بلاغةُ الآياتِ................ ١٤٦
الآيتان (٤٠-٤١) ١٥١
غريبُ الكَلِماتِ................ ١٥١
المَعْنَى الإجماليُّ................ ١٥٢
تَفسيرُ الآيتَيْنِ................ ١٥٢
الفوائِدُ التربويَّةُ................ ١٥٧
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥٨
بَلاغةُ الآيتَينِ ١٥٩
الآيتان (٤٢-٤٣) ١٦٣
غريبُ الكَلِماتِ................ ١٦٣
المَعْنَى الإجماليُّ................ ١٦٣
تَفسيرُ الآيتَينِ................ ١٦٣
الفوائِدُ التربويَّةُ................ ١٦٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٦٩
بَلاغةُ الآيتَينِ ١٧١
الآيات (٤٤-٤٩)................ ١٧٤
غريبُ الكَلِماتِ................ ١٧٤
المَعْنَى الإجماليُّ................ ١٧٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٧٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٨٤
بلاغةُ الآياتِ................ ١٨٦
الآيات (٥٠-٥٣)................ ١٩١
غريبُ الكَلِماتِ................ ١٩١
المَعْنَى الإجماليُّ................ ١٩٢
تَفسيرُ الآياتِ ١٩٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٠٠
بلاغةُ الآياتِ................ ٢٠١
الآيات (٥٤-٥٦)................ ٢٠٤
غريبُ الكَلِماتِ................ ٢٠٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٠٦
المَعْنَى الإجماليُّ................ ٢٠٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢٠٧
الفوائِدُ التربويَّةُ................ ٢١٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢٠
بلاغةُ الآياتِ................ ٢٢٤
الآيتان (٥٧-٥٨) ٢٢٩
غريبُ الكَلِماتِ................ ٢٢٩

المَعْنَى الإجماليُّ ٢٣٠
تَفسيرُ الآيتَينِ ٢٣٠
الفوائِدُ التربويَّةُ ٢٣٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣٧
بَلاغةُ الآيتَينِ ٢٤١
الآيات (٥٩-٦٤) ٢٤٦
غريبُ الكَلِماتِ ٢٤٦
المَعْنَى الإجماليُّ ٢٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٤٧
الفوائِدُ التربويَّةُ ٢٥٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٤
بلاغةُ الآياتِ ٢٥٧
الآيات (٦٥-٧٢) ٢٦٩
غريبُ الكَلِماتِ ٢٦٩
المَعْنَى الإجماليُّ ٢٧٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧١
الفوائِدُ التربويَّةُ ٢٧٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٨١
بلاغةُ الآياتِ ٢٨٥
الآيات (٧٣-٧٩) ٢٩١
غريبُ الكَلِماتِ ٢٩١
المَعْنَى الإجماليُّ ٢٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ٢٩٥
الفوائِدُ التربويَّةُ ٣٠١
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٠٣
بلاغةُ الآياتِ ٣٠٧
الآيات (٨٠-٨٤) ٣١٧
غريبُ الكَلِماتِ ٣١٧
المَعْنَى الإجماليُّ ٣١٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣١٨
الفوائِدُ التربويَّةُ ٣٢٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٢٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٢٩
الآيات (٨٥-٨٧) ٣٣٨
غريبُ الكَلِماتِ ٣٣٨
المَعْنَى الإجماليُّ ٣٣٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٣٩
الفوائِدُ التربويَّةُ ٣٤٥
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٤٩
بلاغةُ الآياتِ ٣٥٣
الآيات (٨٨-٩٣) ٣٥٦
غَريبُ الكلماتِ ٣٥٦
المعنى الإجماليُّ ٣٥٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٥٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٦٦
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٣٦٨
بلاغةُ الآياتِ ٣٦٩
الآيات (٩٤-١٠٠) ٣٧٦
غريب الكلمات ٣٧٦
المعنى الإجماليُّ ٣٧٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٧٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٨٧

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٣٨٩
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٩١
الآيات (١٠١-١٠٣) ٣٩٤
غريبُ الكلماتِ................. ٣٩٤
المعنى الإجماليُّ................. ٣٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٤٠٠
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٤٠١
بلاغةُ الآياتِ.................. ٤٠٢
الآيات (١٠٤-١١٢) ٤١٠
غريب الكلمات................. ٤١٠
المعنى الإجماليُّ................. ٤١١
تَفسيرُ الآياتِ ٤١١
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٤١٩
بلاغة الآيات.................. ٤٢٢
الآيات (١١٣-١١٦) ٤٢٧
غريبُ الكلماتِ................. ٤٢٧
مُشْكِلُ الإعرابِ ٤٢٧
المعنى الإجماليُّ................. ٤٢٨
تَفسيرُ الآياتِ ٤٢٨
الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٤٣٢
بلاغة الآيات.................. ٤٣٣
الآيات (١١٧-١٢٦) ٤٣٦
غريبُ الكلماتِ................. ٤٣٦
المعنى الإجماليُّ................. ٤٣٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٤٤٦
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٤٤٧
بلاغة الآيات.................. ٤٥١
الآيات (١٢٧-١٢٩) ٤٦٠
غريبُ الكلماتِ................. ٤٦٠
المعنى الإجماليُّ................. ٤٦٠
تَفسيرُ الآياتِ ٤٦١
الفَوائِدُ التربويَّةُ................. ٤٦٦
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٦٨
بلاغة الآيات.................. ٤٦٩
الآيات (١٣٠-١٣٣) ٤٧٢
غريبُ الكلماتِ................. ٤٧٢
المعنى الإجماليُّ................. ٤٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ٤٧٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٤٨١
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٨٢
بلاغة الآيات.................. ٤٨٣
الآيات (١٣٤-١٣٧) ٤٨٦
غريبُ الكلماتِ................. ٤٨٦
المعنى الإجماليُّ................. ٤٨٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٨٧
الفَوائِدُ التربويَّةُ................. ٤٩٦
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٤٩٧
بَلاغةُ الآياتِ.................. ٤٩٨
الآيات (١٣٨-١٤١) ٥٠١
غريبُ الكلماتِ................. ٥٠١

مُشْكِلُ الإعرابِ ٥٠٢
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٠٣
تَفسيرُ الآياتِ ٥٠٣
الفَوائِدُ التربويَّةُ................. ٥١٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٥١١
بَلاغَةُ الآياتِ................. ٥١٤
الآيتان (١٤٢-١٤٣) ٥١٨
غريبُ الكلماتِ................. ٥١٨
مُشْكِلُ الإعرابِ ٥١٩
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٢٠
تَفسيرُ الآيتين.................. ٥٢٠
الفَوائِدُ التربويَّةُ................. ٥٢٦
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٥٢٧
بلاغة الآيتين ٥٣١
الآيتان (١٤٤-١٤٥) ٥٣٢
غريبُ الكلماتِ................. ٥٣٢
مُشكلُ الإعرابِ ٥٣٢
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٣٣
تَفسيرُ الآيتَيْنِ.................. ٥٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٥٤٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٤٠
بلاغةُ الآيتَينِ.................. ٥٤١
الآيتان (١٤٦-١٤٧) ٥٤٤
غريبُ الكلماتِ................. ٥٤٤
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٤٤
تَفسيرُ الآيتَيْنِ.................. ٥٤٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٥٥٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٥١
بَلاغةُ الآيتَينِ.................. ٥٥٢
الآيتان (١٤٨-١٤٩) ٥٥٤
غريب الكلمات................. ٥٥٤
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٥٤
تَفسيرُ الآيتَيْنِ.................. ٥٥٥
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٥٨
بلاغة الآيتين.................. ٥٦٠
الآيات (١٥٠-١٥٣) ٥٦٢
غريبُ الكلماتِ................. ٥٦٢
مُشْكِلُ الإعرابِ ٥٦٣
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٦٣
تَفسيرُ الآياتِ ٥٦٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٥٧٣
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٧٤
بَلاغَةُ الآياتِ................. ٥٧٤
الآيات (١٥٤-١٥٧) ٥٧٧
غريبُ الكلماتِ................. ٥٧٧
مُشْكِلُ الإعرابِ ٥٧٩
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٨١
تَفسيرُ الآياتِ ٥٨١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٥٩٨
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٩٩
بَلاغةُ الآياتِ................. ٦٠٣
الآية (١٥٨)..................... ٦٠٩

المعنى الإجماليُّ ٦٠٩
تَفسيرُ الآية ٦٠٩
الفَوائِد التربويَّة ٦١٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦١٦
بلاغةُ الآيةِ ٦١٨
الآيتان (١٥٩-١٦٠) ٦٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٢٠
مشكل الإعراب ٦٢٢
المعنى الإجماليُّ ٦٢٢
تَفسيرُ الآيتين ٦٢٣
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٦٢٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٢٨
بلاغة الآيتين ٦٢٩
الآيتان (١٦١-١٦٢) ٦٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٣٢
المعنى الإجماليُّ ٦٣٢
تَفسيرُ الآيتين ٦٣٣
الفَوائِد التربويَّة ٦٣٧
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٣٧
بلاغة الآيتين ٦٣٨
الآيات (١٦٣-١٦٦) ٦٤٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٤٤
المعنى الإجماليُّ ٦٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ٦٤٧
الفَوائِد التربويَّة ٦٥٥
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٥٥
بلاغة الآيات ٦٥٨
الآيات (١٦٧-١٧٠) ٦٦٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٦٠
المعنى الإجماليُّ ٦٦١
تَفسيرُ الآياتِ ٦٦٢
الفَوائِد التربويَّة ٦٧٢
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٧٤
بلاغة الآيات ٦٧٥
الآيات (١٧١-١٧٤) ٦٧٨
غريبُ الكَلِماتِ ٦٧٨
المَعنى الإجماليُّ ٦٧٩
تَفسيرُ الآياتِ ٦٧٩
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٦٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٨٧
بلاغةُ الآياتِ ٦٨٨
الآيات (١٧٥-١٧٨) ٦٩١
غريبُ الكَلِماتِ ٦٩١
المَعنى الإجماليُّ ٦٩٣
تَفسيرُ الآياتِ ٦٩٣
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٧٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٠٥
بلاغةُ الآياتِ ٧٠٧
الآيات (١٧٩-١٨٣) ٧١١
غريبُ الكَلِماتِ ٧١١
المَعنى الإجماليُّ ٧١٣
تَفسيرُ الآياتِ ٧١٣

الفَوائِدُ التربويَّةُ ٧٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٢٤
بلاغةُ الآياتِ ٧٢٧
الآيات (١٨٤-١٨٦) ٧٣٠
غريبُ الكَلِماتِ ٧٣٠
المَعنى الإجماليُّ ٧٣١
تَفسيرُ الآياتِ ٧٣١
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٧٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٣٧
بلاغةُ الآياتِ ٧٣٧
الآيتان (١٨٧-١٨٨) ٧٤١
غريبُ الكَلِماتِ ٧٤١
مُشكِلُ الإعرابِ ٧٤٢
المَعنى الإجماليُّ ٧٤٢
تَفسيرُ الآيتينِ ٧٤٣
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٧٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٥٠
بلاغةُ الآيتينِ ٧٥٠
الآيات (١٨٩-١٩٣) ٧٥٦
غريبُ الكَلِماتِ ٧٥٦
المَعنى الإجماليُّ ٧٥٧
تَفسيرُ الآياتِ ٧٥٧
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٧٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٦٥
بلاغةُ الآياتِ ٧٦٧
الآيات (١٩٤-١٩٨) ٧٧١
غريبُ الكَلِماتِ ٧٧١
المَعنى الإجماليُّ ٧٧١
تَفسيرُ الآياتِ ٧٧٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٧٧٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٧٩
بلاغةُ الآياتِ ٧٨٠
الآيات (١٩٩-٢٠٣) ٧٨٤
غريبُ الكَلِماتِ ٧٨٤
المَعنى الإجماليُّ ٧٨٦
تَفسيرُ الآياتِ ٧٨٦
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٧٩٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٠٢
بلاغةُ الآياتِ ٨٠٢
الآيات (٢٠٤-٢٠٦) ٨٠٩
غريبُ الكَلِماتِ ٨٠٩
المَعنى الإجماليُّ ٨١٠
تَفسيرُ الآياتِ ٨١٠
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٨١٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨١٨
بلاغةُ الآياتِ ٨٢٠
الفهرس ٨٢٦